التفسير المحرر
للقرآن الكريم

سورة الجاثية وسورة الأحقاف وسورة محمد

إعداد
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقًا

الإشراف العام
الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثالث والثلاثون

الدرر السنية
www.dorar.net

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الجاثية وسورة الأحقاف وسورة محمد)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٣ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية
التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثالث والثلاثون - سورة الجاثية وسورة الأحقاف وسورة محمد/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ
٦٠٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ١-٩٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن- سورة الجاثية - تفسير ٢- القرآن- سورة الأحقاف - تفسير ٣- سورة محمد - تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/٢٧٦٣

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٢٧٦٣
ردمك: ١-٩٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net
المملكة العربية السعودية
٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الجاثية وسورة الأحقاف و سورة محمد)

إعدادُ

القِسمِ العِلميِّ بمُؤَسَّسةِ الدُّرَرِ السَّنيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت

أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشرافُ العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

المجلد الثالث والثلاثون

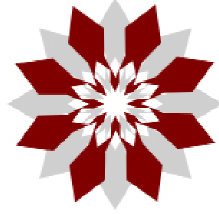
الدُّرَرُ السَّنيَّة

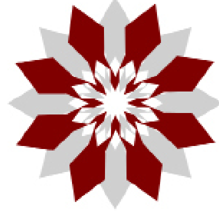
www.dorar.net

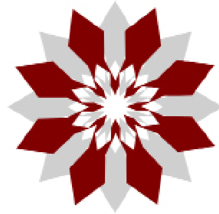
بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الجاثيةِ







سُورةُ الجاثيةِ

أسماءُ السُّورةِ:

تُسَمَّى هذه السُّورةُ بسُورةِ (الجاثيةِ)(١).

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ (الجاثيةِ) مَكِّيَّةٌ(٢)، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك(٣).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الجاثيةِ:

١- إثباتُ انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ(٤).

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ في كثيرٍ مِن المصاحِفِ وكُتُبِ التَّفسيرِ بسُورةِ الجاثيةِ؛ وذلك لِوُقوعِ لَفظِ «جاثية» فيها؛ في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨]، ولم يَقَعْ في مَوضِعٍ آخَرَ مِن القُرآنِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٣).

قال ابنُ عاشور: (وتُسَمَّى «حم الجاثية»... وتُسمَّى سورةَ «الشَّريعة»؛ لِوُقوعِ لَفظِ «شريعة» فيها؛ في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]، ولم يَقَعْ في مَوضِعٍ آخَرَ مِن القُرآنِ. وتُسمَّى سورةَ «الدَّهرِ»؛ لِوُقوعِ ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] فيها، ولم يَقَعْ لَفظُ «الدَّهرِ» في ذواتِ «حم» الأُخَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٣) بتصرف يسير.
ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٦٦)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٨٣).

(٢) وقيلَ: مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]؛ فنَزَل بالمدينةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٢)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٤).

(٣) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٤). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٦).

٢- تقريرُ البَعثِ، ووصْفُ بَعضِ أحوالِه، وحِكايةُ بعضِ أقوالِ المُشرِكينَ المتعَلِّقةِ به، والرَّدُّ عليها(١).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلتْ عليها هذه السُّورةُ الكريمةُ:

٣- افتُتِحَت هذه السُّورةُ بالثَّناءِ على القُرآنِ الكريمِ، والإشارةِ إلى آياتِ اللهِ المَبثوثةِ في الكَونِ.

٤- تَوعُّدُ الأفَّاكينَ بأشَدِّ أنواعِ العذابِ؛ لإصرارِهم على كُفرِهم، واتِّخاذِهم آياتِ اللهِ هُزُوًا.

٥- بيانُ جانبٍ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى على خَلْقِه.

٦- بيانُ مَوقِفِ بني إسرائيلَ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى، واختِلافِهم وبَغْيِهم.

٧- توجيهُ الأمرِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّمَسُّكِ بدِينِ اللهِ، واتِّباعِ شَريعتِه، ونَهْيُه عن اتِّباعِ أهواءِ الجاهِلينَ.

٨- حكايةُ بَعضِ أقوالِ الكافِرينَ الباطِلةِ، مع الرَّدِّ عليها بما يُبطِلُها، ويُثبِتُ كَذِبَها.

٩- بيانُ بَعضِ أهوالِ يومِ القيامةِ ومَشاهِدِها، وعاقِبةِ الأخيارِ، وعاقِبةِ الأشرارِ.

١٠- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بثَناءِ اللهِ سُبحانَه على ذاتِه بما هو أهلُه.



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ١٤٠).

الآيات (١-٦)

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ
٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٥ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ
نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿لَأٓيَٰتٖ﴾: أي: لَحُجَجًا ودَلالاتٍ، وتُطلَقُ الآيةُ أيضًا على: الموعظةِ، والعلامةِ، والعجيبةِ، وغيرِ ذلك، وأصلُ (أيي): النَّظرُ[١].

﴿يَبُثُّ﴾: أي: يُفَرِّقُ ويَنشُرُ، وأصلُ (بثث): يدُلُّ على تفريقِ الشَّيءِ[٢].

﴿دَآبَّةٍ﴾: الدَّابَّةُ هي كلُّ شَيءٍ دبَّ على وجهِ الأرضِ، ويُستعمَلُ في كلِّ حَيوانٍ، وفي الحشراتِ أكثَر، وأصلُ (دبب): حركةٌ على الأرض أخَفُّ مِن المَشْيِ[٣].

﴿يُوقِنُونَ﴾: أي: يَعلمونَ عِلمًا مُتمَكِّنًا في نُفوسِهم، لا يُمكِنُ أن يَدخُلَه شكٌّ، وأصلُ اليقينِ: زوالُ الشَّكِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨، ٩٠).

﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾: أي: تَحويلِها وتَقليبِها تارةً بالرَّحمةِ، وتارةً بالعَذابِ، وتارةً حارَّةً، وتارةً بارِدةً، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ[١].

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: ﴿حمٓ﴾، وهما مِن الحروف المقطَّعةِ الَّتي تأتي لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ، ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ هذا الكِتابَ العَظيمَ -وهو القُرآنُ- تنزيلٌ مِن عندِه سُبحانَه وتعالى، وهو سُبحانَه المتَّصِفُ بالأُلوهيَّةِ والعِزَّةِ والحِكمةِ.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ في خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ عَلاماتٍ للمُؤمِنينَ على كَمالِ قُدرتِه تعالى، وبَديعِ صُنعِه، وفي خَلقِ اللهِ للنَّاسِ وما يَنشُرُه من الدَّوابِّ عَلاماتٌ واضِحةٌ لِقَومٍ يُوقِنونَ بالحَقِّ فيُقِرُّونَ به، وفي اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ وتَعاقُبِهما دَومًا، وفيما أنزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِن ماءٍ، فأنبَتَ به الأرضَ بعدَ جَدْبِها، وفي تنويعِ الرِّياحِ في الجهاتِ والصِّفاتِ: عَلاماتٌ واضِحةٌ كذلك لِقَومٍ يَعقِلونَ.

ثمَّ خاطب اللهُ تعالى نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قائلًا له: تلك آياتُ اللهِ نَقرَؤُها عليك -يا محمَّدُ- بواسِطةِ جِبريلَ، وهي مُشتَمِلةٌ على الحَقِّ الَّذي لا باطِلَ فيه، فإنْ لم يُؤمِنِ المُشرِكونَ بهذا القُرآنِ فبأيِّ حَديثٍ بعدَ كِتابِ اللهِ وبعدَ حُجَجِه وآياتِه يُؤمِنونَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بهذَينِ الحَرفَينِ مِن الحروفِ المقطَّعةِ الَّتي تُستفتَحُ بها كثيرٌ مِن سوَرِ القرآنِ لبيانِ إعجازِه؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضَتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[١].

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾.

أي: تَنزيلُ القُرآنِ من عندِ اللهِ المتَّصِفِ بكَمالِ العِزَّةِ؛ فهو الغالِبُ القاهِرُ، العَظيمُ القَدْرِ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ نَقصٍ وعَيبٍ؛ والمُتَّصِفِ أيضًا بالحِكمةِ التَّامَّةِ في شَرْعِه وخَلْقِه وقَدَرِه؛ فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به[٢].

﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ تعالى أنَّ هذا الكِتابَ الكريمَ أنزَلَه العَزيزُ الحَكيمُ؛ أعقَبَ ذلك بنتائِجِ العِزَّةِ والحِكمةِ[٣]، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾.

أي: إنَّ في خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ لَعَلاماتٍ باهِرةً، ودلائِلَ واضِحةً على الحَقِّ للمُؤمنينَ دُونَ غَيرِهم[٤].

كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن

(١) يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سُورةِ البَقَرةِ (١/ ٦٤) من هذا ((التَّفسير المحرَّر)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٩).

فُرُوجٍ ۞ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۞ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ – ٨].

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَّرَ اللهُ سُبحانَه بالنَّظَرِ في آياتِ الآفاقِ، ونبَّه بخلقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ أتْبَعَ ذلك بذِكرِ آياتِ الأنفُسِ، وما بثَّ في الأرضِ[(١)].

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

أي: وفي خَلقِ اللهِ إيَّاكم -أيُّها النَّاسُ-، وخَلْقِه ما يَنشُرُه ويُفَرِّقُه مِن الدَّوابِّ بأنواعِها: دَلالاتٌ واضِحةٌ، وعَلاماتٌ باهِرةٌ لِقَومٍ يُوقِنونَ بالحَقِّ، فيُقِرُّونَ به، ويَعلَمونَ صِحَّتَه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩].

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٢، ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٩).

أي: وفي تَعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ دائِبَينِ لا يَفتُرانِ، واختِلافِهما في الطُّولِ والقِصَرِ، والنُّورِ والظُّلْمةِ، إلى غيرِ ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

أي: وفيما أنزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِن ماءٍ، فأنبَتَ به الأرضَ بعدَ جَدْبِها، فأخرَجَ منها أرزاقَ العِبادِ وأقواتَهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٩).
قال السعدي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سُورةِ البَقَرةِ (١٦٤): (﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وهو تَعاقُبُهما على الدَّوامِ؛ إذا ذهَبَ أحَدُهما خَلَفَه الآخَرُ، وفي اختِلافِهما في الحَرِّ والبَردِ والتَّوسُّطِ، وفي الطُّولِ والقِصَرِ والتَّوسُّطِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧).
وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالرِّزقِ هنا: المطرُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧).
قال الشنقيطي: (أوضَحَ بقَولِه: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أنَّ مُرادَه بالرِّزقِ المطَرُ؛ لأنَّ المطَرَ هو الَّذي يُحيي اللهُ به الأرضَ بعدَ مَوتِها، وقد أوضَحَ جَلَّ وعلا أنَّه إنَّما سُمِّيَ المطَرُ رزقًا؛ لأنَّ المطَرَ سَبَبُ الرِّزقِ في آياتٍ كَثيرةٍ مِن كِتابِه، كقَولِه تعالى في سورةِ البَقَرةِ: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٢]، والباءُ في قَولِه ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ سَبَبيَّةٌ كما ترى). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٧٧) و(٧/ ١٨٣).
وقيل: المرادُ بالرِّزقِ: المطَرُ وغَيرُه مِن الأسبابِ المُهَيِّئةِ لإخراجِ الرِّزقِ. وممَّن قال بهذا القولِ: البِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٩٣).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾.

أي: وفي تنويعِ الرياحِ بإرسالِها مِن جهاتٍ مُختَلِفةٍ -فتارةً تَهُبُّ مِن جهةٍ، وتارةً من أُخرَى- وبصِفاتٍ مُختلِفةٍ؛ فتارةً تكونُ حارَّةً، وتارةً باردةً، وتارةً تكونُ نافعةً، وتارةً ضارَّةً، وتارةً تكونُ رحمةً، وتارةً عذابًا... إلى غيرِ ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي: في اختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وإنزالِ المطرِ، وإحياءِ الأرضِ به، وتصريفِ الرِّياحِ- دَلالاتٌ واضِحاتٌ وعلاماتٌ باهِراتٌ على الحَقِّ لِقَومٍ يَعقِلونَ عن اللهِ تعالى حُجَجَه، ويَفهَمونَ ما وعَظَهم به مِنَ الآياتِ والعِبَرِ(٢).

كما قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٩).

وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: تلك آياتُ اللهِ نُخبِرُك بها -يا مُحمَّدُ- ونَقرَؤُها عليك بواسِطةِ جِبريلَ، مُشتَمِلةً على الحَقِّ والصِّدقِ الخالِصِ، الَّذي لا باطِلَ معه ولا كَذِبَ[1].

كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: فإنْ لم يُؤمِنِ المُشرِكونَ بهذا القُرآنِ فبأيِّ حَديثٍ بَعدَه يُؤمِنونَ ويَنتَفِعونَ ويَعتَبِرونَ؟! إذ لا أحسَنَ مِن القُرآنِ حَديثًا[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٨)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٧١) وَ(٢/ ٧٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٥ - ١٨٧).
قال البقاعي: (﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: الأمرِ الثَّابتِ الَّذي لا يُستطاعُ تَحويلُه؛ فليس بسِحرٍ ولا كَذِبٍ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٨).
قال الشوكاني: (﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بعدَ حديثِ اللهِ وبعدَ الآياتِ، فيَكونُ مِن بابِ: أعجَبَني زَيدٌ وكَرَمُه. وقيل: المرادُ: بعدَ حديثِ اللهِ، وهو القُرآنُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وهو المرادُ بالآياتِ، والعَطفُ لِمُجرَّدِ التَّغايُرِ العُنوانيِّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦).
وقال ابنُ عاشور: (وعَطَف ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾ على ﴿حَدِيثٍ﴾؛ لأنَّ المرادَ بها الآياتُ غيرُ القُرآنِ؛ مِن =

كما قال تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المرسلات: ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣].

الفَوائِدُ التَّربَوِيَّةُ:

قال تعالى: ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ إذا أنعَمَ العَبدُ نَظَرَه في استِواءِ قَدِّه وقامتِه، واستِكمالِ عَقلِه وتمامِ تَمييزِه، وما هو مَخصوصٌ به في جوارِحِه وحوائِجِه، ثمَّ فكَّر فيما عَداه مِن الدَّوابِّ؛ في أجزائِها وأعضائِها، ثمَّ وَقَف على اختِصاصِ وامتيازِ بني آدَمَ مِن بيْنِ البَرِيَّةِ مِن الحيواناتِ في الفَهمِ والعَقلِ والتَّمييزِ والعِلمِ، ثمَّ في الإيمانِ- عَرَف تَخَصُّصَهم بمناقِبِهم، وانفِرادَهم بفَضائِلِهم؛ فاستيَقَنَ أنَّ اللهَ كَرَّمهم، وعلى كثيرٍ مِن المخلوقاتِ قَدَّمهم[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ابتداءُ تَنزيلِ القُرآنِ مِنَ اللهِ تعالى، لا مِن جِبريلَ ولا غَيرِه؛ قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، فجِبريلُ نزَل به مِن عندِ اللهِ تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾[٢] [النحل: ١٠٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إثباتُ العُلُوِّ للهِ تعالى، ووجْهُ ذلك: الإخبارُ بنُزولِ الأشياءِ منه[٣]، والنُّزولُ إنَّما يكونُ مِن الأعلَى[٤].

= دلائِلِ السَّمواتِ والأرضِ مِمَّا تَقدَّمَ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]. ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٤).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ تلك الآياتِ لا أثَرَ لها في نُفوسِ مَن هم بخِلافِ المؤمِنينَ والَّذين يُوقِنونَ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ رَتَّبَها على ثلاثةِ مَقاطِعَ، والغَرَضُ: التَّنبيهُ على أنَّه لا بُدَّ مِن إفرادِ كُلِّ واحدٍ منها بنَظَرٍ تامٍّ شافٍ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ جُعِلَ خَلقُ النَّاسِ والدَّوابِّ آيةً للمَوصوفينَ بالإيقانِ؛ لأنَّ دَلالةَ الخَلقِ كائِنةٌ في نَفْسِ الإنسانِ وما يُحيطُ به مِن الدَّوابِّ[٣]. وقيل: لَمَّا كانت آياتُ الأنفُسِ أدَقَّ وأدَلَّ على القُدرةِ والاختيارِ بما لها مِنَ التَّجَدُّدِ والاختِلافِ، قال: ﴿لِقَوْمٍ﴾، أي: فيهم أهليَّةُ القيامِ بما يُحاوِلونَه ﴿يُوقِنُونَ﴾ أي: يَتجَدَّدُ لهم العُروجُ في دَرَجاتِ الإيمانِ إلى أن يَصِلوا إلى شَرَفِ الإيقانِ فلا يُخالِطَهم شَكٌّ في وَحدانيَّتِه[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لَمَّا كانت مَنافِعُ السَّماءِ غيرَ مُنحَصِرةٍ في الماءِ قال: ﴿مِنْ رِزْقٍ﴾، أي: مَطَرٍ وغَيرِه مِن الأسبابِ المُهَيِّئةِ لإخراجِ الرِّزقِ[٥]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٦٦).

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لَمَّا كان الماءُ بما يَحدُثُ عنه مِن الإنباتِ أوضَحَ دَلالةً مِن بقيَّةِ الآياتِ على البَعثِ، ومِن أجْلِ شِدَّةِ ظُهورِها ناط الأمرَ فيها بالعَقلِ فقال: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١].

٨- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيه سِتَّةُ براهينَ مِن براهينِ التَّوحيدِ الدَّالَّةِ على عَظَمتِه تعالى وجَلالِه، وكَمالِ قُدرتِه، وأنَّه المُستَحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه.

الأوَّلُ منها: خَلْقُه السَّمواتِ والأرضَ. الثَّاني: خَلْقُه النَّاسَ. الثَّالِثُ: خَلْقُه الدَّوابَّ. الرَّابعُ: اختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ. الخامِسُ: إنزالُ الماءِ مِن السَّماءِ، وإحياءُ الأرضِ به. السَّادِسُ: تَصريفُ الرِّياحِ.

وهذه البَراهينُ العَظيمةُ ثَلاثةٌ منها مِن براهينِ البَعثِ الَّتي يَكثُرُ في القُرآنِ العَظيمِ الاستِدلالُ بها على البَعثِ كَثرةً مُستَفيضةً.

والأوَّلُ مِن البراهينِ المذكورةِ: هو خَلقُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ خَلْقَه جَلَّ وعلا للسَّمَواتِ والأرضِ: مِن أعظَمِ البَراهينِ على بَعثِ النَّاسِ بعدَ الموتِ؛ لأنَّ مَن خَلَقَ الأعظَمَ الأكبَرَ لا شَكَّ في قُدرتِه على خَلْقِ الأضعَفِ الأصغَرِ.

وأمَّا الثَّاني مِنَ البَراهينِ المذكورةِ: فهو خَلْقُه تعالى للنَّاسِ المرَّةَ الأُولى؛ لأنَّ مَنِ ابتَدَع خَلْقَهم على غَيرِ مِثالٍ سابِقٍ: لا شَكَّ في قُدرتِه على إعادةِ خَلْقِهم مرَّةً أُخرى، كما لا يَخفَى.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٧).

وأمَّا البُرهانُ الثَّالِثُ منها -وهو إحياءُ الأرضِ بعدَ مَوتِها-: فإنَّه يَكثُرُ الاستِدلالُ به أيضًا على البَعثِ في القُرآنِ العَظيمِ؛ لأنَّ مَن أحيا الأرضَ بعدَ مَوتِها قادِرٌ على إحياءِ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم؛ لأنَّ الجَميعَ إحياءٌ بعدَ مَوتٍ[١].

٩- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ...﴾ هذا الكلامُ وإنْ كان مُوجَّهًا إلى قَومٍ لا يُنكِرون وُجودَ الإلهِ، وإنَّما يَزعُمون له شُركاءَ، وكان مَقصودًا منه ابتداءً إثباتُ الوَحدانيَّةِ؛ فهو أيضًا صالِحٌ لِإقامةِ الحُجَّةِ على المُعطِّلينَ الَّذين يَنفُون وُجودَ الصَّانعِ المُختارِ، وفي العرَبِ فَريقٌ منهم؛ فإنَّ أحوالَ السَّمواتِ كلَّها مُتغيِّرةٌ، والتَّغيُّرُ دَليلُ الحُدوثِ، وهو الحاجةُ إلى الفاعِلِ المُختارِ الَّذي يُوجِدُها بعْدَ العدَمِ ثمَّ يُعدِمُها[٢].

١٠- سُمِّيَت آياتُ القُرآنِ آياتٍ، وقيل: إنَّها آياتُ اللهِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٥٢]؛ لأنَّها عَلاماتٌ ودَلالاتٌ على اللهِ، وعلى ما أراد؛ فهي تدُلُّ على ما أخبَر به، وعلى ما أَمَر به ونهَى عنه، وتدُلُّ أيضًا على أنَّ الرَّسولَ صادِقٌ؛ إذ كانت مِمَّا لا يَستطيعُ الإنسُ والجِنُّ أن يأتوا بمِثْلِها، وقد تحَدَّاهم بذلك[٣].

١١- مِن أحسَنِ اللَّازِمِ وأبْيَنِه أنْ تُبيِّنَ للسَّامِعِ الحَقَّ، ثمَّ تقولَ له: أَيْشٍ تقولُ خِلافَ هذا؟ وأين تَذهَبُ خِلافَ هذا؟ قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]؛ فالأمرُ مُنحَصِرٌ في الحَقِّ والباطِلِ، والهُدى والضَّلالِ؛ فإذا عدَلْتم عن الهُدى والحَقِّ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٧١).

فأينَ العُدولُ وأين المَذهَبُ(١)؟!

١٢- مَن لم يَهتَدِ بما جاءت به الأنبياءُ فهو أبعدُ النَّاسِ عن الهُدى؛ قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ * وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨ - ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢) [آل عمران: ١٠١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ﴾ افتُتِحت السُّورةُ بالحَرفَيْنِ المُقطَّعَيْنِ من حُروفِ الهِجاءِ؛ لأنَّ أوَّلَ أغراضِها أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ؛ ففي حَرفَيِ الهِجاءِ رَمزٌ إلى عَجزِهم عن مُعارَضَتِه بعْدَ أنْ تَحدَّاهم؛ لذلك لم يَفعَلوا، وفي ذلك الافتِتاحِ تَشويقٌ إلى تَطَلُّعِ ما يأتي بعْدَه؛ لِلاهتِمامِ به(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾

- قولُه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو جُملةٌ مُركَّبةٌ مِن مُبتدأٍ وخبَرٍ، والكتابُ هو المَعهودُ، وهو ما نَزَل مِن القُرآنِ إلى تلك السَّاعةِ، والمقصودُ: إثباتُ أنَّ القرآنَ مُوحًى به مِن اللهِ تعالى إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُجعَلَ القُرآنُ مُسنَدًا إليه،

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٩٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٤) و(٢٥/ ٣٢٤).

ويُخبَرَ عنه فيُقالَ: القرآنُ مُنزَّلٌ مِن اللهِ العزيزِ الحَكيمِ؛ لأنَّ كَونَه مُنزَّلًا مِن اللهِ هو مَحَلُّ الجِدالِ، فيَقْتضي أنْ يكونَ هو الخبَرَ، ولو أذْعَنوا لِكَونِه تَنزيلًا لَمَا كان منهم نِزاعٌ في أنَّ تَنزيلَه مِن اللهِ، ولكنْ خُولِفَ مُقْتضى الظَّاهِرِ لِغَرضَينِ:

أحدُهما: التَّشويقُ إلى تَلقِّي الخبَرِ؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا الابتداءَ بتَنزيلِ الكِتابِ، اسْتَشْرفوا إلى ما سيُخبَرُ عنه؛ فأمَّا الكافِرونَ فيَترقَّبون أنَّه سيُلْقَى إليهم وَصْفٌ جَديدٌ لِأحْوالِ تَنزيلِ الكتابِ، فيَتهيَّؤون لِخَوضٍ جَديدٍ مِن جِدالِهم وعِنادِهم، والمُؤمِنون يَترقَّبون لِما يَزيدُهم يَقينًا بهذا التَّنزيلِ.

والغرَضُ الثَّاني: أنْ يُدَّعى أنَّ كَونَ القرآنِ تنزيلًا أمْرٌ لا يُختلَفُ فيه؛ فالَّذين خالَفوا فيه كأنَّهم خالَفوا في كَونِه مُنزَّلًا مِن عِندِ اللهِ، وهل يَكونُ التَّنزيلُ إلَّا مِن عِندِ اللهِ؟ فيَؤولُ إلى تأْكيدِ الإخبارِ بأنَّه مُنزَّلٌ مِن عِندِ اللهِ؛ إذ لا فرْقَ بيْن مَدلولِ كَونِه تَنْزيلًا وكَونِه مِن عِندِ اللهِ إلَّا باختلافِ مَفهومِ المَعنيَينِ دُونَ ماصَدَقَيْهما[1].

- وقيل: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو خَبرٌ بعدَ خبرٍ على أنَّه مصدرٌ أُطلِقَ على المفعولِ مُبالَغةً[2]. وهذا على الوجهِ بأنَّ ﴿حمٓ﴾ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ.

- قولُه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ في إضافةِ التَّنزيلِ إليه في هذا الموضِعِ وَجهانِ:

أحَدُهما: الافتِتاحُ بأنَّه كِتابٌ منه، كما يَفتَتِحُ الكاتِبُ كِتابَه به.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٥).

و(الماصَدَق): اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو الموصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا من ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٧).

الثَّاني: أنَّه أضافَه إليه تعظيمًا لِقَدْرِه، وتَضخيمًا لِشَأنِه عليه في الابتداءِ بإضافتِه إليه[١].

- وإيثارُ وَصْفَيِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ بالذِّكرِ هنا دونَ غَيرِهما مِن الأسماءِ الحُسْنى؛ لإشعارِ وَصْفِ العَزيزِ بأنَّ ما نزَلَ منه مُناسِبٌ لِعِزَّتِه؛ فهو كِتابٌ عَزيزٌ، أي: هو غالِبٌ لِمُعانِديه؛ وذلك لأنَّه أعجَزَهم عن مُعارَضتِه، ولإشعارِ وَصْفِ الحَكيمِ بأنَّ ما نزَلَ مِن عِندِه مُناسِبٌ لِحِكمَتِه؛ فهو مُشتمِلٌ على دَلائلِ اليَقينِ والحقيقةِ، ففي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ إعْجازَه مِن جانِبِ بَلاغتِه؛ إذ غلَبَتْ بَلاغةَ بُلغائِهم، ومِن جانِبِ مَعانيه؛ إذ أعْجَزَت حِكمتُه حِكمةَ الحُكماءِ[٢].

- وهذا الابتِداءُ بالتَّحدِّي بإعجازِ القُرآنِ، وأنَّه جاء بالحقِّ: تَوطئةٌ لِمَا سَيُذكَرُ بأنَّه حقٌّ، كما اقتضاهُ قولُه: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾[٣] [الجاثية: ٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّنبيهِ على الآياتِ التَّكوينيَّةِ الآفاقيَّةِ والأنْفُسيَّةِ[٤].

- وقولُه: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ واقِعٌ مَوقِعَ تَفصيلِ المُجمَلِ لِمَا جَمَعَتْه جُملةُ ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ٢]؛ باعتبارِ أنَّ آياتِ السَّمواتِ والأرْضِ وما عُطِفَ عليها إنَّما كانتْ آياتٍ للمُؤمِنينَ المُوقِنينَ، ولِلَّذين حصَلَ لهم العِلمُ بسَبَبِ ما ذكَّرَهم به القُرآنُ، وممَّا يُؤيِّدُ ذلك قولُه تعالَى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٧).

ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾[١] [الجاثية: ٦].

- وأُكِّدَ الكلامُ بحَرْفِ (إنَّ) وإنْ كان المُخاطَبون غيرَ مُنكِريه؛ لِتَنزيلِهم مَنزِلةَ المُنكِرِ لذلك بسَببِ عَدَمِ انتِفاعِهم بما في هذه الكائِناتِ مِن دَلالةٍ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالَى؛ وإلَّا فقدْ قال اللهُ تعالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[٢] [الزُّخرف: ٩].

- قولُه: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ لمْ يَأْتِ بالآياتِ مُفصَّلةً، بلْ أتَى بها مُجمَلةً؛ إحالةً على غَوامضَ يُثيرُها الفِكْرُ، ويُخبِرُ بكَثيرٍ منها الشَّرْعُ[٣].

- والمُرادُ بكَونِ الآياتِ في السَّمواتِ والأرْضِ أنَّ ذاتَ السَّمواتِ والأرضِ وعِدادَ صِفاتِها دَلائلُ على الوَحدانيَّةِ؛ فجُعِلَت السَّمواتُ والأرضُ بمَنزلةِ الظَّرْفِ لِمَا أُودِعَتْه مِن الآياتِ؛ لأنَّها مُلازِمةٌ لها بأدْنى نَظَرٍ. وجُعِلَت الآياتُ للمُؤمِنينَ؛ لأنَّهم الَّذين انْتَفَعوا بدَلالتِها، وعَلِموا منها أنَّ مُوجِدَها ومُقدِّرَ نِظامِها واحدٌ لا شَريكَ له[٤]، ولأنَّ في ضِمْنِ الإيمانِ العَقْلَ والتَّصديقَ[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣] عطْفَ خاصٍّ على عامٍّ؛ لِمَا في هذا الخاصِّ مِن التَّذكيرِ بنِعمةِ إيجادِ النَّوعِ؛ استِدْعاءً للشُّكرِ عليه[٦].

- قولُه: ﴿ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ... ﴾ البَثُّ: التَّوزيعُ والإكثارُ، وهو يَقْتضي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٦، ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧).

الخلْقَ والإيجادَ؛ فكأنَّه قيلَ: وفي خَلْقِ اللهِ ما يَبُثُّ مِن دابَّةٍ. وعُبِّرَ بالمُضارِعِ في ﴿يَبُثُّ﴾؛ لِيُفيدَ تَجدُّدَ البَثِّ وتَكرُّرَه باعتِبارِ اختلافِ أجناسِ الدَّوابِّ وأنْواعِها وأصْنافِها[1].

- والخِطابُ مُوجَّهٌ إلى المُشركينَ؛ ولذلك قال: ﴿لَأَيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وقال: ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾، دُونَ أنْ يُقالَ: لَآياتٍ لكمْ أو آياتٍ لكمْ، أي: هي آياتٌ لِمَن يَعلمونَ دَلالتَها مِن المُؤمِنينَ ومِن الَّذين يُوقِنون؛ إشارةً إلى أنَّ تلك الآياتِ لا أثَرَ لها في نُفوسِ مَن همْ بخِلافِ ذلك[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ ﴿مِن رِّزۡقٖ﴾، أي: مِن مَطَرٍ، وهو سبَبٌ للرِّزْقِ؛ عُبِّرَ عنهُ بذلك تَنبيهًا على كَونِه آيةً مِن جِهتَيِ القُدرةِ والرَّحْمةِ[3].

- وأُخِّرَ قولُه: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ عن إنْزالِ المطَرِ مع تَقدُّمِه عليهِ في الوُجودِ؛ إمَّا لِلإيذانِ بأنَّه آيةٌ مُستقِلَّةٌ، حيثُ لو رُوعيَ التَّرتيبُ الوُجوديُّ لَرُبَّما تُوهِّمَ أنَّ مَجموعَ تَصْريفِ الرِّياحِ وإنْزالِ المطَرِ آيةٌ واحِدةٌ. وإمَّا لأنَّ كَونَ التَّصريفِ آيةً ليس لِمُجَرَّدِ كَونِه مَبدأً لإنشاءِ المَطرِ، بلْ له ولِسائرِ المَنافِعِ الَّتي مِن جُمْلتِها سَوْقُ السُّفنِ في البِحارِ[4].

- وتَنكيرُ (آياتٍ) في المواقعِ الثَّلاثةِ [الجاثية: ٣، ٤، ٥]؛ للتَّفخيمِ كمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وكَيفًا[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث ذُكِرَ في آيةِ (البَقَرةِ) ثَمانيةُ دَلائلَ تَدْعو للإيمانِ، في قولِه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وذُكِرَ هاهنا سِتَّةُ أنواعٍ فقط، ولم يُذكَرِ الفُلْكُ والسَّحابُ: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٥]؛ والسَّببُ في ذلك: أنَّ مَدارَ الحَرَكةِ للفُلْكِ والسَّحابِ على الرِّياحِ المُختلِفةِ، فذِكْرُ الرِّياحِ -الَّذي هو كالسَّببِ- يُغْني عن ذِكْرِهما[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ اختلَفتِ الفواصلُ الثَّلاثُ لِاخْتلافِ الآياتِ في الدِّقَّةِ والظُّهورِ والجَلاءِ؛ فختَمَ الآيةَ الأُولى بقولِه: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، والثَّانيةَ بقولِه: ﴿يُوقِنُونَ﴾، والثَّالثةَ بقولِه: ﴿يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّه تعالى لَمَّا ذكَرَ العالَمَ ضِمْنًا -ولا بُدَّ له مِن صانعٍ مَوصوفٍ بصِفاتِ الكَمالِ، ومِن الإيمانِ بالصَّانعِ-؛ ناسَبَ خَتْمُ الأُولى بالمُؤمِنينَ، فكأنَّه قِيل لهمْ: إنْ كُنْتُم مِن المُؤمِنينَ فافْهَموا هذه الدَّلائلَ. ولَمَّا كان الإنسانُ أقربَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٤).

إلى الفَهْمِ مِن غَيرِه، وكان فِكْرُه في خَلْقِه وخلْقِ الدَّوابِّ ممَّا يَزيدُه يَقينًا في إيمانِه؛ ناسَبَ خَتْمُ الثَّانيةِ بقَولِه: ﴿يُوقِنُونَ﴾، أي: وإنْ كُنتم لَسْتُم مِن المُؤمِنينَ، بلْ أنتُم مِن طُلَّابِ الجَزْمِ واليَقينِ، فافْهَموا تلك الدَّلائلَ. ولَمَّا كان جُزئياتُ العالَمِ -مِنِ اخْتِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ وما ذكَرَه مَعَهما- ممَّا لا يُدرَكُ إلَّا بالعقلِ؛ ناسَبَ خَتْمُ الثَّالثةِ بقَولِه: ﴿يَعْقِلُونَ﴾، كأنَّه قال: وإنْ كُنتُم لَسْتُم مِن هؤلاءِ ولا مِن هؤلاءِ، فلا أقلَّ مِن أنْ تَكونوا مِن زُمْرةِ العاقلينَ؛ فاجْتَهِدوا في مَعرفةِ الدَّلائلِ، وهذا مِن بابِ التَّنزُّلِ[1].

وقيل: المعنى: أنَّ المُنصِفينَ لَمَّا نَظَروا في السَّمَواتِ والأرضِ؛ وأنَّه لا بُدَّ لهما مِن صانِعٍ؛ آمَنوا، فإذا نَظَروا في خَلقِ أنفُسِهم ونَحوِها ازدادوا إيمانًا فأيْقَنوا، فإذا نَظَروا في سائِرِ الحَوادِثِ عَقَلوا واستحكَمَ عِلمُهم[2]، فهو تَرَقٍّ مِن حالٍ شَريفٍ إلى ما هو أشرَفُ منه وأعلى[3].

- وقيل: المُرادُ بـ(المُؤمِنينَ)، وبـ(قَوْمٍ يُوقِنُونَ)، وبـ(قَوْمٍ يَعْقِلُونَ) واحدٌ، وهمُ المُؤمِنونَ بتَوحيدِ اللهِ؛ فحَصَلَ لهم اليقينُ وكانوا يَعقِلون، أي: يَعلَمون دَلالةَ الآياتِ، والمَعنى: أنَّ المؤمنينَ والَّذين يُوقِنون -أي يَعلَمون ولا يُكابِرون- والَّذين يَعقِلون دَلالةَ الآثارِ على المُؤثِّرِ، ونَظَروا النَّظَرَ الصَّحيحَ في شَواهِدِ السَّمواتِ والأرضِ، فعَلِموا أنْ لا بُدَّ لها مِن صانعٍ، وأنَّه واحِدٌ، فأيْقَنَ بذلك العاقِلُ منهم الَّذي كان مُتَرَدِّدًا، وازدادَ إيمانًا مَن كان مُؤمِنًا فصارَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٩، ٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤).

مُوقِنًا؛ فالمعنى: أنَّ الَّذين انتَفَعوا بالآياتِ هُمُ المُؤمنونَ العاقِلونَ، فوُزِّعَتْ هذه الأوصافُ على فَواصلِ هذه الآيِ؛ لأنَّ ذلك أوقَعُ في نَفْسِ السَّامعِ مِن إتْلاءِ بَعضِها لِبَعضٍ، وقُدِّمَ المُتَّصِفونَ بالإيمانِ؛ لِشَرَفِه، وجُعِلَ خلْقُ النَّاسِ والدَّوابِّ آيةً للمَوصوفينَ بالإيقانِ؛ لأنَّ دَلالةَ الخلْقِ كائنةٌ في نفْسِ الإنسانِ وما يُحِيطُ به مِن الدَّوابِّ، وجُعِلَ اخْتِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ، واختِلافُ حَوادثِ الجوِّ آيةً لِلَّذين اتَّصَفوا بالعقْلِ؛ لأنَّ دَلالتَها على الوَحدانيَّةِ بواسِطةِ لَوازِمَ مُتَرَتِّبةٍ بإدراكِ العَقلِ، وقدْ أومَأَ ذِكرُ هذه الصِّفاتِ إلى أنَّ الَّذين لم يَهْتُدوا بهذه الآياتِ لَيسوا مِن أصحابِ هذه الصِّفاتِ؛ ولذلك أعْقَبَه بقولِه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦] اسْتِفهامًا إنْكاريًّا بمَعنى النَّفيِ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ وبَيانُها بآياتِ اللهِ إشارةً إلى الآياتِ المذكورةِ في قولِه: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، وقولِه: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤]، وقولِه: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]. وإضافتُها إلى اسمِ الجَلالةِ؛ لأنَّ خَلْقَها على تلك الصِّفاتِ الَّتي كانتْ لها آياتٌ للمُستبصِرينَ. ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى حاضرٍ في الذِّهنِ غيرِ مَذكورٍ؛ لِما دلَّ عليه قولُه: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الجاثية: ٢]، أي: تلك آياتُ اللهِ المُنزَّلةُ في القُرآنِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧، ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٧٨-١١٨٢)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٣٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٩، ٣٣٠).

- وفي الإبهامِ في اسْمِ الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾ -وتَفسيرِه بـ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾-، وقُرْبِ المُشارِ إليه وهو (أي اسمُ الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾) مَوضوعٌ للبَعيدِ، وتَخصيصِ اسمِ (الله) الجامِعِ، وتَكريرِه، وإيثارِ صِيغةِ الجمْعِ ﴿نَتْلُوهَا﴾ للتَّعظيمِ: خطْبٌ خَطيرٌ، وشأْنٌ جَليلٌ في الاستِبعادِ[١].

- قولُه: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أسنَدَ جلَّ وعلا تِلاوتَها إلى نفْسِه؛ لأنَّها كلامُه الَّذي أنْزَلَه على رسولِه بواسِطةِ المَلَكِ، وأمَرَ المَلَكَ أنْ يَتلوَه عليه مُبلِّغًا عنه جلَّ وعلَا[٢].

- قولُه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بعْدَ آياتِ اللهِ. وتَقديمُ الاسمِ الجَليلِ (الله)؛ للمُبالَغةِ والتَّعظيمِ، كما في قَولِك: أعْجَبني زيدٌ وكرَمُه[٣]، أو أنَّ إضافةَ (بعْدَ) إلى اسمِ الجَلالةِ على تَقديرِ مُضافٍ دلَّ عليه ما تَقدَّمَ من قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ﴾، والتَّقديرُ: بعْدَ حَديثِ اللهِ، وهو كِتابُه وقُرآنُه، أي: بعْدَ سَماعِه[٤]، يعني: أنَّ القُرآنَ مِن بيْنِ الكُتُبِ المُنزَّلةِ آيةٌ مُبصِرةٌ، ومُعجِزةٌ باهرةٌ؛ فحِينَ لمْ يُؤمِنوا به فبأيِّ كِتابٍ بعْدَه يُؤمِنون؟! ويَعضُدُ هذا التَّأويلَ عطْفُ ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾ على ﴿ٱللَّهِ﴾، أي: بعْدَ كِتابِ اللهِ وآياتِه الباهرةِ وبَراهينِه السَّاطِعةِ، وهو مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ، وكذا تَرتُّبُ الفاءِ في ﴿فَبِأَيِّ﴾ على ما قبْلَه؛ فعلَى هذا: المُناسِبُ في الوجْهِ الأوَّلِ -وهو أنْ يُرادَ بقَولِه: ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ﴾: بعْدَ آياتِ اللهِ- أنْ يكونَ المُشارُ إليه بقولِه: ﴿تِلْكَ﴾: الآياتِ المُتقدِّمةَ، وفي الوجْهِ الثَّاني: الآياتِ التَّاليةَ، على نحْوِ: هذا أخوكَ. وهذا

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٠).

أجمَعُ؛ لأنَّه يَضُمُّ الدَّلائلَ المَنْصوبةَ مِن الآفاقيَّةِ والأنْفُسيَّةِ مع النُّصوصِ القاهرةِ، وحصَلَ منه التَّرقِّي مِن الأدْنَى إلى الأعْلَى في البَيانِ والكشْفِ، وتَبيَّنَ أنَّ بياناتِ النُّصوصِ هي الَّتي تُزِيلُ مِن ألْبابِ أربابِ العُقولِ الشُّكوكَ، وتُجْلِي الرِّيَبَ(١).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّأْييسِ والتَّعجيبِ(٢). وفيه تَقريعٌ وتَوبيخٌ وتَهديدٌ(٣).

- وعلى قراءةِ ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ -بالتَّاءِ الفوقيَّةِ(٤)- فهو الْتِفاتٌ(٥).



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٥).

(٤) قال ابن الجزري: (قرَأ المَدَنيَّانِ وابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو ورَوحٌ وحفصٌ بالغَيبِ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وقرأ الباقون بالخِطاب: [﴿تُؤْمِنُونَ﴾]). ((النشر في القراءات العشر)) (٢/ ٣٧١). ويُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

الآيات (٧-١١)

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَيۡلٞ﴾: الوَيلُ: كلمةُ دُعاءٍ بالهلاكِ والعذابِ، وتُستعمَلُ أيضًا في التَّحسُّرِ، وقيل: هي وادٍ في جهنَّمَ، أو ما يَسيلُ مِن صديدٍ في أصلِ جهنَّمَ، وأصْلُ الوَيلِ: الشَّرُّ وحُلولُه[١].

﴿أَفَّاكٍ﴾: أي: كذَّابٍ فاجِرٍ، والأفَّاكُ: كثيرُ الإفْكِ، وهو أسوأُ الكذبِ، وقيل: الإفكُ: صَرْفُ الشَّيءِ عمَّا يحِقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهَتِه[٢].

﴿أَثِيمٖ﴾: أي: كثيرِ الإثمِ، مُتجاوِزٍ في الظُّلمِ، وقيل: هو مرتكبُ الإثمِ بقلبِه وجوارِحِه، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، ومنه اشتُقَّ الإثمُ؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه[٣].

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (١/ ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، =

﴿هُزُوًا﴾: الهزوُ: الاستِخْفافُ، والسُّخريةُ. يُقالُ: هَزِئ به واستَهْزَأ، أي: استخفَّ به، وسَخِر منه[١].

﴿أَوْلِيَآءَ﴾: الأولياءُ: المعبوداتُ الَّتي يُوالونَها بالعبادةِ مِن دونِ الله، وأصْل (ولي): يدُلُّ على قُرْبٍ؛ سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[٢].

﴿رِّجْزٍ﴾: الرِّجزُ: سوءُ العذابِ وأليمُه، وأصلُ (رجز): يدُلُّ على الاضطِرابِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى أحوالَ المشركينَ معَ القرآنِ، ويُبيِّنُ مصيرَهم في الآخرةِ ويَتوعَّدُهم، فيقولُ: وَيْلٌ لكُلِّ كافرٍ كذَّابٍ مُفترٍ أثيمٍ، يَسمَعُ آياتِ اللهِ تُقرَأُ عليه، ثمَّ يُصِرُّ على كُفرِه مُستَكبِرًا كأنَّه لم يَسمَعْها! فبَشِّرْه -يا محمَّدُ- بعَذابٍ شَديدِ الإيلامِ.

وإذا عَرَف هذا الكذَّابُ الأثيمُ شَيئًا مِن آياتِ القُرآنِ استَهزأَ بها وسَخِرَ منها! فلأُولَئكَ عَذابٌ يُهينُهم، مِن ورائِهم نارُ جَهنَّمَ هي مَصيرُهم في الآخِرةِ، ولا يَدفَعُ عنهم ما كَسَبوه في الدُّنيا شيئًا مِن عذابِ اللهِ تعالى، ولا تَدفَعُ عنهم آلهتُهم

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠، ٣٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٤/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٦).

الَّتي عَبَدوها مِن دونِ اللهِ شيئًا مِن عذابِ اللهِ تعالى، ولهم عَذابٌ عَظيمٌ.

ثمَّ يخبِرُ اللهُ تعالى أنَّ هذا القُرآنَ هُدًى للنَّاسِ، وأنَّ الَّذين كَفَروا بآياتِ القُرآنِ لهم عَذابٌ مِن رِجْزٍ شَديدُ الإيلامِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ الآياتِ للكُفَّارِ، وبَيَّنَ أنَّهم بأيِّ حَديثٍ يُؤمِنونَ إذا لم يُؤمِنوا بها مع ظُهورِها؛ أتْبَعَه بوَعيدٍ عَظيمٍ لهم، فقال[١]:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ لكُلِّ كافرٍ كذَّابٍ مُفترٍ، مُبالِغٍ في اقترافِ الآثامِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

قيل: ﴿وَيْلٌ﴾ وادٍ في جهنَّمَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦).

قال الراغب: (ومَن قال: وَيْلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ وَيْلًا في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد: مَن قال اللهُ تعالى ذلك فيه فقد استحَقَّ مَقَرًّا من النَّارِ، وثَبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (الوَيلُ في كلامِ العَرَبِ: المصائِبُ والحُزنُ والشِّدَّةُ من هذه المعاني، وهي لفظةٌ تُستعمَلُ في الدُّعاءِ على الإنسانِ...، ومقتضى اللُّغةِ أنَّه الدُّعاءُ على أهلِ الإفكِ والإثمِ بالمعاني المتقدِّمة). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

وقال الشنقيطي: (الأظهرُ أنَّ لفظةَ ﴿وَيْلٌ﴾ كلمةُ عَذابٍ وهلاكٍ، وأنَّها مَصدرٌ لا فِعلَ له مِن =

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾.

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾.

أي: يَسمَعُ آياتِ القُرآنِ تُقرَأُ عليه، ثمَّ يُصِرُّ على كُفرِه وإثمِه مُستَكبِرًا عن الإيمانِ بها وقَبولِها واتِّباعِها، كأنَّه لم يَسمَعْها أصلًا[1]!

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: فبَشِّرْ -يا محمَّدُ- هذا الأفَّاكَ الأثيمَ المُعرِضَ عن آياتِ اللهِ، المُصِرَّ على كُفرِه وباطِلِه: بعَذابٍ مُوجِعٍ شَديدِ الإيلامِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى كُفرَ المُشرِكِ بما يَسمَعُ مِن الآياتِ؛ أَتْبَعَه ما هو أعَمُّ منه، فقال[3]:

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾.

= لَفظِه، وأنَّ المسَوِّغَ للابتداءِ بها -مع أنَّها نَكِرةٌ- كَونُها في مَعرِضِ الدُّعاءِ عليهم بالهَلاكِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧١).

أي: وإذا عَرَف شَيئًا -ولو قليلًا- مِن آياتِ القُرآنِ، استَهزأ بها، وسَخِرَ منها[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

أي: أولئك لهم عَذابٌ يُخزيهم ويُذِلُّهم ويُهينُهم[2].

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠﴾.

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾.

أي: لهم نارُ جَهنَّمَ يَصيرونَ إليها في الآخِرةِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩١، ١٩٢).

قيل: معنى ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ﴾: من أمامِهم. وممَّن ذهب لهذا: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والبغوي، والخازن، وأبو حيان، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢١٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩١، ١٩٢).

قال أبو السعود: (﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي: مِن قُدَّامِهم؛ لأنَّهم مُتوجِّهونَ إلى ما أُعِدَّ لهم، أو مِن خَلفِهم؛ لأنَّهم مُعرِضونَ عن ذلك مُقبِلونَ على الدُّنيا؛ فإنَّ الوراءَ اسمٌ للجِهةِ الَّتي يُواريها الشَّخصُ من خَلْفٍ وقُدَّام). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩).

قال ابن عطيَّة: (قولُه: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾ قال فيه بعضُ المفسِّرينَ: معناه: من أمامِهم، ... ولَحَظَ قائِلُ هذه المقالةِ الأمرَ مِن حيثُ تأوَّلَ أنَّ الإنسانَ كأنَّه مِن عُمُرِه يَسيرُ إلى جنَّةٍ أو نارٍ، فهما أمامَه، وليس لَفظُ الوَراءِ في اللُّغةِ كذلك، وإنَّما هو ما يأتي خَلْفَ الإنسانِ، وإذا اعتُبِرَ =

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا﴾.

أي: ولا يَدفَعُ عن الكُفَّارِ عذابَ جَهنَّمَ أيُّ شَيءٍ -ولو قليلًا- ممَّا كَسَبوه في الدُّنيا مِن الأموالِ أو الأولادِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ

= الأمرُ بالتَّقَدُّمِ أو التَّأَخُّرِ في الوُجودِ على أنَّ الزَّمانَ كالطَّريقِ للأشياءِ، استقام الأمرُ؛ فما يأتي بعدَ الشَّيءِ في الزَّمانِ فهو وراءَه، فكأنَّ ... جَهنَّمَ وإحراقَها للكَفَرةِ يأتي بعدَ كُفرِهم وأفعالِهم، وهذا كما تقولُ: افعَلْ كذا وأنا مِن ورائِك عَضُدًا، وكما تقولُ ذلك على التَّهديدِ: أنا مِن وراءِ التقَصِّي عليك، ونحوَ هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨١).

وقال ابنُ القَيِّم: (وهذا المذهَبُ ضَعيفٌ، ووَراءٌ: لا يكونُ أمامًا، كما لا يكونُ أمامٌ وراءً إلَّا بالنِّسبةِ إلى شَيئَينِ، فيكونُ أمامُ الشَّيءِ وراءً لِغَيرِه، ووراءُ الشَّيءِ أمامًا لِغَيرِه؛ فهذا الَّذي يُعقَلُ فيها، وأمَّا أن يكونَ وراءُ زَيدٍ بمعنى أمامَه فكَلَّا. وأمَّا ما استدَلُّوا به فلا حُجَّةَ فيه؛ فأمَّا قَولُه تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦] فالمعنى أنَّه مُلاقٍ جهنَّمَ بعدَ موتِه، فهي مِن بَعْدِه، أي: بَعدَ مُفارَقتِه الدُّنيا، فهي لَمَّا كانت بعدَ حياتِه كانت وراءَه؛ لأنَّ وراء كَبَعْد، فكما لا يكونُ بعدُ قَبْلًا فلا يكونُ وراءٌ أمامًا، وأنت لو قُلتَ: جَهنَّمُ بعدَ مَوتِ الكافِرِ لم يكُنْ فيها معنى قَبْلَ بوَجهٍ؛ فوراءٌ هاهنا زمانٌ لا مكانٌ؛ فتَأمَّلْه رَحِمَك اللهُ تعالى؛ فهي خَلفَ زَمانِ حَياتِه وبَعْدَه، وهي أمامَه ومُستَقبَلَتُه؛ فكَونُها خَلْفًا وأمامًا باعتبارَينِ، وإنَّما وقع الاشتِباهُ؛ لأنَّ بَعديَّةَ الزَّمانِ إنَّما تكونُ فيما يُستقبَلُ أمامَك، كقَولِك: بعدَ غَدٍ، ووورائيَّةَ المكانِ فيما تُخَلِّفُ وراءَ ظَهرِك، فـ ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦] ورائيَّةُ زَمانٍ لا مكانٍ، وهي إنَّما تكونُ في المُستقبَلِ الَّذي هو أمامَك، فلمَّا كان معنى الأمامِ لازِمًا لها ظَنَّ مَن ظَنَّ أنَّها مُشترَكةٌ، ولا اشتِراكَ فيها، وكذلك قَولُه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، وكذلك: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦]). ((بدائع الفوائد)) (٤/ ١٩٥، ١٩٦).

وقال ابن عاشور: (مَنْ فَسَّر وَراءَ بقُدَّامٍ، فما رَعى حَقَّ الكلامِ). يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٢، ١٩٣).

شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠].

﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾.

أي: ولا يَدفَعُ عنهم آلهتُهم الَّتي عَبَدوها في الدُّنيا مِن دونِ اللهِ، أو رُؤساؤُهم الَّذين أطاعوهم في الكُفرِ باللهِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: ولهم عَذابٌ كبيرٌ شَديدٌ[2].

﴿هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى آياتِه القُرآنيَّةَ والعِيانيَّةَ، وأنَّ النَّاسَ فيها على قِسمَينِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٢، ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٩).

أخبَرَ عن القُرآنِ المُشتَمِلِ على هذه المطالِبِ العاليةِ أنَّه هُدًى[(١)].

﴿هَٰذَا هُدًى﴾.

أي: هذا القُرآنُ هُدًى يُبيِّنُ الحَقَّ مِن الباطِلِ، ويَدُلُّ مَنِ اتَّبَعه إلى الصِّراطِ المُستَقيمِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿أَلِيمٌ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرَّفعِ وصْفًا للعذابِ، أي: عذابٌ أليمٌ مِن رِجزٍ[(٣)].

٢- قِراءةُ ﴿أَلِيمٍ﴾ بالجَرِّ وصفًا للرِّجْزِ، أي: عذابٌ مِن رِجزٍ أليمٍ[(٤)].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٤، ١٩٦).

(٣) قرأ بها ابنُ كثير، ويعقوبُ، وحفصٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٩٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٨).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٩٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٨).

أي: والَّذين كَفَروا بآياتِ القُرآنِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ، فلم يُؤمِنوا ويَعمَلوا بها: لهم عَذابٌ مِن جنسِ العذابِ المُوجِعِ شَديدِ الإيلامِ(١)!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فتوعَّدَ اللهُ تعالى مَن تَرَكَ الاستِدلالَ بآياتِه(٢)، وذَمَّ الَّذين يُعرِضونَ عن سَماعِ القُرآنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٩، ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥).

قيل: الرِّجزُ هو أشَدُّ العذابِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشري، وابنُ عطية، والرازي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٥).

قال الشنقيطي: (وقَولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أصحُّ القَولَينِ فيه أنَّ المرادَ بالرِّجزِ: العَذابُ، ولا تَكرارَ في الآيةِ؛ لأنَّ العذابَ أنواعٌ مُتفاوِتةٌ، والمعنى: لهم عَذابٌ مِن جِنسِ العَذابِ الأليمِ، والأليمُ معناه المُؤلِمُ. أي: الموصوفُ بشِدَّةِ الألمِ وفَظاعتِه). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٩٦).

وقيل: المرادُ بالرِّجزِ: الرِّجسُ الَّذي هو النَّجاسةُ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٠).

وفسَّر البِقاعي الرِّجزَ بأنَّه عِقابٌ قَذِرٌ شَديدٌ جدًّا، عظيمُ القَلقَلةِ والاضطرابِ، مُتتابِعُ الحَرَكاتِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٨/ ٧٤).

قال الرازي: (وقُرِئَ ﴿أَلِيمٌ﴾ بالجَرِّ والرَّفعِ؛ أمَّا الجَرُّ فتَقديرُه: لهم عَذابٌ مِن عذابٍ أليمٍ، وإذا كان عَذابُهم مِن عذابٍ أليمٍ كان عذابُهم أليمًا، ومَن رَفَع كان المعنى: له عَذابٌ أليمٌ، ويكونُ المرادُ مِن الرِّجزِ الرِّجْسَ الَّذي هو النَّجاسةُ، ومعنى النَّجاسةِ فيه قَولُه: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦]، وكأنَّ المعنى: لهم عَذابٌ مِن تَجَرُّعِ رِجسٍ أو شُرْبِ رِجسٍ، فتكونُ ﴿مِن﴾ تَبيينًا للعَذابِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٨).

وتَدَبُّره إلى سَماعِ غَيرِه، كما قال اللهُ تعالى أيضًا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] [لقمان: ٦، ٧].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ عُلِمَ بهذا الوَصفِ أنَّ كُلَّ مَن لم تَرُدَّه آياتُ اللهِ تعالى كان مُبالِغًا في الإثمِ والإفكِ؛ فكان له الوَيلُ[2]!

٢- لم يَجِئْ إعدادُ العذابِ المُهينِ في القُرآنِ إلَّا في حَقِّ الكُفَّارِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: ٩]، وقَولِه عزَّ جَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧]، وقَولِه: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢]، وقولِه: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقولِه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3] [الحج: ٥٧].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية- المجموعة الثامنة)) (١/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٢).

قَولُه تعالى في هذه الآيةِ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: لأنَّ عَذابَ الكُفَّارِ الَّذين كانوا يَستَهزِئونَ بآياتِ اللهِ لا يُرادُ به إلَّا إهانتُهم وخِزيُهم وشِدَّةُ إيلامِهم بأنواعِ العَذابِ، وليس فيه تَطهيرٌ ولا تمحيصٌ لهم، بخِلافِ عُصاةِ المُسلِمينَ؛ فإنَّهم وإن عُذِّبوا فسيَصيرون إلى الجنَّةِ بَعدَ ذلك العَذابِ؛ فليس المقصودُ بعَذابِهم مُجرَّدَ الإهانةِ، بل لِيَؤُولوا بَعدَه إلى الرَّحمةِ ودارِ الكرامةِ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أعقبَ ذِكرَ المُؤمِنينَ المُوقِنينَ العاقِلينَ المُنتفِعينَ بدَلالةِ آياتِ اللهِ، وما يُفيدُه مَفهومُ تلك الصِّفاتِ الَّتي أُجْرِيَتْ عليهم مِن تَعريضٍ بالَّذين لمْ يَنتَفِعوا بها؛ بصَريحِ ذِكرِ أولئك الَّذين لمْ يُؤمِنوا ولم يَعقِلوها، كما وصَفَ لذلك قولَه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[2] [الجاثية: ٦].

- وافتُتِحَ الكَلامُ بالوَيلِ له؛ تَعجيلًا لإنْذارِه وتَهديدِه قبْلَ ذِكرِ حالِه، و(وَيلٌ له) كَلمةُ دُعاءٍ بالشَّرِّ، وأصْلُ الوَيلِ: الشَّرُّ وحُلولُه[3].

- والأثيمُ: صِفةُ مُبالَغةٍ، أو صِفةٌ مُشبَّهةٌ، وهو يدُلُّ على المُبالِغِ في اقتِرافِ الآثامِ، أي: الخَطايا[4].

- وجُعِلَت حالُ الأفَّاكِ الأثيمِ أنَّه ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾؛

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٤).

لأنَّ تلك الحالةَ -وهي حالةُ تَكرُّرِ سَماعِه آياتِ اللهِ، وتَكرُّرِ إصْرارِه مُستكبِرًا عنها- تَحمِلُه على تَكريرِ تَكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَكريرِ الإثْمِ؛ فلا جَرَمَ أنْ يكونَ أفَّاكًا أثيمًا، بَلْهَ ما تَلبَّسَ به مِن الشِّركِ الَّذي كلُّه كذِبٌ وإثْمٌ[1].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ حرْفُ (ثُمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ ذلك الإصرارَ بعْدَ سَماعِ مِثلِ تلك الآياتِ أعظَمُ وأعجَبُ؛ فهو يُصِرُّ عِندَ سَماعِ آياتِ اللهِ، وليس إصْرارُه مُتأخِّرًا عن سَماعِ الآياتِ[2].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿يُصِرُّ﴾؛ لِدَلالةِ المَقامِ عليه، أي: يُصِرُّون على كُفْرِهم، كما دلَّ على ذلك قولُه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾[3] [الجاثية: ٦].

- وفي قولِه: ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ شَبَّه حالَهم في عَدَمِ انتِفاعِهم بالآياتِ بحالِهم في انتِفاءِ سَماعِ الآياتِ، أي: يَصِيرُ مِثلَ غَيرِ السَّامعِ، وهذا التَّشبيهُ كِنايةٌ عن وُضوحِ دَلالةِ آياتِ القُرآنِ بحيثُ إنَّ مَن يَسمَعُها يُقِرُّ ويؤْمِنُ بما دلَّتْ عليه، فلَولا إصْرارُهم واستِكبارُهم لَانْتَفَعوا بها[4].

- قولُه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أُطلِقَ على الإنذارِ اسمُ البِشارةِ -الَّتي هي الإخبارُ بما يَسُرُّ- على طَريقةِ التَّهكُّمِ[5]، وذلك بناءً على أنَّ البشارةَ لا تكونُ إلا فيما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢).

يَسرٌ.

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وقال في سُورةِ (لُقمانَ): ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]؛ فقال: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، واسْتَغْنى الكلامُ عنه في سُورةِ (الجاثيةِ)، مع أنَّ القِصَّتينِ مُشْتَبِهتانِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ هذا الكافرَ لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عنه في سُورةِ (لُقمانَ) أنَّه يُعرِضُ عن القُرآنِ إذا سمِعَه، غيرَ مُنتفِعٍ به حتَّى كأنَّه لم يَسمَعْه، وتَستمِرُّ به هذه الحالُ كما تَستمِرُّ لِمَن به صَمَمٌ، وقولُه في (الجاثيةِ): ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يدُلُّ على ما دلَّ عليه: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾؛ لأنَّ الإصرارَ عزْمٌ لا يُهَمُّ معه بإقلاعٍ، فإذا أصَرَّ على التَّصامِّ، فهو كمَن في أُذُنَيه وَقْرٌ، فصارَ أحدُ اللَّفظَينِ يُغْني عن الآخَرِ، ويقومُ مَقامَه، ويُؤدِّي مِن المعنى أداءَهُ؛ فلذلك لم يُجمَعْ بيْنَهما، وكان الموضعُ الَّذي ذُكِرَ فيه: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أحقَّ بقولِه: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، والموضعُ الَّذي ذُكِر فيه الإصرارُ على تَرْكِ الاستماعِ، أغْنى عن ذِكرِ ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾[1].

وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه لَمَّا كان الإصْرارُ معناهُ الدَّوامُ المُتحكِّمُ، لم يَذكُرِ الوَقْرَ الَّذي هو مِن الأمراضِ الثَّابتةِ في سُورةِ (الجاثيةِ)، كما ذكَرَه في سُورةِ (لُقمانَ)[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾، أي: اتَّخذَ الآياتِ هُزوًا، ولم

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٨٤، ١١٨٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٠).

يَقُلْ: (اتَّخَذه)؛ للإشعارِ بأنَّه إذا أحسَّ بشَيءٍ مِن الكلامِ أنَّه مِن جُملةِ الآياتِ الَّتي أنْزَلَها اللهُ تعالَى على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، خاضَ في الاستِهزاءِ بجَميعِ الآياتِ، ولم يَقتصِرْ على الاستِهزاءِ بما بلَغَه. ويَحتمِلُ: وإذا عَلِمَ مِن آياتِنا شَيئًا يُمكِنُ أنْ يَتشبَّثَ به المُعانِدُ، ويَجِدَ له مَحْملًا يَتسلَّقُ به على الطَّعنِ والغَميزةِ؛ افْتَرَصَه واتَّخَذَ آياتِ اللهِ هُزوًا[1].

- وجِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم أحْرِياءُ بما ذُكِرَ؛ مِن أجْلِ ما قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن الأوصافِ، مِن قولِه تعالَى: ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ إلى قولِه: ﴿هُزُوًا﴾[2].

- وفي قولِه: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وصَفَ العذابَ بالإهانةِ؛ تَوفيةً لِحَقِّ استِكبارِهم واسْتِهزائِهم بآياتِ اللهِ سُبحانه وتعالَى[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾ بيانٌ لِجُملةِ ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وفي قولِه: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾ تَحقيقٌ لِحُصولِ العذابِ، وكَونِه قَريبًا منْهم، وأنَّهم غافِلون عن اقْتِرابِه[4].

- وعطَفَ جُملةَ ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا﴾ على جُملةِ ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٣).

لأنَّ ذلك مِن جُملةِ العَذابِ المُهِينِ؛ فإنَّ فِقدانَ الفِداءِ، وفِقدانَ الولِيِّ ممَّا يَزِيدُ العذابَ شِدَّةً، ويَكسِبُ المُعاقَبَ إهانةً[١].

- وعُدِّيَ الإغناءُ بحَرْفِ (عن)؛ لِتَضْمينِه معنى (يَدفَعُ)، فكأنَّه عبَّرَ بفِعلَينِ: لا يُغْنِيهم، ولا يَدفَعُ عنهم[٢].

- وتَنْكيرُ ﴿شَيْـًٔا﴾ للتَّقليلِ، أي: لا يَدفَع عنهم ولو قَليلًا مِن جهنَّمَ، أي: عَذابِها[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ﴾ عطْفٌ على ﴿مَّا كَسَبُواْ﴾، وأُعِيدَ حرْفُ النَّفيِ (لا) للتَّأكيدِ[٤].

- وأُردِفَ ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ بعطْفِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ لإفادةِ أنَّ لهم عذابًا غيرَ ذلك، وهو عَذابُ الدُّنيا بالقتْلِ والأسْرِ[٥]، أو: لأنَّ كَونَ العذابِ مُهينًا يدُلُّ على حُصولِ الإهانةِ مع العذابِ، وكَونَه عَظيمًا يدُلُّ على كَونِه بالِغًا إلى أقصى الغاياتِ في كَونِه ضَررًا[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ استِئنافٌ ابْتِدائيٌّ، انتُقِلَ به مِن وَصْفِ القُرآنِ في ذاتِه بأنَّه مُنزَّلٌ مِن اللهِ، وأنَّه مِن آياتِ اللهِ؛ إلى وَصْفِه بأفْضلِ صِفاتِه بأنَّه هُدًى[٧].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٣٣، ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٥).

- ولَمَّا عَدَّ تعالَى أنواعَ اسْتِخفافِهم وتَكذيبِهم بالقُرآنِ، ووَصَفهم بالكذِبِ، والإفْكِ، والإثْمِ، والاستِكبارِ، ورتَّبَ عليه البِشارةَ بالعَذابِ، وحَكَى عن اسْتِهزائِهم وانْتِهازِ فُرْصَتِهم لِيَستَخِفُّوا به، ورتَّبَ عليه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ عيَّنه تَعْيينًا، ومَيَّزَه تَمْييزًا، وجعَلَه كالعَلَمِ المُشارِ إليه بالحُسنِ. ونكَّرَ المَصْدرَ الواقعَ خبرًا تَنكيرَ تَهويلٍ ومُبالَغةٍ، فقال: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾، أي: هذا المُتميِّزُ المُشخَّصُ كامِلٌ في الهِدايةِ، ليس بخافٍ على كُلِّ ذي بَصيرةٍ أنَّه ليس بمَكانٍ للتَّكذيبِ والاستِهزاءِ، والَّذين كذَّبوا به، واسْتَكْبروا عن قَبولِه، وأعْرَضوا عنه بالاسْتِهزاءِ؛ لهم عَذابٌ بعْدَ عَذابٍ(١).

- وجُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿هَٰذَا هُدًى﴾، قيل: والمُناسَبةُ: أنَّ القرآنَ مِن جُملةِ آياتِ اللهِ، وأنَّه مُذكِّرٌ بها؛ فالَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ كَفَروا بالقُرآنِ في عُمومِ الآياتِ، وهذا واقعٌ مَوقِعَ التَّذييلِ لِمَا تَقدَّمَه ابْتِداءً مِن قَولِه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾(٢) [الجاثية: ٧].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، أي: بالقُرآنِ، وإنَّما وُضِعَ مَوضعَ ضَميرِه -حيث لم يُقَلْ: (كفروا به)-؛ لِزيادةِ تَشْنيعِ كُفْرِهم به، وتَفْظيعِ حالِهم(٣).

- وجِيءَ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ لِما تُشعِرُ به الصِّلةُ مِن أنَّهم حَقِيقونَ بالعِقابِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٥).

- واستُحْضِروا في هذا المَقامِ بعُنوانِ الكُفرِ دُونَ عُنْوانَيِ الإصرارِ والاستِكبارِ اللَّذَينِ استُحْضِروا بهما في قولِه: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ [الجاثية: ٨]؛ لأنَّ الغرَضَ هنا النَّعيُ عليهم إهمالَهم الانْتِفاعَ بالقُرآنِ، وهو النِّعمةُ العُظْمى الَّتي جاءتْهم مِن اللهِ، فقابَلوها بالكُفرانِ عِوَضًا عن الشُّكرِ(١).

- وتَنوينُ ﴿عَذَابٌ﴾ للتَّفخيمِ(٢).

- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ في اقْتِرانِ ذِكرِ (الرَّبِّ) مع الآياتِ، وذِكرِ (اللهِ) في قولِه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٦]: إشعارٌ بأنَّ تلك التِّلاوةَ وذلك الإرشادَ لَمْ يكُنْ إلَّا لِمَحْضِ الإنعامِ، والكافِرون عكَسوا القضيَّةَ، فكَفَروا بَدَل الشُّكرِ؛ ولذلك جِيءَ بقولِه: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ [الجاثية: ١٢]، وبقولِه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [الجاثية: ١٣]، وختَمَ الأولى بقولِه: (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، والثَّانيةَ بقولِه: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لِيُنبِّهَ بالشُّكرِ على الإنعامِ، وبالتَّفكُّرِ على أنَّ ذلك الإنعامَ أيضًا دَليلٌ من الدَّلائلِ السَّابقةِ، وأُخِّرَت مِن أخَواتِها تَطرِئةً للتَّنبيهِ. وعُلِمَ مِن ذلك أنَّ التَّفكُّرَ مِلاكُ التَّعقُّلِ والإيقانِ والإيمانِ(٣).

- وأيضًا هذه الآيةُ ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ مِن الاحتِباكِ(٤)، حيثُ ذَكَر الهُدَى أوَّلًا دَليلًا على الضَّلالِ ثانيًا، والكُفرَ والعذابَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٤) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا =

ثانيًا دَليلًا على ضِدِّهما أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّه ذَكَر السَّببَ المُسعِدَ ترغيبًا فيه، والمُشقيَ ترهيبًا منه[١].



= اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٤).

الآيات (١٢-١٥)

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾
وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾
قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ
عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلْفُلْكُ﴾: أي: السُّفُنُ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (فلك): يدُلُّ على استِدارةٍ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيتْ فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[١].

﴿وَسَخَّرَ﴾: أي: ذلَّلَ، والتَّسخيرُ: سياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قهرًا، وأصلُ (سخر) هنا: يدُلُّ على استِذْلالٍ[٢].

﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾: أي: وقائعَ اللهِ بأعدائِه، مِن قَولِهم لوقائِعِ العَرَبِ: أيَّامُ العَرَبِ. أو ثَوابَ اللهِ وعِقابَه[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾

﴿يَغْفِرُوا۟﴾: فِعلٌ مُضارِعٌ مَجزومٌ، وفي سَبَبِ جَزْمِه أوجُهٌ؛

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨). ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٣).

أحَدُها: أنَّه واقِعٌ في جَوابِ الأمرِ ﴿قُل﴾.

الثَّاني: أنَّه واقِعٌ في جوابِ شَرطٍ مُقَدَّرٍ بعدَ ﴿قُل﴾، أي: إنْ تَقُلْ لهم اغْفِروا يَغْفِروا.

الثَّالِثُ: أنَّه مجزومٌ بلامِ أمرٍ مَحذوفةٍ، تقديرُه: لِيَغفِروا، فحُذِفَتْ وبَقِيَ عَمَلُها(١).

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ اللهُ تعالى جانبًا مِن النِّعمِ الَّتي أنعَم بها على خَلقِه، فيقول: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي ذَلَّل لكم -أيُّها النَّاسُ- البَحرَ؛ لِتَسيرَ فيه السُّفُنُ بأمْرِه سُبحانَه، ولِتَطلُبوا مَعايشَكم وأرزاقَكم مِن خِلالِه، ولَعَلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على نِعَمِه، وذلَّل اللهُ لكم ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ؛ لِمَنافِعِكم، وكُلُّ ذلك مِنه وَحْدَه سُبحانَه، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ واضِحاتٍ لِقَومٍ يَتفكَّرونَ.

ثمَّ يأمُرُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَحُضَّ المؤمنينَ على التَّجاوُزِ والصَّفحِ عن المشركينَ الَّذين يُؤذونَهم حتَّى يأتيَ اللهُ بأمرِه، فيقولُ تعالى: قُلْ -يا محمَّدُ- لِلَّذين آمَنوا يَتجاوَزوا عن أذى الكُفَّارِ الَّذين لا يَرجُونَ ثوابَ الله، ولا يَخافونَ وقائِعَه في العاصِينَ، ويَصبِروا على أذاهم؛ لِيَجزيَ اللهُ أعداءَهم بما كَسَبوه مِن آثامٍ، فيُعَذِّبَهم.

ثمَّ يُؤكِّدُ اللهُ تعالى على عدالةِ الجزاءِ، فيقولُ: مَن عَمِلَ في الدُّنيا بطاعةِ اللهِ، فنَفْعُ ذلك له، ومَن عَمِلَ بالكُفرِ والمعاصي فضَرَرُ ذلك على نَفْسِه لا على غَيرِه، ثمَّ إلى رَبِّكم تُرجَعونَ -أيُّها النَّاسُ- فيُجازيكم على أعمالِكم؛ خَيرِها وشَرِّها.

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٥)، ((معانى القرآن)) للأخفش (١/ ٨٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٩٥)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٠٤-١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه وتعالى صِفةَ الرُّبوبيَّةِ؛ ذكَرَ بَعضَ آثارِها وما فيها من آياتِه[1].

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي ذَلَّل لكم البَحرَ -أيُّها النَّاسُ-؛ لِتَسيرَ فيه السُّفُنُ بأمْرِه وإذْنِه وتَيسيرِه[2].

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾.

أي: ولِتَطلُبوا مَعايشَكم وأرزاقَكم الَّتي هي مِن فَضلِ الله تعالى عليكم؛ كنَقلِ البَضائِعِ، وصَيدِ الأسماكِ، وغيرِ ذلك[3].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: ولعَلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على نِعَمِه العَظيمةِ الَّتي تَحصُلُ بتَسخيرِه لكم البَحرَ، فتُوَحِّدونَه، وتُطيعونَه فيما أمرَكم به ونهاكم عنه[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٤، ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

قال ابنُ عطية: (الابتِغاءُ مِن فَضلِ الله: هو بالتِّجارةِ في الأغلَبِ، وكذلك مقاصِدُ البَرِّ مِن حَجٍّ أو جهادٍ هي أيضًا ابتغاءُ فَضلٍ، والتَّصَيُّدُ فيه هو ابتغاءُ فَضلٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥).

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى آيةَ البَحرِ لِعَظَمتِها؛ عمَّ بمنافِعِ الخافِقَينِ؛ دَلالةً على أنَّه ما خَلَق ذلك كلَّه على عِظَمِه إلَّا لنا؛ تنبيهًا على أنَّ الأمرَ عَظيمٌ[(١)].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾.

أي: وذلَّل اللهُ لكم -أيُّها النَّاسُ- ما في السَّمَواتِ مِن شَمسٍ وقَمَرٍ، ونُجومٍ وسَحابٍ، ومَطَرٍ وهواءٍ، وغيرِ ذلك، وما في الأرضِ مِن شَجَرٍ وجِبالٍ، ومِياهٍ ودوابَّ ومَعادِنَ... وغَيرِ ذلك؛ لِمَنافِعِكم، وجميعُ ذلك مِنَ اللهِ وَحْدَه[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: إنَّ في ذلك الأمرِ العَظيمِ، وهو تَسخيرُه كُلَّ شَيءٍ في الكَونِ لِعبادِه: لَدَلالاتٍ واضِحاتٍ، وعلاماتٍ باهِراتٍ على الحَقِّ لِقَومٍ يَتفَكَّرونَ فيها[(٣)].

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا علَّمَ عِبادَه دَلائِلَ التَّوحيدِ والقُدرةِ والحِكمةِ؛ أتْبَعَ ذلك بتَعليمِ الأخلاقِ الفاضِلةِ، والأفعالِ الحَميدةِ(١).

وأيضًا فمُناسَبةُ وُقوعِ هذه الآيةِ هنا أنَّ قولَه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧] إلى قولِه: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ١١]، يُثيرُ غضَبَ المُسلِمينَ على المُسْتهزِئينَ بالقُرآنِ، وقد أخَذَ المُسلِمونَ يَعتزُّون بكَثرتِهم؛ فكان ما ذُكِرَ مِن استِهزاءِ المُشرِكينَ بالقُرآنِ، واستِكبارِهم عن سَماعِه، يُتوقَّعُ منه أنْ يَبطِشَ بَعضُ المُسلِمينَ ببَعضِ المشركينَ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ بدَرَ مِن بَعضِ المسلمينَ غضَبٌ أو تَوعُّدٌ، وأنَّ اللهَ عَلِمَ ذلك مِن بَعضِهم، فأُمِروا بالعفوِ، وأنْ يَكِلوا أمرَ نَصْرِهم إلى اللهِ تعالى(٢).

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- آمِرًا الَّذين آمَنوا باللهِ واتَّبَعوك أن يَعفُوا ويَتجاوَزوا عن أذى الكُفَّارِ الَّذين لا يَرجُونَ ثوابَ الله، ولا يَخافونَ وقائِعَه في العاصِينَ(٣)، وأنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٨، ٣٣٩).

(٣) قال ابنُ عطية: (وقولُه: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ قالت فِرقةٌ: مَعناه: أيَّامُ إنعامِه ونَصْرِه وتَنعيمِه في الجنَّةِ، وغَيرُ ذلك؛ فـ﴿يَرْجُونَ﴾ على هذا هو مِن بابِه. وقال مجاهِدٌ: أيَّامُ اللهِ تعالى هي أيَّامُ نِقَمِه وعَذابِه، فـ ﴿يَرْجُونَ﴾ على هذا هي الَّتي تتنَزَّلُ مَنزِلةَ يَخافونَ، وإنَّما تنَزَّلَت مَنزِلَتَها مِن حيثُ الرَّجاءُ والخَوفُ مُتلازِمانِ، لا تَجِدُ أحَدَهما إلَّا والآخَرُ معه مُقترِنٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٣).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾: لا يَخشَونَ عُقوباتِ اللهِ ووقائِعَه ونِقَمَه، مثل عَذابِ الأُمَمِ الخاليةِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ الجوزي، وأبو حيَّان، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) =

يَصبِروا على أذاهم، ولا يُعاقِبوهم(١).

= (٩/ ٤١٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٢٨).

قال ابن القيِّم: (الخوفُ مُستلزِمٌ للرَّجاءِ، والرَّجاءُ مُستلزِمٌ للخَوفِ؛ فكلُّ راجٍ خائفٌ، وكلُّ خائفٍ راجٍ؛ ولأجْلِ هذا حَسُنَ وُقوعُ الرَّجاءِ في مَوضِعٍ يَحسُنُ فيه وُقوعُ الخَوفِ... فكلُّ راجٍ خائفٌ مِن فَواتِ مَرْجُوِّه، والخَوفُ بلا رجاءٍ يأسٌ وقُنوطٌ). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٥١).

وقال الزمخشري: (﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾: لا يَتوَقَّعونَ وقائعَ اللهِ بأعدائِه، مِن قَولِهم لوقائعِ العَرَبِ: أيَّامُ العَرَبِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧).

وقيل: المرادُ: لا يَطمَعونَ في نَصرِ اللهِ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٦٢).

وقال ابنُ عاشور: (لِلَّذينَ لا تَترَقَّبُ نُفوسُهم أيَّامَ نَصرِ اللهِ، أي: نَصرِ اللهِ لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٠).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ المعنى: لا يَرجُونَ البَعثَ، أي: لا يُؤمِنونَ به. ذكره النَّحَّاسُ احتِمالًا. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٦/ ٤٢٤).

وقيل: المعنى: لا يَرجُونَ ثوابَه. ومِمَّن ذهب إلى هذا: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦١).

وقيل: المعنى: لا يَسألونَ اللهَ نِعَمَه، أي: أنَّهم لا يَعترِفونَ بأنَّ النِّعَمَ مِن عندِ الله. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: السَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٨).

وذهب السعدي إلى أنَّ المعنى: لا يَرجونَ ثوابَه، ولا يَخافونَ وقائِعَه في العاصِينَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦١، ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٠، ٣٤١).

وقد نقل ابنُ جريرٍ إجماعَ المفَسِّرينَ على أنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ بأمرِ اللهِ بقِتالِ المُشرِكينَ (على مذهبِه بعدمِ الاعتدادِ بخلافِ الواحدِ والاثنين)، ونَسَب ابنُ عطيَّةَ ذلك إلى الجُمهورِ، ونَسَب أيضًا إلى قَومٍ القَولَ بأنَّها مُحكَمةٌ، ولم يُسَمِّهم، وذكَرَه ابنُ الجوزي احتمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢، ٨٣)، ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٥٧٤ - ٥٧٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥].

وعن أُسامةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابُه يَعفُونَ عن المُشرِكينَ وأهلِ الكِتابِ كما أمَرَهم اللهُ، ويَصبِرونَ على الأذى))(١).

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

= قال الواحدي: (وأجمَعوا أنَّ هذه الآيةَ نَزَلَت قبل أن يُؤمَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقِتالِ أهلِ مَكَّةَ، وأنَّها مَنسوخةٌ بآيةِ القِتالِ، إلَّا على ما رواه عَطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ؛ فإنَّ على روايته نَزَلت الآيةُ بعدَ الأمرِ بالقِتالِ؛ لأنَّه ذَكَر أنَّ الآيةَ نَزَلَت بعد غَزوةِ بني المُصْطَلِقِ، والصَّحيحُ أنَّها نَزَلت قبْلَ الأمرِ بالقِتالِ. واللهُ أعلَمُ. قال قَتادةُ: نَسَخَتْها ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقال أبو صالحٍ: نَسَخَتْها ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩] الآيةَ). ((البسيط)) (٢٠/ ١٣٩).

وقال ابنُ عطية: (والآيةُ تتضَمَّنُ الغُفرانَ عُمومًا؛ فيَنبغي أن يقالَ: إنَّ الأمورَ العِظامَ -كالقَتلِ والكُفرِ مُجاهَرةً، ونحوِ ذلك- قد نَسَخ غُفرانَه آيةُ السَّيفِ، والجِزْيةُ وما أحكَمَه الشَّرعُ لا مَحالةَ، وإنَّ الأُمورَ المُحقَّرةَ -كالجَفاءِ في القَولِ ونَحوِ ذلك- يحتَمِلُ أن تبقَى مُحكَمةً، وأن يكونَ العَفوُ عنها أقرَبَ إلى التَّقْوى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢، ٨٣).

وقال ابنُ تيميَّة: (مَن كان مِن المؤمنينَ بأرضٍ هو فيها مُستضعَفٌ، أو في وَقتٍ هو فيه مُستضعَفٌ: فلْيَعمَلْ بآيةِ الصَّبرِ والصَّفحِ عَمَّن يُؤذي اللهَ ورَسولَه مِن الَّذين أُوتوا الكِتابَ والمُشرِكينَ، وأمَّا أهلُ القُوَّةِ فإنَّما يَعمَلونَ بآيةِ قِتالِ أئمَّةِ الكُفرِ الَّذين يَطعنونَ في الدِّينِ، وبآيةِ قِتالِ الَّذين أُوتوا الكتابَ حتَّى يُعطُوا الجِزيةَ عن يَدٍ وهم صاغِرونَ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٢٢١).

وقال البقاعي: (قال ابنُ بَرَّجَان: وهذه الآيةُ وشِبهُها مِنَ النَّسْيِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وليس بنَسخٍ، بل هو حُكمٌ يَجيءُ ويَذهَبُ بحَسَبِ القُدرةِ على الانتِصارِ، وكان يَنزِلُ مِثلُ هذا بمكَّةَ والمسلِمونَ في ضَعفٍ، ونَزَل بعدَ الهِجرةِ آيةُ الجِهادِ والأمرِ بالمعروفِ، وتُرِكَت هذه وأمثالُها مَسطورةً في القرآنِ؛ لِما عسى أن يَدورَ من دوائِرِ أيَّامِ اللهِ ومِن أيَّامِه؛ إدالةً لأهلِ الكُفرِ عليهم، وتَنبيهًا للمُسلمينَ لِيُراجِعوا أمْرَهم، ويُصلِحوا ما بَيْنَهم وبيْنَ رَبِّهم). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٧٩).

(١) رواه البخاري (٦٢٠٧).

أي: إنَّما أُمِرَ المُؤمِنونَ بالمَغفِرةِ لِلَّذين يُؤذونَهم؛ لِيَجزيَ اللهُ أعداءَهم هؤلاء بما كَسَبوه مِن آثامٍ، فيُعَذِّبَهم[1].

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا رَغَّب اللهُ سُبحانَه ورهَّب، وتقرَّر أنَّه لا بُدَّ مِن الجزاءِ؛ زاد في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ بأنَّ النَّفعَ والضُّرَّ لا يَعدوهم، فقال شارِحًا للجَزاءِ[2]:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾.

أي: مَن عَمِلَ في الدُّنيا بطاعةِ اللهِ، فامتَثَل أوامِرَه، واجتَنَب نواهيَه؛ فنَفْعُ ذلك له[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٦، ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٦).

ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والواحدي، وابن كثير. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الواحدي: (كأنَّه قال: لا تُكافِئوهم أنتم؛ لِنُكافِئَهم نحن). ((الوسيط)) (٤/ ٩٧).

وقيل: المرادُ بالقَومِ هنا: المؤمِنونَ، أُمِروا بالمَغفرةِ لِيَجزيَهم اللهُ يومَ القيامةِ بما كَسَبوه في الدُّنيا؛ كالصَّبرِ على أذيَّةِ الكُفَّارِ، والإغضاءِ عنهم بكَظمِ الغَيظِ، واحتِمالِ المكروهِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٠، ٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨).

وقيل: سيَجزي كُلَّ قَومٍ بما كانوا يَكسِبونَ؛ فأنتم -يا مَعشَرَ المؤمنينَ- يَجزيكم على إيمانِكم وصَفحِكم وصَبرِكم، ويَجزي أولئك المُشركينَ إنِ استَمَرُّوا على تكذيبِهم وبَغيِهم. وهذا ظاهِرُ اختيارِ البِقاعي، وذهب إليه السعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٠، ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٤٤، ٤٥].

﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾.

أي: ومَن عَمِلَ بالكُفرِ والمعاصي فضَرَرُ ذلك ووَبالُه على نَفْسِه، لا على غيرِه[١].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ [الروم: ٤٤].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: ثمَّ إلى رَبِّكم تَصيرونَ -أيُّها النَّاسُ- بعدَ مَوتِكم أحياءً يومَ القيامةِ، فيُجازيكم على أعمالِكم؛ خَيرِها وشَرِّها[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ هذه آيةُ عِبرةٍ في جَرَيانِ السَّفينةِ في البَحرِ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى سَخَّر هذا المخلوقَ العَظيمَ لهذا المخلوقِ الضَّعيفِ[٣]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ فيه تعليمُ الأخلاقِ الفاضِلةِ، والأفعالِ الحَميدةِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٣، ٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ فيه أعظَمُ تَرغيبٍ في الحَثِّ على الغُفرانِ للمُوافِقِ في الدِّينِ[1] من بابِ أولَى.

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾ فيه أنَّ العَمَلَ الصَّالحَ يَعودُ بالنَّفعِ العَظيمِ على فاعِلِه، والعَمَلَ الرَّديءَ يَعودُ بالضَّرَرِ على فاعِلِه، وأنَّه تعالى أمَرَ بهذا، ونهَى عن ذلك؛ لحَظِّ العَبدِ، لا لِنَفعٍ يَرجِعُ إليه سُبحانَه، وهذا تَرغيبٌ منه في العَمَلِ الصَّالحِ، وزَجرٌ عن العَمَلِ الباطِلِ[2]، فمتى عَلِمْتَ أنَّ عمَلَك لِنَفْسِك فسوف تجتهِدُ في هذا[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦ﴾ أنَّ كُلَّ عَمَلٍ لا إخلاصَ فيه فهو ضَرَرٌ على صاحِبِه وليس له؛ لأنَّ العَمَلَ الصَّالحَ هو ما جَمَعَ بيْنَ شَرطَينِ: الإخلاصِ، والمُتابَعةِ[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ ذَكَر سُبحانَه وتعالى الاستِدلالَ بكَيفيَّةِ جَرَيانِ الفُلكِ على وَجهِ البَحرِ، وذلك لا يَحصُلُ إلَّا بسَبَبِ تَسخيرِ ثلاثةِ أشياءَ:

أحَدُها: الرِّياحُ الَّتي تَجري على وَفقِ المرادِ.

وثانيها: خَلقُ وَجهِ الماءِ على الملاسةِ الَّتي تجري عليها الفُلكُ.

وثالثُها: خَلقُ الخَشَبةِ على وَجهٍ تبقى طافيةً على وجهِ الماءِ، ولا تغوصُ فيه.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٨٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذه الأحوالُ الثَّلاثةُ لا يَقدِرُ عليها واحِدٌ مِن البَشَرِ؛ فلا بُدَّ مِن مُوجِدٍ قادِرٍ عليها، وهو اللهُ سُبحانَه وتعالى(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أنَّ الأصلَ في جميعِ الأعيانِ الموجودةِ -على اختِلافِ أصنافِها وتَبايُنِ أوصافِها- أن تكونَ حَلالًا مُطلقًا للآدميِّينَ، وأن تكونَ طاهِرةً لا يَحرُمُ عليهم مُلابَستُها ومُباشَرتُها ومُماسَّتُها. وَجهُ ذلك: أنَّه إذا كان ما في الأرضِ مُسَخَّرًا لنا، جاز استِمتاعُنا به(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أنَّ مَن عمِلَ عمَلًا بِدْعِيًّا فعَمَلُه عليه لا له؛ لأنَّه لا يَدخُلُ في العملِ الصَّالحِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ مَسوقٌ للاعتِبارِ بتسخيرِ البَحرِ على عَظَمتِه والسُّفنِ الجاريةِ فيه لمخلوقٍ هو أضأَلُ شيءٍ بالنِّسبةِ لهما؛ للانتِقالِ مِن التَّذكيرِ بما خلَقَ اللهُ مِن العوالِمِ وتَصاريفِ أحْوالِها مِن حيثُ إنَّها دَلالاتٌ على الوَحدانيَّةِ، إلى التَّذكيرِ بما سخَّرَ اللهُ للنَّاسِ مِن المَخْلوقاتِ وتَصاريفِها مِن حيثُ كانتْ مَنافعَ للنَّاسِ تَقْتضي أنْ يَشْكُروا مُقدِّرَها، فجَحَدوا بها؛ إذ تَوجَّهوا بالعِبادةِ إلى غَيرِ المُنعِمِ عليهم؛ ولذلك عُلِّقَ بفِعْلَيْ (سخَّر) في المَوضعَينِ مَجرورٌ بلامِ العِلَّةِ بقولِه: ﴿لَكُمْ﴾، على أنَّ هذه التَّصاريفَ آياتٌ أيضًا مِثلُ اخْتِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وما أنْزَلَ اللهُ مِن السَّماءِ مِن ماءٍ، وتَصْريفِ الرِّياحِ، ولكنْ لُوحِظَ هنا ما فيها مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٨٢).

النِّعَمِ كما لُوحِظَ هنالك ما فيها مِن الدَّلالةِ، والفَطِنُ يَستخلِصُ مِن المَقامينِ كِلا الأمْرينِ على ما يُشْبِهُ الاحْتِباكَ(١)، ومُناسَبةُ هذا الانتِقالِ واضحةٌ(٢).

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ اسمُ الجَلالةِ مُسنَدٌ إليه، والمَوصولُ مُسنَدٌ، وتَعريفُ الجُزأينِ مُفيدٌ للحصْرِ، وهو قَصْرُ قلْبٍ(٣) بتَنزيلِ المُشرِكينَ مَنزلةَ مَن يَحسَبُ أنَّ تَسخيرَ البحْرِ وتَسخيرَ ما في السَّمواتِ والأرضِ إنْعامٌ مِن

(١) تقدَّم تعريفه (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٧).

(٣) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعِرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

شُركائِهم؛ فكان هذا القصْرُ إبْطالًا لهذا الزَّعْمِ الَّذي اقْتضاهُ هذا التَّنزيلُ[١].

- وقولُه: ﴿لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ﴾ بدَلُ اشْتِمالٍ مِن ﴿لَكُمُ﴾؛ لأنَّ في قَولِه: ﴿لَكُمُ﴾ إجمالًا أُرِيدَ تَفْصيلُه؛ فتَعريفُ الفُلْكِ تَعريفُ الجِنسِ، وليس جَرْيُ الفُلكِ في البَحرِ بنِعمةٍ على النَّاسِ إلَّا باعْتِبارِ أنَّهم يُجْرونَها للسَّفرِ في البَحرِ. وعُطِفَ عليه ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ باعتبارِ ما فيه مِن عُمومِ الاشتِمالِ؛ فحصَلَ مِن مَجموعِ ذلك أنَّ تَسْخيرَ البحْرِ لِجَرْيِ الفُلْكِ فيه للسَّفرِ؛ لِقَضاءِ مُختلِفِ الحاجاتِ، حتَّى التَّنزُّهِ وزِيارةِ الأهْلِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ اقْتَضاهُ الاهتِمامُ أوَّلًا، ثمَّ التَّعميمُ ثانيًا، و﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عامٌّ مَخصوصٌ بما تَحصُلُ للنَّاسِ فائدةٌ مِن وُجودِه؛ كالشَّمسِ للضِّياءِ، والمطَرِ للشَّرابِ، أو مِن بَعضِ أحوالِه؛ كالكواكبِ للاهتِداءِ بها في ظُلُماتِ البَرِّ والبحْرِ، والشَّجرِ لِلاستِظلالِ، والأنعامِ للرَّكوبِ والحرْثِ ونحْوِ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ تَنْوينُ (جميعًا) تَنوينُ عِوَضٍ عَنِ المُضافِ إليه، أي: جَميعَ ذلك. و(مِن) ابتدائيَّةٌ، أي: جميعَ ذلك مِن عندِ اللهِ، ليس لِغَيرِه فيه أدْنى شَرِكةٍ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إنَّ في ذلك المذكورِ مِن تَسْخيرِ البَحرِ، وتَسخيرِ ما في السَّمواتِ والأرضِ؛ دَلائلَ على تَفرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ؛ فهي وإنْ كانتْ مِنَنًا يَحِقُّ أنْ يَشْكُرَها النَّاسُ، فإنَّها أيضًا دَلائلُ إذا تَفكَّرَ فيها المُنعَمُ عَليهم اهْتَدَوا بها، فحصَلَت لهمْ منها مُلائماتٌ جُسمانيَّةٌ ومَعارِفُ نَفْسانيَّةٌ، وبهذا الاعْتِبارِ كانتْ في عِدادِ الآياتِ المذكورةِ قبْلَها من قوله: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، وإنَّما أُخِّرَت عنها؛ لأنَّها ذُكِرَت في مَعرِضِ الامتِنانِ بأنَّها نِعَمٌ، ثمَّ عُقِّبَت بالتَّنبيهِ على أنَّها أيضًا دَلائلُ على تَفرُّدِ اللهِ بالخلْقِ. وأُوثِرَ التَّفكُّرُ بالذِّكرِ في آخِرِ صِفاتِ المُستَدِلِّينَ بالآياتِ؛ لأنَّ الفِكرَ هو مَنبَعُ الإيمانِ والإيقانِ والعِلمِ المُتقدِّمةِ في قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤]، ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1] [الجاثية: ٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَغْفِرُوا﴾ -على أحدِ الأقوالِ- مَجزومٌ في جَوابِ (قُل)[2]، وحُذِفَ المَقولُ؛ لأنَّ الجوابَ دالٌّ عليه، والمعنى: قُلْ لهم: اغْفِروا يَغْفِروا، أي: يَعْفوا ويَصْفَحوا، وهذا ثِقةٌ بالمُؤمنينَ أنَّهم إذا قال لهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ امْتَثَلوا[3].

- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ الرَّجاءُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٧، ٣٣٨).

(٢) ويُنظر ما تقدم في مُشكِلِ الإعرابِ (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٩).

هنا إمَّا على معناه الحقيقيِّ أو بمعنى الخَوفِ[(١)]، وعُبِّر في مَوضعِ الخَوفِ بالرَّجاءِ؛ لِما فيه مِن الاستِجلابِ والتَّرغيبِ والتَّأليفِ والاستِعطافِ[(٢)].

- قولُه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ على الوَجهِ بأنَّ المعنى: لِلَّذِين لا تترقَّبُ نُفوسُهم أيَّامَ نصرِ اللهِ، أي: نصْرِ اللهِ لهم، فتَكونُ أُجْرِيَت عليهِمْ هنا هذه الصِّلةُ؛ إمَّا لأنَّهم لا يَتوكَّلون على اللهِ ولا يَسْتنصِرونه، بلْ تَوَجُّهُهم إلى الأصنامِ، وإمَّا لأنَّهم لا يَخطُرُ ببالِهم إلَّا أنَّهم مَنْصورونَ بحَوْلِهم وقُوَّتِهم، فلا يَخطُرُ ببالِهم سُؤالُ نَصْرِ اللهِ أو رَجاؤُه، وهم مَعْروفون بهذه الصِّلةِ بيْنَ المُسلِمينَ. وأُوثِرَ تَعريفُهم بهذه الصِّلةِ ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾؛ لِيَكونَ في ذلك تَعريضٌ بأنَّ اللهَ يَنصُرُ الَّذين يَرْجُون أيَّامَ نَصْرِه، وهمُ المُؤمِنون، والغرَضُ مِن هذا التَّعريضِ الإيماءُ بالمَوصولِ إلى وَجْهِ أمْرِ المُؤمِنينَ أنْ يَغْفِروا للمُشرِكينَ ويَصْفَحوا عن أذَى المُشرِكين، ولا يَتكلَّفوا الانْتِصارَ لِأنفُسِهم؛ لأنَّ اللهَ ضَمِنَ لهم النَّصرَ. وعلى وجْهِ أنَّه: قد يُطلَقُ أيَّامُ اللهِ في القُرآنِ على الأيَّامِ الَّتي حصَلَ فيها فضْلُه ونِعمتُه على قَومٍ، فمعنى ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ على هذا التَّأويلِ: أنَّهم في شُغلٍ عن تَرقُّبِ نِعَمِ اللهِ بما هُمْ فيه مِن إسنادِ فِعلِ الخَيرِ إلى أصْنامِهم بانْكِبابِهم على عِبادةِ الأصنامِ دُونَ عِبادةِ اللهِ، ويأْتي في هذا الوجْهِ مِن التَّعريضِ والتَّحريضِ مِثلُ ما ذُكِرَ في الوجْهِ الأوَّلِ؛ لأنَّ المُؤمِنينَ همُ الَّذين يَرْجُون نِعمةَ اللهِ[(٣)].

- قولُه: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ تَعْليلٌ للأمْرِ بالمَغْفرةِ، أي: لِيَغْفِروا ويَصْفحوا عن أذَى المُشرِكين، فلا يَنتصِروا لِأنفُسِهم؛ لِيَجْزِيَهم اللهُ على

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٠، ٣٤١).

إيمانِهم، وعلى ما أُوذوا في سَبيلِه؛ فإنَّ الانتصارَ للنَّفْسِ تَوفيةٌ للحقِّ، وماذا عَساهم يَبْلُغونَ مِن شِفاءِ أنفُسِهم بالتَّصدِّي للانتقامِ مِن المُشرِكين على قِلَّتِهم، وكَثرةِ أولئك؟! فإذا تَوكَّلوا على نَصْرِ ربِّهم، كان نَصْرُه لهم أتَمَّ، وأقْطَعَ لِشَوكةِ المُشرِكين(١).

- قولُه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ على قراءة ﴿لِنَجْزِيَ﴾ -بِنُونِ العَظَمةِ(٢)- فيكونُ على الالتِفاتِ(٣).

- وكان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (لِيَجْزِيَهم بما كانوا يَكسِبون)؛ فعُدِلَ إلى الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِيَكونَ لَفظُ ﴿قَوْمًا﴾ مُشعِرًا بأنَّهم لَيسوا بمَضْيَعةٍ عِندَ اللهِ؛ فإنَّ لَفظَ (قَوم) مُشعِرٌ بفَريقٍ له قِوامُه وعِزَّتُه. وتَنكيرُ ﴿قَوْمًا﴾ للتَّعْظيمِ، وهذا مدحٌ وثَناءٌ عليهم. وقيل: القومُ هم الكافِرون؛ فيكونُ التَّنكيرُ للتحقيرِ. وقيل: الأظهرُ أنَّ ﴿قَوْمًا﴾ مُرادٌ به الإبهامُ، وتَنوينُه للتَّنكيرِ فقط، والمعنى: لِيَجزيَ اللهُ كلَّ قومٍ بما كانوا يَكسِبونَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ بما يُناسِبُ كسْبَهم؛ فيَكونُ وعيدًا للمُشركينَ المُعْتَدِينَ على المُؤمنينَ، ووعْدًا للمؤمنِينَ المأمورينَ بالصَّفحِ والتَّجاوُزِ عن أذَى المشركينَ، وهذا وجْهُ عدَمِ تَعليقِ الجزاءِ بضَميرِ الموقنينَ؛ لأنَّه أُريدَ العمومُ؛ فليس ثَمَّةَ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ على هذا الوَجهِ، ويُؤيِّدُ هذا قولُه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [الجاثية: ١٥]، وهذا كالتَّفصيلِ للإجمالِ الَّذي في قولِه:

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٩).

(٢) قرأها بالنُّونِ: ابنُ عامرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ. وقرأها الباقونَ بالياءِ. وقرأها أبو جعفرٍ بضمِّ الياءِ، وفتْحِ الزَّايِ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦٠)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٢).

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ ولذلك فُصِلتِ الجُملةُ ولم تُعطَفْ على سابقتِها[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لِبيانِ كَيفيَّةِ الجزاءِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤١، ٣٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٨).

الآيات (١٦-٢٠)

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا
بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ
شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ
مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَغْيًۢا﴾: أي: فَسادًا وطُغيانًا وتَعدِّيًا، وأصلُ البَغيِ: يدُلُّ على الفَسادِ، وتجاوُزِ الحَدِّ؛ يُقالُ: بَغَتِ السَّماءُ: إذا كثُرَ مَطَرُها حتَّى تجاوَزَ الحَدَّ. ويُقالُ أيضًا: بَغَى الجُرحُ: إذا تورَّمَ واشتَدَّ وترامَى بالفَسادِ(١).

﴿شَرِيعَةٍ﴾: أي: مِلَّةٍ ومَذهَبٍ وطَريقةٍ، والشَّرْعُ والشِّرْعةُ والشَّريعةُ: الطَّريقةُ الظَّاهِرةُ، ونَهجُ الطَّريقِ الواضِحِ، وتُسَمَّى مَعالِمُ الدِّينِ شَريعةً؛ لِوُضوحِها، وأصلُها مِنَ الشَّرعِ: وهو البَيانُ والإظهارُ(٢).

﴿أَهْوَآءَ﴾: الأهواءُ: المذاهِبُ الَّتي تدعو إليها الشَّهوةُ دونَ الحُجَّةِ، وأصلُه: يدُلُّ على الخُلُوِّ والسُّقُوطِ، وسُمِّيَ الهوى هَوًى؛ لأنَّه يَهوِي بصاحِبِه في النَّارِ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٢٨) و(٥/ ٢٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ١٥٠) و(٣/ ٥٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١، ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (٧/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، =

﴿أَوْلِيَآءُ﴾: أي: أصدقاءُ ونُصراءُ، والوِلايةُ النُّصرةُ، وأصْل (ولي): يدُلُّ على قُرْبٍ؛ سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه(١).

﴿بَصَٰٓئِرُ﴾: أي: حُجَجٌ بَيِّنةٌ، ودَلالاتٌ ظاهِرةٌ، واحِدتُها بَصيرةٌ: وهي الدَّلالةُ الَّتي تُوجِبُ إبصارَ النُّفوسِ للشَّيءِ، ومنه يُقالُ للدَّمِ الَّذي يُستَدَلُّ به على القَتيلِ: بَصيرةٌ، أو: هي البُرهانُ القاطِعُ الَّذي لا يَترُكُ في الحقِّ لَبْسًا، وأصلُها يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبَيانِه(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه قد آتَى بني إسرائيلَ الكِتابَ والحُكْمَ، وجعَلَ فيهم كثيرًا مِن الأنبياءِ، ورَزَقهم مِن الرِّزقِ الحَلالِ الطَّيِّبِ، وفضَّلهم على عالَمِي زمانِهم، فآتاهم ما لم يُؤتِ غيرَهم، وآتاهم آياتٍ واضِحاتٍ، فما تفرَّقوا واختَلَفوا إلَّا مِن بَعدِ ما جاءهم العِلمُ مِن اللهِ؛ ظُلمًا وحسَدًا فيما بيْنَهم!

ثمَّ يُخاطِبُ تعالى نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قائِلًا له: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- يَحكُمُ بالعَدلِ بيْنَ أولئك المُختَلِفينَ مِن بني إسرائيلَ فيما كانوا يختَلِفونَ فيه.

ثمَّ يأمُرُه الله أنْ يَتمسَّكَ بالدِّينِ الَّذي أوحاه إليه، فيقولُ: ثمَّ جعَلْناك -يا

= ((البسيط)) للواحدي (٧/ ٤٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٣٣٦) و (٩/ ٥٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠١).

محمَّدُ- على طَريقةٍ مُستقيمةٍ مِن الدِّينِ؛ فاتَّبِعْها، ولا تتَّبِعْ أهواءَ هؤلاء الجاهِلينَ؛ إنَّهم لن يَنفَعوك عندَ اللهِ بشَيءٍ، أو يَدفَعوا عنك شَيئًا مِن عذابِ اللهِ إنِ اتَّبعْتَ أهواءَهم، وإنَّ الظَّالِمينَ بَعضُهم أولياءُ بَعضٍ، واللهُ ناصِرُ المُتَّقينَ ومُعينُهم.

ثمَّ يُثْني سبحانَه على القرآنِ الكريمِ، فيقولُ: هذا القُرآنُ دلائِلُ واضِحةٌ للنَّاسِ يُبَصِّرُهم الحَقَّ مِن الباطِلِ، وبه يَرشُدونَ، وهو هُدًى ورَحمةٌ للمُوقِنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ أنَّه أنعَمَ بنِعَمٍ كَثيرةٍ على بني إسرائيلَ مع أنَّه حَصَل بيْنَهم الاختِلافُ على سبَيلِ البَغيِ والحَسَدِ، والمقصودُ أن يُبيِّنَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ طَريقةَ قَومِه كطَريقةِ مَن تقَدَّمَ، ولَمَّا كانت النِّعَمُ على قِسمَينِ: نِعمُ الدِّينِ، ونِعَمُ الدُّنيا؛ ونِعَمُ الدِّينِ أفضَلُ مِن نِعَمِ الدُّنيا؛ فلهذا بدأ اللهُ تعالى بذِكرِ نِعَمِ الدِّينِ، فقال[1]:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾.

أي: ولقد أعْطَيْنا بني إسرائيلَ الكِتابَ[2]، ....

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٤).

(٢) قيل: المرادُ به: التَّوراةُ. وممَّن قال بهذا القول: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، والبيضاوي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥).

وقيل: المرادُ به: التَّوراةُ والإنجيلُ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦). =

والحُكْمَ(١)، وجعَلْنا فيهم كثيرًا مِن الأنبياءِ(٢).

= وقال السمرقندي: (﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التَّوراةَ، والزَّبورَ، والإنجيلَ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨).

وقال القِنَّوْجي: (ولعلَّ الأولى أن يُحملَ الكتابُ على الجِنسِ؛ حتَّى يَشملَ الإنجيلَ والزَّبورَ أيضًا). ((تفسير القنوجي)) (١٢/ ٤٢٣).

وقيل: الكِتابُ يَعُمُّ التَّوارةَ والإنجيلَ والزَّبورَ وغيرَها مِمَّا أُنزِلَ على أنبيائِهم. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: البِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٩٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨).

(١) قيل: المرادُ بالحُكم هنا: الفَهمُ في الكِتابِ، والعِلمُ. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي. وأراد ابنُ جَريرٍ بالعِلم: العِلمَ بالسُّنَنِ الَّتي لم تَنزِلْ في الكِتابِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٢).

وقيل: المرادُ به: القَضاءُ وفَصلُ الخُصوماتِ بيْنَ النَّاسِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: أبو حيَّان، والسعدي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

قال الشوكاني: (المرادُ بالكِتابِ: التَّوراةُ. وبالحُكم: الفَهمُ والفِقهُ الَّذي يكونُ بهما الحُكمُ بيْنَ النَّاسِ، وفَصلُ خُصوماتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩).

وقال ابن عاشور: (ويَصِحُّ أن يكونَ بمعنى السِّيادةِ، أي: أنَّهم يَحكُمونَ أنفُسَهم بأنفُسِهم، ولا تَحكُمُهم أمَّةٌ أخرى، كقَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥).

وقال الرازي: (أمَّا الحُكمُ ففيه وُجوهٌ؛ يجوزُ أن يكونَ المرادُ: العِلمَ والحِكمةَ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ: العِلمَ بفَصلِ الحُكوماتِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ: مَعرِفةَ أحكامِ الله تعالى، وهو عِلمُ الفقه). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٤، ٦٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

قال ابن عاشور: (معنى إيتائِهم هذه الأمورَ الثَّلاثةَ: إيجادُها في الأمَّةِ، وإيجادُ القائمينَ بها؛ لأنَّ نَفْعَ ذلك عائدٌ على الأمَّةِ جَمعاءَ، فكان كُلُّ فَردٍ مِن الأمَّةِ كمَنْ أُوتيَ تلك الأُمورَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥).

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.

أي: ورزَقْنا بني إسرائيلَ مِن الرِّزقِ الحَلالِ الطَّيِّبِ(١).

قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

أي: وفضَّلْنا بني إسرائيلَ على عالَمِي زمانِهم(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٢، ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٧، ١٩٨).

ممَّن اختار أنَّه أراد بقوله: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ عالَمي زَمانِهم: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥).

ونسَبه الرَّازيُّ للمفسِّرينَ، فقال: (قال المفسِّرونَ: المرادُ: وفضَّلْناهم على عالَمِي زمانِهم). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٦).

وقال السعدي: (﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: على الخَلقِ بهذه النِّعَمِ، ويَخرُجُ مِن هذا العُموم اللَّفظيِّ هذه الأُمَّةُ؛ فإنَّهم خيرُ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٨، ١٩٩).

وقال البقاعي: (﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وهم الَّذين تحقَّق إيجادُنا لهم في زَمانِهم وما قَبْلَه؛ فإنَّا =

كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٧﴾.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾.

أي: وآتَيْنا بَني إسرائيلَ آياتٍ واضِحاتِ الحُجَجِ(١).

= آتَيْناهم مِن الآياتِ المَرئيَّةِ والمسموعةِ، وأكثَرْنا فيهم مِن الأنبياءِ ما لم نَفعَلْه لِغَيرِهم ممَّن سَبَق، وكُلُّ ذلك فضيلةٌ ظاهِرةٌ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥، ٣٤٦).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾: الوَحيُ، وتنزيلُ التَّوراةِ الَّتي فيها تَفصيلُ الأمورِ، وبَيانُ الحلالِ والحرامِ. وممَّن اختار هذا القَولَ في الجملةِ: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، وابن عطية، والخازن، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٦٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٨).

قال ابنُ عاشور: (علَّمْناهم بواسِطةِ كُتُبِهم وبواسِطةِ عُلَمائِهم حُجَجَ الحَقِّ والهُدى، الَّتي مِن شأنِها ألَّا تَترُكَ للشَّكِّ والخَطَأِ إلى نُفوسِهم سُبُلًا إلَّا سَدَّتْها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥).

وقيل: المرادُ: الحلالُ والحرامُ، وبيانُ ما كان قَبْلَهم، وممَّن اختاره: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨).

وقيل: المرادُ: دلائلُ ظاهرةٌ في أمرِ الدِّينِ، وآياتٌ ومعجزاتٌ. وممَّن اختاره في الجملةِ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧١).

وقيل: المرادُ: دَلالاتٌ على العِلمِ بمبعثِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: البغوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٦٨).

وقال البِقاعي: (﴿بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ المُوحى به إلى أنبيائِهم؛ مِنَ الأدِلَّةِ القَطعيَّةِ، والأحكامِ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

أي: فما تفرَّقَ بنو إسرائيلَ واختَلَفوا فيما بيْنَهم إلَّا مِن بَعدِ ما جاءهم العِلمُ الَّذي يُبَيِّنُ لهم ما يَتَّقُونَ، ويوجبُ عدَمَ الاختِلافِ، وإنَّما حمَلهم على ذلك الظُّلْمُ واعتداءُ بعضِهم على بعضٍ، والحسدُ وطلبُ الرِّياسةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [يونس: ٩٣].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- يَحكُمُ بالعَدلِ بيْنَ أولئك المُختَلِفينَ مِن بني إسرائيلَ

= والمواعِظِ المُؤَيَّدةِ بالمُعجِزاتِ، ومِن صِفاتِ الأنبياءِ الآتينَ بَعْدَهم، وغيرِ ذلك ممَّا هو في غايةِ الوُضوحِ لِمَن قَضَيْنا بسَعادتِه، وذلك أمرٌ يَقتضي الأُلْفةَ والاجتِماعَ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٤، ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٦).
قال الرازي: (هاهنا احتِمالاتٌ: يريدُ أنَّهم عَلِموا ثمَّ عانَدوا، ويجوزُ أن يُريدَ بالعِلمِ الدَّلالةَ الَّتي تُوصِلُ إلى العِلمِ، والمعنى: أنَّه تعالى وَضَع الدَّلائِلَ والبَيِّناتِ الَّتي لو تأمَّلوا فيها لَعَرَفوا الحَقَّ، لكِنَّهم على وَجهِ الحَسَدِ والعِنادِ اختَلَفوا وأظهَروا النِّزاعَ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥).

يومَ القيامةِ فيما كانوا في الدُّنيا يختَلِفونَ فيه، فيُمَيِّزُ المحِقَّ مِن المُبطِلِ، ويُجازي كُلًّا منهم بما يَستحِقُّ(١).

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ أعرَضوا عن الحَقِّ؛ مِن أجْلِ البَغيِ والحَسَدِ؛ أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَعدِلَ عن تلك الطَّريقةِ، وأن يَتمَسَّكَ بالحَقِّ، وألَّا يكونَ له غَرَضٌ سِوى إظهارِ الحَقِّ، وتَقريرِ الصِّدْقِ(٢).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إنْعامَه على بني إسْرائيلَ واختِلافَهم بعْدَ ذلك؛ ذكَرَ حالَ نَبِيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وما مَنَّ به عليه مِن اصطِفائِه(٣)، فقال:

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا﴾.

أي: ثمَّ جعَلْناك -يا محمَّدُ- مِن بَعدِ أن آتَيْنا بني إسرائيلَ الكِتابَ والحُكمَ والنُّبُوَّةَ: على طَريقةٍ مُستقيمةٍ ومِنهاجٍ واضِحٍ مِن الدِّينِ؛ فاتَّبِعْ شَريعةَ اللهِ الَّتي أوحاها إليك(٤).

كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[الزخرف: ٤٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٦، ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٧، ٣٤٨).

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولا تتَّبِعْ -يا محمَّدُ- ما يَدعوك إليه المُشرِكونَ الجاهِلونَ باللهِ ودِينِه مِن مُخالَفةٍ لِشَرعِ اللهِ، فلا تَعمَلْ بدِينِهم وآرائِهم، ولا تُوافِقْهم في باطِلِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

أي: إنَّ الجاهِلينَ الَّذين يَدْعونَك -يا محمَّدُ- لاتِّباعِ أهوائِهم: لن يَنفَعوك عندَ اللهِ بشَيءٍ، ولن يَدفَعوا عنك شَيئًا مِن عذابِ اللهِ إنِ اتَّبَعْتَ أهواءَهم، وخالَفْتَ ما شرَعَ اللهُ لك[2].

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

أي: وإنَّ الظَّالِمينَ يَتولَّى بَعضُهم بعضًا؛ فهم أنصارٌ وأحبابٌ فيما بيْنَهم، وأعوانٌ على المؤمِنينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٥)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣].

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: واللهُ ناصِرٌ ومُعِينٌ لِلمُتَّقينَ الَّذين يَتَّقونَ سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتِنابِ ما نهَى[1].

كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

= (١٦/ ١٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٠).

قال الشنقيطي: (الظُّلمُ في لُغةِ العَرَبِ أصلُه وَضْعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِه. و... أعظَمُ أنواعِه الشِّركُ باللهِ؛ لأنَّ وَضْعَ العبادةِ في غَيرِ مَن خَلَق ورَزَق هو أشنَعُ أنواعِ وَضْعِ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِه؛ ولذا كَثُرَ في القُرآنِ العَظيمِ إطلاقُ الظُّلمِ بمعنى الشِّركِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٠٠).

وقال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: يُريدُ المُنافِقينَ أولياءَ اليَهودِ. وقال الكَلْبيُّ ومُقاتِلٌ: يعني: مُشرِكي مَكَّةَ بَعضُهم أولياءُ بَعضٍ، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الشِّركَ، وهم أمَّةُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقال عطاءٌ: يُريدُ المُهاجِرينَ والأنصارَ). ((البسيط)) (٢٠/ ١٤٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٨).

وقال الشوكاني: (والمرادُ بالمتَّقينَ: الَّذين اتَّقَوُا الشِّركَ والمعاصيَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠).

وقال ابنُ كثير: (أي: وماذا تُغْني عنهم وَلايتُهم لبَعضِهم بعضًا؛ فإنَّهم لا يَزيدونَهم إلَّا خَسارًا ودَمارًا وهلاكًا؟!). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧).

وقال ابن عاشور: (أي: إنَّهم ظالِمونَ، وأنت لَسْتَ مِن الظَّالِمينَ في شَيءٍ؛ فلا يَجوزُ أن تتَّبِعَهم في شَيءٍ، وإنَّما يَتَّبِعُهم مَن هم أولياؤُهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠١).

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾.

أي: هذا القُرآنُ دلائِلُ ساطِعةٌ يُبصِرُ بها النَّاسُ الحَقَّ مِن الباطِلِ، ويَعرِفونَ بها الصَّوابَ في جميعِ أُمورِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

أي: وهذا القُرآنُ يَهدي إلى الحَقِّ في الدُّنيا، وإلى الجنَّةِ في الآخِرةِ، ورَحمةٌ في الدُّنيا والآخِرةِ للمُوقِنينَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠١).
قال ابن عاشور: (وإنَّما كان... بَصائرَ؛ لأنَّه يُبيِّنُ للنَّاسِ الخَيرَ والشَّرَّ، ويُحرِّضُهم على الخَيرِ، ويُحذِّرهم مِن الشَّرِّ، ويَعِدُهم على فِعلِ الخَيرِ، ويُوعِدُهم على فِعلِ الشُّرورِ؛ فعمَلُه عَملُ البَصيرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).
قال ابن عاشور: (وإنَّما كان هُدًى؛ لأنَّه طَريقُ نَفعٍ لِمَنِ اتَّبَعَ إرْشادَه، فاتِّباعُه كالاهتِداءِ للطَّريقِ المُوصِلةِ إلى المَقصودِ، وإنَّما كان رَحمةً؛ لأنَّ في اتِّباعِ هَدْيِه نَجاحَ النَّاسِ أفْرادًا وجَماعاتٍ في الدُّنيا؛ لأنَّه نِظامُ مُجتمعِهم ومَناطُ أمْنِهم، وفي الآخرةِ؛ لأنَّه سَببُ نَوالِهم دَرجاتِ النَّعيمِ الأبَديِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٠).
وقال ابن جرير: (﴿... لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بحَقيقةِ صِحَّةِ هذا القُرآنِ، وأنَّه تَنزيلٌ مِن اللهِ العزيزِ =

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ المرادُ أنَّه لا يَنبغي أن يَغترَّ المُبطِلُ بنِعَمِ الدُّنيا؛ فإنَّها وإن ساوَتْ نِعَمَ المُحِقِّ أو زادَتْ عليها فإنَّه سيَرَى في الآخِرةِ ما يَسوؤُه[١]!

٢- قال الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ هذا فيه تحذيرٌ لهذه الأمَّةِ أن تَسلُكَ مَسلكَهم، وأن تَقصِدَ مَنهَجَهم[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ذكَر جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّه فضَّل بني إسرائيلَ على العالمينَ، لَكِنَّ اللهَ جَلَّ وعلا بَيَّنَ أنَّ أمَّةَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خَيرٌ مِن بني إسرائيلَ، وأكرَمُ على اللهِ، كما صَرَّحَ بذلك في قَولِه تعالى:

= الحكيم). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧).

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠]؛ فـ (خَيْر) صيغةُ تَفضيلٍ، والآيةُ نَصٌّ صَريحٌ في أنَّهم خَيرٌ مِن جميعِ الأُمَمِ؛ بني إسرائيلَ وغَيرِهم، والتَّفضيلُ الوارِدُ في بني إسرائيلَ ذُكِرَ فيهم حالَ عَدَمِ وُجودِ أُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمعدومُ في حالِ عَدَمِه ليس بشَيءٍ حتَّى يُفَضَّلَ أو يُفَضَّلَ عليه[١]. وأيضًا فإنَّ الفضائِلَ الَّتي فاق بها بنو إسرائيلَ مِن الكِتابِ والحُكْم والنُّبُوَّةِ وغَيرِها مِن النُّعوتِ: قد حَصَلت كُلُّها لهذه الأُمَّةِ، وزادتْ عليهم هذه الأُمَّةُ فضائِلَ كَثيرةً، فهذه الشَّريعةُ شَريعةُ بني إسرائيلَ جُزءٌ منها؛ فإنَّ هذا الكِتابَ مُهيمِنٌ على سائِرِ الكُتُبِ السَّابقةِ، ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُصَدِّقٌ لجَميعِ المُرسَلينَ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أنَّ أهلَ الكتابِ تَفرَّقوا واختَلَفوا قبْلَ إرسالِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم إليهم[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ المُتعبِّدَ للهِ إنْ لم يكُنْ مُتابِعًا للرَّسولِ فإنَّه لا تُقبَلُ عبادتُه[٤].

٤- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أمَرَه في هذه الآيةِ باتِّباعِ الشَّريعةِ الَّتي جعَلَه عليها، ونهاه عن اتِّباعِ ما يخالِفُها، وهي أهواءُ الَّذين لا يَعلَمونَ؛ ولهذا كان كُلُّ مَن خرَج عن

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٨٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٤/ ٢٢٠).

الشَّريعةِ والسُّنَّة: مِن أهلِ الأهواءِ، كما سَمَّاهم السَّلَفُ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تحريمُ الإفتاءِ في دينِ اللهِ بالرَّأيِ المتضَمِّنِ لِمُخالَفةِ النُّصوصِ، والرَّأيِ الَّذي لم تَشهَدْ له النُّصوصُ بالقَبولِ؛ فقَسَم سُبحانَه الأمرَ بيْنَ الشَّريعةِ الَّتي جَعَله هو سُبحانَه عليها، وأَوحَى إليه العَمَلَ بها، وأَمَر الأُمَّةَ بها؛ وبَيْنَ اتِّباعِ أهواءِ الَّذين لا يَعلَمونَ؛ فأمَر بالأوَّلِ، ونهَى عن الثَّاني[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ جعَل البَصائِرَ للنَّاسِ؛ لأنَّه بَيانٌ للنَّاسِ عامَّةً، وجَعَل الهُدى والرَّحمةَ لِقَومٍ يُوقِنونَ؛ لأنَّه لا يَهتَدي ببيانِه إلَّا الموقِنُ بحقيقتِه، ولا يُرحَمُ به إلَّا مَنِ اتَّبَعه؛ المؤمِنُ بحَقِّيَّتِه[٣].

٧- قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ سُؤالٌ عربيٌّ معروفٌ، وهو أنَّ المبتدأَ الَّذي هو قَولُه: ﴿هَٰذَا﴾ اسمُ إشارةٍ إلى مُذكَّرٍ مُفرَدٍ، والخبَرُ الَّذي هو ﴿بَصَائِرُ﴾ جمعٌ مُكَسَّرٌ مُؤنَّثٌ، فيُقالُ: كيف يُسنَدُ الجمعُ المُؤنَّثُ المُكَسَّرُ إلى المُفرَدِ المُذكَّرِ؟

والجوابُ: أنَّ مَجموعَ القُرآنِ كِتابٌ واحِدٌ، تَصِحُّ الإشارةُ إليه بـ ﴿هَٰذَا﴾، وهذا الكِتابُ الواحِدُ يَشتَمِلُ على بَراهينَ كَثيرةٍ، فصَحَّ إسنادُ البَصائِرِ إليه؛ لاشتِمالِه عليها كما لا يخفَى[٤]، ولاشتِمالِه على آياتٍ وسُوَرٍ جُعِلَ كُلٌّ منها بَصيرةً[٥].

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٤٧).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيه أنَّ القُرآنَ الكَريمَ يَحصُلُ به التَّبصِرةُ في جَميعِ الأُمورِ للنَّاسِ، فيَحصُلُ به الانتِفاعُ للمُؤمِنينَ، والهدَى والرَّحمةُ؛ فيَهتَدونَ به إلى الصِّراطِ المُستَقيم في أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه، ويَحصُلُ به الخَيرُ والسُّرورُ والسَّعادةُ في الدُّنيا والآخرةِ، وهي الرَّحمةُ؛ فتَزكو به نُفوسُهم، وتَزدادُ به عُقولُهم، ويَزيدُ به إيمانُهم ويَقينُهم، وتقومُ به الحُجَّةُ على مَن أصَرَّ وعانَدَ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لإعلامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ السَّبيلَ الَّتي يَسيرُ عليها قَومُه هي السَّبيلُ الَّتي سار عليها مَن تَقدَّمَهم مِن الأُمَمِ(٢).

- وسَوقُ خَبَرِ بني إسْرائيلَ هنا في قولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ...﴾ إلى قولِه: ﴿... فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ تَوطئةٌ وتَمهيدٌ لِقَولِه بعْدَه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]؛ أثارَ ذلك ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية: ٧-٩]، ثمَّ قولِه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٠).

١٤]؛ فكان المَقصدُ قولَه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ [الجاثية: ١٨]؛ ولذلك عُطِفَت الجُملةُ بحَرْفِ (ثمَّ) الدَّالِّ على التَّراخي الرُّتبيِّ، أي: على أهمِّيَّة ما عُطِفَ بها. وكان مُقْتضى ظاهرِ النَّظْمِ أنْ يقعَ قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ...﴾ الآيتَين، بعْدَ قوله: ﴿جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ [الجاثية: ١٨]، فيَكونَ دَليلًا وحُجَّةً له، فأُخرِجَ النَّظْمُ على خِلافِ مُقْتضَى الظَّاهرِ، فجُعِلَت الحُجَّةُ تَمْهيدًا؛ قَصْدًا للتَّشويقِ لِمَا بعْدَه، ولِيَقَعَ ما بعْدَه مَعطوفًا بـ(ثُمَّ) الدَّالَّةِ على أهمِّيَّةِ ما بعْدَها(١).

- وأُدمِجَ في خِلالِ الآياتِ ما اختَلَفَ فيه بَنو إسْرائيلَ على ما دعَتْهم إليه شَريعتُهم؛ لِمَا فيه مِن تَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على مُخالَفةِ قَومِه دَعوتَه؛ تَنْظيرًا في أصْلِ الاخْتِلافِ دونَ أسْبابِه وعَوارِضِه. ولَمَّا كان في الكلامِ ما القصْدُ منه التَّسليةُ والاعتبارُ بأحْوالِ الأُمَمِ، حَسُنَ تأْكيدُ الخَبرِ بلامِ القسَمِ وحَرْفِ التَّحقيقِ (قدْ)؛ تأْكيدًا للمؤمنينَ بأنَّ اللهَ يَقْضي بيْنَهم وبيْنَ المُشركين، كشَأْنِه فيما حدَثَ بيْن بَني إسْرائيلَ(٢).

- وقد بُسِطَ في ذِكرِ النَّظيرِ في بَني إسْرائيلَ مِن وَصْفِ حالِهم حِينَما حدَثَ الاخْتِلافُ بيْنَهم، ومِن التَّصريحِ بالدَّاعي لِلاختِلافِ بيْنَهم؛ ما طُوِيَ مِن مِثلِ بَعْضِه مِن حالِ المُشركينَ حِينَ جاءَهُم الإسلامُ، فاخْتَلَفوا مع أهْلِه؛ إيجازًا في الكلامِ؛ لِلاعتِمادِ على ما يَفْهَمُه السَّامِعونَ بطَريقِ المُقايَسةِ، على أنَّ أكْثَرَه قد وقَعَ تَفصيلُه في الآياتِ السَّابقةِ، مِثلُ قولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٦]، وقولِه: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ [الجاثية: ١١]؛ فإنَّ ذلك يُقابِلُ قولَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٤٤).

هنا: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾، ومِثلُ قولِه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الجاثية: ١٣]؛ فإنَّه يُقابِلُ قولَه هنا: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، ومِثلُ قولِه: ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا ﴾ إلى قولِه: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: ٨، ٩]؛ فإنَّه يُقابِلُ قولَه هنا: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا ﴾، ومِثلُ قولِه: ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الجاثية: ١٤]؛ فإنَّه مُقابِلٌ قولَه هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[1].

- قولُه: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلْأَمْرِ﴾ للتَّعظيمِ، أي: مِن شُؤونٍ عَظيمةٍ، أي: شأنُ الأُمَّةِ وما به قِوامُ نِظامِها؛ إذ لمْ يَترُكْ مُوسى والأنبياءُ مِن بَعْدِه شَيئًا مُهِمًّا مِن مَصالحِهم إلَّا وقدْ وضَّحوه وبيَّنوه، وحذَّروا مِن الالْتِباسِ فيه[2].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ تَفريعَ إدْماجٍ[3]؛ لِمُناسَبتِه للحالةِ الَّتي أُرِيدَ تَنْظيرُها، وتَقديرُ الكلامِ: فاخْتَلفوا، وما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٣) الإدماجُ: هو أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

اخْتَلفوا إلَّا مِن بَعْدِ ما جاءَهم العِلمُ؛ فحُذِفَ المُفرَّغُ لِدَلالةِ ما بعْدَه عليه على طَريقةِ الإيجازِ؛ إذِ المَقصودُ هو التَّعجُّبُ مِن حالِهم كيفَ اختَلَفوا حِينَ لا مَظِنَّةَ لِلاختِلافِ؛ إذ كان الاختِلافُ بيْنَهم بعْدَ ما جاءَهم العِلمُ المَعهودُ بالذِّكرِ آنِفًا مِن الكتابِ والحُكْمِ والنُّبوَّةِ والبيِّناتِ مِن الأمْرِ، ولو اخْتَلَفوا قبْلَ ذلك لَكان لهم عُذْرٌ في الاختِلافِ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]. وهذا الكَلامُ كِنايةٌ عن عَدَمِ التَّعجُّبِ مِن اخْتِلافِ المُشرِكين معَ المُؤمِنينَ؛ حيثُ إنَّ المُشرِكينَ لَيسوا على عِلمٍ ولا هُدًى؛ لِيَعلَمَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه مَلطوفٌ به في رِسالتِه[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ خَبَرَهم العَجيبَ يُثيرُ سُؤالًا في نفْسِ سامِعِه عن جَزاءِ اللهِ إيَّاهم على فِعلِهم، وهذا جَوابٌ فيه إجْمالٌ؛ لِتَهويلِ ما سيُقْضَى به بيْنَهم في الخَيرِ والشَّرِّ؛ لأنَّ الخِلافَ يَقْتضي مُحِقًّا ومُبطِلًا[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ حَرْفُ (ثُم) للتَّراخي الرُّتبيِّ كما هو شأْنُها في عطْفِ الجُمَلِ، ولولا إرادةُ التَّراخي الرُّتبيِّ لَكانتِ الجُملةُ مَعطوفةً بالواوِ، وهذا التَّراخي يُفِيدُ أنَّ مَضمونَ الجُملةِ المعطوفةِ بحَرْفِ (ثُمَّ) أهمُّ مِن مَضمونِ الجُملةِ المعطوفِ عليها أهمِّيَّةَ الغَرَضِ على المُقدِّمةِ، والنَّتيجةِ على الدَّليلِ. وفي هذا التَّراخي تَنويهٌ بهذا الجَعلِ، وإشارةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٤٧).

إلى أنَّه أفضَلُ مِن إيتاءِ بَني إسرائيلَ الكِتابَ والحُكمَ والنُّبوَّةَ والبيِّناتِ مِن الأمْرِ؛ فنُبُوَّةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وكِتابُه، وحُكْمُه، وبَيِّناتُه؛ أفضَلُ وأهْدى ممَّا أُوتِيَه بَنو إسرائيلَ مِن مِثلِ ذلك[1].

- وحَرْفُ ﴿عَلَىٰ﴾ للاستِعلاءِ الدَّالِّ على التَّمكُّنِ والثَّباتِ[2].

- وتَنوينُ ﴿شَرِيعَةٍ﴾ للتَّعظيمِ؛ بقَرينةِ حَرْفِ التَّراخي الرُّتبيِّ[3].

- وقدْ بلَغَتْ هذه الجُملةُ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِن الإيجازِ مَبلَغًا عَظيمًا؛ إذ أفادتْ أنَّ شَريعةَ الإسلامِ أفضَلُ مِن شَريعةِ موسى، وأنَّها شَريعةٌ عَظيمةٌ، وأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُتمكِّنٌ منها، لا يُزَعْزِعُه شَيءٌ عن الدَّأَبِ في بَيانِها والدَّعوةِ إليها؛ ولذلك فُرِّعَ عليه أمْرُه باتِّباعِها بقولِه: ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾، أي: دُمْ على اتِّباعِها؛ فالأمْرُ لِطَلَبِ الدَّوامِ[4].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمَقصودُ منه: إسْماعُ المشركينَ؛ لِئلَّا يَطمَعوا بمُصانَعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيَّاهم حِينَ يَرَون منه الإغضاءَ عن هَفَواتِهم وأذاهم، وحِينَ يَسْمَعون في القرآنِ بالصَّفْحِ عنهم، كما في الآيةِ السَّالفةِ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]. وفيه أيضًا تَعريضٌ للمُسلِمينَ بأنْ يَحذَروا مِن أهواءِ الَّذين لا يَعلَمونَ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٤٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن اتِّباعِ أهواءِ الَّذين لا يَعلَمون، ويَتضمَّنُ تَعليلَ الأمْرِ باتِّباعِ شَريعةِ اللهِ؛ فإنَّ كَونَهم لا يُغْنونَ عنه مِن اللهِ شَيئًا، يَستلزِمُ أنَّ في مُخالَفةِ ما أمَرَ اللهُ مِن اتِّباعِ شَريعتِه ما يُوقِعُ في غضَبِ اللهِ وعِقابِه؛ فلا يُغْني عنه اتِّباعُ أهْوائِهم مِن عِقابِه[١].

- والكلامُ في قولِه: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ على حذْفِ مُضافٍ، أي: لنْ يُغْنوا عنك بَدَلًا من عَذابِ اللهِ، أي: قَليلًا مِن الإغناءِ البديلِ مِن عِقابِ اللهِ[٢].

- وعُطِفَ على هذا التَّعليلِ ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ تَعليلٌ آخَرُ؛ وهو ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، أي: إنَّهم ظالِمون، وأنت لَسْتَ مِن الظَّالِمينَ في شَيءٍ؛ فلا يَجوزُ أنْ تَتبَعَهم في شَيءٍ، وإنَّما يَتَّبِعُهم مَن همْ أولياؤُهم[٣].

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ تَذْييلٌ، وهو يُفيدُ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اللهُ وَلِيُّه؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أوَّلُ المُتَّقينَ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ إنْ كانتِ الإشارةُ إلى الكلامِ المُتقدِّمِ وما فيه مِن ضَرْبِ المَثلِ بمُوسى وقَومِه، ومِن تَفضيلِ شَريعةِ محمَّدٍ على شَريعةِ مُوسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، والأمْرِ بمُلازَمةِ اتِّباعِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والتَّحذيرِ مِن اتِّباعِ رَغائبِ الَّذين لا يَعلَمون؛ فهذه الجُملةُ بمَنزِلةِ التَّذييلِ لِمَا قبْلَه والتَّهيئةِ لأغْراضِه؛ تَنْبيهًا لِما في طَيِّها مِن عواصِمَ عن الشَّكِّ والباطِلِ. وإنْ كانت الإشارةُ إلى القُرآنِ -إذ هو حاضرٌ في الأذهانِ- كانت الجُملةُ استئنافًا أُعيدَ بها التَّنويهُ بشَأْنِ القُرآنِ ومُتَّبِعيه، والتَّعريضُ بتَحْميقِ الَّذين أعْرَضوا عنه، وتكونُ مُفيدةً تأْكيدَ قولِه آنفًا: ﴿هَٰذَا هُدًىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ١١]، وتكونُ الجُملةُ المُتقدِّمةُ صَريحةً في وَعيدِ الَّذين كَفَروا بآياتِه، وهذه تَعريضًا بأنَّهم لم يَحْظَوا بهذه البصائرِ، وكِلا الاحْتِمالَينِ رَشيقٌ، وكلٌّ بأنْ يكونَ مَقصودًا حَقيقٌ(١).

- قولُه: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ فيه جمْعُ البَصائرِ -إنْ كانتِ الإشارةُ إلى القُرآنِ باعتبارِ المُتبصِّرينَ بسَببِه، كما اقْتَضاهُ قولُه: ﴿لِلنَّاسِ﴾-؛ لأنَّ لكلِّ أحدٍ بَصيرتَه الخاصَّةَ؛ فهي أمْرٌ جُزئيٌّ بالتَّبَعِ؛ لِكَونِ صاحبِ كلِّ بَصيرةٍ جُزئيًّا مُشخَّصًا، فناسَبَ أنْ تُورَدَ جمْعًا، وهذا بخِلافِ إفرادِ (هُدًى) و(رَحْمَةٌ)؛ لأنَّ الهُدى والرَّحمةَ مَعنَيانِ كُلِّيَّانِ يَصلُحانِ للعدَدِ الكثيرِ(٢).

- وذُكِرَ لَفظُ (قَوم)؛ للإيماءِ إلى أنَّ الإيقانَ مُتمكِّنٌ مِن نُفوسِهم، كأنَّه مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم الَّتي تُميِّزُهم عن أقوامٍ آخَرينَ(٣).

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ الإيقانِ؛ لأنَّه مَعلومٌ بما جاءتْ بِه آياتُ اللهِ(٤).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢١-٢٣)

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿اجْتَرَحُوا﴾: أي: اكتَسَبوا وعَمِلوا، ومِنه الجارِحةُ للأعضاءِ الَّتي يُكتَسَبُ بها كالأيدي، وأصلُ (جرح): يدُلُّ على كَسْبٍ[١].

﴿وَخَتَمَ﴾: أي: طبَعَ وربَطَ، وأصلُ (ختم): يدُلُّ على التَّغطيةِ على الشَّيءِ، والاستيثاقِ منه، بألَّا يَدخُلَه شَيءٌ، ولا يَخرُجَ منه شَيءٌ[٢].

﴿غِشَاوَةً﴾: أي: غِطاءً وساترًا، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على التَّغطيةِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٥، ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٩).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾

﴿أَمۡ﴾ مُنقَطِعةٌ بمعنى: «بلْ» وهمزةِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ، أي: بل أَحَسِبَ...، أو تُقَدَّرُ بـ«بل» وَحْدَها، أي: بل حَسِبَ...، أو تُقَدَّرُ بالهَمزةِ وَحْدَها، أي: أَحَسِبَ الَّذين...[١].

قَولُه: ﴿نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الجَعلُ هنا بمعنى التَّصييرِ، و(هم) مَفعولُه الأوَّلُ. ﴿كَٱلَّذِينَ﴾: جارٌّ ومَجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ في محَلِّ نَصبٍ مَفعولٌ به ثانٍ لـ(نَجعَل)، أي: أحَسِبوا أَنْ نجعلَهم كائِنينَ كالَّذين آمَنوا. والمصدَرُ المؤوَّلُ ﴿أَن نَّجۡعَلَهُمۡ ...﴾ سَدَّ مَسَدَّ مَفعولَي ﴿حَسِبَ﴾.

قولُه: ﴿سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡ﴾: قُرِئَ ﴿سَوَآءً﴾ بالنَّصبِ والرَّفعِ[٢]؛ فأمَّا النَّصبُ ففيه أوجُهٌ:

الأوَّلُ: أنَّه حالٌ مِن الضَّميرِ المُستَتِرِ في مُتعَلِّقِ الجارِّ والمجرورِ ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أو مِن الضَّميرِ المنصوبِ في ﴿نَّجۡعَلَهُمۡ﴾، والتَّقديرُ: أَحَسِبوا أن نجعَلَهم مِثلَهم في حالِ استِواءِ محياهم ومماتِهم؟ ليس الأمرُ كذلك. ويكونُ المفعولُ الثَّاني للجَعْلِ ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كما تقدَّمَ.

الثَّاني: أن يكونَ ﴿سَوَآءً﴾ هو المفعولَ الثَّانيَ للجَعْلِ، و﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في محَلِّ نَصبٍ على الحالِ، أي: أن نجعَلَهم حالَ كَونِهم مِثلَهم سواءً.

الثَّالثُ: أن يكونَ ﴿سَوَآءً﴾ مَفعولًا بعدَ مَفعولِ الجَعْلِ، فيَكونَ ﴿كَٱلَّذِينَ﴾،

---

(١) قال ابنُ القيِّم في تفسيرِ ﴿أَمۡ﴾ المُنقطِعةِ: (الحقُّ أن يُقالَ: إنَّها على بابِها وأصلِها الأوَّلِ مِن المُعادَلةِ والاستِفهامِ حيث وقعتْ، وإن لم يكُنْ قبْلَها أداةُ استِفهامٍ في اللَّفظِ، وتقديرُها بـ«بَلْ» والهمزةِ خارجٌ عن أُصولِ اللُّغةِ العربيَّةِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٠٦، ٢٠٧). ويُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

(٢) يُنظر ما سيأتي في القراءات ذاتِ الأثر في التَّفسير (ص: ٩٠).

و﴿سَوَآءً﴾ كِلاهما في حَيِّزِ المَفعولِ الثَّاني للجَعْلِ وفي دَرَجةٍ واحدةٍ باعتِبارِ المفعوليَّةِ الثَّانيةِ، كما تقولُ: جعَلْتُ زيدًا عالِمًا كريمًا، فـ (عالِمًا كريمًا) وشِبهُه ولو تعَدَّدَت آلافًا: مَفعولٌ ثانٍ؛ لأنَّ الجَميعَ في معنًى واحِدٍ باعتِبارِ تعَلُّقِ الجَعلِ به، وهي كأخبارِ المبتدَأِ إذا تعَدَّدَت، فيَكونَ التَّقديرُ: أَحَسِبَ المُجتَرِحونَ أن نجعَلَهم مُماثِلينَ مُستَوِينَ في الحياةِ والمَماتِ؟! أي: هذا ليس بكائِنٍ.

الرَّابِعُ: أن يكونَ ﴿سَوَآءً﴾ بدَلًا مِن الكافِ في ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، بِناءً على أنَّها اسمٌ بمعنى (مِثْل).

﴿مَّحْيَاهُمْ﴾: فاعِلٌ بـ﴿سَوَآءً﴾؛ لأنَّه مَصدَرٌ وُصِفَ به، فهو في قُوَّةِ اسمِ الفاعِلِ المُشتَقِّ (مُسْتَوٍ)، ﴿وَمَمَاتُهُمْ﴾: معطوفٌ على ﴿مَّحْيَاهُمْ﴾ مَرفوعٌ مِثلُه.

وأمَّا الرَّفعُ فعلى أنَّ ﴿سَوَاءٌ﴾ خبَرٌ مُقَدَّمٌ. و﴿مَّحْيَاهُمْ﴾ مُبتدَأٌ مُؤخَّرٌ، وفي محَلِّ هذه الجُملةِ الاسميَّةِ أوجُهٌ من الإعرابِ؛ أحدُها: أنَّها استِئنافيَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ. الثَّاني: أنَّها في محَلِّ نَصبٍ حالٌ، والتَّقديرُ: أمْ حَسِبَ الكُفَّارُ أَنْ نُصَيِّرَهم مِثلَ المؤمِنينَ في حالِ استواءِ محياهم ومماتِهم؟! لَيْسوا كذلك، بل هم مُفْتَرِقونَ. الثَّالثُ: أنَّها بدَلٌ مِن الكافِ في ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ عندَ مَن جَوَّز إبدالَ الجُملةِ مِن المُفرَدِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مفرِّقًا بيْنَ حالِ الَّذين يَكتَسِبونَ السَّيِّئاتِ، وحالِ المؤمنينَ الَّذين يَعمَلونَ الصَّالحاتِ: أمْ ظَنَّ الَّذين اكتَسَبوا السَّيِّئاتِ أن نجعَلَ حياتَهم

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٥)، ((أمالي ابن الحاجب)) (١/ ١٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٤٧).

ومَوتَهم كحياةِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ ومَوتِهم؟! كلَّا، لا يَستوي الفَريقانِ حياةً ولا مَوتًا، بِئسَ حُكمًا هذا الحُكمُ!

ثمَّ يؤكِّدُ سبحانَه على عدَمِ المُساواةِ بيْنَ الفريقَينِ، فيقولُ: وخَلَق اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ بالعَدلِ والحِكمةِ، ولِيُجزَى كُلُّ عامِلٍ بعَمَلِه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وهم لا يُظلَمونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مسلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: أفرَأَيْتَ -يا محمَّدُ- مَنِ اتَّخَذ ما يَهواه مَعبودًا له مِن دونِ اللهِ تعالى، وأضلَّه اللهُ على عِلمٍ منه سُبحانَه بأنَّه مِن أهلِ الضَّلالِ، وطَبَع على سَمْعِه وقَلبِه؛ فليس له طريقٌ إلى الهُدى بحالٍ، وجَعَل اللهُ على بَصَرِه غِطاءً يَمنَعُه مِن رُؤيةِ الحَقِّ، فمَن يَهدي هذا الضَّالَّ إلى طريقِ الحَقِّ واتِّباعِه بعدَ أنْ أضَلَّه اللهُ؟! أفلا تتذكَّرونَ -أيُّها النَّاسُ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى الفَرْقَ بيْنَ الظَّالِمينَ وبيْنَ المتَّقينَ مِن الوَجهِ الَّذي تقدَّمَ في قَولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩]؛ بيَّنَ الفَرقَ بيْنَهما مِن وَجهٍ آخَرَ[١].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿سَوَآءً﴾ قِراءتانِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥، ٦٧٦).

١- قِراءةُ: ﴿سَوَآءَ﴾ بالنَّصبِ، على معنى: أمْ حَسِبَ الَّذين اجترَحوا السَّيِّئاتِ أن نجعَلَ حياتَهم وموتَهم كحياةِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ ومَوتِهم؟! كلَّا، لا يَستوي الفَريقانِ حياةً ولا مَوتًا[1].

٢- قِراءةُ: ﴿سَوَآءٌ﴾ بالرَّفعِ. قيل: هي جُملةٌ استِئنافيَّةٌ معناها: أنَّ مَحْيا المؤمِنِ ومَماتَه سواءٌ؛ فيَحيا مؤمِنًا، ويموتُ كذلك على الإيمانِ، ويُبعَثُ عليه، ومَحْيا الكافِرِ ومَماتَه سواءٌ؛ فيَحيا كافِرًا، ويموتُ كذلك على الكُفرِ، ويُبعَثُ عليه. وقيل: هي داخِلةٌ في حيِّزِ الجُملةِ الاستِفهاميَّةِ السَّابقةِ، ومعناها يَرجِعُ للقِراءةِ الأُولى[2].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾.

أي: أمْ ظَنَّ الَّذين عَمِلوا السَّيِّئاتِ في الدُّنيا واكتَسَبوها أن نُساوِيَهم في حياتِهم ومَوتِهم بالَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ؟! كلَّا؛ فليس المُؤمِنونَ سَواءً مع الكفَّارِ، لا في المحْيا ولا في المماتِ[3].

(١) قرأ بها حفصٌ عن عاصمٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦١)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٦٤٨).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٧٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٨)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٦٤٩، ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٣، ٣٥٥).
قال الشوكاني: (﴿أَمْ﴾ هي المُنقَطِعةُ المُقدَّرةُ بـ«بلْ والهمزة»، وما فيها من معنى «بل» للانتِقالِ من البَيانِ الأوَّلِ إلى الثَّاني، والهَمزةُ لإنكارِ الحِسْبانِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠). =

كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ

= وقال الرازي: (﴿أَمْ﴾ كَلِمةٌ وُضِعَت للاستِفهامِ عن شَيءٍ حالَ كَونِه مَعطوفًا على شَيءٍ آخَرَ، سواءٌ كان ذلك المعطوفُ مذكورًا أو مُضمَرًا، والتَّقديرُ هاهنا: أفيَعلَمُ المُشرِكونَ هذا، أم يَحسَبونَ أنَّا نَتولَّاهم كما نَتولَّى المُتَّقينَ؟). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٦).

وقال ابنُ القَيِّم: (﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي: أَحَسِبوا هذا فهُم مُغتَرُّونَ، أم لم يَحسَبوه فما لهم مقيمون على السَّيِّئاتِ؟ وعلى هذا سائِرُ ما يَرِدُ عليك مِن هذا البابِ، وتأمَّلْ كيف يَذكُرُ سُبحانَه القِسْمَ الَّذي يَظُنُّونَه ويَزعُمونَه فيُنكِرُه عليهم، وأنَّه ممَّا لا يَنبغي أن يكونَ، وَيترُكُ ذِكرَ القِسمِ الآخَرِ الَّذي لا يَذهَبونَ إليه، فترَدَّدَ الكَلامُ بيْنَ قِسمَينِ، فيُصَرِّحُ بإنكارِ أحَدِهما، وهو الَّذي سِيقَ الكلامُ لإنكارِه، ويكتفي منه بذِكرِ الآخَرِ، وهذه طريقةٌ بَديعةٌ عَجيبةٌ في القُرآنِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٠٨).

وقال ابن جُزَي: (المرادُ بالَّذين اجتَرَحوا السَّيِّئاتِ: الكُفَّارُ؛ لِمُقابَلتِه بالَّذين آمَنوا، ولأنَّ الآيةَ مَكِّيَّةٌ، وقد يَتناوَلُ لَفظُها المُذنِبينَ مِن المؤمِنينَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧١).

وقال ابن عاشور: (واعْلَمْ أنَّ هذه الآيةَ وإنْ كان مَورِدُها في تَخالُفِ حالَي المُشرِكينَ والمُؤمِنينَ، فإنَّ نَوْطَ الحُكمِ فيها بصِلةِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يَجعَلُ منها إيماءً إلى تَفاوُتِ حالَيِ المُسيئينَ والمُحسِنينَ مِن أهلِ الإيمانِ وإنْ لم يَحسَبْ أحدٌ مِن المُؤمِنينَ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٥).

وقال ابنُ جُزَي في تفسيرِ الآيةِ: (ومعناها: إنكارُ ما حَسِبَه الكُفَّارُ مِن أن يَكونوا هم والمؤمِنونَ سَواءً في المحيا والمماتِ، وفي تأويلِها مع ذلك قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّ المرادَ: ليس المؤمنونَ سَواءً مع الكُفَّارِ، لا في المحيا ولا في المماتِ؛ فإنَّ المؤمِنينَ عاشوا على التَّقوى والطَّاعةِ، والكُفَّارَ عاشوا على الكُفرِ والمعصيةِ، وكذلك مماتُهم ليس سَواءً.

والقَولُ الآخَرُ: أنَّهم استَوَوا في المحيا في أمورِ الدُّنيا مِن الصِّحَّةِ والرِّزقِ، فلا يَستَوونَ في المماتِ، بل يَسعَدُ المُؤمِنونَ ويَشقى الكافِرونَ، فالمرادُ بها إثباتُ الجَزاءِ في الآخرةِ، وتَفضيلُ المؤمِنينَ على الكافِرينَ في الآخرةِ، وهذا المعنى هو الأظهَرُ والأرجَحُ، فيكونُ معنى الآيةِ كقَولِه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، وكقَولِه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧١).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ: الإعلامُ بنَفيِ المُساواةِ بيْنَهما في المحيا والمماتِ، والدُّنيا والآخرةِ: البَغَويُّ، والرَّسْعَنيُّ، وابنُ كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير =

نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وعن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((يُبعَثُ كُلُّ عَبدٍ على ما مات عليه))(١).

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾.

أي: بِئسَ هذا الحُكمُ الَّذي حَسِبَه المُشرِكونَ؛ أنَّ اللهَ يُساوِي بيْنَ الَّذين عَمِلوا السَّيِّئاتِ والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ في مَحياهم ومماتِهم(٢)!

= البغوي)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

قال الزمخشري: (المعنى: إنكارُ أن يَستويَ المُسيئُونَ والمُحسِنونَ مَحْيًا، وأن يَستوُوا مَماتًا؛ لافتِراقِ أحوالِهم أحياءً؛ حيثُ عاش هؤلاء على القيامِ بالطَّاعاتِ، وأولئك على رُكوبِ المعاصي، ومماتًا؛ حيث مات هؤلاءِ على البُشرى بالرَّحمةِ، والوُصولِ إلى ثوابِ اللهِ ورِضوانِه، وأولئك على اليأسِ مِن رَحمةِ اللهِ، والوُصولِ إلى هَولِ ما أُعِدَّ لهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٠).

وقال القاسمي: (عاش هؤلاءِ على الهدى، والعِلمِ باللهِ، وسَنَنِ الرَّشادِ، وطُمأنينةِ القَلبِ، وأولئك على الضَّلالِ والجَهلِ، والعَبَثِ والفَسادِ، واضطِرابِ القَلبِ، وضِيقِ الصَّدرِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٠).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: أمْ ظَنَّ الَّذين اجترَحوا السَّيِّئاتِ مِن الأعمالِ في الدُّنيا، وكَذَّبوا رُسُلَ اللهِ، وخالَفوا أمْرَ رَبِّهم، وعَبَدوا غَيْرَه: أنْ نَجعَلَهم في الآخرةِ كالَّذينَ آمَنوا باللهِ وصَدَّقوا رُسُلَه وعَمِلوا الصَّالحاتِ، فأطاعوا اللهَ، وأخلَصوا له العبادةَ دونَ ما سِواه مِن الأندادِ والآلهةِ؟! كَلَّا. ما كان اللهُ لِيَفعَلَ ذلك، لقد مَيَّزَ بيْنَ الفَريقَين، فجَعَل حِزبَ الإيمانِ في الجنَّةِ، وحِزبَ الكُفرِ في السَّعيرِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٧، ٨٨).

(١) رواه مسلم (٢٨٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧). =

= قال السعدي: (فإنَّه حُكمٌ يُخالِفُ حِكمةَ أحكَمِ الحاكِمينَ، وخَيرِ العادِلينَ، ويُناقِضُ العُقولَ

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنكَرَ اللهُ تعالى التَّسويةَ بيْنَ المؤمِنِ والكافِرِ، وذَمَّهم على الحُكمِ بها؛ أَتْبَعَ ذلك الدَّليلَ القَطعيَّ على أنَّ الفَريقَينِ لا يَستويانِ، وإلَّا لَمَا كان الخالِقُ لهذا الوُجودِ عَزيزًا ولا حَكيمًا[(١)].

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: وخَلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ بالعَدلِ والحِكمةِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

أي: ولِيُثيبَ اللهُ كُلَّ عامِلٍ بما عَمِلَه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وبما يَستَحِقُّه مِن ثوابٍ أو عِقابٍ[(٣)].

السَّليمةَ، والفِطَرَ المُستقيمةَ، ويُضادُّ ما نَزَلت به الكُتُبُ، وأخبَرَت به الرُّسُلُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٨٦)، = = ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: ولا يَظلِمُ اللهُ النَّاسَ شَيئًا مِن جزاءِ أعمالِهم؛ بنَقصِ ثَوابِهم، أو زيادةِ عِقابِهم(١).

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى عاد إلى شَرحِ أحوالِ الكُفَّارِ وقبائِحِ طَوائِفِهم(٢).

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى غايةَ البَيانِ أنَّه الإلهُ وَحْدَه، بما له مِنَ الإحاطةِ بجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ، وأنَّه لا بُدَّ مِن جَمْعِه الخلائِقَ لِيَومِ الفَصلِ؛ للحُكمِ بيْنَهم بما له مِنَ الحِكمةِ والقُدرةِ؛ وحَقَّرَ الهوى ونهَى عن اتِّباعِه، وكان المُشرِكونَ قد عَظَّموه بحيثُ جَعَلوه مَعبودًا، فلَزِمَ مِن ذلك تحقيرُهم الإلهَ، ولم يَرجِعوا عن ضَلالِهم- تَسَبَّبَ عن ذلك التَّعجيبُ مِمَّن يَظُنُّ أنَّه يَقدِرُ على رَدِّ أحَدٍ مِنهم عن غَيِّه بشَيءٍ مِن الأشياءِ(٣).

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

قال البِقاعي: (لَمَّا كان التَّقديرُ: لِيَكونَ كُلُّ مُسَبَّبٍ مُطابِقًا لأسبابه، عَطَف عليه قَولَه: ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٣، ٩٤).

أي: أفرأيتَ -يا محمَّدُ- الَّذي جَعَل مَعبودَه ما يَهواه، فيَعبُدُ ويُطيعُ ما هَوِيَه دونَ اللهِ المُستَحِقِّ للعِبادةِ وَحْدَه[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

أي: وأضلَّ اللهُ ذلك المُتَّبِعَ هواه عن طَريقِ الحَقِّ، على عِلمٍ مِن الله سبَق أنَّه يَضِلُّ ولا يَهتَدي[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٧، ٣٥٨).

قال ابنُ عاشور: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمقصودُ مَنْ مَعه مِنَ المُسلِمينَ، أو الخِطابُ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ، أي: تناهَت حالُهم في الظُّهورِ، فلا يختَصُّ بها مُخاطَبٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٧).

وقال ابن عطيَّة: (هذه الآيةُ وإن كانت نزَلَت في هوى الكُفرِ، فهي مُتناوِلةٌ جميعَ هوى النَّفْسِ الأمَّارةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

ممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والسمعاني، وابنُ القيِّم -ونَسَبه إلى جُمهورِ المُفَسِّرينَ-، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٣٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤٢٦).

قال ابنُ القيِّم: (فالمعنى: أضلَّه اللهُ عالِمًا به وبأقواله، وما يُناسِبُه ويَليقُ به ولا يَصلُحُ له غَيرُه قبْلَ خَلْقِه وبَعْدَه، وأنَّه أهلٌ للضَّلالِ، وليس أهلًا أن يُهدى، وأنَّه لو هُدِيَ لَكان قد وَضَع الهُدى =

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾.

أي: وطَبَع اللهُ على سَمْعِه، فلا يَنتَفِعُ بسَماعِ الحَقِّ، وطَبَع على قَلبِه فلا يَعقِلُ به الحَقَّ؛ فليس له طريقٌ إلى الهُدى بسَمعِه ولا قَلبِه[1].

كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ

= في غيرِ مَحَلِّه وعندَ مَن لا يَستَحِقُّه، والرَّبُّ تعالى حكيمٌ إنَّما يَضَعُ الأشياءَ في مَحالِّها اللَّائِقةِ بها؛ فانتَظَمَت الآيةُ على هذا القَولِ في إثباتِ القَدَرِ والحِكمةِ الَّتي لأجْلِها قُدِّرَ عليه الضَّلالُ، وذُكِرَ العِلمُ؛ إذ هو الكاشِفُ المُبِينُ لحقائِقِ الأمورِ، ووَضْعِ الشَّيءِ في مَواضِعِه، وإعطاءِ الخَيرِ مَن يَستَحِقُّه، ومَنْعِه مَن لا يَستَحِقُّه؛ فإنَّ هذا لا يَحصُلُ بدونِ العِلمِ؛ فهو سبحانَه أضَلَّه على عِلْمِه بأحوالِه الَّتي تُناسِبُ ضَلالَه وتَقتَضيه وتَستَدعيه). ((شفاء العليل)) (ص: ٣٠).

وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ أي: على عِلمٍ قد عَلِمَه منه. وقيل: أضلَّه عن الثَّوابِ على عِلمٍ منه بأنَّه لا يَستَحِقُّه. وقال ابنُ عبَّاسٍ: أي: على عِلمٍ قد سَبَق عِندَه أنَّه سيَضِلُّ. مِقاتِلٌ: على عِلمٍ منه أنَّه ضالٌّ. والمعنى مُتقارِبٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٩).

وقال ابنُ عطية: (وقالت فِرقةٌ: أي: على عِلمٍ مِن هذا الضَّلالِ؛ فإنَّ الحَقَّ هو الَّذي يُترَكُ ويُعرَضُ عنه، فتكونُ الآيةُ على هذا مِن آياتِ العِنادِ، نَحو قَولِه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل: ١٤]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٦).

وقال ابن عاشور: (ومعنى ﴿عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ أنَّهم أحاطت بهم أسبابُ الضَّلالةِ مع أنَّهم أهلُ عِلمٍ، أي: عُقولٍ سَليمةٍ، أو مع أنَّهم بَلَغَهم العِلمُ بما يَهديهم، وذلك بالقُرآنِ ودَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى الإسلامِ... والمعنى: أنَّه ضالٌّ مع ما له من صِفةِ العِلمِ، فالعِلمُ هنا مِنْ وَصفِ مَن اتَّخَذ إلهَه هواه، وهو مُتمَكِّنٌ مِن العِلمِ لو خَلَع عن نَفْسِه المُكابَرةَ، والمَيلَ إلى الهَوى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٨).

وقال ابنُ كثير: (وقولُه: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ يَحتَمِلُ قَولَين؛ أحَدُها: وأضَلَّه اللهُ؛ لعِلْمِه أنَّه يَستَحِقُّ ذلك. والآخَرُ: وأضَلَّه اللهُ بعدَ بُلوغِ العِلمِ إليه، وقيامِ الحُجَّةِ عليه. والثَّاني يَستلزِمُ الأوَّلَ، ولا يَنعَكِسُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٧].

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾.

أي: وجَعَل اللهُ على بَصَرِه غِطاءً يَمنَعُه مِن رُؤيةِ الحَقِّ، فهو لا يَنتَفِعُ ببَصَرِه لِمَعرفةِ الحَقِّ واتِّباعِه[1].

﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾.

أي: لا أحَدَ يَهديه إلى طريقِ الحَقِّ واتِّباعِه بعدَ أن أضَلَّه اللهُ[2]!

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: أفلا تَتذَكَّرونَ -أيُّها النَّاسُ- فتَعلَموا أنَّ مَن كان هذا حالَه فلنْ يَهتديَ أبدًا، ولا سبيلَ لأحدٍ إلى هِدايتِه[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٧، ٩٨).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والبقاعي. يُنظر: المصدران السابقان.

وقال السَّمرقندي: (﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ مَن لا يُقبِلُ إلى دينِ اللهِ، ولا يَرغَبُ في طاعتِه: لا يُكرِمُه بالهُدى والتَّوحيدِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٨٠).

وقال الشوكاني: (﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تذَكُّرَ اعتِبارٍ، حتَّى تَعلَموا حَقيقةَ الحالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿أَفَلَا﴾ يعني: أفهلَّا ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ فتَعتَبِروا في صُنعِ الله، فتُوحِّدوه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٤٠).

وقيل: المعنى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتَعرِفوا قُدرتَه على ما يَشاءُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والقرطبي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يُستنبَطُ مِن هذه الآيةِ تَبايُنُ حالِ المؤمِنِ العاصي مِن حالِ الطَّائِعِ، وإن كانت في الكُفَّارِ[1].

٢- قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ عن مَسروقٍ قال: (قال لي رَجُلٌ مِن أهلِ مَكَّةَ: هذا مَقامُ أخيك تميمٍ الدَّاريِّ، لقد رأيتُه ذاتَ لَيلةٍ حتَّى أصبَحَ، أو كَرَبَ[2] أن يُصبِحَ يَقرأُ آيةً مِن كِتابِ اللهِ، يَركَعُ ويَسجُدُ ويَبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ...﴾ الآيةَ)[3].

وقال بَشيرٌ: (بِتُّ عندَ الرَّبيعِ بنِ خُثَيمٍ ذاتَ لَيلةٍ، فقام يُصَلِّي، فمَرَّ بهذه الآيةِ فمَكَث ليلَه حتَّى أصبَحَ لم يَعْدُها، ببكاءٍ شَديدٍ)!

وقال إبراهيمُ بنُ الأشعَثِ: (كثيرًا ما رأيتُ الفُضَيلَ بنَ عِياضٍ يُرَدِّدُ مِن أوَّلِ اللَّيلِ إلى آخِرِه هذه الآيةَ ونَظيرَها، ثمَّ يقولُ: لَيْتَ شِعْري مِن أيِّ الفريقَينِ أنتَ؟!)، وكانت هذه الآيةُ تُسَمَّى مَبكاةَ العابِدينَ[4]!

= وقيل: المعنى: أفلا تَذَكَّرونَ ما يَنفَعُكم فتَسلُكوه، وما يَضُرُّكم فتَجتَنِبوه. قاله السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢١).

(٢) كَرَب: أي: كادَ وأوشَكَ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لأبي عبد الله الرازي (ص: ٢٦٧).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٨٣٣).

قال العَيْني في ((نخب الافكار)) (٥/ ٤٥٧): (رجالُه ثقاتٌ)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سير أعلام النبلاء)) (٢/ ٤٤٥): (رجالُه ثقاتٌ).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٦).

٣- قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إذا تأمَّلْتَ حالَ عُشَّاقِ الصُّوَرِ المُتيَّمينَ فيها، وجَدْتَ هذه الآيةَ مُنطَبِقةً عليهم، مُخبِرةً عن حالِهم[١].

٤- مُخالَفةُ ما تهوى الأنفُسُ شاقٌّ عليها، وصَعبٌ خُروجُها عنه؛ ولذلك بلَغَ أهلُ الهوى في مُساعدتِه مَبالغَ لا يَبلُغُها غيرُهم، وكفى شاهِدًا على ذلك حالُ المحِبِّينَ، وحالُ مَن بُعِثَ إليهم رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن المُشرِكينَ وأهلِ الكِتابِ وغَيرِهم، ممَّن صَمَّم على ما هو عليه، حتَّى رَضُوا بإهلاكِ النُّفوسِ والأموالِ، ولم يَرضَوا بمُخالَفةِ الهوى! حتَّى قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، وقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤][٢]؛ فأصلُ الشَّرِّ مُتابَعةُ الهَوى، والخَيرُ كُلُّه في مُخالَفتِه؛ فنِعْمَ ما قال الشاعِرُ:

إذا طالَبَتْك النَّفْسُ يَومًا بشَهوةٍ وكان إليها للخِلافِ طَريقُ
فدَعْها وخالِفْ ما هَوِيتَ فإنَّما هَواكَ عَدُوٌّ والخِلافُ صَديقُ[٣]

٥- قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الآيةُ دليلٌ واضِحٌ على أنَّ العِلمَ مع الخِذلانِ غيرُ نافِعٍ، وبَعثٌ على الاستِهداءِ مِن عندِ اللهِ، وطَرحِ الكَيفِ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٥٢).
(٢) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٢/ ٢٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٠٣).
والبيتان منسوبانِ لأبي الفتحِ البُسْتي. يُنظر: ((مجاني الأدب في حدائق العرب)) لرزق الله بن يوسف (٢/ ٥٢)، والقسم الرابع من مجلة المورد العراقية (٣٤/ ١٠٢). ونسبهما القرطبيُّ لابنِ دُرَيد. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٦٣)، ((ذم الهوى)) لابن الجوزي (ص: ٥٢، ٥٣).

بيْنَ يَدَيه، والتَّبَرُّؤِ مِن الحَولِ والقُوَّةِ إليه[١]، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في التَّحذيرِ مِن أن يكونَ الهوى هو الباعِثَ للمُؤمِنينَ على أعمالِهم، ويَترُكوا اتِّباعَ أدِلَّةِ الحَقِّ، فإذا كان الحَقُّ مَحبوبًا لأحدٍ فذلك مِن التَّخَلُّقِ بمَحبَّةِ الحَقِّ تَبَعًا للدَّليلِ، مِثلُ ما يهوى المؤمِنُ الصَّلاةَ والجَماعةَ، وقيامَ رَمَضانَ وتِلاوةَ القُرآنِ؛ وأمَّا اتِّباعُ الأمرِ المحبوبِ لإرضاءِ النَّفْسِ دونَ نَظَرٍ في صَلاحِه أو فَسادِه فذلك سَبَبُ الضَّلالِ وسُوءِ السِّيرةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- المذنبُ إنْ عُفِي عنه بغيرِ سببٍ مِن الأسبابِ المكفِّرةِ ونحوِها، فإنَّه لابدَّ أن تلحقَه عقوباتٌ كثيرةٌ، منها ما فاتَه مِن ثوابِ المحسنين؛ فإنَّ اللهَ تعالى وإنْ عَفَا عنِ المُذنِبِ فلا يَجعلُه كالَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٣].

٢- اللهُ تعالى قائِمٌ بالقِسطِ، ولا يَظلِمُ النَّاسَ شيئًا؛ فلا يَضَعُ شَيئًا في غيرِ مَوضِعِه، ولا يُسَوِّي بيْنَ مُختَلِفينِ، ولا يُفَرِّقُ بيْنَ مُتماثِلَينِ، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٤].

٣- مَن أحَبَّ شَيئًا وأطاعه، وأحَبَّ عليه وأبغَضَ عليه: فهو إلهُه؛ فمَن كان لا يُحِبُّ ولا يُبغِضُ إلَّا لله، ولا يُوالي ولا يُعادي إلَّا له: فاللهُ إلهُه حَقًّا، ومَن أحَبَّ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٩، ٣٦٠).
(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٧٩٧).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٩٢).

لِهَواه وأبغَضَ له، ووالى عليه وعادى عليه: فإلهُه هَواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1].

٤- إذا أمَرَ اللهُ على ألسِنةِ رُسُلِه بشَيءٍ، فعدَلَ عنه العبدُ إلى ما يُحِبُّه هو؛ كان عابدًا لِهَواه لا عابِدًا لله؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[2]!

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ليس يَبقى للقَدَريَّةِ مع هذه الآيةِ عُذرٌ ولا حِيلةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَرَّح بمَنعِه إيَّاهم عن الهدَى حينَ أخبَرَ أنَّه ختَم على قَلبِ هذا الكافِرِ وسَمعِه[3].

٦- قَولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ عن الحَسَنِ قال: (هو المنافِقُ لا يَهوى شَيئًا إلَّا رَكِبَه)[4]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ إطلاقُ الإلهِ على الهوى المتَّبَعِ[5].

٨- تحقيقُ التَّوحيدِ يستلزِمُ اجتِنابَ المعاصي؛ لأنَّ المعاصيَ صادِرةٌ عن الهوَى، وهذا نوعٌ مِن الشِّركِ، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، فالمعاصي مِن

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ٧).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٤٩).

(٤) أخرجه أبو بكرٍ الفِرْيابي في ((صفة النفاق وذم المنافقين)) (٤٣)، ومن طريقه ابن الجوزي في ((ذم الهوى)) (ص: ١٧). وقد ورد معناه عن غير واحد من السلف. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٧).

(٥) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٥٦).

حيثُ المعنى العامُّ، أو الجِنسُ العامُّ يُمكِنُ أنْ نَعتبِرَها مِن الشِّركِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾

- الآيةُ انتِقالٌ مِن وَصْفِ تَكذيبِهم بالآياتِ واسْتِهزائِهم بها، ثمَّ مِن أمْرِ المُؤمِنينَ بالصَّفْحِ عنهم، وإيكالِ جَزاءِ صَنائعِهم إلى اللهِ، ثمَّ مِن التَّثبيتِ على مُلازَمةِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ إلى وَصْفِ صِنفٍ آخَرَ مِن ضَلالِهم واسْتِهزائِهم بالوعْدِ والوعيدِ، وإحالَتِهم الحياةَ بعْدَ الموتِ، والجَزاءَ على الأعمالِ، وتَخْييلِهم للنَّاسِ أنَّهم يَصِيرُون في الآخرةِ على الحالِ الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا؛ عَظيمُهم في الدُّنيا عَظيمُهم في الآخرةِ، وضَعيفُهم في الدُّنيا ضَعيفُهم في الآخرةِ، وهذا الانتِقالُ رُجوعٌ إلى بَيانِ قولِه: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾[٢] [الجاثية: ١٥].

-قولُه: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ...﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ تَغايُرِ حالَيِ المُسيئينَ والمُحسِنينَ، إثْرَ بَيانِ تَبايُنِ حالَيِ الظَّالِمينَ والمُتَّقينَ[٣].

- وحَرْفُ (أَمْ) في قولِه: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾ للإضرابِ الانتِقاليِّ، والاستِفهامُ لإنكارِ حِسبانِ أنْ يَسْتويَ المُسيئون والمُحسِنون مَحيًا، وأنْ يَسْتوُوا مَماتًا؛ لافتراقِ أحْوالِهم أحياءً، ومَماتًا. فعلَى هذا يكون قولُه: ﴿سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡ﴾ من الحِسبانِ

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٤٨، ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٢).

المنكورِ. وقيلَ: ﴿سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ على معنَى: أنَّ محيَا المسيئين ومماتَهم سواءٌ، وكذلك محيا المحسنين ومماتُهم: كلٌّ يموتُ على حسَبِ ما عاشَ عليه. أو ذلك أنَّه حِينَ أنْكر حِسبانَ أنْ يَستويَ الكافرُ والمُؤمِنُ، قِيل: فإذَنْ كيف الحالُ؟ فأُجِيبَ: أنَّ المُؤمِنَ يَعيشُ حَميدًا ويَموتُ سَعيدًا؛ يَعِيشُ في طاعةِ الرَّحمنِ، ثمَّ المَرجِعُ إلى الرِّضوانِ، والكافرُ يَعيشُ في طاعةِ الشَّيطانِ، والمآبُ إلى النِّيرانِ، فأنَّى يَستويانِ(١)؟!

- ونِسبةُ حِسبانِ التَّساوي إلى الَّذين اجْتَرَحوا السَّيِّئاتِ في خِضَمِّ الإنكارِ التَّوبيخيِّ، مع أنَّهم بمَعْزِلٍ منه جازِمونَ بفَضْلِهم على المُؤمِنينَ؛ للمُبالَغةِ في الإنكارِ، والتَّشديدِ في التَّوبيخِ؛ فإنَّ إنْكارَ حِسْبانِ التَّساوي والتَّوبيخَ عليه إنْكارٌ لِحسبانِ الجزْمِ بالفضْلِ وتَوبيخٌ عليهِ على أبلَغِ وَجْهٍ وآكَدِه(٢).

- والاجتِراحُ: الاكْتِسابُ، وصِيغةُ الافتِعالِ للمُبالَغةِ، وهو مُشتَقٌّ مِن الجُرْحِ(٣).

- و﴿ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ همُ المُشرِكون، وإنَّما عُبِّرَ عنهم بهذا العُنوانِ؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن تَعليلِ إنكارِ المُشابَهةِ والمُساواةِ بيْنَهم وبيْنَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ عِندَ اللهِ في عالَمِ الخُلْدِ، ولأنَّ اكتِسابَ السَّيِّئاتِ مِن شِعارِ أهْلِ الشِّركِ؛ إذ لَيس لهم دِينٌ وازِعٌ يَزَعُهم عن السَّيِّئاتِ، ولا هُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥١ - ٣٥٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٢).
قال ابن عاشور: (ومِن خِلافِ ظاهِرِ التَّركيبِ ما قيلَ: إنَّ مَدلولَ ﴿سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡ﴾ ليس مِن حِسبانِ المُشرِكينَ المنكورِ، ولكِنَّه كلامٌ مُستأنَفٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٢).

مُؤمِنونَ بالبَعثِ والجزاءِ فيَكونَ إيمانُهم به مُرغِّبًا في الجَزاءِ[١].

- ومَوقِعُ التَّشبيهِ في قولِه: ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ الإيماءُ إلى أنَّ اللهَ قدَّرَ للمُؤمِنينَ حُسنَ الحالِ بعْدَ المماتِ، حتَّى صار ذلك المُقدَّرُ مَضرِبَ الأمثالِ ومَناطَ التَّشبيهِ، وإلى أنَّ حِسبانَ المُشرِكين أنفُسَهم في الآخِرةِ على حالةٍ حَسنةٍ باطلٌ، فعُبِّرَ عن حِسبانِهم الباطِلِ بأنَّهم أثْبَتوا لِأنفُسِهم في الآخِرةِ الحالَ الَّتي هي حالُ المُؤمِنينَ، أي: حسِبَ المُشرِكون بزَعْمِهم أنْ يَكونوا بعْدَ الموتِ في حالةٍ إذا أراد الواصفُ أنْ يَصِفَها وَصَفَها بمُشابَهةِ حالِ المُؤمِنينَ عندَ اللهِ وفي نفْسِ الأمْرِ. فقُصِد هنا التَّنويهُ بالمُؤمِنينَ، والعِنايةُ بزُلْفاهم عِندَ اللهِ، فكأنَّه قيل: أحَسِبوا أنْ نَجعَلَهم في حالةٍ حَسَنةٍ؟ ولكنَّ هذا المأمولَ في حِسبانِهم هو في نَفْسِ الأمْرِ حالُ المُؤمِنينَ لا حالُهم، فأُوجِزَ الكلامُ، وفَهْمُ السَّامعِ يَبسُطُه. والمُواجَهُ بهذا الكلامِ همُ النَّبيُّ والمُؤمِنونَ؛ تَكمِلةً للغَرَضِ المُبتدَأِ به في قولِه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[٢] [الجاثية: ١٤].

- وقولُه: ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مُعترِضًا بيْنَ مَفعولَيْ (نَجعَلُ)، وهُما ضَميرَا الغائبينَ، وجُملةُ ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ﴾، أو ولَفْظُ ﴿سَوَآءً﴾ -في قِراءةِ نَصْبِه[٣]- فلا يكونَ مُرادًا إدْخالُه في حِسبانِ المُشرِكينَ؛ فيكونَ قولُه: ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تهكُّمًا على المُشرِكينَ في حِسبانِهم؛ تأْكيدًا للإنكارِ عليهم[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥١، ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٥٣، ٣٥٤).

(٣) يُنظر ما تقدَّم في القراءات ذاتِ الأثرِ في التَّفسير (ص: ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٤).

- وجُملةُ ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ تذييلٌ لِمَا قبْلَها مِن إنكارِ حِسبانِهم وما اتَّصَلَ بذلك الإنكارِ مِن المعاني(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ يُمكِنُ أنْ يكونَ الكلامُ مَعطوفًا على ما تَقدَّمَ؛ لِيَكونَ كالدَّليلِ على نفْيِ الاستِواءِ بيْنَ الفريقَينِ. ويُمكِنُ أنْ يكونَ استِئنافًا مُقرِّرًا لِمَا سبَقَ مِن الحُكْمِ؛ فإنَّ خلْقَ اللهِ تعالى لَهُما ولِما فيهما بالحقِّ المُقتضِي للعَدْلِ، يَسْتدعِي -لا مَحالةَ- تَفضيلَ المُحْسنِ على المُسيءِ في المَحْيا والمَماتِ، وانْتِصارَ المظلومِ مِن الظَّالمِ، وإذا لم يَطَّرِدْ ذلك في المَحيا فهُو بعْدَ المماتِ حَتْمًا(٢).

أو الجُملة مُعترِضةٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، وهو اعتِراضٌ بيْنَ الكلامِ المُتقدِّمِ وبيْنَ ما فُرِّعَ عليه مِن قولِه: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، هو كالدَّليلِ على انتِفاءِ أنْ يكونَ الَّذين اجْترَحوا السَّيِّئاتِ الَّذين هُمْ في بُحْبوحةِ عَيشٍ مُدَّةَ حَياتِهم؛ أنْ يَكونوا في نَعيمٍ بعْدَ مَماتِهم كالَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مُدَّةَ حَياتِهم؛ فكان جَزاؤُهم النَّعيمَ بعْدَ مَماتِهم -أي: بعْدَ حَياتِهم الثَّانيةِ- بأنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ بالعدْلِ يَسْتدعي التَّفاوُتَ بيْنَ المُسيءِ والمُحسِنِ، والانتِصافَ للمُعْتدَى عليه مِن المُعْتدِي(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٥، ٣٥٦).

قال ابن عاشور: (ووَجهُ الاسْتِدلالِ في الآيةِ: أنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ تَبيَّنَ كَونُه في تَمامِ =

- والحقُّ: اسمٌ جامعٌ لِما شأنُه أنْ يُحَقَّ ويُثْبَتَ، ومِن شأنِ الحِكمةِ والحكيمِ أنْ يُقيمَه، ولذلك أُشيرَ بقولِه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّ اسمَ الجَلالةِ جامعٌ لِصفاتِ الكَمالِ، وتَصرُّفاتِ الحِكمةِ[1].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ على ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنَّ المعطوفَ عليه المَجرورَ بالباءِ فيه مَعنى التَّعليلِ، وهذا تَفصيلٌ بعْدَ إجمالٍ؛ فإنَّ الجَزاءَ على الفِعلِ بما يُناسِبُه هو مِن الحقِّ، ولأنَّ تَعليلَ الخلْقِ بعِلَّةِ الجزاءِ مِن تَفصيلِ معنى الحقِّ، وآثارِ كَونِ الحقِّ سَببًا لِخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، أو مُلابِسًا لِأحوالِ خلْقِهما؛ فظَهَرَت المُناسَبةُ بيْنَ الباءِ في المعطوفِ عليه واللَّامِ في المعطوفِ. أو هو مَعطوفٌ على مُعلَّلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: لِيَدُلَّ بها على قُدْرتِه، ولِتُجْزَى كلُّ نفْسٍ[2].

- والباءُ في ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ للتَّعويضِ، وما كسَبَتْه النَّفْسُ لا تُجْزى به، بلْ تُجازى بمِثْلِه وما يُناسِبُه؛ فالكلامُ على حَذْفِ مُضافٍ، أي: بمِثلِ ما كسَبَتْه، وهذه المُماثَلةُ مُماثَلةٌ في النَّوعِ، وأمَّا تَقديرُ تلك المُماثَلةِ فذلك مَوكولٌ إلى اللهِ تَعالى، ومُراعًى فيه عَظَمةُ عالَمِ الجزاءِ في الخَيرِ والشَّرِّ، ومِقدارُ تَمرُّدِ

= الإتقانِ والنِّظامِ، بحيث إنَّ دَلائلَ إرادةِ العدْلِ في تَصاريفِها قائمةٌ، وما أودَعه الخالِقُ في المَخلوقاتِ مِن القُوى مُناسِبٌ لِتَحصيلِ ذلك النِّظامِ الَّذي فيه صَلاحُهم، فإذا استَعْمَلوها في الإفسادِ والإساءةِ، كان مِن إتْمامِ إقامةِ النِّظامِ أنْ يُعاقَبوا على تلك الإساءةِ، والمُشاهَدُ أنَّ المُسيءَ كثيرًا ما عكَفَ على إساءتِه حتَّى المَماتِ، فلو لم يكُنِ الجَزاءُ بعْدَ الموتِ، حصَلَ اختِلالٌ في نِظامِ خلْقِ المَخلوقاتِ، وخلْقِ القُوى الصَّادرِ عنها الإحسانُ والإساءةُ، وهذا المعنى تَكرَّرَ في آياتٍ كَثيرةٍ، وكُلَّما ذُكِرَ شَيءٌ منه أُتْبِعَ بذِكْرِ الجَزاءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢١، ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٢، ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٦).

المُسيءِ وامْتثالِ المُحسِنِ، بخِلافِ الحُدودِ والزَّواجِرِ؛ فإنَّها مُقدَّرةٌ بما يُناسِبُ عالَمَ الدُّنيا مِن الضَّعفِ؛ ولهذا أعقَبَه بقولِه: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ فضَميرُ ﴿وَهُمْ﴾ عائدٌ إلى كلِّ نفْسٍ؛ فإنَّ ذلك الجَزاءَ ممَّا اقْتَضاهُ العدْلُ الَّذي جُعِلَ سَببًا أو مُلابِسًا لِخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما، فهو عدْلٌ، فليس مِن الظُّلمِ في شَيءٍ؛ فالمُجازى غيرُ مَظلومٍ، وبالجزاءِ أيضًا يَنْتفي أثَرُ ظُلْمِ الظَّالمِ عن المَظلومِ؛ إذْ لو تُرِكَ الجَزاءُ لَاستمَرَّ المَظلومُ مَظلومًا[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ لَمَّا كان الَّذين حَسِبوا أنْ يَكونوا في الآخِرةِ في نِعمةٍ وعِزَّةٍ كما كانوا في الدُّنيا، قالوا ذلك عن غَيرِ دَليلٍ ولا نَظَرٍ، ولكنْ عن اتِّباعِ ما يَشْتَهونَ لِأنفُسِهم مِن دَوامِ الحالِ الحَسَنِ؛ تفرَّعَ على حِسبانِهم التَّعْجيبُ مِن حالِهم؛ فعُطِفَ بالفاءِ الاستِفهامُ المُستعمَلُ في التَّعجيبِ، وجُعِلَ استِفهامًا عن رُؤيةِ حالِهم؛ للإشارةِ إلى بُلوغِ حالِهم مِن الظُّهورِ إلى حدِّ أنْ تَكونَ مَرْئيَّةً[2].

وقيل: الهمزةُ للاستِفهامِ المَقصودِ به الأمْرُ، أي: أخْبِرْني، وهو للتَّعجيبِ مِن حالِ مَنْ تَرَكَ مُتابَعةَ الهُدى إلى مُطاوَعةِ الهوَى، فكأنَّه عَبَدَه، والمعنى -على قَولٍ في التَّفسيرِ-: أضلَّه اللهُ وهو عالِمٌ بالحقِّ؛ لأنَّ المُبالَغةَ فيه أشدُّ، والتَّشنيعَ والتَّنديدَ به أكثَرُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٦، ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٤).

- وقولُه: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ أُطلِقَ على ما يُلازِمُ طاعتَه حتَّى كأنَّه مَعبودٌ؛ فيَكونَ هذا الإطلاقُ بطَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أي: اتَّخَذَ هواهُ كإلهٍ له لا يُخالِفُ له أمْرًا. ويَجوزُ أنْ يَبْقى ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ على الحَقيقةِ، ويَكونَ ﴿هَوَىٰهُ﴾ بمَعنى مَهْوِيِّه، أي: عبَدَ إلَهًا؛ لأنَّه يُحِبُّ أنْ يَعبُدَه، يعني الَّذين اتَّخَذوا الأصنامَ آلهةً لا يُقلِعون عن عِبادتِها؛ لأنَّهم أحَبُّوها[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هنا: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾، وقال في سُورةِ (البَقرةِ): ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]؛ فهنا قدَّمَ ذِكرَ السَّمْعِ على القَلْبِ، وفي سُورةِ (البقرةِ) قَدَّمَ القلْبَ على السَّمعِ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ المُخبَرَ عنهم هنا لَمَّا أخبَرَ عنهم بأنَّهم اتَّخَذوا إلَهَهم هَواهم، فقدْ تَقرَّرَ أنَّهم عَقَدوا قُلوبَهم على الهَوى؛ فكان ذلك العَقدُ صارِفًا السَّمْعَ عن تَلَقِّي الآياتِ؛ فقُدِّمَ لإفادةِ أنَّهم كالمَخْتومِ على سَمْعِهم، ثمَّ عُطِفَ عليه ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾ تكميلًا وتَذْكيرًا بذلك العَقْدِ الصَّارِفِ للسَّمْعِ، ثمَّ ذَكَرَ ما على بَصَرِه مِن شِبْهِ الغِشاوةِ؛ لأنَّ ما عَقَدَ عليه قَلْبَه صَرَفه عن النَّظرِ في أدلَّةِ الكائناتِ. وأمَّا آيةُ سُورةِ (البقرةِ)؛ فإنَّ المُتحدَّثَ عنْهم همْ هؤلاء أنفُسُهم، ولكنَّ الحديثَ عنهم ابتُدِئَ بتَساوي الإنذارِ وعَدَمِه في جانِبِهم بقَولِه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]؛ فلمَّا أُرِيدَ تَفصيلُه قُدِّمَ الخَتْمُ على قُلوبِهم؛ لأنَّه الأصْلُ، كما كان اتِّخاذُ الهَوى كالإلهِ أصْلًا في وَصْفِ حالِهم في آيةِ سُورةِ (الجاثيةِ)، فحالةُ القُلوبِ هي الأصْلُ في الانْصِرافِ عن التَّلَقِّي والنَّظرِ في الآيتَينِ، ولكنَّ نَظْمَ هذه الآيةِ كان على حسَبِ ما يَقْتضيهِ الذِّكرُ مِن التَّرتيبِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٨).

ونَظْمَ آيةِ (البقرةِ) كان على حَسَبِ ما يَقْتضيهِ الطَّبْعُ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ أنْ يكونَ غيرُ اللهِ يَسْتطيعُ أنْ يَهْديَهم، والمُرادُ به تَسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِشِدَّةِ أسَفِه لِإعْراضِهم وبَقائِهم في الضَّلالةِ[٣].

- وقولُه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ مُفرَّعٌ على الاستِفهامِ الَّذي قبْلَه، وهو هنا استِفهامٌ عن عَدَمِ تَذكُّرِ المُخاطَبينَ لهذه الحقيقةِ، أي: كيف نَسُوها حتَّى ألَحُّوا في الطَّمَعِ بهِدايةِ أولئك الضَّالِّينَ، وأَسِفوا لِعَدمِ جَدْوى الحُجَّةِ لَدَيهم؟! وهو اسْتِفهامٌ إنكاريٌّ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٤-٢٦)

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٥ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلدَّهۡرُ﴾: أي: مَرُّ الزَّمانِ، وطُولُ العُمُرِ، واختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ، وأصلُ (دهر): يدُلُّ على الغَلَبةِ والقَهرِ، وسُمِّيَ الدَّهرُ دَهرًا؛ لأنَّه يأتي على كُلِّ شَيءٍ ويَغلِبُه[١].

﴿رَيۡبَ﴾: الرَّيبُ: الشَّكُّ، أو هو الشَّكُّ معَ الخَوفِ، ومعَ تُهمَةِ المشكوكِ فيه، وتوهُّم أمْرٍ ما بالشَّيءِ، والرَّيبُ مصدرُ: رابَني الشَّيءُ: إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وهي قلَقُ النَّفْسِ واضْطِرابُها[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله سبحانَه جانبًا مِن أقوالِ المشركينَ الباطِلةِ، فيقولُ: وقال الكُفَّارُ تَكذيبًا للبَعثِ بعدَ المَوتِ: ما لَنا إلَّا حياتُنا هذه الَّتي نَحياها الآنَ، يَموتُ مِنَّا أُناسٌ، ويُولَدُ آخَرونَ، ولا حياةَ بعدَ المماتِ، وما يُفنِينا إلَّا مَرُّ الزَّمانِ، وطُولُ الأعمارِ، واختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ! وما لهؤلاء الكُفَّارِ مِن عِلمٍ بما يَقولونَ من

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

إنكارِهم البَعثَ، ما هم إلَّا يَظُنُّونَ!

وإذا تُتْلى عليهم آياتُ القُرآنِ واضحاتٍ في وُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ، ما كان لهم مِن حُجَّةٍ إلَّا قَولُهم: أحيُوا آباءَنا إنْ كُنتُم صادِقينَ في أنَّ بعدَ الموتِ بَعثًا! قُلْ لهم -يا محمَّدُ: اللهُ يُحييكم ثُمَّ يُميتُكم ثمَّ يَجمَعُكم إلى يومِ القيامةِ لا شَكَّ في وُقوعِ ذلك، ولكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذَكَر سُبحانَه أنَّ المُشرِكينَ قد اتَّخَذوا إلَهَهم هواهم، وأنَّ اللهَ قد أضَلَّهم على عِلمٍ بحالِهم، وأنَّه خَتَم على سَمْعِهم وقَلْبِهم، وجَعَل على بَصَرِهم غِشاوةً- ذكَرَ هنا جِنايةً أُخرى مِن جِناياتِهم، وحماقةً مِن حماقاتِهم: تلك أنَّهم أنكَروا البَعثَ[1].

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ تَكذيبًا للبَعثِ بعدَ المَوتِ: ما ثَمَّ حياةٌ غَيرُ حياتِنا هذه الَّتي نَحياها الآنَ[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦١).

أي: يموتُ أناسٌ، ويَحيا آخَرونَ في هذه الحياةِ، وليس ثَمَّةَ حياةٌ أُخرَى[(١)].

﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾.

أي: وما يُفنِينا إلَّا الزَّمانُ، فنَبلُغُ فيه بمُرورِ أيَّامِه ولياليه سِنَّ الهَرَمِ والشَّيخوخةِ، فنَموتُ، أو تُصيبُنا فيه أسبابٌ تُفضي بنا إلى الهَلاكِ والموتِ[(٢)]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦١، ٣٦٢).

قال ابن جُزَي: (﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ فيه أربَعةُ تأويلاتٍ:

أحَدُها: أنَّهم أرادوا: يموتُ قَومٌ، ويحيا قومٌ.

والآخَرُ: نموتُ نحن، ويحيا أولادُنا.

الثَّالِثُ: نموتُ حين كُنَّا عَدَمًا أو نُطَفًا، ونحيا في الدُّنيا.

والرَّابعُ: نموتُ الموتَ المعروفَ، ونحيا قَبْلَه في الدُّنيا؛ فوقَعَ في اللَّفظِ تَقديمٌ وتأخيرٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٢).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: يحيى بنُ سلام، وابنُ أبي زَمَنين، وأبو حيَّان، وابنُ كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦١).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٨٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٥).

قال ابن جرير: (وقَولُه: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ نموتُ نحن وتحيا أبناؤُنا بَعْدَنا، فجَعَلوا حياةَ أبنائِهم بَعْدَهم حياةً لهم؛ لأنَّهم مِنهم وبَعضُهم، فكأنَّهم بحياتِهم أحياءٌ، وذلك نظيرُ قَولِ النَّاسِ: ما مات مَن خَلَّفَ ابنًا مِثلَ فلانٍ؛ لأنَّه بحياةِ ذِكْرِه به كأنَّه حَيٌّ غيرُ مَيِّتٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٢). =

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾.

أي: وما للمُشرِكينَ أيُّ قَدْرٍ مِنَ العِلمِ بصِحَّةِ ما يقولونَ مِن إنكارِ البَعثِ، ولا بُرهانَ لديهم يُثبِتُ أنَّ الدَّهرَ هو الَّذي يُهلِكُهم كما يَزعُمونَ(١)!

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

أي: ما يَقولونَ ذلك إلَّا بمُجَرَّدِ الظَّنِّ، وليسوا على يَقينٍ مِمَّا يَدَّعُونَ(٢).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: وإذا تُتْلى عليهم آياتُ القُرآنِ الواضِحاتُ الدَّالاتِ على وُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ، لم يكُنْ لهم ما يَحتَجُّونَ به على المؤمنِينَ سِوى قَولِهم: أحيُوا آباءَنا الموتى إنْ كُنتُم صادِقينَ في دَعواكم أنَّ اللهَ يَبعَثُنا بعدَ مَوتِنا؛ حتَّى نُصَدِّقَ بحَقيقةِ

= قال ابنُ كثير: (وهذا يَقولُه مُشرِكو العَرَبِ المُنكِرونَ للمَعادِ، ويَقولُه الفلاسِفةُ الإلهيُّونَ منهم، وهم يُنكِرونَ البُداءَةَ والرَّجعةَ، ويقولُه الفلاسِفةُ الدَّهْريَّةُ الدوريةُ المُنكِرونَ للصَّانِعِ، المُعتَقِدونَ أنَّ في كُلِّ سِتَّةٍ وثلاثينَ ألْفَ سَنةٍ يعودُ كُلُّ شَيءٍ إلى ما كان عليه، وزَعَموا أنَّ هذا قد تكَرَّر مرَّاتٍ لا تَتناهى، فكابَروا المعقولَ، وكَذَّبوا المنقولَ!). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٣).

قال القرطبي: (كان المُشرِكونَ أصنافًا؛ منهم هؤلاء، ومنهم مَن كان يُثبِتُ الصَّانِعَ ويُنكِرُ البَعثَ، ومنهم مَن كان يَشُكُّ في البَعثِ ولا يَقطَعُ بإنكارِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٢).

وقال ابن القيِّم: (الظَّنُّ الَّذي أثبَتَه سُبحانَه للمُعارِضينَ نُصوصَ الوَحيِ بعُقولِهم: ليس هو الاعتِقادَ الرَّاجِحَ، بل هو أكذَبُ الحَديثِ). ((الصواعق المرسلة)) (٣/ ٨٧٨).

وقال ابنُ عثيمين: (الظنُّ هنا بمعنى الوهمِ؛ فليس ظَنُّهم مبنيًّا على دليلٍ يجعلُ الشَّيءَ مظنونًا، بل هو مُجرَّدُ وهمٍ لا حقيقةَ له؛ فلا حجَّةَ لهم إطلاقًا). ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (٢/ ٢٤٢).

ما تَزعُمونَ[١]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ * فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الدخان: ٣٤ - ٣٦].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا اعْتَرفوا بأنَّهم ما يُهلِكُهم إلَّا الدَّهرُ، وأنَّهم اسْتَدلُّوا على إنكارِ البَعثِ بما لا دَليلَ لهم فيه مِن سُؤالِ إحياءِ آبائِهم؛ رَدَّ اللهُ تعالى عليهم بأنَّه تعالى هو المُحْيي، وهو المُميتُ لا الدَّهرُ، وضَمَّ إلى ذلك آيةً جامعةً لِلْحسابِ يومَ البَعثِ، وهذا واجبٌ الاعتِرافُ بهِ إنْ أنْصَفوا، ومَن قدَرَ على هذا قدَرَ على الإتيانِ بآبائِهم[٢].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُكَذِّبينَ بالبَعثِ: اللهُ هو الَّذي يُحييكم في الدُّنيا ما شاءَ، ثُمَّ يُميتُكم متى شاء عندَ انقِضاءِ آجالِكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٠، ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٣، ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٩)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٧٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٣).

قال القاسمي: (أي: قُلْ لهم في جوابِ قَولِهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾: قُلِ: اللهُ يُحييكم ثمَّ يُميتُكم لا الدَّهرُ؛ لِما عُرِفَ مِن وُجوبِ رُجوعِ العالَمِ إلى واجِبِ الوُجودِ، هو سَبَبُ الأسبابِ، ومَصدَرُ الكائناتِ، أو قُلْ لهم في جوابِ إنكارِهم البَعثَ: إنَّ مَن قَدَر على الإبداءِ قادِرٌ على الإعادةِ، والحِكمةُ اقتَضَت الجَمعَ للمُجازاةِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٣).

ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨].

﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: ثمَّ يَجمَعُكم اللهُ جميعًا ليومِ القيامةِ أحياءً، لا شَكَّ في وُقوعِ ذلك، وإحيائِكم بعدَ موتِكم[1].

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ الحقَّ، فمِنْ جَهلِهم يُنكِرونَ المَعادَ، وبَعْثَ العِبادِ[2]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- كان أهلُ الجاهِليَّةِ يُضيفونَ المصائبَ والنَّوائِبَ إلى الدَّهرِ، وهُم في ذلك فِرقتانِ: فِرقةٌ لا تُؤمِنُ باللهِ، لا تَعرِفُ إلَّا الدَّهرَ، فتَنْسُبُ المكارِهَ إليه على أنَّها مِن فِعْلِه، ولا ترَى أنَّ له مُدَبِّرًا ومُصرِّفًا، وهؤلاء الدَّهْريَّةُ الَّذين حكى اللهُ عنهم في كتابِه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، وفِرقةٌ تَعرِفُ الخالِقَ فتُنَزِّهُه أنْ تَنسُبَ إليه المكارِهَ، فتُضيفُها إلى الدَّهرِ والزَّمانِ، وعلى هذينِ الوَجهَينِ كانوا يَسُبُّونَ الدَّهرَ ويَذُمُّونَه، فيَقولُ القائِلُ منهم: يا خَيبةَ الدَّهْرِ، ويا بُؤسَ الدَّهرِ، إلى ما أشْبَهَ هذا مِن قَولِهم[3]، فإذا أضافوا إلى الدَّهرِ ما نالهم مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٩، ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((غريب الحديث)) للخطَّابي (١/ ٤٨٩).

الشَّدائِدِ وسَبُّوا فاعِلَها، كان مَرجِعَ سَبِّهم إلى اللهِ تعالى؛ إذ هو الفاعِلُ في الحقيقةِ للأُمورِ الَّتي يُضيفونَها إلى الدَّهرِ لا الدَّهرُ؛ فنُهُوا عن سَبِّ الدَّهرِ؛ فعن أبي هُرَيرة رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: يُؤذيني ابنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ(١)، وأنا الدَّهرُ(٢)، ....

(١) قال ابنُ القَيِّم: (في هذا ثلاثُ مَفاسِدَ عَظيمةٌ:
إحداها: سَبُّه مَن ليس بأهلٍ أن يُسَبَّ؛ فإنَّ الدَّهرَ خَلقٌ مُسَخَّرٌ مِن خَلقِ اللهِ، مُنقادٌ لأمْرِه، مُذَلَّلٌ لِتَسخيرِه؛ فسَابُّه أَولى بالذَّمِّ والسَّبِّ منه.
الثَّانيةُ: أنَّ سَبَّه مُتضَمِّنٌ للشِّركِ؛ فإنَّه إنَّما سَبَّه لِظَنِّه أنَّه يَضُرُّ ويَنفَعُ، وأنَّه مع ذلك ظالمٌ قد ضَرَّ مَن لا يَستَحِقُّ الضَّرَرَ، وأعطى مَن لا يَستَحِقُّ العَطاءَ، ورفَعَ مَن لا يَستَحِقُّ الرِّفعةَ، وحَرَم مَن لا يَستَحِقُّ الحِرمانَ، وهو عندَ شاتِميه مِن أظلَمِ الظَّلَمةِ! وأشعارُ هؤلاء الظَّلَمةِ الخَوَنةِ في سَبِّه كثيرةٌ جِدًّا، وكثيرٌ مِن الجُهَّالِ يُصَرِّحُ بلَعْنِه وتَقبيحِه!
الثَّالثةُ: أنَّ السَّبَّ منهم إنَّما يقَعُ على مَن فَعَل هذه الأفعالَ الَّتي لو اتَّبَع الحَقُّ فيها أهواءَهم لَفَسَدَت السَّمَواتُ والأرضُ! وإذا وقَعَت أهواؤُهم حَمِدوا الدَّهرَ وأثْنَوا عليه. وفي حقيقةِ الأمرِ فرَبُّ الدَّهرِ تعالى هو المُعطي المانِعُ، الخافِضُ الرَّافِعُ، المُعِزُّ المُذِلُّ، والدَّهرُ ليس له مِنَ الأمرِ شَيءٌ، فمَسَبَّتُهم للدَّهرِ مَسَبَّةٌ لله عزَّ وجَلَّ؛ ولهذا كانت مُؤذِيةً للرَّبِّ تعالى، كما في الصَّحيحَينِ مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «قال الله تعالى: يُؤذيني ابنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهرَ، وأنا الدَّهرُ». فسابُّ الدَّهرِ دائِرٌ بيْنَ أمْرَينِ لا بُدَّ له من أحَدِهما: إمَّا سَبُّه لله، أو الشِّركُ به؛ فإنَّه إذا اعتقَد أنَّ الدَّهرَ فاعِلٌ مع اللهِ، فهو مُشرِكٌ، وإنِ اعتقَد أنَّ اللهَ وَحْدَه هو الَّذي فَعَل ذلك، وهو يَسُبُّ مَن فَعَلَه؛ فقد سَبَّ اللهَ!). ((زاد المعاد)) (٢/ ٣٢٣).

(٢) قال ابنُ عثيمين: (الدَّهرُ: ليس مِن أسماءِ الله تعالى؛ لأنَّه اسمٌ جامِدٌ لا يَتضَمَّنُ مَعنًى يُلحِقُه بالأسماءِ الحُسنى، ولأنَّه اسمٌ للوَقتِ والزَّمَنِ... فأمَّا قَولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: «قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: يُؤذِيني ابنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهرَ، وأنا الدَّهرُ، بيدي الأمرُ، أقلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ» فلا يدُلُّ على أنَّ الدَّهرَ من أسماءِ اللهِ تعالى؛ وذلك أنَّ الَّذين يَسُبُّونَ الدَّهرَ إنمَّا يُريدونَ الزَّمانَ الَّذي هو مَحَلُّ الحوادِثِ، لا يُريدونَ اللهَ تعالى، فيَكونُ معنى قَولِه: «وأنا الدَّهرُ» ما فَسَّره بقَولِه: «بيدَي الأمرُ، أقَلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ»، فهو سُبحانَه خالِقُ الدَّهرِ وما فيه، وقد بَيَّنَ أنَّه يُقَلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ، وهما الدَّهرُ، ولا يُمكِنُ أن يكونَ المُقلِّبُ -بكَسرِ اللَّامِ- هو المُقَلَّبَ -بفَتحِها- وبهذا تَبَيَّنَ أنَّه يَمتَنِعُ أن يكونَ الدَّهرُ في هذا الحديثِ مُرادًا به اللهُ تعالى). ((القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه =

بيدي الأمرُ، أقلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ))(١)، وفي روايةٍ: ((يُؤذيني ابنُ آدَمَ؛ يقولُ: يا خَيبةَ الدَّهرِ، فلا يَقولَنَّ أحَدُكم: يا خَيبةَ الدَّهرِ؛ فإنِّي أنا الدَّهرُ، أقَلِّبُ لَيلَه ونَهارَه، فإذا شِئتُ قَبَضْتُهما))(٢)، وفي روايةٍ: ((يَسُبُّ ابنُ آدَمَ الدَّهرَ، وأنا الدَّهرُ، بيَدِي اللَّيلُ والنَّهارُ))(٣)، وفي روايةٍ(٤): ((لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ))(٥)، وقد بَقِيَ هذا شائِعًا في ألسِنةِ النَّاسِ مِن المُسلِمينَ، وفي أشعارِهم، وهي سُنَّةٌ جاهِليَّةٌ(٦)، فكثيرٌ من الفُسَّاقِ والمُجَّانِ والحَمقَى إذا جَرَت تصاريفُ الدَّهرِ على خِلافِ مُرادِهم جَعَلوا يَسُبُّونَ الدَّهرَ والوَقتَ، ورُبَّما لَعَنوه! وهذا ناشِئٌ مِن ضَعفِ الدِّينِ، ومِن الحُمقِ والجَهلِ العَظيمِ؛ فإنَّ الدَّهرَ ليس عِندَه مِن الأمرِ شَيءٌ؛ فإنَّه مُدَبَّرٌ مُصَرَّفٌ، والتَّصاريفُ الواقِعةُ فيه تدبيرُ العزيزِ الحَكيمِ، ففي الحقيقةِ يَقَعُ العَيبُ والسَّبُّ على مُدَبِّرِه! وكما أنَّه نَقصٌ في الدِّينِ فهو نَقصٌ في العَقلِ؛ فبه تَزدادُ المصائِبُ ويَعظُمُ وَقعُها، ويُغلَقُ بابُ الصَّبرِ الواجِبِ، وهذا مُنافٍ للتَّوحيدِ. أمَّا المؤمِنُ فإنَّه يَعلَمُ أنَّ التَّصاريفَ واقِعةٌ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه وحِكمتِه، فلا يَتعَرَّضُ لِعَيبِ ما لم يَعِبْه اللهُ ولا رَسولُه، بل يَرضى بتدبيرِ اللهِ، ويُسَلِّمُ لأمْرِه، وبذلك يَتِمُّ تَوحيدُه وطُمأنينتُه(٧).

= الحسنى)) (ص: ٩).

قال ابن كثير: (وقد غَلِطَ ابنُ حزمٍ ومَن نحا نحوَه مِن الظَّاهِريَّةِ في عَدِّهِم الدَّهرَ مِن الأسماءِ الحسَنى، أخْذًا مِن هذا الحديثِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠).

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٦) (٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٤٦) (١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٤٦) (٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٥). ويُنظر: أيضًا: ((مناقب الشافعي)) للبيهقي (١/ ٣٣٦).

(٦) يُنظر: ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصَّنْعاني (١١/ ١٠٤).

(٧) يُنظر: ((القول السديد شرح كتاب التوحيد)) للسعدي (ص: ١٤٨).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ هذه الآيةُ مِن أقوى الدَّلائِلِ على أنَّ القَولَ بغيرِ حُجَّةٍ وبَيِّنةٍ قَولٌ باطِلٌ فاسِدٌ، وأنَّ مُتابَعةَ الظَّنِّ والحُسبانِ مُنكَرٌ عندَ اللهِ تعالى[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ فيه سُؤالٌ: الحياةُ مُقَدَّمةٌ على الموتِ في الدُّنيا، فمُنكِرو القيامةِ كان يجِبُ أن يَقولوا: (نحيا ونَموتُ)، فما السَّبَبُ في تقديمِ ذِكرِ الموتِ على الحياةِ[٢]؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المعنى: يحيا البَعضُ، ويموتُ البَعضُ[٣]، فهو حُكمٌ على النَّوعِ بجُملتِه مِن غيرِ اعتبارِ تَقديمٍ وتأخيرٍ[٤].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه كلامُ مَن يقولُ بالتَّناسُخِ[٥].

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّ اللهَ تعالى قدَّمَ ذِكرَ الحياةِ فقال؛ حكايةً عنهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، ثمَّ قال بَعدَه: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، يعني: أنَّ تلك الحياةَ مِنها ما يَطرَأُ عليها الموتُ، وذلك في حَقِّ الَّذين ماتوا، ومِنها ما لم يَطرَأِ الموتُ عليها، وذلك في حَقِّ الأحياءِ الَّذين لم يموتوا بَعْدُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٧٨).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٣).

(٥) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٦).
قال الشِّربيني في بيانِ مَعنى التَّناسُخ: (هو أنَّ رُوحَ الشَّخصِ إذا خرَجَت تَنتَقِلُ إلى شَخصٍ آخَرَ، فيَحيا بعدَ أنْ لم يكُنْ؛ فإنَّه عقيدةُ أكثَرِ عَبَدةِ الأصنامِ). ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٨).

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّ المعنى نحيا ونموتُ، على وَجهِ تقديمِ الحياةِ قبْلَ المماتِ[(١)]؛ فالعَطفُ بالواوِ لا يَقتَضي ترتيبًا بيْنَ المتعاطِفَينِ في الحُصولِ[(٢)].

٢- قَولُهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ هذا يَرُدُّه المنقولُ والمَعقولُ:

أمَّا المنقولُ: فالكِتابُ والسُّنَّةُ يدُلَّانِ على ثُبوتِ الآخِرةِ، ووُجوبِ الإيمانِ باليَومِ الآخِرِ، وأنَّ للعِبادِ حياةً أُخرى سِوى هذه الحياةِ الدُّنيا، والكُتُبُ السَّماويَّةُ الأُخرى تُقَرِّرُ ذلك وتُؤَكِّدُه.

وأمَّا المعقولُ: فإنَّ اللهَ فَرَض على النَّاسِ الإسلامَ والدَّعوةَ إليه، والجِهادَ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، مع ما في ذلك مِن استِباحةِ الدِّماءِ والأموالِ والنِّساءِ والذُّرِّيَّةِ، فمِن غيرِ المَعقولِ أن يكونَ النَّاسُ بعدَ ذلك تُرابًا؛ لا بَعْثَ ولا حياةَ، ولا ثَوابَ ولا عِقابَ، وحِكمةُ اللهِ تأبى هذا.

وأمَّا قَولُهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، أي: إلَّا مُرورُ الزَّمَنِ، فهذا يَرُدُّه المنقولُ والمحسوسُ:

فأمَّا المنقولُ: فالكِتابُ والسُّنَّةُ يَدُلَّانِ على أنَّ الإحياءَ والإماتةَ بيَدِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦]، وقال عن عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وأمَّا المحسوسُ: فإنَّنا نَعلَمُ مَن يَبقى سِنينَ طَويلةً على قَيدِ الحياةِ، كنُوحٍ عليه السَّلامُ وغَيرِه، ولم يُهلِكْه الدَّهرُ، ونُشاهِدُ أطفالًا يموتونَ في الشَّهرِ الأوَّلِ من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٢).

ومِن الأجوبةِ أيضًا: أنَّ المرادَ: نموتُ نحن، ويحيا أولادُنا. أو: نموتُ حينَ كُنَّا عَدَمًا أو نُطَفًا، ونحيا في الدُّنيا. وقد تقدَّم ذكرُ هذه الأقوالِ (ص: ١١٢).

وِلادتِهم، وشَبابًا يموتونَ في قُوَّةِ شَبابِهم؛ فليس الدَّهرُ هو الَّذي يُميتُهم[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الظَّنَّ يُستعملُ بمعنى الوَهمِ، كما يُستعمَلُ أيضًا بمعنى العِلمِ واليقينِ؛ كقولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾[٢] [البقرة: ٤٦].

٤- إنْ قيل: كيفَ وقَع قَولُه: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ جوابًا لِقَولِهم: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؟

والجوابُ: أنَّهم لَمَّا أنكَروا البَعثَ، وكَذَّبوا الرُّسُلَ، وحَسِبوا أنَّ ما قالوه قَولٌ مُبَكِّتٌ؛ أُلزِموا ما هم مُقِرُّونَ به مِن أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ هو الَّذي يُحييهم ثمَّ يُميتُهم، وضُمَّ إلى إلزامِ ذلك إلزامُ ما هو واجِبُ الإقرارِ به إن أنصَفوا وأصغَوا إلى داعي الحَقِّ، وهو جَمْعُهم إلى يومِ القيامةِ، ومَن كان قادِرًا على ذلك كان قادِرًا على الإتيانِ بآبائِهم، وكان أهْوَنَ شَيءٍ عليه[٣].

ويُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّهم لَمَّا قالوا: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ عِنادًا وتَمرُّدًا، قِيل لهم: دَعُوا آباءَكُم؛ فإنَّ القاهِرَ القادرَ العالِمَ بكلِّ شَيءٍ، يَفعَلُ كَيْتَ وكَيْتَ، فضْلًا عمَّا اقْتَرَحْتُموه، ولكنْ أنتُمْ جُهلاءُ لا تَعلَمون ذلك، كما قال: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾[٤] [الجاثية: ٢٤].

٥- في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ تَسجيلٌ عليهم بالتَّلجْلُجِ عن الحُجَّةِ البيِّنةِ، والمَصيرِ إلى سِلاحِ العاجِزِ؛ مِن المُكابَرةِ والخُروجِ عن دائرةِ

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٠).

البَحثِ[١].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو إشارةٌ إلى ما تَقدَّمَ ذِكرُه في الآيةِ المتقَدِّمةِ، وهو أنَّ كَونَه تعالى عادِلًا خالِقًا بالحَقِّ، مُنَزَّهًا عن الجَورِ والظُّلمِ: يَقتَضي صِحَّةَ البَعثِ والقيامةِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ...﴾ الواوُ استِئنافيَّةٌ، والكلامُ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِتَفْنيدِ مَزاعمِ المُشرِكينَ؛ إذ كانوا يَزْعُمون أنَّ هَلاكَ الأنفُسِ مَنوطٌ بِمُرورِ الأيَّامِ واللَّيالي[٣].

- أو عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١]، أي: بعْدَ أنْ جادَلوا المُسلِمينَ بأنَّه إنْ كان بَعثٌ بعْدَ الموتِ، فسَتكونُ عُقْباهم خَيرًا مِن عُقْبى المُسلِمينَ، وهمْ لا يُوقِنون بالبَعثِ والجزاءِ، بلْ ضَرَبوه جَدلًا، وإنَّما يَقينُهم قولُهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾[٤].

- وضَميرُ (هِيَ) ضَميرُ القِصَّةِ والشَّأنِ، أي: قِصَّةُ الخَوضِ في البَعثِ تَنحصِرُ في أنْ لا حَياةَ بعْدَ المَماتِ، أي: القِصَّةُ هي انْتِفاءُ البَعثِ، كما أفادَه حَصْرُ الأمْرِ في الحياةِ الدُّنيا، أي: الحاضرةِ القَريبةِ مِنَّا، أي: فلا تُطِيلوا الجِدالَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٠).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦١).

معنا في إثباتِ البَعثِ. ويجوزُ أنْ يكونَ (هي) ضَميرَ الحياةِ باعتبارِ دَلالةِ الاستثناءِ، على تَقديرِ لَفظِ الحياةِ؛ فيَكونَ حَصْرًا لجنسِ الحياةِ في الحَياةِ الدُّنيا(١).

- وجُملةُ ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ مُبيِّنةٌ لِجُملةِ ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: ليس بعْدَ هذا العالَمِ عالَمٌ آخَرُ؛ فالحَياةُ هي حَياةُ هذا العالَمِ لا غيرُ، فإذا ماتَ مَن كان حيًّا خلَفَه مَن يُوجَدُ بعْدَه، فمعنى ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾: يَموتُ بعضُنا ويَحْيا بَعضٌ، أي: يَبْقى حيًّا إلى أمَدٍ، أو يُولَدُ بعْدَ مَن ماتوا، وللدَّلالةِ على هذا التَّطوُّرِ عُبِّرَ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾، أي: تَتجدَّدُ فِينا الحياةُ والموتُ؛ فالمَعنى: نَموتُ ونَحْيا في هذه الحياةِ الدُّنيا، وليس ثَمَّةَ حَياةٌ أُخرى. ثمَّ إنْ كانت هذه الجُملةُ مَحْكيَّةً بلَفظِ كَلامِهم، فلَعلَّها ممَّا جَرَى مَجْرى المَثلِ بيْنَهم، وإنْ كانتْ حِكايةً لِمَعنى كَلامِهم، فهي مِن إيجازِ القُرآنِ؛ وهمْ إنَّما قالوا: يَموتُ بعضُنا، ويَحْيا بعضُنا ثمَّ يَموتُ؛ فصار كالمَثلِ(٢).

- قولُه: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ لا يَخطُرُ بالْبالِ أنَّ حِكايةَ قَولِهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ تَقْتضي إرادةَ نَحْيا بعْدَ أنْ نَموتَ؛ لأنَّ قولَهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ يَصرِفُ عن خُطورِ هذا بالبالِ. والعطْفُ بالواوِ لا يَقْتضي تَرْتيبًا بيْن المُتعاطِفَينِ في الحُصولِ. وإنَّما قُدِّمَ ﴿نَمُوتُ﴾ في الذِّكرِ على ﴿وَنَحۡيَا﴾ في البَيانِ، مع أنَّ المُبيَّنَ قولُهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾؛ فكان الظَّاهرُ أنْ يَبدَأَ في البَيانِ بذِكرِ اللَّفظِ المُبيِّنِ، فيُقالَ: نَحْيا ونموتُ؛ فقيل: قُدِّمَ ﴿نَمُوتُ﴾ لتَتأتَّى الفاصلةُ بلَفظِ (نَحيا) مع لَفظِ الدُّنيا. والأوجَهُ أنْ يكونَ تَقديمُ فِعلِ ﴿نَمُوتُ﴾ على ﴿وَنَحۡيَا﴾؛ للاهتِمامِ بالموتِ في هذا المَقامِ؛ لأنَّهم بصَدَدِ تَقريرِ أنَّ المَوتَ لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حَياةَ بعْدَه، ويَتبَعُ ذلك الاهتِمامَ تَأَتِّي طِباقَينِ بيْنَ ﴿حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿نَمُوتُ﴾، ثمَّ بيْن ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، وحصَلَت الفاصِلةُ تَبَعًا، وذلك أدْخَلُ في بَلاغةِ الإعجازِ؛ ولذلك أعْقَبَه بقولِه: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، فالإشارةُ بذلك إلى قَولِهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، أي: لا عِلمَ لهمْ بأنَّ الدَّهرَ هو المُميتُ؛ إذ لا دَليلَ. وأمَّا زِيادةُ ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ فقَصَدوا تأْكيدَ مَعنى انْحِصارِ الحَياةِ والموتِ في هذا العالَمِ المُعبَّرِ عنه عِندَهم بالدَّهرِ؛ فالحياةُ بتَكوينِ الخِلْقةِ، والمماتُ بفِعلِ الدَّهرِ، فكيف يُرْجَى لِمَن أهْلَكَه الدَّهرُ أنْ يعودَ حَيًّا؟! فالدَّهْرُ هو الزَّمانُ المُستمِرُّ المُتعاقِبُ لَيلُه ونَهارُه[1].

- وهذه الكلماتُ ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ كَلِماتٌ كانتْ تَجْري على ألْسِنَتِهم؛ لِقِلَّةِ التَّدبُّرِ في الأُمورِ، وإنْ كانوا يَعلَمون أنَّ اللهَ هو الخالِقُ لِلعوالِمِ، وأمَّا ما يَجْري في العالَمِ مِن التَّصرُّفاتِ، فلمْ يكُنْ لهمْ فيه رأْيٌ، وكيف وحالَتُهم الأُمِّيَّةُ لا تُساعِدُ على ذلك؟! وكانوا يُخطِئونَ في التَّفاصيلِ حتَّى يأْتُوا بما يُناقِضُ ما يَعتقِدونَه؛ ولذلك أعقَبَه بقولِه تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ فإشارةُ ﴿بِذَٰلِكَ﴾ إلى قولِهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، أي: لا عِلمَ لهمْ بأنَّ الدَّهْرَ هو المُميتُ؛ إذ لا دَليلَ على ذلك؛ فإنَّ الدَّليلَ النَّظريَّ بيِّنٌ أنَّ الدَّهرَ -وهو الزَّمانُ- ليس بمُميتٍ مُباشَرةً، وهو ظاهرٌ، ولا بواسِطةٍ في الإماتةِ؛ إذ الزَّمانُ أمْرٌ اعْتِباريٌّ لا يَفعَلُ ولا يُؤثِّرُ، وإنَّما هو مَقاديرُ يُقدِّرُ بها النَّاسُ الأبعادَ بيْنَ الحوادثِ، مَرجِعُه إلى تَقديرِ حِصَّةِ النَّهارِ واللَّيلِ، وحِصَصِ الفُصولِ الأربعةِ، وإنَّما تَوهَّمَ عامَّةُ النَّاسِ أنَّ الزَّمانَ مُتصرِّفٌ، وهي تَوهُّماتٌ شاعَتْ حتَّى استَقَرَّتْ في الأذهانِ السَّاذَجةِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٦٢، ٣٦٣).

- وجُملةُ ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ مُبيِّنةٌ لِجُملةِ ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾، أو اسْتِئنافٌ بَيانيٌّ؛ كأنَّ سائلًا حينَ سَمِعَ قولَه: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾، سأَلَ عن مُستنَدِهم في قولِهم ذلك، فأُجِيبَ بأنَّه الظَّنُّ المَبْنيُّ على التَّخيُّلِ[١].

- وجِيءَ بالمُضارِعِ في ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ لأنَّهم يُجَدِّدون هذا الظَّنَّ، ويَتلقَّاهُ صَغيرُهم عن كَبيرِهم في أجْيالِهم، وما همْ بمُقلِعينَ عنه[٢].

- ولَمَّا ذكَرَ تعالَى خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ وقيَّدَه بالحقِّ، قال: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، يعني: ألَا تتعجَّبونَ مِن هذا الَّذي اتَّبَعَ هَواه، وأضَلَّه اللهُ، وختَمَ على سَمْعِه وقَلْبِه؛ كيف ضَلَّ عن سَبيلِ المَعرفةِ، ورفَضَ العمَلَ، وطعَنَ في تلك الحِكمةِ البالِغةِ، وادَّعى الحِكمةَ لِنَفْسِه، وقال: لا عَمَلَ ولا جَزاءَ، و﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾؟! بخِلافِ المُؤمنِ الَّذي جعَلَ هَواهُ تَبَعًا لِدينِه؛ فدَلَّ بعطْفِ قَولِه: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ﴾ على ﴿ٱتَّخَذَ﴾؛ على أنَّهم إنَّما اتَّبَعوا أهْواءَهم الباطِلةَ، ولَمْ يُجِيلُوا فِكْرَهم في تلك الآياتِ الباهرةِ الدَّالَّةِ على تلك الحِكمةِ البالِغةِ؛ لِسَبْقِ عِلْمِه الأزَليِّ والقَضاءِ المُقدَّرِ، وذلك الَّذي جَسَّرَهم أنْ يُبطِلوا حِكمةَ اللهِ بقَولِهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾. ثمَّ نفَى العِلمَ عنْهم على الاسْتِغراقِ بقَولِه: (مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ)، وذيَّلَ الآياتِ بقَولِه: ﴿ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، ورتَّبَ فيه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ تَقْريرًا وتأْكيدًا؛ فعُلِمَ قطْعًا أنَّ مَن اقْتَنى شَيئًا مِن الهَذَيانِ، وسمَّاهُ حِكمةً، واتَّبَعَ الهَوى، ورفَضَ العمَلَ، وأنْكَرَ الهُدى الَّذي هو القولُ بالحَشرِ؛ هو ممَّنْ أضَلَّه اللهُ على عِلمٍ وختَمَ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

سَمْعِه وقَلْبِه، وجعَلَ على بَصرِه غِشاوةً، وما لَه بما يقولُ مِن عِلمٍ، وهو أجهَلُ خلْقِ اللهِ وإنْ جمَعَ أسفارًا مِن الهَذَياناتِ، نَعوذُ باللهِ مِن سَخَطِ اللهِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ عطْفٌ على ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، أي: عَقَدوا على عَقيدةِ أنْ لا حَياةَ بعْدَ المَماتِ؛ اسْتِنادًا لِلْأوهامِ والأقيسةِ الخياليَّةِ، وإذا تُليَت عليهم آياتُ القُرآنِ الواضحةِ الدَّلالةِ على إمْكانِ البَعثِ وعلى لُزومِه، لم يُعارِضوها بما يُبْطِلُها، بلْ يُهْرَعون إلى المُباهَتةِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ استِثناءٌ مِن ﴿حُجَّتَهُمْ﴾، وهو يَقتضي تَسميةَ كلامِهم هذا حُجَّةً، وهو ليس بحُجَّةٍ؛ إذ هو بالبُهتانِ أشْبَهُ؛ فسَمَّى قولَهم حُجَّةً وليس بحُجَّةٍ؛ لأنَّهم أدْلَوا به كما يُدْلي المُحتَجُّ بحُجَّتِه، وساقُوه مَساقَها، فيكونُ إطلاقُ اسمِ الحُجَّةِ عليه على سَبيلِ التَّهكُّمِ بهم. أو لأنَّه في حِسبانِهم وتَقديرِهم حُجَّةٌ، فيكونُ إطلاقُ اسمِ الحُجَّةِ على كلامِهم جرَى على اعتِقادِهم وتَقديرِهم دون قَصْدِ تَهكُّمٍ بهم، أي: أَتُوا بما تَوهَّمْتُموه حُجَّةً. أو كأنَّه قِيل: ما كان حُجَّتُهم إلَّا ما ليس بحُجَّةٍ، والمُرادُ: نَفْيُ أنْ تكونَ لهم حُجَّةٌ ألْبَتَّةَ، وأنَّ هذه ليستْ بحُجَّةٍ، بل هي عِنادٌ؛ فيَحصُلُ أنْ لا حُجَّةَ لهم بطَريقِ التَّمليحِ والكِنايةِ(٣). أو أنَّ الحُجَّةَ اسمٌ لِمَا يُحتَجُّ به مِن حَقٍّ وباطلٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩١، ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٤٥). =

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ تلقينٌ لإبطالِ قَولِهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] يَتضمَّنُ إبطالَ قَولِهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، والمَقصودُ منه قَولُه: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾؛ وإنَّما قُدِّمَ عليه ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ تَوطئةً له، أي: كما هو أوجَدكم هو يُميتُكم لا الدَّهرُ؛ فتَقديمُ اسمِ ﴿ٱللَّهُ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ -وهو ﴿يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾- يُفيدُ تَخصيصَ الإحياءِ والإماتةِ به؛ لإبْطالِ قَولِهم: إنَّ الدَّهرَ هو الَّذي يُميتُهم[(١)].

- وقولُه: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إبطالٌ لِقَولِهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، وليس هو إبطالًا بطَريقِ الاسْتِدلالِ؛ لأنَّ أدِلَّةَ هذا تكرَّرتْ فيما نزَلَ مِن القُرآنِ؛ فاسْتُغنِيَ عن تَفصيلِها، ولكنَّه إبطالٌ بطَريقِ الإجمالِ والمُعارَضةِ[(٢)].

= قال ابنُ تيميَّةَ: (الحُجَّةُ هي ما يَحتجُّ به الخَصمُ وإن كان باطِلًا؛ فليس مِن شَرطِ لَفظِ الحُجَّةِ أن تكونَ حَقًّا، بل إذا كانت حقًّا سُمِّيت بَيِّنةً وبُرهانًا ودَليلًا). ((الصفدية)) (٢/ ٣١٦).

وقال ابن القيِّم: (الحُجَّةُ في كتابِ اللهِ يُرادُ بها نَوعانِ:

أحدُهما: الحُجَّةُ الحَقُّ الصَّحيحةُ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقَولِه تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

ويُرادُ بها: مُطلَقُ الاحتجاجِ بحَقٍّ أو بباطِلٍ؛ كقَولِه: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقَولِه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وقَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦]). ((بدائع الفوائد)) (٤/ ١٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ اسْتِدراكٌ مِن قولِه تعالَى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وهو إمَّا مِن تَمامِ الكَلامِ المأْمورِ به، أو كَلامٌ مَسوقٌ مِن جِهَتِه تعالى؛ تَحقيقًا للحقِّ، وتَنبيهًا على أنَّ ارتيابَهم لِجَهْلِهم وقُصورِهم في النَّظرِ والتَّفكُّرِ، لا لأنَّ فيه شائبةَ رَيْبٍ ما[1].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤).

الآيات (٢٧-٣٠)

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ
جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا
كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي
رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿السَّاعَةُ﴾: أي: يومُ القِيامةِ، والسَّاعةُ هي الوقتُ القَليلُ والجُزءُ مِن أجزاءِ الزَّمانِ، ويُعبَّرُ بها عن القِيامةِ؛ تَشبيهًا بذلك لسُرعةِ الحساب فيها، وأصْلُ (سوع): يدُلُّ على استِمرارِ الشَّيءِ ومُضِيِّه[١].

﴿الْمُبْطِلُونَ﴾: أي: المكَذِّبون الكافِرونَ أصحابُ الأباطيلِ، وأصلُ (بطل): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ، وقِلَّةِ مُكثِه[٢].

﴿جَاثِيَةً﴾: أي: باركةً على الرُّكَبِ، وهي جِلسةُ المخاصَمِ بيْنَ يَدَيِ الحاكِمِ يَنتَظِرُ القضاءَ[٣].

﴿نَسْتَنْسِخُ﴾: أي: نَكتُبُ ونُثبِتُ، والنَّسخُ: إزالةُ شَيءٍ بشَيءٍ يتعَقَّبُه، وتارةً يُفهَمُ منه الإزالةُ، وتارةً يُفهَمُ منه الإثباتُ، وتارةً يُفهَمُ منه الأمرانِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٨/ ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩- ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٧)، =

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالَى مُذكِّرًا بأهوالِ يومِ القِيامةِ: ولله وَحْدَه مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، ويَومَ تقومُ القِيامةُ يَخسَرُ الكافِرونَ أصحابُ الأباطيلِ، فيَصيرونَ إلى النَّارِ! وتَرى -يا محمَّدُ- كُلَّ أهلِ مِلَّةٍ في ذلك اليَومِ جالِسينَ على رُكَبِهم، مُنتَظِرينَ فَصْلَ اللهِ تعالَى بيْنَهم، كلُّ مِلَّةٍ تُدعَى إلى كتابِ أعمالِها، ويُقالُ لهم: اليومَ تَنالُونَ جَزاءَ أعمالِكم، هذا كِتابُنا يَشهَدُ عليكم بما عَمِلتُموه دونَ زيادةٍ أو نُقصانٍ، إنَّا كُنَّا نَأمُرُ الملائِكةَ أنْ تَكتُبَ أعمالَكم، فأمَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ فيُدخِلُهم رَبُّهم في جَنَّتِه، وذلك هو الفَوزُ الظَّاهِرُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ (٢٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا احتَجَّ بكَونِه قادِرًا على الإحياءِ في المرَّةِ الأُولَى، وعلى كَونِه قادِرًا على الإحياءِ في المرَّةِ الثَّانيةِ في الآياتِ المتقَدِّمةِ؛ عَمَّمَ الدَّليلَ فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: للهِ القُدرةُ على جَميعِ المُمكِناتِ، سَواءٌ كانتْ مِنَ السَّمواتِ أو مِنَ الأرضِ، وإذا ثَبَت كَونُه تعالَى قادِرًا على كُلِّ المُمكِناتِ، وثَبَت أنَّ حُصولَ الحياةِ في هذه الذَّاتِ مُمكِنٌ؛ إذ لو لم يكُنْ مُمكِنًا لَمَا حَصَل في المرَّةِ الأُولى، فيَلزَمُ من هاتَينِ المقَدِّمَتينِ كَونُه تعالَى قادِرًا على الإحياءِ في المرَّةِ الثَّانيةِ(١).

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٠).

وأيضًا لَمَّا دَلَّ اللهُ تعالَى على قُدرتِه على الإعادةِ بهذا الدَّليلِ الخاصِّ الذي تَقديرُه: فاللهُ الَّذي ابتدأَ خَلْقَكم مِنَ الأرضِ على هذا الوَجهِ قادِرٌ على إعادتِكم؛ عَطَف عليه دَليلًا آخَرَ جامِعًا، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ومَن تَصَرَّفَ في مُلكِه بشَيءٍ مِن الأشياءِ كان قادِرًا على مِثْلِه ما دامَ مَلِكًا[١].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وللهِ وَحْدَه مُلكُ جَميعِ السَّمَواتِ والأرضِ؛ فهو خالِقُهما والمتصَرِّفُ فيهما دونَ الدَّهرِ وغيرِه مِمَّا يَزعُمُ المُشرِكونَ أنَّ له تصَرُّفًا في الكَونِ[٢]!

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالَى إمكانَ القَولِ بالحَشرِ والنَّشرِ؛ ذكَرَ تفاصيلَ أحوالِ القِيامةِ؛ فأوَّلُها: قَولُه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[٣]، ولَمَّا جَرَى ذِكرُ يَومِ القِيامةِ أُعقِبَ بإنذارِ الذين أنكَروه مِن سُوءِ عاقِبتِهم فيه[٤]، فقال:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

أي: ويَومَ تَجيءُ القِيامةُ يَخسَرُ الكافِرونَ أصحابُ الأباطيلِ، فيَصيرونَ إلى النَّارِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير =

كما قال تعالَى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)﴾.

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾.

أي: وتَرى في ذلك اليَومِ -يا محمَّدُ- أهلَ كُلِّ مِلَّةٍ جالِسينَ على رُكَبِهم، مُنتَظِرينَ قَضاءَ اللهِ تعالَى وحُكمَه عليهم(١).

= ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٥).

ممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المُبطِلينَ هم: الآتونَ بالباطِلِ في مُعتقداتِهم وأقوالِهم وأعمالِهم: ابنُ جرير، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٦).

قال الواحديُّ: (قوله تعالى: ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ قال مقاتلٌ والكلْبيُّ: يعني: المكذِّبينَ الكافرينَ، والمبْطِلونَ أصحابُ الأباطيلِ). ((البسيط)) (٢٠/ ١٥١). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٤١).

وقال البقاعي: (﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: الداخلونَ في الباطلِ، العريقونَ في الاتِّصافِ به). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٠٤).

وقال السعديُّ: (يحصُلُ الخَسارُ على المُبطِلين الذين أتَوا بالباطِلِ لِيُدحِضوا به الحَقَّ، وكانت أعمالُهم باطلةً؛ لأنَّها مُتعَلِّقةٌ بالباطِلِ، فبَطَلت في يوم القيامةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧).

قال الشَّوكاني: (﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ الخِطابُ لِكُلِّ مَن يَصْلُحُ له، أو للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢).

وقال أيضًا: (ومعنى ﴿جَاثِيَةً﴾: مُستَوفِزةً، والمُستَوفِزُ: الذي لا يُصيبُ الأرضَ منه إلَّا رُكبَتاه وأطرافُ أنامِلِه، وذلك عند الحِسابِ. وقيل: معْنى ﴿جَاثِيَةً﴾: مُجتَمِعةً، قال الفَرَّاءُ: المعنى: =

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

أي: كلُّ أهلِ مِلَّةٍ تُدعَى يومَ القِيامةِ إلى صَحائِفِ أعمالِها التي كتبَتْها الملائِكةُ[1].

كما قال تعالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا

= وتَرى أهلَ كُلِّ ذِي دِينٍ مُجتَمِعينَ. وقال عِكرمةُ: مُتميِّزةٌ عن غَيرِها. وقال مُؤرِّجٌ: معناه بلُغةِ قُرَيشٍ: خاضِعةٌ. وقال الحَسَنُ: بارِكةٌ على الرُّكَبِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (الجاثي: هو البارِكُ المُستَوفِزُ، وهو هَيئةُ الخُضوعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧).

وقال الشَّوكاني: (وظاهِرُ الآيةِ أنَّ هذه الصِّفةَ تكونُ لكُلِّ أمَّةٍ مِن الأُمَمِ مِن غَيرِ فَرقٍ بيْنَ أهلِ الأديانِ المتَّبِعينَ للرُّسُلِ، وغَيرِهم مِن أهلِ الشِّركِ. وقال يَحيى بنُ سلامٍ: هو خاصٌّ بالكُفَّارِ. والأوَّلُ أَولى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ معنى ﴿كِتَٰبِهَا﴾: كتابُ أعمالِها: ابنُ جرير، والواحديُّ، والزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، والعُليميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٧٤).

وقيل: المعنى: إلى الكتابِ المنزَّلِ عليها، كالقُرآنِ والتَّوراةِ والإنجيلِ. وممَّن رجَّح هذا المعنى: الشَّوكاني، واستظْهَره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

قال ابن عاشور: (فمعنى ﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾: تُدعَى لِتُعرَضَ أعمالُها على ما أُمِرَتْ به في كِتابِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧).

وممَّن جمَع بيْن القولين: البقاعيُّ، فقال: (﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي: الذي أُنزِلَ إليها وتعَبَّدَها اللهُ به، والذي نَسَخَتْه الحفَظةُ مِن أعمالِها؛ لِيُطابَقَ أحدُهما بالآخَرِ، فمَن وافَق كِتابُه ما أُمِرَ به من كتابِ رَبِّه نجا، ومَن خالَفَه هَلَك). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٠٥)، ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (٧٧٨).

يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧١].

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: يُقالُ للأُمَمِ يومَ القِيامةِ: اليومَ تَنالُونَ جَزاءَ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ(١).

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: يُقالُ للأُمَمِ يومَ القِيامةِ: هذا كِتابُنا يَشهَدُ عليكم بجَميعِ أعمالِكم التي كتَبَتْها الملائِكةُ، فيُبَيِّنُها بما هو مُوافِقٌ للحَقيقةِ والواقِعِ دونَ زِيادةٍ أو نُقصانٍ(٢).

كما قال تعالَى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢].

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١).

قال ابنُ القيِّم: (قولُه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ والمرادُ: جميعُ الكُتُبِ التي أُحصِيَت فيها أعمالُهم). ((بدائع الفوائد)) (٤/ ٢).

أي: إنَّا كُنَّا نَأمُرُ الملائِكةَ أنْ تَكتُبَ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٦).

قال السَّمعاني: (وقَولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه أقوالٌ:

أحَدُها: نَستَكتِبُ ما كُنتُم تَعمَلونَ، أي: نأمُرُ الكَتَبةَ أن يَكتُبوا ويَحفَظوا أعمالَكم.

والقَولُ الثَّاني: ﴿نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نأخُذُ نُسخةً مِمَّا كَتَبَت الملائِكةُ عليكم.

والقَولُ الثَّالِثُ: وهو المعروفُ، وهو مرويٌّ عن ابنِ عَبَّاسٍ، قال: يأمُرُ اللهُ تعالَى الملائكةَ بأنْ يأخُذوا نُسخةً مِن اللَّوحِ المحفوظِ على ما يَعمَلُه العَبدُ في يومِه ولَيلتِه، ثمَّ يَكتُبونَ ما عَمِلَه العَبدُ، ثمَّ يُقابِلونَ ما كَتَبوا على العَبدِ بما نَسَخوا مِنَ اللَّوحِ المحفوظِ، فيكونانِ سَواءً لا زِيادةَ ولا نُقصانَ فيه، قال ابنُ عباسٍ: انظُروا هل يكونُ الاستِنساخُ إلَّا مِن أصلٍ؟!). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤٥).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المعنى: إنَّا كنَّا نَستكتِبُ الحفظةَ أعمالَكم، ونَأمرُ الملائكةَ بنسْخِها، أي: بكَتْبِها، وإثْباتِها عليكم: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ الجوْزي، والرازيُّ، وابنُ جُزَي، والخازنُ، وابنُ كثير، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣).

قال ابنُ القيِّم: (أكثَرُ المُفسِّرين على أنَّ هذا الاستِنساخَ من اللَّوحِ المحفوظِ، فتَستنسِخُ الملائكةُ ما يكونُ مِن أعمالِ بَني آدمَ قبْل أن يَعمَلوها، فيَجِدونَ ذلك مُوافِقًا لِما يَعمَلونَه، فيُثبِتُ اللهُ تعالى منه ما فيه ثَوابٌ أو عقابٌ، ويَطرَحُ منه اللَّغوَ). ((شفاء العليل)) (ص: ٢٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤٥).

وقال ابنُ القيِّم أيضًا: (قال عطاءٌ عن ابنِ عَبَّاسٍ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال: كَتَب اللهُ أعمالَ بني آدمَ وما هم عامِلون إلى يومِ القيامةِ. قال: والملائِكةُ تَستنسِخُ ما يَعمَلُ بنو آدَمَ يومًا بيومٍ، فذلك قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وفي الآيةِ قولٌ آخَرُ: أنَّ استِنساخَ الملائكةِ هو كِتابتُهم لِما يَعمَلُ بنو آدمَ بعْدَ أنْ يَعمَلوه، وقد يُقالُ -وهو الأظهَرُ-: إنَّ الآيةَ تَعُمُّ الأمرينِ؛ فيَأمُرُ اللهُ ملائكتَه فتَستنسِخُ مِن أُمِّ الكتابِ أعمالَ بني آدمَ، ثمَّ يَكتُبونَها =

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنْ ذَكَر اللهُ تعالى أهوالَ العَرضِ والحِسابِ، وأنَّ أعمالَ كُلِّ أُمَّةٍ تُعرَضُ عليها؛ فصَّلَ سُبحانَه حالَيِ السُّعَداءِ والأشقياءِ، وبدَأ بالسُّعَداءِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ، وأنَّه يُدخِلُهم جنَّاتِ النَّعيمِ[(١)]، فقال:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾.

أي: فأمَّا الَّذين آمَنوا باللهِ تعالى وبكلِّ بما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ الخالِصةَ الموافِقةَ لِشَرعِه: فيُدخِلُهم رَبُّهم في جَنَّتِه[(٢)].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((تحاجَّتِ الجنَّةُ والنَّارُ؛ فقالت النَّارُ: أُوثِرتُ بالمتكَبِّرينَ والمتجَبِّرينَ! وقالت الجنَّةُ: ما لي لا يَدخُلُني إلَّا ضُعَفاءُ النَّاسِ وسَقَطُهم[(٣)]؟! قال اللهُ تَبارك وتعالَى للجنَّةِ: أنتِ

= عليهم إذا عَمِلوها، فلا تَزيدُ على ما نَسَخوه مِن أمِّ الكتابِ ذَرَّةً ولا تُنقِصُها). ((طريق الهجرتين)) (ص: ٦٦).

وقال ابن عاشور: (يجوزُ أن يكونَ السِّين والتَّاء في ﴿نَسۡتَنسِخُ﴾ للمُبالغةِ في الفِعلِ، مثلُ استجابَ. ويجوزُ أن يكونَ السِّين والتَّاء للطَّلبِ والتَّكليفِ، أي: نُكَلِّفُ الملائكةَ نَسْخَ أعمالِكم، وعلى هذا المحمَلِ حَمَل المُفَسِّرون السينَ والتاءَ هنا، أي: للطَّلَبِ، ثمَّ يجوزُ أن يكونَ النَّسخُ على معنى نَقلِ كِتابةٍ عن كتابةٍ سابقةٍ... ويجوزُ أن يكونَ النَّسخُ بمعنى كتابةِ ما تعمَلُه النَّاسُ دون نَقلٍ عن أصلٍ، والمعنى: إنَّا كنَّا نَكتُبُ أعمالَكم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٦٤، ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٣) وسَقَطُهم: أي: أرذَؤُهم وأكثَرُهم خُمولًا، وأقلُّهم اعتِبارًا، المُحقَّرونَ فيما بيْنَهم، السَّاقِطونَ =

رَحْمتي أرحَمُ بكِ مَن أشاءُ مِن عِبادي. وقال للنَّارِ: إنَّما أنتِ عَذابي أعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ مِن عِبادي، ولكُلِّ واحِدةٍ منهما مِلؤُها؛ فأمَّا النَّارُ فلا تَمتلِئُ حتى يَضَعَ رِجْلَه، فتقولُ: قَطْ قَطْ[1]، فهنالك تَمتلِئُ ويُزوَى[2] بعضُها إلى بعض، ولا يَظلِمُ اللهُ عزَّ وجَلَّ مِن خَلْقِه أحدًا، وأمَّا الجَنَّةُ فإنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يُنشِئُ لها خَلْقًا))[3].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لن يُدخِلَ أحدًا منكم عَمَلُه الجَنَّةَ. قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟! قال: ولا أنا إلَّا أنْ يَتغَمَّدَني اللهُ منه بفَضلٍ ورَحمةٍ))[4].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أي: دُخولُ المُؤمِنينَ الجنَّةَ يومَ القيامةِ هو الفَوزُ البَيِّنُ الظَّاهِرُ[5].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ قال ابنُ أبي حاتم: (قَدِمَ سُفيانُ الثَّوريُّ المدينةَ، فسَمِعَ المَعافِريَّ يَتكَلَّمُ ببَعضِ ما يُضحِكُ به النَّاسَ! فقال له: يا شَيخُ، أمَا عَلِمتَ أنَّ للهِ يومًا يَخسَرُ فيه المُبطِلونَ؟! قال: فما زالت تُعرَفُ في المعافِريِّ حتى لَحِقَ باللهِ عزَّ وجَلَّ)[6]!

= عن أعيُنِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٢٨).

(١) قَطْ: حَسْبي، أي: يَكْفيني هذا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٨٢).

(٢) ويُزْوَى: أي: يُضَمُّ بعضُها إلى بعضٍ فتجتمِعُ وتَلْتقي على مَن فيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٨٢).

(٣) رواه البخاري (٤٨٥٠) واللفظ له، ومسلم (٢٨٤٦).

(٤) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠).

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وَصَف تعالَى شِدَّةَ يومِ القِيامةِ وهَوْلَه؛ لِيَحذَرَه العِبادُ، ويَستَعِدُّوا له[1]، حيث يَصيرُ النَّاسُ على الرُّكَبِ جُثاةً، في هيْئةِ المذنْبِ الخائفِ المُعَظِّمِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تكونُ وَحْدَها يوْمَ القِيامةِ[3].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: الجُثُوُّ على الرُّكبةِ إنَّما يَليقُ بالخائِفِ، والمُؤمِنونَ لا خَوفٌ عليهم يومَ القِيامةِ؟

الجَوابُ: أنَّ المُحِقَّ الآمِنَ قد يُشارِكُ المُبطِلَ في مِثلِ هذه الحالةِ إلى أنْ يَظهَرَ كَونُه مُحِقًّا[4].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ -المُنكِرينَ للكِتابةِ السَّابقةِ لأعمالِ العِبادِ-؛ إذِ النَّسخُ لا يكونُ إلَّا ممَّا قدْ فُرِغ منه مَرَّةً، ولو كانتْ كِتابةَ ابتداءٍ: كان -واللهُ أعلمُ- (إنَّا كُنَّا نَكتُبُ ما كنتُم تعملونَ)[5]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٤- قَولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخِرِ القِصَّةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٠).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٢).

فيه حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ والقَدَريَّةِ في بابِ الوَعيدِ، حيثُ زعَموا أنَّ اللهَ -في القُرآنِ كلِّه- لم يُوجِبِ الرَّحمةَ والفوزَ والجنَّةَ إلَّا لِمَن لم يَعْصِه طَرْفةَ عَينٍ، أو عصاهُ فمات تائبًا. ووَجْهُ ذلك: أنَّه قال في أوَّلِ القِصَّةِ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾، ثمَّ أخبَرَ بمَثْوَى كلِّ فريقٍ ومُجازاتِه، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يَقُلْ: «ولم يُذنِبوا». والمؤمنُ إذا صلَّى وصامَ وتوضَّأَ واغتَسلَ مِن الجَنابةِ؛ فقدْ عَمِلَ الصَّالحاتِ، ولا تَرى مُؤمِنًا -وإنْ أذنَبَ- إلَّا وقدْ فَعَلَ كُلَّ هذا وزيادةً، وقال في الفِرقةِ الأُخرى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الجاثية: ٣١]، فحَقَّ الوَعيدُ عليهم بتَعريتِهم مِن الإيمانِ، فمَن أوجَبَ اللهُ له الفَوزَ، ووعَدَه الإدخالَ في رَحمتِه؛ فقدْ أمِنَ مَثْوَى الآخَرينَ وجَزاءَهم[1].

- قال تعالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فذكَر الله تعالى حالَ الطَّائفتينِ مِن المؤمنينَ والكافِرينَ، وقرَن بينَهم في الذِّكرِ؛ ليَبينَ الأمرُ في نفسِ السَّامعِ؛ فإنَّ الأشياءَ تتبيَّنُ بذكرِ أضدادِها[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِتَعميمِ القُدْرةِ بعْدَ تَخصيصِها بالإحياءِ والإماتةِ والجمْعِ؛ لأنَّ معنى المالِكِ: أنْ يَتصرَّفَ بما يَملِكُ كما يَشاءُ[3]. أو هو اعْتِراضُ تَذييلٍ لِقَولِه: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الجاثية:

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٨).

٢٦]، أي: للهِ لا لِغَيرِه مُلْكُ السَّمواتِ والأرْضِ، أي: فهو المُتصرِّفُ في أحوالِ ما حَوَتْه السَّمواتُ والأرضُ؛ مِن إحياءٍ وإماتةٍ، وغيرِ ذلك بما أوجَدَ مِن أُصولِها وما قدَّرَ مِن أسْبابِها ووَسائلِها؛ فليْس للدَّهرِ تَصرُّفٌ، ولا لِمَا سِوى اللهِ تعالَى[١].

- وتَقديمُ المَجرورِ ﴿وَلِلَّهِ﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لإفادةِ التَّخصيصِ؛ لِرَدِّ مُعتقَدِ الكافرينَ مِن خُروجِ تَصرُّفِ غَيرِه في بَعضِ ما في السَّمواتِ والأرضِ، كقولِهم في الدَّهرِ[٢].

- وقولُه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ظَرفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿يَخْسَرُ﴾، وقُدِّمَ عليه للاهتِمامِ به، واسْتِرعاءِ الأسماعِ لِمَا يَرِدُ مِن وَصْفِ أحوالِه[٣].

- وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ توكيدٌ لـ(يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ)، وتَنوينُه عِوَضٌ عن المُضافِ إليه المَحذوفِ؛ لِدَلالةِ ما أُضِيفَ إليه (يوم) عليه، أي: يَومَ إذ تَقومُ السَّاعةُ يَخسَرُ المُبطِلون؛ فالتَّأكيدُ لِتَحقيقِ مَضمونِ الخبَرِ، ولِتَهويلِ ذلك اليومِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ اسْتِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ جُثُوَّ الأُمَّةِ يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عمَّا بعْدَ ذلك الجُثُوِّ[٥].

- قولُه: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، أي: إلى قِراءةِ كِتابِ أعْمالِها، وأضافَ الكِتابَ إلى الأُمَّةِ، ثمَّ أضافَه إليه تعالَى في قولِه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ [الجاثية: ٢٩]؛ لأنَّ الإضافةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٦٨).

تَحصُلُ بأدَقِّ مُلابَسةٍ، فأضافَه إلى الأُمَّةِ لِكَونِ أعمالِهم مُثبَتةً فيه، وأضافَه إليه تعالَى لِكَونِه مالِكَه، وآمِرَ مَلائكتِه بكِتابتِه، وللإشارةِ إلى أنَّ كُلَّ ما ثبَتَ فيه صِدْقٌ وحَقٌّ وعدْلٌ، وأنَّه تعالَى يُجازِيها على القَليلِ والكَثيرِ؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾، وذُيِّلَ بالجمْعِ، ثمَّ قُسِّمَ بقولِه: ﴿فَأَمَّا﴾ ﴿وَأَمَّا﴾[1].

- وعلى القَولِ بأنَّ المرادَ بـ﴿كِتَٰبِهَا﴾ كِتابُ تَسجيلِ الأعمالِ لكلِّ واحدٍ، أو المرادُ به الجِنسُ، فتكونُ إضافتُه إلى ضَميرِ الأُمَّةِ على إرادةِ التَّوزيعِ على الأفرادِ؛ لأنَّ لكلِّ واحدٍ مِن كُلِّ أُمَّةٍ صَحيفةَ عمَلِه خاصَّةً به، كما قال تعالَى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤]، وقال: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]، أي: كلُّ مُجرمٍ يُشفِقُ ممَّا في كِتابِه، إلَّا أنَّ هذه الآيةَ الأخيرةَ وقَعَ فيها (الكتاب) مُعرَّفًا باللَّامِ فقبِلَ العمومَ. وأمَّا آيةُ (الجاثيةِ) فعُمومُها بَدَليٌّ بالقَرينةِ؛ فالمرادُ: خُصوصُ الأُممِ التي أُرسِلتْ إليها الرُّسُلُ، ولها كتُبٌ وشَرائعُ؛ لقولِه تعالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[2] [الإسراء: ١٥].

- وفي قَولِه: ﴿كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أُعيدَت كَلمةُ ﴿كُلُّ أُمَّةٖ﴾ -دونَ اكْتِفاءٍ بقولِه: ﴿تُدۡعَىٰٓ﴾ أو (يُدْعون)-؛ للتَّهويلِ، ولو قِيل: وترَى كلَّ أُمَّةٍ جاثيةً تُدْعَى إلى كِتابِها، لَأوهَمَ أنَّ الجُثُوَّ والدُّعاءَ إلى الكِتابِ يَحْصُلانِ مَعًا، معَ ما في إعادةِ الخَبَرِ مَرَّةً ثانيةً مِن التَّهويلِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٨).

- وجُملةُ ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ بتَقديرِ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: يُقالُ لهم: اليومَ تُجْزَون، أي: يكونُ جَزاؤُكم على وَفْقِ أعْمالِكم، وجَرْيُها على وَفْقِ ما يُوافِقُ كِتابَ دِينِكم مِن أفعالِكم في الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، وهذا البدَلُ وقَعَ اعتِراضًا بيْن جُملةِ ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ﴾ وجُملةِ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٣٠] الآياتِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ مِن مَقولِ القولِ المُقدَّرِ، وهي مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا لتَوقُّعِ سُؤالِ مَن يقولُ منهم: ما هو طَريقُ ثُبوتِ أعْمالِها[٢]؟

- وأُضِيفَ الكِتابُ إلى نُونِ العَظَمةِ ﴿كِتَٰبُنَا﴾؛ تَفخيمًا لِشَأْنِه وتَهْويلًا لِأمْرِه[٣].

- ولِتَضمُّنِ فِعلِ ﴿يَنطِقُ﴾ معنى (يَشهَدُ) عُدِّيَ بحَرْفِ (على). ولَمَّا كان المَقامُ للتَّهديدِ، اقتُصِرَ فيه على تَعديةِ ﴿يَنطِقُ﴾ بحَرْفِ (على) دُونَ زِيادةِ: (ولكمْ)؛ إيثارًا لِجانبِ التَّهديدِ[٤].

- وقولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ اسْتِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ خطَرَ ببالِهم السُّؤالُ: كيف شَهِدَ عليهمُ الكِتابُ اليومَ وهمْ قدْ عَمِلوا الأعمالَ في الدُّنيا؟ فأُجِيبُوا بأنَّ اللهَ كان يَأمُرُ بنَسْخِ ما يَعمَلونَه في الصُّحفِ في وَقْتِ عَمَلِه. وإنْ حُمِلَ (الكِتابُ) على كُتبِ الشَّريعةِ كانتْ جُملةُ ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تَعليلًا للجُملةِ قبْلَها، باعْتِبارِ تَقْييدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٩).

النُّطقِ بأنَّه بالحقِّ، أي: لأنَّ أعْمالَكم كانتْ مُحصاةً، مُبيَّنٌ ما هو مِنْها مُخالِفٌ لِمَا أمَرَ به كِتابُهم[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾

- قولُه: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ﴾ الفاءُ في ﴿ فَأَمَّا ﴾ لِعَطْفِ المُفصَّلِ على المُجمَلِ، وهو تَفصيلٌ لِمَا أُجمِلَ في قولِه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ [الجاثية: ٢٨]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ؛ فالكلامُ هنا هو مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[٢] [الجاثية: ٣١].

- وابتُدِئَ في التَّفصيلِ بوَصْفِ حالِ المُؤمنينَ، معَ أنَّ المَقامَ للحَديثِ عن المُبطِلينَ في قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٧]؛ تَنْويهًا بالمُؤمنينَ، وتَعجيلًا لِمَسرَّتِهم، وتَعجيلًا لِمَساءةِ المُبطِلينَ؛ لأنَّ وَصْفَ حالِ المُؤمنينَ يُؤذِنُ بمُخالَفةِ حالِ الآخَرينَ لِحالِهم[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧١).

الآيات (٣١-٣٥)

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٣١ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٣ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٣٥ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴾: أي: بمُتحَقِّقينَ. مِنَ اليَقينِ: وهو عِلمٌ حاصِلٌ بالاستِدلالِ، وهو فَوقَ المَعرفةِ والدِّرايةِ، وأصلُ (يقن): يدُلُّ على زَوالِ الشَّكِّ[١].

﴿ وَبَدَا ﴾: أي: ظهَرَ ظُهورًا بيِّنًا، وأصلُ (بدو): ظُهورُ الشَّيءِ[٢].

﴿ وَحَاقَ ﴾: أي: أحاطَ ونَزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[٣].

﴿ وَمَأۡوَىٰكُمُ ﴾: أي: مَصيرُكم ومقامُكم ومَثواكم، أو: مَرجِعُكم الذي تَعودونَ إليه، والمأوَى: مكانُ كلِّ شَيءٍ ومَرجِعُه الَّذي يَعودُ إليه ليْلًا أو نَهارًا؛ يُقالُ: أوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه، وأصلُه: التَّجمُّعُ[٤].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨، ٩٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((المفردات)) (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢).

﴿هُزُوًا﴾: أي: استهزاءً وسُخريةً ولَعِبًا، وهو مِن الهُزءِ الذي هو المزْحُ في خُفيةٍ[١].

﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾: أي: خَدَعَتْكم، يُقالُ: غَررْتُ فلانًا: أصبْتُ غِرَّتَه، ونِلْتُ منه ما أُريدُه، والغِرَّةُ: غَفْلةٌ في اليقظةِ، وأصلُ ذلك مِن الغَرِّ، وهو الأثرُ الظَّاهرُ مِن الشَّيءِ[٢].

﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي: يُطلَبُ منهم أنْ يُزيلُوا غَضَبَ رَبِّهم، ويَرجِعوا إلى ما يُرضِيه؛ مِن الاستِعتابِ: وهو الرُّجوعُ عَن الإساءَةِ، والتَّعَرُّضُ لطَلَبِ الرِّضا، وأصلُ الكَلِمةِ مِن (العَتْبِ): وهو الغَضَب والمَلامةُ، يُقالُ: عتَبَ عليه يَعتِبُ: إذا غَضِبَ عليه ولامَه، وأعتَبَه: إذا أزالَ عنه عَتْبَه، واستَعْتَبَه: إذا طلَبَ منه الإعتابَ، أي: الرِّضا[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾

قولُه: ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فيه أوجُهٌ:

أحَدُها: أنَّ (السَّاعة) مُبتدأٌ مَرفوعٌ، وجُملةُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ في مَحلِّ رَفعٍ خَبَرٌ، وجُملةُ ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٢/ ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٢)، ((المفردات)) (ص: ٨٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣- ٦٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٨).

الثَّاني: أنَّ (السَّاعة) مَعطوفٌ على محلِّ اسمِ (إنَّ)؛ لأنَّه قبْلَ دُخولِها كان مُبتدأً.

الثَّالِثُ: أنَّ (السَّاعة) مَعطوفٌ على محَلِّ (إنَّ واسمِها) معًا؛ فمَوضِعُهما الرَّفعُ على الابتداءِ. وقُرِئَ ﴿وَالسَّاعَةَ﴾ بالنَّصبِ[1] عَطفًا على ﴿وَعَدَ اللَّهِ﴾.

قولُه: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ فيه إشكالٌ مِن جِهةِ استِثناءِ الظَّنِّ مِن نَفسِه؛ فليْس مَصدَرُ ﴿نَّظُنُّ﴾ محتَمِلًا مع الظَّنِّ غَيرَه حتى يُخرَجَ الظَّنُّ منه؛ فإنَّ الاستِثناءَ المُفرَّغَ -النَّاقِصَ المنفيَّ- لا يَصِحُّ أنْ يكونَ مُفرَّغًا للمَفعولِ المُطلَقِ المؤكِّدِ؛ لانتِفاءِ فائدةِ التَّفريغِ، فلا يجوزُ (ما ضرَبْتُ إلَّا ضَرْبًا). وقد اختُلِفَ في تأويلِه على أوجهٍ:

أحدُها: أنَّ المُستثنى هو الظَّنُّ الموصوفُ بما دَلَّ عليه تَنكيرُه مِن التَّحقيرِ المُشعِرِ به التَّنوينُ، فتُقَدَّرُ له صِفةٌ مَحذوفةٌ؛ لِفَهمِ المعنَى، والتَّقديرُ: إلَّا ظَنًّا ضَعيفًا؛ فيكونُ مَصدرًا مُختَصًّا لا مُؤَكِّدًا.

الثَّاني: أنَّه على القَلبِ والتَّقديمِ والتَّأخيرِ، والتَّقديرُ: (إنْ نحن إلَّا نظُنُّ ظنًّا).

الثَّالثُ: أنْ يُضَمَّنَ ﴿نَّظُنُّ﴾ معنى (نَعْتقِد)، فيَنتَصِبَ ﴿ظَنًّا﴾ مَفعولًا به لا مَصدرًا، والتَّقديرُ: ما نَعتَقِدُ إلَّا ظَنًّا.

الرَّابعُ: أنَّ الظَّنَّ يكونُ بمعنى العِلْمِ والشَّكِّ، فاستَثْنى الشَّكَّ، كأنَّه قيل: ما لنا اعتِقادٌ إلَّا الشَّكُّ[2].

(١) قرَأها بالنَّصبِ حمزةُ، وقرأها الباقونَ بالرَّفعِ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦٢)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٣٥)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٥٦)، ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام (ص: ٣٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٣).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى ما يُقالُ للكافرينَ يومَ القِيامةِ تَقريعًا لهم وتَوبيخًا، فيقولُ: وأمَّا الذين كَفَروا باللهِ فيَقولُ اللهُ تعالَى لهم يومَ القِيامةِ تَوبيخًا: ألَمْ تكُنْ آياتُ القرآنِ تُتلَى عليكم في الدُّنيا، فاستكبَرْتُم عن الإيمانِ بها، وكنتُم قَومًا مُجرِمين؟!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى حالَهم في الدُّنيا، وإنكارَهم للبعثِ، فيَقولُ: وإذا قيلَ لكمْ: إنَّ وَعْدَ اللهِ -مِن البَعثِ أو غيرِه- حَقٌّ، وإنَّ القِيامةَ آتيةٌ لا شَكَّ فيها؛ قُلتُم مُكَذِّبينَ: لا نَعرِفُ ما القيامةُ، إنْ نَظُنُّ إلَّا ظَنًّا، وما نحن بمُتَحقِّقينَ مِن قِيامِها!

ثمَّ يقولُ تعالَى: وظَهَر لأولئك المُجرِمينَ سَيِّئاتُ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والعِصيانِ، ونَزَل بهم عَذابُ اللهِ الذي كانوا يَسخَرونَ منه! ويُقالُ لهم: اليومَ نَترُكُكم في العَذابِ كما تَركْتُم في الدُّنيا الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالِحَ، ومَقَرُّكم النَّارُ، وما لكم ناصِرٌ يَنصُرُكم، ويَدفَعُ عنكم عَذابَ اللهِ!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى الأسبابَ التي أدَّت بهم إلى هذا المصيرِ السَّيِّئِ، فيقولُ: ذلك العذابُ حاصِلٌ بسَبَبِ أنَّكم اتَّخذْتُم آياتِ اللهِ سُخريةً، وغرَّتْكم الحياةُ الدُّنيا؛ فاليومَ لا يُخرَجُ أولئك الكافِرونَ المجرِمونَ مِنَ النَّارِ، ولا يُطلَبُ منهم فِعلُ ما يُرضِي اللهَ تعالَى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٣١﴾.

أي: وأمَّا الذين كَفَروا باللهِ فيَقولُ اللهُ تعالَى لهم تَقْريعًا وتَوبيخًا: ألَمْ تكُنْ آياتُ القرآنِ تُتلَى عليكم في الدُّنيا، فاستكبَرْتُم عن الإيمانِ بها واتِّباعِها، وأعرَضتُم عن سَماعِها وقَبولِها، وكنتُم قَومًا مُتَّصِفينَ بالإجرامِ في أفعالِكم، فتكتَسِبونَ الآثامَ،

معَ ما اشتَمَلت عليه قلوبُكم مِن التَّكذيبِ[١]؟!

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾.

أي: وإذا قيلَ لكم: إنَّ ما وَعَد اللهُ به عِبادَه مِن البَعثِ أو غيرِه أمرٌ كائِنٌ لا مَحالةَ، وإنَّ القِيامةَ التي يَجمَعُ اللهُ فيها النَّاسَ للحِسابِ والجَزاءِ لا شكَّ في مجيئِها؛ قُلتُم تَكذيبًا وإنكارًا: لا نَعرِفُ ما القِيامةُ[٢]!

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾.

أي: وقُلتُم: ما نَعلَمُ وُقوعَ السَّاعةِ إلَّا على وَجهِ الظَّنِّ والتَّوَهُّمِ[٣]!

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٦-١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢).

قال الشَّوكانيُّ: (﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: نَحدِسُ حَدْسًا، نَتوهَّمُ توَهُّمًا... وقيل: ﴿إِن نَّظُنُّ﴾ مضمَّنٌ معنى نَعتقِدُ، أي: ما نَعتقدُ إلَّا ظنًّا لا عِلمًا... وقيل: إنَّ الظنَّ يكونُ بمعنى العِلمِ والشكِّ، فكأنَّهم قالوا: ما لنا اعتقادٌ إلَّا الشَّكُّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤).

وقال البقاعي: (ولَمَّا كان أمْرُها مَركوزًا في الفِطَرِ لا يَحتاجُ إلى كَبيرِ نَظَرٍ، بما يَعلَمُ كُلُّ أحدٍ مِن تمامِ قُدرةِ الله تعالى، فمتى نُبِّهَ عليها نوعَ تَنبيهٍ سَبَق إلى القَلبِ عِلمُها -سَمَّوا ذلك ظنًّا؛ عِنادًا واستِكبارًا، فقالوا مُستأنِفينَ في جوابِ مَن كأنَّه يقولُ: أفلمْ تُفِدْكم تِلاوةُ هذه الآياتِ البَيِّناتِ عِلمًا بها؟ ﴿إِن﴾ أي: ما ﴿نَّظُنُّ﴾ أي: نَعتَقِدُ ما تُخبِرونَنا به عنها ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ وأمَّا وُصولُه إلى دَرَجةِ العِلمِ فلا). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١١٠).

أي: وما نحن بمُتَحقِّقينَ أنَّ القِيامةَ كائِنةٌ[١]!

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٣٣﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾.

أي: وظهَر للمُشرِكينَ في الآخِرةِ ظهورًا بيِّنًا سَيِّئاتُ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي[٢].

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

أي: ونَزَل وأحاطَ بهم عَذابُ اللهِ الَّذي كانوا في الدُّنيا يَسخَرونَ منه، ويَستَهزِئونَ به[٣].

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ٣٤﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

قال القاسمي: (﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: قبائِحُ أعمالِهم، أو عُقُوباتُ أعمالِهم السَّيِّئاتِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّل: ابنُ جَريرٍ، وابنُ أبي زَمنين، والرازي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٢).

وممَّن اختار القولَ الثاني: مكِّيٌّ، والبَغوي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٨٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٣).

قال البقاعي: (فتَمَثَّلَتْ لهم وعَرَفوا مِقدارَ جَزائِها، واطَّلَعوا على جميعِ ما يَلزَمُ على ذلك). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أُودِعَ الكافِرونَ جهنَّمَ، وأحاطَتْ بهم؛ نُودُوا ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ﴾ إلى آخِرِه؛ تَأييسًا لهم مِنَ العَفوِ عنهم[(١)].

﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾.

أي: ويُقالُ لهم: اليومَ نَتْرُكُكم في العَذابِ كما تَركتُم في الدُّنيا الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالِحَ لِلِقاءِ هذا اليَومِ[(٢)].

كما قال تعالَى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يَلقَى اللهُ العَبدَ فيقولُ: أيْ فُلُ[(٣)]، ألمْ أُكرِمْك وأُسَوِّدْك[(٤)] وأُزَوِّجْك، وأُسخِّرْ لك الخيلَ والإبِلَ، وأذَرْك ترأَسُ وتَربَعُ[(٥)]؟ فيقولُ: بلى. فيقولُ: أفظَنَنْتَ أنَّك مُلاقِيَّ؟ فيقولُ: لا. فيقولُ: فإنِّي أنساك كما نَسيتَني. ثمَّ يَلْقَى الثَّانيَ فيَقولُ: أيْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٢-١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٣) أي فُلُ: أي: يا فُلانُ، و(فُلُ) هو تَرخيمُ فُلانٍ. وقيل: لغةٌ في فُلانٍ، وصِيغةٌ ارتُجِلَت في بابِ النِّداءِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٩٢٣)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٣).

(٤) أُسَوِّدْك: أي: أجعَلْك سَيِّدًا في قومِك. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٢٨).

(٥) ترأَسُ: أي: تكونُ رئيسًا على قَومِك. وتَربَعُ: أي: تأخُذُ المِرباعَ، وهو ربُعُ الغَنيمةِ، وقيل: معناه: تَركْتُك مُستريحًا لا تحتاجُ إلى مَشقَّةٍ وتَعَبٍ؛ من قَولِهم: ارْبَعْ على نَفْسِك، أي: ارْفُقْ بها. والمعنى: ألَمْ أجعَلْك رئيسًا مُطاعًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٨٦)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٤).

فُلُ، ألَمْ أُكرِمْك وأُسَوِّدْك وأُزَوِّجْك، وأُسخِّرْ لك الخيلَ والإبِلَ، وأَذَرْك تَرأَسُ وتَربَعُ؟ فيقولُ: بلى أيْ رَبِّ. فيقولُ: أفظَنَنْتَ أنَّك مُلاقِيَّ؟ فيقولُ: لا. فيقولُ: فإنِّي أنساك كما نَسيتَني))[1].

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: ومَقَرُّكم ومَسكَنُكم النَّارُ، تَستَقِرُّونَ فيها أبدًا[2].

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

أي: وما لكم -أيُّها المُشرِكونَ- أيُّ أحدٍ يَنصُرُكم فيُنقِذُكم مِن عَذابِ اللهِ تعالَى[3].

كما قال تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦].

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالَى جَزاءَ الكافِرينَ؛ عَلَّله بما لَزِمَ على أعمالِهم، فقال[4]:

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾.

(١) رواه مسلم (٢٩٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٣).

أي: ذلك يَحُلُّ بكم؛ بسَبَبِ أنَّكم اتَّخذْتُم آياتِ اللهِ سُخريةً، تَسخَرونَ منها، وتَستَهزِئونَ بها[(١)].

﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: وبسَبَبِ انخِداعِكم بالحياةِ الدُّنيا، فعَمِلتُم لها وآثَرْتُموها، وأعرَضتُم عن العَمَلِ للآخِرةِ وأنكَرْتُموها[(٢)]!

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا﴾.

أي: فاليومَ لا يُخرَجُ أولئك الكافِرونَ مِنَ النَّارِ[(٣)].

﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾.

أي: ولا يُطلَبُ منهم يومَ القِيامةِ فِعلُ ما يُرضِي اللهَ، بالتَّوبةِ إليه وطاعتِه؛ حتى تُزالَ عنهم المُعاتَبةُ والمُؤاخَذةُ بذُنوبِهم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٥-٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٦).
قيل: المرادُ: أنَّهم لا يُرَدُّونَ إلى الدُّنيا ليَعمَلوا صالحًا.
وممَّن نَصَّ على أنَّ المرادَ العودةُ إلى الدُّنيا: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٨٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٨٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨). =

كما قال تعالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

الفوائدُ التربويةُ:

في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ وقَف الله تعالى الكفَّارَ على الاستكبارِ؛ لأنَّه مِن شرِّ الخِلالِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ [الجاثية: ٣٠]، وقولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ...﴾ ذكَرَ اللهُ المؤمِنينَ والكافِرينَ، ولم يَذكُرْ قِسمًا ثالثًا، وهذا يدُلُّ على أنَّ مَذهَبَ المُعتَزِلةِ في إثباتِ المَنزِلتَينِ: باطِلٌ(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ عَلَّل استِحقاقَ العُقوبةِ بأنَّ آياتِه تُلِيَتْ عليهم فاستَكبَروا عن قَبولِها، وهذا يدُلُّ على أنَّ استِحقاقَ العُقوبةِ لا يَحصُلُ إلَّا بعْدَ مَجيءِ الشَّرعِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ الواجِباتِ لا تَجِبُ إلَّا بالشَّرعِ، خِلافًا لِما يقولُه المُعتَزِلةُ مِن أنَّ بَعضَ الواجباتِ قدْ يَجِبُ بالعَقلِ(٣).

= وقيل: المرادُ: لا يُطلَبُ منهم أنْ يُعتِبوا ربَّهم، أي: يُرضوه بالرُّجوعِ إلى طاعتِه والإيمانِ به؛ لأنَّه يومٌ لا تُقبَلُ فيه توبةٌ ولا تَنفَعُ فيه مَعذِرةٌ.

وممَّن قال بذلك في الجُملةِ: الزمخشريُّ، وابنُ الجوْزي، والخازنُ، وابنُ كثير، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَحسُنُ وَصفُ الكافِرِ بكَونِه مُجرِمًا في مَعرِضِ الطَّعنِ فيه والذَّمِّ له، معَ أنَّ الكفرَ أعظمُ حالًا مِن الجُرْمِ؟

الجوابُ: قيل: إنَّ معناه أنَّهم مع كَونِهم كُفَّارًا ما كانوا عُدولًا في أديانِ أنفُسِهم، بلْ كانوا فُسَّاقًا في ذلك الدِّينِ[١].

٤- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾، لَمَّا كانت هذه الآياتُ تُوجِبُ الإيمانَ، لِما لها مِن العظَمةِ بمُجرَّدِ تلاوتِها، بُني قولُه: ﴿تُتۡلَىٰ﴾ للمَفعولِ[٢].

٥- إنْ قِيلَ: قولُهم: ﴿إِن نَّظُنُّ﴾ دَليلٌ على أنَّ الكُفَّارَ قدْ أخبَروا بأنَّهم ظَنُّوا البَعثَ واقِعًا، ودلَّ قَولُهم قبلُ: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [الجاثية: ٢٤] على أنَّهم مُنكِرونَ البَعثَ.

فالجوابُ: أنَّ قَولَ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ لا يُنافي قَولَهم: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾؛ وذلك لِوُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ القَومَ كانوا في هذه المسألةِ على قَولَينِ: مِنهم مَن كان قاطِعًا بنَفيِ البَعثِ والقيامةِ، وهم الَّذين ذكَرَهم اللهُ في الآيةِ المتقَدِّمةِ بقَولِه: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، ومِنهم مَن كان شاكًّا مُتحَيِّرًا فيه؛ لأنَّهم لِكَثرةِ ما سَمِعوه مِنَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولِكَثرةِ ما سَمِعوه مِن دَلائِلِ القَولِ بصِحَّتِه -صاروا شاكِّينَ فيه، وهم الَّذين أرادهم اللهُ بهذه الآيةِ، والذي يدُلُّ عليه:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٨).

أنَّه تعالَى حَكى مَذهَبَ أولئك القاطِعينَ ثمَّ أتبَعَه بحِكايةِ قَولِ هؤلاء؛ فوَجَب كَونُ هؤلاء مُغايِرينَ للفَريقِ الأوَّلِ(١).

الوَجهُ الثَّاني: كأنَّهم كانوا تارةً يَقوَى عِندَهم ما في جِبِلَّاتِهم وفِطَرِهم الأُولى مِن أَمْرِها، فيَظُنُّونَها، وتارةً تَقْوَى عليهم الحُظوظُ مع ما يَقتَرِنُ بها مِنَ الشُّبهةِ المَبنيَّةِ على الجَهلِ، فيَظُنُّونَ عَدَمَها، فيَقطَعونَ به؛ لِما للنَّفسِ إليه مِنَ المَيلِ(٢)، فهم اضْطرَبوا؛ فتارةً أنكَروا، وتارةً ظَنُّوا(٣).

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنْ يكونَ هذا حِكايةً لاستِهزائِهم بخَبَرِ البَعثِ، فإذا قيل لهم: السَّاعةُ لا رَيبَ فيها قالوا استِهزاءً: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾، ويدُلُّ عليه قَولُه عَقِبَه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(٤) [الجاثية: ٣٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ فيه أنَّ الكافِرينَ استَحَقُّوا العذابَ الشَّديدَ؛ لأجْلِ الإصرارِ على إنكارِ الدِّينِ الحَقِّ، والاستِهزاءِ به والسُّخريةِ منه -وهذانِ الوَجهانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٢).

قال ابنُ عاشور: (وأقولُ: هذا لا يَستقيمُ؛ لأنَّه لو سُلِّمَ أنَّ فَريقًا مِن المُشرِكينَ كانوا يَشُكُّونَ في وُقوعِ السَّاعةِ ولا يَجزمونَ بانتِفائِه، فإنَّ جَمهرةَ المُشرِكينَ نافُونَ لِوُقوعِها؛ فلا يُناسِبُ مَقامَ التَّوبيخِ تَخصيصُه بالَّذين كانوا مُتردِّدينَ في ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٦- ٤٢٧).

قال الألوسيُّ: (ويَحتمِلُ اتِّحاد قائلِ ذاك وقائلِ هذا، إلَّا أنَّ كلَّ قول في وقت وحال، فهو مُضطرِبٌ مختلفُ الحالاتِ؛ تارةً يَجزِمُ بالنَّفيِ فيقولُ: إنْ هي إلَّا حَياتُنا الدُّنيا، وأُخرى يَظُنُّ فيقولُ: إنْ نظُنُّ إلا ظَنًّا. وقيل: الجزمُ هناك بنَفْيِ وُقوعِها، والظنُّ مِن غيرِ إيقانٍ هنا بمُجرَّدِ إمكانِها؛ فهم مُتردِّدون بإمكانِها الذاتيِّ، جازِمون بعدَمِ وُقوعِها بالفعلِ، فتأمَّلْ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٢).

داخِلانِ تحْتَ قَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾-، والاستِغراقِ في حُبِّ الدُّنيا، والإعراضِ بالكُلِّيَّةِ عن الآخِرةِ، وهو المرادُ مِن قَولِه تعالَى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾(1).

٧- يَذكُرُ الشَّارِعُ العِلَلَ والأوصافَ المُؤثِّرةَ والمعانيَ المُعتَبَرةَ في الأحكامِ القَدَريَّةِ والشَّرْعيَّةِ والجَزائيَّةِ؛ لِيَدُلَّ بذلك على تعَلُّقِ الحُكمِ بها أينَ وُجِدَتْ، واقتِضائِها لأحكامِها، وعَدَمِ تَخَلُّفِها عنها إلَّا لمانعٍ يُعارِضُ اقتِضاءَها، ويُوجِبُ تخلُّفَ أثَرِها عنها؛ كقَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾، وقَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: ١٣]، وقَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ [غافر: ١٢]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ(2).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ استِفهامُ تَوبيخٍ وتَقريعٍ للكافرينَ(3).

- وقولُه: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: يُقالُ لهُم: ألَمْ يكُنْ تأْتِيكم رُسلي، أفلَمْ تكُن آياتِي تُتلى عليكم؟! فحُذِفَ المَعطوفُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٢).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧١).

اكْتِفاءً بالمقصودِ، وثِقةً بدَلالةِ القَرينةِ عليه(١).

- قولُه: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾، قال: ﴿قَوۡمٗا﴾ دونَ الاقْتِصارِ على (وكُنتُم مُجرِمينَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإجرامَ صارَ خُلُقًا لهم، وخالَطَ نُفوسَهم حتَّى صار مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم(٢).

- قولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ مِن الاحتِباكِ(٣)، حيثُ ذَكَر الإدخالَ في الرَّحمةِ أوَّلًا في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ دَليلًا على الإدخالِ في اللَّعنةِ ثانيًا، وذَكر التَّبكيتَ ثانيًا دَليلًا على التَّشريفِ أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّ ما ذَكَره أدَلُّ على شَرفِ الوليِّ، وحَقارةِ العَدوِّ(٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾

- جُملةُ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ...﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾، والتَّقديرُ: وقُلْتُم: ما نَدْري ما السَّاعةُ، إذا قِيل لكمْ: إنَّ السَّاعةَ لا رَيبَ فِيها، وهذانِ القولانِ ممَّا تَكرَّرَ في القُرآنِ بلَفْظِه وبمَعناه؛ فهو تَخصيصٌ لِبَعضِ آياتِ القُرآنِ بالذِّكرِ بعْدَ التَّعميمِ في قولِه: ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾(٥) [الجاثية: ٣١].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧١).

(٣) تقدَّم تعريفه (ص: ٤٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧١).

- ومَعنى ﴿مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ ما نَعلَمُ حَقيقةَ السَّاعةِ، ونَفْيُ العِلمِ بحَقيقتِها كِنايةٌ عن جَحْدِ وُقوعِ السَّاعةِ، أي: عَلِمْنا أنَّها لا وُقوعَ لها؛ اسْتِنادًا للتَّخيُّلاتِ التي ظَنُّوها أدلَّةً[١].

- قولُه: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا﴾ التَّنكيرُ في ﴿ظَنّٗا﴾ للتَّحقيرِ، ومَفعولَا ﴿نَّظُنُّ﴾ مَحذوفانِ؛ لِدَليلِ الكَلامِ عليهما، والتَّقديرُ: إنْ نظُنُّ السَّاعةَ واقعةً[٢].

- وقولُهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ يُفيدُ تأْكيدَ قَولِهم: ﴿مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا﴾، وعطْفُه عطْفُ مُرادِفٍ، أي: للتَّشريكِ في اللَّفظِ. والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾؛ للمُبالَغةِ في حُصولِ الفِعلِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الجاثية: ٣١]، باعتبارِ تَقديرِ: فيُقالُ لهم ذلك: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾، أي: جُمِعَ لهم بيْنَ التَّوبيخِ والإزعاجِ؛ فوُبِّخوا بقولِه: ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ إلى آخِرِه، وأُزعِجوا بظُهورِ سيِّئاتِ أعْمالِهم، أي: ظُهورِ جَزاءِ سيِّئاتِهم -على قولٍ في التَّفسيرِ- حِينَ رَأَوا دارَ العذابِ وآلاتِه رُؤيةَ مَن يُوقِنُ بأنَّها مُعَدَّةٌ له، وذلك بعِلمٍ يَحصُلُ لهمْ عِندَ رُؤيةِ الأهوالِ[٤].

- وعُبِّر بالسَّيِّئاتِ عن جَزائِها -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ إشارةً إلى تَمامِ المُعادَلةِ بيْنَ العَمَلِ وجَزائِه، حتى جُعِلَ الجَزاءُ نَفْسَ العَمَلِ، على حَدِّ قَولِه تعالَى: ﴿فَذُوقُواْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[(١)] [التوبة: ٣٥].

- قولُه: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يَعُمُّ كلَّ ما كان طَريقَ اسْتِهزاءٍ بالإسلامِ مِن أقْوالِهم الصَّادرةِ عن اسْتِهزاءٍ، مِثلَ قولِهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، ومِن الأشياءِ التي جعَلوها هُزؤًا، مِثلَ عَذابِ جَهنَّمَ وشَجرةِ الزَّقُّومِ، وهو ما عُبِّرَ عنه آنِفًا بـ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾. وإنَّما عُدِلَ عن الإضمارِ إلى المَوصوليَّةِ؛ لأنَّ في الصِّلةِ تَغليظًا لهمْ، وتَنْديمًا على ما فرَّطوا مِن أخْذِ العُدَّةِ لِيَومِ الجزاءِ[(٢)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿وَقِيلَ﴾ للنَّائبِ؛ حَطًّا لهمْ عن رُتبةِ أنْ يُصرَّحَ باسْمِ اللهِ في حِكايةِ الكلامِ الذي واجَهَهم به، بناءً على أنَّ ضَميرَ ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ ضَميرُ الجَلالةِ، وليْس مِن قَولِ الملائكةِ، فإنْ كان مِن قَولِ خَزَنةِ جهنَّمَ، فبناءُ فِعلِ ﴿وَقِيلَ﴾ للنَّائبِ؛ للعِلْمِ بالفاعلِ. والكافُ في ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾ للتَّعليلِ، أي: جَزاءَ نِسيانِكم هذا اليومَ، أي: إعْراضِكم عن الإيمانِ به[(٣)].

- وعُبِّرَ في فِعلِه تعالَى بالمضارِعِ ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾؛ لِيَدُلَّ على الاستِمرارِ. وفي فِعلِهم بالماضي ﴿نَسِيتُمْ﴾؛ لِيَدُلَّ على أنَّ مَن وقَعَ منه ذلك وقْتًا ما وإنْ قلَّ، كان على خَطرٍ عَظيمٍ بتَعريضِ نفْسِه لاستمرارِ الإعراضِ عنه[(٤)].

- وإضافةُ (يوم) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ في ﴿يَوْمِكُمْ﴾ باعتِبارِ أنَّ ذلك اليومَ ظَرْفٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٧٤، ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٣).

لِأحوالٍ تَتعلَّقُ بهم؛ فإنَّ الإضافةَ تكونُ لِأدْنَى مُلابَسةٍ. ووُصِف اليومُ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ لِتَمْييزِه أكمَلَ تَمْييزٍ؛ تَكْميلًا لِتَعريفِه بالإضافةِ؛ لِئلَّا يَلتبِسَ عليهم بيَومٍ آخَرَ(١).

- وعُطِفَ ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ على ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾؛ لِيَعْلَموا أنَّ تَرْكَهم في النَّارِ تَرْكٌ مُؤبَّدٌ؛ فإنَّ المَأْوى هو مَسكنُ الشَّخصِ الذي يَأْوي إليه بعْدَ أعْمالِه؛ فالمعنى: أنَّكم قدْ أَوَيْتُم إلى النَّارِ، فأنتمْ باقونَ فيها(٢).

٥- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أُسنِدَ التَّغريرُ إلى الحَياةِ؛ لأنَّ ذلك أجمَعُ لِأسبابِ الغُرورِ(٣).

- وفُرِّعَ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ بالفاءِ، وهذا مِن تَمامِ الكَلامِ الذي قِيلَ لهم؛ لأنَّ وُقوعَ كَلمةِ (اليوم) في أثْنائِه يُعيِّنُ أنَّه مِن القِيلِ الذي يُقالُ لهم يَومئذٍ(٤).

- قولُه: ﴿يُخْرَجُونَ﴾ كان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (لا تُخرَجون)، بأُسلوبِ الخِطابِ مِثلِ سابِقِه، ولكنْ عُدِلَ عن طَريقةِ الخِطابِ إلى الغَيبةِ على وَجهِ الالْتفاتِ، ويُحسِّنُه هنا أنَّه تَخييلٌ لِلإعراضِ عنْهم بعْدَ تَوبيخِهم وتأْييسِهم، وصَرْفُ بَقيَّةِ الإخبارِ عنْهم إلى مُخاطَبٍ آخَرَ يُنبَّأُ ببَقيَّةِ أمْرِهم؛ تَحقيرًا لهم(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦٣).

- والسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ للمُبالَغةِ، كما يُقال: أجاب واسْتَجابَ[١].

- وتَقديمُ ﴿هُمْ﴾ على ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وهو مُسنَدٌ فِعليٌّ بعْدَ حَرْفِ النَّفيِ هنا: تَعريضٌ بأنَّ اللهَ يُعتِبُ غَيرَهم، أي: يُرْضي المُؤمِنينَ، أي: يَغفِرُ لهم[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٧٧).

الآيتان (٣٦-٣٧)

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾: أي العَظَمةُ والسُّلطانُ والمُلْكُ، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يَختِمُ اللهُ تعالَى هذه السُّورةَ بالثَّناءِ على نفْسِه، فيقولُ: فلِلَّهِ وَحْدَه الثَّناءُ الكامِلُ، خالِقِ السَّمَواتِ والأرضِ ومالِكِهما؛ رَبِّ جميعِ الخلائِقِ ومالِكِهم، وله وَحْدَه العَظَمةُ والسُّلطانُ في السَّمَواتِ والأرضِ، وهو سُبحانَه القاهِرُ الغالِبُ، الحَكيمُ الذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنْ ذَكَر ما حَوَتْه السُّورةُ مِن آلائِه تعالَى وإحسانِه، وما اشتَمَلَت عليه مِنَ الدَّلائِلِ التي في الآفاقِ والأنفُسِ، وما انطوَت عليه مِنَ البَراهينِ السَّاطِعةِ على المَبدَأِ والمَعادِ -أثنَى تعالَى على نَفسِه بما هو له أهلٌ، فقال(٢):

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٦٧).

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: فلِلَّهِ وَحْدَه الثَّناءُ الكامِلُ على ما يتَّصِفُ به مِن صِفاتِ الكَمالِ؛ مَحبَّةً له وتعظيمًا؛ خالِقِ السَّمواتِ والأرضِ، ومالِكِهما، ومُدَبِّرِ أمْرِهما(١).

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: خالِقِ جميعِ الخلائِقِ، ومالِكِهم ورازِقِهم، ومُدَبِّرِ شُؤونِهم(٢).

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أفاد ما سَبَق غِناه تعالَى الغِنَى المُطلَقَ وسِيادتَه، وأنَّه لا كُفُؤَ له؛ عَطَف عليه بَعضَ اللَّوازمِ لذلك؛ تَنبيهًا على مَزيدِ الاعتناءِ به، لِدَفعِ ما يَتوهَّمونَه مِن ادِّعاءِ الشَّرِكةِ التي لا يَرضَونَها لأنفُسِهم، فقال(٣):

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولله وَحْدَه العَظَمةُ والجَلالُ والسُّلطانُ في السَّمَواتِ والأرضِ، الذي يَجِبُ على جميعِ خَلْقِه تكبيرُه وتَعظيمُه، والخُضوعُ والذُّلُّ له(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩، ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

قال السعدي: (أي: له الحَمدُ على رُبوبيَّتِه لسائرِ الخلائقِ، حيثُ خَلَقَهم وربَّاهم، وأنعَمَ عليهم بالنِّعَمِ الظَّاهرةِ والباطِنةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٥).

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((العِزُّ إزارُه، والكِبرياءُ رِداؤُه، فمَن يُنازِعُني عَذَّبتُه))(١).

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو القاهِرُ الغالِبُ الَّذي لا يَغلِبُه ولا يقهَرُه شَيءٌ سُبحانَه، وهو الحَكيمُ فيما خَلَق وشَرَع وقَدَّر؛ فلا يَضَعُ شَيئًا إلَّا في مَوضِعِه اللَّائِقِ به(٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ التَّكبيرَ لا بدَّ أنْ يكونَ بعْدَ التَّحميدِ، وأنَّ الحامِدينَ إذا حَمِدوه وَجَب أنْ يَعرِفوا أنَّه -جَلَّ وعلا- أعلَى وأكبَرُ مِن أنْ يكونَ الحَمدُ الَّذي ذكَروه لائِقًا بإنعامِه، بلْ هو أكبَرُ مِن حَمدِ الحامِدينَ، وأياديه أعلَى وأجَلُّ مِن شُكرِ الشَّاكِرينَ(٣)!

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فالحَمدُ: فيه الثَّناءُ على اللهِ بصِفاتِ الكَمالِ، ومَحبَّتُه تعالَى وإكرامُه، والكِبرياءُ: فيها عَظَمتُه وجَلالُه، والعِبادةُ مَبنيَّةٌ على رُكنَينِ: مَحبَّةِ اللهِ، والذُّلِّ له، وهما ناشِئانِ عن العِلمِ بمَحامِدِ اللهِ وجَلالِه وكِبريائِه(٤).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨-٧٧٩).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ أعاد ذِكْرَ الرَّبِّ؛ تأكيدًا وإعلامًا أنَّ له في كلِّ واحِدٍ مِنَ الخافِقَينِ أسرارًا غيرَ ما له في الآخَرِ؛ فالتَّربيةُ مُتفاوِتةٌ بحَسَبِ ذلك(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أعاد ذِكرَ الرَّبِّ؛ تَنْبيهًا على أنَّ حِفظَه للخَلقِ وتَربيتَه لهم ذُو ألوانٍ بحَسَبِ شُؤونِ الخَلقِ؛ فحِفظُه لهذا الجُزءِ على وَجهٍ يُغايِرُ حِفظَه لجُزءٍ آخَرَ، وحِفظُه للكُلِّ -مِن حيث هو كُلٌّ- على وَجهٍ يُغايِرُ حِفظَه لكُلِّ جُزءٍ على حِدَتِه، مع أنَّ الكُلَّ بالنِّسبةِ إلى تَمامِ القُدرةِ على حَدٍّ سَواءٍ(٢)!

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أتبَعَ اللهُ -جَلَّ وعلا- في هذه الآيةِ الكَريمةِ حَمْدَه بوَصفِه بأنَّه رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ ورَبُّ العالَمينَ، وفي ذلك دَلالةٌ على أنَّ رَبَّ السَّمَواتِ والأرضِ ورَبَّ العالَمينَ: مُستَحِقٌّ لكُلِّ حَمدٍ، ولكُلِّ ثَناءٍ جَميلٍ(٣).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ الفاءُ لِتَفريعِ التَّحميدِ والثَّناءِ على اللهِ تَفريعًا على ما احْتَوَت عليه السُّورةُ مِن ألْطافِ اللهِ فيما خلَقَ وأرْشَدَ، وسخَّرَ وأقامَ مِن نُظُمِ العَدالةِ، والإنعامِ على المُسلمينَ في الدُّنيا والآخِرةِ، ومِن وَعيدٍ للمُعرِضينَ واحتجاجٍ عليهم، فلمَّا كان ذلك كلُّه مِن اللهِ، كان دالًّا على اتِّصافِه بصِفاتِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٤-٢٠٥).

العَظَمةِ والجَلالِ، وعلى إفْضالِه على النَّاسِ بدِينِ الإسلامِ؛ كان حَقيقًا بإنْشاءِ قَصْرِ الحمْدِ عليه؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ هذا الكلامُ مُرادًا منه ظاهِرُ الإخبارِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ مع ذلك مُستعمَلًا في مَعناهُ الكِنائيِّ؛ وهو أمْرُ النَّاسِ بأنْ يَقصُروا الحمْدَ عليه. ويجوزُ أنْ يكونَ إنشاءَ حمْدٍ للهِ تعالى، وثَناءٍ عليه[(١)].

- وتَقديمُ (للهِ) لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: الحمْدُ مُختَصٌّ به اللهُ تَعالى، يعني: الحمْدُ الحقُّ الكاملُ مُختَصٌّ به تعالَى[(٢)].

- ويُستَفادُ مِن ترتُّبِ قولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ على قَولِه: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وتَكريرِ الوَصْفِ، وتَعانُقِه بكلٍّ مِن المَذْكوراتِ: عُمومُ الحمْدِ، وعُمومُ الوَصْفِ، وعُمومُ الحامِدِ[(٣)].

- وإجراءُ وَصْفِ ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على اسْمِه تعالَى: إيماءٌ إلى عِلَّةِ قَصْرِ الحَمْدِ على اللهِ، إخبارًا وإنشاءً؛ تأْكيدًا لِما اقْتَضَتْه الفاءُ في قولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾[(٤)].

- وعُطِفَ ﴿وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ بتَكريرِ لَفظِ (ربِّ)؛ لِلتَّنويهِ بشَأْنِ الرُّبوبيَّةِ؛ لأنَّ ربَّ السَّمواتِ والأرضِ يَحِقُّ حَمدُه على أهلِ السَّماءِ والأرضِ؛ فأمَّا أهلُ السَّماءِ فقدْ حَمِدوه كما أخبَرَ اللهُ عنهم بقولِه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥]، وأمَّا أهْلُ الأرضِ فمَن حَمِدَه منْهم فقدْ أدَّى حَقَّ الرُّبوبيَّةِ، ومَن حَمِدَ غَيرَه وأعْرَضَ عنه، فقدْ سجَّلَ على نفْسِه سِمةَ الإباقِ، وكان بمَأْوى النَّارِ مَحلَّ استِحقاقٍ، ثمَّ أُتبِعَ بوَصفِ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهمْ سُكَّانُ السَّمواتِ والأرضِ؛ تَأْكيدًا لِكَونِهم مَحقوقينَ بأنْ يَحمَدوهُ؛ لأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧).

خالِقُ العوالِمِ التي هم مُنْتَفِعونَ بها، وخالِقُ ذَواتِهم فيها كذلك[(١)].

وقيل: تَكريرُ الرَّبِّ للتَّأْكيدِ، والإيذانِ بأنَّ رُبوبيَّتَه تعالَى لكلٍّ منها بطَريقِ الأصالةِ[(٢)].

وقيل: أثبَتَ العاطِفَ؛ إعلامًا بأنَّ كَمالَ قُدرتِه في رُبوبيَّتِه للأعلى والأسفَلِ على حَدٍّ سَواءٍ، دَفعًا لتَوَهُّمِ أنَّ حُكمَه في الأعلى أمكَنُ؛ لِتَوَهُّمِ الاحتياجِ إلى مَسافةٍ[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ جاء عقِبَ الآيةِ التي قبْلَه؛ للإشارةِ إلى أنَّ اسْتِدعاءَه خلْقَه لِحَمْدِه إنَّما هو لِنَفْعِهم، وتَزكيةِ نُفوسِهم؛ فإنَّه غَنِيٌّ عنهم[(٤)].

- وتَقديمُ المَجرورِ في ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾؛ لِتَخْصيصِه سُبحانَه بالكِبْرياءِ، أي: الكِبْرياءُ الكاملُ مُختصٌّ به تعالَى[(٥)].

- وإظهارُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وَ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في مَوقعِ الإضمارِ -حيثُ لم يُقَلْ: (فيهما)-؛ لِتَفْخيمِ شأْنِ الكِبْرياءِ[(٦)].

- وإذا ضُمَّ مع مَعنى الزُّبدةِ والخُلاصةِ مِن قولِه: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ -وهو تَصويرُ عَظَمةِ اللهِ- مَعنى قولِه: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٦).

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾، وأُخِذَتْ فائدةُ تَقديمِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه فيهما؛ لُمِحَتْ مَسحةٌ مِن مَعنى الحديثِ: ((العِزُّ إزارُه، والكِبرياءُ رِداؤُه، فمَن يُنازِعُني عَذَّبتُه))[1]. وإذا تُؤمِّلَ مَعنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾، وتَرتُّبُه على مَعاني السُّورةِ المَحتويةِ على آلاءِ اللهِ وأفْضالِه، المُشتملةِ على الدَّلائلِ الآفاقيَّةِ والأنفُسيَّةِ، المُنطويةِ على البَراهينِ السَّاطعةِ، والنُّصوصِ القاهرةِ في المَبدَأِ والمَعادِ -عُثِرَ على أُمورٍ غَريبةٍ وأسرارٍ عَجيبةٍ[2].

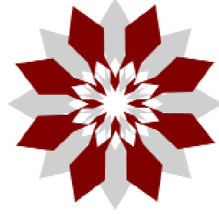
- وأتْبَعَ ما سبَقَ بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ العِزَّةَ تَشمَلُ مَعانيَ القُدْرةِ والاختيارِ، والحِكمةَ تَجمَعُ مَعانيَ تَمامِ العِلْمِ وعُمومِه. وبهذه الخاتمةِ آذَنَ الكلامُ بانتهاءِ السُّورةِ؛ فهو مِن بَراعةِ خَواتمِ السُّوَرِ[3].

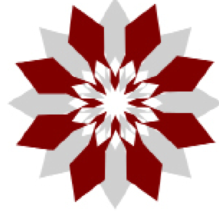


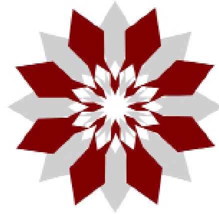
(١) تقدم تخريجه (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٨).

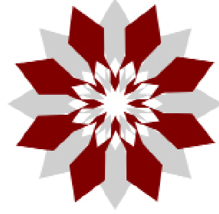


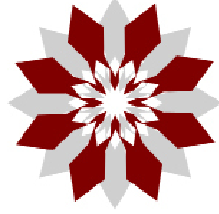


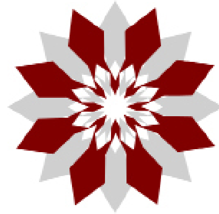


تَفْسِيرُ

سُورَةِ الأَحقافِ







سُورةُ الأحقافِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الأحقافِ)(١)، يدُلُّ على ذلك:

ما ورد عنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أقرَأني رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم سُورةَ الأحقافِ ...))(٢). وفي روايةٍ قال: ((أقرَأني رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم سورةً مِن الثَّلاثينَ مِن آلِ حم، قال: يعني الأحقافَ. قال: وكانت السُّورةُ إذا كانت أكثَرَ مِن ثلاثينَ آيةً سُمِّيَت الثَّلاثينَ))(٣).

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ (الأحقافِ) مَكِّيَّةٌ(٤)، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن

---

(١) سُمِّيَت سُورةَ الأحقافِ؛ لِقَولِه تعالى فيها: ﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]، ووُرودِ لَفظِ (الأحقافِ) فيها، ولم يَرِدْ في غَيرِها مِن سُوَرِ القُرآنِ الكريمِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥).

(٢) أخرجه مِن طُرُقٍ: أحمدُ (٤٣٢٢) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ في ((المعجم الأوسط)) (٣٤١٨)، والحاكمُ (٢٨٨٥) كلاهما بلفظ: ﴿حمٓ﴾ بدلًا من ((الأحقاف)).

صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ١٥٥)، وصحَّح الحديثَ شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٧/ ٣٤٥).

والحديث أخرجه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٧٤٧) بلفظ: ((سورة الرَّحمن)) بدلًا من ((سورة الأحقاف))، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٣/ ٢٣).

(٣) أخرجه أحمدُ (٣٩٨١) مطوَّلًا.

ذكر الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٠٨) أنَّه رُويَ بإسنادَينِ رِجالُ أحَدِهما ثِقاتٌ، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ٣٥)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٧/ ٨٨).

(٤) وقيلَ: هي مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقَولَه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ فمَدَنيَّانِ. =

المُفَسِّرينَ[١].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مَقاصِدِ سُورةِ (الأحقافِ):

١- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ قُدرتِه[٢].

٢- تقريرُ أنَّ هذا القُرآنَ مِن عندِ اللهِ تعالى، وأنَّ يومَ القيامةِ حَقٌّ[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلت عليها هذه السُّورةُ الكريمةُ:

١- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ.

٢- بَيانُ جانِبٍ مِن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى.

٣- الرَّدُّ على المُشرِكينَ، وإبطالُ استِحقاقِ مَعبوداتِهم لأيِّ لَونٍ مِن ألوانِ العِبادةِ.

٤- الحديثُ عن حُسنِ عاقِبةِ الَّذين قالوا رَبُّنا اللهُ ثمَّ استقاموا.

٥- الحديثُ عن الوصايا الحكيمةِ الَّتي أوصى اللهُ بها الأبناءَ نحوَ آبائِهم، وعن حُسنِ عاقِبةِ الَّذين يَعمَلونَ بتلك الوَصايا.

٦- بَيانُ سُوءِ عاقِبةِ الكافِرينَ الَّذين أعرَضوا عن دَعوةِ الحَقِّ.

= يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٠).

(١) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْدي، والقرطبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٨)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبِقاعي (٢/ ٤٨٠)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ١٧٤).

٧- تحذيرُ المُشرِكينَ مِن الإصرارِ على شِرْكِهم، وتذكيرُهم بما حَلَّ بالمُشرِكينَ مِن قَبْلِهم؛ كقَومِ عادٍ وثَمودَ.

٨- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بتذكيرِه بحُضورِ نَفَرٍ مِن الجِنِّ إليه للاستِماعِ إلى القُرآنِ الكريمِ، وإنصاتِهم له، ودَعوتِهم قَومَهم إلى الإيمانِ بالحَقِّ الَّذي استَمَعوا إليه، وبالنَّبيِّ الَّذي جاء به.

٩- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بأمرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على أذَى قَومِه، وعَدَمِ الاستِعجالِ لهم بالعَذابِ.



الآيات (١-٣)

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾: أي: وقتٍ مُعَيَّنٍ محدَّدٍ، وأصلُ الأجَلِ: غايةُ الوَقتِ، والمُدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ، والمُسَمَّى: المُثبَتُ المُعَيَّنُ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى بعدَ أنِ افتتَح السُّورةَ بحرفَيْ ﴿حمٓ﴾: تَنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ القاهِرِ الغالِبِ، الحَكيمِ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

ثمَّ يقولُ تعالى منزِّهًا نفْسَه عن العبثِ: ما خلَقْنا السَّمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما إلَّا بالعَدلِ والحِكمةِ، وإلى مُدَّةٍ مُعَيَّنةٍ تَنتَهي إليه، وتَفنَى فيه، وهو يومُ القيامةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ حالَ المشركينَ، فيقولُ: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ لم يَتَّعِظوا بما خُوِّفوا به في القُرآنِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ۝١﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الجاثيةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩، ٨٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٢).

(٢) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١١).

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

أي: تَنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ القاهِرِ الغالِبِ، المُمتَنِعِ عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، الحَكيمِ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى إنزالَ كِتابِه المتضَمِّنِ للأمرِ والنَّهيِ؛ ذكَرَ خَلْقَه السَّمَواتِ والأرضَ؛ فجَمَع بيْنَ الخَلقِ والأمرِ(٢).

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: ما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ إلَّا بالعَدلِ والحِكمةِ، وبمُدَّةٍ مُعَيَّنةٍ مَضروبةٍ بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ، فتَنتَهي إليه وتَفنَى فيه، وهو يومُ القيامةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٩، ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٧).

قال ابن جرير: (﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يَعني: إلَّا لإقامةِ الحَقِّ والعَدلِ في الخَلقِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١١). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ مُعرِضونَ عَمَّا خُوِّفوا به في القُرآنِ وحُذِّروا[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١-٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ هذا ثَناءٌ منه تعالى على كِتابِه العزيزِ، وتَعظيمٌ له، وفي ضِمنِ ذلك إرشادُ العِبادِ إلى الاهتِداءِ بنُورِه، والإقبالِ على تدبُّرِ آياتِه، واستِخراجِ كُنوزِه[٢].

= وقال البِقاعي: (﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لِبَعثِ النَّاسِ إلى دارِ القَرارِ؛ لِفَصلِ أهلِ الجنَّةِ مِن أهلِ النَّارِ، وفَناءِ الخافِقَينِ [أي: أُفُقَي المَشرِقِ والمغربِ] وما نشأ عنهما مِن اللَّيلِ والنَّهارِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- القُرآنُ والسُّنَنُ المُستَفيضةُ المُتواتِرةُ وغيرُ المتواتِرةِ، وكَلامُ السَّابقينَ والتَّابِعينَ وسائِرِ القُرونِ الثَّلاثةِ: مملوءٌ بما فيه إثباتُ العُلُوِّ لله تعالى على عَرْشِه بأنواعٍ مِنَ الدَّلالاتِ، ووُجوهٍ مِنَ الصِّفاتِ، وأصنافٍ مِن العباراتِ، ومِن ذلك إخبارُ اللهِ تعالى بنُزولِ الأشياءِ منه أو مِن عِنْدِه، كما في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فيه مِن الدَّلالةِ على وُجودِ الصَّانعِ تعالَى، وصِفاتِ كَمالِه، وابْتِناءِ أفْعالِه على حِكَمٍ بالِغةٍ، وانتِهائِها إلى غاياتٍ جَليلةٍ؛ ما لا يَخْفَى(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾

- افتُتِحتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ بالحَرفَينِ المُقَطَّعَينِ ﴿حمٓ﴾ مِن حُروفِ الهِجاءِ؛ لأنَّ أوَّلَ أغراضِها أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ؛ ففي حَرفَي الهِجاءِ رَمْزٌ إلى عَجْزِهم عن مُعارَضَتِه بَعدَ أنْ تَحَدَّاهم؛ لذلك لم يَفعَلوا، وفي ذلك الافتِتاحِ تَشويقٌ إلى تَطَلُّعِ ما يأتي بَعدَه؛ لِلاهتِمامِ به(٣).

- قولُه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ اسْتِئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو جُملةٌ مُركَّبةٌ مِن مُبتدأٍ وخبَرٍ، والمَقصودُ: إثْباتُ أنَّ القُرآنَ مُوحًى به مِن اللهِ تعالى إلى رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فكان مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُجعَلَ القُرآنُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٤، ٢٥/ ٣٢٤).

مُسنَدًا إليه، ويُخبَرَ عنه فيُقالَ: (القُرآنُ مُنزَّلٌ مِن اللهِ العزيزِ الحَكيم)؛ لأنَّ كَونَه مُنزَّلًا مِن اللهِ هو مَحَلُّ الجِدالِ، فيَقْتضي أنْ يكونَ هو الخبَرَ، ولو أذْعَنوا لِكَونِه تنزيلًا، لَمَا كان مِنْهم نِزاعٌ في أنَّ تَنزيلَه مِن اللهِ، ولكنْ خُولِفَ مُقْتضى الظَّاهرِ لغَرضَينِ؛ أحدُهما: التَّشويقُ إلى تَلَقِّي الخبَرِ؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا الابتِداءَ بتَنزيلِ الكِتابِ، اسْتَشْرَفوا إلى ما سيُخبَرُ عنه؛ فأمَّا الكافِرونَ فيَترَقَّبون أنَّه سيُلْقَى إليهم وَصْفٌ جَديدٌ لِأحْوالِ تَنزيلِ الكتابِ، فيَتهيَّؤون لِخَوضٍ جَديدٍ مِن جِدالِهم وعِنادِهم، والمُؤمِنون يَترَقَّبون لِما يَزيدُهم يَقينًا بهذا التَّنزيلِ. والغَرَضُ الثَّاني: أنْ يُدَّعى أنَّ كَونَ القُرآنِ تَنزيلًا أمْرٌ لا يُختلَفُ فيه؛ فالَّذين خالَفوا فيه كأنَّهم خالَفوا في كَونِه مُنزَّلًا مِن عِندِ اللهِ، وهلْ يَكونُ التَّنزيلُ إلَّا مِن عِندِ اللهِ؟! فيَؤولُ إلى تأْكيدِ الإخبارِ بأنَّه مُنزَّلٌ مِن عِندِ اللهِ؛ إذ لا فرْقَ بيْنَ مَدلولِ كَونِه تَنْزيلًا، وكَونِه مِن عِندِ اللهِ إلَّا باختلافِ مَفهومِ المَعنيَينِ دُونَ ماصَدَقَيْهما[١].

- وإيثارُ وَصْفَي ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ بالذِّكرِ دُونَ غَيرِهما مِن الأسماءِ الحُسْنى؛ لِإشعارِ وَصْفِ العَزيزِ بأنَّ ما نزَلَ منه مُناسِبٌ لِعِزَّتِه؛ فهو كِتابٌ عَزيزٌ، أي: هو غالِبٌ لِمُعانِديهِ؛ وذلك لأنَّه أعْجَزَهم عن مُعارَضتِه، ولِإشعارِ وَصْفِ الحكيمِ بأنَّ ما نزَلَ مِن عِندِه مُناسِبٌ لِحِكمَتِه؛ فهو مُشتمِلٌ على دَلائلِ اليَقينِ والحقيقةِ، ففي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ إعْجازَه مِن جانِبِ بَلاغتِه؛ إذ غلَبَت بَلاغةَ بُلغائِهم، ومِن جانِبِ مَعانيه؛ إذ أعْجَزَت حِكمتُه حِكمةَ الحُكماءِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٥).
وتقدم تعريف (الماصَدَق) (ص: ٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٥، ٣٢٦).

كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعۡرِضُونَ ﴾ لَمَّا كان مِن أهَمِّ ما جاء به القُرآنُ إثباتُ وَحْدانيَّةِ اللهِ تعالَى، وإثْباتُ البَعثِ والجَزاءِ؛ لِتَوقُّفِ حُصولِ فائدةِ الإنْذارِ على إثْباتِهما؛ جُعِلَ قولُه: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [الأحقاف: ٢] تَمْهيدًا لِلاسْتِدلالِ على إثْباتِ الوَحْدانيَّةِ والبَعثِ والجَزاءِ، فجُعِلَ خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ مَحلَّ اتِّفاقٍ، ورُتِّبَ عليه أنَّه ما كان ذلك الخلْقُ إلَّا مُلابِسًا للحقِّ، وتَقْتضي مُلابَسَتُه للحقِّ أنَّه لا يكونُ خلْقًا عَبَثًا، بلْ هو دالٌّ على أنَّه يَعقُبُه جَزاءٌ على ما يَفعَلُه المَخلوقونَ[(١)].

- وعطْفُ ﴿ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ على ﴿ بِٱلۡحَقِّ ﴾ مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لِلاهتمامِ بهِ[(٢)].

- قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعۡرِضُونَ ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن الضَّميرِ المُقدَّرِ في مُتعلَّقِ الجارِّ والمَجْرورِ مِن قولِه: ﴿ بِٱلۡحَقِّ ﴾؛ فيَكونُ المَقصودُ مِن الحالِ التَّعجُّبَ منهم، وليس ذلك عطْفًا؛ لأنَّ الإخبارَ عن الَّذين كَفَروا بالإعراضِ مُستغنًى عنه؛ إذ هو مَعلومٌ. والتَّقديرُ: إلَّا خلْقًا كائنًا بمُلابَسةِ الحقِّ في حالِ إعراضِ الَّذين كَفَروا عمَّا أُنْذِروا به ممَّا دلَّ عليه الخلْقُ بالحقِّ[(٣)].

- وتَقديمُ ﴿ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ ﴾ على مُتعلَّقِه -وهو ﴿ مُعۡرِضُونَ ﴾-؛ لِلاهتِمامِ بما أُنْذِروا، ويَتبَعُ ذلك رِعايةُ الفاصلةِ[(٤)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧، ٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨).

الآيات (٤-٦)

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شِرْكٌ﴾: أي: نَصيبٌ وشَرِكةٌ، وأصلُ (شرك): يدُلُّ على مُقارَنةٍ[١].

﴿أَثَٰرَةٍ﴾: أي: بقيَّةٍ أو عَلامةٍ أو شَيءٍ مأثورٍ مِن كُتُبِ الأوَّلينَ، واشتِقاقُه مِن: أثَرْتُ الشَّيءَ أُثيرُه إثارةً، كأنَّها بَقيَّةٌ تُستخرَجُ فتُثارُ، أو مِن الأثَرِ الَّذي هو الرِّوايةُ أو العَلامةُ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُوبِّخَ المشركينَ، ويُقيمَ عليهم الحُجَّةَ، ويُبيِّنَ بُطلانَ ما هم عليه، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك المُشركينَ مِن قَومِك: أرَأَيْتُم الَّذين تَدْعونَهم من دونِ اللهِ، أَرُوني ماذا خَلَقوا مِن الأرضِ لِتَعبدوهم مِن دونِ اللهِ تعالى؟! أمْ لهم نَصيبٌ مع اللهِ تعالى في السَّمَواتِ خَلقًا أو مِلكًا أو تدبيرًا؟! أَحْضِروا لي كتابًا مِن قَبلِ هذا القُرآنِ أو دَليلًا وبقيَّةً مِن عِلمٍ مأثورٍ يدُلُّ على صِحَّةِ دعواكم إنْ كنتُم صادِقينَ!

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣، ٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٢).

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى شِدَّةَ ضلالِ المشركينَ وجهلِهم، فيقولُ: ومَن أشَدُّ ضَلالًا مِمَّن يدعو مِنْ دونِ اللهِ آلِهةً لا تُجيبُ دُعاءَه إلى يومِ القيامةِ، وهم في غَفلةٍ عن دُعائِهم؟! وإذا جَمَع اللهُ النَّاسَ يومَ القيامةِ للحِسابِ كانت هذه الآلِهةُ الَّتي يَدْعوها المُشرِكونَ أعداءً لهم، وكانت جاحِدةً مُنكِرةً لِعِبادتِهم لها في الدُّنيا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قَرَّر الأصلَ الدَّالَّ على إثباتِ الإلهِ، وعلى إثباتِ كَونِه عادِلًا رَحيمًا، وعلى إثباتِ البَعثِ والقيامةِ؛ بنى عليه تفاريعَ؛ فالفَرعُ الأوَّلُ: الرَّدُّ على عَبَدةِ الأصنامِ، فقال[1]:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: أرأيتُمُ الَّذين تَدْعونَهم مِن دونِ اللهِ مِن مَعبوداتِكم، أَروني ماذا خَلَقوا مِن الأرضِ فاستَحَقُّوا بذلك عِبادتَكم لهم[2]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٣).

قال الشنقيطي: (على أنَّ «ما» استفهاميَّةٌ، و«ذا» مَوصولةٌ، فالمعنى: أروني ما الَّذي خَلَقوه مِنَ الأرضِ. وعلى أنَّ «ما» و«ذا» بمَنزلةِ كَلِمةٍ واحِدةٍ يُرادُ بها الاستِفهامُ، فالمعنى: أروني أيَّ شَيءٍ خَلَقوه مِنَ الأرضِ؟). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢١٣).

قيل: ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ للتَّبعيضِ؛ لأنَّ كلَّ ما على وجهِ الأرضِ من حيوانٍ =

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠].

وقال الله سُبحانَه: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١].

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

أي: أمْ لتلك الآلهةِ المَزعومةِ نَصيبٌ مع اللهِ تعالى في السَّمَواتِ؛ خَلقًا أو مِلكًا أو تدبيرًا؛ فيَكونَ لكم بذلك حُجَّةٌ على عبادتِكم لها[1]؟!

كما قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾.

أي: أَحْضِروا لي كتابًا ممَّا أنزَلَه اللهُ على الأنبياءِ مِن قَبلِ هذا القُرآنِ، يُخبِرُ بأنَّ

= ونحوِه فهو مِن الأرضِ. وممَّن اختاره: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩١).

وقال الواحدي: (وقال مقاتلٌ: ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ كما خلَقَ اللهُ آدَمَ، إن كانوا آلهةً. قال الفَرَّاءُ: أي أنَّهم لم يَخلُقوا شيئًا. فعلى هذا «مِن» بمعنى «في»). ((البسيط)) (١٨/ ٤٣٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٣٧٠). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٥٣٣).

وقال ابن عاشور في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ فاطرٍ، الآية (٤٠): (و﴿مِنَ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: شيئًا ناشِئًا مِن الأرضِ، أو تبعيضِيَّةٌ على أنَّ المرادَ بالأرضِ ما عليها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٣).

آلهتَكم مُستحِقَّةٌ للعبادةِ(١)!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ [فاطر: ٤٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١].

﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

أي: أو هاتوا دَليلًا مِن بقيَّةِ عِلمٍ مأثورٍ عن السَّابِقينَ(٢) يدُلُّ على صِحَّةِ عِبادتِكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠، ١١).

قال الرَّازي: (عُلِم بالتَّواتُرِ الضَّروريِّ إطباقُ جميعِ الكتبِ الإلهيَّةِ على المنعِ مِن عبادةِ الأصنامِ، وهذا هو المرادُ مِن قولِه تعالَى: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧).

وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: بكتابٍ جاء مِن عندِ الله مِن قبْلِ هذا القرآنِ الَّذي أُنزِل علَيَّ، بأنَّ ما تَعبُدونَ مِن الآلهةِ والأوثانِ خلَقوا مِن الأرضِ شيئًا، أو أنَّ لهم معَ الله شِرْكًا في السَّمواتِ، فيَكونَ ذلك حُجَّةً لكم على عبادتِكم إيَّاها). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٢).

(٢) قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾... اختلَفَ أهلُ التَّأويلِ في تأويلِها؛ فقال بعضُهم: معناه: أو ائْتوني بعِلْمٍ بأنَّ آلِهتَكم خَلَقَتْ مِن الأرضِ شيئًا، وأنَّ لها شِرْكًا في السَّمواتِ مِن قِبَلِ الخَطِّ الَّذي تَخُطُّونَه في الأرضِ؛ فإنَّكم مَعْشَرَ العرَبِ أهلُ عِيافةٍ وزَجرٍ وكهانةٍ... وقال آخَرونَ: بل معنى ذلك: أو خَاصَّةً مِن عِلمٍ... وقال آخرونَ: بل معنَى ذلك: أو عِلْمٍ تُثيرُونَه فتَسْتَخْرِجونَه... وقال آخرونَ: بل معنَى ذلك: أو تَأْثُرونَ ذلك عِلْمًا عن أحدٍ مِمَّنْ قَبْلَكم... وقال آخرونَ: بل معنَى ذلك: أو بِبَيِّنَةٍ مِن الأمرِ... وقال آخرونَ: بلْ معنَى ذلك: بِبَقِيَّةٍ مِن عِلْمٍ... وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ قولُ مَن قالَ: الأثارَةُ: البَقِيَّةُ مِن عِلْمٍ؛ لأنَّ ذلك هو المعروفُ مِن كلامِ العربِ... وإذا وُجِّه ذلك إلى ما قُلْنا فيه مِن أنَّه بَقِيَّةٌ مِن عِلْمٍ، جازَ أنْ تكونَ تلك البَقيَّةُ مِن عِلمِ الخطِّ، ومِن عِلْمٍ اسْتُثِير مِن كُتُبِ الأوَّلينَ، ومِن خاصَّةِ عِلْمٍ كانوا أُوثِروا به). ((تفسير ابن جرير)) =

آلهتَكم، إنْ كنتُم صادِقينَ في دعواكم أنَّ لله تعالى شَريكًا[١]!

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بَيَّنَ فيما سَبَق أنَّ القَولَ بعِبادةِ الأصنامِ قَولٌ باطِلٌ؛ من حيثُ إنَّها لا قُدرةَ لها البتَّةَ على الخَلقِ والفِعلِ، والإيجادِ والإعدامِ، والنَّفعِ والضُّرِّ؛ فأردَفَه بدَليلٍ آخَرَ يدُلُّ على بُطلانِ ذلك المذهَبِ، وهي أنَّها جماداتٌ؛ فلا تَسمَعُ دُعاءَ الدَّاعِينَ، ولا تَعْلَمُ حاجاتِ المحتاجِينَ[٢].

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: لا أحَدَ أشَدُّ ضَلالًا مِن عَبدٍ يدعو مِنْ دونِ اللهِ آلِهةً لا تُجيبُ دُعاءَه أبدًا

= (٢١/ ١١٣-١١٦).

وقال ابن كثير: (﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: دليلٍ بَيِّنٍ على هذا المسلكِ الَّذي سَلَكْتُموه)، ثمَّ ذكَر ما قيل في الآيةِ، وقال: (وكُلُّ هذه الأقوالِ مُتقارِبةٌ، وهي راجعةٌ إلى ما قُلْناه، وهو اختيارُ ابنِ جَريرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤).

وقال الرازي: (العلم الضَّروري حاصلٌ بأنَّ أحدًا من الأنبياءِ ما دعا إلى عبادةِ الأصنامِ، وهذا هو المرادُ من قولِه: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧).

وممَّن خصَّ قولَه: ﴿أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ بما يُروَى من عِلمٍ مأثورٍ عن الأنبياءِ عليهم السَّلامُ: الواحدي، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤، ٢٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧).

إلى يومِ القيامةِ[(١)].

﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾.

أي: وآلهتُهم في غَفلةٍ عن دُعائِهم، فلا يَعلَمونَ مَن يَدْعونَهم، ولا يَسمَعونَهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿... وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ * إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن أبانَ اللهُ تعالى أنَّ آلِهَتَهم المزعومةَ لا يَنفَعونَهم في الدُّنيا، ولا يَستَجيبونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١).

قال الرَّسْعَني: (يجوزُ أن يُرادَ على قراءةِ العامَّةِ: كُلُّ مَن عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ مِنَ الجِنِّ والإنسِ والأصنامِ، فغُلِّبَ ما يَعقِلُ. وقيل: ويجوزُ أن يُرادَ الأصنامُ وَحْدَها، فأُجرِيَت مجرى مَن يَعقِلُ؛ لِوَصفِهم إيَّاها بذلك. والجائزُ الثَّاني أظهَرُ وأشهَرُ في التَّفسيرِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٦، ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩).

قال البِقاعي: (فهو يدعو ما لا قُدرةَ له ولا عِلمَ، وما انتَفَت قُدرتُه وعِلمُه لم تَصِحَّ عِبادتُه ببَديهةِ العَقلِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٢٦).

وقال الشنقيطي: (إنَّما كانوا غافِلينَ عنها؛ لأنَّهم جَمادٌ لا يَعقِلونَ، وإطلاقُ اللَّفظِ المُختَصِّ بالعُقَلاءِ عليهم؛ نَظرًا إلى أنَّ المُشرِكينَ نزَّلوهم مَنزِلةَ العُقَلاءِ... فقد دَلَّ قَولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ على أنَّهم لا يعقِلونَ، ومعَ ذلك قال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]، وكقَولِه تعالى في العَنكبوتِ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، فصَرَّح بأنَّهم أوثانٌ، ثمَّ ذَكَر أنَّهم هم وعَبَدَتُهم يَلعَنُ بَعضُهم بعضًا، وكقَولِه تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]... إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٤).

لهم دُعاءً- أبانَ حالَهم في الآخِرةِ[1]، فقال:

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾.

أي: وإذا جَمَع اللهُ النَّاسَ يومَ القيامةِ للحِسابِ، كانت هذه الآلِهةُ الَّتي يَدْعوها المُشرِكونَ أعداءً لهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾.

أي: وكانت آلِهتُهم في الآخِرةِ جاحِدةً مُنكِرةً لِعبادةِ المُشرِكينَ لها في الدُّنيا[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧).

قال القرطبي: (فالملائِكةُ أعداءُ الكُفَّارِ، والجِنُّ والشَّياطينُ يَتبَرَّؤون غدًا مِن عَبَدتِهم، ويَلعَنُ بعضُهم بعضًا. ويجوزُ أن تكونَ الأصنامُ للكُفَّارِ الَّذين عَبَدوها أعداءً، على تقديرِ خَلْقِ الحياةِ لها؛ دليلُه قولُه تعالى حكايةً عنهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]. وقيل: عادَوا مَعبوداتِهم؛ لأنَّهم كانوا سَبَبَ هلاكِهم، وجَحَد المَعبودونَ عبادَتَهم). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ أي: الأصنامُ تكونُ أعداءً للذين عبَدوها: السَّمْعاني، وابنُ جُزَي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره العُلَيمي، والشوكاني، وهو ظاهرُ اختيارِ الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨). =

كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٣، ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨ - ٣٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ قَطعُ جميعِ تَعلُّقاتِه إلَّا باللهِ؛ عِبادةً وخَوفًا ورَجاءً، واستِعانةً ومحبَّةً وتعظيمًا؛ حتَّى يكونَ عبدًا للهِ حقيقةً، فيكونَ هواه وإرادتُه، وحُبُّه وبُغْضُه،

= قال ابن جرير: (﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: وكانت آلهتُهم الَّتي يَعبُدونَها في الدُّنيا بعِبادتِهم جاحِدينَ؛ لأنَّهم يقولونَ يومَ القيامةِ: ما أمَرْناهم بعبادتِنا، ولا شعَرْنا بعبادتهم إيَّانا، تبرَّأْنا إليك منهم يا ربَّنا). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٧).

وقال أبو السعود: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي: مُكذِّبينَ بلِسانِ الحالِ أو المقالِ على ما يُروَى أنَّه تعالى يُحيي الأصنامَ فتتبرَّأُ عن عبادتِهم، وقد جُوِّز أن يُرادَ بهم كلُّ ما يُعبَدُ مِن دُونِ الله من الملائكةِ والجنِّ والإنسِ وغيرِهم، ويُبنَى إرجاعُ الضَّمائرِ وإسنادُ العداوةِ والكفرِ إليهم على التَّغليبِ، ويُرادُ بذلك تبرُّؤُهم عنهم وعن عبادتِهم. وقيلَ: ضميرُ «كانُوا» للعَبَدةِ، وذلك قولُهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨).

ووَلاؤه ومُعاداتُه: للهِ وفي اللهِ؛ لأنَّه مَخلوقٌ للعِبادةِ فقط[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيه بيانُ مَسالِكِ الأدِلَّةِ بأسْرِها؛ فأوَّلُها المعقولُ، وهو قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهو احتِجاجٌ بدَليلِ العَقلِ أنَّ الجمادَ لا يجوزُ أن يُدْعَى مِن دونِ اللهِ، وأنَّه لا يضُرُّ ولا ينفَعُ، ثمَّ قال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾؛ ففيه بيانُ أدِلَّةِ السَّمعِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ إلى آخرِ الآيةِ: بيانُ أنَّ المُشرِكينَ ليس معهم على الشِّركِ لا دليلٌ عَقليٌّ ولا سَمْعيٌّ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إيرادٌ، وهو: أنَّ اللهَ تعالى أَثْبَتَ أنَّ هناك خالِقينَ في قَولِه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وفي قَولِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((يُقالُ لهم -أي: المصوِّرينَ-: أَحْيُوا ما خَلَقْتُم))[4].

فالجوابُ: أنَّ الخَلْقَ الَّذي نَنسُبُه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ هو الإيجادُ مِن عَدَمٍ، وتبديلُ

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيميَّة (١/ ١٧٨).

(٤) الحديثُ أخرجه البخاري (٥٩٥١)، ومسلمٌ (٢١٠٨) من حديثِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما.

الأعيانِ مِن عَينٍ لِأُخرى؛ فلا أحَدَ يُوجِدُ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، ولا أحَدَ يُبَدِّلُ عَينًا إلى عَينٍ إلَّا اللهُ عزَّ وجَلَّ، أمَّا الخَلقُ الَّذي يُنسَبُ للمَخلوقِ فهو عِبارةٌ عن تحويلِ شَيءٍ مِن صِفةٍ إلى صِفةٍ، ومِن صُورةٍ إلى صُورةٍ؛ فالمُصوِّرُ مثلًا الَّذي أخَذَ الطِّينَ وجَعَلَه على صُورةِ إنسانٍ أو غيرِ ذلك: ما خَلَقَ هذا الشَّيءَ، لكِنْ حوَّلَه مِن كَونِه كُتلةً مِن الطِّينِ إلى كَونِه صُورةً، والنَّجَّارُ إذا أتَى على الخَشَبِ ونَجَرَه على صُورةٍ مُعَيَّنةٍ، لا نَقولُ: إنَّه خَلَقَه؛ لأنَّه لم يُوجِدْه، لكِنْ حوَّلَه مِن صورةٍ إلى أُخرى، فهذا التَّحويلُ يُسَمَّى خَلقًا، لكِنَّه ليس الخَلقَ الَّذي يختَصُّ به الخالِقُ، وهو الإيجادُ مِن العَدَمِ، أو تبديلُ العَينِ مِن عَينٍ إلى أُخرى[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ جاء هذا الاستِدلالُ بأُسلوبِ المُناظَرةِ؛ فجُعِلَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُواجِهًا لهم بالاحتِجاجِ؛ لِيَكونَ إلجاءً لهم إلى الاعتِرافِ بالعَجزِ عن مُعارَضةِ حُجَّتِه، وكذلك جَرى الاحتِجاجُ بعْدَه ثلاثَ مرَّاتٍ بطَريقةِ أمْرِ التَّعجيزِ بقولِه: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ﴾ الآيةَ[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ كالتَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ، وهذا مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّها كُلَّها شاهِدةٌ بالوحدانيَّةِ، لو أتى بها آتٍ لَشَهِدَت عليه[3].

٦- إنَّما يَفصِلُ بيْنَ النَّاسِ فيما تَنازَعوا فيه الكِتابُ المُنزَّلُ من السَّماءِ، والرَّسولُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٨٤)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٥).

المؤَيَّدُ بالأنباءِ، كما قال الله تعالى: ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾[(١)].

٧- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ هذا مِن رُؤوسِ مَسائلِ المُناظَرةِ، وهو مُطالَبةُ المُدَّعي بالدَّليلِ على إثْباتِ دَعواهُ[(٢)].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ فيه سؤالٌ: ما المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾؟ وكيف يُعقَلُ وَصْفُ الأصنامِ -وهي جماداتٌ- بالغَفلةِ؟ وأيضًا كيف جاز وَصفُ الأصنامِ بما لا يَليقُ إلَّا بالعُقَلاءِ، وهي لفظةُ (مَن)، وقَولُه ﴿وَهُمۡ﴾ و﴿غَٰفِلُونَ﴾؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّهم لَمَّا عَبَدوها ونَزَّلوها مَنزِلةَ مَن يَضُرُّ ويَنفَعُ، صَحَّ أن يُقالَ فيها: إنَّها بمَنزلةِ الغافِلِ الَّذي لا يَسمَعُ ولا يُجيبُ، وهذا هو الجوابُ أيضًا عن قَولِه: إنَّ لَفظةَ (مَن) ولفظةَ (هم) كيف يَليقُ بها.

الوَجهُ الثَّاني: يجوزُ أنْ يُريدَ كُلَّ مَعبودٍ مِن دونِ اللهِ مِن الملائكةِ وعِيسى وعُزَيرٍ والأصنامِ، إلَّا أنَّه غَلَّب غيرَ الأوثانِ على الأوثانِ[(٣)].

الوَجهُ الثَّالِثُ: عبَّرَ بالغَفلةِ -الَّتي هي مِن أوصافِ العُقَلاءِ- للجَمادِ؛ تهكُّمًا، كأنَّه قيل: هم عُلَماءُ، فإنَّكم أجَلُّ مَقامًا مِن أن تَعبُدوا ما لا يَعقِلُ، وإنَّما عدَمُ استجابتِهم لكم دائمًا غَفلةٌ دائِمةٌ، كما تقولُ لِمَن كتب كتابًا كُلُّه فاسِدٌ: (أنت

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨).

عالِمٌ لَكِنَّك كنتَ ناعِسًا)، ونحوَ هذا[١].

الوجهُ الرَّابِعُ: أنَّه عبَّرَ عن الأصنامِ باسمِ الموصولِ المُختَصِّ بالعُقلاءِ؛ مُعامَلةً للجَمادِ مُعاملةَ العُقلاءِ؛ لأنَّه شاعَ في كلامِ العَرَبِ إجراؤُها مجرى العُقلاءِ، فكَثُرت في القُرآنِ مُجاراةُ استِعمالِهم في ذلك، ومِثلُ هذا جَعلُ ضمائِرِ جَمعِ العُقلاءِ في قَولِه: ﴿وَهُمْ﴾، وقَولِه: ﴿غَافِلُونَ﴾[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أنَّ تلك الدَّعوةَ سَبَبٌ لبُغضِ المَدعوِّ للدَّاعي، وعَداوتِه له[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ فيه تَسميةُ تلك الدَّعوةِ عِبادةً للمَدعوِّ؛ تُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[٤].

١١- قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، قولُه: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ فيه كُفرُ المَدعوِّ بتلك العبادةِ، ومعنى كُفرِ المَدعوِّ: ردُّه وإنكارُه، فإذا كان يومُ القيامةِ تَبَرَّأَ منه وأنكرَه[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢).
(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٨٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ انتِقالٌ إلى الاسْتِدلالِ على بُطلانِ نَفْيِ صِفَةِ الإلهيَّةِ عن أصْنامِ المُشرِكينَ؛ فجُملةُ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ﴾ أمْرٌ بإلْقاءِ الدَّليلِ على إبْطالِ الإشراكِ، وهو أصْلُ ضَلالِهم[١].

- والاسْتِفهامُ في ﴿أَرَءَيۡتُم﴾ للتَّقريرِ؛ فهو كِنايةٌ عن مَعنى: أخْبِروني[٢]، أو للتَّوبيخ[٣].

- وقولُه: ﴿أَرُونِي﴾ تَصْريحٌ بما كنَّى عنه طَريقُ التَّقريرِ لِقَولِه: ﴿أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ﴾[٤].

- والأمْرُ في ﴿أَرُونِي﴾ مُسْتعمَلٌ في التَّسخيرِ والتَّعجيزِ؛ كِنايةً عن النَّفيِ إنْ لم يَخْلُقوا مِن الأرضِ شَيئًا، فلا تَسْتَطيعوا أنْ تُروني شَيئًا خَلَقوه في الأرضِ[٥].

- وقولُه: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ استِفهامُ تَوبيخٍ وإنْكارٍ[٦].

- وقولُه: ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ بيانٌ للإبهامِ في ﴿مَاذَا خَلَقُواْ﴾، والظَّاهِرُ أنَّه يُريدُ مِن أجْزاءِ الأرضِ، أي: خلْقُ ذلك إنَّما هو للهِ، أو يكونُ على حَذْفِ مُضافٍ، أي:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦٧).

مِن العالي على الأرضِ، أي: على وَجْهِها؛ مِن حَيوانٍ أو غَيرِه[١].

- الاستفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أمْ) المُنقطِعةِ في قولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ استِفهامٌ إنْكاريٌّ، أي: ليس لهمْ شِركٌ مع اللهِ في السَّمواتِ[٢].

- وتَخصيصُ الشِّركِ بالسَّمواتِ في ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ احْترازٌ عمَّا يُتوهَّمُ أنَّ لِلْوسائطِ شَرِكةً في إيجادِ الحَوادثِ السُّفليَّةِ[٣].

- وإنَّما أُوثِرَ انْتِفاءُ الشَّرِكةِ بالنِّسبةِ لِلشَّرِكةِ في السَّمواتِ دُونَ انتِفاءِ الخَلْقِ، كما أُوثِرَ انتِفاءُ الخلْقِ بالنِّسبةِ إلى الأرضِ؛ لأنَّ مَخلوقاتِ الأرضِ مُشاهَدةٌ للنَّاسِ، ظاهرٌ تَطوُّرُها وحُدوثُها، وأنْ ليس لِمَا يَدْعُونَهم دُونَ اللهِ أدْنَى عمَلٍ في إيجادِها، وأمَّا المَوجوداتُ السَّماويَّةُ، فهي مَحجوبةٌ عن العُيونِ، لا عَهْدَ للنَّاسِ بظُهورِ وُجودِها ولا تَطوُّرِها؛ فلا يَحسُنُ الاستِدلالُ بعَدَمِ تأْثيرِ الأصنامِ في إيجادِ شَيءٍ منها، ولكنْ لَمَّا لم يَدَّعِ المُشرِكون تَصرُّفًا لِلأصنامِ إلَّا في أحوالِ النَّاسِ في الأرْضِ؛ مِن جلْبِ نفْعٍ أو دَفْعِ ضُرٍّ؛ اقتُصِرَ في نَفْيِ تَصرُّفِهم في السَّمواتِ على الاسْتِدلالِ بنَفْيِ أنْ يكونَ لِلْأصنامِ شَرِكةٌ في أُمورِ السَّمواتِ؛ لأنَّ انتِفاءَ ذلك لا يُنازِعون فيه[٤].

- قولُه: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ انتِقالٌ مِن الاستِدلالِ بالمُشاهَدةِ وبالإقرارِ إلى الاسْتِدلالِ بالأخبارِ الصَّادِقةِ، وهو اسْتِدلالٌ على إبْطالِ دَعوى المُدَّعي بانْعِدامِ الحُجَّةِ على دَعْواه، ويُسَمَّى الإفحامَ[٥]. وفيه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠).

تَبكيتٌ للمُشركين بتَعجيزِهم عن الإتيانِ بسَندٍ نَقْليٍّ، بعْدَ تَبْكيتِهم بالتَّعجيزِ عن الإتيانِ بسَندٍ عَقْليٍّ(١).

- والإشارةُ في قَولِه: ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ إلى القُرآنِ؛ لأنَّه حاضرٌ في أذْهانِ أصحابِ المُحاجَّةِ؛ فإنَّه يُقرَأُ عليهم مُعاوَدةً(٢). ووَجْهُ تَخصيصِ الكِتابِ بوَصْفِ أنْ يكونَ مِن قبْلِ القُرآنِ؛ لِيُسَدَّ عليهم بابُ المُعارَضةِ بأنْ يأْتوا بكِتابٍ يُصنَعُ لهم، كما قالوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(٣) [الأنفال: ٣١].

- ومعنى قولِه: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: أو بَقيَّةٍ بَقِيَت عِندَكم تَرْوُونها عن أهْلِ العِلمِ السَّابِقينَ غيرِ مَسطورةٍ في الكُتبِ، وهذا تَوسيعٌ عليهم في أنواعِ الحُجَّةِ؛ لِيَكونَ عَجْزُهم عن الإتيانِ بشَيءٍ مِن ذلك أقطَعَ لِدَعْواهُم(٤). وقيل: المُرادُ بالأثارةِ: الخَطُّ في التُّرابِ، وذلك شَيءٌ كانت العرَبُ تَفعَلُه وتَتكهَّنُ به وتَزْجُرُ؛ فيَكونُ مِن بابِ التَّهكُّمِ بهمْ وبأقْوالِهم ودَلائلِهم(٥).

- وفي قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إلْهابٌ وإفحامٌ لهم بأنَّهم غيرُ آتِينَ بحُجَّةٍ؛ لا مِن جانِبِ العقْلِ، ولا مِن جانِبِ النَّقْلِ المَسْطورِ أو المأْثورِ، وقدْ قال تعالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾(٦) [القصص: ٥٠].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١).

﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ اعتِراضٌ في أثْناءِ تَلْقينِ الاحْتِجاجِ؛ فلمَّا أمَرَ اللهُ تعالَى رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ يُحاجَّهم بالدَّليلِ، وَجَّهَ الخِطابَ إليه؛ تَعجيبًا مِن حالِهم وضَلالِهم؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ إلخ [الأحقاف: ٦]، لا يُناسِبُ إلَّا أنْ يكونَ مِن جانِبِ اللهِ تعالى[1].

- والاستِفهامُ ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ ...﴾ إنكارٌ وتَعجُّبٌ ونفْيٌ لأنْ يَكونَ أحدٌ يُساوي المُشركينَ في الضَّلالِ، وإنْ كانَ سَبْكُ التَّركيبِ لِنَفْيِ الأضلِّ منْهم مِن غَيرِ تَعرُّضٍ لِنَفْيِ المُساوِي، والمعنى: لا أحَدَ أشدُّ ضَلالًا وأعجَبُ حالًا ممَّن يَدْعونَ مِن دُونِ اللهِ مَن لا يَسْتجيبُ له دُعاءَه؛ فهو أقْصَى حَدٍّ مِن الضَّلالةِ. ووَجْهُ ذلك: أنَّهم ضَلُّوا عن دَلائلِ الوَحدانيَّةِ، وادَّعَوا للهِ شُركاءَ بلا دَليلٍ، واخْتاروا الشُّركاءَ مِن حِجارةٍ -وهي أبعَدُ المَوجوداتِ عن قَبولِ صِفاتِ الخلْقِ والتَّكوينِ والتَّصرُّفِ- ثمَّ يَدْعُونها في نَوائبِهم، وهم يُشاهِدون أنَّها لا تَسمَعُ ولا تُبصِرُ ولا تُجيبُ، ثمَّ سَمِعوا آياتِ القُرآنِ تُوضِّحُ لهم الذِّكرى بنَقائصِ آلِهتِهم، فلمْ يَعتَبِروا بها، وزَعَموا أنَّها سِحرٌ ظاهِرٌ؛ فكان ضَلالُهم أقْصَى حدٍّ في الضَّلالِ[2].

- وفي قولِه: ﴿مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ وَصْفُ الأصنامِ بتَرْكِ الاستِجابةِ والغفْلةِ مع ظُهورِ حالِها؛ لِلتَّهكُّمِ بها وبعَبَدَتِها[3].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨).

﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ نُكتةٌ بَلاغيَّةٌ رائعةٌ؛ وذلك أنَّه جُعِلَ يومُ القِيامةِ غايةً لِعَدَمِ الاستِجابةِ، ومِن شأْنِ الغايةِ انتِهاءُ المُغَيَّا عِندَها، لكنَّ عَدَمَ الاستجابةِ مُستمِرٌّ بعْدَ هذه الغايةِ؛ لأنَّهم في القِيامةِ أيضًا لا يَسْتجيبونَ لهم؛ فالوَجْهُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّها مِن الغاياتِ المُشعِرةِ بأنَّ ما بعْدَها وإنْ وافَقَ ما قبْلَها، إلَّا أنَّه أزْيَدُ منه زيادةً بَيِّنةً تُلحِقُه بالثَّاني، حتَّى كأنَّ الحالتَينِ -وإنْ كانَتَا نوعًا واحدًا؛ لِتَفاوُتِ ما بيْنَهما- كالشَّيءِ وضِدِّه؛ وذلك أنَّ الحالةَ الأُولى الَّتي جُعِلَتْ غايَتُها القِيامةَ لا تَزيدُ على عَدَمِ الاستِجابةِ، والحالةَ الثَّانيةَ الَّتي في القِيامةِ زادَتْ على عَدَمِ الاستِجابةِ بالعَداوةِ وبالكُفْرِ بعِبادتِهم إيَّاهم[1].

- وكذلك: جَعْلُ يَومِ القِيامةِ غايةً لِانتِفاءِ الاستجابةِ كِنايةٌ عن اسْتِغراقِ مُدَّةِ بَقاءِ الدُّنيا[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ عطْفٌ على ما قبْلَها؛ لِمُناسَبةِ ذِكرِ يَومِ القِيامةِ[3].

- ضَميرا (كانُوا) في الموضعَينِ يجوزُ أنْ يَعودا إلى ﴿مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ المشركينَ يُعادُونَ أصنامَهم يومَ القيامةِ إذْ يَجِدونَها مِن أسبابِ شقائِهم. ويجوزُ أنْ يَعودا إلى ﴿مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾؛ فإنَّ الأصنامَ يجوزُ أنْ تُعطَى حياةً يَومَئذٍ فتَنطِقَ بالتَّبرِّي عن عُبَّادِها ومِن عبادتِهم إيَّاها. ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ جاريًا على التَّشبيهِ البليغِ؛ لِمُشابَهتِها لِلْأعداءِ والمُنكِرينَ لِلعبادةِ في دَلالتِها على ما يُفْضي إلى شَقائِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٢٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢).

وكَذِبِهم[١].

- ويَجوزُ أنْ يُرادَ بقولِه: ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ كلُّ ما يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ؛ مِن الملائكةِ، والجنِّ والإنسِ، وغَيرِهم، ويُبْنى إرجاعُ الضَّمائرِ وإسْنادُ العَداوةِ والكُفرِ إليهم على التَّغليبِ[٢].

- ومِن بَديعِ تَفنُّنِ القُرآنِ: تَوزيعُ مَعادِ الضَّمائرِ في هذه الآيةِ ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ مع تَماثُلِها في اللَّفظِ، وهذا يَندرِجُ فيما يُعرَفُ بمُحسِّنِ الجَمْعِ مع التَّفريقِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) ٨/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣).

والجمعُ والتَّفريقُ: هو أنْ يجمعَ المتكلِّمُ بيْنَ شيئَينِ في حُكمٍ واحدٍ، ثمَّ يُفرِّقَ بيْنَ جِهتَيْ إدخالِهما، كأنْ يُشبِّهَ شَيئين بشيءٍ واحدٍ، ثمَّ يُفرِّقَ بيْنَهما في وجهِ الشَّبهِ، وبيْنَ جِهتَي الإدخالِ، كقولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]؛ فالجمعُ قولُه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾؛ لأنَّها متعدِّدةٌ معنًى؛ لأنَّ النَّكِرةَ في سِياقِ النَّفيِ تَعُمُّ، والتَّفريقُ قولُه: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (ص: ٣٣٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣١٢)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٣).

الآيتان (٧-٨)

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: أي: اختَلَقَه وافتَعَلَه، وجاء به مِن عندِ نَفْسِه. والافتِراءُ: اختِلاقُ الكَذِبِ، وأصلُه: مِنْ فَرْيِ الأديمِ، وهو: قَطْعُه، فقيل للكَذِبِ: افتِراءٌ؛ لأنَّ الكاذِبَ يَقطَعُ به على التَّقديرِ مِن غيرِ تحقيقٍ[1].

﴿تُفِيضُونَ﴾: أي: تَقولونَ وتَخوضونَ، والإفاضةُ في الحَديثِ: الخَوضُ فيه والإكثارُ منه، وهي منقولةٌ مِن: فاضَ الماءُ: إذا سالَ، ومنه: حديثٌ مُستَفيضٌ: مُشتَهِرٌ شائِعٌ، وأصلُ (فيض): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بسُهولةٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى موقفَ المشركينَ إذا قُرِئ عليهم القرآنُ، فيقولُ: وإذا تُتلَى على أولئك المُشركينَ آياتُ القُرآنِ الواضِحاتُ قالوا للحَقِّ حينَ جاءَهم مِن عندِ اللهِ تعالى: هذا القُرآنُ سِحرٌ ظاهِرٌ!

ثمَّ يُخبِرُ الله تعالى عن جانبٍ مِن أباطيلِهم، فيقولُ: أَمْ يَقولُ المُشرِكونَ:

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠،٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥).

اختلَق مُحمَّدٌ القُرآنَ، وقالَه مِن تِلْقاءِ نَفْسِه؟!

ثمَّ يُلقِّنُ اللهُ تعالى نبيَّه الرَّدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: إنِ اختلَقْتُ هذا القُرآنَ -كما تَزعُمونَ- فلا تدفَعون عنِّي مِن عذابِ اللهِ شيئًا! هو سُبحانَه أعلَمُ بما تَخوضونَ فيه مِن طَعنٍ أو تَكذيبٍ بالقُرآنِ، كفى به سُبحانَه شَهيدًا بيْني وبيْنَكم، وهو الغَفورُ الرَّحيمُ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا تكَلَّم في تقريرِ التَّوحيدِ ونَفْيِ الأضْدادِ والأندادِ؛ تكَلَّم في النُّبُوَّةِ، وبَيَّنَ أنَّ مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم كلَّما عَرَض عليهم نَوعًا مِن أنواعِ المُعجِزاتِ زَعَموا أنَّه سِحرٌ[(١)]!

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ في غايةِ السَّفَهِ في عبادةِ ما لا دليلَ بوَجهٍ على عبادتِه؛ أتْبَعَه بَيانَ أنَّهم في غايةِ الغَباوةِ بإنكارِ ما لا شَيءَ أبيَنُ منه! فقال عاطِفًا على: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣][(٢)]:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

أي: وإذا تُتلَى على المُشرِكينَ آياتُ القُرآنِ الواضِحاتُ، قال هؤلاء الَّذين كَفَروا بوَحدانيَّةِ الله للحَقِّ حينَ جاءَهم من عندِ اللهِ تعالى: هذا القُرآنُ سِحرٌ واضِحٌ[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٥)، ((نظم الدرر)) =

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سبأ: ٤٣].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ يُسَمُّونَ المُعجِزةَ بالسِّحرِ؛ بَيَّنَ أنَّهم متى سَمِعوا القُرآنَ قالوا: إنَّ مُحمَّدًا افتراه واختَلَقَه مِن عندِ نَفْسِه[١]! فانتَقَلوا مِن قَولِهم: هذا سِحرٌ، إلى هذه المقالةِ الأُخرى[٢].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾.

أي: أم يَقولُ المُشرِكونَ: اختَلَقَ مُحمَّدٌ القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ونَسَبه إلى اللهِ كَذِبًا[٣]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨].

= للبقاعي (١٨/ ١٢٩، ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٤).

﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: إنِ اختلَقْتُ القُرآنَ -كما تَزعُمونَ- فلا تَستطيعونَ أن تَدفَعوا عنِّي شيئًا مِن عذابِ اللهِ إن عاقَبَني؛ جزاءَ كَذبي عليه[1]!

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ * لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٣ - ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا * قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

أي: اللهُ أعلَمُ مِن كُلِّ أحَدٍ سِواه بما تَقولونَه في القُرآنِ؛ مِن طَعنٍ فيه، أو تَكذيبٍ به، أو وَصفِه بما لا يَليقُ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤).

قال ابن عاشور: (قولُه: ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ دليلٌ على الجوابِ المقدَّرِ في الكلامِ بطريقِ الالْتِزامِ؛ لأنَّ معنى ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي﴾ لا تَقْدِرونَ على دفْعِ ضُرِّ اللهِ عنِّي، فاقتضَى أنَّ المعنَى: إن افترَيْتُه عاقَبَني اللهُ، ولا تَستطيعونَ دفْعَ عِقابِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥).

قال الواحدي: (أي: بما تقولونَ في القُرآنِ وتَخوضون فيه مِن التَّكذيبِ به، والقولِ فيه أنَّه سِحرٌ وكَهانةٌ. قاله المفسِّرون). ((البسيط)) (٢٠/ ١٦٤).

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾.

أي: كفى باللهِ العالِمِ بحالي وحالِكم شاهِدًا يَحكُمُ بشَهادتِه بيْني وبيْنَكم، ويُجازي كُلًّا بما يَستحِقُّه[1].

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو الَّذي مِن شأنِه أن يَستُرَ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزَ عن مُؤاخَذتِهم بها، ويَرحَمَهم[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تَرجيةٌ واستِدعاءٌ إلى التَّوبةِ؛ لأنَّه في خلالِ تهديدِه إيَّاهم باللهِ تعالى جاءت هاتان الصِّفتانِ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّ ما جاء

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

قال ابن كثير: (أي: ومع هذا كُلِّه إن رَجعتُم وتُبتُم تاب عليكم وعفا عنكم، وغفَرَ لكم ورَحِمَكم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦).

وقال السعدي: (دعاهم إلى التَّوبةِ مع ما صدَرَ منهم مِن مُعانَدةِ الحَقِّ ومُخاصَمتِه، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: فتُوبوا إليه، وأقلِعوا عمَّا أنتم فيه؛ يَغفِرْ لكم ذُنوبَكم، ويَرحَمْكم، فيُوفِّقْكم للخَيرِ، ويُثِبْكم جزيلَ الأجرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٣).

به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الآياتِ هو مِن أفصَحِ الكلامِ وأبلَغِه وأبْيَنِه؛ فهُم لم يَصِفوه بالسِّحرِ إلَّا لأنَّه يأخُذُ بالقُلوبِ، ويَجُرُّ النَّاسَ إليه جرًّا، كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ مِن البيانِ لَسِحرًا))[1].

٢- قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ إنَّما جعَلوه بزَعْمِهم سِحرًا؛ مِن حَيثُ كان عِندَهم يُفَرِّقُ بيْنَ المرءِ ووَلَدِه وزَوجِه، فجَعَلوه لذلك كالسِّحرِ، ولم يَنظُروا إلى الفَرقِ في أنَّ المُفارِقَ بالقُرآنِ يُفارِقُ عن بَصيرةٍ في الدِّينِ، والمفارِقَ بالسِّحرِ يُفارِقُ عن خَلَلٍ في ذِهْنِه[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّهم لم يَتأمَّلوا ما يُتْلى عليهم، بل بادَروا أوَّلَ سَماعِه إلى نِسبتِه إلى السِّحرِ؛ عِنادًا وظُلمًا[3].

٤- قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ وَجْهُ المُلازَمةِ بيْنَ الشَّرْطِ وجَوابِه أنَّ اللهَ لا يُقِرُّ أحدًا على أنْ يُبلِّغَ إلى النَّاسِ شيئًا عن اللهِ لم يَأْمُرْه بتَبْليغِه، وقد دلَّ القُرآنُ على هذا في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ * لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]. ولعلَّ حِكمةَ ذلك: أنَّ التَّقوُّلَ على اللهِ يُفْضي إلى فَسادٍ عَظيمٍ يَختَلُّ به نِظامُ الخلْقِ، واللهُ يَغارُ على مَخلوقاتِه، وليس ذلك كغَيرِه مِن المَعاصي الَّتي تَجْلِبُها المَظالِمُ والعبَثُ في الأرضِ؛ لأنَّ ذلك إقدامٌ على ما هو مَعلومُ الفَسادِ لا يَخْفى على النَّاسِ؛ فهمْ يَدْفَعونه بما يَسْتطيعونَ مِن حَولٍ وقُوَّةٍ، أو حِيلةٍ ومُصانَعةٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٩).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٧٦٧) من حديثِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٣).

وأمَّا التَّقوُّلُ على اللهِ فيُوقِعُ النَّاسَ في حَيرةٍ: بماذا يَتلقَّوْنَه؟ فلذلك لا يُقِرُّه اللهُ ويُزيلُه[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ ذَكَر سُبحانَه أنَّه شَهيدٌ بيْنَه وبيْنَهم، ولم يَقُلْ: «شاهدٌ علينا»، ولا «شاهدٌ لي»؛ لأنَّه ضَمَّنَ الشَّهادةَ الحُكْمَ، فهو شَهيدٌ يَحكُمُ بشَهادتِه بيني وبيْنَكم، والحُكمُ قَدْرٌ زائِدٌ على مُجرَّدِ الشَّهادةِ؛ فإنَّ الشَّاهِدَ قد يؤدِّي الشَّهادةَ، وأمَّا الحاكِمُ فإنَّه يَحكُمُ بالحَقِّ للمُحِقِّ على المُبطِلِ، ويأخُذُ حَقَّه منه، ويُعامِلُ المُحِقَّ بما يَستحِقُّه، والمُبطِلَ بما يَستحِقُّه[2].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ مَسوقٌ مَساقَ العَدِّ لِوُجوهِ فَرْطِ ضَلالِهم؛ فإنَّ آياتِ القُرآنِ تُتْلَى عليهم صَباحَ مَساءَ، تُبيِّنُ لهم دَلائلَ خُلوِّ الأصنامِ عن مُقوِّماتِ الإلهيَّةِ، فلا يَتدبَّرونَها، وتَحْدُو بهِمْ إلى الحقِّ، فيُغالِطون أنفُسَهم؛ بأنَّ ما فَهِموه منها تأثُّرٌ سِحْريٌّ، وأنَّها سِحرٌ، ولم يَكْتَفُوا بذلك، بلْ زادُوا بُهتانًا فزَعَموا أنَّه مُبِينٌ، أي: واضِحٌ كَونُه سِحْرًا. وهذا انتِقالٌ إلى إبْطالِ ضَلالٍ آخَرَ مِن ضَلالِهم، وهو ضَلالُ التَّكذيبِ بالقُرآنِ؛ فهو مَرتبِطٌ بقولِه: ﴿حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[3] [الأحقاف: ١، ٢].

- قولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للتَّسجيلِ عليهم بالكُفْرِ، وبأنَّه سَببُ قَولِهم ذلك. و(الحقُّ) هنا: هو الآياتُ؛ فعُدِلَ عن ضَميرِ الآياتِ إلى إظْهارِ لَفظِ (الحقِّ)؛ لِلتَّنبيهِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣).

أنَّها حقٌّ، ووُجوبِ الإيمانِ بها، وأنَّ رَمْيَها بالسِّحرِ بُهتانٌ عَظيمٌ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ إضْرابُ انتِقالٍ إلى نَوعٍ آخَرَ مِن ضَلالِ أقْوالِهم، وسُلِكَ في الانتِقالِ مَسلَكُ الإضرابِ دُونَ أنْ يكونَ بالعطْفِ بالواوِ؛ لأنَّ الإضرابَ يُفيدُ أنَّ الغرَضَ الَّذي سيُنتقَلُ إليه له مَزيدُ اتِّصالٍ بما قبْلَه، وأنَّ المَعنى: دَعْ قولَهم: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٧]، واسْتَمِعْ لِمَا هو أعجَبُ؛ وهو قَولُهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، أي: افْترى نِسبتَه إلى اللهِ، ولم يُرِدْ به السِّحرَ(٢).

- وما في (أمْ) مِن الهمزةِ لِلْإنكارِ التَّوبيخيِّ المُتضمِّنِ لِلتَّعجُّبِ، أي: بلْ أيَقُولونَ: افْترى القُرآنَ؟! والنَّفيُ الَّذي يَقْتضيهِ الاستِفهامُ الإنْكاريُّ يَتسلَّطُ على سَببِ الإنكارِ، أي: كَونِ القُرآنِ مُفْترًى، وليس مُتسلِّطًا على نِسبةِ القولِ إليهم؛ لأنَّه صادِرٌ منهم، وإنَّما المَنْفيُّ الافتِراءُ المَزْعومُ(٣).

- قولُه: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ أمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بجَوابِ مَقالَتِهم بما يَقلَعُها مِن جِذْرِها؛ فكان قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ﴾ جُملةً جاريةً مَجْرى جَوابِ المُقاوَلةِ؛ لِوُقوعِها في مُقابَلةِ حِكايةِ قَولِهم(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣، ١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤).

- وجُعِلَ الافتراءُ مَفْروضًا بحَرْفِ (إنْ) الَّذي شأْنُه أنْ يكونَ شَرْطُه نادِرَ الوُقوعِ؛ إشارةً إلى أنَّه مَفروضٌ في مَقامٍ مُشتمِلٍ على دَلائلَ تَقلَعُ الشَّرْطَ مِن أصْلِه[١].

- وإسنادُ ﴿تَمۡلِكُونَ﴾ إليهم تَنبيهٌ بالشَّيءِ على مُقابِلِه بالمفهومِ، أي: إنْ كُنتُ مُفترِيًا وأنتم المُحِقُّونَ فالعُقوبةُ واقعةٌ لا بُدَّ منها، ولا تَقدِرون على دَفْعِها عنِّي، وإنْ كُنتُ مُحِقًّا وأنتم المُفترون فالعُقوبةُ تَقَعُ بكم، ولا أقْدِرُ على دَفْعِها عنكم[٢].

- وجُملةُ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾؛ لأنَّ جُملةَ ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي﴾ تَشتمِلُ على معنًى: أنَّ اللهَ لا يَرضَى أنْ يَفترِيَ عليه أحدٌ، وذلك يَقْتضي أنَّه أعلَمُ منهم بحالِ مَن يُخبِرُ عن اللهِ بأنَّه أرسَلَه وما يُبلِّغُه عن اللهِ، وذلك هو ما يَخوضونَ فيه؛ مِن الطَّعْنِ، والقَدْحِ، والوصْفِ بالسِّحرِ، أو بالافتراءِ، أو بالجُنونِ[٣].

- وجُملةُ ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ لأنَّ الإخبارَ بكَونِه أعلَمَ منهم بكُنْهِ ما يُفيضون فيه يَشتمِلُ على مَعنى تَفويضِ الحُكْمِ بيْنَه وبيْنَهم إلى اللهِ تعالى. وهذا تَهديدٌ لهم وتَحذيرٌ من الخَوضِ الباطلِ ووَعيدٌ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٢٩٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦).

- وإجْراءُ وَصْفَي ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عليه تعالَى اقْتَضاهُ ما تَضمَّنَه قَولُه: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾ مِن التَّهديدِ والوعيدِ، وهو تَعريضٌ بطَلَبِ الإقلاعِ عمَّا همْ فيه مِن الخَوضِ بالباطِلِ، ومَوعِدةٌ بالغُفْرانِ والرَّحمةِ إنْ رَجَعوا عن الكُفْرِ وتابوا وآمَنوا، وإشعارٌ بحِلْمِ اللهِ عنهم مع عِظَمِ ما ارْتَكَبوا[1].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦).

الآيتان (٩-١٠)

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾: أي: أوَّلَ رُسُلِ اللهِ، والبِدْعُ مِن كُلِّ شَيءٍ: الأوَّلُ والمُبتَدأُ، والبِدعةُ: ما اختُرِعَ ممَّا لم تَجْرِ به سُنَّةٌ، وأصلُ (بدع): يدُلُّ على ابتداءِ الشَّيءِ، وصُنعِه لا عن مِثالٍ[1].

﴿نَذِيرٌ﴾: أي: مُنْذِرٌ ومُحذِّرٌ ومُخوِّفٌ، والإنذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تخويفٍ. وقيل: أصلُ الإنذارِ: الإعلامُ؛ يُقالُ: أنذَرْتُه: إذا أعلَمْتَه. وقيل: ولا يكونُ إلَّا معَ الحَذَرِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُبيِّنَ لِقَومِه أنَّ ما جاءهم به قد سبَقَتْه به الرُّسُلُ إلى أقوامِهم، وأنَّه وافَقتْ دعوتُه دعوتَهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: ما كُنتُ أوَّلَ رَسُولٍ إلى البَشَرِ؛ فقد أرسَلَ اللهُ مِنْ قَبْلي

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٢٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

كثيرًا مِنَ الرُّسُلِ، ولا أعلَمُ ما يَفعَلُه اللهُ بي ولا بكم. ما أتَّبِعُ إلَّا ما يُوحيه اللهُ إليَّ، وما أنا إلَّا نَذيرٌ لكم ظاهِرُ النِّذارةِ، وأُظهِرُ لكم الإنذارَ مِن عذابِ اللهِ.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ للمشركينَ أيضًا: أرأيتُم إن كان هذا القُرآنُ نازِلًا إليَّ مِن عندِ اللهِ، وكفَرْتُم به، وقد شَهِد شاهِدٌ مِنْ بني إسرائيلَ على مِثلِ القُرآنِ أنَّه مِن عندِ اللهِ، فآمَنَ به واستَكبرتُم أنتم -أيُّها المُشرِكونَ- عن الإيمانِ به؛ فمَنْ أضَلُّ مِنكم؟! إنَّ اللهَ لا يَهدي القَومَ الظَّالِمينَ!

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن أعظَمِ الضَّلالِ أنْ يُنسَبَ الإنسانُ إلى الكَذِبِ مِن غيرِ دَليلٍ في شَيءٍ لم يَبتَدِعْه، بل تقَدَّمَه بمِثلِه ناسٌ قد ثَبَت صِدْقُهم في مِثلِ ذلك، ومَضَت عليه الأزمانُ، وتقرَّرَ غايةَ التَّقَرُّرِ في القُلوبِ والأذهانِ- قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن المُشرِكينَ طَعْنَهم في كَونِ القُرآنِ مُعْجِزًا بأنْ قالوا: إنَّه يختَلِقُه مِن عندِ نَفْسِه، ثمَّ يَنسُبُه إلى أنَّه كَلامُ اللهِ على سَبيلِ الفِرْيةِ؛ حكى عنهم نوعًا آخَرَ مِنَ الشُّبُهاتِ، وهو أنَّهم كانوا يَقتَرِحونَ عليه مُعجِزاتٍ عَجيبةً قاهِرةً، ويُطالِبونَه بأنْ يُخبِرَهم عن المُغَيَّباتِ؛ فأجاب اللهُ تعالى عنه بأنْ قال[2]:

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩).

﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: ما كنتُ أوَّلَ رُسُلِ اللهِ إلى البَشَرِ؛ فقد أرسَلَ اللهُ مِنْ قَبْلي كثيرًا مِنَ الرُّسُلِ إلى أُمَمِهم، وبمِثْلِ ما أرسَلَني به، فلِمَ تَستَنكِرونَ رِسالتي(١)؟!

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ۝ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾.

أي: لَسْتُ إلَّا بشَرًا، وليس بيَدي مِنَ الأمرِ شَيءٌ؛ فلا أعلَمُ ما يَفعَلُه اللهُ بي، ولا ما يَفعَلُه بكم(٢)!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٧).

قال الرَّسْعَني: (اختَلَفوا هل المرادُ نَفْيُ عِلْمِه بما يُفعَلُ به في الآخِرةِ أم في الدُّنيا؟ على قولَين:

أحَدُهما: في الآخِرةِ، قال: ثمَّ نَزَل بَعْدَها: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وقال: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ [الفتح: ٥]؛ فأعلَمَه ما يُفعَلُ به وبالمُؤمنينَ.

الثَّاني: في الدُّنيا،... قال الحَسَنُ: ما أدري أُخرَجُ كما أُخْرِجَ الأنبياءُ قَبْلي؟ أو أُقتَلُ كما قُتِلوا؟ وما أدري ما يُفعَلُ بكم: أتُعَذَّبونَ أم تُؤَخَّرونَ؟ أتُصَدِّقون أم تُكَذِّبون؟ وقال عطيَّة: ما أدري =

= هل يَترُكني بمكَّةَ أو يُخرِجُني منها؟ وقيل: المعنى: وما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بكم فيما يُستَقبَلُ مِنَ الزَّمانِ، ويُقدَّرُ لي ولكم في قَضاياه. وقيل: هو نَفيٌ للدِّرايةِ المُفَصَّلةِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٠٦، ٢٠٧).

ممَّن يُروى عنه القَولُ الأوَّلُ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وأنسٌ، وعِكْرِمةُ، والحسَنُ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢١)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: في الدُّنيا: ابنُ جرير، والنَّحَّاسُ، وابنُ الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٢)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٦٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨، ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧).

وممَّن قال بمعنى هذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ، وعطيَّةُ العَوْفيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤٣٥).

قال ابن كثير: (وهذا القولُ هو الَّذي عوَّل عليه ابنُ جرير، وأنَّه لا يجوزُ غيرُه، ولا شكَّ أنَّ هذا هو اللَّائقُ به صلَواتُ اللهِ وسلامُه عليه؛ فإنَّه بالنِّسبةِ إلى الآخرةِ جازِمٌ أنَّه يَصيرُ إلى الجنَّةِ هو ومَنِ اتَّبَعه، وأمَّا في الدُّنيا فلم يَدْرِ ما كان يَؤولُ إليه أمرُه وأمرُ مُشرِكي قُرَيشٍ؛ إلى ماذا: أيُؤْمِنون، أمْ يَكفُرون فيُعَذَّبون...). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦).

وقال الشنقيطي: (التَّحقيقُ إن شاء اللهُ: أنَّ معنى الآيةِ الكريمةِ: ما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بكم في دارِ الدُّنيا؛ فما أدري أأُخرَجُ مِن مَسقَطِ رأسي، أو أُقتَلُ كما فُعِلَ ببَعضِ الأنبياءِ، وما أدري ما يَنالُني مِن الحوادِثِ والأُمورِ في تحمُّلِ أعباءِ الرِّسالةِ، وما أدري ما يُفعَلُ بكم: أيُخسَفُ بكم، أو تَنزِلُ عليكم حِجارةٌ مِن السَّماءِ، ونحوَ ذلك.

وهذا هو اختيارُ ابنِ جَريرٍ وغيرِ واحِدٍ مِن المحَقِّقينَ، وهذا المعنى في هذه الآيةِ دَلَّت عليه آياتٌ من كِتابِ اللهِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ الآيةَ [الأعراف: ١٨٨]، وقَولِه تعالى آمِرًا له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ الآيةَ [الأنعام: ٥٠].

وبهذا تَعلَمُ أنَّ ما يُروَى عن ابنِ عبَّاسٍ وأنسٍ وغيرِهما مِن أنَّ المرادَ: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا =

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وعن أمِّ العَلاءِ رضيَ الله عنها، قالت: ((دخَلَ علينا رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم حينَ تُوُفِّيَ عُثمانُ بنُ مَظْعُونٍ، فقُلتُ: رَحمةُ اللهِ عليك أبا السَّائِبِ، فشَهادتي عليك لقد أكرَمَك اللهُ! فقال لي النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: وما يُدريك أنَّ اللهَ أكرَمَه؟! فقُلتُ: لا أدري، بأبي أنتَ وأمِّي يا رَسولَ اللهِ! فقال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أمَّا عُثمانُ فقد جاءه -واللهِ- اليَقينُ، وإنِّي لأرجو له الخَيرَ، واللهِ ما أدري وأنا رَسولُ اللهِ ما يُفعَلُ به[1]! قالت: فواللهِ لا أُزكِّي أحدًا بعدَه أبدًا، وأحزَنَني ذلك. قالت: فنِمتُ، فأُريتُ لِعُثمانَ عَينًا تَجري، فجِئتُ إلى رَسولِ الله

= بِكُمۡ﴾ أي: في الآخِرةِ- فهو خِلافُ التَّحقيقِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢١٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧).

وممَّن جمَع بيْن القولَين: البيضاويُّ، فقال: (﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ﴾ في الدَّارَين على التَّفصيلِ؛ إذ لا عِلمَ لي بالغَيبِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢). ويُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٧).

وقال الألوسي: (والَّذي أختاره أنَّ المعنى على نفْيِ الدِّرايةِ مِن غيرِ جهةِ الوحيِ، سواءٌ كانت الدِّرايةُ تفصيليَّةً أو إجماليَّةً، وسواءٌ كان ذلك في الأمورِ الدُّنيويَّةِ أو الأُخرويَّةِ. وأعتقِدُ أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لم يَنتقِلْ مِن الدُّنيا حتَّى أُوتيَ مِن العِلمِ بالله تعالى وصِفاتِه وشُؤونِه، والعِلمِ بأشياءَ يُعَدُّ العِلمُ بها كمالًا- ما لم يُؤْتَهُ أحدٌ غيرُه مِن العالَمينَ، ولا أعتقِدُ فواتَ كمالٍ بعدَمِ العِلمِ بحوادثَ دُنيويَّةٍ جُزئيَّةٍ؛ كعدَمِ العِلمِ بما يَصنَعُ زَيدٌ مثَلًا في بيتِه، وما يَجري عليه في يَومِه أو غَدِه). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٦٨).

(١) قال ابن كثير: (وفي هذا وأمثالِه دَلالةٌ على أنَّه لا يُقْطَعُ لِمُعَيَّنٍ بالجنَّةِ إلَّا الَّذي نصَّ الشَّارعُ على تَعْيينِهم؛ كالعَشَرةِ، وابنِ سلَامٍ، والغُمَيْصاءِ، وبِلالٍ، وسُراقَةَ، وعبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ حَرامٍ والدِ جابرٍ، والقُرَّاءِ السَّبعينَ الَّذينَ قُتِلوا ببِئْرِ مَعُونةَ، وزَيدِ بنِ حارثةَ، وجَعْفَرٍ، وابنِ رَواحةَ، وما أشْبهَ هؤُلاءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧).

صلَّى الله عليه وسلَّم، فأخبَرْتُه، فقال: ذاك عَمَلُه))(١).

وفي روايةٍ: ((واللهِ ما أدري -وأنا رَسولُ اللهِ- ما يُفْعَلُ بي ولا بكم))(٢).

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

أي: ما أتَّبِعُ إلَّا ما يُنزِلُه اللهُ علَيَّ مِنَ الوَحيِ(٣).

﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: وما أنا لكم إلَّا نَذيرٌ أُبِينُ وأُظهِرُ لكم الإنذارَ مِن عذابِ اللهِ، وأمري بائنٌ ظاهِرٌ لكُلِّ ذي عَقلٍ(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠١٨).

قال ابن حجر: (إنَّما قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ ذلك موافَقةً لِقَولِه تعالى في سورةِ الأحقافِ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾، وكان ذلك قبْلَ نُزولِ قَولِه تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]؛ لأنَّ الأحقافَ مكِّيَّةٌ، وسورةَ الفتحِ مدنيَّةٌ بلا خِلافٍ فيهما، وقد ثبت أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: «أنا أوَّلُ مَن يَدخُلُ الجنَّةَ»، وغيرِ ذلك مِن الأخبارِ الصَّريحةِ في معناه، فيحتملُ أن يُحمَلَ الإثباتُ في ذلك على العِلمِ المُجمَلِ، والنَّفيُ على الإحاطةِ مِن حيثُ التَّفصيلُ). ((فتح الباري)) (٣/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧).

قال البِقاعي: (لا يطَّلِعُ عليه حقَّ اطِّلاعِه غيري، ومنه ما أُخبِرُ فيه عن المُغَيَّباتِ فيَكونُ كما قُلتُ، فلا يُرتابُ في أنِّي لا أقدِرُ على ذلك بنفْسي؛ فعُلِمَ أنَّه مِن اللهِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٦، ١٣٧).

قال ابنُ جرير: (﴿مُّبِينٌ﴾: يقولُ: قد أبان لكم إنذارَه، وأظهَرَ لكم دُعاءَه إلى ما فيه نَصيحتُكم). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٤).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّنُ النِّذارةِ، وأمري ظاهِرٌ لكُلِّ ذي لُبٍّ وعَقلٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧).
=

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أثبَتَ أنَّه مِن عندِ اللهِ بشَهادةِ اللهِ نَفْسِه بعَجْزِهم عن المُعارَضةِ؛ قبَّحَ عليهم إصرارَهم على التَّكذيبِ، على تقديرِ شَهادةِ أحَدٍ مِمَّن يَثِقونَ بهم، يَسألونَهم عنه مِن أهلِ الكِتابِ[1].

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: أرأيتُم إن كان هذا القُرآنُ نازِلًا إليَّ مِن عندِ اللهِ، ومع ذلك كفَرْتُم به، ألَا تكونونَ بذلك ظالِمينَ وضالِّينَ عن الحَقِّ[2]؟

= وقد جمَع البِقاعي بيْنَ مَعنَيَيْ ﴿مُّبِينٌ﴾، فقال: (﴿نَذِيرٌ﴾ أي: لكم ولكُلِّ مَن بَلَغه القُرآنُ ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهِرٌ أنِّي كذلك في نَفْسِه، مُظهِرٌ له -أي: كَوني نذيرًا- ولجَميعِ الجُزئيَّاتِ الَّتي أنذَرَ منها بالأدِلَّةِ القَطعيَّةِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٣٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٨).

قال الواحدي: (جوابُ قوله: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ محذوفٌ على تقدير: أليس قد ظلَمْتُم؟ ويدُلُّ على هذا المحذوفِ قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقال الحسَنُ [أي: البصريُّ]: جوابُه: فمَنْ أضَلُّ منكم؟ كما قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢]. وقال أبو عليٍّ الفارِسيُّ: تقديرُه: أتأمَنون عُقوبةَ اللهِ؟). ((الوسيط)) (٤/ ١٠٤، ١٠٥).

وقال ابن كثير: (أي: ما ظَنُّكم أنَّ اللهَ صانِعٌ بكم إن كان هذا الكِتابُ الَّذي جِئتُكم به قد أنزله علَيَّ لِأُبَلِّغَكموه، وقد كفرتُم به وكذَّبْتُموه؟!). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧، ٢٧٨). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢].

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾.

أي: وقد شَهِد مَنْ شَهِدَ مِنْ بني إسرائيلَ على مِثلِ القُرآنِ أنَّه مِن عندِ اللهِ؛ فآمَنَ هو بالقُرآنِ، واستَكبرتُم أنتم -أيُّها المُشرِكونَ- عن الإيمانِ به(١)!

= الماوردي)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٣٦١، ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٧، ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

قال ابنُ جُزَي: (هذه الجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُملةِ الَّتي قبْلَها، فالمعنى: أرأيتُم إنِ اجتمَعَ كَونُ القُرآنِ مِن عندِ الله، مع شَهادةِ شاهِدٍ مِن بني إسرائيلَ على مِثلِه، ثمَّ آمَنَ به هذا الشَّاهِدُ وكَفرتُم أنتم، ألَسْتُم أضَلَّ النَّاسِ وأظلَمَ النَّاسِ؟!). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٥).

اختَلف المفسرونَ في المرادِ بقولِه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ على أقوالٍ؛ منها:

أنَّ المرادَ بالشَّاهِدِ عبدُ الله بنُ سَلَامٍ، ونسَبه ابنُ جريرٍ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ، ونسَبه الرَّسْعَنيُّ إلى عامَّتِهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣١، ١٣٢)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٠٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ١٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٦)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٧٣).

قال ابنُ جرير بعدَ أنْ ذكَر أنَّ الأخبارَ قد ورَدت عن جماعةٍ مِن الصحابةِ بأنَّ ذلك عُني به عبدُ الله ابنُ سلامٍ، قال: (وهم كانوا أعلمَ بمعاني القرآنِ، والسببِ الذي فيه نزَل). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣١).

وقال ابن جُزَي: (قيل على هذا: إنَّ الآيةَ مدنيَّةٌ؛ لأنَّه إنَّما أسلَمَ بالمدينةِ. وقيل: إنَّها مكِّيَّةٌ، وأخبَر بشَهادتِه قبْلَ وُقوعِها، ثمَّ وقَعَتْ على حسَبِ ما أخبَر). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٥). ويُنظر ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٩). =

= وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن تكونَ الآيةُ نزلتْ بالمدينةِ، وأُمِرَ بوَضعِها في سورةِ «الأحقافِ»، وعلى هذا يكونُ الخِطابُ لأهلِ الكِتابِ بالمدينةِ وما حَوْلَها. وعندي أنَّه يجوزُ أن يكونَ هذا إخبارًا من الله لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما سيَقَعُ مِن إيمانِ عبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ، فيَكونُ هو المرادَ بـ ﴿شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وإن كانت الآيةُ مَكِّيَّةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١).
ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ١٣٠).
وقال ابن حجر: (ولا مانعَ أن تكونَ جميعُها مكِّيَّةً، وتقَعَ الإشارةُ فيها إلى ما سيَقَعُ بعدَ الهِجرةِ مِن شَهادةِ عبدِ الله بنِ سَلَامٍ). ((فتح الباري)) (٧/ ١٣٠).
وقيل: المرادُ به: موسَى بنُ عِمْرانَ عليه السَّلامُ. وممَّن اختاره: مكِّي، وذكَر ابنُ جريرٍ أنَّه أشبهُ بظاهرِ التَّنزيلِ، ونسَبه ابنُ عطيَّةَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٤).
وممَّن قال به مِن السَّلفِ: الشَّعبيُّ، ومسروقٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٥).
وقيل: ليس المقصودُ شاهِدًا واحِدًا بعَينِه، ولكِنَّ المقصودَ جِنسُ الشَّاهِدِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الرَّازيُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ١٧٧، ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨).
قال ابنُ كثير: (هذا الشَّاهِدُ: اسمُ جِنسٍ يَعُمُّ عبدَ اللهِ بنَ سَلَامٍ وغَيرَه؛ فإنَّ هذه الآيةَ مَكِّيَّةٌ نزلت قبْلَ إسلامِ عبدِ الله بنِ سَلامٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨).
وقال ابن تيميَّة: (وقَولُه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ ليس المقصودُ شاهِدًا واحِدًا مُعَيَّنًا، بل ولا يَحتَمِلُ كَونُه واحِدًا. وقَولُ من قال: [إنَّه] عبدُ اللهِ بنُ سَلامٍ- ليس بشَيءٍ؛ فإنَّ هذه نزَلَت بمكَّةَ قبْلَ أن يُعرَفَ ابنُ سَلامٍ، ولكِنَّ المقصودَ جِنسُ الشَّاهِدِ، كما تقولُ: قام الدَّليلُ. وهو الشَّاهِدُ الَّذي يجِبُ تَصديقُه؛ سواءٌ كان واحِدًا قد يَقترِنُ بخَبَرِه ما يدُلُّ على صِدقِه، أو كان عَدَدًا يَحصُلُ بخَبَرِهم العِلمُ [بما] تقولُ؛ فإنَّ خَبَرَك بهذا صادِقٌ). ((النبوات)) (١/ ١٧٧).
وقيل: إنَّ قولَه ﴿مِثۡلِهِۦ﴾ صِلةٌ، وإنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ أي: عليه، والمعنى: على أنَّه مِن عندِ اللهِ. وممَّن اختاره: أبو عليٍّ الجُرْجانيُّ -كما في ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٦٩)- والواحدي، والبغوي، والشنقيطي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٩).
قال الشنقيطي: (التَّحقيقُ -إن شاء اللهُ- أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ جاريةٌ على أُسلوبٍ عَربيٍّ =

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٦، ١٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [هود: ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

= معروفٍ، وهو إطلاقُ المِثْلِ على الذَّاتِ نَفْسِها، كقَولِهم: مِثلُك لا يَفعَلُ هذا، يَعْنُونَ: لا يَنبغي لك أنت أن تفعَلَه. وعلى هذا فالمعنى: وشَهِدَ شاهِدٌ من بني إسرائيلَ على أنَّ هذا القرآنَ وَحْيٌ مُنَزَّلٌ حَقًّا من عندِ اللهِ، لا أنَّه شَهِدَ على شَيءٍ آخَرَ مُماثِلٍ له؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾. ((أضواء البيان)) (٧/ ٢١٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: مِثلِ القرآنِ: ابنُ أبي زَمَنين، وابنُ تيميَّة، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٢٣)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ١٧٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠).

قال الشوكاني: (﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: القُرآنِ، مِن المعاني الموجودةِ في التَّوراةِ المُطابِقةِ له؛ مِن إثباتِ التَّوحيدِ والبَعثِ والنُّشورِ، وغَيرِ ذلك، وهذه المِثْليَّةُ هي باعتِبارِ تَطابُقِ المعاني، وإن اختَلَفَت الألفاظُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠).

وقال ابن تيميَّة: (قال: ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ وأراد شَهادةَ أهلِ الكِتابِ على مِثْلِ القُرآنِ، وهو شَهادتُهم بما تواتَرَ عنهم مِن أنَّ الرُّسُلَ كانوا رِجالًا، وأنَّهم دَعَوا إلى التَّوحيدِ، وأخبَروا بالمَعادِ). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٨/ ٣٦١).

وقال أيضًا: (إنَّ الشَّاهدَ مِن بني إسرائيلَ على مِثْلِ القُرآنِ، وهو أنَّ اللهَ بَعَث بَشَرًا، وأنزل عليه كِتابًا أَمَرَ فيه بعبادةِ اللهِ وَحْدَه لا شَريكَ له، ونهى فيه عن عِبادةِ ما سِواه، وأخبَرَ فيه أنَّه خَلَق هذا العالَمَ وَحْدَه، وأمثالُ ذلك). ((النبوات)) (١/ ١٧٧).

وقيل: شَهادَتُه أنَّ محمَّدًا مكتوبٌ في التَّوراةِ أنَّه نَبيٌّ، تَجِدُه اليهودُ مكتوبًا عندَهم في التَّوراةِ، كما هو مكتوبٌ في القرآنِ أنَّه نَبيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣١، ١٣٢).

وقيل: المرادُ: على مِثلِ شَهادةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢).

يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۞ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُوفِّقُ لإصابةِ الحَقِّ القومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ باللهِ، والتَّكَبُّرِ عن قَبولِ الحَقِّ مع وُضوحِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

لَمَّا كان المَقامُ مَقامَ تَخويفٍ وإنذارٍ قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأنَّه يُخاطِبُ المُكذِّبينَ، وهذا أسلوبٌ مَعروفٌ في عِلمِ البَلاغةِ: أن يَستعمِلَ الإنسانُ ما يُوافِقُ مُقتَضى الحالِ، لكِنْ عندَ وَصفِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الوَصفَ المُطلَقَ يقولُ سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]؛ فبَدَأ بالبِشارةِ قبْلَ الإنْذارِ، وهذا مِن حيثُ حالُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم المُطلَقةُ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

قال ابنُ عاشور: (جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعليلٌ للكلامِ المحذوفِ الدَّالِّ عليه ما قَبْلَه، أي: ضَلَلْتُم ضلالًا لا يُرجَى له زَوالٌ؛ لأنَّكم ظالِمونَ، واللهُ لا يَهدي القومَ الظَّالِمينَ. وهذا تسجيلٌ عليهم بظُلمِهم أنفُسَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ هذه الآيةُ صالِحةٌ للرَّدِّ على نصارَى زَمانِنا الَّذين طَعَنوا في نُبُوَّةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بمَطاعِنَ لا مَنشأَ لها إلَّا تَضليلٌ وتَمويهٌ على عامَّتِهم؛ لأنَّ الطَّاعِنينَ ليسوا من الغباوةِ بالَّذين يخفى عليهم بُهتانُهم، كقَولِهم: إنَّه تزوَّج النِّساءَ، أو أنَّه قاتَلَ الَّذين كَفَروا، أو أنَّه أحَبَّ زَينبَ بنتَ جَحشٍ(١)!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَعلَمُ مَصيرَ أمْرِه -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وقد جاءت آيةٌ أخرى تدُلُّ على أنَّه عالِمٌ بأنَّ مَصيرَه إلى الخَيرِ، وهي قَولُه تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ تَنصيصٌ على حُسنِ العاقِبةِ والخاتِمةِ؟

الجوابُ مِن وَجهَين:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ الله تعالى علَّمَه ذلك بعدَ أن كان لا يَعلَمُه، ويُستأنَسُ له بقَولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ الآيةَ [النساء: ١١٣]، وقَولِه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ الآيةَ [الشورى: ٥٢]، وقَولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، وقَولِه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ الآيةَ [القصص: ٨٦]، وهذا الجوابُ هو معنى قَولِ ابنِ عبَّاسٍ، وهو مرادُ عِكرِمةَ والحَسَنِ وقَتادةَ بأنَّها مَنسوخةٌ (أي: مُبيَّنةٌ) بقَولِه تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ﴾ الآيةَ [الفتح: ٢]. ويدُلُّ له أنَّ سورةَ (الأحقافِ) مَكِّيَّةٌ، وسورةَ (الفَتحِ) نزلَتْ عامَ سِتَّةٍ في رُجوعِه صلَّى الله عليه وسلَّم مِنَ الحُدَيبيَةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧).

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ: ما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بكم في الدُّنيا مِنَ الحوادِثِ والوقائِعِ؛ وعليه فلا إشكالَ(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فيه كمالُ عُبوديَّةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم للهِ عزَّ وجلَّ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أنَّ الشَّرائعَ توقيفيَّةٌ؛ فلا يجوزُ لأحدٍ أنْ يَبتدِعَ منها شَيئًا؛ ولهذا قَرَّرَ أهلُ العلمِ أنَّ الأصلَ في العباداتِ المنعُ والحَظرُ، وأنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أنْ يَتعبَّدَ للهِ تعالى بشَيءٍ إلَّا ما أَذِنَ اللهُ فيه شَرعًا، وهذا حَقٌّ مُستنِدٌ إلى آياتٍ مُتعَدِّدةٍ، وإلى قَولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن أحدَثَ في أمْرِنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ))(٣).

٥- ما كان مِن العِلمِ المَوروثِ عن نَبيِّنا مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم فلَنا أنْ نَستَشهِدَ عليه بما عندَ أهلِ الكتابِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد ٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۞ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٤) [يونس ٩٤، ٩٥].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢١٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٣).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٢٦٩٧)، ومسلمٌ (١٧١٨) واللَّفظُ له مِن حديثِ عائشةَ رضيَ الله عنها.

(٤) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٤٢٢).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ فيه ردٌّ على مَن قال: لا يَنبغي للشَّاهِدِ أن يقولَ: أشهَدُ على إقرارِ زَيدٍ، بل يقولُ: أشهَدُ به، فالصَّوابُ قَبولُ الشَّهادةِ بهذه الصِّيغةِ[١].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾

- في قولِه: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أُعِيدَ الأمْرُ بأنْ يَقولَ ما هو حُجَّةٌ عليهم، وهذا جَوابٌ عمَّا تَضمَّنَه قَولُهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ [الأحقاف: ٨]؛ مِن إحالَتِهم صِدْقَه فيما جاء به مِن الرِّسالةِ عن اللهِ إحالةً دَعَتْهم إلى نِسبةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى الافتراءِ على اللهِ. وإنَّما لم يُعطَفْ على جُملةِ ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾ [الأحقاف: ٨]؛ لأنَّ المَقصودَ الارتِقاءُ في الرَّدِّ عليهم مِن رَدٍّ إلى أقْوى منه؛ فكان هذا كالتَّعدُّدِ والتَّكريرِ[٢].

- ودلَّ قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣] بالإدماجِ[٣] وإشارةِ النَّصِّ على أنَّه تعالَى ضَمَّن فيه ما به أعْرَضوا عن التَّوحيدِ والبَعثِ، والطَّعنَ في الرَّسولِ المُنذِرِ، فقِيل: قُلْ لهم: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآيةَ؛ فدلَّ على أنَّ ذلك الطَّعنَ هو أنَّهم اقْتَرَحوا عليه الآياتِ، وكانوا يَسْأَلونَه عمَّا لم يُوحَ إليه مِن الغُيوبِ، ويُؤيِّدُ هذا أنْ فُصِلَتْ الآيةُ بقَولِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ

(١) ردَّ بهذه الآيةِ تقيُّ الدِّينِ السُّبْكيُّ على ابنِ أبي الدَّم. يُنظر: ((قضاء الأرب في أسئلة حلب)) للسبكي (ص: ٤٧٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٨١).

﴿مُّبِينٌ﴾؛ لأنَّه مُطابقٌ لِقَولِه: ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾(١).

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ تَتْميمٌ لقَولِه: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، وهو بمَنزلةِ الاعْتِراضِ؛ فإنَّ المُشركين كانوا يَسْألونَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن مُغيَّباتٍ؛ اسْتِهزاءً؛ فأمَرَ اللهُ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُعلِمَهم بأنَّه لا يَدْري ما يُفعَلُ به ولا بهم، أي: في الدُّنيا -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ ولذلك كان قولُه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ اسْتِئنافًا بيانيًّا، وإتْمامًا لِمَا في قَولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾؛ بأنَّ قُصارَى ما يَدْرِيه هو اتِّباعُ ما يُعلِمُه اللهُ به؛ فهو تَخصيصٌ لِعُمومِه، ومِثلُ عِلْمِه بأنَّه رَسولٌ مِن اللهِ، وأنَّ المُشرِكين في النَّارِ، وأنَّ وَراءَ الموتِ بَعْثًا(٢).

- ووَجْهُ عَطْفِ ﴿وَلَا بِكُمۡۖ﴾ على ﴿بِي﴾ بإقحامِ (لا) النَّافيةِ، معَ أنَّهما مُتعلِّقانِ بفِعلِ صِلةِ (ما) المَوصولةِ، وليس في الصِّلةِ نَفْيٌ، فلماذا لمْ يُقلْ: ما يُفعَلُ بي وبِكُم؛ لأنَّ المَوصولَ وصِلَتَه لَمَّا وقَعَا مَفعولًا لِلْمنفيِّ في قَولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرِي﴾، تَناوَلَ النَّفيُ ما هو في حَيِّزِ ذلك الفِعلِ المَنْفيِّ، فصار النَّفيُ شاملًا لِلْجميعِ؛ فحسُنَ إدْخالُ حَرْفِ النَّفيِ على المَعطوفِ، كما حسُنَ دُخولُ الباءِ الَّتي شأْنُها أنْ تُزادَ فيُجرَّ بها الاسمُ المَنْفيُّ المعطوفُ على اسمِ (إنَّ)، وهو مُثبَتٌ في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣]؛ لِوُقوعِ (أنَّ) العامِلةِ فيه في خَبرِ النَّفيِ، وهو ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾(٣). وقيل: لأنَّ التَّقديرَ: ما أدري ما يُفعَلُ بي،

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٧، ١٨).

وما أدري ما يُفعَلُ بكم[١].

- قولُه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أيْ: ما أفْعَلُ إلَّا اتِّباعَ ما يُوحى إلَيَّ، على مَعْنى قَصْرِ أفْعالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على اتِّباعِ الوَحْيِ، لا قَصْرِ اتِّباعِه على الوحْيِ، كما هو المُتسارِعُ إلى الأفْهامِ[٢].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ على جُملةِ ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾؛ لأنَّه الغرَضُ المَسوقُ له الكلامُ، بخِلافِ قولِه: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾، والمعنى: وما أنا إلَّا نذيرٌ مُبينٌ لا مُفترٍ؛ فالقصْرُ قَصرٌ إضافيٌّ، وهو قصْرُ قَلْبٍ[٣]؛ لِرَدِّ قولِهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ...﴾ أُعِيدَ الأمْرُ بأنْ يَقولَ لهم حُجَّةً أُخرى؛ لعلَّها تَرُدُّهم إلى الحقِّ بعْدَ ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٤] الآيةَ، وقولِه: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الأحقاف: ٨] وقولِه: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] الآيةَ. وهذا اسْتِدراجٌ لهم لِلْوصولِ إلى الحقِّ في دَرَجاتِ النَّظرِ؛ فقدْ بادَأَهم بأنَّ ما أحالُوه مِن أنْ يكونَ رَسولًا مِن عِندِ اللهِ ليس بمُحالٍ؛ إذ لمْ يكُنْ أوَّلَ النَّاسِ جاء برِسالةٍ مِن اللهِ، ثمَّ أعْقَبَه بأنَّ القُرآنَ إذا فَرَضْنا أنَّه مِن عِندِ اللهِ، وقدْ كَفَرْتُم بذلك؛ كيف يكونُ حالُكم عِندَ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٠).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨).

تعالَى؟ وأَقْحِمَ في هذا أنَّه لو شَهِدَ شاهدٌ مِن أهْلِ الكِتابِ بوُقوعِ الرِّسالاتِ، ونُزولِ الكُتبِ على الرُّسلِ، وآمَنَ برِسالتي -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ كيف يكونُ انْحِطاطُكم عن دَرَجتِه وقدْ جاءَكم كِتابٌ فأعرَضْتُم عنه؟ فهذا كقولِه: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، وهذا تَحْريكٌ لِلهِمَمِ(١).

- والاسْتِفهامُ في ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ تَقريريٌّ للتَّوبيخِ، ومَفعولا ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ مَحذوفانِ، والتَّقديرُ: أرأَيْتُم أنفُسَكم ظالِمينَ(٢).

- وجِيءَ في الشَّرطِ ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ بحَرْفِ (إنْ) الَّذي شأْنُه أنْ يكونَ في الشَّرطِ غيرِ المَجزومِ بوُقوعِه؛ مُجاراةً لِحالِ المُخاطَبينَ؛ اسْتِنزالًا لِطائرِ جِماحِهم؛ لِيَنزِلوا لِلتَّأمُّلِ والمُحاوَرةِ(٣). وفيه مَعنى الاسْتِدراجِ والكلامِ المُنصِفِ؛ لأنَّ كَونَ القُرآنِ مِن عِندِ اللهِ مُتيقَّنٌ مُحقَّقٌ(٤).

- وأيضًا جَوابُ هذا الشَّرْطِ ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مَحذوفٌ؛ دلَّ عليه سِياقُ الجَدَلِ، تَقديرُه: أفتَرَونَ أنفُسَكم في ضَلالٍ؟ أو مَنْ أضَلُّ منكم؟ أو أَلَسْتُم ظالِمينَ؟ ويدُلُّ على هذا المَحذوفِ قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فإنَّ عدَمَ الهِدايةِ ممَّا يُنبِئُ عن الضَّلالِ قَطْعًا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨، ١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي =

- وقولُه: ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ حالٌ بإضْمارِ (قَدْ) مِن الضَّميرِ في الخبرِ، وُسِّطتْ بيْنَ أجْزاءِ الشَّرْطِ؛ مُسارَعةً إلى التَّسجيلِ عليهم بالكُفْرِ. أو عطْفٌ على (كانَ)، كما في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [فصلت: ٥٢]، لكنْ لا على أنَّ نَظْمَه في سلْكِ الشَّرْطِ المُتردِّدِ بيْنَ الوُقوعِ وعَدَمِه عِندَهُم باعْتِبارِ حالِه في نفْسِه، بلْ باعتِبارِ حالِ المَعطوفِ عليه عندَهم؛ فإنَّ كُفْرَهم به أمْرٌ مُحقَّقٌ عِندَهم أيضًا، وإنَّما تردُّدُهم في أنَّ ذلكَ كُفْرٌ بَما مِن عِندِ اللهِ تعالى أمْ لا، وكذا الحالُ في قولِه تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وما بعدَه مِن الفِعْلَينِ؛ فإنَّ الكُلَّ أُمورٌ مُحقَّقةٌ عندَهُم، وإنَّما تَردُّدُهم في أنَّها شَهادةٌ وإيمانٌ بما مِن عِندِ اللهِ تعالى واسْتِكبارٌ عنه أوْ لا، والمعنى: أخْبِروني إنْ كان ذلك في الحقيقةِ مِن عِندِ اللهِ وكَفَرْتُم به، وشَهِدَ شاهِدٌ عَظيمُ الشَّأنِ مِنْ بني إسْرائيلَ الواقِفينَ على شُؤونِ اللهِ تعالى، وأسْرارِ الوحْيِ بما أُوتُوا مِن التَّوراةِ[1].

- قولُه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ يَجوزُ أنْ يُحمَلَ المِثلُ على أنَّه كِنايةٌ عمَّا أُضِيفَ إليه لَفظُ (مِثل)؛ فيَكونَ لَفظُ (مِثْل) بمَنزِلةِ المُقحَمِ على طَريقةِ قَولِ العرَبِ: (مِثْلُك لا يَبخَلُ)؛ فالمعنَى: وشَهِدَ شاهدٌ على صِدْقِ القُرآنِ فيما حواهُ[2].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَـَٔامَنَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه سارَعَ إلى الإيمانِ بالقُرآنِ لَمَّا

= السعود)) (٨/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠).

عَلِمَ أنَّه مِن جِنْسِ الوحْيِ النَّاطقِ بالحقِّ(١).

- وجُعِل الإيمانُ في قَولِه: ﴿فَـَٔامَنَ﴾ مُسبَّبًا عن الشَّهادةِ على مِثْلِه؛ لأنَّه لَمَّا عَلِمَ أنَّ مِثلَه أُنزِلَ على مُوسَى صَلواتُ اللهِ عليه، وأنَّه مِن جِنسِ الوحْيِ، وليس مِن كَلامِ البشَرِ، وأنصَفَ مِن نفْسِه، فشَهِدَ عليه واعْترَفَ؛ كان الإيمانُ نتيجةَ ذلك(٢).

- وقد حَسُنَ عطْفُ قَولِه: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ على (آمَنَ)، وتَرْتيبُهما بالفاءِ معًا على المَذكورِ؛ لِيَكونَ إيمانُه واسْتِكبارُهم صادِرَينِ عن أمْرٍ واحدٍ؛ وهو عِرْفانُهم أنَّ القُرآنَ حقٌّ وصِدْقٌ وصَوابٌ، وأنَّه مُعجِزةٌ مِن اللهِ، وأنَّ عبْدَ اللهِ بنَ سلَامٍ أنصَفَ فآمَنَ -وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ-، وأنَّ المُشرِكين عانَدوا فكَفَروا(٣).

- والآيةُ من الاحتِباكِ(٤): ذَكَر الإيمانَ أوَّلًا؛ دَليلًا على ضِدِّه ثانيًا، والاستِكبارَ والظُّلْمَ وعَدَمَ الهِدايةِ ثانيًا؛ دَليلًا على أضْدادِها أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذَكَرَ سَبَبَيِ السَّعادةِ؛ تَرغيبًا وتَرهيبًا(٥).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ تَذْييلٌ لِجُملةِ جَوابِ الشَّرْطِ المُقدَّرةِ، وهي تَعليلٌ أيضًا، والمعنى: أتظُنُّونَ إنْ تَبيَّنَ أنَّ القُرآنَ وَحْيٌ مِن اللهِ، وقد كَفَرْتُم بذلك، فشَهِدَ شاهِدٌ على حقِّيَّةِ ذلك؛ تُوقِنوا أنَّ اللهَ لم يَهْدِكم؛ لأنَّكم ظالِمون، وإنَّ اللهَ لا يَهْدي الظَّالِمينَ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧٨).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٤٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩).

- وقدْ وقَعَ قَولُه: ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في مَحَزِّه -أي: مَوضِعِه المُناسِبِ-؛ لأنَّه مِن وضْعِ العامِّ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ لِلإيذانِ بأنَّهم وَضَعوا الاسْتِكبارَ مَوضِعَ الإذعانِ للحقِّ بعْدَ وُضوحِ البيِّناتِ[1].

- وفي قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ...﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في سُورةِ (فُصِّلت): ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فُصِّلت: ٥٢]؛ فزادَ هنا فيها قولَه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ فإنَّ المُشرِكينَ كانتْ لهم مُخالَطةٌ مع بَعضِ اليَهودِ في مكَّةَ، ولهمْ صِلةٌ بكَثيرٍ منهم في التِّجارةِ بالمدينةِ وخَيبَرَ، فلمَّا ظَهَرتْ دَعوةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم كانوا يَسْألون مَن لَقُوه مِن اليهودِ عن أمْرِ الأدْيانِ والرُّسلِ، فكان اليهودُ لا مَحالةَ يُخبِرون المُشرِكين ببَعضِ الأخبارِ عن رِسالةِ مُوسى وكِتابِه، وكيف أظْهَرَه اللهُ على فِرعونَ؛ فاليَهودُ وإنْ كانوا لا يُقِرُّون برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فهمْ يَتحدَّثون عن رِسالةِ مُوسى عليه السَّلامُ بما هو مُماثِلٌ لِحالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مع قَومِه، وفيه ما يَكْفي لِدَفْعِ إنْكارِهم رِسالتَه[2].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩).

الآيتان (١١-١٢)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ١١ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةًۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ١٢﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿إِفْكٌ﴾: أي: كَذِبٌ وبُهتانٌ، وقيل: الإفْكُ أسوأُ الكذبِ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[1].

﴿إِمَامًا﴾: أي: يأتَمُّون به ويَقتَدون ويَهتَدُون، والإمامُ: كلُّ ما ائْتَمَمْتَ به؛ إنسانًا أو كتابًا أو غيرَ ذلك، مُحِقًّا كان أو مُبطِلًا، وجمْعُه: أئِمَّةٌ، وأصلُ (أمم): الأصلُ، والمرجِعُ، والجماعةُ، والدِّينُ[2].

﴿وَبُشْرَىٰ﴾: البُشرَى والبِشارةُ: الإخبارُ بما يَسُرُّ، وأصلُ (بشر): ظهورُ الشَّيءِ معَ حُسنٍ وجمالٍ[3].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣، ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٨، ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩١، ٩٣).
وقيل: البِشارةُ: اسمٌ لِخَبَرٍ يُغيِّرُ بَشَرةِ الوجهِ مُطْلَقًا، سارًّا كان أو مُحزِنًا، إلَّا أنَّه غلَب استعِمالُها في الأوَّلِ. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣٩).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾

(هَذَا): اسمُ إشارةٍ، في محَلِّ رَفعٍ مُبتدَأٌ. والمشارُ إليه: القرآنُ. ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبَرُ المبتدأِ مَرفوعٌ. ﴿مُّصَدِّقٌ﴾: نَعتٌ مَرفوعٌ، ومُتعَلَّقُه محذوفٌ، يعني: مُصَدِّقٌ للتَّوراةِ ولِما قبْلَه مِن الكُتُبِ.

﴿لِّسَانًا﴾: في نَصبِه أوجُهٌ:

أحَدُها: أنَّه حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أي: مَلفوظًا به على لسانِ العربِ؛ لِكَونِ القَومِ عربًا.

الثَّاني: أنَّه حالٌ مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾؛ لِتخَصُّصِه بالوَصفِ. و﴿عَرَبِيًّا﴾: صِفةٌ لـ ﴿لِّسَانًا﴾، وهو المُسوِّغُ لوُقوعِ الجامِدِ ﴿لِّسَانًا﴾ حالًا.

الثَّالثُ: أنَّ ﴿عَرَبِيًّا﴾ هو الحالُ، و ﴿لِّسَانًا﴾ تَوطِئةٌ للحالِ ذُكِرَت توكيدًا. والمعنى: مُصَدِّقٌ لِما بيْنَ يَدَيه عَرَبيًّا.

الرَّابعُ: أنَّ ﴿لِّسَانًا﴾ مَفعولٌ به لاسمِ الفاعِلِ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، والمرادُ به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، على نيَّةِ حَذفِ مُضافٍ، أي: مُصَدِّقٌ ذا لسانٍ عَربيٍّ، أي: وهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

قَوْله: ﴿وَبُشْرَىٰ﴾: مَعطوفٌ على ﴿كِتَٰبٌ﴾ أو ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ مَرفوعٌ. بمعنى: وهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ وبُشرى للمُحسِنينَ، أو خبَرٌ لِمُبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه (هو). ويجوزُ أن يكونَ مَنصوبًا عَطفًا على محَلِّ ﴿لِّيُنذِرَ﴾؛ لأنَّه مفعولٌ لأجْلِه، تقديرُه: للإنذارِ وللبُشرَى. أو هو مَنصوبٌ على المَصدَرِ، على معنى: لِيُنذِرَ الَّذين ظَلَموا

ويُبَشِّرَ المُحسِنينَ بُشرَى[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى بعضَ شبهاتِ المشركينَ وأعذارِهم الواهيةِ في عدَمِ الإيمانِ، فيقولُ: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ عن المُؤمِنينَ: لو كان هذا القُرآنُ خَيرًا ما سبَقَنا إلى الإيمانِ به واتِّباعِه هؤلاءِ الفُقَراءُ المُستَضعَفونَ، ولَسَبَقْناهم إليه؛ فنحن أشرَفُ منهم! وإذ لم يَهتدِ المُشرِكونَ بالقُرآنِ فسيَقولونَ: هذا القُرآنُ كَذِبٌ مِن أخبارِ الأقدَمينَ!

ثمَّ يُثْني اللهُ تعالى على القرآنِ، ويُبيِّنُ تصديقَه للتَّوراةِ، فيقولُ: ومِن قَبْلِ هذا القُرآنِ التَّوراةُ الَّتي أُنزِلَت على موسى إمامًا لبني إسرائيلَ يأتَمُّونَ بما فيها، ورحمةً لهم، وهذا القُرآنُ كِتابٌ مُصَدِّقٌ للتَّوراةِ باللُّغةِ العَربيَّةِ على نحوٍ واضِحٍ فَصيحٍ؛ لِيُخوِّفَ القُرآنُ الَّذين ظَلَموا بشِركِهم أو عِصيانِهم، وهو بُشْرى بالخَيرِ في الدُّنيا والآخِرةِ للمُحسِنينَ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذه شُبهةٌ أُخرى لِلقَومِ في إنكارِ نُبوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢]،

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٥١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤١)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٦٥)، ((روح البيان)) لإسماعيل حقي (٨/ ٤٧١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢).

وحِكايةُ خَطإٍ آخَرَ مِن أخْطاءِ حُجَجِ المُشرِكين الباطِلةِ، وهو خَطأٌ مَنْشَؤهُ الإعجابُ بأنفُسِهم، وغُرورُهم بدينِهم؛ فاستدَلُّوا على أنْ لا خَيرَ في الإسلامِ بأنَّ الَّذينَ ابتَدَروا الأخذَ به ضُعفاءُ القَومِ، وهم يَعُدُّونَهم مُنحَطِّينَ عنهم، فهُمُ الَّذين قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]! ومُناسَبتُه لِمَا قبْلَه: أنَّه مِن آثارِ اسْتِكبارِهم؛ فناسَبَ قولَه: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾[1] [الأحقاف: ١٠].

وأيضًا لَمَّا دَلَّ على أنَّ تَرْكَهم للإيمانِ إنَّما هو تَعمُّدٌ للظُّلمِ؛ استِكبارًا، عَطَف على قَولِهم: إنَّه سِحْرٌ. ما دَلَّ على الاستِكبارِ، فقال تعالى[2]:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ عن المُؤمِنينَ بالقُرآنِ: لو كان هذا القُرآنُ خَيرًا ما سبَقَنا إلى الإيمانِ به واتِّباعِه هؤلاء المُستَضعَفونَ الفُقَراءُ الأذِلَّاءُ، ولَبادَرْنا إليه قَبْلَهم؛ فنحن أشرَفُ منهم وأعَزُّ، وأكثَرُ أموالًا وأولادًا[3]!

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣].

﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾.

أي: وحينَ لا يَهتدي المُشرِكونَ بالقُرآنِ فإنَّهم سيَقولونَ: هذا القُرآنُ الَّذي جاء به محمَّدٌ كَذِبٌ مِن أخبارِ الأقدَمينَ[4]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٩، ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١، ٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٠)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: ٥].

﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ القَومَ طَعَنوا في صِحَّةِ القُرآنِ، وقالوا: لو كان خَيرًا ما سبَقَنا إليه هؤلاء! وكأنَّه تعالى قال: الَّذي يدُلُّ على صِحَّةِ القُرآنِ أنَّكم لا تُنازِعونَ في أنَّ اللهَ تعالى أنزَلَ التَّوراةَ على موسى عليه السَّلامُ، وجَعَل هذا الكِتابَ إمامًا يُقتدَى به، ثمَّ إنَّ التَّوراةَ مُشتَمِلةٌ على البِشارةِ بمَقْدَمِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فإذا سَلَّمتُم كَونَ التَّوراةِ إمامًا يُقتدَى به، فاقبَلوا حُكْمَه في كَونِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم حَقًّا مِنَ اللهِ تعالى[(١)].

﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ﴾.

أي: ومِن قَبْلِ هذا القُرآنِ التَّوراةُ الَّتي أُنزِلَت على موسى إمامًا لبني إسرائيلَ يأتَمُّونَ بما فيها، ورحمةً لهم في الدُّنيا والآخِرةِ إنِ اتَّبَعوها[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ

= كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

قال القرطبي: (في الكلامِ حَذفٌ، أي: فلم تَهتَدوا به؛ وذلك أنَّه كان في التَّوراةِ نَعتُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والإيمانُ به، فتركوا ذلك). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩١).

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[هود: ١٧، ١٨].

﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾.

أي: وهذا القُرآنُ مُصَدِّقٌ للتَّوراةِ ولِكُتبِ اللهِ السَّابقةِ، حالَ كَونِه لسانًا عربيًّا فَصيحًا واضحًا(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أي: للكُتُبِ الَّتي قَبْلَه: البغويُّ، والقرطبي، وابنُ جُزَي، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

قال السعدي: (﴿كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ﴾ للكُتُبِ السَّابِقةِ؛ شَهِدَ بصِدقِها، وصَدَّقَها بمُوافَقتِه لها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أي: لكِتابِ موسى؛ التَّوراةِ، واقتصر عليها: ابنُ جرير، والسمعاني، وابن عطية، والرازي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٤، ١٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣).

قال ابن عطية: (﴿مُّصَدِّقٌ﴾ معناه: للتَّوراةِ الَّتي تضَمَّنَت خبَرَه وأمْرَ مُحمَّدٍ، فجاء هو مُصَدِّقًا لذلك الإخبارِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٥).

وقال ابنُ جرير: (على قَولِ مَن جَعَل اللِّسانَ نَصبًا على الحالِ، وجعَلَه مِن صِفةِ الكِتابِ: يَنبغي أن يكونَ تأويلُ الكلامِ: وهذا كِتابٌ بلِسانٍ عَربيٍّ مُصَدِّقٌ التَّوراةَ كِتابَ موسى بأنَّ مُحمَّدًا لله رَسولٌ، وأنَّ ما جاء به مِن عندِ اللهِ حَقٌّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٤).

وقال ابنُ جُزَي: (وقيل: ﴿لِّسَانًا﴾ مفعولٌ بـ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أي: صَدَّق ذا لِسانٍ عَربيٍّ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. واختار هذا ابنُ عطيَّةَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٦). =

كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

أي: لِيُخوِّفَ القُرآنُ الظالِمينَ، ويُحذِّرَهم مِن عذابِ اللهِ إنِ استمَرُّوا على ظُلمِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ [الكهف: ٢].

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾.

أي: وهذا القُرآنُ بُشرَى بالخَيرِ في الدُّنيا والآخِرةِ للَّذين أحسَنوا في إيمانِهم

= قال ابن عطية: (فكان القُرآنُ بإعجازِه وأحوالِه البارِعةِ يُصَدِّقُ الَّذي جاء به. وهذا قَولٌ صَحيحُ المعنى جيِّدٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥، ٢٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالَّذين ظَلَموا: المُشرِكونَ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والبغويُّ، وابنُ كثير، والعُلَيمي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٨٦).

قال ابنُ عاشور: (و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ هم المُشرِكونَ؛ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، ويَلحَقُ بهم الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم مِنَ المؤمِنينَ؛ ولذلك قُوبِلَ بالمُحسِنينَ، وهم المُؤمِنونَ الأتقياءُ؛ لأنَّ المرادَ ظُلْمُ النَّفْسِ، ويُقابِلُه الإحسانُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦).

وقال السعدي: (﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفُسَهم بالكُفرِ والفُسُوقِ والعِصيانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

وطاعتِهم لله[١].

كما قال الله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] أي: قالوا عن المؤمِنينَ بالقُرآنِ: لو كان القُرآنُ خيرًا ما سبَقَنا هؤلاء إليه -يَعْنُونَ: بِلالًا وعَمَّارًا، وصُهَيبًا وخَبَّابًا، وأشباهَهم وأقرانَهم مِنَ المُستَضعَفينَ والعَبيدِ والإماءِ-[٢]؛ فمِن عاداتِ أهلِ الجاهليَّةِ: الاستِدلالُ على بُطلانِ الشَّيءِ بسَبْقِ الضُّعَفاءِ إليه! كما قال اللهُ عن المُشرِكينَ: إنَّهم يقولونَ: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، وهذا مِن أبطَلِ الباطِلِ؛ لأنَّ الحَقَّ ليس اتِّباعُه مَوقوفًا على طَبَقةٍ مِنَ النَّاسِ، بل اتِّباعُ الحَقِّ مِنَّةٌ يَمُنُّ اللهُ بها على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه ويُوَفِّقُه لها، فالاستِدلالُ على الشَّيءِ بأنَّه حَقٌّ باتِّباعِ الأغنياءِ له أو ذَوِي الجاهِ، والاستِدلالُ على أنَّه باطِلٌ باتِّباعِ الضُّعَفاءِ: هذا مِعيارُ أهلِ الجاهِليَّةِ، لا يجوزُ أن يُتَّخَذَ مِيزانًا يُوزَنُ به مَعرِفةُ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ؛ ولهذا يقولُ العُلَماءُ: الحَقُّ لا يُعرَفُ بالرِّجالِ، وإنَّما يُعرَفُ الرِّجالُ بالحَقِّ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾، فيَنبغي للإنسانِ الدَّاعي إلى اللهِ تعالى أن يُعامِلَ النَّاسَ بما تُعامِلُ به الرُّسُلُ أقوامَها؛ فتارةً يُبَشِّرُ، وتارةً يُنذِرُ؛ لأنَّه إنْ سَلَك سبيلَ البِشارةِ دائِمًا أدخَلَ النَّاسَ في الإرجاءِ، وإنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((شرح مسائل الجاهلية)) لصالح الفوزان (ص: ١١١).

سَلَك سبيلَ الإنذارِ دائِمًا أدخَلَ النَّاسَ في القُنوطِ واليَأسِ[١].

٣- قِيل: ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ دُونَ (الَّذين أحْسَنوا)، بعْدَ قَولِه: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي: لِيُنذِرَ الَّذين وُجِدَ منهم الظُّلمُ، ويُبشِّرَ الَّذين ثَبَتوا واسْتَقاموا على الإحسانِ والإخلاصِ، إعلامًا بأنَّ الإنسانَ مُفتقِرٌ إلى ما يُهذِّبُ به نفْسَه ويُقوِّمُ أوَدَه -أي: عِوَجَه- كلَّ الافتقارِ؛ لأنَّ الاستقامةَ على الصِّراطِ السَّويِّ لا تُوجَدُ إلَّا في الأفرادِ؛ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ومِن ثَمَّ عَلَّلَ بِشارةَ المُحسنينَ بقولِه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾[٢] [الأحقاف: ١٣، ١٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قد نَبَّهَ اللهُ سُبحانَه على أنَّ مَزاعِمَ المشركينَ كلَّها ناشِئةٌ عن كُفْرِهم واسْتِكبارِهم بقَولِه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقَولِه: ﴿وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقَولِه: ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقَولِه: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ الآيةَ. وإذ قد كانتْ مَقالاتُهم راميةً إلى غَرَضٍ واحِدٍ -وهو تَكذيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- كان تَوزيعُ أسْبابِها على مُختلِفِ المَقالاتِ مُشْعِرًا بأنَّ جَميعَها أسبابٌ لِجَميعِها[٣].

٢- قال تعالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، وأمَّا أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ فيَقولونَ في كُلِّ فِعلٍ وقَولٍ لم يَثبُت عن الصَّحابةِ: هو بِدعةٌ؛ لأنَّه لو كان خيرًا لَسَبَقونا إليه؛ لأنَّهم لم يَترُكوا خَصلةً مِن خِصالِ الخَيرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢).

إلَّا وقد بادَروا إليها[١].

٣- في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ تَنْبيهٌ منه سُبحانَه لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تَماديهم في العِنادِ، وإقناطٌ له عن إيمانِهم، وتَسْليةٌ عن طَعْنِهم، وأنَّهم حِينَ لم يَهْتَدوا بهذا الكلامِ المُنصِفِ ظَهَرَ عِنادُهم، فأعْلَمَ أنَّهم لا يَهْتَدون بعْدَ ذلك أبدًا، ويَستمِرُّ منْهم حِينًا بعْدَ حِينِ الطَّعنُ في القُرآنِ؛ فتارةً يقولونَ: أساطيرُ الأوَّلينَ، وأُخرى: إنَّه سِحرٌ مُبينٌ، وإفكٌ قَديمٌ، وأمْثالُ ذلك[٢].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ إبْطالٌ لِإحالتِهم أنْ يُوحِيَ اللهُ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بأنَّ الوحْيَ سُنَّةٌ إلهيَّةٌ سابقةٌ مَعلومةٌ، أشْهَرُه كِتابُ مُوسى، أي: التَّوراةُ، وهمْ قد بَلَغَتْهم نُبوَّتُه مِن اليَهودِ[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ هذا ثَناءٌ عَظيمٌ على القُرآنِ بأنَّه احتوَى على كُلِّ ما في الكُتُبِ السَّماويَّةِ، وجاء مُغْنيًا عنها، ومُبيِّنًا لِما فيها، والتَّصديقُ يُشعِرُ بأنَّه حاكِمٌ على ما اختُلِفَ فيه منها[٤].

٦- قال تعالى: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ فزادَ اللهُ القُرآنَ ثَناءً بكَونِه لِسانًا عَرَبيًّا، أي: لُغةً عَربيَّةً؛ فإنَّها أفصَحُ اللُّغاتِ، وأنفَذُها في نُفوسِ السَّامِعينَ، وأحَبُّ اللُّغاتِ لِلنَّاسِ؛ فإنَّها أشرَفُ وأبلَغُ وأفصَحُ مِن اللُّغةِ الَّتي جاء بها كِتابُ مُوسى عليه السَّلامُ، ومِن اللُّغةِ الَّتي تَكلَّمَ بها عِيسى عليه السَّلامُ ودَوَّنَها أتْباعُه أصحابُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٥).

الأناجيلِ[١].

٧- قال الله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾، فلَمَّا عبَّرَ عن الكُفَّارِ بالَّذين ظَلَموا عبَّرَ عن المؤمِنينَ بالمُحسِنينَ؛ لِيُقابِلَ بلَفظِ الإحسانِ لَفظَ الظُّلمِ[٢].

٨- قال الله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ فالرِّسالاتُ منحصِرةٌ في شيئَينِ، لا ثالثَ لهما؛ وهما: البِشارةُ والإنذارُ؛ لأنَّ النَّاسَ يَنقسِمون بالنِّسبةِ للرِّسالاتِ إلى قِسمَينِ: مطيعٍ فله البِشارةُ، وعاصٍ فله الإنذارُ[٣].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠]، على مَعْنى: أخْبِروني إنِ اجْتَمَعَ كَونُ القُرآنِ مِن عِندِ اللهِ مع كُفْرِكُم به، واجتَمَعَ شَهادةُ أعلَمِ بني إسرائيلَ على نُزولِ مِثلِه، وإيمانُه به مع اسْتِكْبارِكم عنه وعنِ الإيمانِ به؛ ألَسْتُم ظالِمينَ[٤]؟

- واللَّامُ في قَولِه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لامُ التَّعليلِ مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ، هو حالٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، تَقديرُه: مُخصِّصينَ أو مُريدِين[٥].

- قولُه: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ العامِلُ في (إذ) مَحْذوفٌ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١).

لِدَلالةِ الكلامِ عليه، وتَقديرُه: وإذْ لم يَهْتَدوا به ظهَرَ عِنادُهم، فسَيَقولون: هذا إفكٌ قَديمٌ، وقولُه: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مُسبَّبٌ عن الجوابِ المَحذوفِ[(١)].

- ولَمَّا كانتْ (إذ) ظَرْفًا للزَّمنِ الماضي، وأُضِيفَت هنا إلى جُملةٍ واقِعةٍ في الزَّمنِ الماضي -كما يَقْتضيهِ النَّفْيُ بحَرْفِ (لَمْ)- تَعيَّنَ أنَّ الإخبارَ عنه بأنَّهم سَيَقولون: هذا إفْكٌ، أنَّهم يَقولونَه في المُستقبَلِ، وهو مُؤْذِنٌ بأنَّهم كانوا يَقولون ذلك فيما مضَى أيضًا؛ لأنَّ قولَهم ذلك مِن تَصاريفِ أقْوالِهم الضَّالَّةِ المَحْكيَّةِ عنهم في سُوَرٍ أُخرى نَزَلَتْ قبْلَ هذه السُّورةِ، فعُبِّرَ عن وُقوعِها ثُمَّ دَوامِها بصِيغةِ الاستِقبالِ ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾[(٢)].

- وحيثُ قُدِّمَ الظَّرفُ في الكلامِ على عامِلِه أُشرِبَ معنى الشَّرطِ، وهو إشرابٌ وارِدٌ في الكلامِ، وكثيرٌ في (إذ)؛ ولذلك دخَلَتِ الفاءُ في جَوابِه هنا في قَولِه: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ (إذ) للتَّعليلِ، وتَتعلَّقُ (إذ) بـ (يَقولون)، وإنَّما انتظَمَتِ الجُملةُ هكذا؛ لإفادةِ هذه الخُصوصيَّاتِ البَلاغيَّةِ؛ فالواوُ للعطْفِ، والمعطوفُ في مَعنى شَرْطٍ، والفاءُ لِجَوابِ الشَّرطِ، وأصْلُ الكَلامِ: وسَيَقولون: هذا إفكٌ قَديمٌ؛ إذْ لَمْ يَهْتَدُوا به[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أُتْبِعَ إبطالُ تُرَّهاتِهم الطَّاعنةِ في القُرآنِ بهذا الكلامِ المُفيدِ زِيادةَ الإبطالِ لِمَزاعِمِهم بالتَّذكيرِ بنَظيرِ القُرآنِ ومَثيلٍ له من كُتُبِ اللهِ تعالَى هو مَشْهورٌ عِندَهم، وهو التَّوراةُ، مع التَّنويهِ بالقُرآنِ ومَزيَّتِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣).

والنَّعْيِ عليهم؛ إذ حَرَموا أنفُسَهم الانتفاعَ بها؛ فعُطِفَت هذه الآيةُ على الَّتي قبْلَها لِارْتباطِها بها في إبْطالِ مَزاعِمِهم، وفي أنَّها ناظِرةٌ إلى قَولِه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾[1] [الأحقاف: ١٠].

- وتَقديمُ ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ﴾ لِلاهتِمامِ بهذا الخبَرِ؛ لأنَّه مَحلُّ القصْدِ مِن الجُملةِ[2].

- وعُبِّرَ عن التَّوراةِ بأنَّها ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ بطَريقِ الإضافةِ دُونَ الاسمِ العَلَمِ -وهو التَّوراةُ-؛ لِمَا تُؤذِنُ به الإضافةُ إلى اسمِ مُوسى مِن التَّذكيرِ بأنَّه كِتابٌ أُنزِلَ على بَشَرٍ، كما أُنزِلَ القُرآنُ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تَلْميحًا إلى مَثارِ نَتيجةِ قِياسِ القُرآنِ على كِتابِ مُوسى بالمُشابَهةِ في جَميعِ الأحوالِ[3].

- قولُه: ﴿إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗ﴾ الإمامُ: هو الشَّيءُ الَّذي يجعلُه العاملُ مِقياسًا لعَملِ شَيءٍ آخَرَ، ويُطلَقُ إطلاقًا شائعًا على القُدوةِ، وعُبِّرَ بالإمامِ عن كِتابِ مُوسى؛ لأنَّه يُرشِدُ إلى ما يجِبُ عَمَلُه؛ فهو كمَن يُرشِدُ ويَعِظُ، ومُوسى إمامٌ أيضًا بمَعنى القُدْوةِ[4].

- والرَّحمةُ: اسْمُ مَصدرٍ لِصِفةِ الرَّاحِمِ، ووَصْفُ الكِتابِ بالرَّحمةِ؛ لِكَونِه سَببًا في نفْعِ المُتَّبِعينَ؛ لِمَا تَضمَّنَه مِن أسبابِ الخَيرِ في الدُّنيا والآخرةِ. ووَصْفُ الكِتابِ بالمَصدرِ (رَحْمة) مُبالَغةٌ في التَّعبيرِ، ومُوسى أيضًا رَحمةٌ لرسالتِه، كما وُصِفَ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّه رَحمةٌ لِلعالَمينَ[5].

- وقولُه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ ...﴾ إلخ هو المَقيسُ على كِتابِ مُوسَى،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٤، ٢٥).

والإشارةُ إلى القُرآنِ؛ لأنَّه حاضِرٌ بالذِّكرِ، فهو كالحاضِرِ بالذَّاتِ[(١)].

- وأُطلِقَ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، ولم يَقُلْ: (مُصدِّقٌ له)، أي: لِكِتابِ مُوسَى، وحُذِفَ مَفعولُه؛ تَعْميمًا؛ لِيَشملَ جَميعَ الكُتُبِ السَّماويَّةِ، وإيذانًا بأنَّه مُصدِّقٌ لها كلِّها، ولا سيَّما نفْسِه؛ لِكَونِه مُعجِزًا نازِلًا بلِسانٍ عَربيٍّ مُبِينٍ، تُحُدِّيَ به العرَبُ العَرْباءُ، فأُفْحِموا، ومع ذلك أنَّه نَذيرٌ لِلَّذِين ظَلَموا، بَشيرٌ لِلمُحسِنينَ[(٢)].

- قولُه: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أُدمِجَ لَفظُ ﴿لِّسَانًا﴾؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ المُرادَ بعَربيَّته عَربيَّةُ ألْفاظِه لا عَربيَّةُ أخْلاقِه وتَعاليمِه؛ لأنَّ أخْلاقَ العرَبِ يومَئذٍ مُختلِطةٌ مِن مَحاسِنَ ومَساوِئَ، فلمَّا جاء الإسلامُ نَفى عنها المَساوِئَ[(٣)].

- وقولُه: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بـ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾؛ لأنَّ ما سَبَقه مُشتمِلٌ على الإنذارِ والبِشارةِ، والأحسَنُ أنْ يَتعلَّقَ بما في كِتاب مِن مَعنى الإرشادِ المُشتمِلِ على الإنذارِ والبِشارةِ؛ لِيَكونَ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ عِلَّةً لِلْكتابِ باعتبارِ صِفتِه وحالِه[(٤)].

- وعلى قِراءةِ ﴿لِتُنذِرَ﴾ بالمُثنَّاةِ الفوقيَّةِ[(٥)]، على أنَّه خطابٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيَحصُلُ وَصْفُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّه مُنذِرٌ، ووَصْفُ كِتابِه بأنَّه بُشْرَى، وفيه احْتِباكٌ[(٦)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٥، ٢٦).

(٥) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦).

وقد تقدَّم تعريفُ الاحتباكِ (ص: ٤٦).

- وفي قولِه: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ قيل: ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ولمْ يُقلْ: (لِلْعادلينَ) بعْدَ قولِه: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ لِيَكونَ ذَرِيعةً إلى البِشارةِ بقولِه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] لِمَن قال: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[1].

- قولُه: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ هذا النَّظْمُ يَجعَلُ الجُملةَ بِمَنزِلةِ الاحْتِراسِ[2] والتَّتْميمِ[3].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٤).

(٢) الاحتراسُ: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ، والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفَعُ ذلك الاحتمالَ. أو: الإتيانُ في كلامٍ يُوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه بعضُهم التَّكميلَ. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢٠٨)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ١٩٥)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦).

والتَّتميمُ: هو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِح مِن الكلامِ نقَص معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) للعصام (٢/ ٩٤)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ١٩٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٤٤)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٨).

الآيتان (١٣-١٤)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٤﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما أعدَّه لِمَنِ استقام مِنَ المؤمنينَ: إنَّ الَّذين قالوا: ربُّنا اللهُ، ثمَّ استقاموا بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه؛ فلا خَوفٌ عليهم ممَّا يَستَقبِلونَ، ولا هم يَحزَنونَ على ما مضى. أولئك هم أهلُ الجنَّةِ خالِدينَ فيها أبدًا؛ ثوابًا مِنَ اللهِ لهم بما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا مِن الصَّالِحاتِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا قرَّر دلائِلَ التَّوحيدِ والنُّبُوَّة، وذكَرَ شُبُهاتِ المُنكِرينَ وأجاب عنها؛ ذكَرَ بعدَ ذلك طَريقةَ المُحِقِّينَ والمُحَقِّقينَ[1].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى حالةَ المُحسِنينَ؛ شرَحَ أمْرَهم، فقال مُستأنِفًا في جوابِ مَن سأل عنهم، وعن بُشراهم[2]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾.

أي: إنَّ الَّذين قالوا: ربُّنا اللهُ وَحْدَه، ثمَّ استقاموا على توحيدِ اللهِ، وامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه، وداوَموا على طاعتِه مُدَّةَ حَياتِهم بما شَرَع بلا مَيلٍ ولا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٣).

اعوِجاجٍ، ولا إفراطٍ منهم ولا تَفريطٍ[١].

عن سُفْيانَ بنِ عبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحدًا بَعْدَك. قال: قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، فاستَقِمْ))[٢].

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: أولئك لا خَوفٌ عليهم مِن أيِّ شَرٍّ ومَكروهٍ في مُستَقبَلِ زَمانِهم[٣].

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: ولا هم يَحزَنونَ على ما مضَى[٤].

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)﴾.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: أولئك هم أهلُ الجنَّةِ الملازِمونَ لها، المُختَصُّونَ بها، يَمكُثونَ فيها أبدًا[٥].

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: ثوابًا مِنَ اللهِ لهم؛ بسَبَبِ ما كانوا يَعمَلونَه في الدُّنيا مِن الصَّالِحاتِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠، ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٢-٢٨٤).

(٢) رواه مسلم (٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ دالٌّ على أنَّ مَنْ آمَنَ باللهِ وعَمِل صالِحًا، فإنَّهم بعدَ الحَشرِ لا ينالُهم خَوفٌ ولا حُزنٌ[١].

٢- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تأمَّلْ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أتى بـ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالَّةِ على التَّرتيبِ بمُهلةٍ، يعني: أنَّ إيمانَهم لم يكنْ إيمانًا خاطِفًا؛ آمَنَ ثمَّ زال، بل إيمانٌ مُستَقِرٌّ؛ لأنَّهم استقاموا على دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أنَّ مُجرَّدَ العقيدةِ لا يُغْني شَيئًا حتَّى يكونَ معه عَمَلٌ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الأحسَنُ أنْ يُعبِّرَ النَّاسُ عن الرَّجُلِ المستقيمِ على الدِّينِ بـ«مُستَقيم»، لا بـ«مُلتَزِم»؛ لأنَّ هذا هو الَّذي جاء في القُرآنِ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، لم يَقُلْ: «ثمَّ التَزَموا»؛ فالتَّعبيرُ عن التَّديُّنِ بـ«مُستقيم» هو المطابِقُ للقرآنِ، وهو أحسَنُ مِن كلمةِ «المُلتَزِم»، على أنَّ المُلتَزِمَ عندَ الفُقهاءِ

= (ص: ٧٨١).

قال البيضاوي: (و﴿جَزَآءَۢ﴾ مصدرٌ لفعلٍ دلَّ عليه الكلامُ، أي: جُوزوا جزاءً). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧١).

له معنًى آخَرُ[١] غيرُ الاستِقامةِ على الدِّينِ، كما هو معروفٌ في أحكامِ أهلِ الذِّمَّةِ وغيرِ ذلك[٢].

٢- قَولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لا يَدخُلُ أحدٌ منكم الجنَّةَ بعمَلِه))[٣] لا يُناقِضُ قَولَه تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ فإنَّ المَنفيَّ نُفِيَ بباءِ المُقابَلةِ والمُعاوَضةِ، كما يُقالُ: بِعتُ هذا بهذا؛ وما أُثبِتَ أُثبِتَ بباءِ السَّبَبِ؛ فالعَمَلُ لا يُقابِلُ الجزاءَ، وإن كان سَبَبًا للجَزاءِ؛ ولهذا مَن ظَنَّ أنَّه قام بما يجِبُ عليه، وأنَّه لا يحتاجُ إلى مَغفِرةِ الرَّبِّ تعالى وعَفْوِه، فهو ضالٌّ، كما ثَبَت في الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: ((لن يُدخِلَ أحَدًا منكم عَمَلُه الجنَّةَ. قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟! قال: ولا أنا إلَّا أن يَتغَمَّدَنيَ اللهُ منه بفَضلٍ ورَحمةٍ))[٤]، وفي روايةٍ: ((بمغفرةٍ ورحمةٍ))[٥]. ومِن هذا أيضًا الحَديثُ الَّذي في السُّنَنِ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: ((لو أنَّ اللهَ عذَّب أهلَ سَمَواتِه وأهلَ أرضِه لَعَذَّبهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، ولو رَحِمَهم كانت رحمتُه خيرًا لهم مِن أعمالِهم)) الحديثَ[٦].

---

(١) قال الحَطَّابُ في بيانِ معنى الالتزامِ في عُرفِ الفُقهاءِ: (هو إلزامُ الشَّخصِ نفْسَه شيئًا مِن المعروفِ مُطلقًا أو مُعلَّقًا على شيءٍ بمعنى العطيَّةِ، وقد يُطلَقُ في العُرفِ على ما هو أخصُّ من ذلك). ((تحرير الكلام في مسائل الالتزام)) (ص: ٦٨).

وفي ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٦/ ١٥٢): (الملتزِمُ هو مَنِ التزَم بأمرٍ مِن الأمورِ؛ كتسليمِ شَيءٍ، أو أداءِ دَينٍ، أو القيامِ بعمَلٍ، والالتزاماتُ متنوِّعةٌ على ما هو معروفٌ).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨١٦)، وأحمدُ (٧٤٧٩) واللَّفظُ له، مِن حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨١٦) (٧٥) من حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم (٢٨١٦) (٧٣).

(٦) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (٧٧)، وأحمدُ (٢١٥٨٩) مِن حديثِ زَيدِ بنِ ثابتٍ رضيَ الله عنه.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٧٢٧)، وابنُ القيِّم في ((شفاء العليل)) (١/ ٣٤٣)، =

ومَن قال: بل للمَخلوقِ على اللهِ حَقٌّ، فهو صَحيحٌ إذا أراد به الحَقَّ الَّذي أخبَرَ اللهُ بوُقوعِه؛ فإنَّ اللهَ صادِقٌ لا يُخلِفُ الميعادَ، وهو الَّذي أوجَبَه على نَفْسِه، بحِكمتِه وفَضْلِه ورَحمتِه[١]!

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ اسْتِئنافٌ بَيانيٌّ أُوثِرَ بصَريحِه جانبُ المُؤمِنينَ من المُستمِعينَ لِلقُرآنِ؛ لأنَّهم لَمَّا سَمِعوا البُشْرى تَطلَّعوا إلى صِفةِ البُشْرى، وتَعْيينِ المُحسنينَ؛ لِيَضَعوا أنفُسَهم في حاقِّ مَواضِعِها، فأُجِيبوا بأنَّ البُشْرى هي نفْيُ الخَوفِ والحُزْنِ عنهم، وأنَّهم أصحابُ الجنَّةِ، وأنَّ المُحسنينَ همُ الَّذين قالوا: رَبُّنا اللهُ، ثمَّ اسْتَقاموا في أعمالِهم. وأُشيرَ بمَفْهومِه إلى التَّعريضِ بالَّذين ظَلَموا؛ فإنَّ فيه مَفهومَ القَصْرِ من قَولِه: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾[٢] [الأحقاف: ١٤].

- وتَعريفُ المُؤمنينَ بطَريقِ المَوصوليَّةِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾؛ لِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن تَعليلِ كَرامتِهم عِندَ اللهِ؛ لأنَّهم جَمَعوا حُسْنَ مُعامَلتِهم لِرَبِّهم بتَوحيدِه وخَوفِه وعِبادتِه -وهو ما دلَّ عليه ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾- إلى حُسْنِ مُعامَلتِهم أنفُسَهم، وهو معنَى ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[٣].

- وجِيءَ في صِلةِ المَوصولِ بفِعلِ ﴿قَالُوا﴾؛ لإيجازِ المَقولِ وغُنْيتِه عن أنْ يُقالَ: اعْتَرَفوا باللهِ وَحْدَه وأطاعوه، والمُرادُ: أنَّهم قالوا ذلك واعْتَقَدوا مَعناهُ -إذ

= والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٦٩٩)، وصحَّح إسنادَه الذَّهبيُّ في ((المهذب)) (٨/ ٤٢١٢)، وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٦٩٩).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢١٧، ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الشَّأنُ في الكَلامِ الصِّدقُ- وعَمِلوا به؛ لأنَّ الشَّأْنَ مُطابَقةُ العمَلِ للاعْتِقادِ(١).

- قولُه: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: جَمَعوا بيْنَ التَّوحيدِ -الَّذي هو خُلاصةُ العِلمِ-، والاسْتِقامةِ في الأُمورِ الَّتي هي مُنْتهى العمَلِ، وحَرْفُ (ثُمَّ)؛ للدَّلالةِ على تَراخي رُتبةِ العَملِ، وتَوقُّفِ الاعتِدادِ به على التَّوحيدِ؛ فـ(ثُمَّ) هنا للتَّراخي الرُّتبيِّ، وهو الارتقاءُ والتَّدرُّجُ(٢).

- ودُخولُ الفاءِ على خَبرِ المَوصولِ -وهو ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾- لِمُعامَلةِ المَوصولِ مُعامَلةَ الشَّرْطِ، كأنَّه قِيل: إنْ قالوا ربُّنا اللهُ ثمَّ اسْتَقاموا فلا خَوفٌ عليهم، فأفادَ تَسبُّبَ ذلك في أَمْنِهم مِن الخَوفِ والحُزْنِ(٣).

- والمُرادُ بقَولِه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بَيانُ دَوامِ نَفْيِ الحُزْنِ، لا بَيانُ نَفْيِ دَوامِ الحُزْنِ كما يُوهِمُه كَونُ الخَبرِ مُضارِعًا(٤).

- وقولُه: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه تَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَلَا هُمْ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَحْزَنُونَ﴾؛ لِتَخصيصِ المُسنَدِ إليه بالخَبرِ، أي: إنَّ الحُزْنَ مُنْتفٍ عنهم لا عن غَيرِهم، والمُرادُ بالغَيرِ: مَن لم يَتَّصِفْ بالإيمانِ والاسْتِقامةِ في مَراتِبِ الكُفْرِ والعِصيانِ؛ فجِنْسُ الخَوفِ ثابتٌ لِمَن عَداهُم على مَراتبِ تَوقُّعِ العِقابِ، حتَّى في حالةِ الوَجَلِ مِن عَدَمِ قَبولِ الشَّفاعةِ فيهم، ومِن تَوقُّعِ حِرْمانِهم مِن نَفَحاتِ اللهِ تعالى(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

- اسْتِحضارُ المُؤمِنينَ بطَريقِ اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أحْرِياءُ بما يَرِدُ مِن الإخبارِ عنْهم بما بعْدَ الإشارةِ؛ مِن أجْلِ الأوصافِ المذْكورةِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[1].

- وقولُه: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أدَلُّ على الاختِصاصِ بالجنَّةِ مِن أنْ يُقالَ: أولئك في الجنَّةِ، أو أولئك لهمُ الجنَّةُ؛ لِمَا في (أصْحاب) مِن مَعنى الاختِصاصِ، وما في الإضافةِ أيضًا[2].

- وقولُه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ تَصريحٌ بما اسْتُفِيدَ مِن تَعليلِ الصِّلةِ في الخبَرِ، ومِن اقْتِضاءِ اسمِ الإشارةِ جَدارةَ المُؤمِنينَ بما بعْدَه، وما أفادَهُ وَصفُ (أصْحاب) وما أفادَتْه الإضافةُ، وهذا مِن تَمامِ العِنايةِ بالتَّنويهِ بهم[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (١٥-١٦)

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿كُرْهًا﴾: أي: مَشَقَّةً وتَعبًا، وأصلُ (كره): يدُلُّ على خِلافِ الرِّضا والمحبَّةِ[1].

﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾: أي: فِطامُه، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه؛ لانفِصالِ المولودِ عن الاغتِذاءِ بثَدْيِ أمِّه إلى غيرِه مِن الأقواتِ، ومنه سُمِّيَ الفَصِيلُ -ولَدُ النَّاقةِ- فَصِيلًا؛ لأنَّه مَفصُولٌ عن أمِّه[2].

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: أي: بلَغَ غايةَ شَبابِه وشِدَّتِه وقُوَّتِه، والأَشُدُّ قيل: هو جمعُ شَدٍّ، وقيل: جمعُ شِدَّةٍ، وقيل: هو جمْعٌ لا واحدَ له، وأصلُ (بلغ): يدُلُّ على الوُصولِ إلى شَيءٍ، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قُوَّةٍ في شَيءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥، ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١) و(٣/ ١٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٣).

﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾: أي: ألهِمْني، يُقالُ: أوزَعْتُه بكذا، أي: أغرَيْتُه به، وهو مُوزَعٌ بكذا، ومُولَعٌ بكذا، وأصلُ (أوزع): الدَّلالةُ على إزالةِ الوَزْعِ، أي: الانكِفافِ عن عَمَلٍ ما؛ فالهمزةُ فيه للإزالةِ[1].

﴿ذُرِّيَّتِيٓ﴾: الذُّرِّيَّةُ: الأولادُ وأولادُ الأولادِ، فهي اسمٌ يَجمعُ نَسلَ الإنسانِ مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، قيل: أصلُها مِن (ذرَأ)، أي: خلَق، وحُذِفت الهمزةُ منها، وقيل: أصلُها مِن (الذَّرِّ)، بمعنَى التَّفريقِ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾

في نَصبِ ﴿إِحۡسَٰنًا﴾ وُجوهٌ مِن الإعرابِ:

أحَدُها: أنَّه مَصدَرٌ مَنصوبٌ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ، أي: وصَّيْناه أن يُحسِنَ إليهما إحسانًا.

الثَّاني: أنَّه مَفعولٌ به ثانٍ، على تضمينِ (وَصَّيْنا) معنى (ألزَمْنا).

الثَّالثُ: أنَّه مَنصوبٌ على أنَّه مَفعولٌ لأجْلِه، أي: وصَّيْناه بهما إحسانًا مِنَّا إليهما.

الرَّابعُ: أنَّه مَنصوبٌ على المصدريَّةِ؛ لأنَّ معنى (وَصَّيْنَا): (أَحْسَنَّا)، وعلى الوَجهَينِ الثَّالثِ والرَّابعِ فالمفعولُ الثَّاني هو ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣، ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

الخامِسُ: أنَّه حالٌ، على تقديرِ حَذفِ مُضافٍ، أي: ووصَّيْنا الإنسانَ بوالِدَيه ذا إحسانٍ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾

قَولُه تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ مَصدَرٌ مُؤكِّدٌ لِمَضمونِ الجُملةِ السَّابقةِ، فهو مَفعولٌ مُطلَقٌ لِفِعلٍ محذوفٍ، تقديرُه: (وَعَدَ)؛ لأنَّ قولَه: ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾ وَعدٌ من اللهِ لهم بالتَّقَبُّلِ والتَّجاوُزِ، فوعْدُ الصِّدْقِ توكيدٌ لذلك، كأنَّه قال: وَعَدَهم اللهُ بذلك وَعدًا صِدقًا، وهو مِنْ إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه، أي: الوَعدَ الصِّدقَ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى بالإحسانِ إلى الوالدينِ، ويُبيِّنُ ما يَترتَّبُ عليه مِن ثوابٍ، فيقولُ: ووصَّيْنا الإنسانَ أن يُحسِنَ إلى والِدَيه إحسانًا؛ حمَلَتْه أُمُّه كارِهةً، ووضعَتْه كارِهةً؛ لِما تُعانيه في أثناءِ حَمْلِها ووَضْعِها من المَشاقِّ والآلامِ والمتاعبِ، ومُدَّةُ حَملِ الجَنينِ مع مُدَّةِ فِطامِه مِن الرَّضاعِ ثلاثونَ شَهرًا. حتَّى إذا بلغَ الوَلَدُ شِدَّةَ قُوَّتِه وكَمالَ عَقلِه، وبلَغ أربعينَ سَنةً؛ قال: رَبِّ ألهِمْني ووفِّقْني لِأن أشكُرَ نِعمَتَك الَّتي أنعَمْتَ بها علَيَّ وعلى والِدَيَّ، وأنْ أعمَلَ عَملًا صالِحًا تَقبَلُه مِنِّي، وأصلِحْ لي ذُرِّيَّتي، واهْدِهم للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، إنِّي تُبتُ إليك وإنِّي مِن المُسلِمينَ.

أولئك يَتقبَّلُ اللهُ عنهم أحسَنَ ما عَمِلوه في الدُّنيا، ويَصفَحُ عن سَيِّئاتِ أعمالِهم،

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٦٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٥٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٧٠).

وهم في أهلِ الجنَّةِ، وَعَدهم اللهُ بذلك وَعْدًا صِدْقًا لا يَتخلَّفُ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى في الآيةِ السابقةِ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ قال: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾؛ إذْ كانَ بِرُّ الوالدَيْنِ ثانيًا أفْضلَ الأعمالِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى في الآيةِ الأُولى التَّوحيدَ له، وإخلاصَ العِبادةِ، والاستِقامةَ إليه؛ عَطَف بالوَصيَّةِ بالوالِدَينِ، كما هو مَقرونٌ في غيرِ ما آيةٍ مِن القُرآنِ[٢].

وأيضًا بَيَّنَ هنا اختِلافَ حالِ الإنسانِ مع أبَوَيه؛ فقد يُطيعُهما وقد يُخالِفُهما، أي: فلا يَبعُدُ مِثلُ هذا في حَقِّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وقَومِه، حتَّى يستجيبَ له البَعضُ ويَكفُرَ البَعضُ؛ فهذا وجهُ اتِّصالِ الكلامِ بَعْضِه ببَعضٍ[٣].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾.

أي: وأَمَرْنا الإنسانَ وعَهِدْنا إليه عَهدًا أن يُحسِنَ إلى والِدَيه ويَبَرَّهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١). =

كما قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت: ٨].

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا ﴾.

أي: حمَلَتْه أُمُّه في بَطنِها فقاسَت في ذلك مَشَقَّةً شَديدةً جعَلَتْها كارِهةً لأحوالِ ذلك الحَملِ؛ مِنَ الثِّقَلِ، والغَثَيانِ، والضَّعفِ، وغَيرِ ذلك[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾.

أي: وتَضَعُ مَولودَها بآلامٍ شَديدةٍ ومَشَقَّةٍ عَظيمةٍ تَجعَلُها كارِهةً لِوَضعِه[(٢)].

﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾.

أي: ومُدَّةُ حَملِ الجَنينِ في بَطنِ أمِّه مع مُدَّةِ فِطامِه مِن الرَّضاعِ تَبلُغُ ثلاثينَ شَهرًا[(٣)].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾.

= قال ابنُ عطيَّة: (أي: هكذا مَضَت شرائعي وكُتُبي لأنبيائي؛ فهي وَصيَّةٌ مِن اللهِ في عبادِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٢، ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠).

قال السمعاني: (معناه: أنَّ أقَلَّ مُدَّةِ الحَملِ سِتَّةُ أشهُرٍ، ومُدَّةَ الفِصالِ سَنتانِ؛ فذلك ثلاثون شَهرًا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٣، ٢٢٤).

أي: حتَّى إذا بلغَ الوَلَدُ شِدَّةَ قُوَّتِه وكَمالَ عَقلِه، وذلك في سِنِّ الشَّبابِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١).

وفي معنى بُلوغِ الأشُدِّ أقوالٌ:

قيل: المرادُ: الاحتلامُ. وممَّن اختاره: ابنُ أبي زَمَنين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٢٦).

وقيل: المرادُ: بلوغُ ثمانيَ عَشْرةَ سنةً. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ جُبَير. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٧٦).

وقيل: المرادُ: بلوغُ سِنِّ الثَّالثةِ والثَّلاثينَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والواحدي، ونَسَبه الرَّازيُّ إلى جمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٩).

وقيل: المرادُ: بلوغُ سِتٍّ وثلاثينَ. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ عطيَّة، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٢١٦).

وقال الزمخشري: (بُلوغُ الأشُدِّ: أن يَكتَهِلَ ويَستوفيَ السِّنَّ الَّتي تَستحكِمُ فيها قُوَّتُه وعَقلُه وتَمييزُه، وذلك إذا أنافَ على الثَّلاثينَ وناطح الأربَعينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

وقيل: هو ما بيْنَ ثماني عَشْرةَ سنةً إلى أربعين سنةً. وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والبغويُّ، والخازنُ. ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٠).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٧٦، ٢٧٧).

وقال ابن القيِّم: (وقد أحكَمَ الأزهريُّ [تفسيرَ] اللَّفظةِ، فقال: بُلوغُ الأَشُدِّ يكونُ مِن وَقتِ بُلوغِ الإنسانِ مَبلَغَ الرِّجالِ الى أربعينَ سَنةً، قال: فبُلوغُ الأشُدِّ مَحصورُ الأوَّلِ، مَحصورُ النِّهايةِ، غيرُ مَحصورِ ما بيْنَ ذلك، فبُلوغُ الأشُدِّ مَرتَبةٌ بيْنَ البُلوغِ وبينَ الأربَعينَ). ((تحفة المودود)) (ص: ٣٠٠). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١١/ ١٨٢- ١٨٣).

وقال الجَصَّاصُ: (جائزٌ أن يكونَ المرادُ ببُلوغِ الأشُدِّ قبْلَ أربعينَ سَنةً وقبْلَ الاستِواءِ، وإذا =

﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

أي: وبلَغ أربعينَ سَنةً، فكَمَل حِينَها عَقلُه وقُوَّتُه، وتكامَلَت حُجَّةُ اللهِ عليه[1].

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾.

أي: قال: رَبِّ ألهِمْني ووفِّقْني لِأن أشكُرَ ما أنعَمْتَ به علَيَّ، وعلى أبي وأُمِّي[2].

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

أي: وألهِمْني ووَفِّقْني لِأنْ أعمَلَ عَملًا صالِحًا يُرضيك عنِّي، وتَقْبَلُه مِنِّي[3].

﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾.

أي: وأصلِحْ لي نَسْلي وعَقِبي بأنْ تَهديَهم للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وتُصلِحَ

= كان كذلك فالأشُدُّ ليس له مِقدارٌ مَعلومٌ في العادةِ لا يزيدُ عليه ولا يَنقُصُ منه، وقد يختَلِفُ أحوالُ النَّاسِ فيه؛ فيبلغُ بَعضُهم الأشُدَّ في مدَّةٍ لا يَبلُغُه غيرُه في مِثلِها؛ لأنَّه إن كان بُلوغُ الأشُدِّ هو اجتِماعَ الرَّأيِ واللُّبِّ بعدَ الحُلُم، فذلك مختَلِفٌ في العادةِ، وإن كان بُلوغُه اجتماعَ القُوى وكمالَ الجِسمِ فهو مختلِفٌ أيضًا، وكلُّ ما كان حُكمُه مَبنيًّا على العاداتِ فغيرُ مُمكِنٍ القَطعُ به على وَقتٍ لا يَتجاوَزُه ولا يَقصُرُ عنه، إلَّا بتوقيفٍ أو إجماعٍ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٢٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠).

قال البِقاعي: (﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فاجتَمَع أشُدُّه، وتمَّ حَزمُه وجِدُّه، وزالت عنه شِرَّةُ الشَّبابِ وطَيشُ الصِّبا ورُعونةُ الجَهلِ؛ ولذلك كان هذا السِّنُّ وقتَ بَعثةِ الأنبياءِ، وهو يُشعِرُ بأنَّ أوقاتَ الصِّبا أخَفُّ في المؤاخَذةِ مِمَّا بَعْدَها، وكذا ما بيْنَ أوَّلِ الأشُدِّ والأربَعينَ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١).

أحوالَهم[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ثلاثُ دَعَواتٍ مُستَجاباتٌ لا شَكَّ فيهنَّ: دعوةُ الوالِدِ، ودَعوةُ المُسافِرِ، ودَعوةُ المظلومِ))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إذا مات الإنسانُ انقَطَع عنه عَمَلُه إلَّا مِن ثلاثةٍ: إلَّا مِن صَدَقةٍ جاريةٍ، أو عِلمٍ يُنتَفَعُ به، أو ولَدٍ صالحٍ يَدعو له))[٣].

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

أي: إنِّي تُبتُ إليك مِن ذُنوبي السَّابِقةِ، ورَجعتُ إلى طاعتِك[٤].

﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

أي: وإنِّي مِن المُستَسلِمينَ لك بالتَّوحيدِ، المُنقادينَ لحُكمِك، الخاضِعينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣، ٣٤).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ يقولُ: وأصلِحْ لي أموري في ذُرِّيَّتي الَّذين وُهِبْتُهم، بأنْ تَجعَلَهم هُداةً للإيمانِ بك، واتِّباعِ مَرْضاتِك، والعملِ بطاعتِك. فوصَفَه جلَّ ثناؤُه بالبِرِّ بالآباءِ والأمَّهاتِ، والبَنِينَ والبناتِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١٥٣٦) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (٣٤٤٨)، وابنُ ماجه (٣٨٦٢)، وأحمد (٧٥١٠). حسَّنه الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٥٣٦)، وصَحَّحه ابن حِبَّان في ((الصحيح)) (٢٦٩٩)، والقرطبيُّ في ((التفسير)) (١٦/ ١٩٤)، والنوويُّ في ((الإيضاح)) (٦٢)، وقوَّى إسنادَه الذهبيُّ في ((الكبائر)) (١٨٤)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٣/ ٢٥٢)، وحَسَّن الحديثَ لغيرِه شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريجِ ((سنن أبي داود)) (١٥٣٦).

(٣) رواه مسلم (١٦٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١).

لك بالطَّاعةِ في أمْرِك ونَهْيِك[١].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾.

أي: أولئك يَتقَبَّلُ اللهُ عنهم أحسَنَ الَّذي عَمِلوه في الدُّنيا؛ فيُثيبُهم عليه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢).

قال السمعاني: (اختَلَف المُفَسِّرون فيمَنْ نزَلَت هذه الآيةُ؟ فقال الكَلْبيُّ، ومُقاتِلٌ، والضَّحَّاكُ: إنَّها نزلتْ في أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عنه. وقال الحَسَنُ البَصريُّ: إنَّها عامَّةٌ في جميعِ المؤمِنينَ. ومعنَى الآيةِ: هو الإرشادُ إلى شُكرِ اللهِ ودُعاءِ الوالِدَينِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٤).

وقال الرَّسْعَني: (قال جُمهورُ المُفَسِّرينَ: لَمَّا بلغ أبو بكرٍ أربعينَ سَنةً دعا اللهَ تعالى بما ذكَرَه في هذه الآيةِ، فأجابه اللهُ تعالى؛ فأسلَمَ وأسلَمَ والِداه وأولادُه: ذكورُهم وإناثُهم، ولم يَتَّفِقْ ذلك لأحَدٍ غَيرِه مِنَ الصَّحابةِ، وقال الضَّحَّاكُ والسُّدِّيُّ: نزلتْ في سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢١٧).

وممَّن اختار أنَّ الآيةَ نزلت في أبي بكرٍ وأنَّه المرادُ بها: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والرازي، والرسعني، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨، ١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٦٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٨٩).

وممَّن اختار أنَّ الآيةَ عامَّةٌ: الزمخشريُّ، وابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، والشوكانيِّ، والقاسمي، وابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥). =

﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

أي: ويَصفَحُ اللهُ عن سَيِّئاتِ أعمالِهم؛ فلا يُعاقِبُهم عليها(١).

﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾.

أي: وهم في عِدادِ أهلِ الجنَّةِ، الَّذين يُفعَلُ بهم مِثلُ ذلك(٢).

﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

أي: وَعَد اللهُ أهلَ الإيمانِ أن يَتقبَّلَ مِن مُحسِنِهم ويَتجاوَزَ عن مُسيئِهم وَعْدَ الصِّدْقِ والحقِّ الَّذي لا يُخلَفُ، فهو موفٍ لهم به ولا شكَّ(٣).

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾: الأعمالُ الصَّالحةُ الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا، وأنَّ الأحسَنَ هنا بمعنى الحَسَنِ: الواحديُّ، والبغوي، وابنُ الجوزي، والرَّسْعَني، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الطَّاعاتُ وأعمالُهم الحَسَنةُ الصَّالحةُ؛ لأنَّها أحسَنُ ما عَمِلوا؛ لأنَّهم يَعمَلونَ المُباحاتِ وغيرَها، فاسمُ التَّفضيلِ على معناه: البيضاويُّ، وأبو السعود، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قال ابنُ عاشور: (أي: الإحسانُ بالوالِدَينِ والدُّعاءُ لهما وللذُّرِّيَّةِ: مِن أفضَلِ الأعمالِ؛ فهو مِن أحسَنِ ما عَمِلوا، وقد تَقَبَّلَ منهم كلَّ ما هو أحسَنُ ما عَمِلوا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ هذا مِن لُطفِه تعالى بعِبادِه وشُكرِه للوالِدَينِ: أنْ وصَّى الأولادَ وعَهِدَ إليهم أن يُحسِنوا إلى والِدَيهم بالقَولِ اللَّطيفِ، والكَلامِ اللَّيِّنِ، وبَذْلِ المالِ والنَّفَقةِ، وغيرِ ذلك مِن وُجوهِ الإحسانِ[1].

وبِرُّ الوالدينِ واجبٌ بهذه الآيةِ وغيرِها، وعقوقُهما كبيرةٌ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾، قولُه جَلَّ وعلا: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ يدُلُّ على أنَّ الإنسانَ كالمُحتاجِ إلى مُراعاةِ الوالِدَينِ له إلى قَريبٍ من هذه المُدَّةِ؛ وذلك لأنَّ العَقلَ كالنَّاقِصِ، فلا بُدَّ له مِن رعايةِ الأبوَينِ على رعايةِ المصالح، ودَفعِ الآفاتِ[3].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ نِعَمَ الوالِدَينِ على الوَلَدِ بعد دُخولِه في الوُجودِ تمتَدُّ إلى هذه المُدَّةِ الطَّويلةِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ نِعَمَ الوالِدَينِ

= قال القرطبي: (﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ وهو من باب إضافة الشَّيءِ إلى نَفْسِه؛ لأنَّ الصِّدقَ هو ذلك الوَعدُ الَّذي وَعَدَه اللهُ، وهو كقَولِه تعالى: ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وهذا عندَ الكوفيِّينَ، فأمَّا عندَ البَصريِّينَ فتقديرُه: وَعْدَ الكَلامِ الصِّدقِ، أو الكِتابِ الصِّدقِ، فحُذِف المَوصوفُ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨).

كأنَّه يَخرُجُ عن وُسعِ الإنسانِ مُكافأتُهما إلَّا بالدُّعاءِ والذِّكرِ الجَميلِ[1]!

٤- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ أمَرَ اللهُ بالإحسانِ إلى الوالِدَيْن في المُشاهَدةِ والغَيبةِ، وبجَميعِ وَسائلِ الإحسانِ الَّذي غايَتُه حُصولُ النَّفْعِ لهما، وأنَّ اللهَ لَمَّا أمَرَ بالدُّعاءِ للأَبوَينِ وَعَدَ بإجابتِه على لِسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِقَولِه: ((إذا مات الإنسانُ انقَطَع عنه عَمَلُه إلَّا مِن ثلاثةٍ: إلَّا مِن صَدَقةٍ جاريةٍ، أو عِلمٍ يُنتَفَعُ به، أو ولَدٍ صالحٍ يَدعو له))[2]، وما شَكَرَ الولَدُ ربَّه على النِّعمةِ الَّتي أنْعَمَها اللهُ على والِدَيْه إلَّا مِن بابِ نِيابَتِه عنْهما في هذا الشُّكرِ، وهو مِن جُملةِ العمَلِ الَّذي يُؤدِّيه الولَدُ عن والِدَيْه[3].

٥- قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذا فيه إرشادٌ لِمَن بلَغَ الأربعينَ أن يُجدِّدَ التَّوبةَ والإنابةَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ويَعزِمَ عليها[4].

٦- قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّه ينبغي لِمَن بلغَ عُمُرُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨).

(٢) رواه مسلم (١٦٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨١).

أربعينَ سَنةً أن يَستكثِرَ مِن هذه الدَّعَواتِ(١).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ استِطرادٌ في أثناءِ الوِصايةِ بالدُّعاءِ للوالِدَينِ بألَّا يَغفُلَ الإنسانُ عن التَّفكُّرِ في مُستَقبَلِه، بأن يَصرِفَ عِنايتَه إلى ذُرِّيَّته كما صرَفَها إلى أبَوَيه؛ لِيَكونَ له مِن إحسانِ ذُرِّيَّتِه إليه مِثلُ ما كان منه لأبَوَيه، وإصلاحُ الذُّرِّيَّةِ يَشملُ إلهامَهم الدُّعاءَ إلى الوالِدِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ﴾ يدُلُّ على أنَّ حَقَّ الأُمِّ أعظَمُ؛ لأنَّه قال أوَّلًا: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾، فذَكَرهما معًا، ثمَّ خَصَّ الأُمَّ بالذِّكرِ، فقال: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ﴾، وذلك يدُلُّ على أنَّ حَقَّها أعظَمُ، وأنَّ وُصولَ المشاقِّ إليها بسبَبِ الوَلَدِ أكثَرُ(٣)، وأنَّ حَقَّها آكَدُ مِن حَقِّ الأبِ؛ لأنَّها حمَلَتْه بمَشقَّةٍ، ووضَعَتْه بمَشقَّةٍ، وأرضَعَتْه هذه المُدَّةَ بتَعَبٍ ونَصَبٍ، ولم يُشارِكْها الأبُ في شَيءٍ مِن ذلك(٤).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ فيه لطيفةٌ: ذكَرَ تعالى الأُمَّ في ثلاثِ مَراتِبَ؛ في قَولِه: ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ ﴿وَحَمۡلُهُۥ﴾، وفي إرضاعِه المُعبَّرِ عنه بالفِصالِ، وذكَرَ الوالِدَ في واحدةٍ؛ في قَولِه: ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾؛ فناسَبَ ما قال الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن جَعلِ ثلاثةِ أرباعِ البِرِّ للأُمِّ، والرُّبُعِ للأبِ، عندَما جاء رجُلٌ إليه، فقال: ((يا رسولَ الله، مَنْ أَبَرُّ؟ قال: أُمَّكَ، قال: ثُمَّ مَن؟ قال: أُمَّكَ، قال: ثُمَّ مَن؟ قال: أُمَّكَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢).

قال: ثُمَّ مَن؟ قال: أباكَ))[(١)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ يدُلُّ على أنَّ أقَلَّ مُدَّةِ الحَملِ سِتَّةُ أشهُرٍ؛ لأنَّه لَمَّا كان مجموعُ مُدَّةِ الحَملِ والرَّضاعِ ثلاثينَ شَهرًا، وكان أكثَرُ الرَّضاعِ أربعةً وعِشرينَ شهرًا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فإذا أسقَطْتَ الحَولَينِ الكامِلَينِ -وهي أربعةٌ وعِشرونَ شَهرًا- مِنَ الثَّلاثينَ؛ بَقِيَ أقَلُّ مُدَّةِ الحَملِ: سِتَّةُ أشهُرٍ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٧).
والحديث أخرجه أبو داودَ (٥١٣٩)، والترمذيُّ (١٨٩٧)، وأحمد (٢٠٠٢٨) مِن حديثِ مُعاويةَ ابنِ حَيْدَةَ رضيَ اللهُ عنه. ولفظُ أبي داودَ: ((قلت: يا رسولَ اللهِ، مَنْ أبَرُّ؟ قال: أمَّك ثمَّ أمَّك ثمَّ أمَّك، ثمَّ أباك، ثمَّ الأقربَ فالأقربَ)).
حسَّنه الترمذي، وابنُ عساكر في ((معجم الشيوخ)) (٢/ ١٢١٧)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥١٣٩): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥١٣٩).
وأخرجه البخاري (٥٩٧١)، ومسلمٌ (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، ولفظُ البخاريِّ: ((جاء رجُلٌ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، مَنْ أحَقُّ بحُسْنِ صَحابتي؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: ثمَّ أبوك)).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥).
قال ابن كثير: (وقد استَدَلَّ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عنه بهذه الآيةِ مع الَّتي في لُقمانَ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقَولِه: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]: على أنَّ أقَلَّ مُدَّةِ الحَملِ سِتَّةُ أشهُرٍ، وهو استِنباطٌ قَويٌّ صَحيحٌ، ووافَقَه عليه عثمانُ وجماعةٌ مِن الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠).
وهذا النَّوعُ مِن الاستِدلالِ يرجِعُ عندَ الأُصوليِّينَ إلى دَلالةِ الإشارةِ -وهي مِن أنواعِ دَلالةِ المنطوقِ-، وهي دَلالةُ اللَّفظِ على معنًى ليس مقصودًا باللَّفظِ في الأصلِ، ولكنَّه لازِمٌ =

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ رُبَّما أشعَرَ بأنَّ أقَلَّ مُدَّةِ الرَّضاعِ سَنةٌ وتِسعةُ أشهُرٍ؛ لأنَّ أغلَبَ الحَملِ تِسعةُ أشهُرٍ[(١)].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ مِن بَديعِ معنى الآيةِ: جَمعُ مُدَّةِ الحَملِ إلى الفِصالِ في ثلاثينَ شَهرًا؛ لِتُطابِقَ مُختَلِفَ مُدَدِ الحَملِ؛ إذ قد يكونُ الحَملُ سِتَّةَ أشهُرٍ، وسَبعةَ أشهُرٍ، وثمانيةَ أشهُرٍ، وتِسعةً وهو الغالِبُ، قيل: كانوا إذا كان حمْلُ المرأةِ تِسعةَ أشْهُرٍ -وهو الغالِبُ- أرْضَعَتِ المولودَ أحَدًا وعِشْرينَ شَهْرًا، وإذا كان الحمْلُ ثَمانيةَ أشهُرٍ أرْضَعَت اثْنَينِ وعِشرينَ شَهْرًا، وإذا كان الحمْلُ سَبعةَ أشْهُرٍ أرْضَعَتْ ثلاثةً وعِشرينَ شَهْرًا، وإذا كان الحمْلُ سِتَّةَ أشْهُرٍ أرْضَعَت أربعةً وعِشرينَ شَهْرًا، وذلك أقْصى أمَدِ الإرضاعِ، فعوَّضُوا عن نَقْصِ كلِّ شَهرٍ مِن مُدَّةِ الحمْلِ شَهْرًا زائدًا في الإرضاعِ؛ لأنَّ نُقصانَ مُدَّةِ الحمْلِ يُؤثِّرُ في الطِّفلِ هُزالًا[(٢)].

٦- مِن بَديعِ الطَّيِّ في هذِه الآيةِ ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾: أنَّها صالحةٌ للدَّلالةِ على أنَّ مُدَّةَ الحمْلِ قد تكونُ دُونَ تِسعةِ أشْهُرٍ، ولولا أنَّها تكونُ دُونَ تِسعةِ أشهُرٍ لَحدَّدَتْه بتِسعةِ أشْهُرٍ؛ لأنَّ الغرَضَ إظهارُ حَقِّ الأُمِّ في البِرِّ بما تَحمَّلَتْه مِن مَشقَّةِ الحمْلِ؛ فإنَّ مَشقَّةَ مُدَّةِ الحمْلِ أشَدُّ مِن مَشقَّةِ الإرضاعِ؛ فلولا قصْدُ الإيماءِ إلى هذه الدَّلالةِ لَكان التَّحديدُ بتِسعةِ أشْهُرٍ أجدَرَ بالمَقامِ[(٣)].

= للمَقصودِ، فكأنَّه مقصودٌ بالتَّبَعِ لا بالأصلِ. يُنظر: ((المستصفى)) للغزالي (ص: ٢٦٣، ٢٦٤)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٤) و(٧/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- جميعُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ وأئمَّةِ الدِّينِ لا يَعتَقِدونَ عِصمةَ أحَدٍ مِن الصَّحابةِ ولا القَرابةِ ولا السَّابقينَ ولا غَيرِهم، بل يجوزُ عِندَهم وُقوعُ الذُّنوبِ منهم، واللهُ تعالى يَغفِرُ لهم بالتَّوبةِ، ويَرفَعُ بها دَرَجاتِهم، ويَغفِرُ لهم بحَسَناتٍ ماحيةٍ، أو بغيرِ ذلك مِنَ الأسبابِ؛ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥]، ولكِنَّ الأنبياءَ -رِضوانُ اللهِ تعالى عليهم أجمعينَ- هم الَّذين قال العُلَماءُ: إنَّهم مَعصومونَ مِن الإصرارِ على الذُّنوبِ، فأمَّا الصِّدِّيقونَ والشُّهَداءُ والصَّالحونَ فلَيسُوا بمعصومينَ. وهذا في الذُّنوبِ المُحقَّقةِ، وأمَّا ما اجتَهَدوا فيه فتارةً يُصيبونَ وتارةً يُخطِئون؛ فإذا اجتَهَدوا فأصابوا فلَهم أجْرانِ، وإذا اجتَهَدوا وأخطَؤوا فلهم أجرٌ على اجتِهادِهم، وخَطؤُهم مغفورٌ لهم. وأهلُ الضَّلالِ يَجعَلونَ الخطَأَ والإثمَ مُتلازِمَينِ: فتارةً يَغلُونَ فيهم ويقولون: إنَّهم مَعصومونَ، وتارةً يَجفُونَ عنهم ويقولونَ: إنَّهم باغونَ بالخَطأِ! وأهلُ العِلمِ والإيمانِ لا يُعَصِّمونَ، ولا يُؤَثِّمونَ(١).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ اعلَمْ أنَّه تعالى حكى عن هذا الدَّاعي أنَّه طَلَب مِنَ اللهِ تعالى

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٦٩).

ثلاثةَ أشياءَ؛ أحدُها: أن يُوَفِّقَه اللهُ للشُّكرِ على نِعَمِه. الثَّاني: أن يُوَفِّقَه للإتيانِ بالطَّاعةِ المَرْضيَّةِ عندَ اللهِ. الثَّالِثُ: أن يُصلِحَ له في ذُرِّيَّتِه. وفي ترتيبِ هذه الأشياءِ الثَّلاثةِ على الوَجهِ المذكورِ وَجهانِ:

الأوَّلُ: أنَّ مَراتِبَ السَّعاداتِ ثلاثٌ: أكمَلُها النَّفْسانيَّةُ، وأوسَطُها البَدَنيَّةُ، وأدوَنُها الخارجيَّةُ. والسَّعاداتُ النَّفْسانيَّةُ هي اشتِغالُ القَلبِ بشُكرِ آلاءِ اللهِ ونَعمائِه، والسَّعاداتُ البَدَنيَّةُ هي اشتِغالُ البَدَنِ بالطَّاعةِ والخِدْمةِ، والسَّعاداتُ الخارجيَّةُ هي سَعادةُ الأهلِ والوَلَدِ؛ فلمَّا كانت المراتِبُ مَحصورةً في هذه الثَّلاثةِ لا جَرَمَ رَتَّبَها اللهُ تعالى على هذا الوَجهِ.

والسَّبَبُ الثَّاني لِرعايةِ هذا التَّرتيبِ: أنَّه تعالى قَدَّم الشُّكرَ على العَمَلِ؛ لأنَّ الشُّكرَ مِن أعمالِ القُلوبِ، والعَمَلَ مِن أعمالِ الجوارِحِ، وعَمَلَ القَلبِ أشرَفُ مِن عَمَلِ الجارِحةِ، وأيضًا أنَّه قَدَّم طَلَبَ التَّوفيقِ على الشُّكرِ، وطَلَبَ التَّوفيقِ على الطَّاعةِ على طَلَبِ أن يُصلِحَ له ذُرِّيَّتَه؛ وذلك لأنَّ المَطلوبَينِ الأوَّلَينِ اشتِغالٌ بالتَّعظيمِ لأمرِ اللهِ، والمطلوبَ الثَّالِثَ اشتِغالٌ بالشَّفَقةِ على خَلْقِ اللهِ، ومَعلومٌ أنَّ التَّعظيمَ لأمرِ اللهِ يَجِبُ تَقديمُه على الشَّفَقةِ على خَلْقِ اللهِ(١).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾

فيه سُؤالٌ: هَبْ أنَّه يَشكُرُ اللهَ على ما أنعَمَ به عليه، فكيف يَشكُرُه على النِّعَمِ الَّتي أنعَمَ بها على والِدَيه، وإنَّما يجِبُ على الرَّجُلِ أن يَشكُرَ رَبَّه على ما يَصِلُ إليه مِنَ النِّعَمِ؟

الجوابُ: أنَّ كُلَّ نِعمةٍ وصَلَتْ مِنَ اللهِ تعالى إلى والِدَيه فقد وَصَل منها أثَرٌ إليه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩).

فالنِّعمةُ عليهما نعمةٌ عليه؛ فلذلك وصَّاه اللهُ تعالى أن يَشكُرَ رَبَّه على الأمْرَينِ[١].

ثمَّ إنَّ هذا مِن تمامِ برِّ الوالِدَينِ؛ كأنَّ هذا الولَدَ خاف أن يكونَ والِداه قَصَّرا في شُكرِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، فسألَ اللهَ أن يُلهِمَه الشُّكرَ على ما أنعَمَ به عليه وعليهما؛ لِيَقومَ بما وَجَب عليهما مِن الشُّكرِ إن كانا قَصَّرا[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ ردٌّ على القَدَريَّةِ والمُعتَزِلةِ فيما أخبَرَ عنه مِن إيزاعِ الشُّكرِ والتَّوفيقِ للعَمَلِ الصَّالحِ، ولو كان مُستطيعًا بنَفْسِه لَكان دعاؤُه مُحَالًا، ثم أثْنى عليه ربُّه، وأضاف العملَ -الَّذي هو أعانَه عليه- إليه، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، فالعَمَلُ حَسَنُه وسَيِّئُه مُضافٌ إلى عامِلِه وإنْ كان مُعانًا على الحَسَنِ، مَقْضِيًّا عليه بالسَّيِّءِ، ولو كانتِ الاستطاعةُ مُستغنيةً بنَفْسِها ما عَمِلَ أحَدٌ عَمَلًا سَيِّئًا أبدًا[٣]!

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ التَّقَبُّلُ: ترتُّبُ آثارِ العَمَلِ، مِن ثوابٍ على العَمَلِ، واستِجابةٍ للدُّعاءِ، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ هذا الدُّعاءَ مَرجوُّ الإجابةِ؛ لأنَّ اللهَ تولَّى تَلقينَه[٤].

١٢- إنْ قيلَ: لِمَ قال تعالى: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾، واللهُ يَتقبَّلُ الأحسَنَ وما دونَه؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠).

ويُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٣١٦-٣٢٣).

(٢) الفائدةُ للوزيرِ ابنِ هُبَيْرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس))، كما في ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥).

فالجوابُ مِن وُجوهٍ؛ منها:

الأوَّلُ: المرادُ بالأحسَنِ: الحَسَنُ، كقولِهم: النَّاقِصُ والأشَجُّ أعْدَلا بني مَرْوانَ، أي: عادِلَا بني مَرْوانَ.

الثَّاني: أنَّ الحَسَنَ مِنَ الأعمالِ هو المباحُ الَّذي لا يَتعلَّقُ به ثوابٌ ولا عِقابٌ، والأحسَنَ ما يُغايِرُ ذلك، وهو كُلُّ ما كان مَندوبًا أو واجِبًا(١).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

- الفِصالُ: الفِطامُ، وذُكِرَ الفِصالُ؛ لأنَّه انتهاءُ مُدَّةِ الرَّضاعِ؛ فذُكِرَ مَبدأُ مُدَّةِ الحمْلِ بقَولِه: ﴿وَحَمْلُهُ﴾، وانتِهاءُ الرَّضاعِ بقَولِه: ﴿وَفِصَالُهُ﴾. ولو قِيلَ: (وحمْلُه وفِطامُه ثلاثونَ شَهرًا) لم يكُنْ نَصًّا في الرَّضاعِ التَّامِّ المُنْتهي بالفِصالِ، والمعنى: وحمْلُه وفِصالُه بيْنَهما ثَلاثونَ شَهْرًا(٢).

- قولُه: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ (حتَّى) ابتدائيَّةٌ، ومعناها معنى فاءِ التَّفريعِ على الكلامِ المُتقدِّمِ، وإذ كانت (حتَّى) لا يُفارِقُها معنَى الغايةِ، كانت مُؤْذِنةً هنا بأنَّ الإنسانَ تَدرَّجَ في أطْوارِه مِن وَقتِ فِصالِه إلى أنْ بلَغَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠).

أشُدَّه، أي: هو مُوصًى بوالِدَيْه حُسْنًا في الأطوارِ المُواليةِ لِفِصالِه، أي: يُوصيه وَلِيُّه في أطْوارِ طُفولتِه، ثمَّ عليه مُراعاةُ وَصيَّةِ اللهِ في وَقتِ تَكليفِه. ووُقوعُ (إذا) بعْدَ (حتَّى)؛ لِيُرتِّبَ عليها توقيتُ ما بعْدَ الغايةِ من الخبَرِ، أي: كانت الغايةُ وَقتَ بُلوغِه الأشُدَّ[١].

- وفي الكلامِ حَذْفٌ تَكونُ (حتَّى) غايةً له، تَقديرُه: فعاشَ بعْدَ ذلك، أو استَمرَّت حَياتُه[٢].

- ولَمَّا كان (إذا) ظَرْفًا لِزَمنٍ مُستقبَلٍ كان الفِعلُ الماضي بعْدَها مُنقلِبًا إلى الاستِقبالِ، وإنَّما صِيغَ بِصيغةِ الماضي؛ تَشْبيهًا لِلْمؤكَّدِ تَحصيلُه بالواقِعِ، والمعنى: حتَّى يَبلُغَ أشُدَّه، أي: يَستمِرُّ على الإحسانِ إلى والِدَيْه إلى أنْ يَبلُغَ أشُدَّه، فإذا بَلَغَه ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾، أي: طلَبَ العَونَ مِن اللهِ تعالى على زِيادةِ الإحسانِ إليهما؛ بأنْ يُلهِمَه الشُّكرَ على نِعَمِه عليه وعلى والِدَيْه، ومِن جُملةِ النِّعمِ عليه أنْ أَلْهَمَه الإحسانَ لِوالِدَيْه، ومِن جُملةِ نِعَمِه على والِدَيْه أنْ سخَّرَ لهما هذا الولَدَ لِيُحسِنَ إليهما؛ فهاتانِ النِّعمتانِ أوَّلُ ما يَتبادَرُ عن عُمومِ نِعمةِ اللهِ عليه وعلى والِدَيْه؛ لأنَّ المَقامَ لِلحديثِ عنهما، وهذا إشارةٌ إلى أنَّ الفِعلَ المُؤقَّتَ بِبُلوغِ الأشُدِّ -وهو فِعلُ ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾- مِن جُملةِ ما وُصِّيَ به الإنسانُ، أي: أنْ يُحسِنَ إلى والِدَيْه في وَقتِ بُلوغِه الأشُدَّ؛ فالمعنَى: ووَصَّيْنا الإنسانَ حُسنًا بوالدَيهِ حتَّى في زَمنِ بُلوغِه الأشُدَّ، أي: ألَّا يَفتُرَ عن الإحسانِ إليهما بكُلِّ وجهٍ حتَّى بالدُّعاءِ لهما[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١، ٣٢).

وإنَّما خُصَّ زَمانُ بُلوغِ الإنسانِ الأشُدَّ؛ لأنَّه زَمَنٌ يَكثُرُ فيه الكَلَفُ بالسَّعْيِ للرِّزقِ؛ إذ يكونُ له فيه زَوجةٌ وأبناءٌ، وتَكثُرُ تَكاليفُ المرأةِ، فيَكونُ لها فيه زَوجٌ وبَيتٌ وأبناءٌ، فيَكونانِ مَظِنَّةَ أنْ تَشغَلَهما التَّكاليفُ عن تَعهُّدِ والِدَيْهما والإحسانِ إليهما؛ فنُبِّها بألَّا يَفتُرا عن الإحسانِ إلى الوالدينِ[١].

- الأشُدُّ: قيل: وَقْتُه ما بعْدَ الثَّلاثينَ سَنةً، وتَمامُه عِندَ الأربعينَ سَنةً؛ ولذلك عُطِفَ على ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قَولُه: ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾، أي: بلَغَ الأشُدَّ ووَصَلَ إلى أكْمَلِه، وليس قَولُه: ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ تأكيدًا لِقَولِه: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ لأنَّ إعادةَ فِعلِ (بلغ) تُبعِدُ احتِمالَ التَّأْكيدِ، وحرْفُ العطْفِ أيضًا يُبعِدُ ذلك الاحتِمالَ[٢].

- ومعنى ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ أنَّه دَعا ربَّه بذلك، ومعناهُ: أنَّه مأْمورٌ بالدُّعاءِ إليهما؛ بأنَّه لا يَشغَلُه الدُّعاءُ لِنَفْسِه عن الدُّعاءِ لهما، وبأنَّه يُحسِنُ إليهما بظَهْرِ الغَيبِ منهما حِينَ مُناجاتِه ربَّه؛ فلا جَرَمَ أنَّ إحْسانَه إليهما في المُواجَهةِ حاصِلٌ بفَحْوى الخِطابِ[٣].

- قولُه: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ التَّنكيرُ في قَولِه: ﴿صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾؛ لِلتَّفخيمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٢).

وفَحْوى الخِطابِ -ويُسَمَّى تنبيهَ الخِطابِ، ومفهومَ الموافَقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطَريقِ الأَولى، وهو نَوعانِ:

الأوَّلُ: تَنبيهٌ بالأقَلِّ على الأكثَرِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نَبَّه بالنَّهيِ عن قَولِ أُفٍّ على النَّهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك.

الثَّاني: تنبيهٌ بالأكثَرِ على الأقَلِّ، كقَولِه تعالى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

والتَّكثيرِ، أو لأنَّه أرادَ نوعًا مِن الجِنسِ يَستجلِبُ رِضا اللهِ عزَّ وجلَّ[١]. وقيل: في تنكيرِ ﴿صَـٰلِحًا﴾ إشارةٌ إلى العَجزِ عن بُلوغِ الغايةِ؛ فإنَّه لن يَقدُرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِه أحَدٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ في إدْماجِ[٣] تَلقينِ الدُّعاءِ بإصْلاحِ ذُرِّيَّتِه، مع أنَّ سِياقَ الكلامِ في الإحسانِ إلى الوالدَينِ: إيماءٌ إلى أنَّ المرْءَ يَلْقى مِن إحسانِ أبْنائِه إليه مِثلَ ما لَقِيَ أبواهُ مِن إحْسانِه إليهما، ولأنَّ دَعْوةَ الأبِ لِابْنِه مَرْجوَّةُ الإجابةِ[٤].

- واللَّامُ في ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي﴾ لَامُ العِلَّةِ، أي: أصْلِحْ في ذُرِّيَّتي لِأجْلي ومَنْفعَتي، ونُكتةُ زِيادةِ هذا في الدُّعاءِ: أنَّه بعْدَ أنْ أشارَ إلى نِعَمِ اللهِ عليه وعلى والِدَيْه، تَعرَّضَ إلى نَفَحاتِ اللهِ، فسَأَلَه إصلاحَ ذُرِّيَّتِه، وعَرَّضَ بأنَّ إصْلاحَهم لِفائدتِه، وهذا تَمهيدٌ لِبِساطِ الإجابةِ؛ كأنَّه يقولُ: كما ابْتدَأْتَني بنِعمتِك، وابْتَدَأْتَ والِديَّ بنِعمتِك، ومَتَّعْتَهما بتَوفيقي إلى بِرِّهما؛ كَمِّل إنْعامَك بإصلاحِ ذُرِّيَّتي؛ فإنَّ إصْلاحَهم لي. وهذه تَرْقيَّاتٌ بَديعةٌ في دَرَجاتِ القُرْبِ[٥].

- وكان الظَّاهرُ أنْ يُقالَ: (أصلِحْ لي ذُرِّيَّتي)؛ لأنَّ الإصلاحَ مُتعَدٍّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ولكنْ قال هنا: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ فعُدِّيَ بـ(في)؛ لِتَضمُّنِه مَعنى اللُّطفِ، أي: الْطُفْ بي في ذُرِّيَّتي،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٩).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٤).

أو نُزِّلَ مَنزِلةَ اللَّازمِ ثُمَّ عُدِّيَ بـ (في)؛ لِيُفيدَ سَرَيانَ الصَّلاحِ فيهم، وكَوْنَهم كالظَّرْفِ له؛ لِتَمكُّنِه فيهم[١].

- وجُملةُ ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ كالتَّعليلِ لِلْمَطلوبِ بالدُّعاءِ تَعليلَ تَوسُّلٍ بصِلَةِ الإيمانِ، والإقرارِ بالنِّعمةِ والعُبوديَّةِ، وحَرْفُ (إنَّ) لِلْاهتمامِ بالخبَرِ، وقدْ أغْنى غَناءَ الفاءِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ...﴾ جُملةٌ مُستأْنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ ما قبْلَها مِن الوصْفِ والحثِّ يُحدِثُ تَرقُّبَ السَّامعِ لِمَعرفةِ فائدةِ ذلك؛ فكان قولُه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ إلى آخِرِه جَوابًا لِترقُّبِه[٣].

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الإنسانِ، والجمْعُ؛ لأنَّ المُرادَ به الجنسُ المُتَّصِفُ بالوَصْفِ المَحكيِّ عنْه[٤].

- وأيضًا في اسمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾: تَنبيهٌ على أنَّهم أحْرِياءُ بما يَرِدُ مِن الإخبارِ عنهم بما بعْدَ الإشارةِ؛ مِن أجْلِ الأوصافِ المذْكورةِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٥].

وكذلك ما في اسمِ الإشارةِ مِن مَعنى البُعدِ؛ للإشعارِ بعُلُوِّ رُتْبتِه وبُعْدِ مَنزلتِه،

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤، ٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧، ٣٥).

أي: أولئكَ المَنْعوتونَ بما ذُكِرَ مِن النُّعوتِ الجليلةِ ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ مِن الطَّاعاتِ(١).

- وعُمومُ ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ يُكسِبُ الجُملةَ فائدةَ التَّذييلِ(٢).

- وعُدِّيَ فِعلُ ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ بحَرْفِ (عن)، وحقُّه أنْ يُعدَّى بحَرْفِ (مِن)؛ تَغْليبًا لِجانِبِ المَدْعوِّ لهم، وهمُ الوالِدانِ والذُّرِّيَّةُ؛ لأنَّ دُعاءَ الولَدِ والوالِدِ لِأولئك بمَنزِلةِ النِّيابةِ عنْهم في عِبادةِ الدُّعاءِ، وإذا كان العمَلُ بالنِّيابةِ مُتقبَّلًا، عُلِمَ أنَّ عَمَلَ المرْءِ لِنَفْسِه مُتقبَّلٌ أيضًا؛ ففي الكلامِ اختِصارٌ، كأنَّه قِيل: أولئك يُتقبَّلُ منْهم، ويُتقبَّلُ عن والِدَيهم وذُرِّيَّتِهم أحسَنُ ما عَمِلوا(٣).

- وقولُه: ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن اسمِ الإشارةِ، أي: كائنينَ في أصحابِ الجنَّةِ حِينَ يُتقبَّلُ أحسَنُ ما عَمِلوا ويُتجاوَزُ عن سَيِّئاتِهم؛ لأنَّ أصْحابَ الجنَّةِ مُتقبَّلٌ أحسَنُ أعْمالِهم، ويُتجاوَزُ عن سَيِّئاتِهم، وذُكِرَ هذا للتَّنويهِ بهم بأنَّهم مِن الفريقِ المُشرَّفينَ(٤).

- وإضافةُ ﴿وَعۡدَ﴾ إلى ﴿ٱلصِّدۡقِ﴾ في قولِه: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ إضافةٌ على مَعْنى (مِن)، أي: وَعْدٌ مِن الصِّدقِ؛ إذ لا يَتخلَّفُ، والَّذي كانوا يُوعَدون صِفةُ وَعْدِ الصِّدْقِ، أي: ذلك هو الَّذي كانوا يُوعَدونَه في الدُّنيا بالقُرآنِ في الآياتِ الحاثَّةِ على بِرِّ الوالدَينِ، وعلى الشُّكرِ، وعلى إصلاحِ الذُّرِّيَّةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٦).

الآيات (١٧-٢٠)

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿أُفٍّ﴾: الأُفُّ: الرَّديءُ مِن الكَلامِ، وكُلُّ ما غَلُظَ مِنه وقَبُحَ، وهو اسمُ فِعلٍ يُنبِئُ عن التَّضَجُّرِ والاستِثقالِ، أو صَوتٌ يُنبِئُ عن ذلك، وأصلُ (أفف): يدُلُّ على تَكَرُّهِ الشَّيءِ[(١)].

﴿خَلَتِ﴾: أي: مَضَتْ وذَهَبَتْ، مِن خلا الزَّمانُ: إذا مَضَى وذَهَبَ[(٢)].

﴿الْقُرُونُ﴾: جمعُ قَرْنٍ، وهو: الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ، أو القَومُ المُقترِنونَ في زَمنٍ واحِدٍ، غَيْر مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّةُ القرنِ مِئةُ سَنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، والاقترانُ هو اجتِماعُ شيئَينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٠).

قال الألوسي: (﴿أُفٍّ﴾ صوتٌ يَصدُرُ عن المرءِ عندَ تضَجُّرِه، وفيه قِراءاتٌ ولُغاتٌ نحوَ الأربعينَ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[1].

﴿وَيْلَكَ﴾: الويلُ: كلمةُ دُعاءٍ بالهلاكِ والعذابِ، وتُستعمَلُ أيضًا في التَّحسُّرِ، وقيل: هي وادٍ في جهنَّمَ، وأصْلُ الوَيلِ: الشَّرُّ وحُلولُه[2].

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: أباطيلُهم وتُرَّهاتُهم، جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ[3].

﴿ٱلْهُونِ﴾: أي: الهَوانِ والذُّلِّ والخِزْيِ، وأصلُ (هون): يدُلُّ على ذُلٍّ[4].

﴿تَفْسُقُونَ﴾: أي: تَخرُجونَ عن الطَّاعةِ، وذلك مِن قولِهم: فسَقَ الرُّطَبُ، إذا خرجَ عَن قِشرِه، والفُسوقُ: خروجٌ مِن الطَّاعةِ إلى المعصيةِ، وخروجٌ مِن الإيمانِ إلى الكُفرِ[5].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦ / ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦، ٨١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ اللهُ تعالى عن حالِ الأشْقياءِ العاقِّينَ للوالدينِ، فيقولُ: والَّذي قال لِوالِدَيه إذْ دَعَواه إلى الإيمانِ باللهِ واليَومِ الآخِرِ: أُفٍّ لَكما، أتَعِدانِني أن أُبعَثَ بعدَ مَوتي وقد مَضَت أُمَمٌ كَثيرةٌ مِن قَبْلي، ولم يَرجِعْ منهم أحَدٌ؟!

ثمَّ يذكرُ اللهُ تعالى ما ردَّ به الأبَوانِ، فيقولُ: ووالِداه يَطلُبانِ من اللهِ الغَوثَ بأن يَهديَ ابنَهما إلى الحَقِّ، يَقولانِ له: وَيْلَك آمِنْ بالبَعثِ بعدَ الموتِ، إنَّ ما وَعَد اللهُ به عِبادَه مِن البَعثِ بعدَ الموتِ حقٌّ لا شَكَّ فيه، فيَقولُ هذا المُكَذِّبُ العاقُّ لوالِدَيه: ما هذا الَّذي تَدْعُوانِني إلى الإيمانِ به إلَّا أحاديثُ الأقدَمينَ ممَّا لا حقيقةَ له!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى عقوبةَ هؤلاءِ الأشقياءِ، فيقولُ: أولئك العاقُّونَ المُكَذِّبونَ بالبَعثِ هم الَّذين وَجَب عليهم عذابُ اللهِ في قضائه السَّابقِ مُندَرِجينَ في جُملةِ مَن يُعَذِّبُهم اللهُ مِنَ الأُمَمِ الكافِرةِ الَّتي مَضَت قَبْلَهم مِنَ الجِنِّ والإنسِ، إنَّهم كانوا خاسِرينَ؛ لأنَّهم استحَبُّوا الكُفرَ على الإيمانِ.

ويُبيِّنُ سبحانَه أحدَ مظاهرِ عدلِه في حُكمِه بيْنَ عِبادِه، فيقولُ: ولِكُلٍّ مِن هؤلاءِ الفريقَينِ: فَريقِ المؤمِنِ البارِّ بوالِدَيه، وفَريقِ الكافِرِ العاقِّ لِوالِدَيه- مَنازِلُ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ بحَسَبِ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، ولِيُعطيَهم اللهُ جزاءَ أعمالِهم كامِلةً وافيةً، وهم لا يُظلَمونَ.

ثمَّ يذكرُ تعالى ما يُوبَّخُ به الكفَّارُ عندَ عرضِهم على النَّارِ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُعرَضُ الَّذين كَفَروا على النَّارِ، فيُقالُ لهم تَوبيخًا: ضيَّعتُم وأتلَفْتُم الطَّيِّباتِ الَّتي أنعَمَ اللهُ بها عليكم في حياتِكم الدُّنيا؛ حيثُ استمتَعْتُم بِها واستَوفيتُموها في دُنياكم؛ فأنتم تُحرَمونَ منها في أُخراكم التي لم تَعمَلوا لأجْلِها

شَيئًا؛ فيومَ القيامةِ تُجزَونَ عذابَ الهُونِ والخِزْيِ والذُّلِّ؛ بسبَبِ استِكبارِكم في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ، وبسَبَبِ خُروجِكم عن طاعةِ اللهِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه المحسِنَ بادِئًا به؛ لِكَونِ المقامِ للإحسانِ؛ أَتْبَعَه المُسيءَ المناسِبَ لمقصودِ السُّورةِ، المذكورَ صَريحًا في مَطلَعِها[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالَى حالَ الدَّاعينَ للوالِدَينِ، البارِّينَ بهما، وما لَهم عندَه من الفَوزِ والنَّجاةِ؛ عَطَف بحالِ الأشقياءِ العاقِّينَ للوالِدَينِ، فقال[2]:

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾.

أي: والَّذي قال لِوالِدَيه إذْ دَعَواه إلى الإيمانِ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، مُتَضَجِّرًا منهما: أُفٍّ لكما[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦، ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٤، ٢٢٥).

قال ابنُ الجوزي: (ورُوِيَ عن ابنِ عَبَّاسٍ أنَّها نزَلَتْ في عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبي بكرٍ قبْلَ إسلامِه، كان أبَواه يَدْعُوانِه إلى الإسلامِ، وهو يأبَى، وعلى هذا جُمهورُ المُفَسِّرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٨).

وقال السمعاني: (وأنكَر كثيرٌ مِن أهلِ التَّفسيرِ هذا القولَ، ورُوِيَ عن عائشَةَ أنَّها كانت تُنكِرُ أنَّ المرادَ بالآيةِ أخوها). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٥). =

= وممَّن رَدَّ هذا القَولَ مِن المُفَسِّرينَ: الزَّجَّاجُ، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابنُ عطية، والرازي، وابن جُزَي، وابن كثير، والبِقاعي، وأبو السعود، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٤).

قال ابن جُزَي: (﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ هي على الإطلاقِ فيمَن كان على هذه الصِّفةِ مِن الكُفرِ والعُقوقِ لِوالِدَيه، ويدُلُّ على أنَّها عامَّةٌ قَولُه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ بصيغةِ الجَمعِ، ولو أراد واحِدًا بعَينِه لَقال: ذلك الَّذي حَقَّ عليه القَولُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٧).

وقال الشِّنقيطي: (والإخبارُ عن لَفظةِ «الَّذي» بقَولِه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ بصِيغةِ الجَمعِ: صريحٌ في أنَّ المرادَ بـ«الَّذي» العُمومُ لا الإفرادُ، وخيرُ ما يُفَسَّرُ به القُرآنُ القُرآنُ. وبهذا الدَّليلِ القُرآنيِّ تَعلَمُ أنَّ قَولَ مَن قال في هذه الآيةِ الكريمةِ إنَّها نازِلةٌ في عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبي بَكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عنهما: ليس بصَحيحٍ، كما جَزَمَت عائِشةُ رَضِيَ الله عنها ببُطلانِه [يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٨٢٧)].

وفي نَفْسِ آيةِ «الأحقاف» هذه دَليلٌ آخَرُ واضِحٌ على بُطلانِه، وهو أنَّ اللهَ تعالى صَرَّح بأنَّ الَّذين قالوا تلك المقالةَ حَقَّ عليهم القَولُ، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣]، ومَعلومٌ أنَّ عبدَ الرَّحمنِ بنَ أبي بكرٍ رَضِيَ الله عنهما أسلَمَ وحَسُنَ إسلامُه، وهو مِن خيارِ المُسلِمينَ وأفاضِلِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٢٤). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٧٧).

وقال الزمخشري في معنى ﴿أُفٍّ﴾: (هو صوتٌ إذا صوَّت به الإنسانُ عُلِم أنَّه مُتضَجِّرٌ... واللَّامُ للبَيانِ، معناه: هذا التَّأفيفُ لَكما خاصَّةً، ولِأجْلِكما دونَ غَيرِكما). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٤).

وقال ابن جرير: (﴿أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ يقولُ: قَذَرًا لَكُما ونَتْنًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٤).

وقال مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ يعني: قُبحًا لكما الرَّديءُ مِنَ الكلامِ). ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٢١).

﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾.

أي: يَقولُ هذا العاقُّ لِوالِدَيه المؤمِنَينِ: أتَعِدانِني أن أُبعَثَ بعدَ مَوتي، فأُخرَجَ مِن قَبري حيًّا، والحالُ أنَّه قد مَضَت الأُمَمُ الأُولَى قبْلي، ولم يَرجِعْ منهم أحَدٌ بعدَ مَوتِه[1]؟!

﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾.

أي: ووالِداه يَطلُبانِ مِن اللهِ أنْ يُغيثَهما بأن يَهديَ ابنَهما إلى الحَقِّ[2].

﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾.

أي: يقولانِ لِوَلدِهما الكافِرِ: وَيْلَك آمِنْ بما وَعَد اللهُ به عِبادَه مِن البَعثِ بعدَ الموتِ[3].

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

أي: إنَّ ما وَعَد اللهُ به عِبادَه مِن البَعثِ بعدَ الموتِ للحِسابِ والجزاءِ صِدْقٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦).
قال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّه أحال أن يَخرُجَ هو مِنَ الأرضِ بعدَ الموتِ، وقد مَضَت أمَمٌ كَثيرةٌ وطال عليها الزَّمَنُ، فلم يخرُجْ منهم أحدٌ، وهذا من سوءِ فَهمِه في مَعنى البَعثِ، أو من المغالَطةِ في الاحتِجاجِ؛ لأنَّ وعْدَ البَعثِ لم يُوقَّتْ بزمَنٍ مُعَيَّنٍ، ولا أنَّه يقعُ في هذا العالَمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٨، ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦).
قال البِقاعي: (إشارةٌ إلى أنَّه لم يَبقَ له إنْ أعرضَ إلَّا الويلُ، وهو الهلاكُ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٥٤).

لا شَكَّ فيه، ووَعدٌ لا خُلْفَ فيه[١].

﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: فيَقولُ هذا المُكَذِّبُ بالبَعثِ لوالِدَيه: ما هذا الَّذي تَدْعُوانِني إلى الإيمانِ به إلَّا أحاديثُ الأقدَمينَ وقِصَصُهم الَّتي سطَّروها في كُتُبِهم، وهي خُرافاتٌ باطِلةٌ لا حقيقةَ لها[٢]!

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

أي: أولئك العاقُّونَ المُكَذِّبونَ بالبَعثِ القائِلونَ تلك المقالاتِ: هم الَّذين وَجَب عليهم عذابُ اللهِ، وسبَق عليهم القضاءُ بذلك، كائِنينَ في جُملةِ مَن يُعَذِّبُهم مِنَ الأُمَمِ الكافِرةِ الَّتي مَضَت قَبْلَهم مِنَ الجِنِّ والإنسِ، فسيَدخُلُ أولئك في عِدادِهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٩، ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٦، ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦، ٢٢٧).

أي: إنَّهم كانوا خاسِرينَ ببَيعِهم الهُدى بالضَّلالِ، والجنَّةَ بالنَّارِ، وخَسِروا أنفُسَهم وأهلِيهم يومَ القيامةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قَسَّم اللهُ تعالى النَّاسَ في الأعمالِ؛ جمَعَهم في العَدلِ والإفضالِ[2].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾.

أي: ولِكُلٍّ مِن هؤلاءِ الفريقَينِ: فَريقِ المؤمِنِ البارِّ بوالِدَيه، وفَريقِ الكافِرِ العاقِّ لِوالِدَيه- مَنازِلُ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ بحَسَبِ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ[3].

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٠، ٤١).

قال الألوسي: (و«مِنْ» بيانيَّةٌ أو ابتدائيَّةٌ، و«ما» مَوصولةٌ، أي: مِنَ الَّذي عَمِلوه مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ، أو مَصدريَّةٌ، أي: مِن عَمَلِهم الخَيرَ والشَّرَّ، ويجوزُ أن تكونَ «مِن» تعليليَّةً بدونِ تقديرِ مُضافٍ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٧٩).

وقال ابن عاشور: (و«مِنْ» في قولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ تبعيضِيَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤١).

أي: ولِيُعطيَهم اللهُ جزاءَ أعمالِهم الَّتي عَمِلوها كامِلًا وافيًا[١].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: وهم لا يُظلَمونَ شَيئًا مِن جزاءِ أعمالِهم؛ فلا يُنقَصُ مِن ثَوابِ المحسنينَ، ولا يُزادُ في عِقابِ المسيئينَ، ولا يُحمَّلونَ ذُنوبَ غَيرِهم، ولا يُعاقَبونَ على ما لم يَعمَلوه[٢].

كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّه يُوصِلُ حَقَّ كُلِّ أحَدٍ إليه؛ بيَّنَ أحوالَ أهلِ العِقابِ أوَّلًا[٣].

وأيضًا لَمَّا كان الظَّاهِرُ في هذه السُّورةِ الإنذارَ، كما يَشهَدُ به مَطلَعُها؛ ذَكَر بَعضَ ما يُبكَّتُ به المجرِمونَ يومَ البَعثِ الَّذي كانوا به يُكَذِّبونَ، ويكونُ فيه توفيةُ جزاءِ الأعمالِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤١).

قال الزمخشري: (تَعليلٌ مُعَلَّله مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه، كأنَّه قيل: ولِيُوَفِّيَهم أعمالَهم ولا يَظلِمَهم حُقوقَهم قَدَّر جزاءَهم على مقاديرِ أعمالِهم، فجَعَل الثَّوابَ دَرَجاتٍ، والعِقابَ دَرَكاتٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٤، ٣٠٥). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٩).

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُعرَضُ الَّذين كَفَروا باللهِ على النَّارِ(١).

﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾.

أي: يُقالُ لهم تَوبيخًا: استَمتَعْتُم بالملَذَّاتِ والشَّهَواتِ، فاستَوْفَيْتُموها في دُنياكم؛ فأنتم تُحرَمونَ منها في أُخراكم الَّتي لم تَعمَلوا مِن أجْلِها شَيئًا(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٤٩)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٢٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٧، ٢٢٨).

قيل: معنى العَرضِ على النَّارِ: مُباشَرةُ عَذابِها. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ أبي زَمَنين، والزمخشري، وابن عطية، والثعالبي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٢٢٠).

قال الشنقيطي: (وقد ذكَرَ تعالى مِثلَ ما ذكر هنا في قوله: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣٤]، وهذا يدُلُّ على أنَّ المرادَ بالعَرضِ مُباشَرةُ العذابِ؛ لقوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ * ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦]؛ لأنَّه عَرضُ عذابٍ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٢٧).

وقيل: معنى ذلك: كَشفُ الغِطاءِ عن النَّارِ، وتقريبُهم منها، ورؤيتُهم لها. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقندي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٩).

وذلك كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣]. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٧-٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٩، ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

قال ابن العربي: (لا خِلافَ أنَّ هذه الآيةَ في الكُفَّارِ بنَصِّ القُرآنِ؛ لِقَولِه تعالى في أوَّلِها: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، أي: فيُقالُ لهم: أذْهَبتُم طَيِّباتِكم في حياتِكم الدُّنيا، يريدُ: أفْنَيْتُموها في الكُفرِ باللهِ ومَعصيتِه. وإنَّ اللهَ أحَلَّ الطيِّباتِ مِن الحلالِ واللَّذَّاتِ، وأمَرَ باستِعمالِها في الطَّاعاتِ، فصَرَفها الكُفَّارُ إلى الكُفرِ؛ فأوعَدَهم اللهُ بما أخبر به عنهم، وقد يَستعمِلُها المؤمِنُ في المعاصي، =

﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾.

أي: فاليَومَ تُجزَونَ العَذابَ الَّذي يُهينُكم ويُخزيكم ويُذِلُّكم(١).

﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي: تُجزَونَ عذابَ الهُونِ؛ بسبَبِ استِكبارِكم في الأرضِ ظُلمًا بغيرِ استِحقاقٍ لذلك(٢).

= فيَدخُلُ في وعيدٍ آخَرَ، وتَنالُه آيةٌ أخرى برجاءِ المَغفِرةِ، ويَرجِعُ أمرُه إلى المشيئةِ، فيُنفِذُ اللهُ فيه ما عَلِمَه منه، وكتَبَه له). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٢٧).

وقال الشنقيطي: (التَّحقيقُ إن شاء اللهُ في معنى هذه الآيةِ هو أنَّها في الكفَّارِ، وليست في المؤمنينَ الَّذين يتَمتَّعون باللَّذَّاتِ الَّتي أباحها الله لهم؛ لأنَّه تعالى ما أباحها لهم لِيُذهِبَ بها حَسَناتِهم. أمَّا كَوْنُ الآيةِ في الكفَّارِ فقد صرَّح اللهُ تعالى به في قولِه: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾ الآيةَ. والقرآنُ والسُّنَّةُ الصَّحيحةُ قد دَلَّا على أنَّ الكافرَ إنْ عَمِلَ عمَلًا صالحًا مُطابِقًا للشَّرعِ، مُخلِصًا فيه لله؛ كالكافرِ الَّذي يَبَرُّ والِدَيه، ويَصِلُ الرَّحِمَ، ويَقْري الضَّيفَ، ويُنَفِّسُ عن المكروبِ، ويُعينُ المظلومَ يَبتغي بذلك وجْهَ اللهِ: يُثابُ بعمَلِه في دارِ الدُّنيا خاصَّةً بالرِّزقِ والعافيةِ ونحوِ ذلك، ولا نصيبَ له في الآخرةِ. وأمَّا المؤمنُ الَّذي يُجزى بحسَناتِه في الدُّنيا والآخرةِ معًا فلم يُذهِبْ طَيِّباتِه في الدُّنيا؛ لأنَّ حسَناتِه مُدَّخَرةٌ له في الآخرةِ، مع أنَّ اللهَ تعالى يُثيبُه بها في الدُّنيا). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٢٩) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٢، ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣١).

قال الماوَرْدي: (﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ يحتملُ ثلاثةَ أوجُهٍ:

أحدُها: تَستَعْلُون على أهلِها بغيرِ استِحقاقٍ.

الثَّاني: تَتغلَّبون على أهلِها بغيرِ دِينٍ.

الثَّالثُ: تَعصُون اللهَ فيها بغيرِ طاعةٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٨١).

ممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ: استِكبارُهم عن توحيدِ اللهِ وعن الإيمانِ به وطاعتِه: مقاتلُ =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ * ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٥، ٧٦].

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

أي: وتُجزَونَ عَذابَ الهُونِ؛ بسَبَبِ خُروجِكم عن طاعةِ اللهِ، ووُقوعِكم في مَعصيتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ هذه الآيةُ وإنْ كانت في الكُفَّارِ فهي وازعةٌ لِأُولي النُّهَى مِن المؤمِنينَ عن الشَّهَواتِ، واستِكمالِ الطَّيِّباتِ[2]، وقد تورَّع أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ الله عنه عن كثيرٍ مِن طَيِّباتِ المآكِلِ والمَشارِبِ، وتَنزَّهَ عنها، وقال: (إنِّي

= ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، والواحدي، وابنُ الجوزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: طلبُ العُلوِّ والرِّفعةِ على أهلِ الأرضِ بغيرِ استِحقاقٍ: السمعاني، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣١).

قال الشوكاني: (جَعَل السَّبَبَ في عذابِهم أمْرَينِ: التَّكَبُّرَ عن اتِّباعِ الحقِّ، والعمَلَ بمعاصي اللهِ سُبحانَه وتعالَى، وهذا شأنُ الكَفَرةِ؛ فإنَّهم قد جمَعوا بيْنَهما). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦).

وقال ابن عاشور: (وقد يأخُذُ المسلِمُ بحَظٍّ مِن هذَينِ الجُرمَينِ فيَكونُ له حَظٌّ مِن جزائِهما الَّذي لَقِيَه الكافِرون، وذلك مُبيَّنٌ في أحكامِ الدِّينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٠، ١٠١).

أخافُ أن أكونَ كالَّذين قال اللهُ تعالى لهم وقرَّعهم: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾[١]. وقال ابنُ عُمَرَ رضيَ اللهُ عنهما: (لا يُصيبُ عبدٌ مِن الدُّنيا شيئًا إلَّا نقَصَ مِن درَجاتِه عندَ اللهِ، وإن كان عليه كريمًا)[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ إنَّ الصَّالِحينَ يُؤثِرونَ التَّقَشُّفَ والزُّهدَ في الدُّنيا؛ رَجاءَ أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤).

ويُنظر ما أخرجه مالكٌ في ((الموطَّأ)) (٢/ ٩٣٦)، وابنُ أبي شَيْبةَ (٢٤٥٢٤)، وابنُ أبي الدُّنيا في ((الجوع)) (٣٦)، وأبو نُعَيمٍ في ((حلية الأولياء)) (١/ ٤٩).

(٢) أخرجه ابنُ أبي الدُّنيا في ((الزهد)) (٢٩٧)، وجوَّد إسنادَه ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحِكَم)) (٢/ ١٨٨).

قال الحَليمي: (هذا الوعيدُ مِن الله [أي: المذكورُ في الآيةِ] وإن كان للكفَّارِ والَّذينَ يُقدِمون على الطَّيِّباتِ المحظورةِ، ولذلك قال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾، فقد يُخشى مِثلُه على المُنهَمِكينَ في الطَّيِّباتِ المباحةِ؛ لأنَّ مَن تعوَّدها مالتْ نفْسُه إلى الدُّنيا، فلم يُؤمَنْ أن يرتبكَ في الشَّهواتِ والمَلاذِّ، كلَّما أجاب إلى واحدةٍ منها دَعَتْه إلى غيرِها، فيَصيرَ إلى ألَّا يُمكِنَه عِصيانُ نفْسِه في هَوًى قطُّ، ويَنسَدَّ بابُ العبادةِ دُونَه، وإذا آلَ به الأمرُ إلى هذا لم يَبعُدْ أن يُقالَ: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾. فلا يَنبغي أن تُعوَّدَ النَّفْسُ بما يَميلُ بها إلى الشَّرَهِ، ثمَّ يَصعُبَ تَدارُكُها، ولْتَرْضَ مِن أوَّلِ الأمرِ على السَّدادِ؛ فإنَّ ذلك أهْوَنُ مِن أن يُدرَّبَ على الفسادِ، ثمَّ يَجتهِدَ في إعادتِها إلى الصَّلاحِ، واللهُ أعلَمُ). ((المِنهاج في شُعَب الإيمان)) (٣/ ٦١، ٦٢).

وقال ابن حجر: (الحقُّ أنَّ مُلازَمةَ استِعمالِ الطَّيِّباتِ تُفضي إلى التَّرَفُّهِ والبَطَرِ، ولا يأمنُ مِن الوُقوعِ في الشُّبُهاتِ؛ لأنَّ مَنِ اعتاد ذلك قد لا يَجِدُه أحيانًا، فلا يستطيعُ الانتِقالُ عنه فيَقَعَ في المحظورِ، كما أنَّ مَنْعَ تَناوُلِ ذلك أحيانًا يُفضي الى التَّنطُّعِ المنهيِّ عنه، ويَرِدُ عليه صريحُ قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، كما أنَّ الأخذَ بالتَّشديدِ في العبادةِ يُفضي إلى المَلَلِ القاطعِ لأصْلِها، ومُلازَمةَ الاقتِصارِ على الفرائضِ مثلًا وتَرْكِ التَّنفُّلِ يُفضي إلى إيثارِ البِطالةِ وعدَمِ النَّشاطِ إلى العبادةِ، وخيرُ الأمورِ الوسَطُ). ((فتح الباري)) (٩/ ١٠٦).

يكونَ ثوابُهم في الآخِرةِ أكمَلَ، إلَّا أنَّ هذه الآيةَ لا تدُلُّ على المَنعِ مِن التَّنَعُّمِ[(١)]؛ لأنَّ هذه الآيةَ ورَدَتْ في حَقِّ الكافِرِ، وإنَّما وبَّخ اللهُ الكافِرَ؛ لأنَّه يَتمَتَّعُ بالدُّنيا، ولم يُؤَدِّ شُكرَ المُنعِمِ بطاعتِه والإيمانِ به، وأمَّا المؤمِنُ فإنَّه يُؤدِّي بإيمانِه شُكرَ المُنعِمِ، فلا يُوَبَّخُ بتمَتُّعِه، والدَّليلُ عليه قَولُه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، والاحترازُ عن التَّنَعُّمِ أَوْلى؛ لأنَّ النَّفْسَ إذا اعتادت التَّنَعُّمَ صَعُب عليها الاحتِرازُ والانقِباضُ، وحينَئذٍ فرُبَّما حمَلَه المَيلُ إلى تلك الطَّيِّباتِ على فِعلِ ما لا ينبغي، وذلك ممَّا يَجُرُّ بَعضُه إلى بعضٍ، ويقَعُ في البُعدِ عن اللهِ تعالى بسَبَبِه[(٢)].

٣- مَن صام اليومَ عن شَهَواتِه أفطَرَ عليها بعدَ مماتِه، ومَن تعَجَّل ما حُرِّم عليه قبْلَ وَفاتِه عُوقِبَ بحِرمانِه في الآخرةِ وفَواتِه، وشاهِدُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ الآيةَ، وقَولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن شَرِبَ الخمرَ في الدُّنيا لم يَشرَبْها في الآخِرةِ إلَّا أنْ يَتُوبَ))[(٣)]، و: ((مَن لَبِسَ الحَريرَ في الدُّنيا لم يَلْبَسْهُ في الآخِرةِ))[(٤)]، فمَن تَرَكَ اللَّذَّةَ المحرَّمةَ للهِ استَوْفاها يومَ القيامةِ أكمَلَ ما تكونُ، ومَنِ استَوفاها هنا حُرِمَها هناك أو نُقِصَ كمالَها؛ فلا يَجعَلُ اللهُ لَذَّةَ مَن أسرَعَ في معاصيه ومَحارِمِه كلَذَّةِ مَن ترَكَ شَهوتَه

---

(١) قال ابنُ عاشور: (ليس في الآيةِ ما يَقتضي مَنْعَ المُسلِمِ مِن تَناوُلِ الطَّيِّباتِ في الدُّنيا إذا تَوخَّى حَلالَها، وعَمِلَ بواجِبِه الدِّينيِّ فيما عدا ذلك، وإنْ كان الزُّهدُ في الاعتِناءِ بذلك أرفَعَ دَرَجةً، وهي دَرَجةُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وخاصَّةٍ مِن أصحابه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٠٣) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ١٤٧).

والحديث الأخير أخرجه البخاريُّ (٥٨٣٢)، ومسلمٌ (٢٠٧٣) واللَّفظُ له مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

للهِ أبدًا[١]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ذكَر اللهُ تعالى فريقَ الكافرينَ، ووصَفهم بعقوقِ الوالدَينِ، وبإنكارِهم البعثَ، وفيه أنَّه لا شيءَ أفحشُ مِن عقوقِ الوالدَينِ، وإنكارِ الحشرِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يَقتَضي أنَّ الجِنَّ يموتونَ كما يموتُ البَشَرُ قَرنًا بعدَ قَرنٍ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أنَّ الجِنَّ مأمورون مَنهيُّونَ مُكَلَّفونَ بالشَّريعةِ الإسلاميَّةِ؛ فقد أخبَرَ اللهُ أنَّ منهم مَن حَقَّ عليه القَولُ -أي: وَجَبَ عليه العَذابُ-، وأنَّه خاسِرٌ، ولا يكونُ ذلك إلَّا في أهلِ التَّكليفِ المُستوجِبينَ العِقابَ بأعمالِهم، ثمَّ قال بعدَ ذلك: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي: في الخَيرِ والشَّرِّ يُوَفَّونَها ولا يُظلَمونَ شَيئًا مِن أعمالِهم، وهذا ظاهِرٌ جِدًّا في ثَوابِهم وعِقابِهم، وأنَّ مُسيئَهم كما يَستحِقُّ العذابَ بإساءتِه فمُحسِنُهم يَستحِقُّ الدَّرَجاتِ بإحسانِه ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾؛ فدلَّ ذلك لا مَحالةَ أنَّهم كانوا مأمورينَ بالشَّرائعِ، مُتعَبَّدينَ بها في الدُّنيا؛ ولذلك استحَقُّوا الدَّرَجاتِ بأعمالِهم في الآخِرةِ في الخَيرِ والشَّرِّ[٤]،

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٨).

ثمَّ قال: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ﴾، أي: جزاءَها مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وجَنَّةٍ ونارٍ، وهذا ظاهِرٌ أو نَصٌّ في أنَّ الجِنَّ يُثابُونَ بالإحسانِ، كما يُعاقَبونَ بالعِصيانِ(١).

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ أنَّ تفاوُتَ أهلِ النَّارِ في العذابِ هو بحَسَبِ تفاوُتِ أعمالِهم الَّتي دخَلوا بها النَّارَ(٢).

٥- أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ الدُّنيا والغِنى والمالَ إنَّما جعَلَها اللهُ مُتعةً لِمَن لا نصيبَ له في الآخرةِ؛ وأنَّ الآخِرةَ جعَلَها للمُتَّقينَ، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، وإلى هذا المعنى أشار النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقولِه لِعُمَرَ رضيَ الله عنه: ((أمَا تَرضَى أنْ تكونَ لهم الدُّنيا ولنا الآخِرةُ؟))(٣).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ احتجَّ به على أنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّرائعِ؛ لأنَّه علَّل عَذابَهم بأمْرَينِ؛ أوَّلُهما: الكُفرُ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وثانيهما: الفِسقُ. وهذا الفِسقُ لا بدَّ أن يكونَ مُغايِرًا لذلك الكُفرِ؛ لأنَّ العَطفَ يُوجِبُ المغايَرةَ؛ فثَبَت أنَّ فِسقَ الكُفَّارِ يُوجِبُ العِقابَ في حَقِّهم، ولا معنى للفِسقِ إلَّا تَركُ المأموراتِ وفِعلُ المَنهيَّاتِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٨١).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٢).

والحديث أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٤٩١٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٤٧٩) مِن حديثِ عمرَ بنِ الخطَّاب رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أنَّ عُقوبةَ التَّكَبُّرِ الهَوانُ والذُّلُّ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ ...﴾ هذا الفريقُ المَقصودُ مِن هذه الآياتِ المَبْدوءةِ بقَولِه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [الأحقاف: ١٥]. وهذا الفريقُ الَّذي كَفَرَ برَبِّه وأساء إلى والِدَيْه؛ فجُملةُ ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ الأحسَنُ أنْ تكونَ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ [الأحقاف: ٧] إلخ؛ وهي انتِقالٌ إلى مَقالةٍ أُخْرى مِن أُصولِ شِرْكِهم؛ وهي مَقالةُ إنْكارِ البَعثِ[(٢)].

- والمُرادُ بـ(الَّذي قَالَ): الجِنسُ القائلُ ذلك القولَ؛ ولذلك وَقَعَ الخبَرُ مَجموعًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾[(٣)] [الأحقاف: ١٨].

- و﴿أُفّٖ﴾: اسْمُ فِعلٍ بمَعنى: أتضَجَّرُ، وهو هنا مُستعمَلٌ كِنايةً عن أقلِّ الأذى؛ فيَكونُ الَّذين يُؤذُون والِدَيْهم بأكثَرَ مِن هذا أوغَلَ في العُقوقِ الشَّنيعِ، وأحْرى بالحُكْمِ؛ بدَلالةِ فَحْوى الخِطابِ[(٤)].

- والاستِفهامُ في ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ إنكارٌ وتَعجُّبٌ، وجُعِلَت جُملةُ الحالِ

---

(١) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦، ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٨).

وفحوى الخطاب تقدَّم تعريفه (ص: ٢٧٠).

-وهي ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾- قَيدًا لِمُنتهَى الإنكارِ، أي: كيف يكونُ ذلك في حالِ مُضِيِّ القُرونِ[١]؟!

- وقولُهما: ﴿وَيْلَكَ﴾ دُعاءٌ عليه بالثُّبورِ، والمُرادُ به الحثُّ والتَّحريضُ على الإيمانِ، لا حَقيقةُ الهَلاكِ، حيثُ إنَّ فيه إشْعارًا بأنَّ الفِعلَ المُرتَكبَ حَقيقٌ بأنْ يُهلَكَ مُرتكِبُه، وأنْ يُطلَبَ له الهَلاكُ، فإذا سمِعَ ذلك كان باعثًا على تَرْكِه[٢]، فكلمةُ (وَيْلَك) كَلمةُ تَهديدٍ وتَخويفٍ[٣].

- وليستْ جُملةُ ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ بَيانًا لمعنَى اسْتِغاثَتِهما، ولكنَّها مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه مَعنى الجُملةِ[٤].

- وقولُهما: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ تَعليلٌ لِلْأمرِ بالإيمانِ، وتَعريضٌ له بالتَّهديدِ مِن أنْ يَحِقَّ عليه وَعْدُ اللهِ[٥].

- وقولُهما: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: البعثَ، أضافَا الوعدَ إليه تعالَى؛ تَحقيقًا للحقِّ، وتَنبيهًا على خَطَئِه في إسنادِ الوعْدِ إليهما[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ...﴾ اسْتِحضارُ هذا الفريقِ بطَريقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤).

اسمِ الإشارةِ؛ لِزيادةِ تَمْييزِ حالِهم العَجيبةِ(١).

- وتَعريفُ ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ تَعريفُ العهْدِ، وهو قَولٌ مَعهودٌ عِندَ المُسلمينَ؛ لِمَا تَكرَّرَ في القُرآنِ مِن التَّعبيرِ عنه بالقَولِ في نحوِ آيةِ: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]، ونحوِ قولِه: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧] الآيةَ(٢).

- وقولُه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ تَعليلٌ للحُكمِ بطَريقِ الاستِئنافِ التَّحقيقيِّ(٣).

- وتأْكيدُ الكَلامِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ لأنَّهم يَظُنُّون أنَّ ما حصَلَ لهم في الدُّنيا مِن التَّمتُّعِ بالطَّيِّباتِ فَوزًا ليس بعْدَه نَكَدٌ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنون بالبَعثِ والجَزاءِ(٤).

- وإيرادُ فِعلِ الكَونِ ﴿كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (إنهم خاسِرون)؛ لِلْإشارةِ إلى أنَّ خُسْرانَهم مُحقَّقٌ؛ فكُنِّيَ عن ذلك بجَعْلِهم كائنينَ فيه، فـ(كان) تدُلُّ على أنَّ الخَسارةَ مُتمكِّنةٌ منهم(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ تنوينُ (كُلٍّ) تَنْوينُ عِوَضٍ عمَّا تُضافُ إليه (كُل)، وهو مُقدَّرٌ يُعلَمُ مِن السِّياقِ، أي: ولكلِّ الفَريقَينِ -المؤمِنُ البارُّ بوالِدَيْه، والكافرُ الجامِعُ بيْن الكُفْرِ والعُقوقِ- دَرَجاتٌ، أي: مَراتِبُ مِن التَّفاوُتِ في الخَيرِ بالنِّسبةِ لِأهْلِ جَزاءِ الخيرِ، وهمُ المُؤمِنون، ودَرَكاتٌ في الشَّرِّ لِأهْلِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩، ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الكُفْرِ(١).

- قولُه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ التَّعبيرُ عن مَراتِبِ المُؤمِنينَ والكافرينَ بالدَّرَجاتِ تَغليبٌ؛ لأنَّ الدَّرَجةَ مَرْتبةٌ في العُلوِّ، وهو عُلُوٌّ اعتباريٌّ إنَّما يُناسِبُ مَراتبَ الخَيرِ، وأمَّا المَرتبةُ السُّفْلى فهي الدَّرَكةُ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]؛ ووَجْهُ التَّغليبِ التَّنويهُ بشَأْنِ أهْلِ الخَيرِ(٢).

أو عُبِّر بالدَّرَجاتِ؛ لأنَّه تعالَى لَمَّا ذَكَر الفريقَ الأوَّلَ، ووَصَفَهم بثَباتٍ في القَولِ، واستِقامةٍ في الفِعلِ، ورتَّبَ عليه جَزاءَهم، وأوقَعَ قَولَه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥] اسْتِطْرادًا في البَيْنِ، وعقَّبَ ذلك بذِكْرِ فَريقِ الكافرينَ، ووصَفَهم بعُقوقِ الوالدَينِ، وبإنْكارِهم البَعثَ، وجعَلَ العُقوقَ أصْلًا في الاعتبارِ، وكرَّرَ في القِسمِ الأوَّلِ الجَزاءَ -وهو ذِكْرُ الجنَّةِ- مِرارًا ثلاثًا، وأفرَدَ جَزاءَ الكافِرِ -وهو ذِكرُ النَّارِ- وأخَّرَه بعْدَ ذِكرِ ما يَجمَعُهما مِن قَولِه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾؛ غلَّبَ الدَّرَجاتِ على الدَّرَكاتِ لذلك(٣).

وقيل: الدَّرَجاتُ هي: الطَّبقاتُ مِن المراتِبِ مُطلَقًا. أو فيه إضمارٌ، تَقديرُه: ولكلِّ فَريقٍ دَرَجاتٌ أو دَرَكاتٌ، لكنْ حُذِفَ الثَّاني اختِصارًا؛ لِدَلالةِ المَذْكورِ عليه(٤).

وقيل: المرادُ بالدَّرَجاتِ المراتِبُ المُتزايدةُ، إلَّا أنَّ زياداتِ أهلِ الجنَّةِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٠، ٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢١).

الخَيراتِ والطَّاعاتِ، وزياداتِ أهلِ النَّارِ في المعاصي والسَّيِّئاتِ[١].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ تَبْعيضيَّةٌ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، والمُرادُ بـ﴿مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ جَزاءُ ما عَمِلوا، فيُقدَّرُ مُضافٌ[٢].

- وقولُه: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ هو عِلَّةٌ لِمَحذوفٍ دلَّ عليه الكَلامُ، وتَقديرُه: قدَّرْنا جَزاءَهم على مَقاديرِ دَرجاتِهم؛ لِنُوَفِّيَهم جَزاءَ أعْمالِهم، أي: نُجازِيَهم تامًّا وافيًا لا غَبْنَ فيه[٣].

- وجُملةُ ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ احتِراسٌ مَنظورٌ فيه إلى تَوفيةِ أحَدِ الفريقَينِ، وهو الفريقُ المُستحِقُّ للعُقوبةِ؛ لِئلَّا يُحسَبَ أنَّ التَّوفيةَ بالنِّسبةِ إليهم أنْ يكونَ الجَزاءُ أشدَّ ممَّا تَقْتضيه أعمالُهم[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾ انْتِقالٌ إلى وَعيدِ الكافرينَ على الكُفْرِ بحَذافِرِه، وذلك زائدٌ على الوَعيدِ المُتقدِّمِ المُتعلِّقِ بإنْكارِهم البَعثَ مع عُقوقِهم الوالدَينِ المُسلِمينَ؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾[الأحقاف: ١٧] الآياتِ[٥].

- والكلامُ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: ويُقالُ لِلَّذينَ كفَروا يومَ يُعرَضونَ على النَّارِ: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ ...﴾ ومُناسَبةُ ذِكْرِه هنا: أنَّه تَقريرٌ لِمَعنى ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩]، أي: لا يُظلَمون في جَزاءِ الآخرةِ، مع أنَّنا أنعَمْنا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عليهم في الدُّنيا، ولو شِئْنا لَعَجَّلْنا لهم الجَزاءَ على كُفْرِهم في الحياةِ الدُّنيا، فهو إعذارٌ لهم وتَقريرٌ لِكَونِهم لا يُظلَمونَ، فرُتِّبَ عليه قولُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾؛ فالفاءُ فَصيحةٌ، والتَّقديرُ: إنْ كان كذلك فاليَومَ لم يَبْقَ لكمْ إلَّا جَزاءُ سَيِّئِ أعْمالِكم، وليستِ الفاءُ للتَّفريعِ ولا للتَّسبُّبِ[1].

- قولُه: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾ بهَمزةٍ واحدةٍ، على أنَّه خَبرٌ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ، وقُرِئَ: ﴿أَأَذْهَبْتُمْ﴾ بهَمْزتينِ[2]، وهذا الاستِفهامُ هو على مَعنى التَّوبيخِ والتَّقريرِ؛ فتَؤولُ القِراءتانِ إلى مَعنًى واحدٍ[3].

- وفي هذِه الآيةِ كِنايةٌ عن عَدَمِ الإيمانِ، والمعنى: أنَّه كانتْ تَكونُ لكمْ طَيِّباتُ الآخِرةِ لو آمنْتُم، لكنَّكم لم تُؤمِنوا، فاسْتَعْجَلْتم طَيِّباتِكم في الحياةِ الدُّنيا، ثمَّ بيَّنَ تلك الكِنايةَ بقَولِه: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أي: تَترفَّعون عن الإيمانِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾ أي: بمَعاصي الجوارِحِ. وقدَّمَ ذَنْبَ القلْبِ -وهو الاستِكبارُ- على ذَنْبِ الجوارِحِ؛ إذ أعمالُ الجوارِحِ ناشئةٌ عن مُرادِ القلْبِ[4]، ولأنَّ أحوالَ القُلوبِ أعظَمُ وَقعًا مِن أعمالِ الجوارِحِ[5].

- قولُه: ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ قولُه: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ زيادةٌ لِتَشنيعِ الاستِكبارِ بِذِكْرِ ما هو صِفةٌ لازِمةٌ له، وهو مُغايَرةُ الحَقِّ، أي: بالباطِلِ، وهي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٢، ٤٣).

(٢) وهي قراءةُ ابنِ كَثيرٍ، وابنِ عامرٍ، وأبي جَعفرٍ، ويَعْقوبَ، وقرأَها الباقونَ بهمزةٍ واحدةٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣).

حالٌ لازِمةٌ للاستِكبارِ، كاشِفةٌ لِوَصفِه؛ إذِ الاستِكبارُ لا يكونُ بحَقٍّ في جانِبِ الخَلْقِ[(١)].

وقيل: قَولُه: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ صِلةٌ للاستِكبارِ، وقَيدٌ له؛ فإنَّه يُتَصَوَّرُ أن يَتكَلَّفَ الإنسانُ إعلاءَ نَفْسِه على غَيرِه أو إكثارَه مِنَ الاستِعلاءِ عليه بحَقٍّ، كالتَّرفُّعِ عن المُبطِلينَ، وإهانةِ الجبَّارينَ، واحتِقارِ المحارِبينَ، وإن كان الأصلُ الغالِبُ في الاستِكبارِ أن يكونَ بغيرِ الحَقِّ.

أو المعنى: أنَّهم يَستَكبِرونَ حالةَ كَونِهم مُتلَبِّسينَ بغَيرِ الحَقِّ، أي: مُنغَمِسينَ في الباطِلِ؛ فأمثالُ هؤلاءِ لا قيمةَ للحَقِّ في نَفْسِه عِندَهم، فهم لا يَطلُبونَه، ولا يَبحَثونَ عنه[(٢)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٥). والكلام المذكور على قوله تعالى: ﴿يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٧٠). والكلام المذكور على قوله: ﴿يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

الآيات (٢١-٢٥)

﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾: الأحقافُ: جَمعُ حِقْفٍ، وهو ما استطالَ وانحنَى مِنَ الرَّملِ كهَيئةِ الجَبَلِ، ولم يَبلُغْ أن يكونَ جَبَلًا، وأصلُ (حقف): يدُلُّ على مَيلِ الشَّيءِ وعِوَجِه[1].

﴿خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾: أي مضَتِ الرُّسُلُ، يُقالُ: خلا الزَّمانُ، أي: مضى وذهَبَ، والنُّذُرُ جمْعُ نذيرٍ، بمعنى مُنذِرٍ، أي: محَذِّرٍ، والإنذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يكادُ يكونُ إلَّا في التَّخويفِ، وأصلُ (نذر): تخويفٌ[2].

﴿لِتَأْفِكَنَا﴾: أي: لِتَصرِفَنا، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١، ٢٣٢).

جِهتِه[١].

﴿عَارِضًا﴾: أي: سَحابًا يَعرِضُ -أي: يبدو- في ناحيةٍ مِن السَّماءِ؛ سُمِّي بذلك لأنَّه يبدو في عَرضِ السَّماءِ، وأصلُ (عرض): يدُلُّ على خِلافِ الطُّولِ[٢].

﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: الجُرمُ بالضَّمِّ: لا يُطلَقُ إلَّا على الذَّنْبِ الغليظِ، وأصلُه مِن الجَرْمِ وهو القطْعُ، وسُمِّي الذَّنْبُ بالجُرْمِ والجريمةِ؛ لأنَّه كسبٌ، والكسبُ اقْتِطاعٌ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يُسلِّي الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم في تكذيبِ مَن كذَّبه مِن قَومِه، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- هُودًا أخا عادٍ في النَّسَبِ حينَ خوَّف قَومَه -الَّذين كانت مَنازِلُهم في مَنطِقةِ الأحقافِ- عذابَ اللهِ على كُفْرِهم، وقد مَضَت الرُّسُلُ مِن قَبلِ هُودٍ ومِن بَعدِه بإنذارِ قَومِهم عذابَ اللهِ إنْ عَبَدوا غيرَه، فأنذَرَهم قائلًا لهم: إنِّي أُحَذِّرُكم عِبادةَ أحَدٍ سِوى اللهِ؛ لأنِّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ هائِلٍ عَظيمٍ.

قال قومُ هودٍ له مُستَنكِرينَ: أجِئْتَنا لِتَصرِفَنا وتَصُدَّنا عن عبادةِ آلهتِنا؟! فإنْ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

كان الأمرُ كما تقولُ فأْتِنا بما تَعِدُنا به مِن العَذابِ العَظيمِ إنْ كُنتَ مِن الصَّادقينَ فيما أخبَرْتَنا به!

قال هودٌ لِقَومِه: إنَّما عِلمُ وَقتِ نُزولِ العَذابِ بكم عندَ اللهِ لا عِندي، وإنَّما أنا رَسولٌ مِنَ اللهِ إليكم، أُبَلِّغُكم ما أُرسِلْتُ به إليكم، فرِسالتي محصورةٌ في التَّبليغِ والإنذارِ، ولكِنِّي أراكم قَومًا تَجهَلونَ الحَقَّ، وتُصِرُّونَ على الباطِلِ.

فأتَى العذابُ الَّذي استعجَلَه قَومُ هودٍ إليهم، فلمَّا رأَوْه بأعيُنِهم مُتمَثِّلًا في سَحابٍ يَظهَرُ في أُفُقِ السَّماءِ مُتَّجِهًا نحوَ أوديَتِهم ومَساكِنِهم، ظَنُّوه مَطَرًا سيَنزِلُ عليهم، ففَرِحوا به، وقالوا: هذا سَحابٌ سيُمطِرُنا! قيلَ لهم: ما رأيتُموه ليس سَحابًا مُمطِرًا كما ظنَنْتُم، وإنَّما هو العذابُ الَّذي استَعجَلْتُم نُزولَه! هو رِيحٌ فيها عَذابٌ مُوجِعٌ، تُهلِكُ كُلَّ شَيءٍ لَدَى قَومِ هودٍ بإذنِ اللهِ، فأصبحَ قَومُ هُودٍ هالِكينَ كُلُّهم؛ فلا يُرى مِن بلادِهم شَيءٌ إلَّا مَنازِلُهم الَّتي كانوا يَسكُنونَها؛ عِبرةً لِغَيرِهم، مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذي جازَيْنا به عادًا قَومَ هودٍ نَجزي القَومَ الَّذين مِن دَأْبِهم الإجرامُ والطُّغيانُ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أهلُ مكَّةَ مُستغرِقينَ في لَذَّاتِ الدُّنيا، مُعرِضينَ عن الإيمانِ وما جاء به الرَّسولُ؛ ذكَّرَهم بما جرَى لِلعرَبِ الأُولى، وهم قَومُ عادٍ، وكانوا أكثَرَ أموالًا، وأشَدَّ قُوَّةً، وأعظَمَ جاهًا فيهم، فسُلِّطَ عليهم العَذابُ بسَبَبِ كُفْرِهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٤).

وأيضًا لَمَّا هَدَّد اللهُ سُبحانَه المُشرِكينَ بالأُمورِ الأُخرويَّةِ، وختَمَ بالعَذابِ على الاستِكبارِ المذمومِ والفِسقِ؛ عَطَف عليه تَهديدَهم بالأُمورِ المحسوسةِ[١].

﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- هُودًا أخا عادٍ في النَّسَبِ حينَ خوَّف وحذَّرَ قَومَه عذابَ اللهِ على كُفْرِهم بمَنطِقةِ الأحقافِ الَّتي كانت فيها مَنازِلُهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

أي: وقد مَضَت الرُّسُلُ بإنذارِ قَومِهم عذابَ اللهِ إنْ عَبَدوا غيرَه، مِن قَبْلِ هُودٍ ومِن بَعدِه[٣].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٠، ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

قال ابنُ جُزَي: (واختُلِفَ أينَ كانت [أي: الأحقافُ]؟ فقيل: بالشَّامِ. وقيل: بيْنَ عُمَانَ ومَهَرةَ. وقيل: بيْنَ عُمَان وحَضْرَمَوْتَ. والصَّحيحُ أنَّ بلادَ عادٍ كانت باليَمَنِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٧).

وقال الشنقيطي: (الأحقافُ جمعُ الحِقْفِ، والحِقْفُ: هو الجَبَلُ الممتدُّ العالي مِن الرَّملِ، فهم في رمالٍ هناك، كانت مَنازِلُهم في رمالٍ تتخلَّلُها أوديةٌ في نواحِي اليمنِ أو حَضْرَمَوْتَ). ((العذب النمير)) (٣/ ٤٧٦).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٤).

قال الزَّجَّاج: (أي: قد أُنذِروا بالعذابِ إن عَبدوا غيرَ اللهِ فيما تقدَّم قبْلَ إنذارِ هودٍ، وعلى لسانِ هودٍ عليه السَّلامُ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤٤٥). ويُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٩٧). =

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: قال هودٌ لِقَومِه: إنِّي أخافُ أن يُصيبَكم عذابُ يومٍ هائلٍ(١).

= وقال الزمخشري: (المعنى: أنَّ هُودًا عليه السَّلامُ قد أنذَرَهم، فقال لهم: لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ إنِّي أخافُ عليكم العذابَ، وأعلَمَهم أنَّ الرُّسُلَ الَّذين بُعِثوا قَبْلَه والَّذين سيُبعَثون بعدَه كُلُّهم مُنذِرونَ نحوَ إنذارِه... ولك أن تجعَلَ قَولَه تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ اعتراضًا بيْنَ ﴿أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ وبيْنَ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾، ويكونَ المعنى: واذكُرْ إنذارَ هُودٍ قَومَه عاقبةَ الشِّركِ والعذابَ العَظيمَ، وقد أنذَرَ مَن تَقدَّمَه مِنَ الرُّسُلِ ومَن تأخَّرَ عنه مِثلَ ذلك؛ فاذْكُرْهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٦).

وممَّن قال بأنَّ المراد بقَولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾: مِن قَبْلِ هودٍ، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾: مِن بَعدِ هُودٍ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٤).

وقال ابنُ كثير: (قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ يعني: وقد أرسلَ اللهُ إلى مَن حوْلَ بلادِهم مِن القُرى مُرسَلينَ ومُنذِرينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٥).

وقال ابن عاشور (﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ بمعنى: قريبًا مِن زمانِه، وبعيدًا عنه، فـ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ معناه القُربُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، أي: قبْلَ العذابِ قَريبًا منه... وأمَّا الَّذي مِن خَلْفِه فنوحٌ؛ فقد قال هودٌ لِقَومِه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وهذا مُراعاةٌ للحالةِ المقصودِ تَمثيلُها، فهو ناظِرٌ إلى قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي: قد خَلَت مِن قَبلِه رُسُلٌ مِثلَ ما خَلَت بتلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

قال ابن عاشور: (وعذابُ اليومِ العظيمِ يحتمِلُ الوعيدَ بعذابِ يومِ القيامةِ، وبعذابِ يومِ الاستِئْصالِ في الدُّنيا، وهو الَّذي عُجِّل لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦). =

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾.

أي: قال كُفَّارُ عادٍ لِنَبيِّهم هودٍ: أجِئْتَنا لِتَصرِفَنا وتَصُدَّنا عن عبادةِ آلهتِنا، فنَترُكَها إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

أي: فعَجِّلْ لنا -يا هودُ- هذا العذابَ الَّذي تَعِدُنا به إنْ كُنتَ مِن الصَّادقينَ فيما تدَّعيه[2]!

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ٢٣﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قال هودٌ لِقَومِه: إنَّما العِلمُ بوَقتِ مَجيءِ العذابِ عندَ اللهِ لا عندي؛ فهو

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ: وُقوعُ هذا العذابِ في الدُّنيا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٢٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به: عذابُ يومِ القيامةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦).

قال البِقاعي: (﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ لا يَدَعُ جِهةً إلَّا ملأها عذابُه إنْ أصرَرْتُم على ما أنتم فيه مِنَ الشِّركِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٧).

مَنْ يُنزِلُ عليكم عذابَه متى شاء[(١)].

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾.

أي: وإنَّما أنا رَسولٌ مِنَ اللهِ إليكم، وما عَلَيَّ إلَّا أن أُبَلِّغَكم عن رَبِّكم ما أمَرَني بدَعوتِكم إليه مِنَ التَّوحيدِ وغَيرِه[(٢)].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢].

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾.

أي: ولكِنِّي أراكم قومًا تَجهَلونَ الحَقَّ؛ فصَدَر منكم ما صَدَر مِن جُرأةٍ على الكُفرِ والتَّكذيبِ[(٣)].

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾.

أي: فلمَّا جاء كُفَّارَ عادٍ عَذابُ اللهِ، فرأوه سَحابًا أسْوَدَ مُعترِضًا في الأُفُقِ يَسيرُ نحوَ أودِيَتِهم؛ ظَنُّوه مَطَرًا سيَنزِلُ عليهم، ففَرِحوا به، وقالوا: هذا سَحابٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٦، ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦).

سيُمطِرُنا(١)!

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا عصَفَت الرِّيحُ قال: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك خَيْرَها وخيرَ ما فيها، وخيرَ ما أُرسِلَتْ به، وأعوذُ بك مِن شَرِّها وشَرِّ ما فيها، وشَرِّ ما أُرسِلَت به. قالت: وإذا تخَيَّلَت(٢) السَّماءُ تغيَّرَ لَونُه، وخرجَ ودخَلَ، وأقبَلَ وأدبَرَ، فإذا مَطَرَت سُرِّيَ(٣) عنه، فعَرَفْتُ ذلك في وَجهِه، قالت عائِشةُ: فسألْتُه، فقال: لَعَلَّه يا عائِشةُ كما قال قَومُ عادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾))(٤).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((نُصِرْتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٧، ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٩، ٥٠).

قال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرون: كان المَطَرُ قد حُبِسَ عن عادٍ، فساقَ اللهُ إليهم سَحابةً سوداءَ، فلمَّا رأَوها فَرِحوا وقالُوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٠).

وقال ابنُ جرير: (العربُ تُسَمِّي السَّحابَ الَّذي يُرى في بَعضِ أقطارِ السَّماءِ عَشِيًّا ثمَّ يُصبِحُ مِن الغَدِ قد استوى وحَبَا بَعضُه إلى بَعضٍ: عارِضًا؛ وذلك لِعَرضِه في بعضِ أرجاءِ السَّماءِ حينَ نشَأَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٦).

وقال الماوردي: (وفي تسميتِه عارِضًا ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: لأنَّه أخَذَ في عَرضِ السَّماءِ. قاله ابنُ عيسى. الثَّاني: لأنَّه يملأُ آفاقَ السَّماءِ. قاله النَّقَّاشُ. الثَّالِثُ: لأنَّه مارٌّ من السَّماءِ، والعارِضُ هو المارُّ الَّذي لا يَلبَثُ. وهذا أشبَهُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٨٣).

وقال ابنُ عاشور: (ويُطلَقُ الوادي على مَحلَّةِ القَومِ ونُزُلِهم إطلاقًا أغلبيًّا؛ لأنَّ غالِبَ مَنازِلِهم في السُّهولِ ومَقارِّ المياهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٩).

(٢) تخَيَّلَتْ: أي: تغَيَّمَت وظَهَر فيها أثَرُ المَطَرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١١٥).

(٣) سُرِّيَ عنه: أي: كُشِفَ الخَوفُ، وأُزيلَ عنه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١١٥).

(٤) رواه البخاريُّ (٤٨٢٩)، ومسلمٌ (٨٩٩) واللَّفظُ له.

بالصَّبا[(١)]، وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ[(٢)]))[(٣)].

﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾.

أي: قيلَ لهم: ما رأيْتُموه ليس سَحابًا مُمطِرًا في الواقِعِ كما ظنَنْتُم، وإنَّما هو العذابُ الَّذي استعجَلْتُموه[(٤)].

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: هو رِيحٌ فيها عَذابٌ مُوجِعٌ شَديدُ الإيلامِ[(٥)]!

---

(١) الصَّبَا: رِيحٌ شَرقيَّةٌ تهُبُّ مِن مَطلَعِ الشَّمسِ، وهي حارَّةٌ يابِسةٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١١٤).

(٢) الدَّبُورُ: رِيحٌ غَربيَّةٌ بارِدةٌ رَطْبةٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١١٤).

(٣) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦).

قيل: قائلُ هذا هو هودٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، قاله لِقَومِه حينَ جاءهم العذابُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والواحديُّ، والزمخشري، وابن عطية، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٨٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، وعَمرُو بنُ مَيمونٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٦).

وظاهِرُ كلامِ ابنِ كثيرٍ والسَّعديِّ أنَّه مِن قَولِ الله لهم. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عَمرُو بنُ مَيمونٍ في روايةٍ عنه، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير سفيان الثوري)) (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٦).

وقال القرطبي: (أي: قال اللهُ: قُلْ: بل هو ما استعجَلْتُم به). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٦).

وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يكونَ مِن قَولِ هودٍ إن كان هودٌ بيْنَ ظَهرانَيْهم... أو هو مِن قَولِ بَعضِ رِجالِهم رأى مخائِلَ الشَّرِّ في ذلك السَّحابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٧)، ((البسيط)) =

كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨].

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)﴾.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.

أي: تُهلِكُ الرِّيحُ كُلَّ شَيءٍ مَرَّت به مِمَّا أُرْسِلَتْ بهلاكِه بإذْنِ اللهِ لها في ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾.

أي: فأصبحَ قَومُ هُودٍ هالِكِينَ كُلُّهم؛ فلا يُرَى مِن بلادِهم شَيءٌ إلَّا مَنازِلُهم الَّتي كانوا يَسكُنونَها[2].

= للواحدي (٢٠/ ١٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٠).

قال ابن جُزَي: (﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ عُمومٌ يُرادُ به الخُصوصُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٨).

قال ابنُ القَيِّم: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: كُلَّ شَيءٍ يَقبَلُ التَّدميرَ، ومِن شَأنِ الرِّيحِ أن تُدَمِّرَه). ((زاد المعاد)) (٤/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذي جازَيْنا به عادًا قَومَ هودٍ في الدُّنيا نَجزي القَومَ الكافِرينَ الَّذين طَغَوا وعَتَوا؛ فلْيَحذَرِ المُشرِكونَ المُخالِفونَ أمرَ اللهِ أن نُهلِكَهم كما أهلَكْنا مَن قَبْلَهم[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٣، ١٤].

= (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥١).

قال الماتُريدي: (وقَولُه عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ الآيةَ، يحتمِلُ: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ وَجهَين:

أحَدُهما: أي: لم تَترُكِ الرِّيحُ مِن عادٍ وممَّا لهم إلَّا مساكِنَهم الَّتي ذَكَرَ.

والثَّاني: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ إلَّا آثارُ مَساكِنِهم.

فعلى أحَدِ التَّأويلَينِ تَرَكت لهم المساكِنَ لم تُهلِكْها، وعلى التَّأويلِ الآخَرِ: تَرَكت آثارَ مَساكِنِهم، فأمَّا نَفْسُ مَساكِنِهم فقد أهلَكَتْها... لكِنْ سَمَّاها مساكِنَ باسْمِ ما قد كان، وأنَّه أمرٌ مُستَعمَلٌ في عُرفِ لِسانِ اللُّغةِ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٥٣).

القَولُ الأوَّلُ: أنَّ اللهَ أبقَى مساكِنَ عادٍ على حالِها، ولم تُدَمِّرْها الرِّيحُ: هو اختيارُ ابنِ جرير، والواحدي، والبغوي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٦).

وممَّن ذهب إلى القولِ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالآيةِ: بقاءُ آثارِ مَساكِنِهم وأنقاضِها: الخازنُ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُه تعالى حكايةً عن هودٍ عليه السَّلامُ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيه بَيانُ أنَّه يَنبغي للدَّاعيةِ أن يَقرِنَ الدَّعوةَ بالتَّخويفِ، وأن يكونَ غيرَ مُصَرِّحٍ بذلك؛ لِقَولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، ولم يقُلْ: إنَّكم ستُصابونَ بيَومٍ عَظيمٍ؛ لأنَّ المقامَ يَقتَضي ذلك، ولِكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ عبَّرَ بالأُخُوَّة؛ تَسليةً لِنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ قَطيعةَ القَومِ لِمَن هو منهم، ويَعلَمونَ مَناقِبَه ومَفاخِرَه: أوجَعُ[٢].

٢- قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ أرسلَ اللهُ إليهم أخاهم في النَّسَبِ هُودًا؛ لِيتَمَكَّنوا مِن الأخذِ عنه[٣]؛ لأنَّهم عنه أفهَمُ، وبحالِه في الثِّقةِ والأمانةِ أعرَفُ[٤].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ فيه سُؤالٌ: وصَفَ تعالى هُودًا بأنَّه أخوهم، ومعلومٌ أنَّ تلك الأخوَّةَ ما كانت في الدِّينِ، وإنَّما كانت في النَّسَبِ، وقد قال تعالى في ابنِ نوحٍ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، فبَيَّنَ أنَّ قَرابةَ النَّسَبِ لا تُفيدُ إذا لم تحصُلْ قَرابةُ الدِّينِ، وهاهنا أثبتَ هذه الأُخُوَّةَ مع الاختلافِ في الدِّينِ، فما الفرقُ بيْنَهما؟

الجوابُ: أنَّ المرادَ مِن هذا الكلامِ استِمالةُ قَومِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ قَومَه كانوا يَستبعِدونَ في محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم -مع أنَّه واحِدٌ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٣٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٣٣).

قَبيلتِهم- أن يكونَ رَسولًا إليهم مِن عندِ الله، فذكرَ الله تعالى أنَّ هودًا عليه السَّلامُ كان واحِدًا مِن عادٍ؛ لإزالةِ هذا الاستِبعادِ[(١)].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ﴾ في الآيةِ دَليلٌ على جوازِ تَسميةِ القَريبِ الكافِرِ أخًا[(٢)].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ الوَعدَ قد يُوضَعُ مَوضِعَ الوَعيدِ[(٣)]. وقيل: سَمَّوا الوعيدَ وَعدًا؛ استِهزاءً به[(٤)].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ إنَّما صَلَح هذا الكَلامُ جَوابًا لِقَولِهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾؛ لأنَّ قَولَهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ استِعجالٌ منهم لذلك العَذابِ، فقال لهم هودٌ عليه السَّلامُ: لا عِلمَ عندي بالوَقتِ الَّذي يَحصُلُ فيه ذلك العَذابُ، إنَّما عِلمُ ذلك عندَ اللهِ تعالى ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ هو التَّحذيرُ عن العذابِ، وأمَّا العِلمُ بوَقتِه فما أوحاه اللهُ إلَيَّ[(٥)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ التَّخصيصُ بالحِسِّ؛ فإنَّ الحِسَّ دَلَّ على أنَّها لم تُدَمِّرِ السَّماءَ والأرضَ، ومِنَ العُلَماءِ مَن يرى أنَّ ما خُصَّ بالحِسِّ والعَقلِ ليس مِنَ العامِّ المخصوصِ، وإنَّما هو مِنَ العامِّ الَّذي أُريدَ به الخُصوصُ؛ إذ المَخصوصُ لم يكُنْ مُرادًا عندَ المتكَلِّمِ ولا المُخاطَبِ مِن أوَّلِ الأمرِ، وهذه حقيقةُ العامِّ الَّذي أُريدَ به الخُصوصُ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٤).

(٦) يُنظر: ((الأصول من علم الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٤١). =

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فكيفَ يَبقى التَّخويفُ حاصِلًا؟

الجوابُ: قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ إنَّما أُنزِلَ في آخِرِ الأمرِ؛ فكان التَّخويفُ حاصِلًا قبْلَ نُزولِه[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾

- سِيقَت قِصَّةُ هُودٍ وقَومِه مَساقَ المَوعظةِ لِلمُشرِكينَ الَّذين كذَّبوا بالقُرآنِ، كما أخبَرَ اللهُ عنهم مِن أوَّلِ هذه السُّورةِ في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣]، مع ما أُعقِبَت به مِن الحُجَجِ المُتقدِّمةِ مِن قَولِه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٤]، الَّذي يُقابِلُه قَولُ هُودٍ ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ثمَّ قَولِه: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:

= وقد قرَّر الشَّاطبيُّ أنَّ لِلعُمومِ صِيَغًا وضعيَّةً، ثمَّ ذكَر أنَّ للعُمومِ الَّذي تدُلُّ عليه الصِّيَغُ بحسَبِ الوضعِ نظَرَينِ؛ أحدُهما: باعتِبارِ ما تدُلُّ عليه الصِّيغةُ في أصلِ وضْعِها على الإطلاقِ. والثَّاني: بحسَبِ المقاصِدِ الاستِعماليَّةِ الَّتي تَقضي العوائدُ بالقصدِ إليها، وإن كان أصلُ الوضعِ على خِلافِ ذلك، إلى أن قال: (فالحاصِلُ أنَّ العُمومَ إنَّما يُعتبَرُ بالاستِعمالِ، ووُجوهُ الاستِعمالِ كثيرةٌ، ولكنَّ ضابِطَها مُقتَضياتُ الأحوالِ الَّتي هي مِلاكُ البيانِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ لم يُقصَدْ به أنَّها تُدمِّرُ السَّمواتِ والأرضَ والجبالَ، ولا المياهَ ولا غيرَها ممَّا هو في معناها، وإنَّما المقصودُ: تُدمِّرُ كلَّ شَيءٍ مرَّتْ عليه ممَّا شأنُها أن تؤثِّرَ فيه على الجُملةِ؛ ولذلك قال: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾. وقال في الآيةِ الأخرى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]). ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ١٨-٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥).

٩]، الَّذي يُقابِلُه قَولُه: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾؛ ذلك كُلُّه بالمَوعظةِ بحالِ هُودٍ عليه السَّلامُ مع قَومِه. وسِيقَتْ أيضًا مَساقَ الحُجَّةِ على رِسالةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وعلى عِنادِ قَومِه، بذِكرِ مِثالٍ لِحالِهم مع رَسولِهم بحالِ عادٍ مع رَسولِهم. ولها أيضًا مَوقِعُ التَّسليةِ لِلرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم على ما تَلقَّاهُ به قَومُه مِن العِنادِ والبُهتانِ؛ لِتَكونَ مَوعِظةً وتَسليةً معًا، يأْخُذُ كلٌّ منها ما يَليقُ به. ولا تَجِدُ كَلِمةً أجمَعَ لِلْمعنيَينِ مِن كَلمةِ (اذْكُرْ)؛ لأنَّها تَصلُحُ لِمَعنى الذِّكرِ اللِّسانيِّ؛ بأنْ يُرادَ أنْ يَذكُرَ ذلك لِقَومِه، ولمعنَى الذُّكْرِ بالضَّمِّ؛ بأنْ يَتذكَّرَ تلك الحالةَ في نفْسِه، وإنْ كانت تَقدَّمَت له وأمْثالُها؛ لأنَّ في التَّذكُّرِ مَسلاةً وأُسوةً، كقَولِه تعالَى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]. وكِلَا المَعنيَينِ ناظِرٌ إلى قَولِه آنِفًا: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]؛ فإنَّه إذا قال لهمْ ذلك، تَذكَّروا ما يَعرِفون مِن قَصَصِ الرُّسلِ ممَّا قصَّه عليهم القُرآنُ مِن قبْلُ، وتَذكَّرَ هو -لا مَحالةَ- أحْوالَ رُسلٍ كَثيرينَ، ثمَّ جاءتْ قِصَّةُ هُودٍ مِثالًا لذلك. ومُشرِكو مكَّةَ إذا تَذكَّروا في حالِهم وحالِ عادٍ، وَجَدوا الحالَينِ مُتماثِلَينِ؛ فيَجدُرُ بهم أنْ يَخافوا مِن أنْ يُصِيبَهم مِثلُ ما أصابَهم(١).

- قولُه: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ...﴾ فيه الاقتِصارُ على ذِكرِ عادٍ؛ لأنَّهم أوَّلُ الأُمَمِ العربيَّةِ الَّذين جاءَهُم رَسولٌ بعْدَ رِسالةِ نُوحٍ العامَّةِ، وقد كانتْ رِسالةُ هُودٍ ورِسالةُ صالِحٍ قبْلَ رِسالةِ إبراهيمَ عليهم السَّلامُ، وتأْتي بعْدَ ذِكرِ قصَّتِهم إشارةٌ إجماليَّةٌ إلى أُمَمٍ أُخْرى مِن العرَبِ كذَّبوا الرُّسلَ، في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [الأحقاف: ٢٧] الآيةَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٤، ٤٥).

- وأخو عادٍ هو هُودٌ، وعُبِّرَ عنه هنا بوَصْفِه دُونَ اسْمِه العَلَم؛ لأنَّ المُرادَ بالذِّكْرِ هنا ذِكرُ التَّمثيلِ والمَوعظةِ لِقُريشٍ بأنَّهم أمثالُ عادٍ في الإعراضِ عن دَعوةِ رَسولٍ مِن أُمَّتِهم[١].

- وذُكِرَ الإنذارُ هنا دُونَ الدَّعوةِ أو الإرسالِ؛ لِمُناسَبةِ تَمْثيلِ حالِ قَومِ هُودٍ بحالِ قَومِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فهو ناظِرٌ إلى قَولِه تعالى في أوَّلَ السُّورةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾[٢] [الأحقاف: ٣].

- وجُملةُ ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، مُؤكِّدٌ لِوُجوبِ العَملِ بمُوجبِ الإنْذارِ، وُسِّط بيْنَ ﴿أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ﴾ وبيْنَ قَولِه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ مُسارَعةً إلى ما ذُكِرَ مِن التَّقريرِ والتَّأْكيدِ، وإيذانًا باشْتِراكِهم في العِبارةِ المَحكيَّةِ[٣]، على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وأيضًا قولُه: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ أي: مِن بَعْدِه، وجاء لَفْظُ ﴿خَلَتِ﴾ بالماضي -والمُرادُ: الَّذين سيُبْعَثون- على سَنَنِ الإخبارِ عن المُستقبَلِ بالماضي؛ تَحْقيقًا له[٤]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وجُملةُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ تَعليلٌ لِلنَّهيِ في قَولِه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أي: إنِّي أخافُ عليكم عَذابَ يَومٍ عَظيمٍ بسَببِ شِرْكِكم، ووُصِفَ اليومُ بالعِظَمِ باعْتِبارِ ما يَحدُثُ فيه مِن الأحداثِ العَظيمةِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٩٩).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦).

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ جَوابٌ عن قَولِه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١]؛ ولذلك جاء فِعلُ ﴿قَالُوٓاْ﴾ مَفْصولًا على طَريقِ المُحاوَرةِ[١].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ استِفهامُ تَقرير، وتَوبيخ، وإنكارٍ، وتَعجيزٍ لِنبيِّهم فيما أنْذَره إيَّاهم مِن العَذابِ العظيمِ على تَرْكِ إفرادِ اللهِ بالعِبادةِ[٢].

- وهذا الإنكارُ تَعريضٌ بالتَّكذيبِ؛ فلذلك فُرِّعَ عليه ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فصَرَّحوا بتَكذيبِه بطَريقِ المَفهومِ، والمعنى: ائْتِنا بالعَذابِ الَّذي تَعِدُنا به، أي: عَذابِ اليومِ العَظيمِ، وإنَّما صَرَفوا مُرادَ هُودٍ بالعَذابِ إلى خُصوصِ عَذابِ الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يُؤمِنون بالبَعثِ، وبهذا يُؤذِنُ قَولُه بعْدَه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، وقولُه: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦ﴾[٣] [الأحقاف: ٢٤].

- وقولُهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ اسْتِعجالٌ منهم بحُلولِ ما وَعَدَهم به مِن العذابِ؛ ألَا تَرى إلى قَولِه: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٤]؟ وطلَبُ الاستِعجالِ لِيَدلَّ على صِدْقِه؛ إذ الشَّأنُ ألَّا يَتأخَّرَ عن إظْهارِ صِدْقِه لهم[٤].

- وجَعَلوا العَذابَ في مُكْنَتِه يأْتي به متى أرادَ؛ تَهكُّمًا به، إذ قال لهم: إنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦، ٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٥).

مُرسَلٌ مِن اللهِ، فجَعَلوا ذلك مُقْتضيًا أنَّ بيْنَه وبيْنَ اللهِ تَعاوُنًا وتَطاوُعًا، أي: فلا تَتأخَّرْ عن الإتيانِ به، وقدْ دلَّ على هذا الاقْتِضاءِ قَولُه لهم حِينَ نُزولِ العَذابِ: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٤]؛ فلذلك كان جَوابُه أنْ قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٣]، أي: عِلْمُ وَقتِ إتيانِ العَذابِ مَحْفوظٌ عِندَ اللهِ، لا يطَّلِعُ عليه أحدٌ[١].

وقيل: أسنَدوا الفِعلَ إلى ضَميرِه؛ تَعريضًا بأنَّ ما تَوعَّدَهم به هو شَيءٌ مِن مُختَلَقاتِه، وليس مِن قِبَلِ اللهِ تعالى[٢]!

- وقولُهم: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أبلَغُ في الوصْفِ بالصِّدْقِ مِن أنْ يُقالَ: (إنْ كُنتَ صادِقًا)، أي: إنْ كُنتَ في قَولِك هذا مِن الَّذين صَدَقوا، أي: فإنْ لم تأْتِ به فما أنْتَ بصادِقٍ فيه[٣].

- وعقَّبوا كلامَهم بالشَّرطِ فقالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ استِقصاءً لِمَقدِرتِه؛ قَصدًا منهم لإظهارِ عَجزِه عن الإتيانِ بالعَذابِ، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دَلَّ عليه ما قَبْلَه، تقديرُه: أتَيْتَ به وإلَّا فلَسْتَ بصادقٍ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ لَمَّا جعَلوا قولَهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢] فَصْلًا بيْنَهم وبيْنَه فيما أنْذَرهم، مِن كَونِ عِبادةِ غَيرِ اللهِ تُوجِبُ عَذابَ يَومٍ عَظيمٍ؛ كان الأمْرُ في قَولِهم: ﴿فَأْتِنَا﴾ مُقتضيًا الفورَ -أي: طلَبَ تَعجيلِه-؛ لِيَدُلَّ على صِدْقِه؛ إذ الشَّأنُ ألَّا يَتأخَّرَ عن إظْهارِ صِدْقِه؛ فجاء قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٠٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٠٩).

جَوابًا لِقَولِهم[١].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلْعِلْمُ﴾ لِلاستِغراقِ العُرْفيِّ، أي: عِلْمُ المُغيَّباتِ، أو التَّعريفُ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: وَقتُ العذابِ. وهذا الجَوابُ يَجْري على جَميعِ الاحْتِمالاتِ في مَعنى قَولِهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾؛ لأنَّ جَميعَها يَقْتضي أنَّه عالِمٌ بوَقْتِه[٢].

- والحصْرُ هنا في قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ حَقيقيٌّ، والمَقصودُ مِن هذا الحصْرِ شُمولُه نَفْيَ العِلمِ بوَقتِ العذابِ عن المُتكلِّمِ؛ ردًّا على قَولِهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾[٣].

- ومَوقِعُ الاسْتِدراكِ بقَولِه: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أنَّه عن قَولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: ولكنَّكم تَجهَلون صِفاتِ اللهِ، وحِكمةَ إرْسالِه الرُّسلَ، فتَحسَبونَ أنَّ الرُّسلَ وَسائطُ لإنْهاءِ اقْتِراحِ الخلْقِ على اللهِ أنْ يُرِيَهم العَجائبَ، ويُساجِلَهم في الرَّغائبِ؛ فمَناطُ الاسْتِدراكِ هو مَعمولُ خَبَرِ (لكنَّ)، وهو ﴿قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾، والتَّقديرُ: ولكنَّكم قَومٌ تَجهَلون؛ فإدْخالُ حَرْفِ الاسْتِدراكِ على ضَميرِ المُتكلِّمِ عُدولٌ عن الظَّاهِرِ؛ لِئلَّا يُبادِرَهم بالتَّجهيلِ؛ اسْتِنزالًا لِطائِرِهم، فجعَلَ جَهْلَهم مَظنونًا له؛ لِيَنظُروا في صِحَّةِ ما ظَنَّه مِن عَدَمِها[٤].

- وإنَّما زِيدَ ﴿قَوْمًا﴾ ولم يُقتصَرْ على ﴿تَجْهَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ الجَهالةِ منهم، حتَّى صارَتْ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم، وللدَّلالةِ على أنَّها عَمَّت

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٧، ٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٨).

جَميعَ القَبيلةِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ لِتفْريعِ بَقيَّةِ القِصَّةِ على ما ذُكِرَ منها، أي: فلمَّا أرادَ اللهُ إصابَتَهم بالعَذابِ، ورَأَوه عارِضًا ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ﴾ إلى آخِرِه؛ ففي الكلامِ تَقْديرٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، ويُسمَّى التَّفريعُ فيه فَصيحةً، وقدْ طُوِيَ ذِكْرُ ما حَدَثَ بيْنَ تَكْذيبِهم هُودًا وبيْنَ نُزولِ العَذابِ بهم[٢].

- وضَميرُ ﴿رَأَوْهُ﴾ عائدٌ إلى (مَا تَعِدُنَا) [الأحقاف: ٢٢]، وهو العَذابُ. وأُطلِقَ على المَرْئيِّ ضَميرُ العَذابِ؛ لأنَّ المَرْئيَّ سَببُ العذابِ، وهو ما حَمَلَتْه الرِّيحُ[٣].

- قولُه: ﴿أَوْدِيَتِهِمْ﴾ جَمعَ الأوديَةَ؛ باعتبارِ كَثرةِ مَنازِلِهم وانتِشارِها[٤].

- وقولُه: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ مَقولٌ لِقَولٍ مَحذوفٍ، يَجوزُ أنْ يكونَ مِن قَولِ هُودٍ -إنْ كان هُودٌ بيْنَ ظَهْرانَيْهم، ولم يكُنْ خرَجَ قبْلَ ذلك-، أو هو مِن قَولِ بَعضِ رِجالِهم رَأى مَخائلَ الشَّرِّ في ذلك السَّحابِ، وإنَّما حُذِفَ فِعلُ القولِ؛ لِتَمثيلِ قائلِ القولِ كالحاضِرِ وقْتَ نُزولِ هذه الآيةِ، وقد سَمِعَ كَلامَهم، وعَلِمَ غُرورَهم، فنطَقَ بهذا الكلامِ تَرْويعًا لهم، وهذا مِن اسْتِحضارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الحالةِ العَجيبةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جُعِلَ العَذابُ مَظْروفًا في الرِّيحِ مُبالَغةً في التَّسبُّبِ؛ لأنَّ الظَّرفيَّةَ أشدُّ مُلابَسةً بيْنَ الظَّرْفِ والمَظروفِ مِن مُلابَسةِ السَّببِ والمُسبَّبِ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾

- ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مُستعمَلٌ في كَثرةِ الأشياءِ، والمعنَى: تُدمِّرُ ما مِن شأْنِه أنْ تُدمِّرَه الرِّيحُ مِن الإنسانِ والحَيوانِ والدِّيارِ[٣].

- وفي إضافةِ الرَّبِّ إلى الرِّيحِ في قَولِه: ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ دَلالةٌ على عِظَمِ شأْنِها، وأنَّها مِن جُنودِ اللهِ، ومِمَّا يَسْتقيمُ أنْ يُنسَبَ إلى الرَّبِّ سُبحانه وتَعالَى، ثمَّ دلَّ ذلك على عَظَمةِ بارِئِها، وأنَّ مِثلَ هذا الشَّيءِ العَظيمِ مَمْلوكٌ له، مُنْقادٌ لِتَصرُّفِه، ثمَّ أكَّدَ هذا المعنَى باقْترانِ الأمْرِ معه؛ تَتْميمًا لِتَعظيمِ مَن أُضِيفَ إليها؛ لأنَّ المُرادَ بالأمْرِ واحدُ الأوامِرِ التَّكوينيَّةِ[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿تُدَمِّرُ﴾، وفائدةُ هذه الحالِ تَقريبُ كَيفيَّةِ تَدْميرِها كلَّ شَيءٍ، أي: تَدْميرًا عَجيبًا بسَببِ أمْرِ ربِّها، أي: تَسخيرِه الأشياءَ لها؛ فالباءُ للسَّببيَّةِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٠).

- والتَّعقيبُ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ إشارةٌ إلى سُرْعةِ اسْتِئصالِهم، وحُصولِ دَمارِهم مِن غَيرِ رَيبٍ(١).

- وعلَى قِراءةِ ﴿لَا تَرَىٰٓ﴾ بتاءٍ مَفتوحةٍ لِلْخِطابِ(٢)، والخِطابُ فيه لِمَن تَتأتَّى منه الرُّؤيةُ حِينَئذٍ؛ فيكونُ إتْمامًا لاستِحضارِ حالةِ دَمارِهم العَجيبةِ، حتَّى كأنَّ الآيةَ نازِلةٌ في وَقتِ حُدوثِ هذه الحادثةِ، وتَنْبيهًا على أنَّ حالَهُم بحيثُ لو حَضَرَ كلُّ أحدٍ بِلادَهم لا يَرَى فيها إلَّا مَساكنَهم(٣).

- وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: مِثلَ ذلكَ الجزاءِ الفظيعِ نَجْزي القومَ المُجرمينَ، وهو تَهديدٌ لِمُشْرِكي قُريشٍ، وإنْذارٌ لهم، وتَوطِئةٌ لِقَولِه: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾(٤) [الأحقاف: ٢٦].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٠١).

(٢) قال ابن الجزري: (قرَأ يعقوبُ وحمزةُ وعاصِمٌ وَخَلَفٌ، ﴿يُرَىٰٓ﴾ بياءٍ مضمومةٍ على الغيب ﴿مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ بالرَّفعِ، وقرأ الباقونَ بالتَّاءِ وفتحِها على الخطابِ، ونَصْبِ ﴿مَسَاكِنَهُمْ﴾). ((النشر في القراءات العشر)) (٢/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥١).

الآيات (٢٦-٢٨)

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَكَّنَّـٰهُمْ﴾: أي: ثبَّتْناهم، وملَّكْناهم، وأقدَرْناهم على ما يُريدونَ برَفعِ الموانِعِ، والتَّمكينُ مِن الشَّيءِ: إعطاءُ ما يَصِحُّ به الفِعلُ مِن الآلاتِ والعُدَدِ والقُوى، وأصلُه مُشتَقٌّ من المكانِ، يقالُ: مَكَّن له في الأرضِ: جَعَل له مكانًا فيها[١].

﴿وَأَفْـِٔدَةً﴾: جمعُ فُؤادٍ وهو: القلبُ؛ سُمِّي بذلك لحرارتِه أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشدَّةِ حرارةٍ[٢].

﴿يَجْحَدُونَ﴾: أي: يَكْفرونَ، أو يُنكِرونَ بألسنتِهم وهم مُستيقِنونَ، والجُحودُ: نفْيُ ما في القلبِ إثباتُه، وإثباتُ ما في القلبِ نَفْيُه، وأصلُ (جحد): يدُلُّ على قلَّةِ الخَيرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٨/ ١٩) و(١٢/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((تفسير المنار)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧، ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٨).

﴿وَحَاقَ﴾: أي: أحاطَ ونزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزُولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[(١)].

﴿وَصَرَّفْنَا﴾: أي: نَوَّعْنا وبَيَّنَّا، والصَّرفُ: ردُّ الشَّيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، وأصلُه: يدُلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿قُرْبَانًا﴾: القُربانُ: اسمٌ لِما يُتقَرَّبُ به إلى اللهِ مِن ذَبحٍ أو غَيرِه، وأصلُه مَصدَرٌ كالرُّجْحانِ والعُدوانِ والكُفرانِ، ثمَّ سُمِّيَ به نَفْسُ المُتقَرَّبِ به، وأصلُ (قرب): يدُلُّ على خِلافِ البُعْدِ[(٣)].

﴿إِفْكُهُمْ﴾: أي: كَذِبُهم، وقيل: الإفكُ: أشدُّ الكذبِ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه، فالكذبُ: صرفٌ للكلامِ عمَّا يَنبغي أن يكونَ عليه[(٤)].

﴿يَفْتَرُونَ﴾: أي: يَختَلِقونَ ويَكْذِبونَ، والافتِراءُ: الاختِلاقُ، وهو ما عَظُمَ مِن الكَذِبِ، ومنه قيل: افْتَرَى فُلانٌ على فُلانٍ، إذا قذَفه بما ليسَ فيه، وأصلُ (فري): قَطْعُ الشَّيءِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ٨٠)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٦/ ٢٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣، ٩٩٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ [الأحقاف: ٢٨]

(لولا): حرفُ توبيخٍ وتنديمٍ بمنزلةِ (هلَّا). ﴿نَصَرَهُمُ﴾: فعلٌ ماضٍ، و (هم): في محَلِّ نَصبٍ، مَفعولٌ به مقدَّمٌ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمٌ مَوصولٌ في محلِّ رَفعٍ، فاعِلٌ مؤخَّرٌ. ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: فعلٌ ماضٍ. والواوُ: ضميرٌ في محلِّ رَفعٍ فاعِلٌ. والمفعولُ الأوَّلُ لـ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ محذوفٌ على كُلِّ تَقديرٍ، وهو عائدُ الموصولِ، أي: اتَّخَذوهم.

﴿قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ في نَصبِهما عِدَّةُ أوجُهٍ:

أحَدُها: أنَّ ﴿ءَالِهَةَۢ﴾: هو المفعولُ الثَّاني للفِعلِ (اتَّخذ). و﴿قُرْبَانًا﴾: حالٌ مِن (آلِهَةً)، فهو نعتٌ مُقدَّمٌ على النَّكرةِ؛ فانتصَبَ حالًا. والتَّقديرُ: فهلَّا نصَرَهم الَّذين اتَّخَذوهم آلهةً مِن دونِ اللهِ حالَ كَونِها مُتقَرَّبًا بها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ!

الثاني: أنَّ ﴿ءَالِهَةَۢ﴾ مَفعولٌ به ثانٍ. و﴿قُرْبَانًا﴾: مَفعولٌ مِن أجْلِه.

الثَّالِثُ: قيل: إنَّ ﴿قُرْبَانًا﴾: مَفعولٌ به ثانٍ. و ﴿ءَالِهَةَۢ﴾: بَدَلٌ منه منصوبٌ مِثلُه. وأفسَده الزَّمخشريُّ مِن جِهةِ المعنى(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُذكِّرُ اللهُ تعالى كُفَّارَ قُرَيشٍ بما يحمِلُهم على العِظَةِ والعِبرةِ، محذِّرًا لهم، فيقولُ: ولقد مكَّنَّا عادًا قومَ هُودٍ فيما لم نُمكِّنْ لكم فيه؛ مِن كَثرةِ الأموالِ، وقوَّةِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٧٧)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٦٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦).

الأبدانِ، وغيرِ ذلك، وأعطَيْناهم مِن فَضْلِنا أسماعًا وأبصارًا وأفئِدةً، ولكِنَّهم لَمَّا لم يَشكُرونا على نِعَمِنا، ولم يَستَعمِلوها في طاعتِنا؛ أخَذْناهم أخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ دونَ أن تنفَعَهم أسماعُهم ولا أبصارُهم ولا أفئِدتُهم شيئًا حينَ نزَل بهم عذابُنا؛ لأنَّهم كانوا يُكذِّبونَ بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّتِه، وكَمالِ قُدرتِه، ونَزَل وأحاطَ بهم عذابُ اللهِ، الَّذي كانوا يَسخَرونَ منه، ويُكذِّبونَ بوُقوعِه؛ فاحذَروا -أيُّها المُشرِكونَ- أن يُصيبَكم مِثلُ ما أصابَهم!

ثُمَّ يُضيفُ سبحانَه إلى التَّذكيرِ السَّابقِ تذكيرًا آخَرَ، فيقولُ: ولقد أهلَكْنا ما حوْلَكم -يا أهلَ مكَّةَ- مِن القُرى الظَّالِمةِ، كبلادِ عادٍ، وسَبَأٍ، وثَمودَ، ومَدْيَنَ، وغَيرِها، وكرَّرْنا الآياتِ ونوَّعْناها بأساليبَ مُختَلِفةٍ؛ لِيَرجِعوا عن كُفرِهم باللهِ، وتَكذيبِهم بالحَقِّ، فلم يَفعَلوا؛ فأهلَكْناهم!

فهَلَّا نصَرَهم ومنَعَهم مِن عذابِ اللهِ هؤلاء الآلهةُ الَّذين اتَّخَذوهم مِن دونِ اللهِ قُربانًا يَتقرَّبونَ بهم إليه سُبحانَه! بل غابوا عنهم وتَرَكوهم وَحْدَهم، ولم يَحضُروا إليهم أو يَنصُروهم، واتِّخاذُهم الآلهةَ مِن دونِ اللهِ هو كَذِبُهم وافتِراؤُهم حينَ ادَّعَوا أنَّها آلِهةٌ تَنصُرُهم وتَنفَعُهم، فخذَلَتْهم ولم يَنتَفِعوا بها!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى بهَلاكِ قَومِ عادٍ؛ خاطَبَ قُرَيشًا على سَبيلِ المَوعِظةِ[1]،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٧).

وخَوَّفهم؛ فذَكَر فَضْلَ عادٍ بالقُوَّةِ والجِسمِ عليهم، فقال[(١)]:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾.

أي: قال اللهُ لكُفَّارِ قُرَيشٍ: ولقد مكَّنَّا عادًا في الَّذي لم نُمكِّنْ لكم فيه؛ مِن كَثرةِ الأموالِ، وقوَّةِ الأبدانِ، وغيرِ ذلك، فأهلَكْناهم بسَبَبِ كُفرِهم، معَ أنَّهم أعظَمُ منكم تمكينًا؛ فلا تَظنُّوا أنَّ ما مُكِّنتُم فيه سيَدفَعُ عنكم شيئًا مِن عذابِ اللهِ إن استَمرَرتُم على كُفرِكم وتَكذيبِكم[(٢)]!

كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾.

أي: وجعَلْنا لكُفَّارِ عادٍ سَمعًا لِيَسمَعوا به الحَقَّ، وأبصارًا لِيُبصِروه بها، وقُلوبًا لِيَعقِلوه بها، فلم يَنقُصْهم شَيءٌ مِن شأنِه أن يُخِلَّ بإدراكِهم للحَقِّ[(٣)].

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٣)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧١، ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٣).

أي: فما نفَعَهم ما أُوتُوه مِنَ السَّمعِ والأبصارِ والعُقولِ شَيئًا؛ إذْ لم يَستَعمِلوها في مَعرِفةِ الصَّوابِ، ولم يُعمِلوها لِدَفعِ العذابِ(١).

﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

أي: لم يَنتَفِعْ كُفَّارُ عادٍ بسَمعِهم وأبصارِهم وقُلوبِهم؛ لأنَّهم كانوا يُكذِّبونَ بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ لهم على الحَقِّ(٢).

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

أي: ونَزَل وأحاطَ بهم عذابُ اللهِ، الَّذي كانوا يَسخَرونَ منه، ويُكذِّبونَ بوُقوعِه؛ فاحذَروا -أيُّها المُشرِكونَ- أن يُصيبَكم مِثلُ ما أصابَهم(٣).

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا تَمَّ المرادُ مِن الإخبارِ بهَلاكِ عادٍ على ما لهم مِنَ المَكِنَةِ العَظيمةِ؛ لِيَتَّعِظَ بهم مَن سَمِعَ أمْرَهم- أتْبَعَهم مَن كان مُشارِكًا لهم في التَّكذيبِ، فشارَكَهم في الهَلاكِ؛ كأهلِ الحِجْرِ (ثمودَ) وسَبأٍ، ومَدْيَنَ والأَيْكةِ، وقَومِ لُوطٍ وفِرعونَ، وأصحابِ الرَّسِّ، وغَيرِهم ممَّن فيهم مُعتَبَرٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٤).

﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ ﴾.

أي: ولقد أهلَكْنا ما حوْلَكم -يا أهلَ مكَّةَ- مِن القُرى؛ كبلادِ عادٍ، وسَبَأٍ، وثمودَ، ومَدْيَنَ، وغيرِها[1].

﴿ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾.

أي: ونوَّعْنا أصنافَ الآياتِ وبَيَّنَّاها؛ لِيَرجِعوا عن كُفرِهم باللهِ، وتَكذيبِهم بالحَقِّ، فلم يَفعَلوا؛ فأهلَكْناهم[2].

﴿ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان المُشرِكونَ قد جَعَلوا مَحَطَّ حالِهم في الشُّرَكاءِ أنَّهم سَبَبُ التَّواصُلِ بيْنَهم والتَّفاوُتِ، وادَّعَوا أنَّهم يَشفَعونَ فيهم، فيُقَرِّبونَهم إلى اللهِ زُلْفى، ويَمنَعونَهم مِنَ العذابِ في الآخِرةِ، وكان أدنى الأُمورِ التَّسويةَ بيْنَه وبيْنَ عذابِ الدُّنيا- سَبَّب

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

قال القرطبي: (﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ يعني: الحُجَجَ والدَّلالاتِ، وأنواعَ البَيِّناتِ والعِظاتِ، أي: بَيَّنَّاها لأهلِ تلك القُرى... وقيل: أي: صَرَّفْنا آياتِ القُرآنِ في الوَعدِ والوعيدِ، والقَصَصِ والإعجازِ؛ لعَلَّ هؤلاء المُشرِكينَ يَرجِعونَ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩).

وقال الرازي: (﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾: بَيَّنَّاها لهم ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ أي: لعلَّ أهلَ القرَى ﴿يَرۡجِعُونَ﴾، فالمرادُ بالتَّصريفِ الأحوالُ الهائلةُ الَّتي وُجِدَتْ قبْلَ الإهلاكِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦).

عن إخبارِه عن إهلاكِ الأُمَمِ الماضيةِ قَولَه[1]:

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾.

أي: فهَلَّا نصَرَهم مِن عذابِ اللهِ مَنِ اتَّخذوهم آلهةً مِن دونِ اللهِ يتقرَّبونَ بعبادتِهم إلى اللهِ؛ لِيَشفَعوا لهم عِندَه[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما ظنَّ المُشرِكونَ، فلمْ تَنصُرْهم مَعبوداتُهم مِن دونِ اللهِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٥، ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦١، ١٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

قال ابن جرير: (وهذا احتجاجٌ مِنَ اللهِ لِنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم على مُشرِكي قَومِه، يقولُ لهم: لو كانت آلهتُكم الَّتي تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ تُغْني عنكم شيئًا، أو تَنفَعُكم عندَ الله كما تَزعُمونَ أنَّكم إنَّما تَعبُدونَها لِتُقرِّبَكم إلى اللهِ زُلْفى؛ لَأغْنَتْ عمَّن كان قَبْلَكم مِن الأُمَمِ الَّتي أهلَكْتُها بعبادتِهم إيَّاها، فدَفَعَتْ عنها العذابَ إذا نزَل، أو لَشَفَعَت لهم عندَ ربِّهم؛ فقد كانوا مِن عبادتِها على مِثلِ الَّذي عليه أنتم، ولكنَّها ضَرَّتْهم ولم تَنفَعْهم!). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٢).

وقال السعدي: (أي: يَتقرَّبونَ إليهم ويتألَّهونَهم؛ لِرَجاءِ نَفعِهم!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

وغابَتْ عنهم عندَ نُزولِ العذابِ بهم، فلم تَنفَعْهم[١]!

﴿وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

أي: اتِّخاذُهم الآلهةَ مِن دونِ اللهِ هو كَذِبُهم وافتراؤُهم حينَ ادَّعوا أنَّها آلِهةٌ تَنصُرُهم وتَنفعُهم، فخذَلَتْهم ولم ينتَفِعوا بها[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾، أي: لا قُصورَ في أسماعِهم ولا أبصارِهم ولا أذهانِهم حتَّى يُقالَ إنَّهم تَركوا الحَقَّ جَهلًا منهم، وعدَمَ تَمكُّنٍ مِن العِلمِ به، ولا خَلَلَ في عُقولِهم، ولكِنَّ التَّوفيقَ بيَدِ اللهِ[٣].

٢- يُعَدِّدُ اللهُ سُبحانَه على عِبادِه مِن نِعَمِه عليهم أنْ أعطاهم آلاتِ العِلمِ، فيَذكُرُ الفُؤادَ والسَّمعَ والأبصارَ؛ فهي أشرَفُ الأعضاءِ ومُلوكُها، والمُتصَرِّفةُ فيها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦، ٥٧).

قال البقاعي: (﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: الضَّلالُ البعيدُ مِن السَّدادِ الَّذي تَحصَّلَ مِن هذه القِصَّة مِن إخلافِ ما كانوا يقولونَ: إنَّ أوثانَهم آلِهةٌ، وإنَّها تَضُرُّ وتَنفَعُ وتُقَرِّبُهم إلى اللهِ وتَشفَعُ لهم عندَه ﴿إِفۡكُهُمۡ﴾ أي: صَرْفُهم الأمورَ عن وَجهِها إلى أقفائِها، ويجوزُ أن تكونَ الإشارةُ إلى العذابِ، أي: وهذا العذابُ جزاؤُهم في مُقابَلة إفْكِهم). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٧٦، ١٧٧).

وقال الرَّسْعَني: (﴿وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ﴾ أي: وذلك الاتِّخاذُ إفْكُهم؛ كَذِبُهم وافتراؤُهم. وقيل: الإشارةُ بقَولِه: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إلى امتناعِ نُصرةِ آلهتِهم لهم، وضَلالِهم عنهم، أي: وذلك أثَرُ إفكِهم وافترائِهم الكَذِبَ على اللهِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

والحاكِمةُ عليها، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾؛ فسَعادةُ الإنسانِ بصِحَّةِ هذه الأعضاءِ الثَّلاثةِ، وشَقاوتُه بفَسادِها(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أنَّ الحُجَجَ السَّمعيَّةَ مُطابِقةٌ للمَعقولِ، والسَّمعَ الصَّحيحَ لا يَنفَكُّ عن العَقلِ الصَّريحِ، بل هما أخَوانِ نَصيرانِ وصَلَ اللهُ بيْنَهما، وقَرَنَ أحدَهما بصاحِبِه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، فذكَرَ ما يُنالُ به العُلومُ، وهي السَّمعُ والبَصَرُ، والفُؤادُ الَّذي هو مَحَلُّ العَقلِ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ السَّمعَ والأبصارَ والأفئِدةَ لا تَنفَعُ صاحِبَها مع جَحْدِه بآياتِ اللهِ؛ فتبَيَّنَ أنَّ العَقلَ الَّذي هو مَناطُ التَّكليفِ لا يَحصُلُ بمُجَرَّدِه الإيمانُ النَّافِعُ، والمَعرِفةُ المُنْجِيةُ من عذابِ اللهِ، وهذا العَقلُ شَرطٌ في العِلمِ والتَّكليفِ، لا مُوجِبٌ له(٣).

٣- أنَّ الشَّيءَ قد يَنتَفي لِنَفيِ ثَمرتِه والمرادِ منه؛ ولهذا نفَى سُبحانَه عن الكُفَّارِ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠٧).
(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٥٧).
(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ١٩).

الأسماعَ والأبصارَ والعُقولَ لَمَّا لم يَنتفِعوا بها؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[1] [الأعراف: ١٧٩].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أنَّ الاستِهزاءَ باللهِ تعالى وآياتِه سَبَبٌ للعَذابِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هذا اسْتِخلاصٌ لِمَوعظةِ المُشرِكينَ بمِثلِ عادٍ؛ لِيَعْلَموا أنَّ الَّذي قدَرَ على إهْلاكِ عادٍ قادرٌ على إهْلاكِ مَن هم دُونَهم في القُوَّةِ والعَدَدِ، ولِيَعْلَموا أنَّ القومَ كانوا مِثْلَهم مُسْتجمِعينَ قُوى العقْلِ والحِسِّ، وأنَّهم أهْمَلوا الانتفاعَ بقُواهُم، فجَحَدوا بآياتِ اللهِ، واسْتَهزؤوا بها وبوَعيدِه، فحاقَ بهمْ ما كانوا يَسْتَهزِئون به، وقُريشٌ يَعلَمونَ أنَّ حالَهم مِثلُ الحالِ المَحْكيَّةِ عن أولئكَ، فلْيَتهيَّؤوا لِمَا سيَحُلُّ بهم. ولإفادةِ هذا الاستخلاصِ غُيِّرَ أُسلوبُ الكَلامِ إلى خِطابِ المُشرِكين مِن أهْلِ مكَّةَ؛ فالجُملةُ في مَوضِعِ الحالِ مِن واوِ الجَماعةِ في ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢]، والخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن عَدَمِ انْتفاعِهم بمَواهِبِ عُقولِهم[3].

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن =

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ فيه تأْكيدُ هذا الخبَرِ بلامِ القَسَمِ -مع أنَّ مُفادَه لا شكَّ فيه-، وهو مَصروفٌ إلى المُبالَغةِ في التَّعجيبِ[١].

- ومن بَديعِ النَّظْمِ أنْ جاءَ النَّفْيُ هنا في قولِه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ بحَرْفِ (إنْ) النَّافيةِ، مع أنَّ النَّفيَ بها أقلُّ اسْتِعمالًا من النَّفيِ بـ (ما) النَّافيةِ؛ قَصْدًا هنا لِدَفْعِ الكراهةِ مِن تَوالي مِثْلينِ في النُّطقِ؛ وهُما (ما) الموصولةُ، و(ما) النَّافيةُ، وإنْ كان مَعْناهُما مُختلِفًا[٢].

- وفائدةُ قَولِه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ أنَّهم لم يَنْقُصْهم شَيءٌ مِن شأْنِه أنْ يُخِلَّ بإدْراكِهم الحقَّ لَولا العِنادُ، وهذا تَعْريضٌ بمُشْركي قُريشٍ، أي: أنَّكم حَرَمْتُم أنفُسَكم الانتفاعَ بسَمْعِكم وأبْصارِكم وعُقولِكم كما حُرِمُوه، والحالةُ مُتَّحِدةٌ، والسَّببُ مُتَّحِدٌ، فيُوشِكُ أنْ يكونَ الجَزاءُ كذلك[٣].

- والسَّمْعُ مَصدرٌ دالٌّ على الجِنسِ؛ فكان في قُوَّةِ الجمْعِ، ولا حاجةَ إلى جمْعِه. والأبصارُ جمْعُ بَصَرٍ، وهو في اللُّغةِ العَينُ، وقيل: يُطلَقُ البصرُ على حاسَّةِ الإبصارِ؛ ولذلك جُمِعَ. ولعلَّ إفرادَ السَّمْعِ وجمْعَ الأبصارِ جَرَى على ما يَقْتضيهِ تَمامُ الفَصاحةِ مِن خِفَّةِ أحَدِ اللَّفظينِ مُفْرَدًا والآخَرِ مَجْموعًا عِندَ اقْتِرانِهما؛ فإنَّ في انتِظامِ الحُروفِ والحَرَكاتِ والسَّكناتِ في تَنقُّلِ اللِّسانِ سِرًّا عَجيبًا مِن فَصاحةِ كَلامِ القُرآنِ المُعبَّرِ عنها بالنَّظْمِ[٤].

= عاشور)) (٢٦/ ٥١، ٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٣٤) و(٢٦/ ٥٣).

- وبدأ بالسَّمعِ؛ لأنَّ المقامَ للإنذارِ المُنبِّهِ بحاسَّةِ السَّمعِ على ما في الآياتِ المَرئيَّاتِ مِن المواعِظِ، فهو أنفَعُ؛ لأنَّه أوضَحُ. وختَم بالأفئِدةِ؛ لأنَّها الغايةُ الَّتي ليس بعدَ الإدراكِ بها مُنتهًى، ولا وراءَها مَرمًى[1].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾؛ لِلتَّنصيصِ على انْتِفاءِ الجِنسِ؛ فلذلك يكونُ ﴿شَيۡءٍ﴾ المَجرورُ بـ(مِن) الزَّائدةِ نائبًا عن المَفعولِ المُطلَقِ؛ لأنَّ المُرادَ: بشَيءٍ مِن الإغناءِ، وحَقُّ (شَيءٍ) النَّصبُ، وإنَّما جُرَّ بدُخولِ حَرْفِ الجرِّ الزَّائدِ[2].

- قولُه: ﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (إذ) ظَرْفٌ، أي: مُدَّةَ جُحودِهم، وهو مُستعمَلٌ في التَّعليلِ؛ لاستِواءِ مُؤدَّى الظَّرْفِ ومُؤدَّى التَّعليلِ؛ لأنَّه لَمَّا جُعِلَ الشَّيءُ مِن الإغناءِ مُعلَّقًا نَفْيُه بزَمانِ جَحْدِهم بآياتِ اللهِ -كما يُسْتفادُ مِن إضافةِ (إذ) إلى الجُملةِ بعْدَها- عُلِمَ أنَّ لِذلك الزَّمانِ تأْثيرًا في نفْيِ الإغناءِ[3].

- قولُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، أي: أحاطَ بهمُ العذابُ، وعُدِلَ عن اسْمِه الصَّريحِ (العذاب) إلى المَوصولِ ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على ضَلالِهم، وسُوءِ نَظَرِهم[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لخِطابِ أهْلِ مكَّةَ على جِهَةِ التَّمثيلِ[5].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٢، ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٩٠).

- وأُتبِعَ ضَرْبُ المَثَلِ بحالِ عادٍ مع رَسولِهم بأنَّ ذلك المَثَلَ ليس وَحيدًا في بابِه؛ فقدْ أهْلَكَ اللهُ أقوامًا آخَرينَ مِن مُجاوِريهم، تُماثِلُ أحْوالُهم أحْوالَ المُشرِكينَ، وذكَّرَهم بأنَّ قُراهُم قَريبةٌ منْهم يَعرِفُها مَن يَعْرِفونَها، ويسْمَعُ عنها الَّذين لمْ يَرَوها، والجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ...﴾ [الأحقاف: ٢١] إلخ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ كُنِّيَ عن إهلاكِ الأقوامِ بإهلاكِ قُراهم؛ مُبالَغةً في اسْتِئصالِهم؛ لأنَّه إذا أُهلِكَت القَريةُ لمْ يَبْقَ أحدٌ مِن أهْلِها[٢].

- قولُه: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ﴾ تَصريفُ الآياتِ: تَنويعُها باعتِبارِ ما تدُلُّ عليه مِن الغرَضِ المَقصودِ منها، وهو الإقلاعُ عن الشِّرْكِ وتَكذيبِ الرُّسلِ، وأصْلُ مَعنى التَّصريفِ: التَّغييرُ والتَّبديلُ؛ لأنَّه مُشتَقٌّ مِن الصَّرْفِ، وهو الإبعادُ. وكُنِّيَ به هنا عن التَّبيينِ والتَّوضيحِ؛ لأنَّ تَعدُّدَ أنواعِ الأدِلَّةِ يَزيدُ المَقصودَ وُضوحًا[٣].

- وجُملةُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ مُستأنَفةٌ لِإنشاءِ التَّرجِّي، ومَوقِعُها مَوقِعُ المَفعولِ لأجْلِه، أي: رَجاءَ رُجوعِهم[٤].

- قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ تَعريضٌ بمُشْركي أهْلِ مكَّةَ؛ فهمْ سَواءٌ في تَكوينِ ضُروبِ تَصْريفِ الآياتِ زِيادةً على ما صُرِّفَ لهمْ مِن آياتِ إعْجازِ القُرآنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٤، ٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ تَفْريعٌ على ما تَقدَّمَ مِن المَوعظةِ بعَذابِ عادٍ المُفصَّلِ، وبعَذابِ أهْلِ القُرى المُجمَلِ؛ فُرِّعَ عليه تَوبيخٌ مُوجَّهٌ إلى آلِهتِهم؛ إذ قَعَدوا عن نَصْرِهم وتَخليصِهم مِنْ قُدْرةِ اللهِ عليهم، والمَقصودُ تَوجيهُ التَّوبيخِ إلى الأُمَمِ المُهلَكةِ على طَريقةِ تَوجيهِ النَّهيِ ونَحْوِه لِغَيرِ المَنْهيِّ؛ لِيَجتَنِبَ المَنْهيُّ أسبابَ المَنْهيِّ عنه، كَقولِهم: لا أعرِفَنَّك تَفعَلُ كذا، ولا أَرَينَّك هنا[١].

- والمَقصودُ بهذا التَّوبيخِ تَخطئةُ الأُمَمِ الَّذين اتَّخَذوا الأصنامَ للنَّصْرِ والدَّفعِ، وذلك مُستعمَلٌ تَعريضًا بالسَّامِعينَ المُماثِلينَ لهم في عِبادةِ آلِهةٍ مِن دُونِ اللهِ؛ استِتْمامًا للمَوعظةِ والتَّوبيخِ بطَريقِ التَّنظيرِ وقِياسِ التَّمثيلِ[٢]؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾؛ لأنَّ التَّوبيخَ آلَ إلى مَعنى نَفْيِ النَّصرِ[٣].

- وحَرْفُ (لَولا) إذا دخَلَ على جُملةٍ فِعليَّةٍ كما هنا في قولِه: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾، كان أصْلُه الدَّلالةَ على التَّحضيضِ، أي: تَحضيضِ فاعِلِ الفِعلِ الَّذي بعْدَ (لولا) على تَحصيلِ ذلك الفِعلِ، فإذا كان الفاعلُ غَيرَ المُخاطَبِ بالكلامِ، كانتْ (لَولا) دالَّةً على التَّوبيخِ ونَحْوِه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٥).

(٢) قياس التَّمثيلِ: هو: حمْلُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتراكِهما في عِلَّة الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المشتركَ الكُلِّيَّ، أو: إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما، مِثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ هو القياسُ الأصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٥).

إذ لا طائلَ في تَحضيضِ المُخاطَبِ على فِعلِ غَيرِه(١).

- والإتيانُ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن التَّنبيهِ على الخَطأِ والغَلَطِ في عِبادتِهم الأصنامَ، فلَمْ تُغْنِ عنهم شَيئًا. وعُومِلَت الأصْنامُ مُعامَلةَ العُقلاءِ بإطْلاقِ جَمْعِ العُقلاءِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ عليهم؛ جَرْيًا على الغالِبِ في اسْتِعمالِ العرَبِ(٢).

- وقولُه: ﴿قُرۡبَانًا﴾ مصدرٌ بوزنِ (غُفران)، منصوبٌ على المفعولِ لأجْلِه؛ حِكايةً لِزَعْمِهم المَعروفِ المَحْكيِّ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وهذا المَصدرُ مُعترِضٌ بيْنَ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ ومَفعولِه، و(مِن دُونِ اللهِ) يتعلَّقُ بـ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، و(دون) بمعنَى المُباعَدةِ، أي: مُتجاوِزينَ اللهَ في اتِّخاذِ الأصنامِ آلِهةً، وهو حِكايةٌ لحالِهم؛ لِزيادةِ تَشْويهِها وتَشنيعِها(٣). وفيه تَهكُّمٌ بهم(٤).

- قولُه: ﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡ﴾ (بلْ) بمعنى (لكن) إضْرابًا واسْتِدراكًا بعْدَ التَّوبيخِ؛ لأنَّه في معنَى النَّفيِ، أي: ما نَصَرَهم الَّذين اتَّخَذوهم آلِهةً ولا قَرَّبُوهم إلى اللهِ لِيُدفَعَ عنهم العذابُ، بلْ ضَلُّوا عنهم، أي: بلْ غابُوا عنهم وَقتَ حُلولِ العذابِ بهم(٥)؛ فـ(بل) حَرْفُ إضرابٍ وعطْفٍ؛ للانتقالِ عن نَفْيِ النُّصرةِ لِمَا هو أخصُّ منه؛ إذ نَفْيُها يَصدُقُ بحُضورِها عِندَهم بدُونِ النُّصرةِ، فأفاد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٥، ٥٦).

ويُنظر الكلام عن (لولا) في: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٤٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٩٩-٢٠٠، ٢٤٩-٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦).

بالإضرابِ أنَّهم لم يَحضُروا بالكُلِّيَّةِ، فضْلًا عن أنْ يَنْصُرُوهم[١].

- وقولُه: ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فَذْلَكةٌ[٢] لِجُملةِ ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ إلخ[٣].

- والافتِراءُ: نَوعٌ مِن الكذِبِ، وهو ابْتِكارُ الأخبارِ الكاذبةِ، ويُرادِفُ الاختِلاقَ؛ فعَطْفُ (مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) على ﴿إِفْكُهُمْ﴾ عطْفُ الأخصِّ على الأعمِّ؛ فإنَّ زَعْمَهم الأصنامَ شُركاءَ للهِ كَذِبٌ مَرْويٌّ من قبْلُ؛ فهو إفْكٌ، وأمَّا زَعْمُهم أنَّها تُقرِّبُهم إلى اللهِ فذلك افْتِراءٌ اخْتَرَعوهُ[٤].

- وقولُه: ﴿كَانُوا۟﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ افْتِراءَهم راسخٌ فيهم[٥].

- ومَجِيءُ ﴿يَفْتَرُونَ﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ افْتِراءَهم مُتكرِّرٌ[٦].



(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٩١).

(٢) الفَذْلَكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغَ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ(البَسملة) و(الحولقة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذا وكذا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحساب، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٦، ٥٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٩-٣٢)

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا
قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ
وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ
فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَرَفْنَآ﴾: أي: وَجَّهْنا وبَعَثْنا، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ[١].

﴿نَفَرًا﴾: النَّفَرُ: ما بيْنَ الثَّلاثةِ إلى العَشَرةِ، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ، ومنه النَّفَرُ؛ لأنَّهم يَنْفِرونَ للنُّصرةِ[٢].

﴿أَنصِتُواْ﴾: أي: اسْكُتوا سُكوتَ المسْتَمِعينَ، والإنصاتُ: هو الاستِماعُ مع تركِ الكلامِ، وأصلُ (نصت): يدُلُّ على السُّكوتِ[٣].

﴿وَيُجِرْكُم﴾: أي: يُنقِذْكم ويَمنَعْكم، يُقالُ: أجَرْتُ فُلانًا: إذا استغاثَ بك فحَمَيْتَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٨٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٣).

﴿بِمُعْجِزٍ﴾: أي: فائِتٍ وسابقٍ، وأصلُ (عجز): يدُلُّ على تأخُّرٍ عن الشَّيءِ[1].

﴿أَوْلِيَآءُ﴾: أي: أنصارٌ، والوِلايةُ النُّصرةُ، وأصْل (ولي): يدُلُّ على قُرْبٍ؛ سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ اللهُ تعالى جانبًا ممَّا أكرَم به نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن سماعِ نفَرٍ مِن الجنِّ للقرآنِ، وإيمانِهم به، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ أرسَلْنا إليك طائِفةً مِن الجِنِّ يَستَمِعونَ منك القُرآنَ، فلمَّا حَضَروه قال بَعضُهم لِبَعضٍ: أنصِتوا لِنَستَمِعَ إليه، فلمَّا أنهَى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم قراءتَه انصَرَف أولئك النَّفَرُ إلى قَومِهم مِنَ الجِنِّ مُحَذِّرينَ إيَّاهم مِن عذابِ اللهِ إنْ لم يُؤمِنوا به؛ قالوا لِقَومِهم: يا قَوْمَنا إنَّا سَمِعْنا كِتابًا -وهو القُرآنُ- أُنزِلَ مِن بَعدِ التَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت على موسى مُوافِقًا لِما قَبْلَه مِن كُتُبِ اللهِ، يُرشِدُ إلى الحَقِّ وإلى طَريقٍ مُستَقيمٍ.

يا قَومَنا أجيبوا مُحمَّدًا الدَّاعيَ إلى اللهِ وَحْدَه، وآمِنوا باللهِ يَغفِرْ لكم مِن ذُنوبِكم، ويُنقِذْكم مِن عَذابٍ مُوجِعٍ مُؤلِمٍ، ومَن لا يُجِبْ مُحمَّدًا إلى ما يدعو إليه فلن يُعجِزَ اللهَ بالهَرَبِ منه إذا أراد عُقوبتَه، وليس له مِن دُونِ اللهِ أنصارٌ يَمنَعونَه مِن عذابِ اللهِ، أولئك في ضَلالٍ واضِحٍ عن الحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

﴿قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الإنسَ مُؤمِنٌ وكافِرٌ؛ ذكَر أنَّ الجِنَّ فيهم مُؤمِنٌ وكافِرٌ، وكان ذلك بإِثْرِ قِصَّةِ هُودٍ وقَومِه؛ لِمَا كان عليه قَومُه مِن الشِّدَّةِ والقُوَّة، والجِنُّ تُوصَفُ أيضًا بذلك، وأنَّ ما أُهلِكَ به قَومُ هُودٍ هو الرِّيحُ، وهو مِن العالَمِ الَّذي لا يُشاهَدُ، وإنَّما يُحَسُّ بِهُبوبِه، والجِنُّ أيضًا مِن العالَمِ الَّذي لا يُشاهَدُ، وأنَّ هُودًا عليه السَّلامُ كان مِن العرَبِ، ورسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم من العرَبِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان ما ذُكِرَ مِن البُعدِ مِن الإيمانِ مع تَصريفِ العِظاتِ والعِبَرِ والآياتِ يَكادُ أن يُؤْيِسَ السَّامِعَ مِن إيمانِ هؤلاء المَدْعُوِّينَ؛ قَرَّبَه دَلالةً على عِزَّتِه وحِكمتِه بالتَّذكيرِ بإيمانِ مَن هم أعلَى منهم عُتُوًّا، وأشَدُّ نفرةً، وأبْعَدُ إجابةً، وأخفَى شَخصًا[2].

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ بعَثْنا إليك طائِفةً مِن الجِنِّ يَستَمِعونَ منك القُرآنَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٧، ٥٨).

قال ابنُ عطية: (التَّحريرُ في هذا أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم جاءه جِنٌّ دونَ أن يَعرِفَ بهم، وهم المتفَرِّقونَ مِن أجْلِ الرَّجْمِ، وهذا هو قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الجن: ١]، ثمَّ بعدَ ذلك وَفَد عليه وَفدٌ، وهو المذكورُ صَرْفُه في هذه الآيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٤).

وقال ابنُ كثير -بعد أن ذكر عددًا مِن الأحاديثِ وطُرقِها-: (هذه الطُّرُقُ كُلُّها تدُلُّ على أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ذهَبَ إلى الجِنِّ قَصدًا، فتلا عليهم القُرآنَ، ودعاهم إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، =

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾.

أي: فلمَّا حَضَروه قال بَعضُهم لِبَعضٍ: اسكُتوا لِنَستَمِعَ إليه[1].

= وشَرَع اللهُ لهم على لِسانِه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوَقتِ، وقد يحتَمِلُ أنَّ أوَّلَ مَرَّةٍ سَمِعوه يقرأُ القُرآنَ ولم يَشعُرْ بهم، كما قاله ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما، ثمَّ بعد ذلك وَفَدوا إليه كما رواه ابنُ مَسعودٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٩٦).

وقال ابن حجر: (أنكر ابنُ عبَّاسٍ أنَّهم اجتمَعوا بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ... قال: ما قرَأ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ على الجنِّ ولا رآهم. الحديثَ ... فيُجمَعُ بيْنَ ما نفاه وما أثبَتَه غيرُه بتعدُّدِ وُفودِ الجنِّ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فأمَّا ما وقَع في مكَّةَ فكان لاستِماعِ القرآنِ والرُّجوعِ إلى قَومِهم مُنذِرينَ كما وقع في القرآنِ، وأمَّا في المدينةِ فلِلسُّؤالِ عن الأحكامِ ... ويحتملُ أن يكونَ القُدومُ الثَّاني كان أيضًا بمكَّةَ ... ويحتملُ تعدُّدُ القُدومِ بمكَّةَ مرَّتينِ وبالمدينةِ). ((فتح الباري)) (٧/ ١٧١).

وقال البيهقيُّ: (وهذا الَّذي حكاه عبدُ الله بنُ عبَّاسٍ إنَّما هو في أوَّلِ ما سَمِعَتِ الجِنُّ قِراءةَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّمَ، وعَلِمَتْ بحالِه، وفي ذلك الوقتِ لم يَقرَأْ عليهم ولم يَرَهُم، كما حكاه، ثمَّ أتاه داعي الجنِّ مرَّةً أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القُرآنَ -كما حكاه عبدُ الله بنُ مسعودٍ- ورأى آثارَهم، وآثارَ نيرانِهم، واللهُ أعلَمُ. وعبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ حَفِظَ القِصَّتَينِ جميعًا فرواهما). ((دلائل النبوة)) (٢/ ٢٢٧).

قال السُّبْكيُّ: (فالأَولى أن يُجعَلَ كلامُ ابنِ عبَّاسٍ غيرَ مُعارِضٍ لكلامِ ابنِ مسعودٍ، وأن يَكونا مرَّتَينِ:

إحداهما: الَّتي ذكرها ابنُ عبَّاسٍ، وهي الَّتي أشار إليها القرآنُ في سورةِ الأحقافِ وفي سورةِ الجنِّ؛ لم يكُنِ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قصَدَهم، ولا شعَرَ بهم، ولا رآهم، ولا قرَأ عليهم قصْدًا، بل سمِعوا قراءتَه وآمَنوا به كما نطَق به الكتابُ العزيزُ. وثُبوتُها من حيثُ الجُملةُ قطعيٌّ). ((فتاوى السبكي)) (٢/ ٥٩٩).

وقال الشنقيطي: (وقد دلَّ القرآنُ العظيمُ أنَّ استماعَ هؤلاء النَّفَرِ من الجنِّ، وقولَهم ما قالوا عن القرآنِ كلِّه: وقَع ولم يَعلَمْ به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم حتَّى أوحى اللهُ ذلك إليه، كما قال تعالى في القصَّةِ بعَيْنِها، مع بَيانِها وبَسطِها، بتفصيلِ الأقوالِ الَّتي قالَتْها الجنُّ بعدَ استِماعِهم القرآنَ العظيمَ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢] إلى آخرِ الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٥، ١٧٠)، =

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

أي: فلمَّا فَرَغ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن قراءةِ القُرآنِ انصَرَف أولئك النَّفَرُ إلى قَومِهم مِن الجِنِّ مُخَوِّفينَ لهم، ومُحَذِّرينَ مِن عَذابِ اللهِ إنْ لم يُؤمِنوا به[1].

﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾.

﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

أي: قالوا لِقَومِهم: يا قَومَنا إنَّا سَمِعْنا كِتابًا -وهو القُرآنُ- أُنزِلَ مِن بَعدِ التَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت على موسى، مُوافِقًا لِما قَبْلَه مِن كُتُبِ اللهِ[2].

﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: يُرشِدُ هذا القُرآنُ إلى الحَقِّ، وإلى طَريقٍ لا اعوِجاجَ فيه، مُوصِلٍ إلى اللهِ

= ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٥).

والضَّميرُ في ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ قيل: يعودُ إلى القُرآنِ. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحديُّ، والزمخشري، والرَّسْعَني، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٠).

وقيل: يعودُ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٠، ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٥).

قال ابن عاشور: (فأبلَغوهم ما سَمِعوا مِن القُرآنِ مِمَّا فيه التَّخويفُ مِن بأسِ الله تعالى لِمَن لا يؤمِنُ بالقُرآنِ، والتَّبشيرُ لِمَن عَمِل بما جاء به القُرآنُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١).

تعالى وإلى جَنَّتِه[(١)].

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا مَدَحوا القُرآنَ، وبيَّنوا مَحلَّه ومَرتَبتَه؛ دَعَوا قَومَهم إلى الإيمانِ به[(٢)].

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾.

أي: يا قَومَنا أجيبُوا مُحمَّدًا رَسولَ اللهِ الَّذي يَدعو إلى اللهِ وَحْدَه وطاعتِه، وآمِنوا باللهِ[(٣)].

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ بالإيمانِ به؛ ذكَرَ فائِدةَ ذلك الإيمانِ، وهي قَولُه تعالى[(٤)]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٥).

وقال ابنُ كثير: (قولُهم: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي: في الاعتِقادِ والإخبارِ، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في الأعمالِ؛ فإنَّ القُرآنَ يَشتَمِلُ على شَيئَينِ: خَبرٍ وطَلَبٍ؛ فخَبَرُه صِدقٌ، وطَلَبُه عَدلٌ، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهُدى هو: العِلمُ النَّافِعُ، ودينُ الحَقِّ: هو العَمَلُ الصَّالحُ. وهكذا قالت الجِنُّ: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ في الاعتِقاداتِ، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: في العَمَليَّاتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٠، ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٩).

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾.

أي: فإنْ أجَبْتُم داعيَ اللهِ وآمَنْتُم باللهِ فإنَّ اللهَ يَغفِرُ لكم مِن ذُنوبِكم، فيَستُرُها عليكم ولا يُؤاخِذُكم بها[(١)].

﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: ويُؤمِّنْكم مِن عَذابٍ مُوجِعٍ شَديدِ الإيلامِ[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٠٦).

قيل: ﴿مِّن﴾ في قَولِه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ صِلةٌ في الكلامِ، يعني: يَغفِرْ لكم ذُنوبَكم. وممَّن ذهب إلى هذا: السمرقندي، والبغوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٠٣).

وقيل: هي للتَّبعيضِ، أي: يَغفِرْ لكم بعضَ ذُنوبِكم. وممَّن ذهب إلى أنَّها للتَّبعيضِ: البيضاوي، وابنُ جُزي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦١).

قال ابنُ جُزَي: (﴿مِّن﴾ هنا للتَّبعيضِ على الأصَحِّ، أي: يَغفِرْ لكم الذُّنوبَ الَّتي فعَلْتُم قبْلَ الإسلامِ، وأمَّا الَّتي بعدَ الإسلامِ فهي في مَشيئةِ اللهِ. وقيل: معنى التَّبعيضِ: أنَّ المَظالِمَ لا تُغفَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: أنَّ الَّذي يُغفَرُ هو ما كان في خالِصِ حَقِّ اللهِ، دونَ مَظالِمِ العِبادِ: البيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩).

قال ابنُ عاشور: (﴿مِّن﴾ في قَولِه: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ الأظهَرُ أنَّها للتَّعليلِ، فتتعَلَّقُ بِفعلِ ﴿أَجِيبُواْ﴾ باعتبارِ أنَّه مجابٌ بفِعلِ ﴿يَغْفِرْ﴾. ويجوزُ أن تكونَ تبعيضيَّةً، أي: يَغفِرْ لكم بعضَ ذُنوبِكم، فيكونَ ذلك احترازًا في الوَعدِ؛ لأنَّهم لم يَتحَقَّقوا تفصيلَ ما يُغفَرُ مِن الذُّنوبِ وما لا يُغفَرُ؛ إذ كانوا قد سَمِعوا بعضَ القُرآنِ ولم يُحيطوا بما فيه. ويجوزُ أن تكونَ زائدةً للتَّوكيدِ، على رأيِ جماعةٍ مِمَّن يَرَونَ زيادةَ «مِنْ» في الإثباتِ كما تُزادُ في النَّفيِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٢، ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١).

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّهم حذَّروا قومَهم وتوَعَّدوهم، وأوجَبوا إجابتَهم داعيَ اللهِ بطريقِ التَّرهيبِ، إثْرَ إيجابِها بطريقِ التَّرغيبِ، فقالوا[1]:

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ومَن لا يُجِبْ مُحمَّدًا رَسولَ اللهِ إلى ما يدعو إليه مِنَ الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، فلن يُعجِزَ اللهَ بالهَرَبِ منه إذا أراد عُقوبتَه؛ فهو في قَبضتِه وسُلْطانِه[2].

كما قال الله تعالى حِكايةً عن قَولِ الجِنِّ: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾ [الجن: ١٢].

﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾.

أي: وليس له مِن دُونِ اللهِ أنصارٌ يَمنَعونَه ويَحمُونَه مِن عذابِ اللهِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

قال ابن جُزَي: (﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ الآيةَ: يحتملُ أنْ يكونَ مِن كلامِ الجنِّ، أو مِن كلامِ الله تعالى). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ هذا القَولَ مِن كَلامِ الجنِّ المُنذِرينَ: ابنُ جرير، والرازي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾.

أي: أولئك في انصرافٍ وذَهابٍ واضِحٍ عن الحَقِّ(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾، أي: اسْكُتوا لِلاستِماعِ، ففيه تأدُّبٌ مع العِلمِ، وتعليمُ كيف يُتعَلَّمُ(٢)، وأيضًا فيه تأدُّبٌ مع مُعلِّمِ العلمِ(٣). وذلك على القولِ بأنَّ الضَّميرَ عائدٌ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ أنَّ مَن دعا إلى اللهِ على بصيرةٍ وَجَبَ اتِّباعُه(٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ المَقصودُ مِن نُزولِ القُرآنِ بخَبَرِ الجِنِّ تَوبيخُ المُشرِكين بأنَّ الجِنَّ -وهم مِن عالَمٍ آخَرَ- عَلِموا القُرآنَ وأيْقَنوا بأنَّه مِن عِندِ اللهِ، والمُشرِكون -وهم مِن عَالَمِ الإنسِ، ومِن جِنسِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم المَبْعوثِ بالقُرآنِ، وممَّن يَتكلَّمُ بلُغةِ القُرآنِ- لم يَزالُوا في رَيبٍ منه، وتَكذيبٍ وإصرارٍ؛ فهذا مَوعظةٌ لِلمُشرِكين بطَريقِ المُضادَّةِ لِأحوالِهم، بعْدَ أنْ جرَت مَوعظتُهم بحالِ مُماثِليهم في الكُفْرِ مِن جِنْسِهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٧، ٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٩).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ هذا للمُشرِكينَ، وإن كانوا لا يُصَدِّقونَه؛ لِتَسجيلِ بُلوغِ ذلك إليهم؛ لِيَنتَفِعَ به مَن يَهتَدي، ولِتُكتَبَ تَبِعَتُه على الَّذين لا يَهتَدونَ[١].

٣- قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ احتُجَّ بقولِه: ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ على أنَّ في الجِنِّ الرُّسُلَ والأنبياءَ، فقد قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥].

والجوابُ عن ذلك: أن الإنذارَ أعَمُّ مِن الرِّسالةِ، والأعَمُّ لا يَستلزِمُ الأخَصَّ، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فهؤلاء نُذُرٌ وليسوا برُسُلٍ. قال غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ: (الرُّسُلُ مِن الإنسِ، وأمَّا الجِنُّ ففيهم النُّذُرُ). فالقولُ بأنَّ في الجِنِّ الرُّسُلَ والأنبياءَ قَولٌ شاذٌّ لا يُلتَفتُ إليه، ولا يُعرَفُ به سَلَفٌ مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ وأئمَّةِ الإسلامِ، فلا شَكَّ أنَّ الجِنَّ لم يَبعَثِ اللهُ منهم رَسولًا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيمَ الخَليلِ عليه السَّلامُ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكُلُّ نَبيٍّ بَعَثه اللهُ بعدَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ فمِن ذُرِّيَّتِه وسُلالتِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٢).
قال السيوطي: (جمهورُ العلماءِ سلَفًا وخلَفًا على أنَّه لم يكُنْ مِن الجِنِّ قَطُّ رسولٌ ولا نبيٌّ. كذا رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ، ومجاهِدٍ، والكَلْبِيِّ، وأبي عُبَيدٍ). ((لقط المرجان)) (ص: ٤١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قالوا: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: قال الحَسَنُ: إنَّهم كانوا على اليَهوديَّةِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّهم قالوا: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾؛ تنبيهًا لِقَومِهم على اتِّباعِ الرَّسولِ؛ إذ كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد بشَّرَ به موسى، فقالوا ذلك مِن حيثُ إنَّ هذا الأمرَ مَذكورٌ في التَّوراةِ(١).

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ كِتابَ موسى أصلٌ للإنجيلِ، وعُمدةٌ لِبَني إسرائيلَ في أحكامِ الشَّرعِ، وإنَّما الإنجيلُ مُتَمِّمٌ ومُكَمِّلٌ ومُغَيِّرٌ لِبَعضِ الأحكامِ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

قال ابن كثير: (كثيرًا ما يَقرِنُ اللهُ بيْنَ التَّوراةِ والقرآنِ، كما في قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١] إلى أن قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال في آخِرِ السُّورةِ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]، إلى أن قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. وقالت الجِنُّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾. وقال وَرَقةُ بنُ نَوْفَلٍ: «هذا النَّاموسُ الَّذي أنزَل اللهُ على موسى» [البخاري (٣٣٩٢) ومسلم (١٦٠)]. وقد عُلِم بالضَّرورةِ لِذَوي الألبابِ أنَّ اللهَ لم يُنزِلْ كتابًا مِن السَّماءِ فيما أنزَل مِن الكُتبِ المُتعَدِّدةِ على أنبيائِه أكمَلَ ولا أشمَلَ ولا أفصَحَ ولا أعظَمَ ولا أشرَفَ مِن الكتابِ الَّذي أنزَل على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو القرآنُ، وبَعْدَه في الشَّرفِ والعَظَمةِ الكتابُ الَّذي أنزَله على موسى بن عِمْرانَ عليه السَّلامُ، وهو التَّوراةُ الَّتي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤]. والإنجيلُ إنَّما نزَل مُتمِّمًا لِلتَّوراةِ، ومُحِلًّا لبعضِ ما حُرِّم على بني إسرائيلَ).
((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٢، ٢٤٣).

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّه يحتمِلُ أنَّهم لم يكونوا سمِعوا بذِكرِ عيسَى عليه السَّلامُ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أنَّ الجِنَّ فيهم الصُّلَحاءُ والعُبَّادُ، والزُّهَّادُ والعلماءُ؛ لأنَّ المُنذِرَ لا بُدَّ أنْ يكونَ عالِمًا بما يُنذِرُ، عابِدًا مُطيعًا للهِ سُبحانَه في الإنذارِ(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تعبيرُهم عنه هاهنا بالطَّريقِ فيه نُكتةٌ بَديعةٌ، وهي أنَّهم قَدَّموا قَبْلَه ذِكرَ موسى، وأنَّ الكِتابَ الَّذي سَمِعوه مُصَدِّقٌ لِمَا بيْنَ يديه مِن كتابِ موسى وغيرِه؛ فكان فيه كالنَّبَأِ عن رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في قَولِه لِقَومِه: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي: لم أكُنْ أوَّلَ رَسولٍ بُعِثَ إلى أهلِ الأرضِ، بل قد تقَدَّمتْ رُسُلٌ مِن اللهِ إلى الأُمَمِ، وإنَّما بُعِثتُ مُصَدِّقًا لهم بمِثلِ ما بُعِثوا به مِن التَّوحيدِ والإيمانِ؛ فقال مُؤمِنو الجِنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: إلى سَبيلٍ مَطروقٍ قد مَرَّتْ عليه الرُّسُلُ قبْلَه، وأنَّه ليس بِدْعًا كما قال في أوَّلِ السُّورةِ نَفْسِها؛ فاقتضَتِ البلاغةُ والإعجازُ لفظَ الطَّريقِ؛ لأنَّه «فعيلٌ» بمعنى «مفعول»، أي: مَطروقٌ مَشَتْ عليه الرُّسُلُ والأنبياءُ قَبْلُ؛ فحَقيقٌ على مَن صَدَّقَ رُسُلَ اللهِ وآمَنَ بهم أنْ يُؤمِنَ به ويُصَدِّقَه؛ فذِكْرُ الطَّريقِ هاهنا إذَنْ أَولى؛ لأنَّه أدخَلُ في بابِ الدَّعوةِ، والتَّنبيهِ على تَعَيُّنِ اتِّباعِه. واللهُ أعلَمُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٦).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أنَّ مُجرَّدَ تلاوةِ القرآنِ على شَخصٍ يكونُ مُلزِمًا له بالاتِّباعِ، فإذا تُلِيَ القرآنُ على إنسانٍ فقد قامتْ عليه الحُجَّةُ؛ ولهذا فالجِنُّ وَلَّوْا إلى قَومِهم مُنذِرينَ بمُجَرَّدِ سَماعِهم القُرآنَ؛ فقِراءةُ القُرآنِ مُلزِمةٌ، لكنْ إذا كان لا يَفهمُ لُغةَ القرآنِ فلا تكونُ مُلزِمةً؛ لِقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤]، ولا يَحصُلُ البيانُ وهو لا يَعرِفُ لُغةَ القُرآنِ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ظاهِرُه أنَّ الجِنَّ كانوا يَتعبَّدونَ بشَريعةِ موسى[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الجِنَّ كانوا مُؤمِنينَ بالرُّسُلِ السَّابِقينَ، وأنَّهم يَعلَمونَ كُتُبَهم[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ إلى قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ دَلالةٌ على تكليفِ الجِنِّ مِن وُجوهٍ مُتعَدِّدةٍ:

أحدُها: أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى صَرَفَهم إلى رَسولِه يَستَمِعونَ القُرآنَ؛ لِيُؤمِنوا به، ويأتَمِروا بأوامِرِه، ويَنتَهوا عن نَواهيه.

الثَّاني: أنَّهم وَلَّوا إلى قَومِهم مُنذِرينَ، والإنذارُ هو الإعلامُ بالمَخوفِ بعدَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٧/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠١).

انعقادِ أسبابِه؛ فعُلِمَ أنَّهم مُنذِرونَ لهم بالنَّارِ إنْ عَصَوُا الرَّسولَ.

الثَّالثُ: أنَّهم أخبَروا أنَّهم سَمِعوا القُرآنَ وعَقَلوه وفَهِموه، وأنَّه يَهدي إلى الحَقِّ، وهذا القَولُ منهم يدُلُّ على أنَّهم عالِمونَ بموسى وبالكِتابِ المنَزَّلِ عليه، وأنَّ القُرآنَ مُصَدِّقٌ له، وأنَّه هادٍ إلى صراطٍ مُستقيمٍ، وهذا يدُلُّ على تمكينِهم مِن العِلمِ الَّذي تقومُ به الحُجَّةُ، وهم قادِرونَ على امتثالِ ما فيه، والتَّكليفُ إنَّما يَستلزِمُ العَقلَ والقُدرةَ.

الرَّابعُ: أنَّهم قالوا لِقَومِهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾، وهذا صَريحٌ في أنَّهم مُكَلَّفون مأمورونَ بإجابةِ الرَّسولِ، وهي تَصديقُه فيما أخبَرَ، وطاعتُه فيما أمَرَ.

الخامسُ: أنَّهم قالوا: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾، والمَغفِرةُ لا تكونُ إلَّا عن ذَنبٍ، وهو مُخالَفةُ الأمرِ.

السَّادسُ: أنَّهم قالوا: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾، والذَّنْبُ مُخالَفةُ الأمرِ.

السَّابعُ: أنَّهم قالوا: ﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ وهذا يدُلُّ على أنَّ مَن لم يَستجِبْ منهم لِداعي اللهِ لم يُجِرْه مِن العذابِ الأليمِ، وهذا صَريحٌ في تَعَلُّقِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ بهم.

الثَّامنُ: أنَّهم قالوا: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُ﴾ وهذا تهديدٌ لِمَن تَخَلَّفَ عن إجابةِ داعي اللهِ منهم(١).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ يدُلُّ على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مَبعوثًا إلى الجِنِّ كما كان مَبعوثًا إلى الإنسِ(٢)، فأمْرُ بعضِهم

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير الرازي)) =

بعضًا بإجابتِه دليلٌ على أنَّه داعٍ لهم، وهو معنَى بَعثِه إليهم[١].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ يُفهَمُ مِن ظاهِرِها أنَّ جَزاءَ المُطيعِ مِن الجِنِّ غُفرانُ ذُنوبِه، وإجارتُه مِن عذابٍ أليمٍ، لا دُخولُه الجنَّةَ. وقد تمسَّكَ جماعةٌ مِن العُلَماءِ بظاهِرِ هذه الآيةِ، فقالوا: إنَّ المُؤمِنينَ المُطيعينَ مِن الجِنِّ لا يَدخُلونَ الجنَّةَ، مع أنَّه جاء في آيةٍ أُخرى ما يدُلُّ على أنَّ مُؤمِنيهم في الجنَّةِ، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]؛ لأنَّه تعالى بَيَّن شُمولَه للجِنِّ والإنسِ بقَولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٧]، ويُستأنَسُ لهذا بقَولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٥٦]؛ لأنَّه يُشيرُ إلى أنَّ في الجنَّةِ جِنًّا يَطمِثونَ النِّساءَ كالإنسِ؟

الجوابُ: أنَّ آيةَ (الأحقافِ) نُصَّ فيها على الغُفرانِ والإجارةِ مِن العَذابِ، ولم يُتعَرَّضْ فيها لدُخولِ الجنَّةِ بنَفيٍ ولا إثباتٍ، وآيةَ (الرَّحمن) نُصَّ فيها على

= (٢٨/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٧).

(١) يُنظر: ((فتاوى السبكي)) (٢/ ٥٩٥).

واستدلَّ السُّبْكيُّ أيضًا على ذلك بمواضِعَ أخرى مِن هذه الآياتِ:

ومنها قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، قال: (والمُنذِرون هم المُخَوِّفون ممَّا يَلحَقُ بمُخالَفتِه لَوْمٌ، فلو لم يكُنْ مَبعوثًا إليهم لَما كان القرآنُ الَّذي أتى به لازمًا لهم، ولا خُوِّفوا به).

ومنها قولُهم: ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم﴾، قال: (وذلك يَقتَضي ترتيبَ المغفرةِ على الإيمانِ به، وأنَّ الإيمانَ به شرطٌ فيها، وإنَّما يكونُ كذلك إذا تعلَّقَ حُكمُ رسالتِه بهم، وهو معنَى كَونِه مبعوثًا إليهم).

ومنها قولُهم: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، قال: (فعدَمُ إعجازِهم وأوليائِهم وكَوْنُهم في ضلالٍ مُرَتَّبٌ على عدَمِ إجابتِه، وذلك أدَلُّ دليلٍ على بَعثتِه إليهم).

دُخولِهم الجنَّةَ؛ لأنَّه تعالى قال فيها: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقد تقرَّر في الأصولِ أنَّ المَوصولاتِ مِن صِيَغِ العُمومِ؛ فقَولُه: (لِمَنْ خَافَ) يَعُمُّ كُلَّ خائفٍ مَقامَ رَبِّه، ثمَّ صَرَّح بشُمولِ ذلك للجِنِّ والإنسِ معًا بقَولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٧]، فبيَّن أنَّ الوَعدَ بالجنَّتَينِ لِمَن خاف مَقامَ رَبِّه: من آلائِه، أي: نِعَمِه على الإنسِ والجِنِّ؛ فلا تَعارُضَ بيْنَ الآيتَينِ؛ لأنَّ إحداهما بيَّنَت ما لم تَتعَرَّضْ له الأُخرى[١]، فمُحسِنُ الجِنِّ في الجنَّةِ، كما أنَّ مُسيئَهم في النَّارِ؛ فقد أخبَرَنا سُبحانَه عن نَذيرِهم إخبارَ مُقِرٍّ له أنَّ مَن أجاب داعيَه غُفِرَ له، وأجارَه مِن العَذابِ، ولو كانتِ المغفرةُ لهم إنَّما يَنالونَ بها مُجرَّدَ النَّجاةِ مِن العذابِ كان ذلك حاصِلًا بقَولِه: ﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، بل تمامُ المَغفرةِ دُخولُ الجنَّةِ، والنَّجاةُ مِن النَّارِ، فكلُّ مَن غَفَرَ اللهُ له فلا بُدَّ مِن دُخولِه الجنَّةَ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾

- مُناسَبةُ ذِكرِ إيمانِ الجنِّ ما تَقدَّمَ مِن قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨]؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملة ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] عطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، ويَتعلَّقُ قَولُه هنا: (إِذْ صَرَفْنَا) بفِعلٍ يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾، والتَّقديرُ: واذْكُرْ إذ صَرَفْنا إليك نَفَرًا مِن الجِنِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٥١٠-٥١٤).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٧، ٥٨).

- وقولُه: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ قيل: حَضَروا الرَّسولَ، وعليه فهو الْتِفاتٌ مِن ﴿إِلَيْكَ﴾ إلى ضَميرِ الغَيبةِ[1].

- و﴿أَنصِتُواْ﴾ أمْرٌ بتَوجيهِ الأسماعِ إلى الكَلامِ اهتِمامًا به؛ لِئلَّا يَفوتَ منه شَيءٌ، أي: قالُوا كلُّهم: أنْصِتوا، كلُّ واحدٍ يَقولُها لِلْبقيَّةِ؛ حِرْصًا على الوعْيِ، فنَطَقَ بها جَميعُهم[2].

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ لِلقُرآنِ بتَقديرِ مُضافٍ، أي: قُضِيَت قِراءتُه، أي: انْتَهى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن القِراءةِ حِينَ حَضَروا[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

- جُملةُ ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ...﴾ إلى آخِرِها مُبيِّنةٌ لِقَولِه: ﴿مُّنذِرِينَ﴾[4].

- وابتَدَأَ الجِنُّ إفادةَ قَومِهم بأنَّهم سَمِعوا كِتابًا؛ تَمْهيدًا لِلغَرَضِ مِن المَوعِظةِ بذِكرِ الكِتابِ ووَصْفِه؛ لِيَستشرِفَ المُخاطَبون لِمَا بعْدَ ذلك[5].

- وقَولُ الجِنِّ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ تَنبيهٌ لِقَومِهم على اتِّباعِ الرَّسولِ؛ إذ كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد بشَّرَ به مُوسى، فقالوا ذلك مِن حيثُ إنَّ هذا الأمْرَ مَذْكورٌ في التَّوراةِ[6].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٨، ٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٠).

- ووَصْفُ الكِتابِ بأنَّه ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ دُونَ (أُنزِلَ على محمَّدٍ) صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ التَّوراةَ آخِرُ كِتابٍ مِن كُتبِ الشَّرائعِ نَزَلَ قبْلَ القُرآنِ، وأمَّا ما جاء بعْدَه فكُتُبٌ مُكمِّلةٌ لِلتَّوراةِ، ومُبيِّنةٌ لها، مِثلُ زَبورِ داودَ، وإنجيلِ عيسى، فكأنَّه لم يَنزِلْ شَيءٌ جَديدٌ بعْدَ التَّوراةِ، فلمَّا نَزَلَ القُرآنُ جاء بهَدْيٍ مُستقِلٍّ غَيرِ مَقصودٍ منه بَيانُ التَّوراةِ، ولكنَّه مُصدِّقٌ لِلتَّوراةِ، وهادٍ إلى أزْيَدَ ممَّا هَدَتْ إليه التَّوراةُ[1].

- ووَصَفوه بأنَّه ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾، أي: إلى ما هو حقٌّ في نفْسِه صِدْقٌ، يُعلَمُ ذلك بصَريحِ العقْلِ. ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ غايَروا بيْنَ اللَّفظينِ والمعنَى مُتقارِبٌ، ورُبَّما اسْتُعمِلَ أحدُهما في مَوضعٍ لا يُستعمَلُ الآخَرُ فيه؛ فجُمِعَ هنا بيْنَهما، وحَسُنَ التَّكرارُ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾

- في قولِهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ﴾ إعادةُ الجِنِّ نِداءَ قَومِهم؛ لِلاهتِمامِ بما بعْدَ النِّداءِ، وهو ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخِرِه؛ لأنَّه المَقصودُ مِن تَوجيهِ الخِطابِ إلى قَومِهم، وليس المَقصودُ إعلامَ قَومِهم بما لَقُوا مِن عَجِيبِ الحوادِثِ، وإنَّما كان ذلك تَوطئةً لهذا، ولأنَّ اختِلافَ الأغراضِ وتَجدُّدَ الغَرَضِ ممَّا يَقْتضي إعادةَ مِثلِ هذا النِّداءِ، كما يُعِيدُ الخَطيبُ قَولَه: أيُّها النَّاسُ[3].

- و﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ القُرآنَ؛ لأنَّه سَبَقَ في قَولِهم: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٠).

﴿كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾، وأُطلِقَ على القُرآنِ داعِي اللهِ؛ لأنَّه يَشتمِلُ على طَلَبِ الاهتداءِ بهَدْيِ اللهِ، فشُبِّهَ ذلك بدُعاءٍ إلى اللهِ، واشْتُقَّ منه وَصفٌ لِلقُرآنِ بأنَّه داعي اللهِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ داعي اللهِ مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه يَدْعو إلى اللهِ بالقُرآنِ[١].

- وقولُه: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ أمْرٌ بإجابتِه في كُلِّ ما أَمَر به، فيَدخُلُ فيه الأمرُ بالإيمانِ، إلَّا أنَّه أعاد ذِكْرَ الإيمانِ على التَّعيينِ؛ مِن أجْلِ أنَّه أهَمُّ الأقسامِ وأشرَفُها[٢]. فعَطْفُ ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ على ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ عطْفُ خاصٍّ على عامٍّ[٣].

- وفي قولِه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّنكيتِ[٤]؛ فقدْ عُبِّرَ بـ(مِن) التَّبعيضيَّةِ إشارةً إلى أنَّ الغُفْرانَ يقَعُ على الذُّنوبِ الخاصَّةِ بيْنَ العبْدِ وربِّه، أمَّا حُقوقُ العِبادِ فلا يُمكِنُ غُفْرانُها إلَّا بعْدَ أنْ يَرْضَى أصحابُها. وكذا فمِن الذُّنوبِ ما يُجازَى به صاحبُه في الدُّنيا بالعقوباتِ والنَّكباتِ والهمومِ ونحوِها، أو يَكونُ ذلك احتِرازًا في الوعْدِ؛ لأنَّهم لم يَتحقَّقوا تَفصيلَ ما يُغفَرُ مِن الذُّنوبِ وما لا يُغفَرُ؛ إذ كانوا قدْ سَمِعوا بَعضَ القُرآنِ، ولم يُحيطوا بما فيه. وقيل: الأظْهَرُ أنَّها للتَّعليلِ، فتَتعلَّقُ بفِعلِ ﴿أَجِيبُواْ﴾ باعتبارِ أنَّه مُجابٌ بفِعلِ ﴿يَغۡفِرۡ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ صِلَةً للتَّوكيدِ؛ لأنَّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قبْلَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٠، ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦١).

(٤) التَّنكيتُ: هو أن يَقصِدَ المتكلِّمُ إلى شيءٍ بالذِّكر دونَ غيرِه ممَّا يَسُدُّ مسَدَّه مِن أجْلِ نُكتةٍ في المذكورِ تُرجِّحُ مجيئَه على سِواه. وإذا وقَع في التَّشبيهِ فقد بلَغ الغايةَ. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٢/ ٥٥).

فلا يَبْقى معه تَبِعةٌ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ إيجابٌ لِلإجابةِ بطَريقِ التَّرهيبِ، إثْرَ إيجابِها بطَريقِ التَّرغيبِ، وتَحقيقٌ لِكَونِهم مُنْذَرينَ[٢].

- وإظهارُ ﴿دَاعِيَ اللَّهِ﴾ مِن غيرِ اكْتِفاءٍ بأحَدِ الضَّميرَينِ؛ لِلمُبالَغةِ في الإيجابِ بزِيادةِ التَّقريرِ، وتَربيةِ المَهابةِ، وإدْخالِ الرَّوعةِ[٣].

- ومعنَى ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾: أنَّه لا يَنْجو مِن عِقابِ اللهِ على عَدَمِ إجابتِه داعِيَه؛ فمَفعولُ ﴿بِمُعْجِزٍ﴾ مُقدَّرٌ دلَّ عليه المُضافُ إليه في قَولِه: ﴿دَاعِيَ اللَّهِ﴾، أي: فليس بمُعجزٍ اللهَ، والكَلامُ كِنايةٌ عن المُؤاخَذةِ بالعِقابِ[٤].

- وتَقْييدُ الإعجازِ بكَونِه في الأرضِ؛ لِتَوسيعِ الدَّائرةِ، أي: فليسَ بمُعجِزٍ له تعالَى بالهَرَبِ، وإنْ هَرَب كلَّ مَهْرَبٍ مِن أقْطارِها، أو دخَلَ في أعْماقِها[٥]، فالمَقصودُ مِن قَولِه: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تَعميمُ الجِهاتِ؛ فجَرى على أُسلوبِ اسْتِعمالِ الكلامِ العربيِّ؛ وإلَّا فإنَّ مَكانَ الجنِّ غَيرُ مُعيَّنٍ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

- قولُه: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾، أي: لا نَصيرَ يَنصُرُه على اللهِ، ويَحْمِيه منه؛ فهو نفْيٌ لِأنْ يكونَ له سَبيلٌ إلى النَّجاةِ بالاسْتِعصامِ بمَكانٍ لا تَبلُغُ إليه قُدْرةُ اللهِ، ولا بالاحتِماءِ بمَن يَستطيعُ حِمايتَه مِن عِقابِ اللهِ. وذِكرُ هذا تَعريضٌ لِلمُشرِكين[(١)].

- وجمْعُ الأولياءِ باعتِبارِ مَعْنى (مَنْ)؛ فيَكونُ مِن بابِ مُقابَلةِ الجَمْعِ بالجمْعِ؛ لِانقِسامِ الآحادِ إلى الآحادِ[(٢)].

- واسمُ الإشارةِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾؛ لِلتَّنبيهِ على أنَّ مَن هذه حالُهم جَديرونَ بما يَرِدُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن الحُكْمِ؛ لِتَسبُّبِ ما قبْلَ اسمِ الإشارةِ فيه[(٣)].

- والظَّرفيَّةُ المُستفادةُ مِن قولِه: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾؛ لإفادةِ قُوَّةِ تَلبُّسِهم بالضَّلالِ حتَّى كأنَّهم في وِعاءٍ هو الضَّلالُ[(٤)].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٣-٣٥)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَعْيَ﴾: أي: يَعجِزْ، والعِيُّ: عَدَمُ الاهتِداءِ إلى جهةٍ، ومنه العِيُّ في الكلامِ؛ مِنْ عَيِيَ بالأمرِ: إذا لم يَهتَدِ لِوَجهِ عمَلِه. يُقالُ: عَيِيتَ بالأمرِ: إذا لم تَعرِفْ وَجْهَه. وأصلُ (عيى): يدُلُّ على العَجزِ[١].

﴿الْعَزْمِ﴾: أي: الحَزمِ والصَّبرِ، وأصلُ (عزم): يدُلُّ على القَطعِ[٢].

﴿بَلَاغٌ﴾: أي: تبليغٌ وعِظةٌ، وأصلُ (بلغ): وُصولٌ إلى الشَّيءِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٨) و(١٧/ ٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٥).

قَولُه: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ﴾: يَعْيَ: مُضارِعُ (عَيِيَ) بالكَسرِ (يَعْيَا) بالفَتحِ، فلمَّا دَخَلَ الجازمُ (لَمْ) حُذِفَت الألِفُ فصار ﴿يَعۡيَ﴾؛ فهو فِعلٌ مُضارعٌ مَجزومٌ، وعلامةُ جَزمِه حَذفُ حَرفِ العلَّةِ، وهو الألِفُ.

قَولُه: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾: خبَرُ ﴿أَنَّ﴾ مَرفوعٌ محَلًّا، مجرورٌ لَفظًا، والباءُ: زائِدةٌ مُؤكِّدةٌ، وحَسَّن زيادتَها هنا كَوْنُ ما قَبْلَها -أنَّ مع ما في حَيِّزِها- في حيِّزِ النَّفيِ (لَمْ)، فكأنَّه قيل: أوَلَيسَ اللهُ بقادِرٍ على أن يُحييَ المَوتى؟ ولذلك أُجيبَ عنه بقَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، ولولاه ما زِيدَت الباءُ في الخبَرِ؛ لو قُلتَ: ظَننتُ أنَّ زيدًا بقائمٍ، لم يَجُزْ. ولو قُلتَ: ما ظَننتُ أنَّ زيدًا بقائمٍ، جاز؛ لدُخولِ (ما) النَّافيةِ(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى موبِّخًا المشركينَ، ومُستَدِلًّا على الإعادةِ بعدَ الموتِ: أوَلَمْ يَرَ المُنكِرونَ للبَعثِ يومَ القيامةِ أنَّ اللهَ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ ولم يَعجِزْ عن خَلْقِهنَّ بقادرٍ على إحياءِ الموتى؟! بلى قادِرٌ سُبحانَه على ذلك؛ إنَّه على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ يخبِرُ تعالى عن حالِ المشركينَ عندَ عَرْضِهم على النَّارِ، متوعِّدًا لهم، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُعرَضُ الَّذين كَفَروا باللهِ على النَّارِ، ويُقالُ لهم تَوبيخًا: أليس هذا العذابُ حقًّا واقِعًا؟! قالوا: بلى هو حَقٌّ ورَبِّنا! قال اللهُ لهم: فذُوقُوا العذابَ؛ بسَبَبِ كُفرِكم بالحَقِّ في الدُّنيا.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يَصبِرَ على أذَى المكذِّبينَ،

(١) يُنظر: ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (١/ ١٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٠).

فيقولُ: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يُصيبُك كما صبَرَ على ذلك أصحابُ العَزمِ والجِدِّ مِن الرُّسُلِ السَّابِقينَ، ولا تَستعجِلْ وُقوعَ العذابِ على المُشرِكينَ؛ فهم مُعَذَّبونَ لا مَحالةَ! كأنَّهم يومَ يَرَونَ عذابَ اللهِ لم يَلبَثوا في الدُّنيا إلَّا ساعةً واحِدةً مِن ساعاتِ النَّهارِ!

هذا القُرآنُ بَلاغٌ مِن اللهِ لِعِبادِه، وما يُهلَكُ بعدَ هذا البَلاغِ إلَّا القَومُ الفاسِقونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا تَمَّ الكَلامُ في التَّوحيدِ وفي النُّبُوَّةِ؛ ذكَرَ عَقِيبَهما تقريرَ مَسألةِ المَعادِ(١).

وأيضًا لَمَّا أتَمَّ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما اقتَضاه مَقصودُ هذه السُّورةِ مِن أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه، والتَّحذيرِ مِن سَطَواته بذِكرِ بَعضِ مَثُلاتِه، وخَتَم بضَلالِ مَن لم يُجِبِ الدَّاعيَ- نَبَّه على أنَّ أوضَحَ الأدِلَّةِ على إحاطتِه بالجَلالِ والجَمالِ، وقُدرتِه على الأجَلِ المُسَمَّى الَّذي خَلَق الخَلْقَ مِن أجْلِه: ما جَلَّى به مَطلَعَ السُّورةِ مِن إبداعِ الخافِقَينِ، وما فيهما مِن الآياتِ الظَّاهِرةِ للأُذُنِ والعَينِ(٢).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾.

أي: أوَلَمْ يَرَ المُنكِرونَ للبَعثِ، المُستَبعِدونَ لقِيامِ الأجسادِ يومَ القيامةِ: أنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٥).

الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، ولم يَعجِزْ عن خَلْقِهنَّ -على عَظَمتِهنَّ وسَعَتِهنَّ وإتقانِ خَلْقِهنَّ- أنَّه لا يُعجِزُه إعادةُ النَّاسِ أحياءً بعدَ مَوتِهم، وأنَّه قادِرٌ على ذلك قُدرةً عَظيمةً تامَّةً(١)؟!

كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: قد رأى المُنكِرونَ للبَعثِ وعَلِموا أنَّه قادِرٌ على ذلك؛ إنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ، لا يُعجِزُه سُبحانَه شَيءٌ(٢).

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أقام اللهُ تعالى الدَّلالةَ على صِحَّةِ القَولِ بالحَشرِ والنَّشرِ؛ ذكَرَ بَعضَ أحوالِ الكُفَّارِ(٣)، وذكَّرَ بِبَعضِ ما يَحصُلُ في يومِ القيامةِ مِن الأهوالِ؛ تحذيرًا منه(٤)، فقال:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣، ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٥-١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٧).

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُعرَضُ الَّذين كَفَروا باللهِ وكَذَّبوا بالبَعثِ على النَّارِ، ويُقالُ لهم تَوبيخًا: أليس هذا العذابُ -الَّذي تَحضُرونَه وتُشاهِدونَه الآنَ، وقد كُنتُم تُكَذِّبونَ به في الدُّنيا- أمرًا ثابتًا واقِعًا[1]؟!

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾.

أي: قال الكُفَّارُ المُكَذِّبونَ بالبَعثِ: بلى، هذا العَذابُ حَقٌّ ثابتٌ وواقِعٌ، ونُقسِمُ على ذلك برَبِّنا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

أي: قال اللهُ لهم: فذُوقُوا هذا العذابَ؛ بسَبَبِ كُفرِكم بالحَقِّ في الدُّنيا[3].

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قَرَّرَ المطالِبَ الثَّلاثةَ، وهي: التَّوحيدُ، والنُّبُوَّةُ، والمَعادُ، وأجاب عن الشُّبُهاتِ؛ أردَفَه بما يَجري مَجرَى الوَعظِ والنَّصيحةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢).

وسلَّم؛ وذلك لأنَّ الكُفَّارِ كانوا يُؤذُونَه(١).

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يُصيبُك في اللهِ مِن الأذى والشَّدائِدِ كما صبَرَ على ذلك أصحابُ العَزمِ والجِدِّ والهِمَّةِ العاليةِ مِن الرُّسُلِ السَّابِقينَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٦، ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤).

قال ابنُ عاشور: (﴿أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾: أصحابُ العَزمِ، أي: المتَّصِفونَ به، والعَزمُ: نيَّةٌ مُحقَّقةٌ على عَمَلٍ أو قَولٍ دونَ تردُّدٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٧).

وقال شِهابُ الدِّين الخفاجي: (وأولُو العَزمِ: إمَّا الرُّسُلُ مُطلَقًا، فـ«مِن» بيانيَّةٌ، وهذا أحَدُ الأقوالِ فيه، أو طائِفةٌ مَخصوصةٌ منهم، فـ«مِن» تَبعيضيَّةٌ، وفي تَعيينِهم أقوالٌ). ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٣٧).

وقال ابنُ كثير: (وأشهَرُها [أي: هذه الأقوالِ] أنَّهم: نوحٌ، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى، وخاتمُ الأنبياءِ كُلِّهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، قد نصَّ اللهُ على أسمائِهم مِن بيْنِ الأنبياءِ في آيتَين مِن سُورتَيِ الأحزابِ والشُّورى). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٠، ٣١).

وقال ابن تيميَّة: (أُولو العزمِ الَّذين خصَّهم اللهُ بالذِّكرِ في قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وهم يومَ القيامةِ الَّذين تَطلُبُ منهم الأُمَمُ الشَّفاعةَ، وبهم أُمِر خاتمُ الرُّسلِ أن يَقتديَ في الصَّبرِ، فقيل له: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٢).

وقال الشنقيطي: (فالرُّسُلُ الَّذين أُمِرَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَصبِرَ كما صَبَروا: أربَعةٌ، فصار هو صلَّى الله عليه وسلَّم خامِسَهم. واعلَمْ أنَّ القَولَ بأنَّ المرادَ بأُولي العَزمِ جَميعُ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ لَفظةَ «من» في قولِه: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ بيانيَّةٌ: يَظهَرُ أنَّه خِلافُ التَّحقيقِ، كما دَلَّ على ذلك بَعضُ الآياتِ القُرآنيَّةِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَه بالصَّبرِ الَّذي هو مِن أعلى الفَضائِلِ؛ نهاه عن العَجَلةِ الَّتي هي مِن أُمَّاتِ الرَّذائِلِ؛ لِيَصِحَّ التَّحَلِّي بفَضيلةِ الصَّبرِ، الضَّامِنةِ للفَوزِ والنَّصرِ[1]، فقال:

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾.

= [القلم: ٤٨]، فأمَرَ اللهُ جَلَّ وعلا نَبيَّه في آيةِ «القلم» هذه بالصَّبرِ، ونهاه عن أن يكونَ مِثلَ يُونُسَ؛ لأنَّه هو صاحِبُ الحُوتِ، وكقَولِه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]؛ فآيةُ «القلم» وآيةُ «طه» المذكورتانِ: كِلْتاهما تدُلُّ على أنَّ أُولي العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ الَّذين أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يَصبِرَ كصَبْرِهم لَيسوا جميعَ الرُّسُلِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٤١).

ونَسَب السَّمْعانيُّ هذا القَولَ -أي أنَّهم أربعةٌ- إلى أكثرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٩٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعَطاءٌ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٧)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٠٤).

وممَّن اختارَ أنَّ «مِنْ» بيانيَّةٌ: ابنُ الأنباري -كما نسَبَه ابنُ الجوزي إليه- والبيضاويُّ، وجلال الدين المحلي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٩١).

أي: ولا تَطلُبْ -يا محمَّدُ- تعجيلَ وُقوعِ العذابِ على المُشرِكينَ؛ فهم مُعَذَّبونَ لا مَحالةَ في الوَقتِ الَّذي قدَّره اللهُ لهلاكِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا﴾ [مريم: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا * وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١٠، ١١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ [الطارق: ١٧].

﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ﴾.

أي: كأنَّهم يومَ يَرَونَ عذابَ اللهِ لم يَلبَثوا في الدُّنيا إلَّا ساعةً واحِدةً مِن ساعاتِ النَّهارِ، ويَنسَونَ طُولَ لُبثِهم في الدُّنيا[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [يونس: ٤٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٧، ١٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤١، ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣).

قال البقاعي: (﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ﴾ أي: في الدُّنيا عندَ الموتِ مَثلًا، أو في الآخرةِ وقتَ العَرضِ والحِسابِ والهَولِ الأعظَمِ الأكبَرِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٩١).

وقال الرازي: (أُخْبِر [النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم] أنَّ ذلك العذابَ منهم قريبٌ، وأنَّه نازِلٌ بهم لا مَحالةَ وإنْ تأخَّر، وعندَ نزولِ ذلك العذابِ بهم يَسْتَقْصِرونَ مُدَّةَ لُبْثِهم في الدُّنيا، حتَّى يَحْسِبونَها ساعةً مِن نهارٍ، والمعنَى أنَّهم إذا عايَنوا العذابَ صار طولُ لُبْثِهم في الدُّنيا والبَرزخِ كأنَّه ساعةٌ مِن النَّهارِ، أو كأنْ لم يَكُنْ؛ لِهَوْلِ ما عايَنوا، أو لأنَّ الشَّيءَ إذا مضَى صارَ كأنَّه لم يَكُنْ، وإنْ كانَ طويلًا). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣١).

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

﴿بَلَٰغٌ﴾.

أي: هذا القُرآنُ بَلاغٌ مِن اللهِ لِعِبادِه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٢).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ أنَّ القُرآنَ بلاغٌ: الثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والقرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٢).

قال ابن الجوزي: (وفي معنى وَصفِ القرآنِ بالبَلاغِ قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّ البلاغَ بمعنى التَّبليغِ.

والثَّاني: أنَّ معناه الكِفايةُ، فيكونُ المعنى: ما أخبَرْناهم به لهم فيه كفايةٌ وغِنًى). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٤).

وذكر ابنُ جرير وَجهًا آخَرَ، وهو أنَّ المعنى: لم يَلبَثوا إلَّا ساعةً مِن نهارٍ، ذلك لُبْثُ بَلاغٍ، أي: ذلك بلاغٌ لهم في الدُّنيا إلى آجالِهم، ثمَّ حُذِفت «ذلك لُبْثُ»؛ اكتِفاءً بدَلالةِ ما ذُكِرَ في الكلامِ عليها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٨).

وقال السعدي: (أي: هذه الدُّنيا مَتاعُها وشَهوتُها ولَذَّاتُها بُلغةٌ مُنغَّصةٌ، ودَفعُ وَقتٍ حاضرٍ قَليلٍ. أو: هذا القرآنُ العَظيمُ الَّذي بيَّنَّا لكم فيه البيانَ التَّامَّ بلاغٌ لكم، وزادٌ إلى الدَّارِ الآخرة، ونِعْمَ الزَّادُ والبُلغةُ زادٌ يُوصِلُ إلى دارِ النَّعيمِ، ويَعصِمُ من العذابِ الأليمِ؛ فهو أفضَلُ زادٍ يتزَوَّدُه الخلائقُ، =

كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

أي: فهل يُهلَكُ بالعذابِ بعدَ هذا البَلاغِ إلَّا القَومُ الَّذين خَرَجوا عن طاعةِ اللهِ تعالى، وكَفَروا به، وخالَفوا أوامِرَه؛ فاستحَقُّوا عَذابَه[١]؟

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في القُرآنِ مِن قصصِ المُرسَلينَ الَّتي فيها تَسليةٌ وتَثبيتٌ؛ لِيُتأسَّى بهم في الصَّبرِ على ما كُذِّبوا وأُوذُوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾[٢].

٢- مَن قَوِيَت عَزيمتُه، وكَمَلَ عِلمُه، وقَوِيَ إيمانُه؛ لم يَطمَعْ فيه عَدُوُّه، وكان أفضَلَ، ومَن ضَعُفَ عِلمُه وضَعُفَت عَزيمتُه، طَمِعَ فيه عَدُوُّه؛ قال اللهُ تعالى في حَقِّ آدَمَ: ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: ١١٥]، وقال في حَقِّ غَيرِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ

= وأجَلُّ نِعمةٍ أنعَمَ اللهُ بها عليهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٧، ١٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥).

قال ابن عاشور: (والمرادُ بالفِسْقِ هنا: الفِسقُ عن الإيمانِ، وهو فِسقُ الإشراكِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٧٩).

أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[1].

٣- قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ فأمَرَ بالصَّبرِ، ونَهى عَمَّا يُضادُّه، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، وبالجُملةِ فكُلُّ ما نَهى عنه فإنَّه يُضادُّ الصَّبرَ المأمورَ به[2].

٤- على قَدْرِ رَغبةِ العَبدِ في الدُّنيا ورِضاه بها يكونُ تَثاقُلُه عن طاعةِ اللهِ، وطَلَبِ الآخِرةِ، ويَكفي في الزُّهدِ في الدُّنيا قَولُه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وقَولُه تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧]، وقَولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، وقَولُه تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٦]، وقَولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، وقَولُه تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤]، وقَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[3] [طه: ١٠٢ - ١٠٤].

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا استِدلالٌ منه تعالى على الإعادةِ بعدَ الموتِ بما هو أبلَغُ منها، وهو: أنَّه الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ على عِظَمِهما وسَعتِهما، وإتقانِ خَلْقِهما، مِن دونِ أن يكترِثَ بذلك، ولم يَعْيَ بخَلقِهنَّ، فكيف تُعجِزُه إعادتُكم بعدَ مَوتِكم وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ[1]؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ تَنبيهٌ على ثُبوتِ الأُمورِ الَّتي تُوجِبُ وَصْفَ خالقِ السَّموات والأرضِ بصِفاتِ الكَمالِ، وبإحداثِ الأفعالِ، وذلك هو الَّذي يَستلزِمُ قُدرتَه عزَّ وجلَّ على إحياءِ الموتى[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اختيرَ فِعلُ ﴿يَرَوْا﴾ مِن بيْنِ أفعالِ العِلمِ هنا؛ لأنَّ هذا العِلمَ عليه حُجَّةٌ بَيِّنةٌ مُشاهَدةٌ، وهي دَلالةُ خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ مِن عَدَمٍ، وذلك مِن شأنِه أن يَفرِضَ بالعَقلِ إلى أنَّ اللهَ كامِلُ القُدرةِ على ما هو دونَ ذلك مِن إحياءِ الأمواتِ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أنَّ (الذَّوقَ) لا يَختَصُّ بحاسَّةِ الفَمِ في لغةِ القُرآنِ، بل ولا في لُغةِ العرَبِ[4].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ إثباتُ الأسبابِ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٥).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ يقتضي أنَّ مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم مِن أُولي العَزمِ؛ لأنَّ تَشبيهَ الصَّبرِ الَّذي أُمِرَ به بصَبرِ أُولي العَزمِ مِن الرُّسُلِ يَقتَضي أنَّه مِثلُهم؛ لأنَّه مُمتَثِلٌ أمْرَ رَبِّه، فصَبرُه مَثيلٌ لصَبرِهم، ومَن صبرَ صَبْرَهم كان منهم لا مَحالةَ(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ أنَّ الزَّمَنَ قصيرٌ؛ مهما طالَ بالإنسانِ العُمُرُ فهو قَليلٌ(٢)!

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قيل: ما في الرَّجاءِ لرَحمةِ اللهِ شَيءٌ أقوى مِن هذه الآيةِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ عَودٌ إلى الاسْتِدلالِ على إمكانِ البَعثِ؛ فهو مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ إلى قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧، ١٨]، وهو انتِقالٌ مِن المَوعظةِ بمَصيرِ أمْثالِهم مِن الأُمَمِ إلى الاستِدلالِ على إبطالِ ضَلالِهم في شِرْكِهم؛ وهو الضَّلالُ الَّذي جَرَّأَهم على إحالةِ البَعثِ، بعْدَ أنْ أُطِيلَ في إبطالِ تَعدُّدِ الآلِهةِ، وفي إبطالِ تَكذيبِهم بالقُرآنِ، وتَكذيبِهم النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهذا عَودٌ على بَدْءٍ؛ فقدِ ابْتُدِئَت السُّورةُ بالاحتِجاجِ على البَعثِ بقَولِه تعالَى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣]، ويتَّصِلُ بقَولِه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٨).

﴿أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ إلى قوله: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[(١)] [الأحقاف: ١٧].

- والهمزةُ في قولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ للاستفهامِ الإنكاريِّ، والرُّؤيةُ هنا عِلْميَّةٌ[(٢)].

- وقولُه: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ﴾ العِيُّ هو العجْزُ عن العمَلِ أو عن الكلام، ومنه العِيِّ في الكلامِ، أي: عُسرُ الإبانةِ. وتَعديةُ الفِعلِ ﴿يَعۡيَ﴾ بالباءِ بلاغةٌ؛ لِيُفيدَ انتفاءَ عَجْزِه عن صُنْعِها، وانتفاءَ عجْزِه في تَدْبيرِ مَقاديرِها ومُناسباتِها؛ فكانت باءُ المُلابَسةِ صالحةً لِتَعليقِ الخلْقِ بالعِيِّ بمَعْنيَيْه[(٣)].

- وأيضًا العِيُّ يُطلَقُ على التَّعَبِ وعلى عجْزِ الرَّأيِ وعَجْزِ الحِيلةِ. وقيل: العِيُّ خاصٌّ بالعجْزِ في الحِيلةِ والرَّأيِ، وأمَّا الإعياءُ فهو التَّعَبُ مِن المشْيِ ونَحْوِه، وفِعلُه: أعْيا، وقيل: إنَّ (أعْيا) لا يكونُ إلَّا مُتعدِّيًا، أي: هَمْزتُه هَمْزةُ تَعديةٍ، وزُعِمَ أنَّ مِثلَه مَقصورٌ على السَّماعِ، وهو راجعٌ إلى تَنازُعِ العاملينِ، وعلى هذا الرَّأيِ يكونُ قَولُه تعالى هنا: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ﴾ دالًّا على سَعةِ عِلْمِه تعالى بدَقائقِ ما يَقْتضيه نِظامُ السَّمواتِ والأرضِ؛ لِيُوجِدَهما وافيَينِ به، وتكونُ دَلالتُه على أنَّه قَديرٌ على إيجادِهما بدَلالةِ الفَحْوى[(٤)]، أو يكونُ إيكالُ أمْرِ قُدْرتِه على خَلْقِهما إلى عِلْمِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّهم لم يُنكِروا ذلك، وقُصِدَ تَنْبيهُهم إلى ما في نِظامِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ مِن الدَّقائقِ والحِكَمِ، ومِن جُمْلتِها لُزومُ الجزاءِ على عَمَلِ الصَّالحاتِ والسَّيِّئاتِ[(٥)].

- قولُه: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ الباءُ صِلةٌ لِتأكيدِ النَّفيِ؛ فإنَّه مُشتمِلٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٤).

(٤) تقدَّم تعريفها (ص: ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٤، ٦٥).

على (أَنَّ) وما في حَيِّزِها؛ ولذلك أجابَ عنه بقولِه: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ تَقْريرًا لِلقُدْرةِ على وَجْهٍ عامٍّ يَكونُ كالبُرهانِ على المَقصودِ، كأنَّه لَمَّا صَدَّرَ السُّورةَ بتَحقيقِ المَبْدأِ، أرادَ ختْمَها بإثباتِ المَعادِ[١].

- قولُه: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ مَوقعُ الجوابِ بحَرْفِ (بلى) هو جَوابٌ لِمَحذوفٍ دلَّ عليه التَّعجيبُ مِن ظَنِّهم أنَّ اللهَ غيرُ قادرٍ على أنْ يُحيِيَ الموتَى؛ فإنَّ ذلك يَتضمَّنُ حِكايةً عنهم أنَّ اللهَ لا يُحْيي المَوتَى، فأُجِيبَ بقَولِه: ﴿بَلَىٰٓ﴾؛ تَعليمًا لِلمسلمينَ، وتَلقينًا لِمَا يُجيبونَهم به، وحَرْفُ (بلى) لَمَّا كان جَوابًا، كان قائمًا مَقامَ جُملةٍ، تَقديرُها: هو قادرٌ على أنْ يُحيِيَ المَوتى[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تَذْييلٌ لِجُملةِ ﴿بَلَىٰٓ﴾؛ لأنَّ هذه تُفيدُ القُدْرةَ على خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، وإحياءِ المَوتَى، وغيرِ ذلك مِن المَوجوداتِ الخارجةِ عن السَّمواتِ والأرضِ[٣].

- وتَأْكيدُ الكَلامِ بحرْفِ (إنَّ)؛ لِرَدِّ إنْكارِهم أنْ يُمكِنَ إحياءُ اللهِ المَوتى؛ لأنَّهم لَمَّا أحالُوا ذلك فقد أنْكَروا عُمومَ قُدْرتِه تعالَى على كلِّ شَيءٍ، ولهذه النُّكتةِ جِيءَ في القُدْرةِ على إحياءِ المَوتَى بوَصفِ (بِقَادِرٍ)، وفي القُدْرةِ على كلِّ شَيءٍ بوَصفِ (قَدِيرٍ) الَّذي هو أكثَرُ دَلالةً على القُدْرةِ مِن وَصْفِ (قادِرٍ)[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ موقِعُ هذا الكلامِ: أنَّ عَرْضَ المُشرِكين على النَّارِ مِن آثارِ الجَزاءِ الواقِعِ بعْدَ البَعثِ؛ فلمَّا ذُكِرَ في الآيةِ الَّتي قبْلَها الاسْتِدلالُ على إمكانِ البَعثِ، أُعقِبَ بما يَحصُلُ لهم يَومَ البَعثِ، جمْعًا بيْنَ الاسْتِدلالِ والإنذارِ، وذُكِرَ مِن ذلك ما يُقالُ لهم ممَّا لا مَنْدوحةَ لهم عن الاعتِرافِ بخَطئِهم، جمْعًا بيْن ما رُدَّ به في الدُّنيا مِن قَولِه: ﴿بَلَىٰٓ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وما يردُّون في عِلْمِ أنفُسِهم يَومَ الجَزاءِ بقَولِهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾. والجُملةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ [الأحقاف: ٣٣] إلخ. وأوَّلُ الجُملةِ المَعطوفةِ قَولُه: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنَّه مَقولُ فِعلِ قَولٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: ويُقال لِلَّذين كَفَروا يومَ يُعرَضون على النَّارِ[١].

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ فيه تَقديمُ الظَّرْفِ ﴿وَيَوْمَ﴾ على عامِلِه ﴿يُعْرَضُ﴾؛ لِلاهتمامِ بذِكرِ ذلك اليومِ؛ لِزيادةِ تَقريرِه في الأذهانِ[٢].

- وذِكرُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للإيماءِ بالمَوصولِ إلى عِلَّةِ بِناءِ الخبَرِ، أي: يُقالُ لهم ذلك؛ لأنَّهم كَفَروا[٣].

- والاسْتِفهامُ ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ تَقْريريٌّ، وتَنْديمٌ على ما كانوا يَزْعُمون أنَّ الجزاءَ باطلٌ وكذِبٌ. وفيه تهكُّمٌ بهم، وتوبيخٌ لهم على اسْتِهزائِهم بوَعْدِ اللهِ ووَعيدِه، حيثُ قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[٤] [الصافات: ٥٩].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٥، ٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٩/ ١٩٤).

- والإشارةُ في قولِه: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ إلى ما يُشاهِدونَه حينَ العَرضِ مِن حيثُ هو، مِن غيرِ أنْ يَخطُرَ بالبالِ لَفظٌ يدُلُّ عليه، فضْلًا عن تَذكيرِه وتأْنيثِه؛ إذ هُو اللَّائقُ بتَهْويلِه وتَفْخيمِه. وقيل: الإشارةُ إلى العذابِ، بقرينةِ التَّصريحِ به بعدُ[1].

- قولُه: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إنَّما أقْسَموا على كَلامِهم بقَسمِ ﴿وَرَبِّنَا﴾ قَسَمًا مُستعمَلًا في النَّدامةِ، والتَّغليطِ لِأنفُسِهم، وجَعَلوا المُقسَمَ به بعُنوانِ الرَّبِّ؛ تَحنُّنًا وتَخضُّعًا[2].

- وأُكِّدَ جَوابُهم بالقسَمِ كأنَّهم يَطْمَعونَ في الخَلاصِ بالاعتِرافِ بحقيَّةِ ذلك، كما في الدُّنيا، وأنَّى لهُم ذلكَ[3]؟!

- والأمْرُ في قَولِه: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فيه مَعنى الإهانةِ بهم، والتَّوبيخِ لهم[4].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ تَفريعٌ على ما سبَقَ في هذه السُّورةِ مِن تَكذيبِ المُشرِكين رِسالةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم بجَعْلِهم القُرآنَ مُفْترًى، واستِهزائِهم به وبما جاء به مِن البَعثِ، ابتِداءً من قَولِه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٦).

[الأحقاف: ٧]، وما اتَّصَلَ به مِن ضَرْبِ المَثَلِ لهم بعادٍ؛ فأُمِرَ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على ما لَقِيَه منْهم مِن أذًى، وضُرِب له المَثَلُ بالرُّسلِ أُولي العزْمِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ فَصيحةً، والتَّقديرُ: فإذا عَلِمْتَ ما كان مِن الأُمَمِ السَّابقةِ، وعَلِمْتَ كيف انْتَقَمْنا منهم، وانتَصَرْنا لِرُسُلِنا؛ فاصْبِرْ كما صَبَروا(١).

- قولُه: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أُعقِبَ أمْرُه بالصَّبرِ بنَهْيِه عن الاسْتِعجالِ لِلمُشرِكين، أي: الاسْتِعجالِ لهم بالعَذابِ، أي: لا تَطلُبْ منَّا تَعجيلَه لهم؛ وذلك لأنَّ الاستِعجالَ يُنافي العزْمَ، ولأنَّ في تأْخيرِ العَذابِ تَطْويلًا لِمُدَّةِ صَبْرِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بكَسْبِ عَزْمِه قُوَّةً(٢).

- ومَفعولُ ﴿تَسْتَعْجِل﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه المَقامُ، تَقديرُه: العذاب أو الهلاك. واللَّامُ في ﴿لَّهُمْ﴾ لامُ تَعديةِ فِعلِ الاسْتِعجالِ إلى المَفعولِ لِأجْلِه، أي: لا تَستعجِلْ لِأجْلِهم، والكلامُ على حَذْفِ مُضافٍ؛ إذِ التَّقديرُ: لا تَستعجِلْ لِهلاكِهِم(٣).

- وجُملةُ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ تَعليلٌ لِلنَّهيِ عن الاستِعجالِ لهم بالعَذابِ؛ بأنَّ العَذابَ واقِعٌ بهم، فلا يُؤثِّرُ في وُقوعِه تَطويلُ أجَلِه ولا تَعجيلُه، وهمْ عِندَ حُلولِه مُنذُ طُولِ المُدَّةِ يُشْبِهُ حالُهم حالَ عَدَمِ المُهلةِ إلَّا ساعةً قَليلةً(٤).

- قولُه: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ وَصْفُ السَّاعةِ وتَخصيصُها بهذا الوَصْفِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٦، ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٦٧، ٦٨).

﴿مِّن نَّهَارٍ﴾؛ لأنَّ ساعةَ النَّهارِ تَبْدو للنَّاسِ قَصيرةً؛ لِما للنَّاسِ في النَّهارِ مِن الشَّواغِلِ، بخِلافِ ساعةِ اللَّيلِ تَطولُ؛ إذ لا يَجِدُ السَّاهرُ شَيئًا يَشغَلُه؛ فالتَّنكيرُ للتَّقليلِ[1].

- وقولُه: ﴿بَلَٰغٌ﴾ فَذْلَكةٌ[2] لِمَا تَقدَّمَ بأنَّه بَلاغٌ للنَّاسِ؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهم؛ لِيَعلَمَ كلٌّ حَظَّه مِن ذلك؛ فقولُه: ﴿بَلَٰغٌ﴾ خبرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: هذا بلاغٌ، على طَريقةِ العُنوانِ والطَّالِعِ. والجُملةُ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا ابتِدائيًّا على طَريقةِ الفَذْلكةِ والتَّحصيلِ[3].

وقيل: ﴿بَلَٰغٌ﴾ مُبتدأٌ، والخبَرُ: ﴿لَّهُمْ﴾، وما بيْنَهما اعتِراضٌ، أي: لهم وقْتٌ يَبلُغون إليه، كأنَّهم إذا بَلَغوه ورَأَوا ما فيه، اسْتَقْصَروا مُدَّةَ عُمرِه[4].

- وفُرِّعَ على جُملةِ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ إلى ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾، قولُه: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي: فلا يُصِيبُ العذابُ إلَّا المُشرِكين أمْثالَهم. والاسْتِفهامُ مُستعمَلٌ في النَّفْيِ، ومَعنى التَّفريعِ أنَّه قدِ اتَّضَحَ ممَّا سمِعْتَ أنَّه لا يُهلَكُ إلَّا القومُ الفاسِقون[5].

- وتَعريفُ ﴿الْقَوْمُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وهو مُفِيدُ العُمومَ، أي: كلُّ القَومِ الفاسِقينَ؛ فيَعُمُّ مُشْركي مكَّةَ الَّذين عَناهم القُرآنُ، فكان لهذا التَّفريعِ مَعنى التَّذييلِ. والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ في قَولِه: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ على هذا الوجْهِ؛ لِتَغليبِ إهْلاكِ المُشرِكين الَّذي لَمَّا يقعْ على إهلاكِ الأُمَمِ الَّذين قبْلَهم. ويجوزُ جعْلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٨).

(٢) تقدم تعريفها (ص: ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٩).

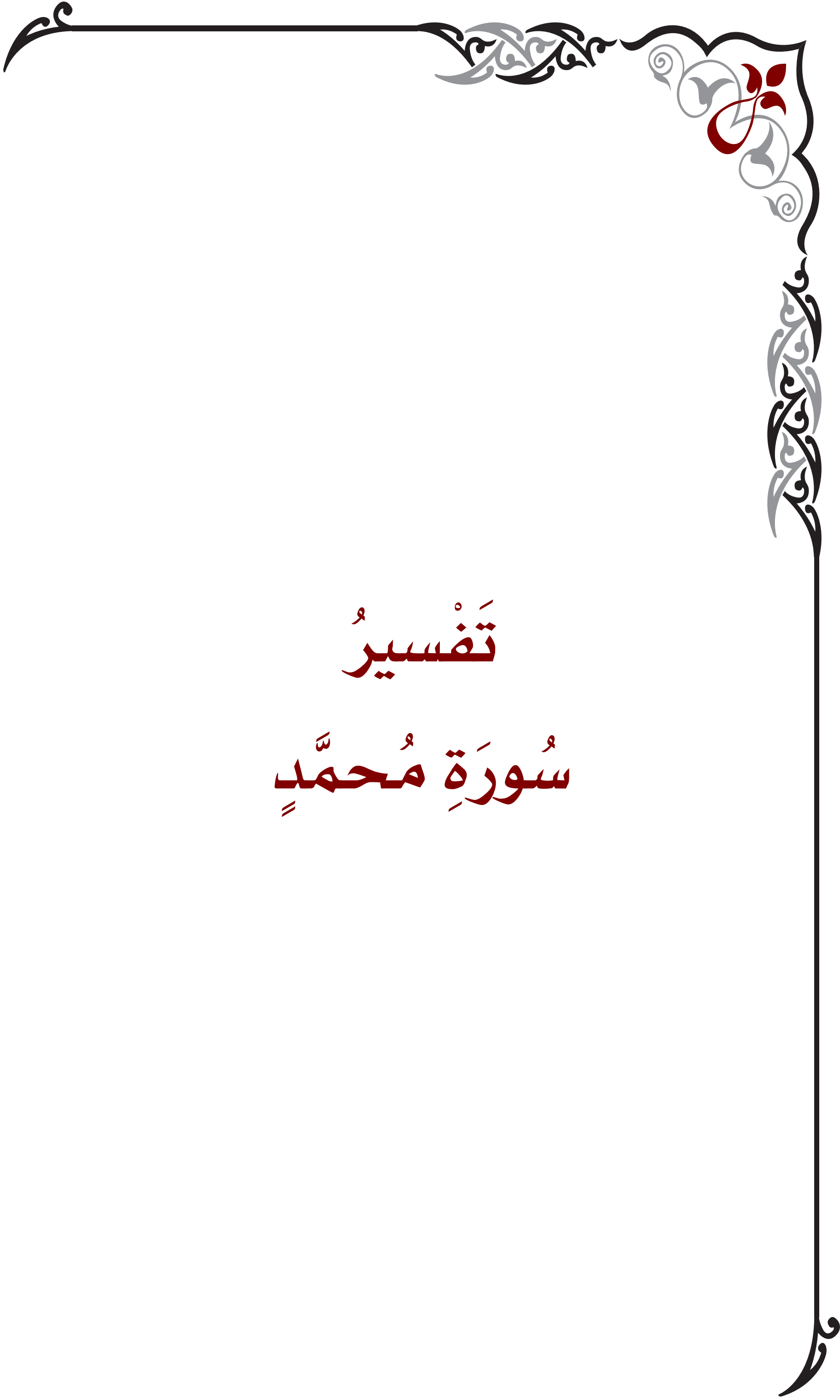
التَّعريفِ تَعريفَ العهْدِ، أي: القومُ المُتحدَّثُ عنهم في قَولِه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ الآيةَ؛ فيَكونُ إظْهارًا في مَقامِ الإضمارِ؛ لِلْإيماءِ إلى سَببِ إهْلاكِهم أنَّه الإشراكُ[(١)].

- وهذه الآيةُ كالخاتمةِ للسُّورةِ، والفَذْلَكةِ لِمَا اشْتَمَلَت عليه[(٢)].

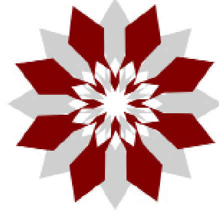


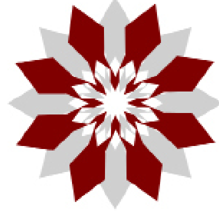
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٩).

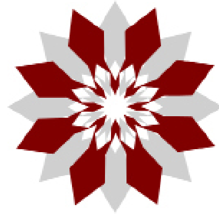
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣١٨).



تَفْسِيرُ
سُورَةِ مُحَمَّدٍ







سورةُ مُحمَّدٍ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (مُحمَّدٍ)[١].

بيانُ المكِّيِّ والمدنيِّ:

سُورةُ محمَّدٍ مَدَنيَّةٌ[٢]، وحُكِي الإجماعُ على ذلك[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورَةِ:

١- التَّرغيبُ في الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، وقِتالِ المُشركين، وكَسرِ شَوكَتِهم، وبيانِ سُوءِ عاقِبَتِهم[٤].

٢- الكشْفُ عن أحوالِ المُنافِقين وأوصافِهم، والتَّحذيرُ مِنهم[٥].

---

(١) سُمِّيت بذلك؛ لذِكرِ اسمِ الرَّسولِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم فيها في قَولِه: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، فعُرِفَت به قبْلَ سُورةِ (آل عمران) التي فيها: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧١).
قال ابنُ عاشور: (سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ في كُتُبِ السُّنَّةِ سُورةَ مُحَمَّدٍ... وكذلك في التَّفاسيرِ قالوا: وتُسَمَّى سُورَةَ القِتالِ... وأمَّا تَسميَتُها سُورةَ القتالِ فلأنَّها ذُكِرَتْ فيها مَشروعيَّةُ القِتالِ، ولأنَّها ذُكِر فيها لفظُه في قولِه تعالَى: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧١).

(٢) وقيل: السُّورُة مَدنيةٌ إلا آيةَ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ فهي مكِّيةٌ، وقيل: السُّورةُ مكِّيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٥).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٠).

(٤) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٨٦) و(٢٦/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٢)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٢١٥).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

٣- بَيانُ سُوءِ عاقِبَةِ الكافِرين، وحُسنِ عاقِبَةِ المُؤمِنين.

٤- حضُّ المُؤمنينَ على الإغلاظِ في قِتالِ الكافِرين، وفي أخْذِهم أُسارَى.

٥- وَعدُ المُؤمنين بالنَّصرِ متَى نَصَروا اللهَ تعالَى ورسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَبشيرُهم بالجنَّةِ وما فيها من نَعيمٍ، وتَوَعُّدُ الكافِرين بالتَّعاسَةِ والخَيبَةِ، وتَوبيخُهم على عَدَمِ اعتِبارِهم واتِّعاظِهم.

٦- ذِكرُ جانِبٍ مِن مَواقِفِ المُنافقينَ مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ومِن دَعوتِه، وذِكرُ بعضِ أوْصافِهِمُ الذَّميمَةِ، كخِداعِهم وسُوءِ أدَبِهم، وجُبنِهم إذا دُعوا إلى القِتالِ.

٧- بَيانُ أنَّ نِفاقَ المُنافقينَ كان بسَبِب استِحواذِ الشَّيطانِ عليهم، وتَوعُّدُهم بسُوءِ المصيرِ في حَياتِهم وبعْدَ مَماتِهم.

٨- تَوَعُّدُ الكافِرين بحُبوطِ أعمالِهم.

٩- أمْرُ المُؤمِنين بطاعَةِ اللهِ ورَسولِه، ونَهيهُم عنِ اليأسِ والقُنوطِ، وتَبشيرُهم بالنَّصرِ والظَّفَرِ، وتَحذيرُهم مِن البُخلِ، ودَعوَتُهم إلى الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ تعالَى.



الآيات (١-٣)

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: أي: أبْطَلَ أعمالَهم وأحبَطَها وأتْلَفَها، فلا يَنتفِعون بها في الآخِرةِ، وأصلُ الضَّلالِ: الغَيْبوبةُ؛ يُقالُ: ضَلَّ الماءُ في اللَّبَنِ؛ إذا غاب وغُلِب عليه فلم يُتبيَّنْ. ويُسمَّى الهالِكُ التَّالِفُ: ضالًّا[١].

﴿كَفَّرَ﴾: أي: سَتَرَ ومَحا، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على سَترٍ وتَغطيةٍ[٢].

﴿بَالَهُمْ﴾: أي: شأنَهم وحالَهم، وقيل: أمْرَ مَعاشِهم في الدُّنيا، والبالُ: الحالُ التي يُكترَثُ بها، يُقالُ: ما باليتُ بكذا بالةً، أي: ما اكْتَرَثْتُ به[٣].

﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾: أي: يُمثِّلُ اللهُ للنَّاسِ الأمثالَ، ويُشبِّهُ لهم الأشباهَ، فيُلحِقُ بكُلِّ قومٍ مِن الأمثالِ أشكالًا؛ لِيَعتبِروا بهم. أو: يُبيِّن لهم مآلَ أعمالِهم،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١/ ١٦٨) و(١١/ ٦٨٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

وما يَصِيرون إليه في مَعادِهم، وضَرْبُ الأمْثالِ: اعْتِبارُ الشَّيْءِ بغَيْرِه. أو: إيرادُه لِيُتَمَثَّلَ به ويُتَصوَّرَ ما أراد المُتكَلِّمُ بيانَه لِلمُخاطَبِ. يُقالُ: ضَرَب الشَّيءَ مَثَلًا، وضَرَب به، وتَمثَّلَه، وتَمثَّل به(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يَفتتِحُ اللهُ تعالَى هذه السُّورةَ بذَمِّ الكافرينَ، وذِكرِ عُقوبتِهم، فيقولُ: الذين كَفَروا بالحَقِّ وصَدُّوا أنفُسَهم والنَّاسَ عن سَبيلِ اللهِ تعالَى، أحبَطَ اللهُ أعمالَهم.

ثمَّ يُثني اللهُ تعالَى على المؤمنينَ، مُبيِّنًا جَزاءَهم، فيقولُ: والذين آمَنوا بالحَقِّ وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ بإخلاصٍ للهِ تعالَى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه، وآمَنوا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ على نَبيِّه محمَّدٍ -وهذا القُرآنُ هو الحَقُّ مِن رَبِّهم-، تجاوَزَ اللهُ عن سَيِّئاتِهم، وأصلَحَ حالَهم وشأْنَهم.

ثُمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى سَببَ جَزاءِ الفَريقينِ بما جازاهم به، فيقولُ: ذلك الإحباطُ لأعمالِ الكافِرينَ بسَبَبِ اتِّباعِهم الباطِلَ، وذلك التَّكفيرُ لسَيِّئاتِ المؤمِنينَ وإصلاحُ بالِهم بسَبَبِ اتِّباعِهم الحَقَّ مِن رَبِّهم؛ مِثْلَ ذلك البَيانِ لِمآلِ الكافِرينَ والمؤمِنينَ يُمثِّلُ اللهُ للنَّاسِ أصنافَهم وأحوالَهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١﴾.

أي: الَّذين كَفَروا بالحَقِّ وصَدُّوا أنفُسَهم وغيْرَهم عن طَريقِه واتِّباعِه، جَعَل اللهُ أعمالَهم سُدًى لا نَفْعَ فيها(٢).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٥، ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) =

= للبقاعي (١٨/ ١٩٥-١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٣-٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٤-٢٤٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالَّذينَ كفَروا: أهلُ مكَّةَ، وهم مُشرِكو قُرَيشٍ: مُقاتِلُ بن سُليمانَ، والواحديُّ، وابن عطيةَ، وابنُ الجوْزي، وأبو حيَّان، وجلال الدِّين المحلِّي، والشَّوكانيُّ، ونسَبه الماتُريديُّ إلى عامَّةِ أهلِ التَّأويلِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٦٢).

قال الشوكانيُّ: (قَولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هم كُفَّارُ قُريشٍ؛ كَفَروا باللهِ وصَدُّوا أنفُسَهم وغيرَهم عن سَبيلِ الله، وهو دِينُ الإسلامِ، بنَهيِهم عن الدُّخولِ فيه، كذا قال مُجاهِدٌ والسُّدِّيُّ. وقال الضَّحَّاكُ: معنى ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: عن بَيتِ اللهِ بمَنعِ قاصِديه. وقيل: هم أهلُ الكتابِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥).

وقال الزمَخْشريُّ: (قال ابنُ عباسٍ رَضِي اللهُ عنه: هم المطْعِمون يوْمَ بدْرٍ. وعن مُقاتلٍ: كانوا اثْنَي عشَرَ رجُلًا مِن أهلِ الشِّركِ يصُدُّون الناسَ عن الإسلامِ ويَأمُرونهم بالكفْرِ. وقيل: همْ أهلُ الكتابِ الَّذين كفَروا وصدُّوا مَن أراد منهم ومِن غيْرِهم أنْ يَدخُلَ في الإسلامِ. وقيل: هو عامٌّ في كلِّ مَن كفَرَ وصدَّ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣).

وممَّن ذهَبَ إلى العُمومِ: الرَّسعنيُّ، وابنُ جُزَي، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٤).

قال ابن جُزَي: (﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني كُفَّارَ قُريشٍ، وعمومُ اللفظِ يعُمُّ كلَّ كافرٍ). يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٠).

وقال الزمخشريُّ: (﴿وَصَدُّواْ﴾: وأعْرَضوا وامتَنَعوا عن الدُّخولِ في الإسلامِ، أو صدُّوا غيْرَهم عنه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٤).

قال الطِّيبيُّ: (والتَّفسيرُ الثاني أشدُّ الْتئامًا للقرينةِ السابقةِ باللَّاحقةِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إذا فُسِّر بـ «صدُّوا غيْرَهم» يكونُ مِن بابِ العطْفِ للخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ إضلالَ الغيْرِ أشدُّ توغُّلًا في الضَّلالِ مِن ضَلالِ الشَّخصِ... فالمعنى: فالَّذين كفَروا وما آمَنوا بما نُزِّلَ على محمَّدٍ، وصدُّوا غيْرَهم عن الإيمانِ به، واغترُّوا بما كانوا عليه مِن مَكارمِ الأخلاقِ: أبطَلَ اللهُ =

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا بيَّن حالَ الكُفَّارِ؛ بيَّن حالَ المؤمنينَ[1]، فقال:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ بإخلاصٍ للهِ تعالَى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه، وآمَنوا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ على نَبيِّه محمَّدٍ -وهذا القُرآنُ هو الحَقُّ

= أعمالَهم). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢٠، ٣٢١).

وممَّن اختار التَّفسيرَ الثَّانيَ: مقاتلُ بن سُليمان، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٤٤).

قال الشنقيطيُّ: (قولُه تعالَى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، قال بعضُهم: هو مِن الصُّدودِ؛ لأنَّ «صَدَّ» في الآيةِ لازمةٌ. وقال بعضُهم: هو من الصَّدِّ؛ لأنَّ «صَدَّ» في الآيةِ مُتعدِّيةٌ. وعليه فالمفعولُ مَحذوفٌ، أي: صدُّوا غيْرَهم عن سَبيلِ اللهِ، أي عن الدُّخولِ في الإسلامِ. وهذا القولُ الأخيرُ هو الصَّوابُ؛ لأنَّه على القولِ بأنَّ «صَدَّ» لازمةٌ، فإنَّ ذلك يكونُ تَكرارًا مع قولِه: ﴿كَفَرُوا﴾؛ لأنَّ الكُفرَ هو أعظَمُ أنواعِ الصُّدودِ عن سَبيلِ اللهِ.

وأمَّا على القولِ بأنَّ «صَدَّ» مُتعدِّيةٌ فلا تَكرارَ؛ لأنَّ المعنى أنَّهم ضالُّون في أنفُسِهم، مُضِلُّون لغيْرِهم بصَدِّهم إيَّاهم عن سَبيلِ اللهِ، و... اللَّفظ إذا دار بيْن التَّأكيدِ والتَّأسيسِ وجَب حمْلُه على التَّأسيس، إلَّا بدَليلٍ يَجبُ الرُّجوعُ إليه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٤٤).

وقال الرازيُّ: (في الصَّدِّ وَجهانِ:

أحدُهما: صَدُّوا أنفُسَهم، معناه أنَّهم صَدُّوا أنفُسَهم عن السَّبيلِ، ومَنَعوا عُقولَهم من اتِّباعِ الدَّليلِ.

وثانيهما: صَدُّوا غيْرَهم ومَنَعوهم). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٢).

وممَّن اختار أنَّ المعنى صدُّوا أنفُسَهم وصدُّوا غيْرَهم: العُليميُّ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٣).

الكامِلُ، والصِّدقُ الثَّابتُ مِن عندِ رَبِّهم-، تَجاوزَ اللهُ عن مُؤاخَذتِهم بسَيِّئاتِ أعمالِهم، فلا يُعاقِبُهم عليها؛ لأجْلِ إيمانِهم، وعَمَلِهم الصَّالحاتِ(١).

كما قال الله تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ [النساء: ١٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾.

أي: وأصْلحَ اللهُ شأْنَهم وحالَهم(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٩٧-١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٤-٧٥).
قال ابنُ القيِّم: (الذُّنوبُ: المرادُ بها الكبائرُ، والمرادُ بالسَّيِّئاتِ: الصَّغائرُ، والدَّليلُ على أنَّ السَّيِّئاتِ هي الصَّغائرُ، والتَّكفيرَ لها: قولُه تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: ٣١]، وفي «صحيح مُسلم» [٢٣٣] من حَديثِ أبي هُريرةَ: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان يقولُ: «الصَّلَواتُ الخَمسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورَمَضانُ إلى رَمَضانَ: مُكَفِّراتٌ لما بيْنَهنَّ إذا اجتُنِبَت الكبائرُ». وعندَ الإفرادِ يَدخُلُ كُلٌّ منهما في الآخَرِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ [محمد: ٢] يَتناولُ صَغائرَها وكبائرَها، وإذا فُهِمَ هذا فُهِمَ السِّرُّ في الوَعدِ على المصائبِ والهُمومِ والغُمومِ، والنَّصَبِ والوَصَبِ بالتَّكفيرِ دونَ المَغفرةِ، كقَولِه في الحَديثِ الصَّحيحِ: «ما يُصيبُ المؤمنَ مِن هَمٍّ ولا غَمٍّ ولا أذًى، حتى الشَّوكةُ يُشاكُها إلَّا كفَّرَ اللهُ بها مِن خَطاياه»؛ فإنَّ المصائبَ لا تَستَقِلُّ بمَغفرةِ الذُّنوبِ، ولا تُغفَرُ الذُّنوبُ جميعُها إلَّا بالتَّوبةِ، أو بحَسَناتٍ تَتضاءَلُ وتَتلاشَى فيها الذُّنوبُ). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣١٨-٣١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤). =

كما قال تعالَى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان الجَزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ علَّل ما تَقدَّم مِن فِعْلِه بالفريقَينِ[1].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ ﴾.

= قال القرطبي: (﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: شأنَهم، عن مجاهدٍ وغيرِه. وقال قتادةُ: حالَهم. ابن عبَّاس: أمورَهم. والثلاثةُ متقاربةٌ، وهي متأوَّلةٌ على إصلاحِ ما تعلَّق بدُنياهم. وحكَى النَّقاشُ أنَّ المعنَى أصلَح نيَّاتِهم ... وهو على هذا التأوُّلِ محمولٌ على صلاحِ دينِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٤).

وقال ابنُ عطيةَ في قولِه تعالَى: ﴿بَالَهُمْ﴾: (تَحريرُ التَّفسيرِ في اللَّفظةِ أنَّها بمَعنى الفِكرِ والموضِع الذي فيه نَظَرُ الإنسانِ، وهو القَلبُ، فإذا صَلَح ذلك صَلَحتْ حالُه، فكأنَّ اللَّفظةَ مُشيرةٌ إلى صَلاحِ عَقيدتِهم، وغيرُ ذلك من الحالِ تابعٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٩).

وقال البقاعيُّ: (﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: مَوضِعَ سِرِّهم وفِكرِهم؛ بالأمْنِ والتَّوفيقِ والسَّدادِ، وقُوَّةِ الفَهمِ والرَّشادِ لِما يُوفِّقُهم له مِن مَحاسِنِ الأعمالِ، ويُطيبُ به اسمَهم في الدَّارينِ. قال ابنُ بَرَّجانَ: وإذا أصلحَ ذلك من العبدِ صلَحَ ما يَدخُلُ إليه، وما يَخرُجُ عنه، وما يَثبُت فيه، وإذا فَسَد فبالضِّدِّ من ذلك). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٩٩).

وقال ابنُ عاشور: (إصلاحُ البالِ يَجمَعُ إصلاحَ الأُمورِ كُلِّها؛ لأنَّ تصَرُّفاتِ الإنسانِ تأتي على حَسَبِ رأيِه؛ فالتَّوحيدُ أصلُ صلاحِ بالِ المؤمِنِ، ومنه تَنبعِثُ القُوى المقاوِمةُ للأخطاءِ والأوهامِ الَّتي تَلبَّس بها أهلُ الشِّركِ، وحَكاها عنهم القُرآنُ في مَواضِعَ كثيرةٍ، والمعنى: أقام أنظارَهم وعُقولَهم، فلا يُفكِّرونَ إلا صالحًا، ولا يَتدبَّرون إلَّا ناجِحًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٥-٧٦).

وقال ابن جرير: (﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ يقولُ: وأصلَح شأنَهم وحالَهم في الدنيا عندَ أوليائِه، وفي الآخرةِ بأنْ أورَثهم نعيمَ الأبدِ والخلودَ الدَّائمَ في جِنانِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٩٩).

أي: ذلك الإضلالُ لأعمالِ الكافِرينَ بسَبَبِ اتِّباعِهم الباطِلَ، وإيثارِهم له على الحَقِّ(١).

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾.

أي: وذلك التَّكفيرُ لسَيِّئاتِ المؤمِنينَ وإصلاحُ بالِهم بسَبَبِ اتِّباعِهم الحَقَّ الَّذي جاءهم مِن رَبِّهم(٢).

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾.

أي: مِثْلَ ذلك البَيانِ لحالِ أو مآلِ الكافِرينَ والمؤمِنينَ يُمثِّلُ اللهُ للنَّاسِ أصنافَهم وأحوالَهم، بحيثُ لا تخفَى ولا تَلتَبِسُ عليهم؛ فيَتبَيَّنُ لهم الخَبيثُ مِن الطَّيِّبِ، والحَقُّ مِن الباطِلِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٠-٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٧).

قال الشنقيطيُّ: (أصلُ ضَرْبِ الأمثالِ يُرادُ منه بَيانُ الشَّيءِ بذِكرِ نَظيرِه الذي هو مِثلٌ له). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٤٧).

وقال الزمخشريُّ: (فإنْ قُلتَ: أين ضَرْبُ الأمثالِ؟ قُلتُ: في أنْ جَعَل اتِّباعَ الباطِلِ مَثَلًا لعَمَلِ الكُفَّارِ، واتِّباعَ الحَقِّ مَثَلًا لعَمَلِ المؤمِنينَ، أو في أنْ جَعَل الإضلالَ مَثَلًا لخَيبةِ الكُفَّارِ، وتَكفيرَ السَّيِّئاتِ مَثَلًا لفَوزِ المؤمِنينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٦). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٩).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أنَّ السَّيِّئةَ الثَّانيةَ قدْ تكونُ مِن عُقوبةِ الأُولى، فتكونُ مِن سيِّئاتِ الجزاءِ، معَ أنَّها مِن سيِّئاتِ العمَلِ(١).

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا كان في مَقامِ الإخبارِ عنه، فلنا أنْ نُخبِرَ عنه باسمِه، كما أخبَرَ اللهُ سُبحانَه لَمَّا أخبَرَ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأمَّا إذا خاطَبْناه فعليْنا أنْ نَتأدَّبَ بآدابِ اللهِ تعالَى، حيثُ قال: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾ [النور: ٦٣]، فلا نقولُ: يا محمَّدُ، يا أحمدُ، كما يَدْعو بَعضُنا بَعضًا، بل نقولُ: يا رَسولَ اللهِ، يا نبيَّ اللهِ(٢).

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ عُلِمَ من هذا المثَلِ أنَّ مَنِ اتَّبع الباطِلَ أضَلَّ اللهُ عمَلَه، ووفَّرَ سَيِّئاتِه، وأفسَدَ بالَه، ومَنِ اتَّبع الحَقَّ عُمِلَ به ضِدُّ ذلك كائنًا مَن كان؛ فهو غايةُ الحَثِّ على طَلَبِ العِلمِ في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والعَمَلِ بهما(٣).

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ المعنى: كهذا التَّبيينِ يُبيِّنُ اللهُ للنَّاسِ أحوالَهم، فلا يَبْقُوا في غَفلةٍ عن شُؤونِ أنفُسِهم، مَحجوبينَ عن تحقُّقِ كُنْهِهم بحِجابِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٣٩، ٢٤١).
(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٩٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠١).

التَّعوُّدِ؛ لئلَّا يختلطَ الخبيثُ بالطَّيِّبِ، ولكي يكونوا على بَصيرةٍ في شُؤونِهم، وفي هذا إيماءٌ إلى وُجوبِ التَّوَسُّمِ لِتَمييزِ المنافِقينَ عن المُسلِمينَ حَقًّا؛ فإنَّ مِن مَقاصِدِ السُّورةِ التَّحذيرَ مِن المنافِقينَ[١].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أنَّ سَبَبَ إضلالِ أعمالِ هؤلاء الَّذين كفَروا حتَّى لم تَنفَعْهم، وأنَّ أعمالَ هؤلاء الَّذين آمَنوا نفَعَتْهم، فكُفِّرَتْ سَيِّئاتُهم، وأصلحَ اللهُ بالَهم: أنَّ هؤلاء اتَّبَعوا الباطِلَ قَولًا وعَمَلًا، اعتِقادًا واقتِصادًا، خبَرًا وأمرًا؛ وهؤلاء اتَّبَعوا الحقَّ من ربِّهم، ولم يَتَّبِعوا ما هو مِن غيرِ ربِّهم، وإنْ كان حقًّا من وجْهٍ؛ فإنَّ الخبَرَ والعمَلَ تابعٌ للمُخبَرِ عنه وللمَقصودِ بالعَمَلِ، فإذا كان ذلك باطِلًا لا حَقيقَةَ له كان التَّابعُ كذلك، وإنْ كان مَوجودًا[٢]. فمَنِ اتَّبَعَ الباطِلَ فعَمَلُه باطِلٌ، ومَنِ اتَّبعَ الحَقَّ فأعمالُهُ حقٌّ؛ فهي ثابتةٌ باقِيةٌ، لا زائلةٌ مُضمَحِلَّةٌ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أعلَمَ اللهُ المؤمِنينَ بأنَّه لا يُسَدِّدُ المُشرِكينَ في أعمالِهم، وأنَّه مُصلِحُ المؤمِنينَ؛ فكان ذلك كَفالةً للمُؤمِنينَ بالنَّصرِ على أعدائِهم[٤].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أنَّ الكُفرَ إذا قارنَه عمَلٌ لم يُقبَلْ ذلك العَمَلُ، والعملُ يُحبَطُ بالكُفرِ؛ قال اللهُ سُبحانه: ﴿وَمَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٢).

﴿يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]؛ فلا يُحبِطُ الأعمالَ غيرُ الكُفرِ؛ لأنَّ مَن مات على الإيمانِ فإنَّه لا بُدَّ مِن أنْ يَدخُلَ الجنَّةَ، ويَخرُجَ مِن النَّارِ إنْ دخَلَها، ولو حَبِطَ عَمَلُه كُلُّه لم يَدخُلِ الجنَّةَ قطُّ، ولأنَّ الأعمالَ إنَّما يُحبِطُها ما يُنافيها، ولا يُنافي الأعمالَ مُطلقًا إلَّا الكُفرُ، وهذا مَعروفٌ مِن أُصولِ أهلِ السُّنَّةِ، نَعمْ قدْ يَبطُلُ بَعضُ الأعمالِ بوُجودِ ما يُفسِدُه، كما قال تعالَى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]؛ ولهذا لم يُحبِطِ اللهُ الأعمالَ في كِتابِه إلَّا بالكُفرِ[1].

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فيه بَحثٌ: أنَّ إضلالَ الأعمالِ مُرَتَّبٌ على الكُفرِ والصَّدِّ، والكفَّارُ المُستَضعَفونَ لم يَصُدُّوا، فلا يُضِلُّ أعمالَهم.

والجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: التَّخصيصُ بالذِّكرِ لا يدُلُّ على نَفيِ ما عَداه، ولا سيَّما إذا كان المذكورُ أَولى بالذِّكرِ مِن غَيرِه، وهاهنا الكافِرُ الصادُّ أدخَلُ في الفَسادِ؛ فصار هو أَوْلى بالذِّكرِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ كُلَّ مَن كَفَر صار صادًّا لِغَيرِه؛ أمَّا المُستكبِرُ فظاهِرٌ، وأمَّا المُستضعَفُ فلأنَّه بمُتابَعتِه أثبَتَ للمُستكبِرِ ما يَمنَعُه مِن اتِّباعِ الرَّسولِ؛ فإنَّه بعْدَما يكونُ مَتبوعًا يشُقُّ عليه أنْ يَصيرَ تابِعًا، ولأنَّ كُلَّ مَن كفَرَ صار صادًّا لِمَن بعْدَه؛

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٤، ٥٥).

لأنَّ عادةَ الكُفَّارِ اتِّباعُ المتقدِّم، كما قال عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي: مُقتدونَ؛ فإنْ قيل: إنَّ كُلَّ كافِرٍ صادٌّ؛ فما الفائِدةُ في ذِكرِ الصَّدِّ بعْدَ الكُفرِ؟ فالجوابُ: أنَّ هذا مِن بابِ ذِكرِ السَّبَبِ، وعَطفِ المُسَبَّبِ عليه؛ تقولُ: (أكلتُ كثيرًا وشَبِعتُ)، والكُفرُ على هذا سبَبُ الصَّدِّ[1].

٤- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ فقَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، وقَولُه تعالَى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أفادَ نفْسَ المعنى؛ فما الحِكمةُ فيه، وكيف وَجهُه؟

الجوابُ: أمَّا وَجهُ ذلك فبَيانُه مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّه عَطفُ خاصٍّ على عامٍّ[2]، وتَخصيصُه مِن بيْنِ ما يَجِبُ الإيمانُ به إعلامٌ بأنَّه لا يَصِحُّ الإيمانُ ولا يَتِمُّ إلَّا به[3]، أو لأنَّه لَمَّا كان هذا الوَصفُ ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لا يخُصُّ أتْباعَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، خَصَّهم بقَولِه تعالَى: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، أي: مع ذلك[4].

الوَجهُ الثَّاني: قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: باللهِ ورَسولِه واليَومِ الآخِرِ، وقَولُه: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ﴾ أي: بجَميعِ الأشياءِ الواردةِ في كَلامِ اللهِ ورَسولِه؛ تَعميمٌ بعدَ أُمورٍ خاصَّةٍ، وهو حَسَنٌ؛ تقولُ: خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ وكُلَّ شَيءٍ؛ إمَّا على معنى: وكُلَّ شَيءٍ غيرَ ما ذَكَرْنا، وإمَّا على العُمومِ بعْدَ ذِكرِ الخُصوصِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٩٧).

الوَجهُ الثَّالثُ: أنْ يكونَ المعنى: آمَنوا وآمَنوا مِن قَبلُ بما نُزِّلَ على محمَّدٍ، وهو الحَقُّ المُعجِزُ الفارِقُ بيْن الكاذِبِ والصَّادِقِ. يعني: آمَنوا أوَّلًا بالمُعجِزِ، وأيْقَنوا بأنَّ القُرآنَ لا يَأتي به غيرُ اللهِ، فآمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، والواوُ للجَمعِ المُطلَقِ، ويجوزُ أنْ يكونَ المتأخِّرُ ذِكرًا مُتقَدِّمًا وُقوعًا، وهذا كقَولِ القائِلِ: آمَنَ به، وكان الإيمانُ به واجِبًا، أو يكونَ بيانًا لإيمانِهم، كأنَّ ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، أي: آمَنوا وآمَنوا بالحَقِّ، كما يقولُ القائِلُ: خرَجْتُ وخرَجْتُ مُصيبًا، أي: وكان خُروجي جيِّدًا، حيثُ نَجَوتُ مِن كذا، ورَبِحتُ كذا؛ فكذلك لَمَّا قال: ﴿ءَامَنُواْ﴾ بيَّنَ أنَّ إيمانَهم كان بما أَمَرَ اللهُ وأنزَلَ اللهُ، لا بما كان باطِلًا مِن عندِ غيرِ اللهِ[(١)].

٥- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ عطْفُ قولِه: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ على قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ، وهو دَليلٌ على أنَّ الإيمانَ بالقُرآنِ -الَّذي نُزِّلَ على نبيِّنا مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- شَرطٌ في صِحَّةِ الإيمانِ بعْدَ بَعثتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(٢)].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ فيه إشْعارٌ بأنَّ أعمالَ الكُفَّارِ -وإنْ كانتْ حَسَناتٍ- يُضِلُّها اللهُ تعالَى في غَمَراتِ كُفْرِهم، وحِرْمانِ مُتابَعةِ الحقِّ المُنزَّلِ مِن عِندِ اللهِ، وأنَّ سَيِّئاتِ المُؤمِنين يَستُرُها اللهُ في كَنَفِ إيمانِهم ومُتابَعتِهم الحقَّ، وإليه وَقَعَت الإشارةُ بقَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢١).

بلاغةُ الآياتِ:

١ - قَولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ صَدَر التَّحريضُ على القِتالِ بتَوطئةٍ؛ لِبَيانِ غَضَبِ اللهِ على الكافِرينَ؛ لِكُفْرِهم وصَدِّهم النَّاسَ عن دِينِ اللهِ، وتَحقيرِ أمْرِهم عِندَ اللهِ؛ لِيَكونَ ذلك مُثيرًا في نُفوسِ المُسلِمينَ حَنَقًا عليهم، وكَراهيةً، فتَثورُ فيهِمْ هِمَّةُ الإقدامِ على قِتالِ الكافِرين، وعَدَمِ الاكتِراثِ بما هُمْ فيه مِن قُوَّةٍ، حِين يَعلَمون اللهَ يَخذُلُ المُشرِكين ويَنصُرُ المُؤمِنين؛ فهذا تَمهيدٌ لِقَولِه تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1] [محمد: ٤].

- وفي الابتِداءِ بالمَوصولِ والصِّلةِ المُتضمِّنةِ كُفْرَ الَّذين كَفَروا، ومُناوأتَهم لِدِينِ اللهِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾: تَشويقٌ لِمَا يَرِدُ بعْدَه مِن الحُكْمِ المُناسِبِ للصِّلةِ، وإيماءٌ بالمَوصولِ وصِلَتِه إلى عِلَّةِ الحُكْمِ عليه بالخَبَرِ، أي: لِأجْلِ كُفْرِهم وصَدِّهم. وفيه أيضًا بَراعةُ استِهلالٍ للغَرَضِ المَقصودِ[2].

- قولُه: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: صَدُّوا غَيرَهم؛ فيكونُ مِن بابِ العطْفِ لِلخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ إضلالَ الغَيرِ أشدُّ تَوغُّلًا في الضَّلالِ مِن ضَلالِ الشَّخصِ[3]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وأُضِيفَ السَّبيلُ إلى اللهِ؛ لأنَّه الدِّينُ الذي ارْتَضاهُ اللهُ لِعبادِه، وعُبِّرَ بالسَّبيلِ عن الدِّينِ؛ لأنَّ الدِّينَ يُوصِلُ إلى رِضَا اللهِ، كما يُوصِلُ السَّبيلُ السَّائرَ فيه إلى بُغْيَتِه[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢٠، ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٣).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾

- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ مُقابِلُ فَريقِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[(١)]، وقدْ جاء في مُقابَلةِ الأوصافِ الثَّلاثةِ التي أُثبِتَتْ لِلَّذين كَفَروا بثَلاثةِ أوصافٍ ضِدِّها للمُسلمين؛ وهي: الإيمانُ مُقابِلُ الكُفْرِ، والإيمانُ بما نُزِّلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُقابِلُ الصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ، وعَمَلُ الصَّالحاتِ مُقابِلُ بَعضِ ما تَضمَّنَه ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١]، و﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ مُقابِلُ بَعضٍ آخَرَ ممَّا تَضمَّنَه ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ مُقابِلُ بَقيَّةِ ما تَضمَّنَه ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، وزِيدَ في جانِبِ المُؤمِنين التَّنويهُ بشَأْنِ القُرآنِ بالجُملةِ المُعترِضةِ ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، وهو نَظيرٌ لِوَصْفِه بسَبيلِ اللهِ في قَولِه: ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[(٢)] [محمد: ١].

- وإيرادُ المَوصولِ وصِلَتِه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾؛ لِلْإيماءِ إلى وَجْهِ بِناءِ الخَبَرِ وعِلَّتِه، أي: لِأجْلِ إيمانِهم... إلخ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ فيه اخْتِصاصُ الإيمانِ بالمُنزَّلِ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن بيْنِ ما يَجِبُ به الإيمانُ؛ تَعظيمًا لِشَأْنِ المنزَّلِ عليه، وإشعارًا بأنَّ الإيمانَ لا يَتِمُّ دونَه، وأكَّدَ ذلك بالجُملةِ الاعتراضيَّةِ التي هي قولُه: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧٤، ٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩١).

- وفي قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ واعتِراضِه بيْن الكلامِ: إيذانٌ بأنَّ أعمالَ أولئك السَّادةِ المؤمنينَ ثابتةٌ غيرُ زائلةٍ؛ لأنَّ الحقَّ في مُقابَلةِ الباطلِ(١).

- وعُبِّرَ عن الجَلالةِ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ بوَصْفِ الرَّبِّ؛ زِيادةً في التَّنويهِ بشَأْنِ المُسلمين، على نَحْوِ قَولِه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١١]؛ فلذلك لم يَقُلْ: وصدُّوا عن سَبيلِ ربِّهم(٢).

٣- قَولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ لِتَمْييزِ المُشارِ إليه أكمَلَ تَمْييزٍ؛ تَنْويهًا به. و﴿ذَٰلِكَ﴾ مُبتَدأٌ، وقولُه: ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ إلخ خَبَرُه، والباءُ للسَّببيَّةِ، أيْ: ذلكَ كائنٌ بسَببِ أنَّ الأوَّلينَ اتَّبعوا الشَّيطانَ ففَعَلوا ما فَعَلوا مِن الكُفْرِ والصَّدِّ؛ فبَيانُ سَببيَّةِ اتِّباعِه لِلْإضلالِ المَذكورِ مُتضمِّنٌ لِبيانِ سَببيَّتِهما له؛ لِكَونِه أصلًا مُسْتتبِعًا لهما قطْعًا، وبسَببِ أنَّ الآخَرينَ اتَّبَعُوا الحقَّ الذي لا مَحيدَ عنه كائنًا مِن ربِّهم، ففَعَلوا ما فَعَلوا مِن الإيمانِ به وبكِتابِه ومِن الأعمالِ الصَّالحةِ؛ فبَيانُ سَببيَّةِ اتِّباعِه لِمَا ذُكِرَ مِن التَّكفيرِ والإصلاحِ بعْدَ الإشعارِ بسَببيَّةِ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ له؛ مُتضمِّنٌ لِبَيانِ سَببيَّتِهما له؛ لِكَونِه مَبدأً ومَنشَأً لهما حتْمًا، فلا تَدافُعَ بيْن الإشعارِ والتَّصريحِ في شَيءٍ مِن المَوضعَينِ. ويَجوزُ أنْ يُحمَلَ الباطلُ على ما يُقابِلُ الحقَّ -وهو الزَّائلُ الذَّاهبُ الذي لا أصْلَ له أصلًا-؛ فالتَّصريحُ بسَببيَّةِ اتِّباعِهِ لإضلالِ أعْمالِهم وإبطالِها؛ لِبَيانِ أنَّ إبطالَها لِبُطلانِ مَبْناها

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٥).

وزَوالِه. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالباطلِ نفْسُ الكُفْرِ والصَّدِّ، وبالحقِّ نفْسُ الإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ؛ فيكون التَّنصيصُ على سَببيَّتِهما لِمَا ذُكِرَ مِن الإضلالِ ومِن التَّكفيرِ والإصْلاح تَصْريحًا بالسَّببيَّةِ المُشعرِ بها في المَوقعينِ. وفي هذا مُحسِّنُ الجمْعِ بعْدَ التَّفريقِ[1] ويُسمُّونَه -كَعَكْسِه- التَّفسيرَ؛ لأنَّ في الجمْعِ تَفسيرًا لِلْمعنى الذي تَشترِكُ فيه الأشياءُ المُتفرِّقةُ، تقدَّمَ أو تأخَّرَ[2].

- ووَصْفُ الحقِّ بأنَّه ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ تَنْويهٌ به، وتَشريفٌ لهم[3].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ تَذْييلٌ لِمَا قبْلَه، أي: مِثلَ ذلك التَّبْيينِ لِلحالينِ يُبيِّنُ اللهُ الأحوالَ للنَّاسِ بَيانًا واضِحًا[4].



(١) الجمْعُ: أنْ يَجمَعَ مُتعدِّدًا في حُكمٍ واحدٍ. والتَّفريقُ: إيقاعُ تَبايُنٍ بيْنَ أمْرَينِ مِن نوعٍ واحدٍ. والجمعُ مع التَّفريقِ: أنْ تُدخِلَ شَيئينِ في معنًى واحدٍ، ثمَّ تُفرِّقَ بيْنَ جِهتَيِ الإدخالِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]؛ فقدْ جمَع النَّفْسَينِ في حُكمِ التَّوفِّي، ثمَّ فرَّق بيْنَ جِهتَيِ التَّوفِّي بالحُكمِ بالإمساكِ والإرسالِ، أي: اللهُ يَتوفَّى الأنفُسَ: النَّفْسَ الَّتي تُقبَضُ، والنَّفْسَ الَّتي لم تُقبَضْ، فيُمسِكُ الأُولى، ويُرسِلُ الأُخرى. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٣٢-٢٣٨)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٤-٣١٥)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٤١٧-٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤-٦)

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾: أي: اقتُلوهم؛ يُقالُ: ضَرَبَ الأميرُ رَقَبةَ فُلانٍ: إذا قتَلَه؛ وذلك أنَّ قتْلَ الإنسانِ أكثَرُ ما يكونُ بضَرْبِ رَقَبتِه، والضَّربُ: إيقاعُ شَيءٍ على شَيءٍ، كَضَرْبِ الشَّيءِ باليدِ، والعَصا، والسَّيفِ ونحْوِها[1].

﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾: أي: أكثَرتُم القَتلَ فيهم، والإثخانُ: بُلوغُ الغايةِ في النِّكايةِ، والاستِكثارُ مِن القتْلِ، والإثخانُ: الغَلَبةُ؛ لأنَّها تَترُكُ المغلوبَ كالشَّيءِ المُثخَنِ -وهو الثَّقيلُ الصُّلبُ- الَّذي لا يخِفُّ للحَركةِ، وأصلُ (ثخن): يَدُلُّ على رَزانَةِ الشَّيءِ في ثِقَلٍ؛ وذلك أنَّ القَتيلَ قدْ أُثْقِلَ حتَّى لا حَراكَ به[2].

﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾: عِبارةٌ عن الأسْرِ، والشَّدُّ: العَقدُ القويُّ، يُقالُ: شَدَدْتُ الشَّيءَ: قوَّيْتُ عقْدَه، والوَثاقُ -بفَتحِ الواوِ وكَسرِها-: اسمانِ لِما يُوثَقُ به الشَّيءُ؛ كالقَيدِ والحَبلِ ونَحوِهما، وقيل: الوَثاقُ اسمٌ مِن الإيثاقِ، وقدْ يُوضَعُ مَوضِعَ المصدرِ، وأصلُ (شدد): يَدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ، وأصلُ (وثق): يدُلُّ على عَقدٍ وإحكامٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٨، ٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٩) و(٦/ ٨٥)، ((البسيط)) للواحدي =

﴿مَنًّا﴾: أي: تفضُّلًا وإنعامًا بإطلاقِهم بلا عِوَضٍ، والمِنَّةُ: النِّعمةُ الثَّقيلةُ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على اصْطِناعِ خيرٍ، وقيل: أصلُ المنِّ القطعُ، وسُمِّيت النِّعمةُ مِنَّةً؛ لأنَّها مَقطوعةٌ عن المِحَنِ والشَّدائد، أو: لأنَّه إنَّما يُسْديها الإنسانُ إلى غيرِه؛ ليَقطَعَ بها حاجتَه لا غيرُ، مِن غيرِ أنْ يَعمِدَ لطَلَبِ مَثوبةٍ[١].

﴿فِدَآءً﴾: أي: عِوَضًا مُقابِلَ إطلاقِهم، والفِداءُ: حِفظُ الإنسانِ نفْسَه عن النَّائِبةِ بما يَبذُلُه، وأصلُ (فدي): أنْ يُجعَلَ شَيءٌ مَكانَ شَيءٍ حِمًى له[٢].

﴿أَوْزَارَهَا﴾: أي: آلاتِها وأثقالَها التي لا تَقومُ إلَّا بها مِن سِلاحٍ ونَحوِه، وقيل: آثامَها، وأصلُ الوِزرِ: الثِّقلُ، وما يَحتَمِلُه الإنسانُ؛ فسُمِّيَت الأسلحةُ أوزارًا لأنَّها تُحمَلُ، ولِثِقَلِ حِمْلِها[٣].

﴿لِّيَبْلُوَا۟﴾: أي: لِيَختَبِرَ ويَمتَحِنَ، وأصلُ البَلاءِ: التَّكليفُ بالأمْرِ الشَّاقِّ، ويكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ معًا[٤].

= (٢٠/ ٢١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٧، ٨٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٠)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧- ٧٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (٢/ ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧، ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: أي: ولنْ يُحبِطَها ويُبْطِلَها، وأصل (ضلل): يدُلُّ على ضَياعِ الشَّيءِ وذَهابِه في غيرِ حَقِّه(١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾

قَولُه تعالَى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ مَنصوبٌ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ بفِعلٍ مَحذوفٍ وُجوبًا على أنَّه بدَلٌ مِن اللَّفظِ بفِعلِه، ثمَّ أُضيفَ إلى مَفعولِه، والتَّقديرُ: فاضرِبوا الرِّقابَ ضَرْبًا، فحُذِفَ الفِعلُ اختِصارًا، ثمَّ قُدِّمَ المفعولُ المُطلَقُ، فأُنيبَ مَنابَ الفِعلِ في العَملِ في ذلك المَفعولِ، وأُضِيفَ إلى المفعولِ ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ إضافةَ الأسماءِ إلى الأسماءِ؛ لأنَّ المصْدرَ راجِحٌ في الاسميَّةِ، مع إعطاءِ مَعنى التَّوكيدِ. وقيل: هو مَنصوبٌ على الإغراءِ. وجُملةُ ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ لا مَحلَّ لها مِنَ الإعرابِ، جَوابُ (إذا).

﴿مَنًّۢا﴾ و﴿فِدَآءً﴾ مَنصوبانِ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ مِن لَفظِهما واجِبِ الحَذفِ(٢)، والتَّقديرُ: فإمَّا تَمُنُّونَ مَنًّا، وإمَّا تُفْدُونَ فِداءً، وجُملةُ (فَإِمَّا تَمنُّونَ مَنًّا) مَعطوفةٌ على جَوابِ الشَّرطِ ﴿فَشُدُّواْ﴾، فلا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ، وجُملةُ (تُفدونُ فِداءً) مَعطوفةٌ على جُملةِ (تَمنُّون مَنًّا)، فلا محَلَّ لها أيضًا مِنَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤).

(٢) وذلك لأنَّ المَصدَرَ متى سِيقَ تَفصيلًا لعاقِبةِ جُملةٍ، وَجَب نَصبُه بإضمارِ فِعلٍ لا يَجوزُ إظهارُه، والكلامُ هنا تَفصيلٌ لعاقِبةِ مَضمونِ ما قبْلَه مِن شَدِّ الوَثاقِ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٨٥).

الإعرابِ[١].

﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ في مَوضِعِ رَفعٍ، خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلك الذي ذكَرْتُ وبَيَّنْتُ. وقيل: هو مَنصوبٌ على مَعنى: افعَلوا ذلك.

ويَجوزُ أنْ يكونَ مُبتدأً خبرُه محذوفٌ، والمعنى: ذلك حُكمُ الكُفَّارِ، وهي كَلِمةٌ يَستعمِلُها الفَصيحُ عندَ الخُروجِ مِن كَلامٍ إلى كَلامٍ، وهو كما قال تعالَى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٥٥]، أي: هذا حَقٌّ، وأنا أُعَرِّفُكم أنَّ للظَّالِمينَ كذا[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى ما يَجِبُ على المؤمنينَ فِعلُه عندَ لِقائِهم أعداءَهم، وبعْدَ انتصارِهم عليهم، فيقولُ: إذا لَقِيتُم -أيُّها المُؤمنونَ- المحارِبينَ مِن الكُفَّارِ فاضْرِبوا رِقابَهم، حتَّى إذا قَهَرْتُموهم وأكثَرتُم القَتلَ فيهم، فأحْكِموا قيْدَ مَن أَسَرْتُموه منهم، فإمَّا تمُنُّونَ عليهم بعْدَ الأَسْرِ مَنًّا بأنْ تُطلِقوا سَراحَهم مجَّانًا، وإمَّا أنْ تُفدُوا فِداءً بأنْ تَأخُذوا منهم فِديةً في مُقابِلِ إطلاقِ سَراحِهم.

افعَلوا بهم ما أمَرْناكم بفِعلِه، واستَمِرُّوا على ذلك حتَّى تَنتهيَ الحَربُ التي بيْنَكم وبيْنَ أعدائِكم.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٦)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١١٨)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٧١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٨٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٦-٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٨٦).

ثُمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى الحِكمةَ مِن مَشروعيةِ قِتالِ الأعداءِ، فيقولُ: أمَرَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- بما سَبَق ذِكرُه، ولو يَشاءُ اللهُ الانتِصارَ مِن هؤلاءِ الكافِرينَ والانتِقامَ منهم لفَعَلَ، ولكِنَّه سُبحانَه أمَرَكم بمُحاربتِهم؛ لِيَختبِرَ بعضَكم ببَعضٍ، فيَتمَيَّزَ قَويُّ الإيمانِ مِن ضَعيفِه.

ثُمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه ما أعدَّه للمُجاهدينَ مِن ثَوابٍ عَظيمٍ، فيقولُ: والَّذين استُشهِدوا وهم يُقاتِلونَ مِن أجْلِ إعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، فلنْ يُضِيعَ أعمالَهم ولنْ يُبطِلَها. سيَهْديهم اللهُ ويُصلِحُ شَأنَهم وحالَهم، ويُدخِلُهم الجنَّةَ يومَ القِيامةِ، ويَهْديهم إلى بُيوتِهم ومَساكِنِهم فيها بحيثُ لا يُخطِئونَها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن سبحانَه حالَ الفريقَيْنِ -مَن يَتَّبِعُ الباطِلَ، وهو حِزبُ الشَّيطانِ، ومَن يَتَّبِعُ الحَقَّ، وهو حِزبُ الرَّحمنِ-؛ أمَر بجِهادِ الكفَّارِ[(١)]، فقال:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾.

أي: فإذا واجَهتُم -أيُّها المُؤمِنونَ- المحارِبينَ المُقاتِلينَ مِن الكُفَّارِ فاقْتُلوهم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠١-٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٧). =

كما قال الله تبارك وتعالَى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٢، ١٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾.

أي: حتَّى إذا أكثَرتُم القَتلَ فغلَبتُم الكُفَّارَ وقَهرْتُموهم، فقَيِّدوا مَن أسَرْتُموهم منهم تَقييدًا شَديدًا، وارْبِطوهم رَبطًا قَويًّا[1].

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

الناسخُ والمنسوخُ:

الآيةُ مُحكَمةٌ ولا نسْخَ فيها[2].

= قال العُليميُّ: (﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ مَصدرٌ بمَعنى الفِعلِ؛ أي: فاضرِبوا الرِّقابَ ضَرْبًا، المعنى: إذا لَقيتُموهم، فاقتُلوهم، وعَيَّنَ مِن أنواعِ القَتلِ أشهَرَه وأعرَفَه، فذَكَره). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٢-٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٩-٨٠).
قال ابنُ عاشور: (الإثْخانُ: الغَلَبةُ... فإذا فُسِّر بالغَلَبةِ كان المعنى: حتَّى إذا غَلَبتم منهم مَن وَقَعوا في قَبضتِكم أسْرى، فشُدُّوا وَثاقَهم؛ وعليه فجَوازُ المَنِّ والفِداءِ غيرُ مُقيَّد. وإذا فُسِّر الإثخانُ بكَثرةِ القَتلِ فيهم، كان المعنى: حتَّى إذا لم يَبْقَ مِن الجيشِ إلَّا القليلُ، فأْسِروا حينئذٍ، أي: أَبقُوا الأسرى، وكِلا الاحتِمالَين لا يَخْلو مِن تَأويلٍ في نَظمِ الآيَةِ إلَّا أنَّ الاحتِمالَ الأوَّلَ أظهَرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٩).

(٢) ممَّن صرَّح بأنَّ الآيَةَ مُحكَمةٌ أو ليْستْ بمَنسوخةٍ: ابنُ جرير، والقُرطبيُّ، وابنُ تيميَّة، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧).
ونَسَب هذا القولَ إلى أكثَرِ أهلِ العِلمِ: الخازنُ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٨). =

وقيل: الآيةُ مَنسوخةٌ(١).

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

أي: فإمَّا أنْ تَمنُّوا على أسرَى الكُفَّارِ بإطلاقِهم مِنَ الأسْرِ مجَّانًا بلا عِوَضٍ، وإمَّا أنْ تَأخُذوا منهم عِوَضًا؛ كدَفْعِهم مالًا، أو إخلائِهم أُسارَى مُسلِمينَ لَدَيهم؛

= قال علَمُ الدِّين السَّخاويُّ: (قال عامَّةُ العُلماءِ بأنْ لا نسْخَ، والنبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُخيَّرٌ بيْن الفِداءِ والمنِّ والقتْلِ والاسترقاقِ. وقد رُوِي مِثلُ هذا عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِي اللهُ عنهما). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٨٣٦).

وقال الشوكانيُّ: (وقال كثيرٌ من العُلماء: إنَّ الآيةَ مُحكَمةٌ، والإمامُ مخيَّرٌ بيْن القتلِ والأسْرِ، وبعْدَ الأسْرِ مخيَّرٌ بيْن المَنِّ والفداءِ. وبه قال مالكٌ، والشافعيُّ، والثَّوريُّ، والأوزاعيُّ، وأبو عُبيدٍ، وغيرُهم. وهذا هو الرَّاجحُ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم والخلفاءَ الرَّاشدين مِن بعدِه فَعَلوا ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧).

(١) ممَّن اختار أنها مَنسوخةٌ: ابنُ أبي زَمنين، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٢).

قال الشوكاني: (قيل: إنَّها مَنسوخَةٌ في أهلِ الأوثانِ، وأنَّه لا يجوزُ أن يُفادَوا ولا يُمَنَّ عليهم، وَالنَّاسخُ لها قولُه: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، وقولُه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾، وبهذا قال قَتادةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ، وابن جُرَيجٍ، وكثيرٌ من الكوفيِّين: قالوا: والمائدةُ آخِرُ ما نزَل، فوجَب أنْ يُقتَلَ كلُّ مُشركٍ إلَّا مَن قامَت الدَّلالةُ على تَركِه مِن النِّساءِ والصِّبيانِ ومَن تُؤخَذ منه الجِزيةُ، وهذا هو المشهورُ من مَذهبِ أبي حَنيفةَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧).

وقال عَلَم الدِّين السخاويُّ: (قال ابنُ جُريجٍ والسُّدِّيُّ وغيرُهما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ...﴾ إلى قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: نُسِخَ جميعُ ذلك بآيةِ السَّيفِ، فلا يجوزُ المنُّ على المشركِ ولا الفداءُ، إلَّا على مَن لا يَجوزُ قتْلُه كالصَّبيِّ والمرأةِ.

وقال الضَّحَّاك وعَطاءٌ: هذه الآيةُ ناسخةٌ لقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، فلا يُقتَلُ مُشرِكٌ صَبْرًا، لكنْ يُمَنُّ عليه، ويُفادى به إذا أيْسَرَ. وهذا يدُلُّك على أنَّهم تَكلَّموا في النَّسخِ بالظَّنِّ والاجتهادِ. فمِن ثَمَّ قال قومٌ: هو مَنسوخٌ، وقال قومٌ: بلْ هو ناسخٌ). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٨٣٦).

فأنتُم مُخَيَّرونَ -أيُّها المُسلِمونَ- فيهِمْ بعدَ انقِضاءِ الحَربِ[1].

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾.

أي: استَمِرُّوا على فِعلِ هذا الذي أُمِرْتُم به مِن قَتلِ الكُفَّارِ المُحارِبينَ وأسْرِهم إلى أنْ تَنْتهيَ الحربُ، ويضَعَ المحاربونَ السِّلاحَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٨-٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٧-٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥١).

قال الرازيُّ: (وفي الأوزارِ وَجهانِ: أحدُهما: السِّلاحُ، والثَّاني: الآثامُ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٩).

ممَّن اختارَ في الجُملةِ أنَّ المرادَ ما لا تَقومُ الحربُ إلَّا به كالسِّلاحِ وغيرِه: ابنُ قُتيبةَ، والواحديُّ، والبَغَويُّ، والزمخشريُّ، وابنُ الجوْزي، والرَّسعنيُّ، والبيضاويُّ، والعُليميُّ، والشوكانيُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥١).

قال الشِّنقيطيُّ: (وأظهَرُ الأقوالِ في معنى وَضعِ الحَربِ أوزارَها: أنَّه وضْعُ السِّلاحِ، والعَرَبُ تُسمِّي السِّلاحَ وَزَرًا، وتُطلِقُ العَربُ الأوزارَ على آلاتِ الحَربِ وما يُساعِدُ فيها كالخَيلِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٥١).

وممَّن اختار أن المعنى: حتَّى يُؤمنوا بالله وبرسولِه، ويُسْلِموا، ويَتوبوا إلى اللهِ مِن شركِهم: ابنُ جرير، والزجَّاجُ، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٨٥).

قال ابنُ جُزَي: (واختُلِف في الغايَةِ المُرادَةِ هنا؛ فقيل: حتَّى يُسلِموا جميعًا، فحينئذٍ تضَعُ =

عن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا تَزالُ طائِفةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلونَ على الحَقِّ ظاهِرينَ على مَن ناوَأَهُم[١]، حتى يُقاتِلَ آخِرُهم المسيحَ الدَّجَّالَ))[٢].

وعن سَلَمةَ بنِ نُفَيلٍ الكِنديِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كُنتُ جالِسًا عند رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أذالَ النَّاسُ الخيلَ[٣] ووَضَعوا

= الحربُ أوزارَها. وقيل: حتَّى تَقتُلوهم وتَغلِبوهم. وقيل: حتَّى يَنزِلَ عِيسى ابنُ مَريمَ. قال ابنُ عَطيةَ: ظاهِرُ اللَّفظِ أنَّها استِعارةٌ يُرادُ بها الْتِزامُ الأمرِ أبدًا، كما تقولُ: أنا فاعِلٌ ذلك إلى يَومِ القِيامةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨١).

وقال السَّمعانيُّ: (وفي الجُملةِ لا تضَعُ الحربُ أوزارَها ما بَقِيَ في العالَمِ كافِرٌ حَربيٌّ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٩).

وقال البيضاويُّ: (أي: تَنقضي الحربُ ولم يَبْقَ إلَّا مُسلمٌ أو مُسالِمٌ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠).

وقال البقاعيُّ: (﴿تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ وهي أثقالُها، أي: الآلاتُ التي تُثقِلُ القائِمينَ بها؛ من النَّفَقاتِ والسِّلاحِ والكُراعِ ونحوِه، وذلك لا يكونُ وفي الأرضِ كافِرٌ، وذلك على زمَنِ عِيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ تُخرِجُ الأرضُ برَكاتِها، وتكونُ المِلَّةُ واحِدةً، وهي الإسلامُ للهِ رَبِّ العالَمينَ، فيتَّخِذُ النَّاسُ حَديدَ السِّلاحِ سِكَكًا ومَناجِلَ وفُؤوسًا ينتَفِعونَ بها في مَعاشِهم). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٠٤-٢٠٥).

وقال السعديُّ: (﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾، أي: حتَّى لا يَبقى حَربٌ، وتَبقَون في المُسالَمةِ والمُهادَنةِ؛ فإنَّ لكلِّ مَقامٍ مَقالًا، ولكلِّ حالٍ حُكمًا؛ فالحالُ المُتقدِّمةُ إنَّما هي إذا كان قِتالٌ وحرْبٌ؛ فإذا كان في بعضِ الأوقاتِ لا حَرْبَ فيه لسَببٍ مِن الأسبابِ؛ فلا قَتْلَ ولا أسْرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(١) ناوَأَهم: أي: عاداهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٨٤)، وأحمد (١٩٩٢٠).

صحَّح إسنادَه الطبريُّ في ((مسند عمر)) (٢/ ٨٢٤)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٢٤٨٤)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٤٨٤).

(٣) أذالَ النَّاسُ الخَيلَ: أي: أهانوها واستخَفُّوا بها بقِلَّةِ الرَّغبةِ فيها. وقيل: أراد أنَّهم وَضَعوا =

السِّلاحَ، وقالوا: لا جِهادَ؛ قدْ وضَعَت الحَربُ أوزارَها[١]! فأقبَلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بوَجهِه، وقال: كَذَبوا! الآنَ الآنَ جاء القِتالُ، ولا يَزالُ من أُمَّتي أُمَّةٌ يُقاتِلونَ على الحَقِّ، ويُزيغُ اللهُ لهم قُلوبَ أقوامٍ ويَرزُقُهم منهم حتَّى تَقومَ السَّاعةُ، وحتَّى يَأتيَ وَعدُ اللهِ، والخَيلُ مَعقودٌ في نَواصِيها الخَيرُ[٢] إلى يوم القِيامةِ، وهو يُوحَى إليَّ أنِّي مَقبوضٌ غيرُ مُلَبَّثٍ[٣]، وأنتم تَتَّبِعوني أفْنادًا[٤] يَضرِبُ بَعضُكم رِقابَ بَعضٍ، وعُقرُ[٥] دارِ المؤمِنينَ الشَّامُ))[٦].

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾.

أي: أمَرَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- بما سَبَق ذِكرُه مِن جِهادِ الكُفَّارِ المحاربينَ، والحالُ أنَّه لو شاء اللهُ سُبحانَه لانتقم من الكُفَّارِ بعقوبةٍ مِنه لهم عاجلةٍ، دونَ أنْ يُكَلِّفَكم بقِتالِهم[٧].

= أداةَ الحَربِ عنها وأرسَلوها. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢١٤).

(١) وضَعَت الحَربُ أوزارَها: أي: انقضَى أمرُها، وخَفَّت أثقالُها فلمْ يَبْقَ قِتالٌ. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢١٤).

(٢) مَعقودٌ في نَواصيها الخيرُ: أي: مُلازِمٌ لها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٥٨).

(٣) مُلَبَّثٍ: اسمُ مَفعولٍ من ألْبَثَه غَيرُه أو لَبَّثَه بالتَّشديدِ، أي: غيرُ مُؤخَّرٍ في الدُّنيا، بل أنتَقِلُ للدَّارِ الآخِرةِ. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢١٥).

(٤) أفنادًا: أي: جَماعاتٍ مُتفَرِّقينَ. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢١٥).

(٥) عُقرُ دارِ المُؤمِنينَ: أي: أصلُها ومَوضِعُها. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢١٥).

(٦) أخرجه النَّسائيُّ (٣٥٦١) واللفظ له، وأحمد (١٦٩٦٥).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٥٦١)، وحسَّنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٤٥١)، وحسَّن إسنادَه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦٩٦٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٣).

قال ابنُ جَرير: (قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾، يقولُ تعالَى ذِكرُه: هذا الذي أمرْتُكم =

﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

أي: ولكِنْ شَرَع اللهُ الجِهادَ لِيَختبِرَكم -أيُّها المُؤمِنونَ- بالكافِرينَ؛ فيَتبيَّنَ المجاهِدونَ مِنكم والصابِرونَ، ويُثيبَهم، ويَختارَ منكم الشُّهَداءَ، ويَختبِرَ الكافِرينَ بكم؛ فيُعاقِبَ بأيديكم مَن يَشاءُ مِنهم، ويُخْزيهم، ويُوفِّقَ للتَّوبةِ منهم مَن يَشاءُ، ويَتبيَّنَ أهلُ الصِّدقِ والنِّفاقِ[1].

كما قال تعالَى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠ - ١٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

مُناسبتُها لِما قبْلَها:

لَمَّا أمَرَهم بقِتالِ المُشرِكين؛ أعقَبَ الأمْرَ بوَعْدِ الجَزاءِ على فِعْلِه[2].

= به -أيُّها المؤمِنونَ- مِن قَتلِ المُشرِكينَ إذا لَقِيتُموهم في حَربٍ، وشَدِّهم وَثاقًا بعْدَ قَهرِهم، وأسْرِهم، والمَنِّ والفِداءِ ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ -هو الحَقُّ الَّذي ألزَمَكم ربُّكم، ولو يَشاءُ رَبُّكم ويُريدُ لانتصَرَ مِن هؤلاء المُشرِكينَ الَّذين بَيَّنَ هذا الحُكمَ فيهم بعُقوبةٍ منه لهم عاجِلةٍ، وكَفاكم ذلك كُلَّه). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٣).

وأيضًا لَمَّا كانَ مِن شأْنِ القِتالِ أنْ يُقتَلَ كثيرٌ مِن المؤمنينَ، قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[(١)].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿قُتِلُواْ﴾ على مَعنى: والَّذين جاهَدوا الكُفَّارَ فاستُشْهِدوا في سَبيلِ اللهِ؛ لنْ يُحبِطَ اللهُ أعمالَهم[(٢)].

٢- قِراءةُ ﴿قَاتَلُوا﴾ على مَعنى: والَّذين جاهَدوا الكُفَّارَ سواءٌ قُتِلوا أوْ لم يُقتَلوا؛ لن يُحبِطَ اللهُ أعمالَهم[(٣)].

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

أي: والَّذين جاهَدوا الكُفَّارَ فقُتِلوا واستُشْهِدوا في سَبيلِ اللهِ؛ لنْ يُحبِطَ اللهُ أعمالَهم، بلْ يتقَبَّلُها منهم، ويُثيبُهم عليها[(٤)].

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾.

أي: سيَهديهم اللهُ ويُصلِحُ شَأنَهم وحالَهم[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٩).

(٢) قرَأ بها أبو عَمرٍو، ويعقوبُ، وحَفصٌ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦٦).

(٣) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦٦-٦٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩١)، ((تفسير ابن =

= عطية)) (٥/ ١١١)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٨٤-٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٩-٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: سيَهْدِيهم إلى جَنَّتِه: مكِّيٌّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٩).

وقال ابن عَطية: (﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ أي: إلى طَريقِ الجنَّة). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤١)

وقال السعدي: (﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ إلى سُلوكِ الطَّريقِ الموصلةِ إلى الجنَّة). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

وقال القُرْطبي: (قال أبو المَعَالي: وقَدْ تَرِدُ الهِدايةُ والمُرادُ بها إرْشادُ المُؤمنينَ إلى مَسالِكِ الجِنَانِ والطُّرقِ المُفْضِيةِ إليها، ومِن ذلك قوْلُه تعالَى في صِفةِ المُجاهِدينَ: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ ﴾، ومنْه قوْلُه تعالَى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٣]، مَعناه: فاسْلُكوا بهِمْ إليها). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٠).

وقيل: المعنى: أنَّه تعالَى يَهديهم إلى التَّوحيدِ في قُبورِهم، يَعني عِند سُؤالِ مُنكَرٍ ونَكيرٍ. وممَّن ذهَب إليه: مقاتلُ بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٠).

وقال السَّمرقندي: (يُجنِّبُهم مِن أهوالِ الآخِرةِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: سيَهْديهم أيَّامَ حَياتِهم في الدُّنيا إلى أرشَدِ الأمورِ، وفي الآخِرةِ إلى الدَّرجاتِ: البَغويُّ، والخازنُ، وابنُ عادل، والعُليميُّ، والشِّربينيُّ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٤٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨).

وقال جَلالُ الدِّين المحلِّيُّ: (﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ في الدُّنيا والآخِرةِ إلى ما يَنفَعُهم، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ حالَهم فيهما، وما في الدُّنيا لمَن لم يُقتَلْ، وأُدرِجوا في ﴿قُتِلُوا﴾ تغليبًا). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٣).

وقال مكِّيٌّ: (يجوزُ أنْ يكون المعنى: سيَهْدي مَن بَقِي منهم حيًّا). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١١/ ٦٨٨٧).

وذهَب ابنُ القيِّم إلى احتِمالِ أنْ يكونَ قَولُه تعالى: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ إخبارًا مِن اللهِ تعالَى عمَّا يَفعَلُه بالمجاهِدينَ قبْل أن يُقتَلوا، وأتَى به بصِيغةِ المُستقبَلِ إعلامًا منه بأنَّه يُجدِّدُ لهم كلَّ وَقتٍ نَوعًا مِن أنواعِ الهدايةِ وإصلاحِ البالِ شَيئًا بعْد شَيءٍ، فجعَلَ لهم جَزاءً في الدُّنيا بالهدايةِ =

كما قال تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

وقال سُبحانَه وتعالَى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال تعالَى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ

= على الجِهادِ، وجَزاءً في الآخِرةِ بدُخولِ الجنَّةِ، فيَرُدُّ السَّامِعُ كُلَّ جُملةٍ إلى وَقتِها؛ لظُهورِ المعنى، وعدَمِ الْتباسِه. يُنظر: ((شفاء العليل)) (ص: ١٦١).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ معنى ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي: حالَهم، وأمْرَهم، وشأْنَهم: ابنُ أبي زَمنين، والسَّمعانيُّ، وابنُ كثير، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨).

وقيل: معناه: يُصلِحُ حالَهم في الآخِرةِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي: يُرْضي خُصماءَهم، ويَقبَلُ أعمالَهم: الثَّعلبيُّ، والبغَويُّ، والنَّسفيُّ، وابنُ عادل، والعُليميُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٤٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٢).

وقيل: المعنى: يُصلِحُ شأْنَهم في الجنَّةِ بالنَّعيمِ المقيمِ، وغُفرانِ الذُّنوبِ، ويُدخِلُهم إيَّاها. قاله مكِّيٌّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٨٧).

وقال ابنُ جريرٍ بناءً على قِراءةِ ﴿قَاتَلُوا﴾: (يقولُ تعالى ذِكرُه: سيُوفِّقُ اللهُ تعالَى ذِكرُه للعمَلِ بما يَرْضى ويُحِبُّ، هؤلاء الذين قاتَلوا في سَبيلِه، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ ويُصلِحُ أمْرَهم وحالَهم في الدُّنيا والآخِرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩١). ويُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٨٧).

وقال الزجَّاج بِناءً على قِراءةِ ﴿قَاتَلُوا﴾ أيضًا: (وقولُه: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ يُصلِحُ لهم أمْرَ مَعاشِهم في الدُّنيا مع ما يُجازيهم به في الآخِرةِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٧).

يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ثَوابُ مَن قُتِلَ في سَبيلِ اللهِ ثَوابًا عَظيمًا، ونَوالًا جَسيمًا؛ أتْبَعَه ثَوابًا أعظَمَ منه، فقال تعالَى[1]:

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾.

أي: ويُدخِلُهم اللهُ الجنَّةَ، ويُبيِّنُ يومَ القِيامةِ لكُلِّ واحدٍ مِن أهلِها طَريقَه إلى مَوضِعِه منها، فيَهتدي إليه بِلا استِدلالٍ، ويَعرِفُ مَنزلَه بلا إشكالٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيِّم (ص: ١٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٠).

وممَّن ذهَب إلى المعنَى المذكورِ في الجُملةِ: مقاتلُ بن سُليمان، وابنُ جَرير، والواحديُّ، والزمخشريُّ، والقرطبيُّ، ونسَبه هو وابنُ القيِّم إلى جُمهورِ المفَسِّرين. يُنظر: المصادر السابقة.

ممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس في رِوايةٍ عنه، وقتادةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧).

قال الواحديُّ: (قال مجاهدٌ: يَهتدي أهلُها إلى بُيوتِهم ومَساكِنِهم لا يُخطِئون، كأنَّهم ساكِنوها منذ خُلِقوا لا يَستدِلُّون عليها أحدًا. هذا قولُ عامَّةِ المُفسِّرين وأهلِ المعاني). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٢٣).

وقيل: معنى: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ طيَّبها لهم. نسَبَه ابنُ قُتيبةَ إلى أصحابِ اللُّغةِ، وممَّن اختاره منهم: الراغبُ الأصفهانيُّ، وابنُ الجوْزي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧).

وقيل: المعنى: بيَّنها لهم في كَثيرٍ مِن آياتِه تَعريفًا يُشوِّقُ كُلَّ مُؤمِنٍ أنْ يَسعى لها. =

كما قال تعالَى: ﴿... فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، عن رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إذا خَلَص المؤمِنونَ مِن النَّارِ حُبِسوا بقَنطرةٍ[١] بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيَتقاصُّونَ[٢] مَظالمَ كانتْ بيْنَهم في الدُّنيا، حتَّى إذا نُقُّوا وهُذِّبوا أُذِنَ لهم بدُخولِ الجنَّةِ، فوالَّذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لأَحَدُهم بمَسكَنِه في الجنَّةِ أدَلُّ بمَنزِلِه كان في الدُّنيا!))[٣].

= وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ في الجُملة: القاسميُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٤).

وقيل: المرادُ: طَيَّبَها بأنواعِ الملاذِّ. أو: شرَّفها لهم ورفَعها وأعْلاها. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١١-١١٢).

وممَّن ذهَب إلى العُمومِ: البقاعي، فقال: (﴿عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ أي: بتَعريفِ الأعمالِ المُوصلةِ إليها، والتَّوفيقِ لهم إليها في الدُّنيا، وأيضًا بالتَّبصيرِ بالمنازِلِ في الآخرةِ، حتى إنَّ أحَدَهم يَصيرُ أعرَفَ بمَنزِلِه فيها منه بمَنزِلِه في الدُّنيا؛ وطِيبِ رائحتِها، وجَعْلِ مَوضِعِها عاليًا، وجُدرانِها عاليةً، وهي ذاتُ أعرافٍ وشُرُفٍ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٠٧-٢٠٨).

وقال السعدي: (﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ أي: عرَّفَها أوَّلًا بأنْ شَوَّقَهم إليها، ونعَتَها لهم، وذكَرَ لهم الأعمالَ المُوصلةَ إليها، التي من جُملتِها القَتلُ في سَبيلِه، ووفَّقَهم للقيامِ بما أمَرَهم به ورغَّبَهم فيه، ثمَّ إذا دخَلوا الجنَّةَ عَرَّفَهم منازِلَهم وما احتَوت عليه مِن النَّعيمِ المقيمِ، والعَيشِ السَّليمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(١) القَنطرةُ: الجسرُ، وهي عبارةٌ عن الصِّراطِ الممدودِ بيْنَ الجنَّةِ والنارِ. قيل: إنَّها طرَفُ الصِّراطِ ممَّا يَلي الجنَّةَ، ويَحتمِلُ أن تكونَ مِن غيرِه بينَ الصِّراطِ والجنَّةِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٥٢٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٩٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٦٢).

(٢) فيَتقاصُّون: بتَشديدِ الصَّادِ المُهْمَلةِ: يَتفاعَلون؛ مِن القِصاصِ، والمرادُ به تتبُّعُ ما بيْنَهم مِن المظالمِ، وإسقاطُ بعضِها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٩٦).

(٣) رواه البُخاريُّ (٢٤٤٠).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- النَّفْسُ كالعَدوِّ، إنْ عرَفَتْ صَولةَ الجِدِّ منك اسْتَأسَرَتْ لك، وإنْ أنِسَت عنك المهانةَ أَسَرَتْك، امنَعْها مَلذوذَ مُباحاتِها؛ ليَقَعَ الصُّلْحُ على تَرْكِ الحَرامِ، فإذا ضَجَّت لطَلَبِ المُباح ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[١].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ لِيَقومَ سُوقُ الجِهادِ، ويَتبيَّنَ بذلك أحوالُ العِبادِ؛ الصَّادِقِ مِنَ الكاذِبِ، ولِيُؤمِنَ مَن آمَن إيمانًا صَحيحًا عن بَصيرةٍ، لا إيمانًا مَبْنيًّا على مُتابَعةِ أهلِ الغَلَبةِ؛ فإنَّه إيمانٌ ضَعيفٌ جِدًّا لا يَكادُ يَستَمِرُّ لصاحِبِه عندَ المِحَنِ والبَلايا[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ على قِراءةِ ﴿قَاتَلُوا﴾ فيه بُشرى عَظيمةٌ لِمَن جاهَدَ ساعةً ما، بأنَّ اللهَ يُميتُه على الإسلامِ المُستلزِمِ لئَلَّا يَضيعَ له عَمَلٌ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أنَّ مِن صِيَغِ الأمْرِ المصدرَ النَّائِبَ عن فِعلِ الأمْرِ[٤].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ أنَّ رَبْطَ الأسيرِ إنْ كان مِن الكُفَّارِ هو مِن مصالِحِ الدِّينِ، وقدْ أمَرَ اللهُ تعالَى به[٥].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) (٣/ ١٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٨).
(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١١/ ٢٤).
(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٥٣٨).

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ دَليلٌ على أنَّ المُفاداةَ والمَنَّ لا يجوزُ قبْلَ النِّكايةِ والإثخانِ(١).

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ فيه بيانُ كَيفيَّةِ الجِهادِ: فعندَ اللِّقاءِ بضَربِ الرِّقابِ، وعِندَ الإثخانِ وإزالةِ الامتِناعِ بشَدِّ الوَثاقِ بالأَسْرِ، ثمَّ يَتخَيَّرُ فيهم الإمامُ مَنًّا، أو فِداءً بمالٍ أو أَسرى مِنَ المُسلِمينَ(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ فيه سُؤالٌ: (إمَّا) (وإمَّا) للحَصرِ، وحالُهم بعْدَ الأَسْرِ غيرُ مُنحَصِرٍ في الأمْرَينِ، بلْ يجوزُ القَتلُ والاسترِقاقُ، والمَنُّ والفِداءُ؟

الجوابُ: هذا إرشادٌ؛ فذَكَرَ الأمرَ العامَّ الجائزَ في سائِرِ الأجناسِ(٣)، ولَمَّا كان الإمامُ مُخيَّرًا في أَسْراهم بيْن أربعةِ أشياءَ: القَتلِ، والإطلاقِ مجَّانًا، والإطلاقِ بالفِديةِ -وهي شَيءٌ يأخُذُه عِوَضًا عن رِقابِهم-، والاستِرقاقِ؛ عبَّرَ عن ذلك بقَولِه مُفَصِّلًا: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا﴾، أي: أنْ يُنعِموا عليهم إنعامًا ﴿بَعۡدُ﴾، أي: في جميع أزمانِ ما بعْدَ الأَسْرِ باستِبقائِهم، ثمَّ بعْدَ الإنعام باستِبقائِهم إمَّا أنْ يكونَ ذلك مع الاسترقاقِ أو مع الإطلاقِ، ثمَّ الإطلاقُ إمَّا مجَّانًا ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ بمالٍ أو بأَسرى مِنَ المُسلِمين ونحوِ ذلك؛ فأفْهَمَ التَّعبيرُ بالمَنِّ -الذي مَعناه الإنعامُ- أنَّ الإبقاءَ غيرُ واجبٍ، بل جائزٌ، ودخَلَ في الإبقاءِ ثَلاثُ صُوَرٍ: الاسترقاقُ، والإطلاقُ مجَّانًا، وبالفِداءِ، فصَرَّح سُبحانَه وتعالَى بالفِداءِ -الَّذي معناه الأخْذُ- على وجْهِ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٨-٣٩).

أنَّه قَسيمٌ للمَنِّ؛ فعُلِمَ أنَّ المرادَ به الإبقاءُ مع عدَمِ الأخْذِ، فدخَلَ فيه الإطلاقُ مجَّانًا، وهو واضِحٌ، والاسترقاقُ؛ لأنَّه إنعامٌ بالنِّسبةِ إلى القَتلِ، وأفْهَمَ التَّعبيرُ بالمَنِّ -الذي معناه الإنعامُ مِن المنَّانِ الذي هو اسمُه تعالَى، ومعناه المُعطي ابتداءً- جَوازَ القَتلِ؛ لأنَّ الإنعامَ مُخَيَّرٌ فيه لا واجِبٌ؛ لأنَّه لو كان واجبًا كان حقًّا لا نِعمةً؛ فقدْ دخَلَت الصُّوَرُ الأربَعُ في التَّعبيرِ بهاتينِ الكَلِمَتَينِ. وكُلُّ هذا على ما يَراه الإمامُ أو نائِبُه مَصلحةً[1].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ دَليلٌ على جَوازِ المُفاداةِ ورَدِّ مَن قدْ أُخرِجَ إلى دارِ الإسلامِ مِن الكُفَّارِ إلى دارِ الكُفرِ، والمَنِّ عليه قبْلَ الإسلامِ؛ لأنَّه إذا أسلَمَ استغنَى عن المَنِّ عليه، وحَرُمَت المفاداةُ به[2].

٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾، فيه سُؤالٌ: لا يُبتَلَى الشَّيءُ النَّفيسُ بما يُخافُ منه هَلاكُه؛ فإنَّ السَّيفَ المُهنَّدَ القاطِعَ الكبيرَ القِيمَةِ، لا يُجرَّبُ بالشَّيءِ الصُّلبِ الَّذي يُخافُ عليه منه الانكِسارُ، ولكِنَّ الآدَمِيَّ مُكرَّمٌ، كرَّمَه اللهُ وشرَّفَه وعظَّمَه، فلماذا ابتَلاهُ بالقِتالِ، وهو يُفضِي إلى القَتلِ والهَلاكِ إفضاءً غيرَ نادِرٍ، فكيف يَحسُنُ هذا الابتِلاءُ؟

الجَوابُ: القتلُ ليْس بإهلاكٍ بالنِّسبةِ إلى المُؤمِنِ؛ فإنَّه يُورِّثُ الحياةَ الأبدِيَّةَ، فإذا ابتَلاهُ بالقِتالِ فهو على تَقديرِ أنْ يُقتَلَ مُكرَّمٌ، وعلى تَقديرِ ألَّا يُقتَلَ مُكرَّمٌ؛ هذا إنْ قاتَلَ، وإنْ لم يُقاتِلْ فالموتُ لا بدَّ منه، وقدْ فوَّتَ على نفْسِهِ الأجرَ الكبيرَ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٣-٢٠٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨١).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤١).

بلاغةُ الآياتِ:

قَولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ لِتَفْريعِ هذا الكَلامِ على ما قبْلَه؛ مِن إثارةِ نُفوسِ المُسلِمين بتَشنيعِ حالِ المُشرِكين وظُهورِ خَيبةِ أعْمالِهم، وتَنويهِ حالِ المُسلِمين وتَوفيقِ آرائِهم، والمَقصودُ: تَهوينُ شأْنِهم في قُلوبِ المُسلِمين، وإغْراؤُهم بقَطْعِ دابِرِهم؛ لِيَكونَ الدِّينُ كلُّه للهِ؛ لأنَّ ذلك أعظَمُ مِن مَنافِعِ فِداءِ أَسْراهم بالمالِ؛ لِيَعبُدَ المُسلِمون ربَّهم آمنينَ. وذلك ناظِرٌ إلى آيةِ سُورةِ (الأنفالِ) وإلى ما يُفيدُه التَّعليلُ مِن قَولِه: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[1].

- وضَرْبُ الرِّقابِ كِنايةٌ عن القتْلِ؛ لا أنَّ الواجِبَ أنْ تُضرَبَ الرِّقابُ خاصَّةً دُونَ غَيرِها مِن الأعضاءِ؛ وذلك أنَّهم كانوا يقولونَ: ضَرَبَ الأميرُ رَقَبةَ فُلانٍ، وضرَبَ عُنقَه، وضرَب ما فيه عَيْناه: إذا قتَلَه؛ وذلك أنَّ قتْلَ الإنسانِ أكثَرُ ما يكونُ بضَرْبِ رَقَبتِه، فوقَعَ (ضَرْبَ الرِّقابِ) كِنايةً عن القتْلِ، وإنْ ضُرِبَ بغَيرِ رَقَبتِه. على أنَّ في هذه العِبارةِ مِن الغِلْظةِ والشِّدَّةِ ما ليْس في لَفْظِ القتْلِ؛ لِمَا فيه مِن تَصويرِ القتْلِ بأشنَعِ صُورةٍ، وهو حَزُّ العُنُقِ، وإطارةُ العُضْوِ الَّذي هو رأْسُ البَدَنِ، وعُلْوُه، وأوجَهُ أعْضائِه، ولقدْ زاد في هذه الغِلْظةِ في قَولِه تعالَى: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[2] [الأنفال: ١٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٨، ٧٩).

- قَولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ الوَثاقُ: الشَّيءُ الذي يُوثَقُ به. وهو هنا كِنايةٌ عن الأسْرِ؛ لأنَّ الأسْرَ يَستلزِمُ الوضْعَ في القَيدِ يُشَدُّ به الأسيرُ، والمعنى: فاقْتُلوهم، فإنْ أثْخَنْتُم منهم فأْسِروا منهم(١).

- وتَعريفُ الرِّقابِ والوَثاقِ يَجوزُ أنْ يكونَ لِلعهْدِ الذِّهنيِّ، ويَجوزُ أنْ يكونَ عِوَضًا عن المُضافِ إليه، أي: فضَرْبَ رِقابِهم، وشُدُّوا وَثاقَهم(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هاهنا: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ فعُبِّرَ بالمصدرِ، وقال في (الأنفالِ): ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢] فعُبِّر بالفعلِ، وفائدةُ ذلك: أنَّ المقصودَ أوَّلًا في بعضِ السُّورِ قدْ يكونُ صُدورَ الفِعلِ من فاعلٍ ويَتبَعُه المصدَرُ (الحدثُ) ضِمنًا؛ إذ لا يُمكِنُ أنْ يَفعَلَ فاعلٌ إلَّا ويقَعُ منه المصدرُ (الحدَثُ) في الوجودِ، وقدْ يكونُ المقصودُ أوَّلًا المصدرَ (الحدَثَ)، ولكنَّه لا يُوجَدُ إلَّا مِن فاعلٍ، فيُطلَبُ منه أنْ يَفعَلَ، إذا عُرِف هذا، فما في (الأنفالِ) حِكايةٌ عن الحربِ الكائنةِ، وهمْ كانوا فيها، والملائكةُ أُنزِلوا لنُصرةِ مَن حضَر في صَفِّ القتالِ؛ فصُدورُ الفعلِ منه مَطلوبٌ، وهاهنا الأمرُ واردٌ في غيْرِ وقْتِ القتالِ؛ بدَليلِ قولِه تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾، والمقصودُ بيانُ كونِ المصدرِ (الحدثِ) مَطلوبًا؛ لتَقدُّمِ المأمورِ على الفعلِ، قال: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾. وفيما ذُكِر تَبيَّنُ فائدةٌ أُخرى؛ وهي أنَّ اللهَ تعالَى قال هناك: ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ [الأنفال: ١٢]؛ وذلك لأنَّ الوقتَ وقْتُ القتالِ، فأرشَدَهم إلى المقْتلِ، وغيرِه إنْ لم يُصِيبوا المقْتَلَ، وهاهنا ليْس وقْتَ القتالِ، فبيَّن أنَّ المقصودَ القتلُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وغَرَضُ المسلِمِ ذلك[١].

- وقُدِّمَ المَنُّ على الفِداءِ تَرْجيحًا له؛ لأنَّه أعوَنُ على امتِلاكِ ضَميرِ المَمْنونِ عليه[٢]. أو: لأنَّه مِن مكارِمِ الأخلاقِ؛ ولهذا كانت العربُ تَفْتَخِرُ به[٣]. وقيل: إنَّ في ذلك إشارةً إلى تَرجيحِ حُرمةِ النَّفسِ على طَلَبِ المالِ[٤].

- والغايةُ المُستفادَةُ مِن (حتَّى) في قَولِه: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قيل: لِلتَّعليلِ لا لِلتَّقييدِ، أي: لِأَجْلِ أنْ تَضَعَ الحرْبُ أوزارَها، أي: لِيَكُفَّ المُشرِكون عنها، فتَأمَنوا مِن الحرْبِ عليكم، وليستْ غايةً لِحُكْمِ القِتالِ، والمعنى: يَستمِرُّ هذا الحُكمُ بهذا لِيَهِنَ العَدُوُّ، فيَتْرُكوا حَرْبَكم؛ فلا مَفهومَ لِهذه الغايةِ؛ فالتَّعليلُ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾، وما بيْنَهما اعْتِراضٌ، والتَّقديرُ: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾، أي: لا تَتْرُكوا القتْلَ لِأَجْلِ أنْ تَضَعَ الحرْبُ أوزارَها؛ فيَكونُ وارِدًا مَورِدَ التَّعليمِ والمَوعظةِ، أي: فلا تَشتَغِلوا عِندَ اللِّقاءِ إلَّا بقَتْلِ الذين كَفَروا؛ لِتَضَعَ الحرْبُ أوزارَها، فإذا غَلَبْتُموهم فاشْتَغِلوا بالإبقاءِ على مَن تَغلِبونَه بالأسْرِ؛ لِيَكونَ المَنُّ بعْدَ ذلك أو الفِداءُ[٥]. وذلك بناءً على تَفسيرِ الإثخانِ بالغَلَبةِ.

- والأوزارُ: الأثقالُ، ووَضْعُ الأوزارِ تَمثيلٌ لِانتهاءِ العَمَلِ؛ فشُبِّهَت حالةُ انتهاءِ القِتالِ بحالةِ وَضْعِ الحَمَّالِ أو المُسافِرِ أثْقالَه، وهذا مِن مُبتَكَراتِ القُرآنِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٢).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ لِتَمْييزِ المُشارِ إليه أكمَلَ تَمْييزٍ؛ تَنْويهًا به. ويُفِيدُ اسمُ الإشارةِ تَقريرَ الحُكْمِ، ورُسوخَه في النُّفوسِ[١].

- وتَعديةُ (انتَصَرَ) بحَرْفِ (مِن) -مع أنَّ حقَّه أنْ يُعدَّى بحَرْفِ (على)-؛ لِتَضْمينِه معنى: (انتقَمَ)[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ هذا مِن مَظاهِرِ بَلْوى بَعضِهم ببَعضٍ، وهو مُقابِلُ ما في قولِه: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾؛ فإنَّ ذلك مِن مَظاهِرِ إهانةِ الَّذين كَفَروا؛ فذَكَرَ هنا ما هو مِن رِفعةِ الذين قاتَلوا في سَبيلِ اللهِ مِن المُؤمنين بعِنايةِ اللهِ بهم[٣].

- وجُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ إلخ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ الآيةَ؛ فإنَّه لَمَّا أمَرَهم بقِتالِ المشركينَ، أعْقَبَ الأمْرَ بوَعدِ الجَزاءِ على فِعلِه[٤].

- وذِكرُ (الَّذينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) إظْهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ إذ كان مُقْتضَى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: فلنْ يُضِلَّ اللهُ أعْمالَكم، وهكذا بأُسلوبِ الخِطابِ؛ فعُدِلَ عن مُقْتضى الظَّاهِرِ مِن الإضمارِ إلى الإظهارِ؛ لِيَكونَ في تَقديمِ المُسنَدِ إليه على الخَبَرِ الفِعليِّ إفادةُ تَقوِّي الخَبرِ، ولِيَكونَ ذَريعةً إلى الإتيانِ بالمَوصولِ؛ للتَّنويهِ بصِلَتِه، ولِلْإيماءِ إلى وَجْهِ بِناءِ الخَبرِ على الصِّلةِ بأنَّ تلك الصِّلةَ هي عِلَّةُ ما وَرَدَ بعْدَها مِن الخبَرِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٦، ٨٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجُملةُ ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ خبرٌ عن المَوصولِ، وقُرِنَتْ بالفاءِ لإفادةِ السَّببيَّةِ في تَرتُّبِ ما بعْدَ الفاءِ على صِلةِ المَوصولِ؛ لأنَّ المَوصولَ كثيرًا ما يُشْرَبُ معنى الشَّرْطِ، فيُقرَنُ خَبَرُه بالفاءِ، وبذلك تكونُ صِيغةُ الماضي في فِعلِ ﴿قُتِلُوا﴾ مُنْصرِفةً إلى الاستِقبالِ؛ لأنَّ ذلك مُقْتضَى الشَّرْطِ(١).

- وقال في حَقِّ الكافِرِ: ﴿أَضَلَّ﴾ [محمد: ١]، بصِيغةِ الماضي، ولم يَقُلْ: (يُضِلُّ)؛ إشارَةً إلى أنَّ عَمَلَه حيث وُجِدَ عَدَمٌ، وكأنَّه لم يُوجَدْ مِن أصلِه، وقال في حقِّ المؤمِنِ: ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾، ولم يَقُلْ: (ما أضلَّ)؛ إشارَةً إلى أنَّ عَمَلَه كلَّما ثبَتَ عليه أُثبِتَ له، وبيْنَهما غايةُ الخِلافِ، كما أنَّ بيْنَ الدَّاعي والصَّادِّ غايةَ التَّبايُنِ والتَّضادِّ(٢).

- وجُملةُ ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ وما عُطِفَ عليها بَيانٌ لِجُملةِ ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾(٣).

- في قولِه تعالَى: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ مُناسبةٌ حسنةٌ؛ فقد قال تعالَى هنا (يُصْلِحُ)، وفي أوَّلِ السُّورةِ قال: (أَصْلَحَ بَالَهُمْ) [محمد: ٢]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ الماضيَ والمستقبلَ راجِعٌ إلى أنَّ هناكَ وَعَدَهم ما وَعَدَهم بسَببِ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، وذلك كان واقعًا منهم، فأخْبَرَ عن الجزاءِ بصِيغةٍ تدُلُّ على الوقوعِ، وهاهنا وَعَدَهم بسَببِ القتالِ والقتلِ، فكان في اللَّفظِ ما يَدُلُّ على الاستقبالِ؛ لأنَّ قولَه تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ [محمد: ٤] يدُلُّ على الاستقبالِ، فقال: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤١).

الآيات (٧-١١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ
وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ
ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتَعۡسٗا﴾: أي: عِثارًا وسُقوطًا وهَلاكًا، يُقالُ للعاثِرِ: تَعْسًا: إذا لم يُريدوا قيامَه، وأصلُ (تعس): يدُلُّ على الكَبِّ[1].

﴿فَأَحۡبَطَ﴾: أي: فأبطَلَ وأذهَبَ الأجرَ، وأصلُ (حبط): يدُلُّ على بُطْلانٍ[2].

﴿عَٰقِبَةُ﴾: أي: خاتمةُ. وعاقبةُ كلِّ شَيءٍ: آخرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقِبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شَيءٍ، وإتيانُه بعدَ غَيرِه[3].

﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾: أي: أهلَكَهم. وأصلُ التَّدميرِ: إدخالُ الهلاكِ على المُهلَكِ، وأصلُ (دمر): يدُلُّ على الدُّخولِ في البَيتِ وغيرِه[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥) و(٢١/ ٢٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧) و(٢٠/ ٣٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، =

﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي: وَلِيُّهم وناصِرُهم، والمَوْلَى: الوَلِيُّ القَريبُ، والحَليفُ، والنَّاصِرُ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على القُرْبِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبشِّرُ الله تعالى المؤمنينَ بنَصرِه إذا نصَروا دينَه، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إن تَنصُروا دينَ الله ورسولَه يَنصُرْكم اللهُ، ويُثبِّتْ أقدامَكم عندَ قِتالِ أعدائِكم.

ثمَّ يَتوعَّدُ اللهُ تعالَى الكافِرينَ بالخَيبةِ والخُسْرانِ، فيقولُ: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ فخِزْيًا لهم وهلاكًا، وسُقوطًا لا قيامَ بَعْدَه، وجَعَل اللهُ أعمالَهم باطِلةً.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه الأسبابَ الَّتي أدَّتْ بهم إلى الخُسرانِ، فيقولُ: ذلك الإتْعاسُ للكافِرينَ بسَبَبِ أنَّهم كَرِهوا القُرآنَ الَّذي أنزَلَه اللهُ، فأبطَلَ اللهُ أعمالَهم.

ثمَّ يُوبِّخُ الكافِرينَ على عدمِ الاعتبارِ بمصيرِ الَّذين مِن قَبْلِهم، فيقولُ: أفلَمْ يَسِرِ المُشرِكونَ في الأرضِ فيَنظُروا كيف كانت نهايةُ الكُفَّارِ الَّذين من قبْلِهم، أهلَكَهم اللهُ واستأصَلَهم، ولِغَيرِهم مِنَ الكُفَّارِ أمثالُ تلك العاقِبةِ مِن الهلاكِ والدَّمارِ إن لم يُؤمِنوا.

ذلك النَّصرُ للمُؤمِنينَ والهَلاكُ للكافِرينَ بسَبَبِ أنَّ اللهَ يَتولَّى المؤمنينَ ويَنصُرُهم، وأنَّ الكافِرينَ لا وَلِيَّ لهم يَتولَّاهم ويَنصُرُهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾.

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٢، ٢٣).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى القِتالَ، تشَوَّفَ السَّامعُ إلى حالِ المُقاتِلِ مِنَ النَّصرِ والخِذلانِ؛ فأجابَ بما يُعرِّفُ بشَرطِ النَّصرِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ أنَّه لو شاءَ اللهُ لَانتصَرَ منهم، عُلِمَ منْه أنَّ ما أمَرَ به المُسلِمينَ مِن قِتالِ الكُفَّارِ إنَّما أرادَ منه نَصْرَ الدِّينِ بقَطْعِ شَوكةِ أعْدائِه الَّذين يَصُدُّونَ النَّاسَ عنه؛ أتْبَعَهُ بالتَّرغيبِ في نَصرِ اللهِ، والوعْدِ بتَكفُّلِ اللهِ لهم بالنَّصرِ إنْ نَصَروه، وبأنَّه خاذِلُ الَّذين كَفَروا بسَبَبِ كَراهيتِهم ما شَرَعَه مِن الدِّينِ(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إن تَنصُروا دينَ اللهِ ورسولَه يَنصُرْكم اللهُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٥).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: إن تَنصُروا دينَ اللهِ ورسولَه يَنصُرْكم على عدوِّكم: البغويُّ، والزمخشري، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنسفي، والخازن. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٤١).

وقال بعضُ المفسِّرينَ: المعنى: إن تَنصُروا دينَ اللهِ يَنصُرْكم على أعدائِكم. وممَّن قال ذلك واقتصَر عليه: السَّمَرْقَنْديُّ، والقرطبي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨).

قال الواحدي: (قال أهلُ المعاني: إن تَنصُروا دينَ اللهِ ورسولَه بالجهادِ، إلَّا أنَّه أُضيفَ النَّصرُ إلى اللهِ تفخيمًا لِشأنِه وتعظيمًا، وتلَطُّفًا في الاستِدعاءِ إليه، كالتَّلطُّفِ في ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٢٦). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

أي: ويُثبِّتْ أقدامَكم عندَ قِتالِ الكُفَّارِ؛ فلا تخافونَ منهم، ولا تَفِرُّونَ مهما كَثُرَ عَددُهم وقَوِيَتْ عُدَّتُهم[1].

= وقال ابن عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ﴾ فيه حذْفُ مُضافٍ، أي: دينَ اللهِ ورسولَه، والمعنى: تَنصُروه بجِدِّكم واتِّباعِكم وإيمانِكم ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ بخلْقِ القوَّةِ لكم، والجرأةِ، وغيرِ ذلك من المعارِفِ).

وفسَّر السعديُّ نصْرَ اللهِ بالقيامِ بدينِه، والدَّعوةِ إليه، وجهادِ أعدائِه، والقَصدِ بذلك وجْهَ الله تعالى. وفسَّر نصْرَ اللهِ لهم وتثبيتَ أقدامِهم بالرَّبطِ على قُلوبِهم بالصَّبرِ والطُّمأنينةِ والثَّباتِ، وأن يُصبِّرَ أجسامَهم على ذلك، ويُعينَهم على أعدائِهم. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

وقال البِقاعي: (﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ﴾ أي: يَتجدَّدْ لكم نيَّةٌ مُستمرَّةٌ وفِعلٌ دائمٌ على نُصرةِ دِينِ الملِكِ الأعظَمِ، بإيضاحِ أدلَّتِه وتَبيينِها، وتَوهيةِ شُبَهِ أهلِ الباطلِ وقتالِهم، ويكونُ ذلك خالصًا له). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٠٩).

قال السمعاني: (والنَّصرُ من الله: هو الحِفظُ والهِدايةُ. وعن قَتادةَ قال: مَن يَنصُرِ اللهَ يَنصُرْه، ومَن يَسألْه يُعطِه. ويُقالُ: يَنصُرْكم بتَغليبِكم على عدوِّكم، وإعلائِكم عليهم). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥١).

قال الواحدي: (قال الكَلْبيُّ ومُقاتِلٌ: يعني: عندَ القِتالِ. وقيل: علي الإسلامِ. ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ: على الصِّراطِ). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٢٦).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: أنَّ التَّثبيتَ عندَ القتالِ (أي: بالنَّصرِ والمَعونةِ والعِصمةِ مِن الفِرارِ): السمرقنديُّ، والسمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥١).

وقال البقاعي: (﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي: تثبيتًا عظيمًا، بأن يَمْلأَ قُلوبَكم سكينةً واطمئنانًا، =

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، جاز أنْ يُتوهَّمَ أنَّ الكافِرَ أيضًا يَصبِرُ ويَثْبُتُ للقِتالِ؛ فيَدومُ القِتالُ والحِرابُ والطِّعانُ والضِّرابُ، وفيه المَشقَّةُ العَظيمةُ، فقال تعالى: لكمُ الثَّباتُ، ولهمُ الزَّوالُ والتَّغيُّرُ والهَلاكُ؛ فلا يكونُ الثَّباتُ؛ ففي الآيةِ زِيادةٌ في تَقويةِ قُلوبِ المُؤمِنين[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذَكرَ أهلَ الإيمانِ؛ بيَّن ما لأهلِ الكُفرانِ[(٢)]، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ فخِزيًا لهم وشَقاءً وهَلاكًا، وعِثارًا وسُقوطًا لا قيامَ بَعدَه[(٣)].

﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

أي: وجَعَل اللهُ أعمالَهم باطِلةً لا نَفْعَ فيها[(٤)].

= وأبدانَكم قوَّةً وشجاعةً في حالِ القتلِ، ووقْتَ البحثِ والجدالِ، وعندَ مُباشرةِ جميعِ الأعمالِ، فتَكونوا عالينَ قاهِرينَ في غايةِ ما يكونُ مِن طِيبِ النُّفوسِ، وانشِراحِ الصُّدورِ؛ ثقةً باللهِ، واعتِزازًا به وإن تَمالَأَ عليكم أهلُ الأرضِ. ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٢، ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٥، ٨٦).

قال البقاعي: (﴿فَتَعۡسٗا﴾ أي: فقد عَثَروا، فيُقالُ لهم ما يُقالُ للعاثِرِ الَّذي يُرادُ أنَّه لا يقومُ: تَعْسًا لا قيامَ معه، كما يُقالُ لِمن عَثَر وأُريدَ قيامُه: لَعًا [أي: ارتفاعًا] لك). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن =

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى ما صنَعَ بالمُشرِكينَ؛ لِيَجتَرِئَ به حِزبُه عليهم- بيَّنَ سَبَبَه؛ لِيُجتَنَبَ[1].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾.

أي: ذلك الإتْعاسُ للكافِرينَ وإضلالُ أعمالِهم بسَبَبِ أنَّهم كَرِهوا القُرآنَ الَّذي أنزَلَه اللهُ، فأبغَضُوه ولم يَقبَلوه ولم يَتَّبِعوه؛ فأبطَلَ اللهُ أعمالَهم، فلا يَنتَفِعونَ منها في الدُّنيا، ولا في الآخِرةِ[2]!

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان لا يَستَهينُ بهذه القَضايا، ويَجترِئُ مِثلَ هذه البَلايا إلَّا مَن أمِنَ العُقوبةَ، ولا يأمَنُ العُقوبةَ إلَّا مَن أعرَضَ عنِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وكان يَكْفي في الصَّدِّ عنِ الأمْرَيْنِ وقائِعُه تعالى بالأُمَمِ الخاليَةِ مِن أجْلِ تَكْذيبِ رُسُلِه، ومُناصَبةِ أولِيائِه، والاعتِداءِ على حُدودِه؛ قال تعالى[3]:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

= كثير)) (٧/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٦، ٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١١).

أي: أفلم يُسافِرِ المُشرِكونَ في الأرضِ فيَنظُروا كيف كانت نهايةُ الكُفَّارِ الَّذين مِن قَبْلِهم بسَبَبِ كُفرِهم[(١)]؟

﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾.

أي: أهلَكَ اللهُ مَنازِلَهم وأموالَهم، وأبادَهم واستأصَلَهم[(٢)].

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾.

أي: ولِغَيرِهم مِنَ الكُفَّارِ أمثالُ تلك العاقِبةِ مِن الهلاكِ والدَّمارِ إن لم يُؤمِنوا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٧، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٢، ٢١٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: كفَّارُ مكَّةَ: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والقرطبي، وابنُ جُزَي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

ومِن المفسِّرين مَن قال: المرادُ: كفَّارُ هذه الأمَّةِ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والرَّسْعَني، والنسفي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٤).

وقال ابن أبي زَمَنين: (﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ يعني: عاقِبةَ الَّذين تقومُ عليهم السَّاعةُ؛ كفَّارِ آخِرِ هذه الأمَّةِ: يهْلِكُونَ بالنَّفخةِ الأولى). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٣٨).

ويحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ: لهم أمثالُها في الآخرةِ، كأنَّه يقولُ: دَمَّرَ اللَّهُ عليهم في الدُّنيا، ولهم في الآخرةِ أمثالُها. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٣). =

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٨].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾.

= وقال السعديُّ: (وللكافِرين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ أمثالُ هذه العواقِبِ الوَخيمةِ، والعُقوباتِ الذَّميمةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

وفي قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ قال أبو حيَّان: (أي: أمثالُ تلك العاقِبةِ والتَّدميرةِ الَّتي يدُلُّ عليها ﴿دَمَّرَ﴾، أو: الهَلَكةِ؛ لأنَّ التَّدميرَ يدُلُّ عليها، أو السُّنَّة، لقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ [الأحزاب: ٣٨، ٦٢]. والوجهُ الأوَّلُ هو الرَّاجِحُ؛ لأنَّ العاقبةَ مَنطوقٌ بها، فعاد الضَّميرُ على المَلْفوظِ به، وما بَعْدَه مَقولُ القَولِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: أمثالُ تلك العاقِبةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

قال الشوكاني: (وإنَّما جُمِعَ [أي: لفظُ ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾]؛ لأنَّ العواقِبَ مُتَعدِّدةٌ بِحَسَبِ تَعَدُّدِ الأُمَمِ المُعذَّبةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩).

وقال القرطبي: (﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ أي: أمثالُ هذه الفَعلةِ، يعني: التَّدميرَ). يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤).

وقال النسفي: (﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ أمثالُ تلك الهَلَكةِ؛ لأنَّ التَّدميرَ يدُلُّ عليها). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٤).

وقال مُقاتِلٌ والسَّمَرْقَنْديُّ: ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ أي: مِن العذابِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩).

وقال الشنقيطي: (قاسَ الموجودينَ في زمَنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم على الأُمَمِ الماضيةِ، وقال لهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، ثم بيَّن إلحاقَ النَّظيرِ بالنَّظيرِ فقال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾، فكأنَّ المَوجودينَ في زمنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فرعٌ، والكفَّارُ المتقدِّمون أصلٌ، والحُكمُ الَّذي عمَّهم المُهدَّدُ به: العذابُ والهلاكُ، والعِلَّةُ الجامعةُ: تكذيبُ الرُّسلِ، والتَّمرُّدُ على ربِّ العالَمينَ. وأمثالُ هذا في القرآنِ كثيرةٌ). ((العذب النمير)) (٣/ ١٤٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه يُعْلي أولياءَه، ويُذِلُّ أعداءَه؛ بيَّنَ عِلَّتَه، فقال[1]:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: ذلك النَّصرُ للمُؤمِنينَ والإهلاكُ للكافِرينَ بسَبَبِ أنَّ اللهَ يَتولَّى الَّذين آمَنوا فيَنصُرُهم[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ...﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ * سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠، ١٥١].

﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٣).

ممَّن اختار أنَّ اسمَ الإشارةِ يعودُ إلى الفِعلِ الَّذي فعَله اللهُ تعالى من نصْرِ المؤمنينَ وإهلاكِ الكافرين: ابنُ جرير، والواحديُّ، والرَّسْعَني، والبِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٣).

وقيل: اسمُ الإشارةِ يعودُ إلى ما ذُكِر مِن أنَّ للكافرين أمثالَها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: أبو السعود، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

قال ابن عاشور: (اسمُ الإشارةِ مُنصَرِفٌ إلى مَضمونِ قَولِه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، بتأويلِ: ذلك المذكورُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

أي: وبسَبَبِ أنَّ الكافِرينَ لا وَلِيَّ لهم يَتولَّاهم فيَنصُرهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٦].

وعن البراءِ رَضِيَ اللهُ عنه في حديثِ غَزوةِ أُحُدٍ: ((... قال أبو سُفْيانَ: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: أجيبُوه. قالوا: ما نقولُ؟ قال: قولوا: اللهُ مَوْلانا ولا مَوْلَى لكم))[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ هذا أمرٌ منه تعالى للمُؤمِنينَ أن يَنصُروا اللهَ بالقيامِ بدينِه، والدَّعوةِ إليه، وجِهادِ أعدائِه -على قولٍ في التَّفسيرِ-، والقَصدِ بذلك وَجْهَ اللهِ؛ فإنَّهم إذا فعَلوا ذلك نصَرَهم اللهُ وثَبَّت أقدامَهم، فهذا وعدٌ مِن كريمٍ صادقِ الوَعدِ أنَّ الَّذي يَنصُرُه بالأقوالِ والأفعالِ سيَنصُرُه مَولاه، ويُيَسِّرُ له أسبابَ النَّصرِ مِن الثَّباتِ وغَيرِه[(٣)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ مَنِ استَشعَرَ التَّقوى في مَقاصِدِه، وأخلَصَ النِّيَّةَ لله في أعمالِه؛ لم يُسْلِمْه اللهُ إلى عَدُوِّه، ولم يُعْلِه عليه، وكان الظَّفَرُ له على مَن ناوَأَه[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٩).

(٢) رواه البخاري (٤٠٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٥٠).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ فيه وَعيدٌ للأُمَّةِ بأنَّها إن تخلَّت عن نَصرِ اللهِ، والجهادِ في سَبيلِه، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ؛ وكَلَها سُبحانَه إلى نَفْسِها، وتخلَّى عن نَصرِها، وسلَّط عليها عَدُوَّها، ولقد وُجِدَ بعضُ ذلك مِن تسَلُّطِ الفَسَقةِ لَمَّا وُجِدَ التَّهاوُنُ في بعضِ ذلك، والتَّواكُلُ فيه[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ فيه أنَّ الَّذين يَرتَكِبونَ جميعَ المعاصي ممَّن يتَسَمَّونَ باسمِ المُسلِمينَ، ثمَّ يقولونَ: إنَّ اللهَ سيَنصُرُنا- مَغرورونَ؛ لأنَّهم لَيسُوا من حِزبِ اللهِ المَوعودينَ بنَصرِه[٢]!

٥- قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ فيه الحَثُّ على السَّيرِ في الأرضِ، والنَّظَرِ في أحوالِ الأممِ السَّابقةِ والاعتبارِ؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ اللهَ وَبَّخَهم على عدَمِ السَّيرِ والنَّظَرِ والاعتبارِ[٣].

٦- قيلَ في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: يَصِحُّ أن يُقالَ: إنَّ هذه أرْجى آيةٍ في القُرآنِ الكريمِ؛ ذلك بأنَّه سُبحانَه يقولُ: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولم يَقُلْ: مَوْلى الزُّهَّادِ والعُبَّادِ وأصْحابِ الأوْرادِ والاجتِهادِ؛ فالمُؤمِنُ -وإنْ كان عاصِيًا- مِن جُملةِ الَّذين آمَنوا[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ أنَّ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٤٥، ٥٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٠٦).

العَهدَ الموَثَّقَ بيْنَ اللهِ وبيْنَ عِبادِه بالنَّصرِ هو أنْ يكونَ النَّصرُ مُتبادَلًا(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ(٢).

٣- تَركُ امتِثالِ الطَّاعةِ إنْ كان سَبَبُه كراهةَ ما جاء به الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فهذا كفرٌ مُخرِجٌ عن المِلَّةِ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، وإنْ كان تكاسُلًا وكراهةً لهذا العَمَلِ نَفْسِه، لا لأنَّ الرَّسولَ جاء به؛ فهذا لا يُخرِجُ مِن الملَّةِ، وهذه مَسألةٌ يجِبُ التَّفطُّنُ لها(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ ثبوتُ الأسبابِ(٤).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ أنَّ سُنَّةَ اللهِ في الخَلقِ واحِدةٌ؛ فالَّذي أهلكَ الأممَ السَّابقةَ بذُنوبِهم يُهلِكُ بعضَ هذه الأُمَّةِ أيضًا بذُنوبِهم(٥).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ إنذارُ المكذِّبينَ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ اللهَ ذَكَر كيف كان عاقِبةُ الَّذين مِن قَبْلِهم، وكان عاقِبتَهم الدَّمارُ والهلاكُ. والمعنى: لا تَظُنُّوا أنَّ الدَّمارَ الَّذي لَحِقَ المكذِّبينَ السَّابِقينَ أنَّه خاصٌّ بهم، بل إذا كَذَّبتُم أصابَكم ما أصابَهم(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب الحنبلي (١/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦٠٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٦).

٧- أخبَرَ اللهُ تعالى في كتابِه أنَّه وليُّ المُؤمِنينَ، وأنَّه يَتولَّى الصَّالِحينَ، وذلك يَتضَمَّنُ أنَّه يَتولَّى مَصالِحَهم في الدُّنيا والآخِرةِ، ولا يَكِلُهم إلى غَيرِه، ومِن ذلك قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، وقولُه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1] [البقرة: ٢٥٧].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ فيه سُؤالٌ: كيفَ الجَمعُ بيْنَ قَولِه تعالى: ﴿لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، وبينَ قَولِه: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾[يونس: ٣٠]؟

الجوابُ: أنَّ (المولى) ورد بمعنى: السَّيِّدِ والرَّبِّ والنَّاصِرِ؛ فحيث قال: ﴿لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ أراد: لا ناصِرَ لهم، وحيثُ قال: ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: ربُّهم ومالِكُهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، وقال: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦][2]. فالمرادُ بالمَولَى في هذا الموضعِ مِن سورةِ (محمَّدٍ): الوليُّ والنَّاصِرُ، والمعنى: أنَّ اللهَ يَنصُرُ الَّذين يَنصُرون دِينَه، وهمُ الَّذين آمَنوا، ولا يَنصُرُ الَّذين كَفَروا به فأشْرَكوا معه في إلهيَّتِه، وإذا كان لا يَنصُرُهم فلا يَجِدون نَصيرًا؛ لأنَّه لا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يَنصُرَهم على اللهِ؛ فنفْيُ جِنسِ المَولى لهم بهذا المعنَى مِن مَعاني المَولى؛ فقولُه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ أفادَ شَيئينِ: أنَّ اللهَ لا يَنصُرُهم، وأنَّه إذا لم يَنصُرْهم فلا ناصِرَ لهم. وأمَّا إثْباتُ المَولى لِلمُشرِكين في قَولِه تَعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠]، فذلك المَولى بمَعنًى آخَرَ، وهو معنَى: المالِكِ والرَّبِّ؛ فلا تَعارُضَ بيْنَهما[3].

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٩).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾

- افتُتِحَ التَّرغيبُ بنِدائِهم بصِلةِ الإيمانِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ اهتِمامًا بالكلامِ، وإيماءً إلى أنَّ الإيمان يَقْتضي منْهم ذلك، والمَقصودُ تَحْريضُهم على الجِهادِ في المُستقبَلِ بعْدَ أنِ اجْتَنَوا فائدتَه مُشاهَدةً يومَ بَدْرٍ[١].

- وفي قَولِه: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ جِيءَ في الشَّرْطِ بحَرْفِ (إنْ) الَّذي الأصلُ فيه عَدَمُ الجَزْمِ بوُقوعِ الشَّرطِ؛ للإشارةِ إلى مَشقَّةِ الشَّرْطِ وشِدَّتِه؛ لِيُجعَلَ المَطلوبُ به كالَّذي يُشَكُّ في وَفائِه به[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ هذا مُقابِلُ قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٤]؛ فإنَّ المُقاتِلينَ في سَبيلِ اللهِ همُ المُؤمِنون، فهذا عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: ٤] الآيةَ[٣].

- والتَّعْسُ: الشَّقاءُ، ومِن بَدائعِ القُرآنِ وُقوعُ ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ في جانِبِ الكُفَّارِ في مُقابَلةِ قَولِه للمُؤمنينَ: ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧][٤]. وانتصَبَ ﴿فَتَعۡسٗا﴾ على المَفعولِ المُطلَقِ بَدَلًا مِن فِعلِه، والتَّقديرُ: فتَعِسوا تَعْسَهم، وهو مِن إضافةِ المَصدرِ إلى فاعِلِه، وقُصِدَ مِن الإضافةِ اختِصاصُ التَّعْسِ بهم. ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿فَتَعۡسٗا﴾ لهم مُستعمَلًا في الدُّعاءِ عليهم؛ لِقَصْدِ التَّحقيرِ والتَّفظيعِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وذلك مِن استِعمالاتِ هذا المُركَّبِ، وحينَئذٍ يَتعيَّنُ في الآيةِ فِعلُ قَولٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: فقال اللهُ: تَعْسًا لهم، أو فيُقالُ: تَعْسًا لهم(١).

- قولُه: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ المُرادُ بأعمالِهم: الأعمالُ الَّتي يَرْجُون منها النَّفْعَ في الدُّنيا؛ لأنَّهم لمْ يَكونوا يَرْجُون نَفْعَها في الآخِرةِ؛ إذْ هم لا يُؤمِنون بالبَعثِ، وإنَّما كانوا يَرْجُون مِن الأعمالِ الصَّالحةِ رِضا اللهِ ورِضا الأصنامِ؛ لِيَعيشوا في سَعةِ رِزْقٍ، وسَلامةٍ، وعافيةٍ، وتَسلَمَ أولادُهم وأنْعامُهم؛ فالأعْمالُ المُحبَطةُ بَعضُ الأعمالِ المُضلَّلةِ، وإحْباطُها هو عَدَمُ تَحقُّقِ ما رَجَوه منْها؛ فهو أخَصُّ مِن إضْلالِ أعْمالِهم في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١] أوَّلَ السُّورةِ. والمَقصودُ مِن ذِكرِ هذا الخاصِّ بعْدَ العامِّ التَّنبيهُ على أنَّهم لم يَنتَفِعوا بها؛ لِئلَّا يَظُنَّ المُؤمِنون أنَّها قدْ تُخفِّفُ عنْهم مِن العَذابِ؛ فقدْ كانوا يَتساءَلون عن ذلك، والمَعنى: أنَّهم لو آمَنوا بما أنزَل اللهُ، لَانتَفَعوا بأعْمالِهم الصَّالحةِ في الآخِرةِ -وهي المَقصودُ الأهَمُّ- وفي الدُّنيا على الجُملةِ. وقد حصَلَ مِن ذِكرِ هذا الخاصِّ بعْدَ العامِّ تأْكيدُ الخبرِ المَذكورِ(٢).

- والإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ لِتَمْييزِ المُشارِ إليه أكمَلَ تَمْييزٍ؛ تَنْويهًا به(٣).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: كَرِهوا القُرآنَ؛ لِمَا فيه مِن التَّوحيدِ والتَّكاليفِ المُخالِفةِ لِما ألِفُوه واشْتَهَتْه أنفُسُهم، وهو تَخصيصٌ وتَصريحٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧٦، ٨٦).

بسَببيَّةِ الكُفْرِ بالقُرآنِ لِلتَّعْسِ والإضلالِ(١).

- وذكَرَ الإحباطَ معَ ذِكرِ الإضلالِ المرادِ هو منه، فقال: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ إشْعارًا بأنَّه يَلزَمُ الكُفرَ بالقُرآنِ، ولا يَنفَكُّ عنه بحالٍ(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٨] الآيةَ(٣).

- والاسْتِفهامُ في قَولِه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تَقريريٌّ، والمعنى: أليس تَعْسُ الَّذين كَفَروا مَشهودًا عليه بآثارِه مِن سُوءِ عاقِبةِ أمْثالِهم الَّذين كانوا قبْلَهم يَدِينونَ بمِثلِ دِينِهم(٤)؟

- وجُملةُ ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ، وهذا تَعريضٌ بالتَّهديدِ(٥).

- وفِعلُ ﴿دَمَّرَ﴾ مُتعَدٍّ إلى المُدمَّرِ بنَفْسِه، يُقالُ: دمَّرَهم اللهُ، وإنَّما عُدِّيَ في الآيةِ بحَرْفِ الاستِعلاءِ؛ لِلْمبالَغةِ في قُوَّةِ التَّدميرِ، فحُذِفَ مَفعولُ ﴿دَمَّرَ﴾ لِقَصْدِ العُمومِ، ثمَّ جُعِلَ التَّدميرُ واقعًا عليهم، فأفادَ مَعنى: دمَّرَ كلَّ ما يَختَصُّ بهم، وهو المَفعولُ المَحذوفُ، وأنَّ التَّدميرَ واقعٌ عليهم؛ فهُمْ مِن مَشمولِه(٦).

- وجُملةُ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [محمد: ١١]، والمُرادُ بالكافرينَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٨).

كُفَّارُ مكَّةَ، والمعنى: ولِكُفَّارِكم أمثالُ عاقِبةِ الَّذين مِن قبْلِهم مِن الدَّمارِ، وهذا تَصريحٌ بما وقَعَ به التَّعريضُ في قَولِه: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لِلتَّأْكيدِ بالتَّعميمِ ثمَّ الخُصوصِ[١].

- وعلى أنَّ المُرادَ بالكافرينَ المُتقدِّمونَ؛ فيكونُ قولُه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ بطَريقِ وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوضِعَ المُضمَرِ، كأنَّه قِيلَ: دمَّرَ اللهُ عليهم في الدُّنيا، ولهُمْ في الآخِرةِ أمْثالُها، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ[٢]. أو يَكونُ عَدَلَ عن أنْ يقولَ: (ولهؤلاء)، إلى قَولِه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ تَعميمًا، وتَعليقًا للحُكمِ بالوَصفِ، وهو: العَراقةُ في الكُفرِ؛ فكان فيه بِشارةٌ بأنَّ بَعضَهم سيُنْجيهِ اللهُ تعالى مِن أسْبابِ الهَلاكِ؛ لكَونِه ليس عَريقًا في الكُفرِ؛ لأنَّه لم يُطبَعْ عليه[٣].

- وقولُه: ﴿أَمۡثَٰلُهَا﴾ أي: أمْثالُ عَواقبِهم أو عُقوباتِهم، لكنْ لا على أنَّ لهؤلاءِ أمْثالَ ما لأولئك وأضْعافَه، بلْ مِثْلَه، وإنَّما جُمِعَ باعْتِبارِ مُماثَلته لِعَواقِبَ مُتعدِّدةٍ حَسَبَ تَعدُّدِ الأُمَمِ المُعذَّبةِ[٤]. فاللهُ تعالى اسْتأصَلَ الكافرينَ مَرَّاتٍ حتَّى استَقرَّ الإسلامُ؛ فاسْتأْصَلَ صَناديدَهم يَومَ بَدْرٍ بالسَّيفِ، ويومَ حُنَينٍ بالسَّيفِ أيضًا، وسلَّطَ عليهم الرِّيحَ يومَ الخَنْدقِ فهَزَمَهم، وسلَّطَ عليهم الرُّعبَ والمَذلَّةَ يومَ فتْحِ مكَّةَ، وكُلُّ ذلك مُماثِلٌ لِما سَلَّطه على الأُمَمِ في الغايةِ منه، وهو نَصرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ودينِه، وقد جعَلَ اللهُ ما نصَرَ به رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أعلى قيمةً؛ بكَونِه بيَدِه وأيْدي المؤمِنينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٢، ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٤).

مُباشَرةً بسُيوفِهم، وذلك أنْكى للعَدُوِّ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه الإتيانُ باسم الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لِتَمْييزِ المُشارِ إليه أكمَلَ تَمْييزٍ؛ تَنْويهًا به[٢]. واسمُ الإشارةِ هذا مُنصَرِفٌ إلى مَضمونِ قَولِه: ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، بتَأْويلِ: ذلك المذكورُ -على قولٍ-؛ لأنَّه يَتضمَّنُ وَعيدًا لِلمُشرِكين بالتَّدميرِ، وفي تَدْميرِهم انتِصارٌ لِلمُؤمِنينَ على ما لَقُوا منهم مِن الأضرارِ؛ فأُفِيدَ أنَّ ما تَوعَّدَهم اللهُ به مُسبَّبٌ على أنَّ اللهَ نَصيرُ الَّذين آمَنوا، وهو المَقصودُ مِن التَّعليلِ، وما بعْدَه تَتْميمٌ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧٦، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٨).

والتَّتميمُ: هو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِح مِن الكلامِ نقَص معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) للعصام (٢/ ٩٤)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ١٩٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٤٤)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٨).

الآيات (١٢-١٥)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَثۡوٗى﴾: أي: مَنزِلٌ ومقامٌ ومَأوًى، وأصلُ (ثوي): يدُلُّ على الإقامةِ مع الاستِقرارِ[١].

﴿بَيِّنَةٖ﴾: أي: بُرهانٍ وحُجَّةٍ وبَيانٍ، والبَيِّنةُ: الدَّلالةُ الواضحةُ، عقليَّةً كانت أو محسوسةً، وأصلُ (بين): انكِشافُ الشَّيءِ، يُقالُ: بانَ الشَّيءُ وأبانَ، إذا اتَّضَح وانكشَف[٢].

﴿أَهۡوَآءَهُم﴾: الأهواءُ: المذاهِبُ الَّتي تدعو إليها الشَّهوةُ دونَ الحُجَّةِ، وأصلُه: يدُلُّ على الخُلُوِّ والسُّقُوطِ، وسُمِّيَ الهوى هَوًى؛ لأنَّه يَهوِي بصاحِبِه في النَّارِ[٣].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٥/ ٣٤٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٧/ ٤٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: صِفَتُها أو شَبَهُها، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[1].

﴿ءَاسِنٍ﴾: أي: مُنتِنٍ، مُتغَيِّرِ اللَّونِ والرِّيحِ والطَّعمِ، وأصلُ (أسن): يدُلُّ على تغَيُّرِ الشَّيءِ[2].

﴿حَمِيمًا﴾: أي: شَديدَ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم) هنا: الحَرارةُ[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾

﴿مَّثَلُ﴾ مبتدأٌ. والخبَرُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: فيما يُتلى عليكم مَثَلُ الجنَّةِ، أو: مَثَلُ الجنَّةِ ما تسمَعونَ، وجملةُ ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ مُفَسِّرةٌ لذلك المَثَلِ، فلا محلَّ لها مِن الإعرابِ، أو مُستأنَفةٌ شارِحةٌ لِمعنى المَثَلِ. وقيلَ: الخبَرُ مَذكورٌ، وهو جُملةُ ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾، فهي خبَرٌ عن ﴿مَّثَلُ﴾، وتقديرُه: أَمَثَلُ الجنَّةِ كمَثَلِ جَزاءِ مَن هو خالِدٌ في النَّارِ؟! فحذَف المُضافَينِ: (الجزاءَ)؛ بقَرينةِ مُقابَلةِ الجنَّةِ، و(مَثَل)

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٥). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٦٤-٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٤)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

بقرينةِ تقَدُّمِه. أو التَّقديرُ: أَمَثَلُ أهلِ الجنَّةِ كمَن هو خالِدٌ في النَّارِ؟! فحذَفَ هَمزةَ الإنكارِ، وقدَّر مُضافًا محذوفًا، وهو «أهْل»، فصار تقديرُ الكلامِ كأنَّه قال: أَمَثَلُ أهلِ الجنَّةِ، وهي بهذه الأوصافِ ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾؛ وعليه فجُملةُ ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ حالٌ مِنَ الجنَّةِ.

قَولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ﴾

(لَهُمْ): شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، خَبَرٌ مُقَدَّمٌ. والمبتدَأُ المُؤخَّرُ مَحذوفٌ تَقديرُه: «زَوجانِ»، أو «أنواعٌ»، أو «صِنفٌ». و﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾: شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، نَعتٌ لهذا المبتدأِ المحذوفِ، والتَّقديرُ: لهم فيها زَوجانِ، أو: أنواعٌ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ. وقيل: ﴿مِن﴾ زائِدةٌ على مَذهَبِ الأخفَشِ، و﴿كُلِّ﴾ مُبتدَأٌ مَجرورٌ لَفظًا، مَرفوعٌ مَحلًّا بضمَّةٍ مُقَدَّرةٍ مَنَع مِن ظُهورِها اشتِغالُ المحَلِّ بحَركةِ حَرفِ الجرِّ الزَّائِدِ، والتَّقديرُ: ولهم فيها كُلُّ الثَّمراتِ. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: الواوُ: حَرفُ عَطفٍ. (مَغْفِرَةٌ) مَعطوفٌ على المُبتدَأِ المحذوفِ في الجُملةِ السَّابِقةِ، أي: لهم فيها زَوجانِ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ ومَغفِرةٌ. أو (مَغْفِرَةٌ) مُبتدَأٌ خبَرُه محذوفٌ، تقديرُه: ولهم مَغفِرةٌ. والجُملةُ عَطفٌ على الجُملةِ السَّابِقةِ، أو استِئنافيَّةٌ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ.

قَولُه تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ تقدَّم في إعرابِ «مَثَلُ الْجَنَّةِ» أنَّه يجوزُ أن يكونَ خبَرُه ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ بالتَّأويلَينِ المذكورَينِ. ويجوزُ أيضًا أن يكونَ ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ كلامًا مُستأنَفًا، و﴿كَمَنْ﴾ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، خبَرٌ لمُبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: أحالُ هؤلاء المتَّقينَ كحالِ مَن هو خالِدٌ في النَّارِ؟! أو: أَمَنْ هو خالِدٌ في هذه الجنَّةِ -حسَبَما جرَى به الوَعدُ- كَمَن هو خالِدٌ في النَّارِ؟! أو هو كَلامٌ مُستأنَفٌ مُقَدَّرٌ فيه استِفهامٌ إنكاريٌّ، والتَّقديرُ: أكَمَنْ هو خالِدٌ في النَّارِ؟!

قَولُه تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا﴾ الواوُ: حرفُ عَطفٍ. سُقُوا: فِعلٌ ماضٍ مَبنيٌّ للمَفعولِ. وواوُ الجماعةِ: ضميرٌ مَبنيٌّ في محَلِّ رَفعٍ نائِبٌ عن الفاعِلِ. ماءً: مَفعولٌ به ثانٍ مَنصوبٌ. ﴿حَمِيمًا﴾: نعتٌ لـ «مَاءً» مَنصوبٌ. والجملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ الصِّلةِ ﴿هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾، مِن قَبيلِ عَطفِ الفِعليَّةِ على الاسميَّةِ. وراعَى لَفظَ «مَنْ» في الأوَّلِ ﴿هُوَ خَٰلِدٌ﴾ فأفرَدَه، وراعَى مَعنى «مَنْ» في الثَّاني ﴿وَسُقُواْ﴾ فجَمَعَه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله سبحانَه ما أعدَّه للمؤمنينَ مِن نعيمٍ، وما أعدَّه للكافِرينَ مِن عذابٍ أليمٍ، فيقولُ: إنَّ اللهَ يُدخِلُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ جَنَّاتٍ تَجري مِن تحتِ أشجارِها الأنهارُ. والَّذين كَفَروا يَتمتَّعونَ بشَهَواتِ الدُّنيا ولَذَّاتِها، ويأكُلونَ فيها كما تأكُلُ الأنعامُ، والنَّارُ مَأوًى لهم، يَصيرونَ إليها.

ثمَّ يُسلِّي اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابَه مِن أذًى، فيقولُ: وكثيرٌ مِن القُرَى كان أهلُها -يا مُحمَّدُ- أشَدَّ قُوَّةً مِن أهلِ مكَّةَ الَّذين أخرَجوك منها: أهلَكَهم اللهُ وأبادَهم، فلا ناصِرَ لهم يَنصُرُهم مِن عذابَ اللهِ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى الفرْقَ بيْنَ حالِ المؤمنينَ وحالِ الكافِرينَ، فيقولُ: أفمَن كان على بَصيرةٍ بالحَقِّ مِن رَبِّه كمَن حسَّنَ له الشَّيطانُ قَبيحَ عمَلِه، فاتَّبَعَ ما دعَتْه إليه نَفْسُه مِن الضَّلالاتِ بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ؟!

ثمَّ يخبرُ اللهُ تعالى عن مصيرِ كلٍّ مِن المؤمنينَ والكافرينَ، فيقولُ: صِفةُ الجنَّةِ الَّتي وَعَد اللهُ بها المتَّقينَ أنَّ فيها أنهارًا مِن ماءٍ عَذبٍ غيرِ مُتغيِّرِ الرِّيحِ أو الطَّعمِ

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦٠)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٤).

أو اللَّونِ، وأنهارًا مِن لَبَنٍ لم يَتغَيَّرْ طَعمُه، وأنهارًا مِن خَمرٍ طَيِّبةٍ لَذَّةٍ للشَّارِبينَ، وأنهارًا مِن عَسَلٍ مُصفًّى خالٍ مِن كلِّ الشَّوائِبِ، وللمُتَّقينَ في الجنَّةِ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ، ومَغفِرةٌ مِن اللهِ لِذُنوبِهم. أفمَنْ كان في الجنَّةِ الَّتي ذلك وَصفُها كمَن هو ماكِثٌ في النَّارِ أبدًا، وسُقِيَ فيها ماءً شَديدَ الحَرارةِ فقَطَّعَ أمعاءَه؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المُؤمِنينَ والكافِرينَ في الدُّنيا؛ بيَّنَ حالَهم في الآخِرةِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى أنَّه وَليُّ المُؤمِنينَ؛ ذَكَرَ ما يَفعَلُ بهم في الآخِرةِ. ولَمَّا ذَكَرَ أنَّ الكافِرينَ لا مَوْلَى لهم؛ ذَكَرَ أنَّهم وُكِلوا إلى أنفُسِهم؛ فلم يَتَّصِفوا بصِفاتِ المُروءةِ، ولا الصِّفاتِ الإنسانيَّةِ، بل نَزَلوا عنها دَرَكاتٍ، وصاروا كالأنْعامِ الَّتي لا عَقْلَ لها ولا فَضْلَ، بل جُلُّ هَمِّهم ومَقصِدِهمُ التَّمَتُّعُ بلَذَّاتِ الدُّنيا وشَهَواتِها[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُدخِلُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ جَنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تحتِ أشجارِها[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦). =

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ يَتمتَّعونَ في الدُّنيا بشَهَواتِها ومَلَذَّاتِها، ويأكُلونَ فيها كما تأكُلُ الأنعامُ الَّتي لا هَمَّ لها سِوى ذلك(١).

= قال الرازي: (﴿مِن﴾ في قَولِه: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ صِلةً معناه: تجري تحتَها الأنهارُ، ويحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ: أنَّ ماءَها منها، لا يجري إليها مِن مَوضِعٍ آخَرَ فيُقالُ: هذا النَّهرُ مَنبَعُه مِن أينَ؟ يُقالُ: مِن عَينِ كذا، مِن تحتِ جبَلِ كذا). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٤).
وقال الشوكاني: (إنْ أُريدَ بها [أي: بالجنَّاتِ] الأشجارُ المتكاثِفةُ السَّاترةُ لِما تحتَها، فجَرَيانُ الأنهارِ مِن تحتِها ظاهِرٌ، وإنْ أُريدَ بها الأرضُ فلا بدَّ مِن تقديرِ مُضافٍ، أي: مِن تحتِ أشجارِها). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).
وعباراتُ المفسِّرينَ في معنى تَشبيهِهم بالأنعامِ هنا مُتقارِبةٌ؛ فقيل: معنى تَشبيهِهم بالأنعامِ هنا: أنَّه ليس لهم هِمَّةٌ سِوى الأكلِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١).
وقيل: المعنى: ليس لهم هِمَّةٌ إلَّا بُطونهم وفُروجهم، وهم لاهُون ساهُون عمَّا في غَدِهم. وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩).
قال ابن الجوزي: (إنَّ الأنعامَ تأكُلُ وتَشرَبُ، ولا تَدري ما في غَدٍ، فكذلك الكفَّارُ لا يَلتَفِتونَ إلى الآخرةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧).
وقيل: المعنى: أنَّهم لا يَخافونَ عِقابًا، ولا يرجُونَ ثوابًا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٢).
وقيل: المعنى: غافِلينَ عن العاقِبةِ، غيرَ مُفكِّرينَ فيها. وممَّن اختاره: الزمخشري، والبيضاوي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٠٢).
قال الزَّمخشري: (﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ يَنتَفِعونَ بمَتاعِ الحياةِ الدُّنيا أيامًا قلائِلَ ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ غافِلينَ غيرَ مُفكِّرينَ في العاقِبةِ ﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ في مَسارِحِها ومَعالِفِها غافِلةً عمَّا هي بصَدَدِه مِنَ =

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((المؤمِنُ يأكُلُ في مِعًى واحدٍ، والكافِرُ يأكُلُ في سَبعةِ أمعاءٍ))(١).

﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾.

أي: وستَكونُ النَّارُ مَسكنًا لهم يَصيرونَ إليه، ويَستَقِرُّونَ فيه؛ فتُنسِيهم كُلَّ نعيمٍ كانوا فيه(٢)!

كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ * مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ضربَ اللهُ تعالى مَثَلًا للكافِرينَ بقَولِه: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [محمد: ١٠]، ولم يَنفَعْهم مع ما تقَدَّمَ مِنَ الدَّلائلِ؛ ضَرَب للنَّبيِّ عليه السَّلامُ مَثلًا تَسليةً له، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾، وكانوا أشَدَّ مِن أهلِ مكَّةَ، كذلك نَفعَلُ بهم؛ فاصبِرْ كما صبَرَ رُسُلُهم(٣).

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾.

= النَّحرِ والذَّبحِ!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٠).

وقال البِقاعي: (﴿كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ أكْلَ الْتِذاذٍ ومَرَحٍ، من أيِّ مَوضعٍ كان، وكيف كان الأكلُ؛ في سبعةِ أمعاءٍ، أي: في جميعِ بُطونِهم مِن غيرِ تمييزٍ للحَرامِ مِن غَيرِه). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢١٥).

(١) رواه البخاري (٥٣٩٣) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٠٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٥).

أي: وما أكثَرَ القُرى الَّتي كان أهلُها -يا مُحمَّدُ- أكثَرَ قُوَّةً وعَدَدًا ومالًا مِن أهلِ مكَّةَ الَّذين أخرَجوك منها؛ فأهلَكَهم اللهُ بالعَذابِ، وأبادَهم حينَ كذَّبوا رُسُلَهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال الله تبارَكَ وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَدِيٍّ ابنِ حَمْراءَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((رأيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم واقِفًا على الحَزْوَرةِ[٢]، فقال: واللهِ إنَّك لَخَيْرُ أرضِ اللهِ، وأحَبُّ أرضِ اللهِ إلى اللهِ، ولولا أنِّي أُخرِجْتُ مِنكِ ما خرَجْتُ))[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١، ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

قال ابنُ عطيَّةَ: (يقالُ: إنَّ هذه الآيةَ نَزَلت إثرَ خُروجِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن مكَّةَ في طَريقِ المدينةِ. وقيل: نزلَت بالمدينةِ. وقيل: نزلَت بمكَّةَ عامَ دخلَها رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَ الحُدَيْبيَةِ. وقيل: نزَلَت عامَ الفتحِ وهو مُقبِلٌ إليها. وهذا كُلُّه حُكمُه حُكمُ المَدَنيِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٣).

(٢) الحَزْوَرة: موضعٌ بمكةَ. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطيبي (٦/ ٢٠٤٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ١٨٦٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٩٢٥) واللَّفظُ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣١٠٨)، وأحمد (١٨٧١٥).

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ صحيحٌ). وصحَّحه ابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (٢/ ٤٥١)، وابنُ حزم في ((المحلى)) (٧/ ٢٨٩)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٣/ ٨١)، وابن باز في ((الفوائد العلمية من الدروس البازية)) (٥/ ١٢٣)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٩٢٥).

﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

أي: فلم يكُنْ لهم ناصِرٌ يَنصُرُهم، فيَمنَعَ عنهم عذابَ اللهِ حينَ أهلَكَهم اللهُ[١].

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم (١٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ دليلًا شُهوديًّا بعدَ الأدِلَّةِ العَقليَّةِ على ما تقدَّمَ الوعدُ به - أنَّه ينصُرُ مَن ينصُرُه، ويخذُلُ مَن يعانِدُه-؛ سبَّبَ عنه الإنكارَ عليهم، فقال[٢]:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم (١٤)﴾.

أي: أفمَن كان على بصيرةٍ مِن رَبِّه وعِلمٍ ومَعرفةٍ بالحَقِّ، فهو يُؤمِنُ به ويَتَّبِعُه، ويَعرِفُ سُوءَ عَمَلِه وهواه ويجتَنِبُه؛ كالَّذي حُسِّن له قبيحُ أعمالِه مِن شِركٍ أو معصيةٍ، فاتَّبعَ ما دعَتْه إليه نَفْسُه مِن الضَّلالاتِ بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ؟ لا يَستويانِ[٣]!

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٦، ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٦، ٢١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).
قال الزَّمخشري: («مَن زُيِّنَ له» هم أهلُ مكَّةَ الَّذين زيَّن لهم الشَّيطانُ شِرْكَهم وعداوتَهم لله ورَسولِه، و«مَن كان على بيِّنةٍ مِن رَبِّه» -أي: على حُجَّةٍ مِن عندِه وبُرهانٍ، وهو القُرآنُ المُعجِزُ، وسائرُ المُعجِزاتِ- هو رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٠).
وقال القُرطبي: (هذا التَّزيينُ مِن جهةِ اللهِ خَلْقًا، ويجوزُ أن يكونَ مِن الشَّيطانِ دُعاءً ووَسْوَسةً، ويجوزُ أن يكونَ مِن الكافِرِ، أي: زَيَّنَ لِنَفْسِه سُوءَ عَمَلِه، وأصَرَّ على الكُفرِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٦).

مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩].

﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى الفرقَ بيْنَ الفَريقَين في الاهتِداءِ والضَّلالِ؛ بيَّن الفرقَ بيْنَهما في مَرجِعِهما ومآلِهما، وكما قدَّمَ مَن على البَيِّنةِ في الذِّكرِ على مَنِ اتَّبعَ هواه؛ قدَّمَ حالَه في مآلِه على حالِ مَن هو بخِلافِ حالِه[(١)].

وأيضًا لَمَّا تكرَّر ذِكرُ الجنَّةِ والنَّارِ في هذه السُّورةِ، إلى أنْ خَتَمَ بهذه الآيةِ الَّتي قسَّمَ النَّاسَ فيها إلى أولياءَ مُهتَدينَ، وأعداءَ ضالِّينَ مُعتَدينَ، فهَدَى سِياقُها إلى أنَّ التَّقديرَ: أفمَن كان على بيِّنةٍ مِن ربِّه أحْياه الحياةَ الطَّيِّبةَ في الدَّارَينِ، ومَن تَبِعَ هَواه أرْداه فيهما؛ أتْبَعَه وَصْفَ الجنَّةِ الَّتي هي دارُ أوليائِه، قادَهم إليها الهُدى، والنَّارِ الَّتي هي دارُ أعدائِه، ساقَهم إليها الضَّلالُ المُحتِّمُ للرَّدى[(٢)].

﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾.

أي: صِفةُ الجنَّةِ الَّتي وَعَدَ اللهُ بها المتَّقينَ أنَّ فيها أنهارًا مِن ماءٍ عَذبٍ صافٍ، غيرِ مُتغيِّرِ الرِّيحِ أو الطَّعمِ أو اللَّونِ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

وعن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا عُرِجَ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى السَّماءِ قال: أتَيْتُ على نَهرٍ حافَتاهُ قِبابُ اللُّؤلُؤِ مُجَوَّفًا، فقلتُ: ما هذا يا جِبريلُ؟ قال: هذا الكَوثَرُ!))[١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَنْ آمَنَ باللهِ ورَسولِه، وأقام الصَّلاةَ، وصام رَمَضانَ؛ كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجَنَّةَ؛ هاجَرَ في سَبيلِ اللهِ، أو جَلَس في أرضِه الَّتي وُلِدَ فيها. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، أفلا نُنَبِّئُ النَّاسَ بذلك؟ قال: إنَّ في الجنَّةِ مِئةَ دَرَجةٍ أعدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سَبيلِه، كُلُّ دَرَجتَينِ ما بيْنَهما كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سألْتُمُ اللهَ فسَلُوه الفِرْدَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفوقَه عَرشُ الرَّحمنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّة!))[٢].

وعن مُعاويةَ بنِ حَيْدةَ القُشَيْريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ بَحرَ الماءِ، وبَحرَ العَسَلِ، وبَحرَ اللَّبَنِ، وبَحرَ الخَمرِ، ثمَّ تَشَقَّقُ الأنهارُ بَعْدُ))[٣].

= كثير)) (٧/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٨-٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

(١) رواه البخاري (٤٩٦٤).

(٢) رواه البخاري (٧٤٢٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٧١) واللَّفظُ له، وأحمد (٢٠٠٥٢).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٧٤٠٩)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٥٧١)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٣/ ٢٤٦).

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾.

أي: وفي الجنَّةِ أنهارٌ مِن لَبَنٍ لم يَتغَيَّرْ طَعمُه بحُموضةٍ أو غَيرِها[١].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

أي: وفيها أنهارٌ مِن خمرٍ طَيِّبةٍ يَلْتَذُّ بها الشَّارِبونَ، بلا صُداعٍ أو غيرِه مِن الآفاتِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

أي: وفيها أنهارٌ مِن عَسَلٍ خَلَقَه اللهُ في غايةِ الصَّفاءِ، خاليًا مِن سائِرِ الشَّوائِبِ والأوساخِ[٣].

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

أي: وللمُتَّقينَ في الجنَّةِ ثَمَراتٌ مِن جَميعِ الأنواعِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧).

﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾.

أي: ولأهلِ الجنَّةِ مع ذلك النَّعيمِ العَظيمِ مَغفِرةٌ مِن اللهِ لِذُنوبِهم؛ فيَتجاوَزُ عنها، ولا يُعاقِبُهم عليها، ويَستُرُها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُدْني المُؤمِنَ فيَضَعُ عليه كَنَفَه[2] ويَستُرُه، فيقولُ: أتَعرِفُ ذَنْبَ كذا؟ أتعرِفُ ذنْبَ كذا؟ فيَقولُ: نعَمْ، أيْ رَبِّ. حتَّى إذا قرَّرَه بذُنوبِه، ورأى في نَفْسِه أنَّه هَلَك، قال: ستَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليَومَ! فيُعطَى كِتابَ حَسَناتِه))[3].

﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾.

أي: فهل يَكونُ مَنْ في الجنَّةِ -الَّتي تلك صِفَتُها- كمَن هو ماكِثٌ في النَّارِ أبدًا، وسُقِيَ فيها ماءً قد بَلَغ الغايةَ في شِدَّةِ حَرارتِه، فقَطَّع ما في بَطنِه مِن أمعاءٍ[4]؟!

كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧).

(٢) كَنَفَه: أي: حِفْظَه وسِترَه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٤/ ٢٥٤).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٤٤١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠١)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٦٨٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

قال القرطبيُّ: (الأمعاءُ: جمعُ مِعًى... وهو جميعُ ما في البَطنِ مِن الحوايا). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٧).

ﱡﭐ ٱلۡحَمِيمُ ۞ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﱠ [الحج: ١٩، ٢٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والعملُ الصَّالحُ مبنيٌّ على الإيمانِ، فعمَلٌ بلا إيمانٍ لا فائدةَ منه، فالمنافقون يَعمَلونَ، ويَذكُرونَ اللهَ، ويُصَلُّون، ويَتصدَّقونَ، ولكن ليس عندَهم إيمانٌ؛ فلا يَنفعُهم؛ ولهذا يُقدِّمُ اللهُ عزَّ وجلَّ الإيمانَ على العملِ الصَّالحِ[1].

٢- العملُ لا ينفعُ صاحبَه إلَّا إذا كان صالحًا؛ قال تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والعملُ الصَّالحُ هو: الخالصُ الصوابُ؛ أي: ما ابتُغِيَ به وجهُ الله، وكان على شريعةِ الله[2].

٣- الإيمانُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن عملٍ، والعملُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن إيمانٍ، فلا يستحقُّ الجنَّةَ إلَّا مَن جمَع بيْنَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾، وإذا ذُكِر ثوابُ الجنَّةِ مقيَّدًا أو مُعلَّقًا بالإيمانِ وحْدَه فالمرادُ بذلك الإيمانُ المتضمِّنُ للعملِ الصَّالحِ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ كَثرةَ الأكلِ مِن صِفةِ الكُفَّارِ[4]، وقد ذمَّهم اللهُ تعالى بكثرةِ الأكلِ؛ فإذا كان المؤمنُ يتشبَّهُ بهم، ويتنَعَّمُ بتَنعُّمِهم في كلِّ أحوالِه وأزمانِه؛ فأين حَقيقةُ الإيمانِ، والقِيامُ بوَظائفِ الإسلامِ؟! ومَن كَثُرَ أكلُه وشُربُه كَثُرَ نَهَمُه وحِرصُه، وزاد باللَّيلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٥٣٩).

كَسَلُه ونَومُه، فكان نَهارَه هائمًا، ولَيْلَه نائمًا[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، كثيرًا ما يَقتصِرُ اللهُ على ذِكرِ الأنهارِ في وصفِ الجنَّةِ؛ لأنَّ الأنهارَ يَتبَعُها الأشجارُ، والأشجارُ تَتبَعُها الثِّمارُ، ولأنَّه سببُ حياةِ العالَمِ، والنَّارُ سببُ الإعدامِ، وللمؤمنِ الماءُ؛ يَنظُرُ إليه، ويَنتفِعُ به. وللكافِرِ النَّارُ؛ يتقلَّبُ فيها، ويتضرَّرُ بها[(٢)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾، فيه سُؤالٌ: خصَّهم بالذِّكرِ، مع أنَّ المُؤمِنَ أيضًا له التَّمتُّعُ بالدُّنيا وطيِّباتِها؟

الجَوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: مَن يكونُ له مُلكٌ عَظيمٌ، ويَملِكُ شيئًا يَسيرًا أيضًا، لا يُذكَرُ إلَّا بالمُلكِ العَظيمِ، يُقالُ في حقِّ المَلِكِ العَظيمِ: صاحِبُ الضَّيعةِ الفُلانيَّةِ. ومَن لا يَملِكُ إلَّا شيئًا يسيرًا، فلا يُذكَرُ إلَّا به؛ فالمُؤمنُ له مُلْكُ الجنَّةِ؛ فمَتاعُ الدُّنيا لا يُلتَفَتُ إليه في حقِّه. والكافِرُ ليس له إلَّا الدُّنيا.

الوَجهُ الثَّاني: الدُّنيا للمُؤمِنِ سِجنٌ كيف كان، ومَن يأكُلُ في السِّجنِ لا يُقالُ: إنَّه يَتمتَّعُ[(٣)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ قال تعالى في حَقِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المؤمِنِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ﴾ بصيغةِ الوَعدِ، وقال في حَقِّ الكافِرِ: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ بصيغةٍ تُنبِئُ عن الاستِحقاقِ؛ وذلك لأنَّ الإحسانَ لا يَستَدعي أن يكونَ عن استِحقاقٍ؛ فالمُحسِنُ إلى مَن لم يُوجَدْ منه ما يُوجِبُ الإحسانَ: كَريمٌ، والمُعَذِّبُ مِن غيرِ استِحقاقٍ ظالِمٌ[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قَولُه: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾، مع أنَّ الإهلاكَ ماضٍ، وقَولُه: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ للحالِ والاستِقبالِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ مَجراه مَجرى الحالِ المَحكِيَّةِ، كأنَّه قال: أهلَكْناهم فهم لا يُنصَرونَ[٢].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المعنى: أهلَكْناهم في الدُّنيا، فلا ناصِرَ لهم يَنصُرُهم، ويُخَلِّصُهم مِن العذابِ الَّذي هم فيه.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ قَولَه: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ عائِدٌ إلى أهلِ قَريةِ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، كأنَّه قال: أهلَكْنا مَن تقَدَّم أهلَ قَريتِك، ولا ناصِرَ لأهلِ قَريتِك يَنصُرُهم، ويُخَلِّصُهم ممَّا جرَى على الأوَّلينَ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ﴾ أنَّ القريةَ لُغةً تُطلَقُ حتَّى على المدينةِ الكبيرةِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٧).

٦- قَولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ فيه إشارةٌ إلى الفَرقِ بيْنَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ والكفَّارِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ إهلاكَ الكفَّارِ ونُصرةَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ في الدُّنيا مُحقَّقٌ، وأنَّ الحالَ يُناسِبُ تعذيبَ الكافِرِ، وإثابةَ المُؤمِنِ(١).

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وكَونُ البيِّنةِ مِن عِندِ اللهِ تَزكيةٌ لها، وكشْفٌ لِلتَّردُّدِ فيها، وإتمامٌ لِدَلالتِها(٢).

٨- قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فتارةً يُحذفُ فاعلُ التَّزيينِ، كما قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، وتارةً يُضافُ التَّزيينُ إلى اللهِ سبحانَه، كما في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وتارةً يُنسبُ التَّزيينُ إلى سببِه ومَن أجراه اللهُ على يدِه، كما في قولِه ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]. والتَّزيينُ مِن اللهِ سبحانَه خَلقًا ومشيئةً، وهو منه حَسَنٌ؛ إذ هو ابتِلاءٌ واختبارٌ؛ لِيتميَّزَ المطيعُ منهم مِن العاصي، والمؤمنُ مِن الكافِرِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الكهف: ٧]، وهو مِن الشَّيطانِ قَبيحٌ، وأيضًا فتزيينُه سُبحانَه للعَبدِ عَمَلَه السَّيِّئَ: عُقوبةٌ منه له على إعراضِه عن توحيدِه وعبوديَّتِه، وإيثارِ سَيِّئِ العمَلِ على حَسَنِه؛ فإنَّه لا بدَّ أن يُعرِّفَه سُبحانَه السَّيِّئَ مِن الحَسَنِ، فإذا آثَرَ القبيحَ واختاره وأحَبَّه ورَضِيَه لنَفْسِه، زيَّنَه سُبحانَه له وأعماه عن رؤيةِ قُبحِه بعدَ أن رآه قبيحًا.

فتزيينُ الرَّبِّ تعالى عَدلٌ، وعُقوبتُه حِكمةٌ، وتزيينُ الشَّيطانِ إغواءٌ وظُلمٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٣).

وهو السَّبَبُ الخارجُ عن العبدِ، والسَّبَبُ الداخِلُ فيه حُبُّه وبُغْضُه وإعراضُه، والرَّبُّ سُبحانَه خالِقُ الجميعِ، والجميعُ واقِعٌ بمشيئتِه وقُدرتِه، ولو شاء لَهدى خَلْقَه أجمعينَ، والمعصومُ مَن عَصَمَه اللهُ، والمَخذولُ مَن خذَلَه اللهُ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[1] [الأعراف: ٥٤].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ قال في الخَمرِ: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، ولم يقُلْ في اللَّبَنِ: (لم يتغيَّرْ طَعمُه للطَّاعِمينَ)، ولا قال في العسَلِ: (مُصفًّى للنَّاظِرينَ)؛ وذلك لأنَّ اللَّذَّةَ تختَلِفُ باختلافِ الأشخاصِ؛ فرُبَّ طَعامٍ يلْتَذُّ به شَخصٌ، ويَعافُه الآخَرُ، فقال: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ بأسْرِهم، ولأنَّ الخَمرَ كَريهةُ الطَّعمِ، فقال: ﴿لَّذَّةٍ﴾، أي: لا يكونُ في خَمرِ الآخِرةِ كَراهةُ الطَّعمِ، وأمَّا الطَّعمُ واللَّونُ فلا يَختَلِفانِ باختِلافِ النَّاسِ؛ فإنَّ الحُلوَ والحامِضَ وغَيرَهما يُدرِكُه كُلُّ أحدٍ كذلك، لكِنَّه قد يَعافُه بَعضُ النَّاسِ، ويَلْتَذُّ به البَعضُ، مع اتِّفاقِهم على أنَّ له طَعمًا واحِدًا، وكذلك اللَّونُ؛ فلم يكُنْ إلى التَّصريحِ بالتَّعميمِ حاجةٌ[2].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على تعَدُّدِ الأنهارِ مع تعَدُّدِ أنواعِها، وقد جاءت آيةٌ أُخرى يُوهِمُ ظاهِرُها أنَّه نَهرٌ واحِدٌ، وهي قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤]؟

الجوابُ: أنَّ قَولَه: ﴿وَنَهَرٍ﴾ يعني: وأنهارٍ[3]. فمِن أساليبِ اللُّغةِ العربيَّةِ الَّتي

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢١٧).

نزَل بها القرآنُ أنَّ المفردَ إذا كان اسمَ جِنسٍ، يَكثُرُ إطلاقُه مُرادًا به الجَمعُ معَ تنكيرِه، مثل هذه الآيةِ، ومثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] أي: أطفالًا، وقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] أي: أئمَّةً، وقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤] أي: أنفُسًا، وقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] أي: رُفَقاءَ، وقولِه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] أي: مُظاهِرونَ[1].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أشار بعدَ ذِكرِ المَشروبِ إلى المأكولِ، ولَمَّا كان في الجنَّةِ الأكلُ لِلَّذَّةِ لا للحاجةِ؛ ذكَرَ الثِّمارَ؛ فإنَّها تُؤكَلُ لِلَّذَّةِ، بخِلافِ الخُبزِ واللَّحمِ، وهذا كقَولِه تعالى في سورةِ الرَّعدِ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]؛ حيث أشار إلى المأكولِ والمَشروبِ[2].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فيه سُؤالٌ: المُتَّقي لا يَدخُلُ الجنَّةَ إلَّا بعدَ المَغفِرةِ، فكيف يكونُ لهم فيها مَغفِرةٌ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: ليس بلازمٍ أن يكونَ المعنى: لهم مَغفِرةٌ مِن رَبِّهم فيها، بل يكونُ عَطفًا على قَولِه (لهم)، كأنَّه تعالى قال: لهم الثَّمَراتُ فيها، ولهم المَغفِرةُ قبْلَ دُخولِها.

الوَجهُ الثَّاني: هو أن يكونَ المعنى: لهم فيها مَغفِرةٌ، أي: رفْعُ التَّكليفِ عنهم،

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٧).

فيأكُلونَ مِن غيرِ حِسابٍ -فمَغفِرةٌ أي: تَجاوُزٌ عنهم، أي: إطلاقٌ في أعمالِهم-، بخِلافِ الدُّنيا؛ فإنَّ الثِّمارَ فيها على حِسابٍ أو عِقابٍ.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ الآكِلَ في الدُّنيا لا يخلو عن استِنتاجِ قَبيحٍ أو مَكروهٍ، كمَرَضٍ أو حاجةٍ إلى تبرُّزٍ، فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ﴾، لا قَبيحٌ على الآكِلِ، بل مَستورُ القبائِحِ مَغفورٌ(١).

الوَجهُ الرَّابعُ: أن تكونَ المَغفِرةُ كِنايةً عن الرِّضوانِ عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾(٢) [التوبة: ٧٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابُ سُؤالٍ عن حالِ المُؤمِنين في الآخِرةِ، وعن رِزْقِ الكافِرين في الدُّنيا؛ فبيَّنَ اللهُ أنَّ مِن وِلايتِه المُؤمِنينَ أنْ يُعطِيَهم النَّعيمَ الخالِدَ بعْدَ النَّصرِ في الدُّنيا، وأنَّ ما أعطاهُ الكافِرينَ في الدُّنيا لا عِبرةَ به؛ لأنَّهم مَسْلوبونَ مِن فَهْمِ الإيمانِ؛ فحَظُّهم مِن الدُّنيا أكْلٌ وتَمتُّعٌ كحَظِّ الأنعامِ، وعاقِبتُهم في عالَمِ الخُلودِ العَذابُ؛ وهذا الاستِئنافُ وقَعَ اعتراضًا بيْنَ جُملةِ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [محمد: ١٠] وجُملةِ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ [محمد: ١٣] الآيةَ(٣).

- وفي الآيةِ تَقابُلٌ بيْنَ قَولِه: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ﴾ وقَولِه: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وفيه إيماءٌ إلى قَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((الدُّنيا سِجنُ المؤمنِ، وجنَّةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٧، ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٩).

الكافِر))(١).

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ أُسنِدَ إدخالُ الجنَّةِ إلى اللهِ، وأُهمِلَ إسنادُ النَّارِ، وخُولِفَ بيْنَ الجُملتينِ فِعليَّةً واسميَّةً؛ لِلإيذانِ بسَبْقِ الرَّحمةِ، والإعلامِ بتَصْييرِ المُؤمِنينَ، والوعْدِ بأنَّ عاقِبتَهم أنَّ اللهَ يُدخِلُهم جنَّاتٍ، وأنَّ الكافِرين مَثْواهم النَّارُ، وهمُ الآنَ حاضِرون فيها، ولا يَدْرون، وكالبَهائمِ يَأْكُلون(٢).

- قولُه: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ عُدِلَ عن الإضافةِ لِتُنوَّنَ، فقيل: ﴿مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ بالتَّعليقِ باللَّامِ؛ لِيُفادَ بالتَّنوينِ مَعنى التَّمكُّنِ مِن القَرارِ في النَّارِ ﴿مَثۡوٗى﴾، أي: مَثْوًى قَويًّا لهم؛ لأنَّ الإخبارَ عن النَّارِ في هذه الآيةِ حَصَلَ قبْلَ مُشاهَدتِها؛ فلذلك أُضِيفَت في قَولِه: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٢٨]؛ لأنَّه إخبارٌ عنها وهمْ يُشاهِدونَها في المَحشرِ(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [محمد: ١٠]، وما بيْنَهما استِطْرادٌ اتَّصَلَ بَعضُه ببَعضٍ(٤).

- والمُرادُ بالقَريةِ: أهْلُها؛ بقَرينةِ قَولِه: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾، وإنَّما أُجرِيَ الإخبارُ على القريةِ وضَميرِها؛ لِإفادةِ الإحاطةِ بجَميعِ أهْلِها، وجَميعِ أحوالِهم،

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٣٤).

والحديث أخرجه مسلم (٢٩٥٦) من حديث أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ولِيَكونَ لِإسنادِ إخراجِ الرَّسولِ إلى القرْيةِ كلِّها وَقْعٌ مِن التَّبعةِ على جَميعِ أهْلِها، سَواءٌ منهم مَن تَولَّى أسبابَ الخروجِ، ومَن كان يَنظُرُ ولا يَنْهى[1].

- وهذا إطنابٌ في الوَعيدِ؛ لأنَّ مَقامَ التَّهديدِ والتَّوبيخِ يَقْتضي الإطنابَ؛ فمُفادُ هذه الآيةِ مُؤكِّدٌ لِمُفادِ قَولِه: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، فحصَلَ تَوكيدُ ذلك بما هو مُقارِبٌ له مِن إهلاكِ الأُمَمِ ذَواتِ القُرى والمُدنِ، بعْدَ أنْ شمِلَ قَولُه: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مَن كان مِن أهْلِ القُرى، وزاد هنا التَّصريحُ بأنَّ الَّذين مِن قبْلِهم كانوا أشدَّ قُوَّةً منهم؛ لِيَفْهَموا أنَّ إهلاكَ هؤلاء هيِّنٌ على اللهِ؛ فإنَّه لَمَّا كان التَّهديدُ السَّابقُ تَهديدًا بعَذابِ السَّيفِ مِن قَولِه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤] الآياتِ، قد يُلْقي في نُفوسِهم غُرورًا بِتَعذُّرِ استِئصالِهم بالسَّيفِ، وهمْ ما همْ مِن المَنَعةِ، وأنَّهم تَمنَعُهم قَريتُهم مكَّةُ، وحُرْمتُها بيْنَ العرَبِ، فلا يَقعُدون عن نُصْرتِهم، فرُبَّما اسْتَخَفُّوا بهذا الوعيدِ، ولم يَسْتكينوا لهذا التَّهديدِ؛ فأعْلَمَهم اللهُ أنَّ قُرًى كَثيرةً كانتْ أشدَّ قُوَّةً مِن قَريتِهم، أهْلَكَهم اللهُ فلَمْ يَجِدوا نَصيرًا، وبهذا يَظْهَرُ الموقعُ البَديعُ لِلتَّفريعِ في قَولِه: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾[2].

- وفي قَولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ وَصْفُ القَرْيةِ الأُولى بشِدَّةِ القُوَّة؛ لِلْإيذانِ بأوْلَويَّةِ الثَّانيةِ منها بالإهلاكِ؛ لِضَعْفِ قُوَّتِها، كما أنَّ وَصْفَ القَريةِ الثَّانيةِ في قَولِه: ﴿مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ بإخْراجِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِلْإيذانِ بأوْلَويَّتِها به؛ لِقُوَّةِ جِنايتِها[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٩٠، ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥).

- زادتْ إضافةُ القرْيةِ إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قَولِه: ﴿قَرۡيَتِكَ﴾ ووَصْفُها بـ ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ مِن تَعْييرِ أهْلِها بمَذمَّةِ القَطيعةِ، ولِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن تَعليلِ إهْلاكِهم بسَببِ إخْراجِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن قَرْيتِه(١).

- وقولُه: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ بيانٌ لِعَدَمِ خَلاصِهم مِن العَذابِ بِواسِطةِ الأعوانِ والأنصارِ، إثْرَ بَيانِ عَدَمِ خَلاصِهم منه بأنفُسِهم(٢).

- وفُرِّعَ على الإخبارِ بإهلاكِ اللهِ إيَّاهم الإخبارُ بانْتِفاءِ جِنسِ النَّاصِرِ لهم، أي: المُنقِذِ لهم مِن الإهلاكِ، والمَقصودُ: التَّذكيرُ بأنَّ أمثالَ هؤلاء المُشرِكين لم يَجِدوا دافعًا يَدفَعُ عنْهم الإهلاكَ، وذلك تَعريضٌ بتَأْييسِ المُشرِكينَ مِن إلْفاءِ ناصرٍ يَنصُرُهم في حَرْبِهم لِلمُسلِمينَ؛ قطْعًا لِما قدْ يُخالِجُ نُفوسَ المُشرِكينَ أنَّهم لا يُغلَبونَ لِتَظاهُرِ قَبائلِ العرَبِ معَهم؛ ولذلك حزَّبوا الأحزابَ في وَقْعةِ الخَنْدقِ(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في بَيانِ حالِ الفريقَينِ المُؤمِنينَ والكافِرينَ. وتَقريرٌ لِتَبايُنِ حَالَيْ فَريقَيِ المُؤمِنينَ والكافِرين، وكَونِ المؤمنينَ في أعْلَى عِلِّيِّينَ، والكافِرينَ في أسفَلِ سافِلينَ، وبَيانٌ لِعِلَّةِ ما لِكلٍّ منهما مِن الحالِ(٤).

- أو هو تَفريعٌ على جُملةِ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١٣]؛ لِتَحقيقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٠٧).

أنَّهم لا ناصِرَ لهم تَحقيقًا يَرجِعُ إلى ما في الكلامِ مِن المَعنى التَّعريضيِّ؛ فهو شَبيهٌ بالاستِئنافِ البَيانيِّ جاء بأُسلوبِ التَّفريعِ. ويَجوزُ مع ذلك أنْ يَكونَ مُفرَّعًا على ما سَبَقَ مِن قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [محمد: ١٢] الآيةَ، فيَكونَ له حُكْمُ الاعتِراضِ؛ لأنَّه تَفريعٌ على اعتِراضٍ، وهذا تَفنُّنٌ في تَلْوينِ الكلامِ؛ لِتَجْديدِ نَشاطِ السَّامِعينَ، وهو مِن الأساليبِ الَّتي ابتَكَرَها القُرآنُ في كَلامِ العرَبِ(١).

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ مُستعمَلٌ في إنكارِ المُماثَلةِ الَّتي يَقْتضيها حَرْفُ التَّشبيهِ، والمَقصودُ مِن إنكارِ المُشابَهةِ بيْنَ هؤلاءِ وهؤلاءِ هو تَفضيلُ الفَريقِ الأوَّلِ، وإنكارُ زَعْمِ المُشرِكينَ أنَّهم خَيرٌ مِن المُؤمِنينَ(٢).

أو هو استِفهامُ تَوقيفٍ وتَقريرٍ؛ لأنَّ الجوابَ مَعلومٌ، كما أنَّك إذا قلْتَ: مَن يَفعَلِ السَّيِّئاتِ يَشْقَ، ومَن يَفعَلِ الحَسَناتِ يَسعَدْ، ثمَّ قلْتَ: الشَّقاءُ أحَبُّ إليك أم السَّعادةُ؟ فقد عُلِمَ أنَّ الجوابَ: السَّعادةُ؛ فهذا مَجرى هَمْزةِ التَّوقيفِ والتَّقريرِ(٣).

- والمُرادُ بانتِفاءِ المُماثَلةِ الكِنايةُ عن التَّفاضُلِ، والمَقصودُ بالفَضْلِ ظاهِرٌ، وهو الفريقُ الَّذي وقَعَ الثَّناءُ عليه(٤).

- وفي التَّعبيرِ بوَصْفِ الرَّبِّ وإضافته إلى ضَميرِ الفريقِ في قَولِه: ﴿أَفَمَن كَانَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٤).

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تنبيهٌ على زُلْفى الفريقِ الَّذي تَمسَّكَ بحُجَّةِ اللهِ[١].

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿زُيِّنَ﴾ لِلمَجهولِ؛ لِيَشملَ المُزيِّنينَ لهمْ مِن أئمَّةِ كُفْرِهم، وما سوَّلَتْه لهم أيضًا عُقولُهم الآفِنةُ مِن أفْعالِهم السَّيِّئةِ اغْتِرارًا بالإلْفِ، أو اتِّباعًا لِلَّذَّاتِ العاجلةِ، أو لِجَلْبِ الرِّئاسةِ، أي: زَيَّنَ له مُزَيِّنٌ سُوءَ عَمَلِه، وفي هذا البِناءِ إلى المَجهولِ تَنبيهٌ لهم أيضًا لِيَرْجِعوا إلى أنفُسِهم، فيَتأمَّلوا فيمَن زيَّنَ لهم سُوءَ أعْمالِهم[٢].

- ولَمَّا كان تَزْيِينُ أعمالِهم لهم يَبعَثُهم على الدَّأْبِ عليها، وكان يَتولَّدُ مِن ذلك إلْفُهم بها ووَلَعُهم بها، فتَصيرُ لهم أهواءً لا يَسْتطيعون مُفارَقتَها؛ أُعقِبَ بقَولِه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾

- قولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ...﴾ الآيةَ، استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ما جَرى مِن ذِكرِ الجنَّةِ في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [محمد: ١٢]، ممَّا يَستشرِفُ السَّامعُ إلى تَفصيلِ بَعضِ صِفاتِها، وإذ قد ذُكِرَ أنَّها تَجْري مِن تَحتِها الأنهارُ مُوهِمٌ السَّامعَ أنَّها أنْهارُ المِياهِ؛ لأنَّ جَرْيَ الأنهارِ أكمَلُ مَحاسِنِ الجنَّاتِ المَرْغوبِ فيها، فلمَّا فُرِغَ مِن تَوصيفِ حالِ فَريقَيِ الإيمانِ والكُفْرِ، وممَّا أُعِدَّ لِكِلَيْهِما، ومِن إعلانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٩٣، ٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٩٤).

تَبايُنِ حالَيْهما؛ ثُنِيَ العِنانُ إلى بَيانِ ما في الجنَّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقون، وخُصَّ مِن ذلك بَيانُ أنواعِ الأنهارِ. ولَمَّا كان ذلك مَوقِعَ الجُملةِ، كان قولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مُبتدأً مَحذوفَ الخبَرِ، والتَّقديرُ: ما سَيُوصَفُ، أو ما سَيُتْلى عليكم، أو ممَّا يُتْلى عليكم. وقولُه: ﴿كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مُقدَّرٌ فيه استِفهامٌ إنكاريٌّ، دلَّ عليه ما سبَقَ مِن قولِه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [محمد: ١٤]، والتَّقديرُ: أكمَنْ هو خالدٌ في النَّارِ؟! والإنكارُ مُتسلِّطٌ على التَّشبيهِ الَّذي هو بمَعنى التَّسويةِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ بدَلًا مِن جُملةِ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [محمد: ١٤]؛ فهي داخِلةٌ في حيِّزِ الاسْتِفهامِ الإنكاريِّ، والخبَرُ قولُه: ﴿كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾، أي: كحالِ مَن هو خالدٌ في النَّارِ؟! وذلك يَستلزِمُ اختِلافَ حالِ النَّارِ عن حالِ الجنَّةِ، فحصَلَ نحْوُ الاحتِباكِ[1]؛ إذ دلَّ (مَثَلُ الجنَّةِ) على (مَثَلِ أصْحابِها)، ودلَّ (مَثَلُ مَن هو خالدٌ في النَّارِ) على (مَثَلِ النَّارِ). والمَقصودُ: بَيانُ البَونِ بيْنَ حالَيِ المُسلِمينَ والمُشرِكينَ بذِكْرِ التَّفاوُتِ بيْنَ حالَيْ مَصيرِهما المُقرَّرِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ﴾ إلى آخِرِه؛ ولذلك لمْ يُترَكْ ذِكْرُ أصحابِ الجنَّةِ وأصحابِ النَّارِ في خِلالِ ذِكْرِ الجنَّةِ والنَّارِ، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وقال بعْدَه: ﴿كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾، ولِقَصْدِ زِيادةِ تَصويرِ مُكابَرةِ مَن يُسوِّي بيْنَ المُتمسِّكِ ببَيِّنةِ ربِّه وبيْنَ التَّابعِ لِهَواه، أي: هو أيضًا كالَّذي يُسوِّي بيْنَ الجنَّةِ ذاتِ تلك الصِّفاتِ وبيْنَ النَّارِ ذاتِ صِفاتٍ ضِدِّها[2].

---

(١) تقدَّم تعريفه (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٤، ٩٥).

- قولُه: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ الآيَة، افْتُتِحت السُّورةُ الكَريمةُ ووُسِمَت بَراعةُ اسْتِهلالِها بصِيغةِ التَّقابُلِ في الَّذين كَفَروا، وثُنِّيَ في أنَّ اللهَ يُدخِلُ الَّذين آمَنوا سُلوكَ تلك الطَّريقةِ، وثُلِّثَ في قَولِه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ ذلك، وجُعِلَتْ هذه الآيةُ مُتفرِّعةً على هذه القَرينةِ بدَلالةِ أداةِ التَّشبيهِ، وجُعِلَ المُشبَّهُ والمُشبَّهُ به بتَمامِه مُمثَّلًا به، وإنَّما فُصِلَ بيْنَ الكَلامَينِ؛ لِيَقَعَ قَولُه: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾ اسْتِئنافًا؛ وذلك أنَّ الكافِرَ لَمَّا أُلقِيَ إليه نَفْيُ المُساواةِ بيْنَ مَن هو على بُرْهانٍ مِن ربِّه -وهو القُرآنُ المُعجِزُ-، وبيْنَ مَن رَكِبَ مَتْنَ الهَوى واتَّبَعَ الشَّهواتِ، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾، وقُدِّرَ أنَّه -لِعَدَمِ الْتِفاتِه إلى هذا الإنكارِ- بمَنزِلةِ مَن يُصِرُّ على إنْكارِه، ويَقولُ بالتَّسويةِ، فأوقَعَ ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾ إلى ساقتِه جَوابًا إلى هذا الإنكارِ المُتجدِّدِ، يَعني: إنْكارُكم هذا يَستلزِمُ التَّسويةَ بيْنَ حالتَيْ أهْلِ الجنَّةِ والنَّارِ، والنُّكتةُ في إيرادِ هذا الاسْتِئنافِ: هي أنَّ هذا مِن الأُمورِ المُقرَّرةِ الَّتي تَثبُتُ به الدَّعاوى؛ لِظُهورِ أدِلَّتِه، وأُدمِجَ فيه مَعنى التَّعريضِ أنَّهم في هذا الإصرارِ ممَّن هو خالِدٌ في النَّارِ، وبأنَّ الَّذي هو على بَيِّنةٍ مِن ربِّه في جنَّاتٍ تَجْري مِن تَحتِها الأنهارُ[(١)].

- وعُبِّرَ عن المَوعودينَ الجنَّةَ بالمُتَّقينَ؛ إيذانًا بأنَّ الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالحَ مِن بابِ التَّقْوى الَّذي هُو عبارةٌ عن فِعلِ الواجباتِ بأسْرِها، وتَرْكِ السَّيِّئاتِ عن آخِرِها[(٢)].

- وجُملةُ ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ وما عُطِفَ عليها تَفصيلٌ للإجْمالِ الَّذي في جُملةِ ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾[(٣)].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٥).

- قولُه: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ إطلاقُ الأنهارِ على ما هو مِن لَبَنٍ وخمْرٍ وعسَلٍ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغ، أي: مُماثِلةً لِلْأنهارِ؛ فيَجوزُ أنْ تَكونَ المُماثَلةُ تامَّةً في أنَّها كالأنْهارِ مُستبحرةً في أخاديدَ مِن أرْضِ الجنَّةِ؛ فإنَّ أحوالَ الآخِرةِ خارقةٌ لِلْعادةِ المَعروفةِ في الدُّنيا، فإنَّ مَرأَى أنهارٍ مِن هذه الأصنافِ مَرأًى مُبهِجٌ. ويجوزُ أنْ تكونَ مُماثَلةُ هذه الأصنافِ لِلْأنهارِ في بَعضِ صِفاتِ الأنهارِ، وهي الاستِبْحارُ[1].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿أَنْهَٰرٌ﴾ تَمثيلٌ لِمَا يَقومُ مَقامَ الأشربةِ في الجنَّةِ بأنواعِ ما يُستَلَذُّ منها في الدُّنيا بالتَّجريدِ عمَّا يَنقُصُها ويُنَغِّصُها، والتَّوصيفِ بما يُوجِبُ غَزارتَها واسْتِمرارَها[2].

- قولُه: ﴿ءَاسِنٍ﴾ قُرِئَ ﴿أَسِنٍ﴾[3] لِلمُبالَغةِ[4].

- وفي قَولِه: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ تَعريضٌ بخُمورِ الدُّنيا، كقَولِه تعالَى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، أي: هي لذيذةٌ لهم، ليس فيها كراهةُ طَعمٍ وريحٍ، ولا غائلةُ سُكرٍ وخُمارٍ كخُمورِ الدُّنيا؛ فإنَّها لا لَذَّةَ في نفْسِ شُربِها، وفيها من المكارِهِ والغوائِلِ ما فيها[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٤١).

(٣) وهي قراءةُ ابنِ كثيرٍ، وقرأ الباقون بالمدِّ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٦).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧).

- وفي قَولِه: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وُصِفَتْ الخَمرُ بالمصدرِ (لذَّة)؛ للمُبالغةِ بجَعْلِها نفْسَ اللَّذَّةِ[١].

- وبُدِئَ مِن هذه الأنهارِ بالماءِ، وهو الَّذي لا يُستغنَى عنه في المَشروباتِ، ثمَّ باللَّبَنِ؛ إذ كان يَجري مَجرى الطُّعومِ في كثيرٍ مِن أقواتِ العَرَبِ وغَيرِهم، ثمَّ بالخَمرِ؛ لأنَّه إذا حصَلَ الرِّيُّ والمطعومُ تشَوَّقَت النَّفْسُ إلى ما تَلْتَذُّ به، ثمَّ بالعَسَلِ؛ لأنَّ فيه الشِّفاءَ في الدُّنيا مِمَّا يَعرِضُ مِن المشروبِ والمطعومِ؛ فهو مُتأخِّرٌ في الهيئةِ[٢].

وفيه وَجهٌ آخَرُ: لَمَّا كان أكثَرُ شَرابِهم بعدَ الماءِ اللَّبَنَ ثَنَّى به، ولَمَّا كان أكثَرُ ما بعد اللَّبَنِ الخَمرَ قال: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾، ولَمَّا كان العَسَلُ أعَزَّها وأقَلَّها أخَّرَه وإن كان أجَلَّها[٣]. وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه لَمَّا كان السِّياقُ للتَّعَجُّبِ في ضَربِ المَثَلِ -لأنَّه قَولٌ لا يَنْفَكُّ عن غَرابةٍ- بدأ بأنهارِ الماءِ؛ لِغَرابتِها في بلادِهم، وشِدَّةِ حاجتِهم إليها، ولَمَّا كان خُلُوُّها عن تغيُّرٍ أغرَبَ نفاه، ولَمَّا كان اللَّبَنُ أقَلَّ، فكان جَرْيُه أنهارًا أغرَبَ، ثَنَّى به، ولَمَّا كان الخَمرُ أعَزَّ ثَلَّثَ به، ولَمَّا كان العَسَلُ أشرَفَها وأقَلَّها خَتَم به[٤].

- وقولُه: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ جِيءَ به لِمُقابَلةِ ما وُصِفَ مِن حالِ أهْلِ الجنَّةِ الَّذي في قَولِه: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ إلى قولِه: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، أي: أنَّ أهْلَ النَّارِ مَحرُومون مِن جَميعِ ما ذُكِرَ مِن المَشروباتِ، ولَيسوا بِذائقينَ إلَّا الماءَ الحميمَ الَّذي يُقطِّعُ أمْعاءَهُم بفَورِ سَقْيِه؛ ولذلك لم يُعرِّجْ هنا على

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢٠، ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٢٢، ٢٢٣).

طَعامِ أهْلِ النَّارِ الَّذي ذُكِرَ في قَولِه تعالَى: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٢- ٥٤]، وقَولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢] إلى قَولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾[1] [الصافات: ٦٦، ٦٧].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧، ٩٨).

الآيات (١٦-١٩)

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةًۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ءَانِفًا﴾: أي: مُنْذُ قَريبٍ، أو السَّاعةَ في أوَّلِ وقتٍ يَقرُبُ منها؛ مِن قَولِك: استأنَفْتُ الشَّيءَ: إذا ابتدَأْتَه، ورَجعْتَ إلى أوَّلِه، وأصلُ (أنف) هنا: يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ مِن أوَّلِه[١].

﴿طَبَعَ﴾: أي: خَتَمَ وربَطَ، يُقالُ: طَبَعَ اللهُ على قَلبِ الكافِرِ، أي: ختَمَ عليه فلا يَعي وَعظًا ولا يُوَفَّقُ لِخَيرٍ، وأصلُه يدُلُّ على التَّغطيةِ على الشَّيءِ، والاستيثاقِ منه، بألَّا يَدخُلَه شَيءٌ، ولا يَخرُجَ منه شَيءٌ[٢].

﴿يَنظُرُونَ﴾: أي: يَنْتظِرونَ؛ فالنَّظَرُ هنا بمعنى الانتظارِ، وأصْلُ (نظر): تأمُّلُ الشَّيءِ ومُعايَنَتُه، ومنه: نَظَرْتُه، أي: انتَظَرْتُه، كأنَّه يَنْظُرُ إلى الوَقْتِ الذي يأتي فيه[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ١١٢) و(٧/ ١٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٨).

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فَجأةً، وأصلُ (بغت): يدُلُّ على مُفاجأةِ الشَّيءِ[١].

﴿أَشْرَاطُهَا﴾: أي: عَلاماتُها، واحدُها: شَرَطٌ، ومنه الاشتِراطُ الَّذي يَشترِطُ النَّاسُ بَعضُهم على بعضٍ، إنَّما هي علاماتٌ يَجعَلونَها بيْنَهم، وأصلُ (شرط): يدُلُّ على عَلَمٍ وعَلامةٍ[٢].

﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾: أي: مُتصَرَّفَكم وانتِشارَكم في أعمالِكم، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[٣].

﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾: أي: مَقامَكم ومُستَقَرَّكم، وأصلُ (ثوي): يدُلُّ على إقامةٍ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

- قَولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾

قَولُه: ﴿ءَانِفًا﴾: فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ، أي: مُؤتَنِفًا أو مُبتَدِئًا. والثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ على الظَّرفِ، أي: ماذا قال السَّاعةَ[٥]؟

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٩٥).

- قَولُه تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾

المصدَرُ المؤوَّلُ ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ في محَلِّ نَصبٍ بَدَلُ اشتِمالٍ مِن ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾، أي: يَنظُرونَ إتيانَ السَّاعةِ. (أنَّى) اسمُ استِفهامٍ مَبنيٌّ في محَلِّ رَفعٍ، خَبَرٌ مُقدَّمٌ، على معنى: كيف لهم التَّذَكُّرُ؟! أو هو في محِلِّ نَصبٍ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، خَبَرٌ مُقَدَّمٌ على معنى: مِن أينَ لهم التَّذكُّرُ؟! ﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾ مُبتدَأٌ مُؤخَّرٌ. وفاعِلُ ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ ضَميرٌ مُستَتِرٌ جوازًا يعودُ على السَّاعةِ، وجملةُ الشَّرطِ ﴿إِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ المبتدأِ والخَبَرِ، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قَبْلَه، أي: إذا جاءَتْهم السَّاعةُ فمِن أين لهم التَّذكُّرُ، أو فكيفَ لهم التَّذَكُّرُ؟!

ويجوزُ أن يكونَ ﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾ فاعِلًا لـ﴿جَآءَتْهُمْ﴾، والمُبتدأُ المؤخَّرُ مَحذوفًا، أي: فأنَّى لهم الخَلاصُ إذا جاءَتْهم ذِكْراهم[1]؟!

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا موقفَ المنافِقينَ مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ومِن هؤلاء الَّذين يَتمَتَّعونَ ويأكُلونَ كما تأكُلُ الأنعامُ، وزُيِّنَ لهم سُوءُ عَمَلِهم: قَومٌ يَستَمِعونَ إليك -وهم المُنافِقونَ- فإذا خرَجَوا مِن عِندِك -يا محمَّدُ- قالوا لِمَن حَضَر مَجلِسَك مِن أهلِ العِلمِ مِن الصَّحابةِ: ماذا قال مُحمَّدٌ مُنذُ وَقتٍ قَريبٍ؟!

أولئك هم الَّذين خَتَم اللهُ على قُلوبِهم فلم يُؤمِنوا، واتَّبَعوا أهواءَهم في الكُفرِ والتَّكذيبِ.

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦١)، ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٢٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٧٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٩٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٦/ ٢٢٣).

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى حالَ المؤمنينَ الصَّادقينَ، فيقولُ: والَّذين آمَنوا بالحَقِّ واتَّبَعوه زادَهم ما سَمِعوا مِنَ القُرآنِ وكلامِ النَّبيِّ إيمانًا وثَباتًا، وأعطاهم اللهُ التَّقْوى.

ثمَّ يوبِّخُ المنافقينَ، فيقولُ: فهل يَنتَظِرُ أولئك المنافِقونَ إلَّا القيامةَ تأتيهم فَجأةً، فقد جاءَتهم أماراتُها وعَلاماتُها، فمِن أينَ لهم الانتِفاعُ بالتَّذَكُّرِ إذا جاءَتْهم القيامةُ؟!

ثمَّ يقولُ تعالى: فاعلَمْ -يا محمَّدُ- أنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، واستَغفِرْ لِذَنْبِك، ولِذُنوبِ المؤمِنينَ والمؤمِناتِ، واللهُ يَعلَمُ تصَرُّفَكم وانتِشارَكم، ويَعلَمُ مَوضِعَ سُكونِكم وقَرارِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى حالَ الكافِرِ؛ ذكَرَ حالَ المنافِقِ بأنَّه مِن الكُفَّارِ[١].

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾.

أي: ومِن الكُفَّارِ قَومٌ يَستَمِعونَ إلى تِلاوتِك القُرآنَ -يا محمَّدُ-، أو إلى حديثك في خُطَبِ الجُمُعةِ أو غيرِها، وهم المنافِقونَ[٢].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾.

أي: فإذا خرَجَ أولئك المنافِقونَ مِن عِندِك -يا محمَّدُ- قالوا لِمَن حَضَر

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٨).

مَجلِسَك مِن أهلِ العِلمِ مِن الصَّحابةِ: ماذا قال مُحمَّدٌ مُنذُ وَقتٍ قَريبٍ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال وهو على المِنبَرِ: ((وَيْلٌ لِأَقْماعِ القَولِ[2]، ويْلٌ لِلمُصِرِّينَ الَّذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢).

قال ابن الجوزي: (وفي استفهامِهم قَولانِ؛ أحدُهما: لأنَّهم لم يَعْقِلوا ما يقولُ، ويدُلُّ عليه باقي الآيةِ. والثَّاني: أنَّهم قالوه استِهزاءً). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٨).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥).

قال الواحدي: (لم يَعقِلوا ما قاله النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِمَنعِ اللهِ تعالى إيَّاهم عن ذلك). ((الوسيط)) (٤/ ١٢٤).

وقال أيضًا: (وعلى هذا دلَّ كلامُ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عِكْرِمةَ، قال: «كان المنافِقونَ إذا جلَسوا عندَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَخرُجونَ فيَقولونَ: ماذا قال آنفًا. ليس معهم قلوبٌ»، وعلى هذا دلَّ سياقُ الآيةِ، وهو قولُه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٤٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: السمعانيُّ، والبغوي، ابنُ عطية، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٩).

(٢) أقماع القولِ: الأقماعُ: جَمعُ قِمَعٍ، وهو الإناءُ الَّذي يُترَكُ في رُؤوسِ الظُّروفِ لِتُملَأَ بالمائعاتِ مِن الأشربةِ والأدهانِ، والمرادُ: الَّذين آذانُهم كالقِمَعِ يَدخُلُ فيه سماعُ الحقِّ مِن جانبٍ، ويَخرُجُ مِن جانبٍ آخَرَ، لا يَستقِرُّ فيه. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (٤/ ١٠٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٩٧).

يُصِرُّونَ على ما فَعَلوا وهم يَعلَمونَ))[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾.

أي: أولئك هم الَّذين خَتَم اللهُ على قُلوبِهم، فهم لا يَعقِلونَ الحَقَّ، ولا يَفهَمونَه فَهْمًا يَنتَفِعونَ به[٢].

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾.

أي: تَرَكوا الحَقَّ، واتَّبَعوا ما دعَتْهم إليه أنفُسُهم مِنَ الباطِلِ والضَّلالاتِ[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّ المنافِقَ يَستَمِعُ ولا ينتَفِعُ، ويَستعيدُ ولا يَستفيدُ؛ بَيَّن أنَّ حالَ المؤمِنِ المُهتدي بخِلافِه؛ فإنَّه يَستَمِعُ فيَفهَمُ، ويَعمَلُ بما يَعلَمُ، والمنافِقُ يَستعيدُ، والمُهتدي يُفَسِّرُ ويُعيدُ[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾.

---

(١) أخرجه مُطوَّلًا أحمدُ (٦٥٤١)، والبخاريُّ في ((الأدب المفرد)) (٣٨٠)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١١٠٥٢)، وأخرجه الطبراني (١٣/ ٦٥١) (١٤٥٧٩) باختلافٍ يسير.
جوَّد إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٣/ ٢١١)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١/ ١٣٧)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١١/ ٩٩)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ١٢)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٨٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٠).

أي: والَّذين آمَنوا بالحَقِّ واتَّبَعوه زادهم ما سَمِعوا مِنَ القُرآنِ وكلامِ النَّبيِّ إيمانًا وعِلمًا، وعَمَلًا بالحَقِّ وثَباتًا عليه(١).

كما قال الله سبحانه وتعالى عن أصحابِ الكَهفِ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾.

أي: وأعطى اللهُ المُهتَدينَ في الدُّنيا تَقواهم إيَّاه، بتوفيقِهم للعَمَلِ بما أُمِروا به، والانتِهاءِ عمَّا نُهوا عنه(٢).

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾.

أي: فهل يَنتَظِرُ المنافِقونَ إلَّا مَجيءَ القيامةِ فَجأةً مِن غيرِ شُعورٍ بها، ولا استِعدادٍ لها(٣)؟!

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧).

﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾.

أي: فقد جاءَتهم مُقَدِّماتُ القيامةِ، وعَلاماتُ قُربِها[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ مِن أشراطِ السَّاعةِ: أن يُرفَعَ العِلمُ، ويَثبُتَ الجَهلُ، ويُشرَبَ الخَمرُ، ويَظهَرَ الزِّنا))[٢].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا بارِزًا للنَّاسِ، فأتاه رجُلٌ، فقال: ... يا رسولَ اللهِ، متى السَّاعةُ؟ قال: ما المَسؤولُ عنها بأعْلَمَ مِنَ السَّائلِ، ولكنْ سأُحَدِّثُك عن أشراطِها: إذا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّها[٣]، فذاك مِن أشْراطِها، وإذا كانت العُراةُ الحُفاةُ رُؤوسَ النَّاسِ، فذاك من أشْراطِها، وإذا تَطاوَلَ رِعاءُ البَهْمِ[٤] في البُنْيانِ، فذاك من أشْراطِها))[٥].

وعن عَمرِو بن تَغلِبَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥).

(٢) رواه البخاري (٨٠)، ومسلم (٢٦٧١).

(٣) رَبَّها: أي: سيِّدَها، والمرادُ أن تَكثُرَ فُتوحُ بلادِ الكفرِ، فيَكثُرَ السَّراريُّ، فتَلِدُ الإماءُ الأولادَ مِن سادَتِهنَّ، وولدُ السَّيِّدِ بمَنزلةِ السَّيِّدِ، فتَصيرَ الأمَةُ ولدَتْ ربَّها بهذا الاعتبارِ. وقيل: المرادُ: أن يَكثُرَ العُقوقُ مِن الأولادِ حتَّى يعامِلَ الولدُ أُمَّه مُعامَلةَ أَمَتِه بالسَّبِّ والإهانةِ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٢١٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٢٢).

(٤) البَهْم: بفتحِ الباءِ وإسكانِ الهاءِ، هي الصِّغارُ مِن أولادِ الغنمِ؛ الضَّأْنِ والمَعْزِ جميعًا، وقيل: أولادُ الضَّأنِ خاصَّةً، والمعنى: أنَّ أهلَ الفقرِ والحاجةِ تصيرُ لهم الدُّنيا حتَّى يَتباهَوا في البُنيانِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١/ ١٦٣)، ((عمدة القاري)) للعيني (١/ ٢٨٦).

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٩) واللفظ له.

((إنَّ مِن أشْراطِ السَّاعةِ: أن يَفيضَ المالُ، ويَكثُرَ الجَهلُ، وتَظهَرَ الفِتنُ، وتَفشُوَ التِّجارةُ))(١).

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾.

أي: فمِن أين لهم الانتِفاعُ بالتَّذكُّرِ والنَّدَمِ والتَّوبةِ إذا جاءَتْهم القيامةُ، وقد فات وَقتُ الإيمانِ، وأُغلِقَ بابُ التَّوبةِ والعَمَلِ بالقُرآنِ(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لبَيانِ المُناسَبةِ وُجوهٌ:

الأوَّلُ: هو أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨] قال: فاعلَمْ أنَّه لا إلهَ إلا اللهُ يأتي بالسَّاعةِ، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه النَّسائي (٤٤٥٦)، وأحمد (٢٤٠٠٩/ ٧٨) بنحوه، والحاكِمُ (٢١٤٧) واللَّفظُ له.
صحَّح إسنادَه الحاكِمُ، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٩/ ٥٢٠)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٤٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥٥).
قال القرطبي: (التَّقديرُ: فمِن أين لهمُ التَّذكُّرُ إذا جاءَتْهمُ السَّاعةُ؟! قال معناه قَتادةُ وغيرُه. وقيل: فكيف لهم بالنَّجاةِ إذا جاءتْهم الذِّكرى عندَ مَجيءِ السَّاعةِ؟ قاله ابنُ زَيدٍ. وفي الذِّكرى وجْهان؛ أحدُهما: تذكيرُهم بما عَمِلوه من خَيرٍ أو شرٍّ. الثَّاني: هو دعاؤُهم بأسمائِهم تبشيرًا وتخويفًا). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٦).

كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨].

الثَّاني: أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾، وهي آتِيَةٌ، فكأنَّ قائلًا قال: متى هذا؟ فقال: فاعلَمْ أنَّه لا إلهَ إلا اللهُ، واشتَغِلْ بما عليك مِن الاستِغفارِ، وكُنْ في أيِّ وقتٍ مَستعِدًّا لِلقائِها، ويُناسِبُه قولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

الثَّالِثُ: فاعلَمْ أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ يَنفَعكَ[(١)].

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

أي: فاعلَمْ -يا محمَّدُ- أنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ الَّذي لا تجوزُ العِبادةُ إلَّا له وَحْدَه دونَ ما سِواه[(٢)].

عن عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن مات وهو يَعلَمُ أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ دخَلَ الجنَّةَ))[(٣)].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

أي: واطلُبْ -يا محمَّدُ- مِن رَبِّكَ مَغفِرةَ ذُنوبِكَ، وذُنوبِ المؤمِنينَ مِن أُمَّتِكَ ذُكورًا وإناثًا؛ فيَستُرُها عليكم، ولا يُؤاخِذُكم بها[(٤)].

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ نَبيِّه نُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٤٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٣١٧).

دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [نوح: ٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ حاكيًا دُعاءَ نبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقال سُبحانَه آمرًا نَبيَّه مُحمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه كان يدعو بهذا الدُّعاءِ: ((اللَّهُمَّ اغفِرْ لي خَطيئتي وجَهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلَمُ به منِّي، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي جِدِّي وهَزْلي، وخَطَئي وعَمْدي، وكُلُّ ذلك عندي، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسرَرتُ وما أعلَنتُ، وما أنت أعلَمُ به منِّي، أنت المقَدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، وأنت على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ))[(١)].

وعن عاصِم بنِ سُلَيمانَ الأحوَلِ، عن عبدِ اللهِ بنِ سَرْجِسَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((رأيتُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأكلتُ معه خُبزًا ولَحمًا -أو قال: ثَريدًا- قال: فقُلتُ له: أستَغفَرَ لك النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم؟ قال: نعَمْ، ولك، ثمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾))[(٢)].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((لَمَّا رأيتُ مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم طِيبَ نَفْسٍ قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ لي، فقال: اللَّهُمَّ اغفِرْ لعائِشةَ ما تقَدَّمَ من

---

(١) رواه البخاري (٦٣٩٩)، ومسلم (٢٧١٩) واللَّفظُ له.

(٢) رواه مسلم (٢٣٤٦).

ذَنْبِها وما تأخَّرَ، ما أسَرَّتْ وما أعلَنَتْ. فضَحِكَت عائِشةُ حتَّى سَقَط رأسُها في حِجْرِها مِنَ الضَّحِكِ! قال لها رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أيَسُرُّكِ دُعائي؟ فقالت: وما لي لا يَسُرُّني دُعاؤُك؟! فقال صلَّى الله عليه وسلَّم: واللهِ إنَّها لَدُعائي لِأُمَّتي في كُلِّ صَلاةٍ))(١).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا صلَّى على جِنازةٍ يقولُ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لِحَيِّنا ومَيِّتِنا، وشاهِدِنا وغائِبِنا، وصَغيرِنا وكَبيرِنا، وذَكَرِنا وأُنثانا، اللَّهُمَّ مَن أحيَيْتَه مِنَّا فأحْيِه على الإسلامِ، ومَن تَوَفَّيْتَه مِنَّا فتَوَفَّه على الإيمانِ، اللَّهُمَّ لا تَحرِمْنا أجْرَه، ولا تُضِلَّنا بَعْدَه))(٢).

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾.

أي: واللهُ يَعلَمُ تصَرُّفَكم وحَرَكاتِكم، ويَعلَمُ مَوضِعَ سُكونِكم وقَرارِكم للرَّاحةِ(٣).

(١) أخرجه البزَّارُ كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (٩/ ٢٤٦)، وابن حِبَّان (٧١١١) واللَّفظُ له.
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وقال الهيثمي: (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ غيرَ أحمدَ بنِ منصورٍ الرَّماديِّ، وهو ثقةٌ). وحَسَّن إسنادَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٥/ ٣٢٤)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٧١١١).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٣٢٠١)، والترمذيُّ بعد حديث (١٠٢٤)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠٩١٩)، وابنُ ماجه (١٤٩٨) واللفظ له، وأحمدُ (٨٨٠٩).
صَحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (٩٧)، وابن الملَقِّن في ((البدر المنير)) (٥/ ٢٧١)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٤٩٨)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٣٢٠١)، وقال ابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٣٥٦): (له شاهِدانِ وسَنَدُهما جيِّدٌ).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٦).
قيل: المرادُ بـ﴿مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾: تصَرُّفُكم وحَركتُكم وانتِشارُكم في النَّهارِ، والمرادُ بـ(مَثْوَاكُمْ): مأواكم باللَّيلِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ كثير. =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مَن عَمِلَ بما عَلِمَ أورَثَه اللهُ عِلمَ ما لم يَعلَمْ، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا

= يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧).

وقيل: المرادُ بـ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾: مُتصَرَّفُكم في أعمالِكم وأشغالِكم. والمرادُ بـ(مَثْوَاكُمْ): مَرجِعُكم في الدُّنيا والآخرةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣).

وذهب القُرطبيُّ إلى العُمومِ، فقال: (﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ فيه خَمسةُ أقوالٍ:

أحدُها: يَعلَمُ أعمالَكم في تصَرُّفِكم وإقامتِكم.

الثَّاني: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في أعمالِكم نهارًا. ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في لَيلِكم نِيامًا.

وقيل: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدُّنيا. ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في الدُّنيا والآخِرةِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ.

وقال عِكرِمةُ: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في أصلابِ الآباءِ إلى أرحامِ الأُمَّهاتِ. ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ مُقامَكم في الأرضِ.

وقال ابنُ كَيْسانَ: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ مِن ظَهرٍ إلى بَطنٍ إلى الدُّنيا. ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في القُبورِ.

قُلتُ: والعُمومُ يأتي على هذا كُلِّه، فلا يخفى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن حَرَكاتِ بني آدَمَ وسَكَناتِهم، وكذا جميعُ خَلْقِه. فهو عالِمٌ بجَميعِ ذلك قبْلَ كَونِه جُملةً وتَفصيلًا، أُولى وأُخرى، سُبحانَه! لا إلهَ إلَّا هو). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٢، ٢٤٣). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا * وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا * وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾[١] [النساء: ٦٦- ٦٨].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴾ فيه الحَثُّ على الاستِعدادِ قبْلَ مُفاجأةِ الموتِ؛ فإنَّ مَوتَ الإنسانِ قيامُ ساعتِه[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ العِلمُ لا بُدَّ فيه مِن إقرارِ القَلبِ ومَعرفتِه بمعنى ما طُلِبَ منه عِلمُه، وتمامُه أن يَعمَلَ بمُقتَضاه. وهذا العِلمُ الَّذي أمَرَ اللهُ به -وهو العِلمُ بتوحيدِ اللهِ- فَرضُ عَينٍ على كُلِّ إنسانٍ، لا يَسقُطُ عن أحدٍ كائنًا مَن كان، بل كُلٌّ مُضطَرٌّ إلى ذلك، والطَّريقُ إلى العِلمِ بأنَّه لا إلهَ إلَّا هو- أمورٌ:

أحدُها بل أعظَمُها: تدبُّرُ أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه الدَّالَّةِ على كَمالِه وعَظَمتِه وجلالتِه؛ فإنَّها توجِبُ بَذْلَ الجُهدِ في التَّألُّهِ له، والتَّعبُّدَ للرَّبِّ الكامِلِ الَّذي له كُلُّ حَمدٍ ومَجدٍ وجَلالٍ وجَمالٍ.

الثَّاني: العِلمُ بأنَّه تعالى المنفَرِدُ بالخَلقِ والتَّدبيرِ، فيُعلَمُ بذلك أنَّه المنفَرِدُ بالأُلوهيَّةِ.

الثَّالثُ: العِلمُ بأنَّه المُنفَرِدُ بالنِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ؛ فإنَّ ذلك يُوجِبُ تَعلُّقَ القَلبِ به ومحبَّتَه، والتَّألُّهَ له وَحْدَه لا شريكَ له.

الرَّابعُ: ما نَراه ونَسمَعُه مِن الثَّوابِ لأوليائِه القائِمينَ بتَوحيدِه مِن النَّصرِ والنِّعَمِ العاجِلةِ، ومِن عُقوبتِه لأعدائِه المُشرِكينَ به؛ فإنَّ هذا داعٍ إلى العِلمِ بأنَّه تعالى وَحْدَه المُستَحِقُّ للعبادةِ كُلِّها.

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧).

الخامسُ: مَعرفةُ أوصافِ الأوثانِ والأندادِ الَّتي عُبِدَتْ مع اللهِ، واتُّخِذَتْ آلهةً، وأنَّها ناقِصةٌ مِن جميعِ الوُجوهِ، فقيرةٌ بالذَّاتِ، لا تَملِكُ لِنَفْسِها ولا لِعابِدِيها نفعًا ولا ضرًّا، ولا مَوتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، ولا يَنصُرونَ مَن عَبَدَهم، ولا يَنفعونَهم بمِثقالِ ذَرَّةٍ؛ مِن جَلْبِ خَيرٍ، أو دَفعِ شَرٍّ؛ فإنَّ العِلمَ بذلك يُوجِبُ العِلمَ بأنَّه لا إلهَ إلَّا هو، وبُطلانَ إلهيَّةِ ما سِواه.

السَّادِسُ: اتِّفاقُ كُتُبِ اللهِ على ذلك، وتواطُؤُها عليه.

السَّابعُ: أنَّ خواصَّ الخَلقِ الَّذين هم أكمَلُ الخليقةِ أخلاقًا وعُقولًا، ورأيًا وصوابًا وعِلمًا -وهم الرُّسُلُ والأنبياءُ والعُلَماءُ الرَّبَّانيُّونَ-: قد شَهِدوا لله بذلك.

الثَّامنُ: ما أقامه اللهُ مِن الأدِلَّةِ الأُفُقيَّةِ والنَّفْسيَّةِ الَّتي تدُلُّ على التَّوحيدِ أعظَمَ دَلالةٍ، وتُنادي عليه بلِسانِ حالِها بما أودَعَها مِن لطائِفِ صَنعتِه، وبَديعِ حِكمتِه، وغرائِبِ خَلْقِه.

فهذه الطُّرُقُ الَّتي أكثَرَ اللهُ مِن دَعوةِ الخَلقِ بها إلى أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأبداها في كتابِه وأعادَها: عندَ تأمُّلِ العَبدِ في بَعضِها لا بُدَّ أن يكونَ عِندَه يقينٌ وعِلمٌ بذلك، فكيف إذا اجتَمَعت وتواطَأت واتَّفَقت، وقامَتْ أدِلَّةُ التَّوحيدِ مِن كُلِّ جانبٍ؟ فهناك يَرسَخُ الإيمانُ والعِلمُ بذلك في قَلبِ العبدِ، بحيث يكونُ كالجِبالِ الرَّواسي، لا تُزَلزِلُه الشُّبَهُ والخَيالاتُ، ولا يَزدادُ -على تكَرُّرِ الباطِلِ والشُّبَهِ- إلَّا نُمُوًّا وكَمالًا.

هذا، وإنْ نظَرْتَ إلى الدَّليلِ العَظيمِ، والأمرِ الكبيرِ -وهو تدَبُّرُ هذا القُرآنِ العظيمِ، والتَّأمُّلُ في آياتِه- فإنَّه البابُ الأعظَمُ إلى العِلمِ بالتَّوحيدِ، ويَحصُلُ به مِن تفاصيلِه وجُمَلِه ما لا يَحصُلُ في غَيرِه(١).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ من اللَّطائِفِ القُرآنيَّةِ أنْ أمَرَ هنا بالعِلمِ قبْلَ الأمرِ بالعَمَلِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾، قال ابنُ عُيَيْنةَ لَمَّا سُئِلَ عن فَضلِ العِلمِ: (ألم تَسمَعْ قَولَه حينَ بدَأَ به: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثمَّ أمَره بالعمَلِ، فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾)[(١)]. وترجَمَ البُخاريُّ في كتابِ العِلمِ مِن «صَحيحِه»[(٢)]: بابُ العِلمِ قبْلَ القَولِ والعَمَلِ؛ لِقَولِ الله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فبدأَ بالعِلمِ[(٣)].

٥- الاستِغفارُ والتَّوحيدُ بهما يَكمُلُ الدِّينُ، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ * وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾[(٤)] [هود: ١-٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ فيه إعلامٌ بأنَّه يَجِبُ على الإنسانِ بعدَ تكميلِ نَفْسِه السَّعيُ في تكميلِ غَيرِه؛ لِيَحصُلَ التَّعاوُنُ على ما خُلِقَ العِبادُ له[(٥)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾، أي: هو عالِمٌ بجَميعِ أحوالِكم، لا يَخفى عليه شَيءٌ منها؛ فاحْذَروه[(٦)]، والمَقصودُ: الحَثُّ على الخَوفِ وطَلَبِ المَغفرةِ مِن اللهِ الَّذي لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أحوالِ الخَلقِ[(٧)].

---

(١) أخرجه أبو نُعَيم في ((حلية الأولياء)) (٧/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((صحيح البخاري)) (١/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل لابن تيمية)) (٢/ ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٦٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- السَّمعُ بلا عَقلٍ لا يَنفَعُ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾[1]، وذلك بناءً على أنَّهم لم يَعْقِلوا ما يقولُ.

٢- قَولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ مِن الأدِلَّةِ الدَّالَّةِ على وُجوبِ اتِّباعِ الصَّحابةِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى شَهِدَ لهم بأنَّهم أُوتوا العِلمَ، وإذا كانوا أُوتوا هذا العِلمَ كان اتِّباعُهم واجِبًا[2].

٣- يُطبَعُ على قَلبِ العَبدِ باتِّباعِ الهَوى؛ قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ؛ حيثُ أخبَرَ سُبحانَه بالطَّابَعِ عنه، وباتِّباعِ الهوى عنهم[4].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ؛ حيثُ أخبَرَ سُبحانَه عن إعطائِهم التَّقْوى[5].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ حُجَّةٌ على المُرجِئةِ -المُنكِرينَ زيادةَ الإيمانِ ونُقصانَه- في زيادةِ الهُدى[6]. وكذلك قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ الآيةَ، وقَولُه: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ الآيةَ؛ ففي هذه الآياتِ وغيرِها التَّصريحُ بزيادةِ الإيمانِ، وتدُلُّ هذه الآياتُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٥١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بدَلالةِ الالتِزامِ على أنَّه يَنقُصُ أيضًا؛ لأنَّ كلَّ ما يَزيدُ يَنقُصُ، وجاء مُصرَّحًا به في أحاديثِ الشَّفاعةِ الصَّحيحةِ[١]، وهذا مِن أعظَمِ أُصولِ أهلِ السُّنَّةِ الَّذي فارَقوا به الجَهميَّةَ والمُرجِئةَ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ أنَّ المعاصيَ سَبَبٌ لِنسيانِ العِلمِ؛ وَجْهُه: أنَّه إذا كانتِ الهدايةُ سَببًا لزيادةِ العِلمِ، فالمَعصيةُ سَبَبٌ لِنُقصانِها[٣]، فمَن أراد سَعةَ العِلمِ وثُبوتَ العِلمِ فعليه بطاعةِ اللهِ؛ لأنَّه كُلَّما اهْتَدى الإنسانُ بهدايةِ اللهِ ازداد هُدًى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[٤].

٨- اللهُ سُبحانَه وتعالى هو الهادي وهو المُضِلُّ لِمَن يشاءُ، لكِنَّ سببَ الهدايةِ وسببَ الإضلالِ يكونُ مِن العبدِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾، فإذا علِمَ اللهُ مِن العَبدِ أنَّ نِيَّتَه الهُدى وطلَبَه الهُدى هَداه، وإذا زاغَ القَلبُ أزاغَه اللهُ، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٥] [الصف: ٥].

٩- إنَّ كُلَّ مَنِ استقرأَ أحوالَ العالَمِ وَجَدَ المسلمينَ أحَدَّ وأسَدَّ عَقلًا، وأنَّهم يَنالونَ في المدَّةِ اليسيرةِ مِن حقائقِ العُلومِ والأعمالِ أضعافَ ما يَنالُه غَيرُهم في قُرونٍ وأجيالٍ، وكذلك أهلُ السُّنَّةِ والحَديثِ، تَجِدُهم كذلك مُتمَتِّعينَ؛ وذلك لأنَّ اعتِقادَ الحقِّ الثَّابتِ يُقَوِّي الإدراكَ ويُصَحِّحُه؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) (٣/ ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٥).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٣٥٢).

هُدَى ﴾[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ثَوابَ الحَسَنةِ الحَسَنةُ بَعدَها[2].

١١- قال الله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ في هذه الآيةِ لَطيفةٌ، وهي: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم له أحوالٌ ثلاثةٌ: حالٌ مع اللهِ، وحالٌ مع نَفْسِه، وحالٌ مع غيرِه؛ فأمَّا مع اللهِ فوَحِّدْه، وأمَّا مع نَفْسِك فاستَغفِرْ لِذَنْبِك، واطلُبِ العِصمةَ مِن اللهِ، وأمَّا مَعَ المُؤمِنينَ فاستَغفِرْ لهم، واطلُبِ الغُفرانَ لهم مِنَ اللهِ تعالى[3].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فيه سؤالٌ: النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان عالِمًا بذلك، فما معنى الأمرِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المعنى: فاثبُتْ على ما أنت عليه مِنَ العِلمِ، كقَولِ القائِلِ لجالِسٍ يُريدُ القِيامَ: اجلِسْ، أي: لا تَقُمْ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ الخِطابَ مع النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والمرادُ قَومُه[4].

١٣- ينبغي للإنسانِ إذا أراد أنْ يُؤدِّيَ عِبادةً أن يَفهَمَ أحكامَها أوَّلًا قبلَ أن يَتلبَّسَ بها؛ لئَلَّا يَقعَ في محظورٍ منها، أو في تَركِ واجِبٍ؛ لأنَّ هذا هو الَّذي أمَرَ اللهُ به، فقال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ فبَدَأ بالعِلمِ قبلَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

العمَلِ: (اعلَمْ) و(استَغفِرْ)(١).

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ استدَلَّ به مَن أجاز الصَّغائِرَ على الأنبياءِ(٢).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أنَّ المَدعُوَّ له يَنتَفِعُ بدُعاءِ الغَيرِ(٣).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ قيلَ: أرْجى آيةٍ للمُؤمِنينَ هذه الآيةُ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ أمَرَ رسولَه عليه السَّلامُ أن يَستغفِرَ لهم، فلا يُحتمَلُ ألَّا يَستغفِرَ وقد أمَرَه مَوْلاه بالاستِغفارِ، ثمَّ لا يُحتمَلُ أيضًا أنَّه إذا استغفَرَ لهم على ما أمَرَه به فلا يُجيبَ له(٤)، ولا نَشُكُّ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فعَلَ ما أمَرَه اللهُ به مِن الاستِغفارِ للمُؤمنينَ والمُؤمناتِ؛ فهذا دُعاءٌ لا نَشُكُّ -إنْ شاء اللهُ- أنَّ اللهَ قد أجابَه لِنُوحٍ وإبراهيمَ ومُحمَّدٍ والملائكةِ؛ فمَن مات على الإيمانِ فهو داخِلٌ تحتَ الدَّعَواتِ المَذكوراتِ -إنْ شاء اللهُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢١/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٨).

قال ابن تيميَّة: (تنازَعوا: هل يقَعُ مِن الأنبياءِ بعضُ الصَّغائرِ مع التَّوبةِ منها، أو لا يقعُ بحالٍ؟ فقال بعضُ مُتكلِّمي الحديثِ وكثيرٌ مِن المتكلِّمينَ مِن الشِّيعةِ والمُعتزِلة: لا تقعُ منهمُ الصَّغيرةُ بحالٍ، وزاد الشِّيعةُ حتَّى قالوا: لا يقعُ منهم لا خطأٌ ولا غيرُ خطأ. وأمَّا السَّلفُ وجمهورُ أهلِ الفقهِ والحديثِ والتَّفسيرِ وجمهورُ متكلِّمي أهلِ الحديثِ مِن الأشعريَّةِ وغيرِهم فلم يَمنعوا وُقوعَ الصَّغيرةِ إذا كان مع التَّوبةِ؛ كما دلَّت عليه النُّصوصُ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ؛ فإنَّ اللهَ يُحبُّ التَّوَّابينَ. وإذا ابتُلِيَ بعضُ الأكابرِ بما يَتوبُ منه فذاك لِكَمالِ النِّهايةِ، لا لِنَقصِ البِدايةِ). ((المُستدرَك على مجموع الفتاوى)) (١/ ٢٠٨). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٧/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٧٥)، ((روح البيان)) للخَلْوتي (٨/ ٥١١).

(٥) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٥١).

١٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ ذِكرُ المؤمِناتِ بعدَ المُؤمِنينَ اهتِمامٌ بهِنَّ في هذا المَقامِ، وإلَّا فإنَّ الغالِبَ اكتِفاءُ القُرآنِ بذِكرِ المؤمِنينَ، وشُمولُه للمُؤمِناتِ على طريقةِ التَّغليبِ؛ للعِلمِ بعُمومِ تكاليفِ الشَّريعةِ للرِّجالِ والنِّساءِ، إلَّا ما استُثنِيَ مِن التَّكاليفِ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ جانِبٍ آخَرَ مِنِ اسْتِهزائِهم وتَعنُّتِهم -على قولٍ-؛ فقدْ كانوا يَحضُرون مَجلِسَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيَسْمَعون كَلامَه ولا يَعُونَه، ولا يُلْقُون إليه بالًا، فإذا خَرَجوا مِن المَجلِسِ سأَلوا أهْلَ العِلمِ مِن الصَّحابةِ: ماذا قال السَّاعةَ؟ على جِهةِ الاسْتِهزاءِ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وما كان يَقولُه، أو اسْتِعلامًا -على قولٍ آخَرَ-؛ إذ لم يُلْقوا له آذانَهم تَهاوُنًا به[2]، فما كانوا يُبالونَ بما يَتلو عليهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الآياتِ والهدَى، وأيضًا لِبَلادَتِهم وقِلَّةِ فَهمِهم، فلا يَعقِلون ما يُقالُ[3].

- والاستِماعُ: أشدُّ السَّمْعِ وأقواهُ، أي: يَستمِعون باهتِمامٍ يُظهِرون أنَّهم حَرِيصونَ على وَعْيِ ما يَقولُه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّهم يُلقُون إليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٩).

بالَهُم، وهذا مِن استِعمالِ الفِعلِ في مَعنى إظْهارِه، لا في مَعنى حُصولِه(١).

- قولُه: ﴿وَمِنْهُم يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، أي: يَستمِعون إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن القُرآنِ وما يَقولُه مِن الإرشادِ، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَسْتَمِعُ﴾؛ لِيَشملَ ذلك(٢).

- قولُه: ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ﴾ سِياقُ الكَلامِ يدُلُّ على ذَمِّ هذا السُّؤالِ؛ لِقَولِه عَقِبَه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾؛ فهو سُؤالٌ يُنبِئُ عن مَذمَّةِ سائِلِيه، فإنْ كان سُؤالُهم حَقيقةً، أنْبَأَ عن قِلَّةِ وَعْيِهم لِمَا يَسْمَعونَه مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فهمْ يَسْتعيدونَه مِن الَّذين عَلِمُوه؛ فلَعلَّ اسْتِعادتَهم إيَّاهُ لِقَصْدِ أنْ يَتدارَسُوه إذا خَلَوا معَ إخْوانِهم؛ لِيَختَلِقوا مَغامِزَ يُهيِّئونَها بيْنَهم، أو أنْ يُجيبوا مَن يَسأَلُهم مِن إخْوانِهم عمَّا سَمِعوه في المجلِسِ الَّذي كانوا فيه. ويَجوزُ أنْ يكونَ السُّؤالُ على غَيرِ حَقيقتِه ناوينَ به الاسْتِهزاءَ، يُظهِرون لِلْمؤمنينَ اهْتمامَهم باسْتِعادةِ ما سَمِعوه ويَقولونَ لإخوانِهم: إنَّما نحنُ مُستهزِئون، أو أنْ يكونَ سُؤالُهم تَعريضًا بأنَّهم سَمِعوا كَلامًا لا يَستبِينُ المُرادُ منه؛ لإدْخالِ الشَّكِّ في نُفوسِ مَن يُحِسُّون منْهم الرَّغبةَ في حُضورِ مَجالِسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَعريضًا بقِلَّةِ جَدْوى حُضورِها. ويَجوزُ أنْ تكونَ الآيةُ أشارَتْ إلى حادثةٍ خاصَّةٍ ذكَرَ فيها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُنافِقينَ وأحوالَهم، وعَلِمَ الَّذين كانوا حاضِرِين منهم أنَّهم المَعنيُّون بذلك، فأرادوا أنْ يَسأَلُوا سُؤالَ اسْتِطلاعٍ: هل شَعَرَ أهْلُ العِلمِ بأنَّ أولئك همُ المَعنيُّون؟ فيَكونَ مَفعولُ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ مَحْذوفًا؛ لِلعِلمِ به عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٠٠، ١٠١).

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَهم: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ سُؤالٌ غَريبٌ مِن شَأْنِه إثارةُ سُؤالِ مَن يَسأَلُ عن سَببِ حُصولِه[١].

- وفي قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ جِيءَ باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بعْدَ ذِكرِ صِفاتِهم؛ تَشْهيرًا بهم[٢]. وكذلك جِيءَ بالمَوصولِ وصِلَتَيْه خبرًا عن اسمِ الإشارةِ؛ لإفادةِ أنَّ هؤلاء المُتميِّزينَ بهذه الصِّفاتِ همْ أشخاصُ الفَريقِ المُتقرِّرِ بيْن النَّاسِ أنَّهم فَريقٌ مَطبوعٌ على قُلوبِهم؛ لأنَّه قدْ تَقرَّرَ عِندَ المُسلِمينَ أنَّ الَّذين صَمَّموا على الكُفْرِ همْ قد طبَعَ اللهُ على قُلوبِهم، وأنَّهم مُتَّبِعون لأهوائِهم؛ فأفادَتْ أنَّ هؤلاء المُستمِعين زُمرةٌ مِن ذلك الفَريقِ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ وما فُرِّعَ عنْها مِن قَولِه: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾، والواوُ اعتِراضيَّةٌ، والمَقصودُ مِن هذا الاعتِراضِ مُقابَلةُ فَريقِ الضَّلالةِ بفَريقِ الهِدايةِ على الأُسلوبِ الَّذي أُقِيمَتْ عليه هذه السُّورةُ، كما تَقدَّمَ في أوَّلِها؛ فهذا أُسلوبٌ مُستمِرٌّ وإنِ اختَلَفَت مَواقِعُ جُمَلِه[٤].

- وإضافةُ التَّقْوى إلى ضَميرِ (الَّذِينَ اهْتَدَوْا) إيماءٌ إلى أنَّهم عُرِفوا بها، واختُصَّتْ بهم[٥].

- وفي إسنادِ ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ إلى اللهِ تعالى، وإسنادِ مُتابَعةِ الهَوى إليهم؛ إيماءٌ إلى مَعنى قَولِ إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٠٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَشۡفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وتَلويحٌ إلى أنَّ مُتابَعةَ الهَوى مَرَضٌ رُوحانيٌّ، ومُلازَمةَ التَّقوى دَواءٌ إلَهيٌّ؛ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾[1] [الإسراء: ٨٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴾ تفريعٌ على ما مَضَى مِن وَصْفِ أحوالِ الكافِرينَ -من قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾- الشَّامِلةِ لأحوالِ الفَريقينِ، ففُرِّعَ عليها أنَّ كِلا الفَريقَينِ يَنتظِرون حُلولَ السَّاعةِ؛ لِينالوا جَزاءَهُم على سُوءِ كُفْرِهم؛ فضميرُ ﴿يَنظُرُونَ ﴾ مرادٌ به الكافِرونَ، فالكلامُ تَهديدٌ ووَعيدٌ، ولأنَّ المُؤمنينَ يَنتظِرون أُمورًا أُخَرَ؛ مِثلَ النَّصرِ والشَّهادةِ، قال تَعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ ﴾ الآيةَ[2] [التوبة: ٥٢].

- قولُه: ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ ﴾ الاستِفهامُ إنكارٌ مَشوبٌ بتهكُّمٍ، وهو إنْكارٌ وتَهكُّمٌ على غائبينَ، مُوجَّهٌ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: لا تَحسَبْ تَأخيرَ مُؤاخَذتِهم إفلاتًا مِن العِقابِ؛ فإنَّهم مُرْجَوْنَ إلى السَّاعةِ[3].

- والقَصْرُ الذي أفادَهُ الاستِثناءُ ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ في قَولِه: ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ ﴾ قَصْرٌ ادِّعائيٌّ[4]؛ نُزِّلَ انتِظارُهم ما يَأْملونَه مِن المَرْغوباتِ في الدُّنيا مَنزِلةَ العَدَمِ؛ لِضآلَةِ أمْرِه، بعْدَ أنْ نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَنتظِرون -فيما يَنتظِرون- السَّاعةَ؛ لأنَّهم -لِتَحقُّقِ حُلولِه عليهم- جَديرون بأنْ يَكونوا مِن

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٤٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٠٢، ١٠٣).
(٤) تقدم تعريفه (ص: ٥٩).

مُنتظِريها[١].

- وقولُه: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ تَعليلٌ لِمُفاجأةِ السَّاعةِ، لا لإتيانِها مُطلقًا، على مَعنى أنَّه لمْ يَبْقَ مِن الأُمورِ المُوجِبةِ لِلتَّذكُّرِ أمْرٌ مُترقَّبٌ يَنتظِرونَه سِوى إتيانِ نفْسِ السَّاعةِ؛ إذْ قد جاءَ أشْراطُها، فلمْ يَرفَعُوا لها رأسًا، ولم يَعُدُّوها مِن مَبادئِ إتْيانِها؛ فيكونُ إتيانُها بطَريقِ المُفاجأةِ لا مَحالةَ[٢].

- قولُه: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ (أنَّى) استِفهامٌ إنكاريٌّ، أي: كيف يَحصُلُ لهم الذِّكرى إذا جاءَتْهم السَّاعةُ؟! والمَقصودُ: إنكارُ الانتِفاعِ بالذِّكرى حِينَئذٍ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ حُكْمٌ بخَطئِهم وفَسادِ رأْيِهم في تَأْخيرِ التَّذكُّرِ إلى إتيانِها ببَيانِ اسْتِحالةِ نفْعِ التَّذكُّرِ حِينَئذٍ، أي: وكيفَ لهم ذِكْراهُم إذا جاءَتْهُم؟! على أنَّ (أنَّى) خَبرٌ مُقدَّمٌ، و﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾ مُبتدأٌ، و﴿إِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ اعتِراضٌ وُسِّطَ بيْنَهما رمْزًا إلى غايةِ سُرْعةِ مَجيئِها، وإطلاقُ المَجيءِ عن قَيدِ البَغتةِ؛ لِمَا أنَّ مَدارَ اسْتِحالةِ نفْعِ التَّذكُّرِ كَونُه عِندَ مَجيئِه مُطلقًا، لا مُقيَّدًا بقَيدِ البَغتةِ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ تَفريعٌ على جَميعِ ما ذُكِرَ مِن حالِ المُؤمنينَ وحالِ الكافِرين؛ لَمَّا ذكَرَ حالَ المُؤمنينَ وحالَ الكافِرين، وفُصِلَ بيْن وصْفَيْهما من السَّعادةِ والشَّقاوةِ، مِن مُفتتَحِ السُّورةِ مرَّةً بعْدَ أُخرى؛ قال: إذا عَلِمْتَ أنَّ الأمْرَ كما ذُكِرَ مِن سَعادةِ هؤلاءِ وشَقاوةِ هؤلاءِ، فاثْبُتْ على ما أنتَ عليه مِن العِلْمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٧).

بوَحدانيَّةِ اللهِ، وعلى التَّواضُعِ وهضْمِ النَّفْسِ باستِغْفارِ ذَنْبك وذُنوبِ مَن على دِينِك، والتَّفريعُ هذا مَزيدُ مُناسَبةٍ لِقَولِه آنِفًا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[1] [محمد: ١١].

- والأمْرُ في قَولِه: ﴿فَٱعْلَمْ﴾ كِنايةٌ عن طَلَبِ العِلْمِ، وهو العمَلُ بالمَعلوم، وذلك مُستعمَلٌ في طَلَبِ الدَّوامِ عليه؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد عَلِمَ ذلك وعَلِمَه المُؤمنون، وإذا حصَلَ العِلمُ بذلك مرَّةً واحدةً تَقرَّرَ في النَّفْسِ؛ لأنَّ العِلمَ لا يَحتمِلُ النَّقيضَ، فليس الأمْرُ به بعْدَ حُصولِه لِطَلَبِ تَحصيلِه، بلْ لِطَلَبِ الثَّباتِ[2].

- والأمْرُ في قَولِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ لِطَلَبِ تَجديدِ ذلك إنْ كان قد عَلِمَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن قبْلُ وعَمِلَه، أو هو لِطَلَبِ تَحصيلِه إنْ لم يكُنْ فَعَلَه مِن قبْلُ[3].

- قولُه: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾، أي: لِذُنوبِهم، وفي إعادةِ الجارِّ تَنْبيهٌ على اختِلافِ مُتَعلَّقَيه جِنْسًا، وفي حَذْفِ المُضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه مُقامَهُ إشْعارٌ بعَراقتِهم في الذَّنْبِ -فكأنَّ ذَواتَهم عَينُ الذُّنوبِ- وفَرْطِ افتِقارِهم إلى الاستغفارِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٤، ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢١١).

- واللَّامُ في قَولِه: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لامُ العِلَّةِ، أو بمَعْنى (عن)، والمَفعولُ مَحذوفٌ، أي: اسْتغْفِرِ الذُّنوبَ مِن أجْلِ المُؤمنينَ، وفي الكَلامِ حَذْفٌ، تَقديرُه: ولِلْمؤمنينَ لِذُنوبِهم[١].

- وجُملةُ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ تَذْييلٌ جامِعٌ لِأحوالِ ما تَقدَّمَ؛ فالمُتقلَّبُ: مَصدرٌ بمَعنى التَّقلُّبِ؛ أُوثِرَ جَلْبُه هنا لِمُزاوَجةِ قَولِه: ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٠-٢٤)

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ
رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ
٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١ فَهَلۡ
عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ
فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾: أي: لا نَسْخَ فيها، أو مُحكَمةٌ بالبَيانِ والفرائِضِ، والمُحْكَمُ: ما لا يَعرِضُ فيه شُبهةٌ مِن حيثُ اللَّفظُ، ولا مِن حيثُ المعنى، وأصلُ (حكم): يدُلُّ على المَنعِ[1].

﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾: قيل: هو أفعَلُ، مِنَ الوَلْيِ: وهو القُربُ، ومَعناه التَّوَعُّدُ والتَّهَدُّدُ، أي: وَلِيَهم المكروهُ، وقارَبهم ما يُهلِكُهم. وقيل: وَعيدٌ بمعنى: فوَيلٌ لهم، وأصلُ أَوْلى: أَوْيَلُ، مأخوذٌ مِنَ الوَيلِ، أي: أشَدُّ وَيلًا، فوقَعَ فيه قَلبٌ، وقيل غيرُ ذلك[2].

﴿عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: أي: جَدَّ الأمرُ وفُرِض القِتالُ، والعزمُ والعزيمةُ: عقْدُ القلبِ على إمضاءِ الأمرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٥٠)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (١٠/ ٤٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٤١١)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٤٠/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٨)، ((الهداية =

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾: أي: لَعلَّكم، يُقالُ: عسَى زَيدٌ أنْ يخرُجَ، أي: لَعَلَّه يَخرُجُ، وعسَى كلمةُ تَرَجٍّ، تقولُ: عسَى يكونُ كذا. وهي تدُلُّ على قُربٍ وإمكانٍ، فهي لِمُقارَبةِ الأمرِ على سبيلِ الرَّجاءِ والطَّمعِ، أي: لِتَوقُّعِ حُصولِ ما لم يَحصُلْ، سواءٌ يُرْجَى حُصولُه عن قريبٍ أو بعدَ مُدَّةٍ مديدةٍ[١].

﴿ أَرْحَامَكُمْ ﴾: أي: ذَوِي قراباتِكم، والرَّحِمُ هو النَّسَبُ والاتِّصالُ الَّذي يَجمَعُه رحِمُ والِدَةٍ فسُمِّيَ باسمِه، وأصلُ (رحم): يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطفِ والرَّأفةِ؛ سُمِّيَ به رَحِمُ المرأةِ؛ لأنَّ منه يكونُ ما يُرحَمُ ويُرَقُّ له مِن وَلَدٍ[٢].

﴿ لَعَنَهُمُ ﴾: أي: أخْزاهم وأبْعَدَهم وطَرَدَهم مِن رَحمتِه، وأصلُ اللَّعْنِ: يدُلُّ

= إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٧١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٣٥).

قال ابنُ المُظَفَّرِ الرَّازيُّ: (لقائلٍ أن يقولَ: كيف دخلَتْ «هلْ» وهي مِن حروفِ الاستِفهامِ على «عسى» وهي مِن أفعالِ التَّرجِّي، وهو مُفَسَّرٌ بـ «لَعَلَّ»؟ وهل يُقالُ: هل لَعلَّك تَزورُني؟! ثمَّ كيف قال: إنْ أعرَضْتُم أن تُفسِدوا؟ وهل يقالُ: إن زُرْتَني أن أُكرِمَك؟

والجواب: أنَّ «هلْ» مِن حروفِ الاستِفهامِ، ولكنَّه هاهنا استِفهامُ التَّقريرِ؛ لأنَّه مِن الله تعالى. و«عسى» و«لَعلَّ» مِن اللهِ تعالى واجِبانِ، وأمَّا «إن أعرَضْتُم أن تُفسِدوا» فعلى الإضمارِ، يعني: إن أعرَضْتُم يكونُ حالُكم أن تُفسِدوا، وإن وليتُم أمرَ النَّاسِ يكونُ حالُكم أن تَقطَعوا أرحامَكم. ويجوزُ أن يكونَ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، تقديرُه: فهل عسَيْتُم أن تُفسِدوا في الأرضِ إن تَوَلَّيْتُم. ويجوزُ أن يُقالَ: عسى أن تَسُرَّني إن زُرْتَني.

وإذا كانت «هلْ» استِفهامَ تقريرٍ هاهنا، و«عسى» من الله واجبًا؛ يكونُ المعنى -واللهُ أعلَمُ: إنَّكم إن تَولَّيْتُم عن القرآنِ والعمَلِ به تُفسِدوا في الأرضِ، أو إنَّكم إن وليتُم أمْرَ النَّاسِ تُفسِدوا في الأرضِ وتُقَطِّعوا أرحامَكم). ((مباحث التفسير)) (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٨)، ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (١/ ٢٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

على الطَّردِ والإبعادِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾

(أَولَى): فيه عِدَّةُ أوجُهٍ:

أحَدُها: أنَّه مُبتدَأٌ مَرفوعٌ. و﴿لَهُمْ﴾: جارٌّ ومجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ خبَرٌ، وهي كَلِمةُ تهديدٍ ووعيدٍ، أي: فوَيلٌ لهم، أو الهلاكُ لهم، وسَوَّغ الابتِداءَ بالنَّكرةِ كَوْنُه دُعاءً.

الثَّاني: أنَّ (أَولَى) خبرٌ لِمُبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: فالعِقابُ أو الهلاكُ أَولى لهم، أي: أقرَبُ وأدنى.

الثَّالِثُ: أنَّ (أَولَى): مُبتدأٌ. و﴿لَهُمْ﴾ مُتعَلِّقٌ به، واللَّامُ بمعنى الباءِ. و﴿طَاعَةٌ﴾ في الآيةِ التَّاليةِ خبَرٌ عنه، والتَّقديرُ: أَولَى بهم طاعةٌ دونَ غَيرِها.

الرَّابِعُ: أنَّ (أَولَى): فِعلٌ ماضٍ، وفاعِلُه مُضمَرٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: قارَبَهم ووَلِيَهم ما يُهلِكُهم، واللَّامُ في ﴿لَهُمْ﴾ زائِدةٌ في المفعولِ.

الخامِسُ: أنَّه فِعلٌ ماضٍ، وفاعِلُه ضَميرُ اللهِ عزَّ وجلَّ، واللَّامُ مَزيدةٌ في المفعولِ الأوَّلِ، والمفعولُ الثَّاني محذوفٌ، والتَّقديرُ: أَوْلاهم اللهُ تعالى ما يَكرَهونَ. أو اللَّامُ غيرُ مَزيدةٍ، والمفعولُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: أدنَى اللهُ عزَّ وجلَّ الهلاكَ لهم، وجملةُ ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ استِئنافيَّةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤١).

في رَفعِ ﴿طَاعَةٌ﴾ عِدَّةُ أوجُهٍ:

أحَدُها: أنَّها خَبَرُ المُبتدَأِ (أَولَى) على ما تَقدَّمَ، وعلى هذا الوَجهِ فهي مِن تمامِ ما قَبْلَها؛ فلا يُوقَفُ على ﴿لَهُمْ﴾.

الثَّاني: أنَّها مُبتدَأٌ. ﴿وَقَوْلٌ﴾: مَعطوفٌ مَرفوعٌ مِثلُه، والخَبَرُ مَحذوفٌ، أي: طاعةٌ وقَولٌ مَعروفٌ أمثَلُ لكم مِن غَيرِهما.

الثَّالِثُ: أنَّها خبَرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، أي: أمْرُنا طاعةٌ. وعلى هذينِ الوَجهَينِ فهو كلامٌ مُستَقِلٌّ مُستأنَفٌ محذوفٌ منه أحَدُ الجُزأَينِ؛ فيُوقَفُ على ﴿لَهُمْ﴾، وهو قَولُ الأكثَرينَ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ الله سبحانَه عن تمنِّي المؤمنينَ نزولَ سورةٍ، وحالِ المنافِقينَ إذا دُعُوا للقتالِ والجهادِ في سبيلِ الله، فيقولُ: ويقولُ الَّذين آمَنوا: هلَّا أنزَلَ اللهُ على رَسولِه سُورةً؛ اشتياقًا منهم لِنُزولِ الوَحيِ، فإذا أَنزَلَ اللهُ سُورةً مُحكَمةً، وأوجَبَ فيها قِتالَ الكُفَّارِ؛ رأيتَ -يا محمَّدُ- المُنافِقينَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ يَنظُرونَ إليك نَظَرَ الَّذي غُشِيَ عليه مِن الموتِ؛ لِجُبْنِهم وكَراهِيَتِهم للجِهادِ.

ثمَّ يَتوعَّدُهم اللهُ تعالى ويُهدِّدُهم، فيقولُ: فأَوْلَى لهم. لو أطاعونا، وقالوا قولًا معروفًا، كان أمْثَلَ وأحسَنَ، فإذا وَجَبَ القِتالُ فلو أنَّ المُنافِقينَ صَدَقوا اللهَ في الإيمانِ والجهادِ لَكان صِدقُهم خَيرًا لهم.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٢٣)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٩٨-٧٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٨).

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ سبحانَه حالَ المتولِّي عن طاعةِ ربِّه، وما يُتوقَّعُ منه، فيقولُ: فهل يُتوقَّعُ منكم إن أعرَضْتُم عن الحَقِّ وترَكْتُم الجِهادَ إلَّا أن تَرجِعوا إلى ما كُنتُم عليه في الجاهِليَّةِ مِن الإفسادِ في الأرضِ، وقَطعِ الأرحامِ؟ أُولئِك المُفسِدونَ في الأرضِ المُقطِّعونَ لأرحامِهم هم الَّذين طرَدَهم اللهُ مِن رَحمتِه، فأصَمَّهم فلا يَسمَعونَ سَماعًا يَنتَفِعونَ به، وأعماهم عن رُؤيةِ الحَقِّ.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى بتدبُّرِ القرآنِ وتفهُّمِه، ويَنهَى عن الإعراضِ عنه، فيقولُ: أفلا يَتدَبَّرُ هؤلاءِ المُنافِقونَ القُرآنَ، أم أقفَلَ اللهُ قُلوبَهم؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى حالَ المُنافِقِ والكافِرِ والمُهتَدي المُؤمِنِ عندَ استِماعِ الآياتِ العِلميَّةِ مِن التَّوحيدِ والحَشرِ وغيرِهما بقَولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ [محمد: ١٦]، وقَولِه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: ١٧]؛ بيَّن حالَهم في الآياتِ العمَليَّةِ(١).

وأيضًا لَمَّا جَرى في هذه السُّورةِ وَصفُ حالِ المُنافِقين؛ أُعقِبَ ذلك بوَصفٍ أجْلَى مَظاهِرَ نِفاقِهم، وذلك حينَ يُدْعَى المُسلِمونَ إلى الجهادِ(٢).

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾.

أي: ويقولُ الَّذين آمَنوا: هلَّا أنزَل اللهُ على رَسولِه سُورةً؛ اشتياقًا منهم لِنُزولِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٦).

الوَحيِ، وحِرصًا مِنهم على العَمَلِ بما فيه(١).

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾.

أي: فإذا أنزَلَ اللهُ سُورةً مُحكَمةً(٢)، وأوجَبَ فيها قِتالَ الكُفَّارِ؛ رأيتَ المُنافِقينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٧).

(٢) قيل: المرادُ: مُحكَمةٌ بالبَيانِ والفرائِضِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٠٦).

وقيل: مُحكَمةٌ: غيرُ مَنسوخةٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وابنُ عطية، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥).

قال ابنُ عطية: (أمَّا الإحكامُ الَّذي هو بمعنى الإتقانِ، فالقُرآنُ فيه كُلُّه سَواءٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٧).

وقيل: مُحكَمةٌ: مُبيَّنةٌ لا تَشابُهَ فيها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البَيْضاويُّ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٧).

قال ابنُ عاشور: (وَصْفُ السُّورةِ بـ ﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ باعتبارِ وَصفِ آياتِها بالإحكامِ، أي: عَدَمِ التَّشابُهِ، وانتفاءِ الاحتِمالِ، كما دَلَّت عليه مُقابَلَةُ المُحكَماتِ بالمُتشابِهاتِ في قَولِه تعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران: ٧]، أي: لا تَحتمِلُ آياتُ تلك السُّورةِ المُتعلِّقةُ بالقِتالِ إلَّا وُجوبَ القِتالِ، وعَدَمَ الهَوادةِ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٧).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤).

وقيل: المرادُ: السُّورةُ الَّتي يُذكَرُ فيها الحَلالُ والحرامُ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٠٠).

وقال القاسمي: (﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ أي: مُبيَّنةٌ، لا تَقْبَلُ نَسخًا ولا تأويلًا). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٧٣).

ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٦). =

الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ -يا محمَّدُ- يَنظُرونَ إليك بتحديقٍ شديدٍ، كنَظَرِ المحتضَرِ الَّذي شخَص بصَرُه عندَ الموتِ فلا يَطرِفُ[1]؛ وذلك لِجُبْنِهم وخَوفِهم وكَراهِيَتِهم للجِهادِ[2].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

= وقال الشنقيطي: (أي: مُتقَنةُ الألفاظِ والمعاني، واضِحةُ الدَّلالةِ، لا نَسْخَ فيها). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٥٥).

وقال السعدي: (﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ أي: مُلزَمٌ العمَلُ بها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

(١) ممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: ابنُ قُتَيْبةَ، والسمرقنديُّ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والبِقاعي، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٨).

وقال ابن جرير: (﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ﴾ الَّذي قد صُرِع، وإنَّما عَنَى بقولِه: ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾: مِن خَوفِ الموتِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٧، ١٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥٥، ٢٥٦).

﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾.

أي: يقولُ اللهُ تعالى لأولئك المُنافِقينَ مُحَذِّرًا ومُهَدِّدًا لهم: فأَوْلَى لهم(١).

(١) ممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بها وعيدٌ وتهديدٌ: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، والزمخشري، وابن تيميَّة، والبِقاعي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٥٤) وَ (٢٨/ ٤٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٧، ٢٣٨).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤٩٦).
وقيل: الكَلامُ تمَّ عندَ قولِه: ﴿فَأَوۡلَىٰ﴾، وهو تهديدٌ...، ثمَّ ابتَدَأ فقال: ﴿لَهُمۡ * طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾، قال الواحِديُّ عن هذا القولِ: (هو القولُ الحَسَنُ الَّذي يُعرَفُ حُسنُه وصِحَّتُه، ويجوزُ على هذا القولِ أن يكونَ المعنى: لِلمُنافِقينَ طاعةٌ وقَولٌ مَعروفٌ باللِّسانِ، فإذا جَدَّ الأمرُ تبيَّن كَذِبُهم فيما قالوا، بقُعودِهم عن نُصرةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، يدُلُّ على صحَّةِ هذا سياقُ الآيةِ فيما بَعْدُ). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٥١).
وقال ابنُ سِيْدَه: (قولُه تعالى ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤] معناه: التَّوَعُّدُ والتَّهَدُّدُ، أي: الشَّرُّ أقرَبُ إليك. وقال ثعلبٌ: معناه: دَنَوتَ مِن الهَلَكةِ. وكذلك قَولُه: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، أي: وَلِيَهم المكروهُ، وهو اسمٌ لِدَنَوتَ أو قارَبْتَ). ((المحكم)) (١٠/ ٤٥٨).
وقال الزمخشري: (﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ وعيدٌ بمعنى: فوَيلٌ لهم، وهو أفعَلُ: مِنَ الوَلْيِ، وهو القُربُ، ومعناه: الدُّعاءُ عليهم بأنْ يَلِيَهم المكروهُ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤).
وقال الواحدي: (قال الأصمعيُّ: معنى قولِهم في التَّهديد: أَوْلى لك: وَلِيَك وقارَبَك ما تَكرَهُ... قال ثعلبٌ: ولم يَقُلْ أحدٌ في ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ﴾ أحسَنَ ممَّا قال الأصمعيُّ. وأبو إسحاقَ -يعني: الزَّجَّاجَ- يختارُ هذا القولَ، ويقولُ: المعنى: وَلِيَهم المكروهُ). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٤٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢).
وقال ابن تيميَّة: (﴿... فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ أي: فبُعْدًا لهم). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤٣٨).
وقال البِقاعي: (﴿فَأَوۡلَىٰ﴾ أي: أشَدُّ مَيلٍ ووَيلٍ وانتِكاسٍ وعِثارٍ مُوقِعٍ لهم في الهَلَكةِ: كائِنٌ ﴿لَهُمۡ﴾، أي: خاصٌّ بهم). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٣٨).
وقيل: المرادُ: كان الأَوْلى بهم أن يَسمَعوا ويُطيعوا ويَمتَثِلوا ما أوجَبَه اللهُ عليهم مِنَ الطَّاعاتِ =

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

أي: لو أطاعونا، وقالوا قولًا معروفًا؛ كان أمْثَلَ وأحسَنَ[1].

= في الوَقتِ الرَّاهِنِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

قال السعدي: (أي: فأَوْلى لهم أن يَمتَثِلوا الأمرَ الحاضِرَ المحتَّمَ عليهم، ويُجمِعوا عليه هِمَمَهم، ولا يَطلُبوا أن يُشْرَعَ لهم ما هو شاقٌّ عليهم، ولْيَفرَحوا بعافيةِ الله تعالى وعَفْوِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

وعلى هذا القولِ فهذه الجملةُ ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ متَّصِلةٌ بما بعدَها، واللَّامُ في قولِه: ﴿لَهُمْ﴾ بمعنَى الباءِ، أي: الطَّاعةُ أولَى وألْيَقُ بهم، وأحقُّ لهم مِنْ تركِ امتثالِ أمرِ الله. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٤).

(١) قال الرَّسْعَنيُّ: (قال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ قال الخليلُ وسِيبَوَيهِ: المعنى: طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أمْثَلُ. وقيل: هذا حكايةُ قولِهم، أي: قالوا طاعةٌ، أي: أمْرُنا طاعةٌ وقولٌ معروفٌ...، وذكَر بعضُ المفسِّرينَ أنَّه متَّصِلٌ بما قبْلَه. والمعنى: فأولَى لهم أن يُطيعوا، وأنْ يَقولوا معروفًا). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٦٦).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: أي: أنَّ اللهَ تعالى قال: لو أطاعونا وقالوا قَولًا معروفًا، كان أمْثَلَ وأحسَنَ: الواحديُّ، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٩).

ويُنظر أيضًا: ((الكتاب)) لسيبويه (٢/ ١٣٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ؛ أنَّ هذا حكايةُ قولِهم: ابنُ جرير، والثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١١)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٥).

قال ابن جرير: (قَولُه: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ وهذا خبرٌ مِن الله -تَعالى ذِكرُه- عن قِيلِ هؤلاء المنافِقينَ مِن قبْلِ أنْ تَنزِلَ سورةٌ مُحكَمةٌ ويُذكَرَ فيها القتالُ، وأنَّهم إذا قيل لهم: إنَّ اللهَ مُفتَرِضٌ عليكم الجهادَ، قالوا: سمْعٌ وطاعةٌ. فقال اللهُ عزَّ وجلَّ لهم: فإذا أُنزِلَتْ سورةٌ، وفُرِضَ القتالُ فيها عليهم، فشَقَّ ذلك عليهم وكَرِهوه- ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، قبْلَ وُجوبِ الفرْضِ عليكم، =

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾.

أي: فلو أنَّ المُنافِقينَ إذا وَجَب القِتالُ وحَضَر وَقتُه، صَدَقوا اللهَ في إيمانِهم وجهادِهم؛ لَكان صِدقُهم خَيرًا لهم في دُنياهم وأُخراهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [النور: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا * وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا * وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا * وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٩].

ثمَّ ذَكر تعالى حالَ المُتوَلِّي عن طاعةِ ربِّه، وأنَّه لا يَتولَّى إلى خَيرٍ، بل إلى شرٍّ، فقال[٢]:

﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾.

= فإذا عَزَم الأمرُ كَرِهْتُموه وشَقَّ عليكم). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١١).
والقولُ الثَّالثُ -وهو أنَّ المعنى: أولَى لهم أن يُطيعوا، وأنْ يَقولوا معروفًا- تقدَّمتِ الإشارةُ إليه في الآيةِ السَّابقةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).
قال الواحدي: (يجوزُ أن يكونَ هذا متَّصِلًا بما قبْلَه، على معنى: فأَوْلى لهم طاعةُ الله ورسولِه، وقولٌ معروفٌ بالإجابةِ، أي: لو أطاعوا كانت الطَّاعةُ والإجابةُ أَوْلى لهم. وهذا معنى قول ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عَطاءٍ، واختيارُ الكِسائيِّ). ((الوسيط)) (٤/ ١٢٦).
(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٠، ١١١).
قال ابن جُزَي: (﴿صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ يحتملُ أن يُريدَ صِدقَ اللِّسانِ، أو صِدقَ العَزمِ والنِّيَّةِ وهو أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿تُوُلِّيتُمْ﴾ بضَمِّ التَّاءِ والواوِ، وكَسرِ اللَّامِ المشَدَّدةِ، مبنيًّا للمَفعولِ، مِنَ الوِلايةِ، قيل: معناها: إنْ تولَّاكم وُلاةُ جَورٍ تحَرَّكتُم معهم في الفِتنةِ، وعاوَنتُموهم على ظُلمِهم. وقيل: معناها: إنْ وَلَّيتُكم أُمورَ النَّاسِ[١].

٢- قِراءةُ ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ قيل: معناها: مِنَ الإعراضِ، أي: إن أعرَضتُم عن الحَقِّ. وقيل: معناها: مِنَ الوِلايةِ، أي: إنْ توَلَّيتُم أمورَ النَّاسِ، ووَلِيتُم أعمالَهم[٢].

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: فهل يُتوقَّعُ منكم ويُنتَظَرُ -إن أعرَضْتُم عن الحَقِّ، وترَكتُم الجِهادَ- إلا الإفسادُ في الأرضِ -بالكفرِ والمعاصي وسفْكِ الدِّماءِ-، وقطيعةُ الأرحامِ، والعودةُ إلى ما كنتُم فيه مِن الجاهليَّةِ[٣]؟!

(١) قرأ بها رُوَيسٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤)، ((البدور الزاهرة)) لعبد الفتاح القاضي (ص: ٢٩٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٨)، ((المحتسب)) لابن جنِّي (٢/ ٢٧٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٧٠١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٨)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٧٠١)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٢)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧، ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٠-٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٢).
قال السمعانيُّ: (قَولُه تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فيه قولانِ:
أحدُهما: إن تولَّيتُم ولايةً، أي: كانت لكم ولايةٌ.
والثَّاني: إن تولَّيتُم عن الإيمانِ بالرَّسولِ وبالقُرآنِ؛ أي: أعرَضْتُم، فهل يكونُ منكم سِوى أن تُفسِدوا في الأرضِ، وتقطِّعوا أرحامَكم؟ =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((خَلَق اللهُ الخَلْقَ، فلمَّا فَرَغ منه قامَت الرَّحِمُ فأخَذَت بحَقْوِ[1] الرَّحمنِ، فقال له: مَهْ[2]، قالت: هذا مَقامُ العائِذِ[3] بك مِن القَطيعةِ، قال: ألَا تَرضَينَ أن أصِلَ مَن وَصَلَك، وأقطَعَ مَن قَطَعَك؟ قالت: بلى يا رَبِّ، قال: فذاكِ. قال أبو هُرَيرةَ: اقرَؤوا إنْ شِئتُم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾))[4].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن لهم ما يكونُ ممَّن تَثاقَلَ عن أمرِ اللهِ؛ بيَّن حالَهُم الَّذي أنتجَ لهم ذلك،

= وقيل على القولِ الأوَّلِ: إنَّه قد كان هذا في صدرِ الإسلامِ؛ فإنَّ قُرَيْشًا لَمَّا توَلَّوُا الأمرَ أفسَدوا في الأرضِ وقَطَّعوا الأرحامَ. ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨١).

ممَّن اختار أنَّ التَّوَلِّيَ بمعنى الإعراضِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابن عطية، وابن القيِّم، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٨)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٢).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: صِرتُم وُلاةً: ابنُ جُزَي، والعُلَيْمي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٢٠).

(١) الحَقْوُ: مَعقِدُ الإزارِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٠).

قال ابنُ تيميَّةَ: (هذا الحديثُ في الجملةِ مِن أحاديثِ الصِّفاتِ الَّتي نصَّ الأئمَّةُ على أنَّه يُمَرُّ كما جاء، ورَدُّوا على مَن نفَى مُوجَبَه). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٦/ ٢٢٢).

(٢) مَهْ: اسمُ فِعلٍ معناه الزَّجرُ، أي: اكفُفْ وانزَجِرْ. وقيل: هي هنا ما الاستفهاميَّةُ، حُذِفَت ألِفُها، ووُقِفَ عليها بهاءِ السَّكْتِ، والشَّائعُ ألَّا يُفعَلَ ذلك إلَّا وهي مجرورةٌ، لكِنْ قد سُمِعَ مِثلُ ذلك. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٠).

(٣) العائِذ: أي: المُستَجير. يُنظر: ((شرح القَسْطَلَّاني)) (٧/ ٣٤٣).

(٤) رواه البخاري (٤٨٣٠) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٥٥٤).

فقال[(١)]:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

أي: أُولئِك المُفسِدونَ في الأرضِ المُقَطِّعونَ لأرحامِهم هم الَّذين طرَدَهم اللهُ، وأبْعَدَهم مِن رَحمتِه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٨، ١٩].

وعن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا يَدخُلُ الجَنَّةَ قاطِعُ رَحِمٍ))[(٣)].

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن ذَنْبٍ أجدَرُ أن يُعَجِّلَ اللهُ لِصاحِبِه العُقوبةَ في الدُّنيا مع ما يَدَّخِرُ له في الآخِرةِ: مِنَ البَغيِ وقَطيعةِ الرَّحِمِ))[(٤)].

وعن عَليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لَعَنَ اللهُ مَن لَعَن والِدَه، ولَعَن اللهُ مَن ذَبَح لِغَيرِ اللهِ، ولَعَن اللهُ مَن آوَى مُحْدِثًا[(٥)]،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

(٣) رواه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦) واللَّفظُ له.

(٤) أخرجه أبو داودَ (٤٩٠٢)، وأحمدُ (٢٠٣٩٨) باختلافٍ يسيرٍ، والترمذيُّ (٢٥١١)، وابنُ ماجه (٤٢١١) واللَّفظُ لهما.

قال الترمذيُّ: (حسَنٌ صَحيحٌ). وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢١١)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٣٣٥٩)، وشُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٤/ ٤٠).

(٥) آوى مُحْدِثًا: وهو الَّذي جنَى على غيرِه جنايةً، وإيواؤُه إجارتُه مِن خصمِه، والحيلولةُ بيْنَه =

ولَعَن اللهُ مَن غَيَّرَ مَنارَ الأرضِ[(١)]))[(٢)].

﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾.

أي: فسَلَبهم اللهُ القُدرةَ على سَماعِ الحَقِّ سَماعًا يَنتَفِعونَ به، وسَلَبهم اللهُ القُدرةَ على رُؤيةِ الحَقِّ على وَجهٍ يَنتَفِعونَ به[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢١ - ٢٣].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ذَكر أنَّ أولئك المُنافِقين أبْعَدَهم اللهُ عن الخَيرِ، فأصَمَّهم فلم يَنتفِعوا بما سَمِعوا، وأعْمى أبْصارَهم فلم يَستَفيدوا بما أبصَروا - بيَّنَ أنَّ حالَهم دائرةٌ بيْنَ أمْرَينِ: إمَّا أنَّهم لا يَتدبَّرونَ القُرآنَ إذا وَصَل إلى قُلوبِهم، أو أنَّهم يَتدبَّرون

= وبيْنَ ما يحقُّ استيفاؤُه. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٩/ ٢٨٠٥).

(١) غَيَّر مَنارَ الأرضِ: المَنارُ: العَلَمُ والحدُّ بيْنَ الأرْضَينِ، وذلك بأن يُسوِّيَه أو يُغيِّرَه؛ لِيَستبيحَ بذلك ما ليس له بحقٍّ من ملكٍ أو طريقٍ. يُنظر: ((كشف المُشْكِل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٢٠٤)، ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٩/ ٢٨٠٥).

(٢) رواه مسلم (١٩٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

ولكنْ لا تَدخُلُ مَعانيه في قُلوبِهم لِكَونِها مُقفَلةً(١).

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: أفلا يَتدبَّرُ القرآنَ هؤلاءِ المعرِضونَ، ويَتفهَّمونَه، ويَتأمَّلونَه حقَّ التَّأمُّلِ، بل أقفَلَ اللهُ قُلوبَهم، فلا قُدرةَ لهم على أن يَعقِلوا بها، فهي مُطْبَقةٌ لا يَخلُصُ إليها شَيءٌ مِن معانيه(٢)؟

كما قال الله سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨١، ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ * رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٦، ٨٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- الشَّوقُ إلى الله تعالى، وإلى رسالاتِه مِن آثارِ محبَّتِه؛ فقد سألَ موسَى عليه السَّلامُ الرؤيةَ شوقًا وتعطُّشًا للجمالِ، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٦، ٢٤٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٥، ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

قال الشنقيطيُّ: (الهمزةُ في قولِه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ للإنكارِ، والفاءُ عاطفةٌ على جملةٍ محذوفةٍ، على أصحِّ القولَينِ، والتَّقديرُ: أيُعْرِضونَ عن كتابِ اللهِ فلا يَتَدبَّرونَ القرآنَ؟!). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٥٦).

[الأعراف: ١٤٣]، وسألَ المؤمنونَ نُزولَ السُّورةِ تشوُّقًا إلى سماعِ كلامِ ذي العزِّ والجلالِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: جاءهم أمْرُ جدٍّ، وأمرٌ مُحتَّمٌ؛ ففي هذه الحالِ لو صَدَقوا اللهَ بالاستِعانةِ به، وبَذْلِ الجُهدِ في امتِثالِه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ مِن حالِهِمُ الأُولى، وذلك من وُجوهٍ:

منها: أنَّ العبدَ ناقصٌ مِن كلِّ وجهٍ، لا قُدرةَ له إلَّا إنْ أعانَه اللهُ، فلا يَطلُبُ زِيادةً على ما هو قائمٌ بصدَدِه.

ومنها: أنَّه إذا تعلَّقَت نفْسُه بالمُستقبَلِ، ضَعُفَ عنِ العملِ بوظيفةِ وقتِه وبوظيفةِ المُستقبَلِ، أمَّا الحالُ: فلأنَّ الهِمَّةَ انتقَلَت عنه إلى غيرِه، والعملُ تَبَعٌ للهِمَّةِ، وأمَّا المستقبَلُ: فإنَّه لا يَجيءُ حتَّى تَفتُرَ الهِمَّةُ عن نشاطِها، فلا يُعانُ عليه.

ومنها: أنَّ العبدَ المؤمِّلَ للآمالِ المُستقبَلةِ، مع كَسَلِه عن عمَلِ الوقتِ الحاضِرِ شَبيهٌ بالمُتألِّي الَّذي يَجزِمُ بقُدرتِه على ما يَستقبِلُ من أُمورِه، فأحرَى به أن يُخذَلَ ولا يقومَ بما هَمَّ به، ووطَّن نفْسَه عليه؛ فالَّذي يَنبغي أنْ يَجمَعَ العبدُ هَمَّه وفِكرَتَه ونَشاطَه على وَقتِه الحاضِرِ، ويُؤدِّيَ وَظيفَتَه بحَسَبِ قدرتِه، ثمَّ كلَّما جاء وَقتٌ استَقبَلَه بنشاطٍ وهِمَّةٍ عاليةٍ مُجتمِعةٍ غيرِ مُتفرِّقةٍ، مُستعينًا بربِّه في ذلك؛ فهذا حَرِيٌّ بالتَّوفيقِ والتَّسديدِ في جميعِ أُمورِه[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ فإذَنْ هما أمْرانِ: إمَّا التِزامٌ بطاعةِ اللهِ، وامتِثالٌ لأوامِرِه، فثَمَّ الخَيرُ والرُّشدُ والفَلاحُ، وإمَّا

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

إعراضٌ عن ذلك وتَوَلٍّ عن طاعةِ اللهِ، فما ثَمَّ إلَّا الفَسادُ في الأرضِ بالعَمَلِ بالمعاصي، وقَطيعةِ الأرحامِ[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ عُلِمَ منه أنَّ مَن أمَرَ بالمعروفِ، وجاهَدَ أهلَ المُنكَرِ؛ أمِنَ الإفسادَ في الأرضِ، وقَطيعةَ الرَّحِمِ، ومَن ترَكَه وقَعَ فيهما[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّ الفَسادَ في الأرضِ وقَطيعةَ الأرحامِ مِن شِعارِ أهلِ الكُفرِ؛ فهما جُرْمانِ كَبيرانِ يَجِبُ على المُؤمِنينَ اجتِنابُهما[٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ في هذه الآيةِ أعظَمُ حاثٍّ على قَبولِ أوامِرِ اللهِ، ولا سِيَّما الجِهادِ في سَبيلِه، وأشَدُّ زاجِرٍ عن الإعراضِ عنه؛ لأنَّ حاصِلَها أنَّه لَعَن مَن أعرَضَ عنه؛ لِكَونِه لا يَتدَبَّرُ القُرآنَ مع وُضوحِه ويُسْرِه؛ لِيعلَمَ فوائِدَ الجِهادِ الدَّاعيةَ إليه المحَبِّبَةَ فيه؛ فكان كأنَّ قَلْبَه مُقفَلٌ[٤].

٧- قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (قرَأَ قارِئٌ عندَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ بها وعِندَه شابٌّ، فقال: اللَّهُمَّ عليها أقفالُها، ومَفاتيحُها بيَدِك لا يَفتَحُها سِواك. فعرَفَها له عُمَرُ، وزادَتْه عندَه خَيرًا)[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٠).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ يدُلُّ على أنَّ تدبُّرَ القُرآنِ وتفهُّمَه وتعلُّمَه والعَمَلَ به: أمرٌ لا بُدَّ منه للمُسلمينَ، وقد بَيَّنَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ المُشتَغِلينَ بذلك هم خَيرُ النَّاسِ، كما ثَبَت عنه صلَّى الله عليه وسلَّم في الصَّحيحِ مِن حَديثِ عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ الله عنه أنَّه قال: ((خَيْرُكم مَن تَعلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَه))(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾(٢) [آل عمران: ٧٩].

٩- قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ الحَقُّ الَّذي لا شَكَّ فيه أنَّ كُلَّ مَن له قُدرةٌ مِن المُسلِمينَ على التَّعَلُّمِ والتَّفَهُّمِ وإدراكِ معاني الكِتابِ والسُّنَّة: يَجِبُ عليه تَعَلُّمُهما والعَمَلُ بما عَلِمَ منهما، أمَّا العَمَلُ بهما مع الجَهلِ بما يَعمَلُ به منهما فمَمنوعٌ إجماعًا، وأمَّا ما عَلِمَه مِنهما عِلمًا صَحيحًا ناشِئًا عن تعَلُّمٍ صَحيحٍ فله أن يَعمَلَ به، ولو آيةً واحِدةً أو حديثًا واحِدًا، ومَعلومٌ أنَّ هذا الذَّمَّ والإنكارَ على مَن لم يتدَبَّرْ كِتابَ اللهِ عامٌّ لجَميعِ النَّاسِ، ومِمَّا يُوَضِّحُ ذلك أنَّ المُخاطَبينَ الأوَّلينَ به الَّذين نَزَل فيهم هم المُنافِقونَ والكُفَّارُ، وليس أحَدٌ منهم مُستَكمِلًا لِشُروطِ الاجتِهادِ المُقَرَّرةِ عندَ أهلِ الأُصولِ، بل ليس عندَهم شَيءٌ منها أصلًا، فلو كان القُرآنُ لا يَجوزُ أن يَنتَفِعَ بالعَمَلِ به والاهتِداءِ بهَدْيِه إلَّا المجتَهِدونَ بالاصطلاحِ الأُصوليِّ، لَمَا وَبَّخ اللهُ الكُفَّارَ وأنكر عليهم عدَمَ الاهتِداءِ بهُداه، ولَمَا أقام عليهم الحُجَّةَ به حتَّى يُحَصِّلوا شُروطَ الاجتِهادِ المُقَرَّرةَ عندَ مُتأخِّري الأُصوليِّينَ، كما ترى(٣).

١٠- في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾، وقوله

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٧) من حديث عثمانَ بنِ عفَّانَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٥٨).

تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] أنَّ الله سبحانَه إنَّما أنزَل كتابَه ليتأدَّبَ عبادُه بآدابِه، ويتخلَّقوا بأخلاقِه، ويتأمَّلوا ما فيه مِن الثَّناءِ على الله تعالى، وما لم يُتدبَّرْ ذلك حتى يُفهمَ لا يُمكِن العملُ به؛ فإنَّه رسائلُ أرسلَها الله إلى عبادِه ليُنفِّذوها، لا لتقرأَ عليهم فلا يَفْهموها ولا يُقيموها[١]! أما غالبُ مسلمةِ اليومَ فقد اكتَفوا مِن القرآنِ بألفاظٍ يُردِّدونَها وأنغام يُلحِّنونها في المآتمِ والمقابرِ والدُّورِ، وبمصاحفَ يَحمِلونَها أو يُودِعونَها تَركةً في البيوتِ، ونسوا أنَّ بركةَ القرآنِ العُظمَى إنَّما هي في تدبُّرِه وتفهُّمِه، وفي الجلوسِ إليه، والاستفادةِ من هديِه وآدابِه، ثمَّ في الوقوفِ عندَ أوامرِه ومراضيه، والبعدِ عن مساخطِه ونواهيه.

ألَا إنَّ آخرَ هذه الأمةِ لا يصلحُ إلَّا بما صلَح به أوَّلُها، وهو أنْ يَعودوا إلى كتابِ الله يَستلهِمونَه الرُّشدَ، ويَستمنِحونَه الهدَى، ويُحكِّمونَه في نفوسِهم وفي كلِّ ما يتَّصِلُ بهم، كما كان آباؤنا الأوَّلونَ يَتلونَه حقَّ تلاوتِه، بتدبُّرٍ وتفكُّرٍ في مجالسِهم ومساجدِهم وأنديتِهم وبيوتِهم وفي صلواتِهم المفروضةِ والنَّافلةِ[٢].

١١- التَّأمُّلُ في القُرآنِ هو تحديقُ نَظَرِ القَلبِ إلى مَعانيه، وجَمعُ الفِكرِ على تدَبُّرِه وتَعقُّلِه، وهو المقصودُ بإنزالِه، لا مُجَرَّدُ تلاوتِه بلا فَهمٍ ولا تدَبُّرٍ؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال الحَسَنُ: (نَزَل القُرآنُ لِيُتَدَبَّرَ ويُعمَلَ به، فاتَّخذوا

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((مناهل العرفان في علوم القرآن)) الزرقاني (٢/ ٨).

تِلاوتَه عَمَلًا!)، فليس شَيءٌ أنفَعَ للعَبدِ في مَعاشِه ومَعادِه، وأقرَبَ إلى نجاتِه: مِن تدَبُّرِ القُرآنِ، وإطالةِ التَّأمُّلِ فيه، وجَمعِ الفِكرِ على معاني آياته؛ فإنَّها تُطلِعُ العَبدَ على معالِمِ الخَيرِ والشَّرِّ بحَذافيرِهما، وعلى طُرُقاتِهما وأسبابِهما، وغاياتِهما وثَمَراتِهما، ومآلِ أهلِهما، وتُلْقِي في يَدِه مَفاتيحَ كُنوزِ السَّعادةِ والعُلومِ النَّافِعةِ، وتُثَبِّتُ قواعِدَ الإيمانِ في قَلبِه، وتُشيدُ بُنيانَه، وتُوَطِّدُ أركانَه، وتُريه صورةَ الدُّنيا والآخرةِ، والجنَّةِ والنَّارِ في قَلْبِه، وتُحضِرُه بيْنَ الأُمَمِ، وتُريه أيَّامَ اللهِ فيهم، وتُبَصِّرُه مواقِعَ العِبَرِ، وتُشهِدُه عَدلَ اللهِ وفَضْلَه، وتُعَرِّفُه ذاتَه وأسماءَه، وصِفاتِه وأفعالَه، وما يُحِبُّه وما يُبغِضُه، وصِراطَه المُوصِلَ إليه، وما لِسالكيه بعدَ الوُصولِ والقُدومِ عليه، وقَواطِعَ الطَّريقِ وآفاتِها، وتُعَرِّفُه النَّفْسَ وصِفاتِها، ومُفسداتِ الأعمالِ ومُصَحِّحاتِها، وتُعَرِّفُه طَريقَ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ، وأعمالَهم وأحوالَهم وسِيماهم، ومراتِبَ أهلِ السَّعادةِ وأهلِ الشَّقاوةِ، وأقسامَ الخَلقِ واجتِماعَهم فيما يَجتَمِعونَ فيه، وافتِراقَهم فيما يَفتَرِقونَ فيه. وبالجُملةِ تُعَرِّفُه الرَّبَّ المَدْعُوَّ إليه، وطريقَ الوُصولِ إليه، وما له مِنَ الكَرامةِ إذا قَدِمَ عليه، وتُعَرِّفُه في مقابِلِ ذلك ثلاثةً أُخرى: ما يدعو إليه الشَّيطانُ، والطَّريقَ المُوصِلةَ إليه، وما للمُستَجيبِ لِدَعوتِه مِن الإهانةِ والعَذابِ بعدَ الوُصولِ إليه؛ فهذه سِتَّةُ أُمورٍ ضَروريٌّ للعَبدِ مَعرِفتُها ومُشاهَدتُها ومُطالَعتُها؛ فتُشْهِدُه الآخِرةَ حتَّى كأنَّه فيها، وتُغَيِّبُه عن الدُّنيا حتَّى كأنَّه ليس فيها، وتُمَيِّزُ له بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ في كُلِّ ما اختَلَف فيه العالَمُ، فتُريه الحَقَّ حَقًّا، والباطِلَ باطِلًا، وتُعْطيه فُرقانًا ونُورًا يُفَرِّقُ به بيْنَ الهُدى والضَّلالِ، والغَيِّ والرَّشادِ، وتُعطيه قُوَّةً في قَلْبِه، وحياةً وسَعةً وانشِراحًا، وبَهجةً وسُرورًا، فيَصيرُ في شأنٍ والنَّاسُ في شأنٍ آخَرَ؛ فإنَّ معانيَ القُرآنِ دائرةٌ على التَّوحيدِ وبَراهينِه، والعِلمِ باللهِ وما له مِن أوصافِ الكَمالِ، وما يُنَزَّهُ عنه مِن سِماتِ النَّقصِ، وعلى الإيمانِ بالرُّسُلِ، وذِكرِ بَراهينِ

صِدقِهم، وأدِلَّةِ صِحَّةِ نبُوَّتِهم، والتَّعريفِ بحُقوقِهم وحُقوقِ مُرسِلِهم، وعلى الإيمانِ بمَلائكتِه، وهم رُسُلُه في خَلْقِه وأمْرِه، وتدبيرِهم الأمورَ بإذْنِه ومَشيئتِه، وما جُعِلوا عليه مِن أمرِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفْليِّ، وما يَختَصُّ بالنَّوعِ الإنسانيِّ منهم، مِن حينِ يَستَقِرُّ في رَحِمِ أمِّه إلى يومِ يُوافي رَبَّه ويَقْدَمُ عليه، وعلى الإيمانِ باليومِ الآخِرِ وما أعَدَّ اللهُ فيه لأوليائِه مِن دارِ النَّعيمِ المُطلَقِ الَّتي لا يَشعُرونَ فيها بألمٍ ولا نَكَدٍ وتَنغيصٍ، وما أعَدَّ لأعدائِه مِن دارِ العِقابِ الوَبيلِ الَّتي لا يُخالِطُها سُرورٌ ولا رَخاءٌ ولا راحةٌ ولا فَرَحٌ، وتفاصيلِ ذلك أتَمَّ تفصيلٍ وأبْيَنَه، وعلى تفاصيلِ الأمرِ والنَّهيِ، والشَّرعِ والقَدَرِ، والحَلالِ والحَرامِ، والمواعِظِ والعِبَرِ، والقَصَصِ والأمثالِ، والأسبابِ والحِكَمِ، والمبادئِ والغاياتِ في خَلْقِه وأَمْرِه؛ فلا تَزالُ مَعانيه تُنهِضُ العَبدَ إلى رَبِّه بالوَعدِ الجَميلِ، وتُحَذِّرُه وتُخَوِّفُه بوَعيدِه مِنَ العذابِ الوَبيلِ، وتَحُثُّه على التَّضَمُّرِ والتَّخَفُّفِ لِلِقاءِ اليَومِ الثَّقيلِ، وتَهْديه في ظُلَمِ الآراءِ والمذاهِبِ إلى سَواءِ السَّبيلِ، وتَصُدُّه عن اقتِحامِ طُرُقِ البِدَعِ والأضاليلِ، وتَبعَثُه على الازديادِ مِنَ النِّعَمِ بشُكرِ رَبِّه الجليلِ، وتُبَصِّرُه بحُدودِ الحَلالِ والحَرامِ، وتَقِفُه عليها لئلَّا يَتعَدَّاها فيَقَعَ في العَناءِ الطَّويلِ، وتُثَبِّتُ قَلْبَه عن الزَّيغِ والمَيلِ عن الحَقِّ والتَّحويلِ، وتُسَهِّلُ عليه الأمورَ الصِّعابَ والعَقَباتِ الشَّاقَّةَ غايةَ التَّسهيلِ، وتُناديه كُلَّما فَتَرَت عَزَماتُه ووَنَى في سَيرِه: تَقَدَّمَ الرَّكْبُ وفَاتَك الدَّليلُ؛ فاللَّحاقَ اللَّحاقَ والرَّحيلَ الرَّحيلَ! وتَحدو به وتَسيرُ أمامَه سَيرَ الدَّليلِ، وكُلَّما خرَجَ عليه كَمينٌ مِن كَمائِنِ العَدُوِّ، أو قاطِعٌ مِن قُطَّاعِ الطَّريقِ نادَتْه: الحَذَرَ الحَذَرَ؛ فاعتَصِمْ باللهِ، واستَعِنْ به، وقُلْ: حَسْبيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ! وفي تأمُّلِ القُرآنِ وتدَبُّرِه وتَفَهُّمِه أضعافُ أضعافِ ما ذكَرْنا مِنَ الحِكَمِ والفوائِدِ. وبالجُملةِ فهو أعظَمُ الكُنوزِ[1].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٩-٤٥١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ إنَّما قال: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾؛ لأنَّ السُّورةَ ليست كُلُّها مُتَمَحِّضةً لِذِكرِ القِتالِ؛ فإنَّ سُوَرَ القُرآنِ ذواتُ أغراضٍ شَتَّى[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ هذه الآيةُ إنباءٌ مِمَّا سيَكونُ مِن المُنافِقينَ حينَ يَجِدُّ الجِدُّ، ويَجيءُ أوانُ القِتالِ، وهي مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ في الإخبارِ بالغَيبِ؛ فقد عَزَم أمرُ القِتالِ يومَ أُحُدٍ، وخَرَج المنافِقونَ معَ جَيشِ المُسلِمينَ في صُورةِ المجاهِدينَ، فلَمَّا بلَغَ الجَيشُ إلى الشَّوطِ[٢] بيْنَ المدينةِ وأُحُدٍ، قال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ رأسُ المُنافِقينَ: ما نَدري عَلامَ نَقتُلُ أنفُسَنا هاهنا أيُّها النَّاسُ؟ ورجع هو وأتْباعُه، وكانوا ثُلُثَ الجَيشِ، وذلك سَنَةَ ثَلاثٍ مِنَ الهِجرةِ[٣]، أي: بعدَ نُزولِ هذه الآيةِ بنَحوِ ثلاثِ سِنينَ[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ فيه سُؤالٌ: (عسى) للتَّوقُّعِ، واللهُ تعالى عالِمٌ بكُلِّ شَيءٍ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المعنى: يَفعَلُ بكم فِعلَ المتوَقِّعِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ كُلَّ مَن يَنظُرُ إليهم يَتوقَّعُ منهم ذلك.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٧).

(٢) الشَّوط: اسمُ بستانٍ بالمدينةِ. يُنظر: ((معجم البلدان)) للحموي (٣/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٤/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١١).

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّه محمولٌ على الحَقيقةِ؛ وذلك لأنَّ الفِعلَ إذا كان مُمكِنًا في نَفْسِه فالنَّظَرُ إليه غيرُ مُستَلزِمٍ لأمرٍ، وإنَّما الأمرُ يجوزُ أن يَحصُلَ منه تارةً، ولا يَحصُلَ منه أُخرى؛ فيكونُ الفِعلُ لذلك الأمرِ المطلوبِ على سَبيلِ التَّرَجِّي سواءٌ كان الفاعِلُ يَعلَمُ حُصولَ الأمرِ منه، وسواءٌ أَنْ لم يكُنْ يَعلَمُ، مِثالُه: مَن نَصَب شَبكةً لاصطيادِ الصَّيدِ يُقالُ: هو مُتوَقِّعٌ لذلك، فإنْ حَصَل له العِلمُ بوُقوعِه فيه بإخبارِ صادِقٍ أنَّه سيَقَعُ فيه، أو بطَريقٍ أُخرى: لا يَخرُجُ عن التَّوَقُّعِ. غايةُ ما في البابِ أنَّ في الشَّاهِدِ لم يَحصُلْ لنا العِلمُ فيما نَتوَقَّعُه، فيُظَنُّ أنَّ عَدَمَ العِلمِ لازِمٌ للمُتوَقِّعِ، وليس كذلك، بل المتوَقِّعُ هو المُنتَظِرُ لأمرٍ ليس بواجِبِ الوُقوعِ؛ نَظَرًا لذلك الأمرِ فحَسْبُ، سواءٌ كان له به عِلمٌ أو لم يَكُنْ[١].

الوَجهُ الرَّابِعُ: هذا التوقُّعُ الَّذي في (عسى) ليس مَنسوبًا إليه تعالى؛ لأنَّه عالِمٌ بما كان وما يكونُ، وإنَّما هو بالنِّسبةِ لِمَن عَرَف المنافِقينَ، كأنَّه يقولُ لهم: هل يُتَوَقَّعُ منكم إذا أعرَضْتُم عن القِتالِ أن يكونَ كذا وكذا[٢]؟

الوجهُ الخامسُ: أنَّ (عسى) مِن الله واجبةٌ، أي: مُتحقِّقةُ الوُقوعِ[٣].

الوجهُ السَّادسُ: أنَّ فِعلَ (عسى) يدُلُّ على التَّرجِّي، وقد دخل عليه هنا حرفُ الاستِفهامِ (هل)، فأفاد تقريرَ ما هو مُتوقَّعٌ، وأشعَرَ بما هو كائنٌ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴾ فيه إشارةٌ إلى فَسادِ قَولٍ قاله المُنافِقونَ، وهو أنَّهم كانوا يقولونَ: كيفَ نُقاتِلُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٥٤٤).

والقَتلُ إفسادٌ، والعَرَبُ مِن ذوي أرحامِنا وقبائلِنا؟! فقال تعالى: إنْ تولَّيْتُم لا يَقعُ منكم إلَّا الفَسادُ في الأرضِ؛ فإنَّكم تَقتُلونَ مَن تَقدِرونَ عليه، وتَنهَبونَه، والقِتالُ واقِعٌ بيْنَكم، أليس قَتْلُكمُ البَناتِ إفسادًا وقطعًا للرَّحِمِ؟! فلا يَصِحُّ تَعلُّلُكم بذلك معَ أنَّه خِلافُ ما أمَرَ اللهُ، وهذا طاعةٌ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أنَّ صِلةَ الأرحامِ واجِبةٌ، وقَطْعَها سَبَبٌ لِلَّعنةِ والحِرمانِ مِن دُخولِ الجنَّةِ(٢).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ استَدَلَّ به عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضيَ الله عنه على مَنْعِ بَيعِ أمِّ الوَلَدِ(٣).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾، فيه تَرتيبٌ حَسَنٌ؛ قيل: وذلك مِن حيث إنَّهم استَمَعوا الكلامَ العِلميَّ، ولم يَفهَموه، فهُم بالنِّسبةِ إليه صُمٌّ أصمَّهمُ اللهُ، وعندَ الأمرِ بالعَمَلِ تَرَكوه، وعلَّلوا بكَونِه إفسادًا وقطعًا للرَّحمِ، وهم كانوا يَتعاطَوْنه عندَ النَّهيِ عنه، فلم يَرَوْا حالَهم عليه، وتَرَكوا اتِّباعَ النَّبيِّ الَّذي يأمُرُهم بالإصلاحِ وصِلَةِ الأرحامِ، ولو دعاهم مَن يأمُرُ بالإفسادِ وقَطيعةِ الرَّحِمِ لَاتَّبَعوه؛ فهم عُمْيٌ أعماهمُ اللهُ(٤).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٨).

وأخرج أثرَ عُمَرَ: الحاكمُ في ((المستدرك)) (٣٧٠٨) وصحَّح إسنادَه، ومِن طريقِه البيهقيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠/ ٥٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٥).

يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ فيه سُؤالٌ: لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ كيف يُمكِنُهم التَّدبُّرُ في القُرآنِ؛ قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾، وهو كقَولِ القائِلِ للأعْمى: (أبصِرْ)، وللأصَمِّ: (اسْمَعْ)؟!

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ قَولَه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ المرادُ منه النَّاسُ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ هذه الآيةَ ورَدَت مُحَقِّقةً لِمَعنى الآيةِ المتقَدِّمةِ؛ فإنَّه تعالى قال: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [محمد:٢٣]، أي: أبعَدَهم عنه، أو عن الصِّدقِ أو عن الخَيرِ، أو غيرِ ذلك مِن الأُمورِ الحَسَنةِ، فأصَمَّهم لا يَسمَعونَ حَقيقةَ الكلامِ، وأعماهم لا يَتَّبِعونَ طَريقَ الإسلامِ، فإذَنْ هُم بيْنَ أمرَينِ؛ إمَّا لا يَتدَبَّرونَ القُرآنَ فيَبعُدونَ منه؛ لأنَّ اللهَ تعالى لعَنَهم وأبعَدَهم عن الخَيرِ والصِّدقِ، والقُرآنُ منهما الصِّنفُ الأعلَى، بل النَّوعُ الأشرَفُ، وإمَّا يَتدَبَّرونَ لكِنْ لا تَدخُلُ مَعانيه في قُلوبِهم؛ لِكَونِها مُقفَلَةً، تقديرُه: أفلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ لِكَونِهم مَلعونينَ مَبعودينَ، أم على قُلوبٍ أقفالٌ، فيَتدَبَّرونَ ولا يَفهَمونَ[(١)]؟

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ فكان قولُه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ كالتَّهييجِ لهم على تركِ ما هم فيه مِن الكفرِ الَّذي استحَقُّوا بسببِه اللَّعنةِ، أو كالتَّبكيتِ لهم على إصرارِهم على الكفرِ[(٢)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ أنَّ مَعرِفةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٤٨).

تفسيرِ كتابِ اللهِ فَرضٌ؛ إمَّا فَرضُ كِفايةٍ، وإمَّا فَرضُ عَينٍ(١)؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ اللهَ تعالى وَبَّخَ أولئك الَّذين لا يَتدبَّرون القُرآنَ، وأشار إلى أنَّ ذلك مِن الإقفالِ على قُلوبِهم، وعَدَمِ وُصولِ الخَيرِ إليها، والتَّدبُّرُ هو التَّأمُّلُ في الألفاظِ للوُصولِ إلى مَعانيها؛ فإذا لم يَكُنْ ذلك فاتتِ الحِكمةُ مِن إنزالِ القُرآنِ، وصار مُجرَّدَ ألفاظٍ لا تأثيرَ لها، ولأنَّه لا يُمكِنُ الاتِّعاظُ بما في القُرآنِ بدونِ فَهْمِ مَعانيه؛ فإنَّ اللهَ تعالى لم يُنزِلْ علينا القُرآنَ لِمُجرَّدِ أن نتعبَّدَ بلَفظِه، بل لنَعرِفَ معناه، ونُطبِّقَه عَمَلًا وعِلمًا، وقد كان الصَّحابةُ رَضيَ اللهُ عنهم لا يَتجاوَزون عَشْرَ آياتٍ حتَّى يَتعلَّموها وما فيها مِن العِلمِ والعَمَلِ(٢).

١٠- قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ إذا كان قد حضَّ الكُفَّارَ والمُنافِقينَ على تدبُّرِه، عُلِمَ أنَّ مَعانيَه مِمَّا يُمكِنُ الكُفَّارَ والمُنافِقينَ فَهمُها ومَعرِفتُها، فكيف لا يكونُ ذلك مُمكِنًا للمُؤمِنينَ؟! وهذا يُبيِّنُ أنَّ مَعانيَه كانت مَعروفةً بَيِّنةً لهم(٣).

---

(١) قال ابن عثيمين: (لو قال قائلٌ: هل معرفةُ تفسيرِ القُرآنِ واجبةٌ؟

الجوابُ: تفسيرُ ما لا يقومُ دينُ المرءِ إلَّا به فهو واجبٌ، مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] يجبُ أن نعرِفَ ما معنى إقامةِ الصَّلاةِ، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] كذلك، وما زاد على ذلك فهو فَرضُ كِفايةٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٨٠)، ((أصول في التفسير)) لابن عثيمين (ص: ٢٣).

ويُنظر فيما ورد عن الصَّحابةِ: ما أخرجه الإمامُ أحمدُ في ((مسنده)) (٢٣٤٨٢)، وابنُ أبي شَيْبةَ في ((المصنَّف)) (٢٩٩٢٩) من حديثِ رجُلٍ مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وما أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١/ ٧٤)، والطَّحاويُّ في ((مُشْكِل الآثار)) (١٤٥٠) مِن قولِ ابنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٥/ ١٥٧، ١٥٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ * طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾ معلومٌ أنَّ قولَ المُؤمِنينَ هذا وقَعَ قبْلَ نُزولِ هذه الآيةِ؛ فالتَّعبيرُ عنه بالفِعلِ المُضارِعِ إمَّا لِقَصْدِ استِحضارِ الحالةِ، وإمَّا لِلدَّلالةِ على أنَّهم مُستمِرُّون على هذا القَولِ[١].

- وحُذِفَ وَصْفُ كِلمةِ (سورة) في حِكايةِ قَولِهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾؛ لِدَلالةِ ما بعْدَه عليه مِن قَولِه: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ -أي: كما تمنَّوا- اقْتَضى أنَّ المَسؤولَ سُورةٌ يُشرَعُ فيها قِتالُ المُشرِكين؛ فالمعنى: لولا نُزِّلَت سُورةٌ يُذكَرُ فيها القِتالُ وفَرْضُه[٢].

- والمَقصودُ مِن هذه الآيةِ هو قَولُه: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، وما قبْلَه تَوطئةٌ له بذِكْرِ سَببِه، وأفاد تَقديمُه أيضًا تَنْويهًا بشَأْنِ الَّذين آمَنوا، وأفاد ذِكْرُه مُقابَلةً بيْنَ حالَيِ الفريقينِ جَرْيًا على سَنَنِ هذه السُّورةِ[٣].

- قولُه: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ انتَصَبَ ﴿نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ؛ لِبيانِ صِفةِ النَّظَرِ مِن قولِه: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾؛ فهو على مَعنى التَّشبيهِ البليغِ، ووَجْهُ الشَّبَهِ: ثَباتُ الحَدَقةِ وعَدَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٠٦، ١٠٧).

التَّحريكِ، أي: يَنظُرون إليك نظَرَ المُتحيِّرِ بحيثُ يَتَّجِهُ إلى صَوبٍ واحدٍ، ولا يَشتغِلُ بالمَرئيَّاتِ؛ لأنَّه في شاغلٍ عن النَّظَرِ، وإنَّما يُوجِّهون أنْظارَهم إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ كانوا بمَجلِسه حِينَ نُزولِ السُّورةِ، وكانوا يَتظاهَرون بالإقبالِ على تَلقِّي ما يَنطِقُ به مِن الوحْيِ، فلمَّا سَمِعوا ذِكرَ القِتالِ بُهِتوا؛ فالمَقصودُ المُشابَهةُ في هذه الصُّورةِ[١].

- و(مِنْ) هنا تَعليليَّةٌ، أي: المَغْشيِّ عليه مِن أجْلِ المَوتِ، أي: حُضورِ الموتِ[٢].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ * طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾، وهذا التَّفريعُ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾[٣].

- ولَفظُ (أَوْلى) هنا يَجوزُ أنْ يكونَ مُستعمَلًا استِعمالَ التَّفضيلِ على شَيءٍ غَيرِ مَذْكورٍ يدُلُّ عليه ما قبْلَه، أي: أَوْلى لهم مِن ذلك الخَوفِ الَّذي دلَّ عليه نَظَرُهم كالمَغْشيِّ عليه مِن المَوتِ؛ أنْ يُطيعوا أمْرَ اللهِ، ويَقولوا قَولًا مَعروفًا، وعلى هذا الوَجْهِ فتَعديةُ (أَوْلى) باللَّامِ دُونَ الباءِ؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ ذلك أَوْلى وأنفَعُ؛ فكان اجتِلابُ اللَّامِ لِلدَّلالةِ على معنى النَّفْعِ، وهو يَرتبِطُ بقَولِه بعْدَه: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ مُستعمَلًا في التَّهديدِ والوَعيدِ، ومَعناهُ: أنَّ اللهَ أخبَرَ عن توعُّدِه إيَّاهُم. واللَّامُ على هذا الوَجْهِ إمَّا مَزيدةٌ، أي: أَولاهُم اللهُ ما يَكرَهونَ، وإمَّا مُتعلِّقةٌ بـ(أَوْلى) على أنَّه فِعلٌ مُضيٌّ، وعلى هذا الاستِعمالِ يَكونُ قَولُه: ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾ كَلامًا مُستأْنَفًا، وهو مُبتدَأٌ خَبَرُه مَحذوفٌ، أي: طاعةٌ وقَولٌ مَعروفٌ خَيرٌ لهم، أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

خبَرٌ لِمُبتدَأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: الأمْرُ طاعةٌ وقَولٌ مَعروفٌ، أي: أمَرَ اللهُ أنْ يُطِيعوا[١].

- ونكَّر الاسمَينِ: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ﴾؛ لِيَكونَا صالِحَينِ للتَّعظيمِ وما دونَه[٢].

- وقولُه: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ تَفريعٌ على وَصْفِ حالِ المُنافِقين مِن الهَلَعِ عِندَ سَماعِ ذِكْرِ القِتالِ؛ فإنَّه إذا جَدَّ أمْرُ القِتالِ -أي: حانَ أنْ يُندَبَ المُسلِمون إلى القِتالِ- سيَضْطَرِبُ أمْرُ المُنافِقينَ، ويَتسلَّلون لِواذًا مِن حُضورِ الجِهادِ، وأنَّ الأَوْلَى لهم حِينَئذٍ أنْ يُخلِصوا الإيمانَ، ويُجاهِدوا كما يُجاهِدُ المُسلِمون الخُلَّصُ؛ وإلَّا فإنَّهم لا مَحيصَ لهم مِن أحَدِ أمْرَينِ: إمَّا حُضورُ القِتالِ بدُونِ نِيَّةٍ؛ فتَكونُ عليهمُ الهَزيمةُ، ويَخْسَروا أنفُسَهم باطِلًا، وإمَّا أنْ يَنخَزِلوا عن القِتالِ[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿الْأَمْرُ﴾ تَعريفُ العَهدِ، أو اللَّامُ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: أمْرُ القِتالِ المُتقدِّمِ آنِفًا في قَولِه: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾[٤].

- وقولُه: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ دَليلُ جَوابِ ﴿فَإِذَا﴾؛ لأنَّ (إذا) ضُمِّنت هنا مَعنى الشَّرْطِ، أي: كَذَبوا اللهَ وأخْلَفوا، فلو صَدَقوا اللهَ لَكان خَيرًا لهم، واقترانُ جُملةِ الجَوابِ بالفاءِ؛ لِلدَّلالةِ على تَضمينِ (إذا) مَعنى الشَّرْطِ، وذلك أحسَنُ مِن تَجْريدِه عن الفاءِ إذا كانت جُملةُ الجَوابِ شَرطيَّةً أيضًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٨، ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ومعنَى ﴿صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ قالُوا له الصِّدْقَ -على قولٍ في التفسيرِ-، وهو مُطابَقةُ الكلامِ لِمَا في نفْسِ الأمْرِ، أي: لو صَدَقوا في قَولِهم: نحْن مُؤمِنون، وهم إنَّما كَذَبوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ أظْهَروا له خِلافَ ما في نُفوسِهم؛ فجُعِل الكذبُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَذِبًا على اللهِ؛ تَفْظيعًا له، وتَهويلًا لِمَغَبَّته(١).

- وفي الكَلامِ إيجازٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا﴾ يُؤذِنُ بأنَّه إذا عزَمَ الأمْرُ حصَلَ لهمْ ما لا خَيرَ فيه(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ مُقْتضى تَناسُقِ النَّظْمِ أنَّ هذا مُفرَّعٌ على قَولِه: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [محمد: ٢١]؛ لأنَّه يُفهَمُ منه أنَّه إذا عَزَمَ الأمْرُ تولَّوا عن القِتالِ، وانْكشَفَ نِفاقُهم، فتكونُ إتْمامًا لِمَا في الآيةِ السَّابقةِ مِن الإنْباءِ بما سَيكونُ مِن المُنافِقين يَومَ أُحُدٍ(٣).

- وفي قَولِه: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ الآيةَ، الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، والخِطابُ مُوجَّهٌ إلى الَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ، والسِّرُّ فيه هنا: أنَّه جاء لِتأكيدِ التَّوبيخِ، وتَشْديدِ التَّقريعِ، وتَسجيلِ ذلك عليهم مُشافَهةً وخِطابًا(٤).

- والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّكذيبِ لِمَا سَيَعْتذِرون به لِانْخزالِهم؛ ولذلك جِيءَ فيه بـ (هل) الدَّالَّةِ على التَّحقيقِ؛ لأنَّها في الاستِفهامِ بمَنزِلةِ (قدْ) في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٢١).

الخبَرِ؛ فالمَعنى: أفيَتحقَّقُ إنْ تولَّيْتم أنَّكم تُفسِدون في الأرْضِ، وتُقطِّعون أرْحامَكم، وأنتُم تَزْعُمون أنَّكم تَولَّيْتم إبقاءً على أنفُسِكم وعلى ذَوي قَرابةِ أنْسابِكم؟! وهذا تَوبيخٌ[(١)].

- وعبَّرَ بـ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾ بالتَّشديدِ على التَّكثيرِ[(٢)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المُخاطَبينَ بطَريقِ الالْتِفاتِ؛ إيذانًا بأنَّ ذِكْرَ هَنَاتِهم[(٣)] أوجَبَ إسْقاطَهم عن رُتْبةِ الخِطابِ، وحِكايةَ أحْوالِهم الفَظيعةِ لِغَيرِهم[(٤)].

- وفيه لَطيفةٌ: وهي أنَّ اللهَ تعالَى قال: ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾، ولم يَقُلْ: أصَمَّ آذانَهم، وقال: ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾، ولم يقُلْ: أعْماهُم؛ وذلك لأنَّ العَينَ آلَةُ الرُّؤيةِ، ولو أصابَها آفةٌ لا يَحصُلُ الإبصارُ، والأُذُنُ لو أصابَها آفةٌ مِن قطْعٍ أو قلْعٍ، تَسمَعُ الكلامَ؛ لأنَّ الأُذُنَ خُلِقَت وخُلِقَ فيها تَعاريجُ؛ لِيَكثُرَ فيها الهَواءُ المُتموِّجُ، ولا يَقرَعَ الصِّماخَ بعُنْفٍ فيُؤذِيَ كما يُؤذي الصَّوتُ القويُّ، فقال: ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾ مِن غَيرِ ذِكْرِ الأُذُنِ، وقال: ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ مع ذِكْرِ العَينِ؛ لأنَّ البصَرَ هاهنا بمَعنى العَينِ، ولهذا جمَعَه بالأبصارِ، ولو كان مَصدَرًا لَمَا جُمِعَ، فلمْ يَذكُرِ الأُذُنَ؛ إذ لا مَدخَلَ لها في الإصمامِ، والعينُ لها مَدخَلٌ في الرُّؤيةِ، بلْ هي الكلُّ، ويدُلُّ عليه أنَّ الآفةَ في غَيرِ هذه المواضعِ لَمَّا أضافَها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١١، ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٢).

(٣) الهَنَات هنا معناها: خِصالُ الشَّرِّ، ولا يُقالُ ذلك في الخَيرِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٥٣٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٩).

إلى الأُذنِ سمَّاها وَقْرًا، كما قال تعالَى: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥]، وقال: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾ [لقمان: ٧]، والوَقْرُ دُونَ الصَّمِّ، وكذلك الطَّرَشُ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- وعُبِّرَ بالصَّمَمِ عن عَدَمِ الانتِفاعِ بالمَسموعاتِ مِن آياتِ القُرآنِ ومَواعِظِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما عُبِّرَ بالعَمَى هنا عن عَدَمِ الفَهمِ؛ لأنَّ حالَ الأعْمى أنْ يكونَ مُضطَرِبًا فيما يُحِيطُ به، لا يَدْري نافِعَه مِن ضارِّه إلَّا بمَعونةِ مَن يُرشِدُه[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾

- الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ تَوبيخيٌّ وتَوقيفيٌّ على مَخازيهم. وهو إنْكارٌ وتَعْجيبٌ مِن سُوءِ عِلْمِهم بالقُرآنِ، ومِن إعْراضِهم عن سَماعِه[٤].

- قولُه: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ (أمْ) مُنقطِعةٌ، وما فيها مِن مَعنى (بلْ)؛ لِلانتقالِ مِن التَّوبيخِ بعَدَمِ التَّدبُّرِ إلى التَّوبيخِ بكَوْنِ قُلوبِهم مُقْفلَةً لا تَقبَلُ التَّدبُّرَ والتَّفكُّرَ، والهَمْزةُ لِلتَّقريرِ[٥].

- وتَنْكيرُ القُلوبِ؛ إمَّا لِتَهويلِ حالِها، وتَفْظيعِ شَأْنِها بإيهامِ أمْرِها في القَساوةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٢٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٢٠).

والجَهالةِ، كأنَّه قِيلَ: على قُلوبٍ مُنكَرةٍ، لا يُعرَفُ حالُها، ولا يُقادَرُ قَدْرُها في القَساوةِ. وإمَّا لأنَّ المُرادَ بها قُلوبُ بَعضٍ منهم، وهمُ المُنافِقونَ، والمعنى: بلْ بَعضُ القُلوبِ عليها أقفالٌ، وهذا مِن التَّعريضِ بأنَّ قُلوبَهم مِن هذا النَّوعِ؛ لأنَّ إثْباتَ هذا النَّوعِ مِن القُلوبِ في أثْناءِ التَّعجيبِ مِن عَدَمِ تَدبُّرِ هؤلاء القُرآنَ يدُلُّ -بدَلالةِ الالتِزامِ- أنَّ قُلوبَ هؤلاءِ مِن هذا النَّوعِ مِن القُلوبِ ذَواتِ الأقْفالِ؛ فكَونُ قُلوبِهم مِن هذا النَّوعِ مُستَفادٌ مِن الإضْرابِ الانتقاليِّ في حِكايةِ أحوالِهم[١]، أو أنَّه لم يحتَجْ إلى تعريفِ القلوبِ؛ لأنَّه معلومٌ أنَّها قلوبُ مَن ذكَرَ[٢].

وقيل: قال: ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ لأنَّه لو قال: (على قُلوبِهم) لم يَدخُلْ قَلبُ غيرِهم في هذه الجُملةِ. والمُرادُ: أمْ على قُلوبِ هؤلاء وقُلوبِ مَن كانوا بهذه الصِّفةِ أقفالُها[٣].

- وإضافةُ (أقْفالٍ) إلى ضَميرِ ﴿قُلُوبٍ﴾ نظْمٌ بَديعٌ أشارَ إلى اخْتِصاصِ الأقفالِ بتلك القُلوبِ، أي: مُلازَمتِها لها؛ فدلَّ على أنَّها قاسيةٌ، وأنَّها أقفالٌ مُناسِبةٌ لها، غَيرُ مُجانِسةٍ لِسائرِ الأقْفالِ المَعهودةِ[٤].

وقيل: قال: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالإضافةِ، ولم يَقُلْ: (أقفالٌ)، كما قال: ﴿قُلُوبٍ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٥، ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٢١).

لأنَّ الأقفالَ كانت مِن شَأنِها، فأضافَها إليها كأنَّها ليستْ إلَّا لها، وفي الجُملةِ لم يُضِفِ القُلوبَ إليهم؛ لعَدَمِ نَفعِها إيَّاهم[١].

وقيل: في قَولِه: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالتَّعريفِ نَوعُ تأكيدٍ؛ فإنَّه لو قال (أقفالٌ) لَذَهَبَ الوَهمُ إلى ما يُعرَفُ بهذا الاسمِ؛ فلمَّا أضافَها إلى القُلوبِ عُلِمَ أنَّ المرادَ بها ما هو للقَلبِ بمَنزلةِ القُفلِ للبابِ؛ فكأنَّه أراد أقفالَها المُختصَّةَ بها، الَّتي لا تكونُ لِغَيرِها، واللهُ أعلمُ[٢].

- والآيةُ مِن الاحتِباكِ[٣]: ذَكرَ التَّدبُّرَ أوَّلًا دليلًا على ضِدِّه ثانيًا، والأقفالَ ثانيًا دليلًا على ضِدِّها أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّه ذَكرَ نَتيجةَ الخَيرِ الكافِلةَ بالسَّعادةِ أوَّلًا، وسببَ الشَّرِّ الجامِعَ للشَّقاوةِ ثانيًا[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٦).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٤٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٤، ٢٤٥).

الآيات (٢٥-٢٨)

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَوَّلَ﴾: أي: زيَّن وسَهَّل، والتَّسويلُ: تَزيينُ النَّفْسِ لِمَا تَحرِصُ عليه، وتصويرُ القَبيحِ منه بصُورةِ الحَسَنِ، وأصلُ التَّسويلِ: تَفعيلٌ مِن سُولِ الإنسانِ، وهو أُمنِيَّتُه الَّتي يَتمَنَّاها فتُزَيِّنُ لطالِبِها الباطِلَ والغُرورَ، قيل: مِن السَّوْلِ وهو الاستِرخاءُ، وقيل: أصلُ السُّولِ (السُّؤْلُ) مَهموزًا[١].

﴿وَأَمْلَى﴾: أي: أمْهَلهم بالمدِّ لهم في العُمُرِ، على أنَّ الإملاءَ راجِعٌ إلى الله، أو: مَدَّ لهم في الآمالِ والأمانيِّ على أنَّ الإملاءَ مِن فِعلِ الشيطانِ، وأصلُ الإملاءِ: يدُلُّ على امتِدادٍ في شَيءٍ؛ زَمانٍ أو غَيرِه[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا الأسبابَ الَّتي حمَلَتِ المنافِقينَ على النِّفاقِ: إنَّ المُنافِقينَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

الَّذين فارَقوا الإيمانَ، ورَجَعوا إلى الكُفرِ مِن بَعدِ ما عَرَفوا الحَقَّ: الشَّيطانُ زيَّنَ لهم الارتِدادَ عن الإسلامِ، واللهُ مَدَّ لهم في آجالِهم، وأمهَلَهم، ولم يُعَجِّلْ عُقوبَتَهم، فاغتَرُّوا ووَقَع منهم ذلك.

ذلك التَّسويلُ والإملاءُ وَقَع عليهم؛ بسَبَبِ قَولِهم للكُفَّارِ الَّذين كَرِهوا ما أنزَلَ اللهُ تعالى مِنَ القُرآنِ: سنُطيعُكم ونَتَّبِعُ أهواءَكم في بَعضِ ما كَرِهتُموه مِن الوَحيِ المُنَزَّلِ. واللهُ يَعلَمُ ما يُخفيه المُنافِقونَ والكافِرونَ.

ثُمَّ يُبيِّنُ الله تعالى أحوالَ المنافِقينَ السَّيِّئةَ عندَما تتَوفَّاهم الملائكةُ، فيقولُ: فكيف يكونُ حالُ أولئك المنافِقينَ إذا جاءتْهم الملائكةُ لِقَبضِ أرواحِهم، فأخَذوا يَضرِبونَ وُجوهَهم وأعجازَهم؟ ذلك الضَّربُ للمُنافِقينَ عندَ مَوتِهم بسَبَبِ اتِّباعِهم ما أسخَطَ اللهَ، وكَراهيتِهم رِضوانَه تعالى؛ فأبطَلَ اللهُ أعمالَهم وأذهَبَها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ -سُبحانَه وتعالى- بأقفالِ قلوبِ المنافقينَ؛ بيَّن منشأَ ذلك، فقال[1]:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ ﴾.

أي: إنَّ المُنافِقينَ الَّذين فارَقوا الإيمانَ، ورَجَعوا إلى الكُفرِ مِن بَعدِ ما عَرَفوا الحَقَّ، فآثَروا الضَّلالَ على الهُدى بلا بُرهانٍ: إنَّما وَقَع منهم ذلك؛ بسَبَبِ تَزيينِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٥).

الشَّيطانِ لهم الارتِدادَ عن الإسلامِ(١).

كما قال الله تعالى ذِكرُه: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٨ - ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿وَأُمْلِيَ﴾ بضَمِّ الهَمزةِ، وكَسرِ اللَّامِ، وفَتحِ الياءِ، على صيغةِ ما لم يُسمَّ فاعِلُه(٢).

٢- قِراءةُ ﴿وَأُمْلِيْ﴾ بضَمِّ الهَمزةِ، وكَسرِ اللَّامِ، وسُكونِ الياءِ، على أنَّه مُسنَدٌ إلى المُتكَلِّمِ، بنِسبةِ الإملاءِ إلى اللهِ تعالى، أي: وأنا أُملِي لهم، كما قال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٧٩، ٣٨٠).
قال ابنُ عاشور: (لعلَّ المرادَ: الجَماعةُ الَّذين انخَزَلوا يومَ أُحُدٍ مع عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ، والارتِدادُ على الأدبارِ على هذا الوَجهِ حَقيقةٌ؛ لأنَّهم رَجَعوا عن مَوقِعِ القِتالِ بعدَ أن نَزَلوا به فرَجَعوا إلى المدينةِ، وكانت المدينةُ خَلْفَهم. وهذا عندي أظهَرُ الوَجهَين، وأَلْيَقُ بقولِه بعدُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ [محمد: ٢٦] إلى قولِه: ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧]، و(الهُدى) على هذا الوَجهِ هو الحَقُّ، أي: مِن بَعدِ ما عَلِموا أنَّ الحَقَّ قِتالُ المُشرِكينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٥).
(٢) قرأ بها أبو عَمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٦).

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْـمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقيل: هي كالقِراءةِ السَّابِقةِ، وسُكِّنَت الياءُ تَخفيفًا(١).

٣- قِراءةُ ﴿وَأَمْلَىٰ﴾ بفَتحِ الهَمزةِ واللَّامِ، بنِسبةِ الإملاءِ إلى الشَّيطانِ، أي: وأَملى الشَّيطانُ لهم. أو: هي بمعنى القِراءةِ السَّابِقةِ، أي: واللهُ أَملَى لهم(٢).

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

أي: ووَقَع منهم ذلك؛ لأنَّ اللهَ مَدَّ للمُنافِقينَ في آجالِهم، وأمهَلَهم، ولم يُعَجِّلْ عُقوبَتَهم، فاغتَرُّوا(٣).

---

(١) قرأ بها يعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٧٠٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٨، ٣٢٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٩).
وممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي -وعزاه لأكثَرِ المفسِّرينَ-، والسمعانيُّ، وابنُ عطية، والرَّسْعَني، وأبو حيَّان. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣).
وقيل: المعنى: ومَدَّ الشَّيطانُ للمُنافِقينَ في الأمَلِ، ووعَدَهم طُولَ العُمُرِ، وغرَّهم وخَدَعَهم.
وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البغويُّ، والزمخشري، وابن جُزَي، وابن كثير، وجلال الدين المحلِّي، والعُلَيمي، والشوكاني، والألوسي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى تَسليطَه الشَّيطانَ عليهم؛ بَيَّنَ سَبَبَه، فقال[(١)]:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾.

= الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٠).

كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وذكر ابنُ جُزَي أنَّ ذلك أظهَرُ؛ لِتَناسُبِ الضَّميرِ بيْن الفاعِلَين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٧).

أي: ذلك التَّسويلُ والإملاءُ المُفضي بهم إلى الكُفرِ قد وَقَع؛ بسَبَبِ قَولِ المُنافِقينَ للكُفَّارِ الَّذين كَرِهوا ما أنزَلَ اللهُ تعالى مِنَ القُرآنِ: سنُطيعُكم ونَتَّبعُ أهواءَكم في بَعضِ ما كَرِهتُموه مِن الوَحيِ المُنَزَّلِ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨١).

قال الرَّازي: (قال بعضُ المفسِّرينَ: ذلك إشارةٌ إلى الإملاءِ، أي: ذلك الإملاءُ بسببِ أنَّهم قالوا لِلَّذينَ كَرِهوا. وهو اختيارُ الواحديِّ. وقال بعضُهم: ذلك إشارةٌ إلى التَّسويلِ. ويحتملُ أن يُقالَ: ذلك الارتدادُ بسبَبِ أنَّهم قالوا سَنُطيعُكم). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٨).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الإشارةَ في قَولِه تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ تعودُ إلى التَّسويلِ والإملاءِ: ابنُ جرير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨١).

وذهب القاسمي إلى أنَّ ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِر مِن ارتِدادِهم. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٧٦).

قال ابن جرير: (﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ مِنَ الأمرِ بقِتالِ أهلِ الشِّركِ به). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٠).

وقال القرطبي: (﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: في مُخالَفةِ مُحمَّدٍ، والتَّظاهُرِ على عداوتِه، والقُعودِ عن الجِهادِ معه، وتَوهينِ أمْرِه في السِّرِّ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٠).

وقال البقاعي: (﴿فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ وهو القِتالُ في سَبيلِ اللهِ، الَّذي تقدَّمَ أنَّهم عندَ نُزولِ سُورةٍ يُذكَرُ بها يَصيرونَ كالَّذي يُغشَى عليه مِنَ الموتِ، فأنتم في أمانٍ مِن أن نُقاتِلَكم أبدًا؛ فإنَّا إنَّما أسلَمْنا للأمانِ على دمائِنا وأموالِنا، والَّذي نُحِبُّه مِمَّا يُنَزَّلُ هو التَّأمينُ لِمَن أقَرَّ بكَلِمةِ الإسلامِ، والقَناعةُ منه بالظَّاهِرِ، والوَعدُ العامُّ بالتَّبَسُّطِ في البلادِ، والتَّوسعةِ في الأرزاقِ، ونحوِ ذلك؛ فكانوا بذلك كَفَرةً؛ فإنَّ الدِّينَ لا يتجَزَّأُ، فمَنْ أضاع مِن أصولِه شَيئًا فقد أضاعه كُلَّه، والتَّقييدُ بالبَعضِ يُفهِمُ أنَّهم لا يُطيعونَهم في البَعضِ الآخَرِ، وهو إظهارُ الإسلامِ، والتَّصَوُّرُ بصُورةِ المُسالَمةِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٤٨).

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿إِسۡرَارَهُمۡ﴾ بكَسرِ الهَمزةِ، مَصدَرُ: أَسَرَّ يُسِرُّ، أي: واللهُ يَعلَمُ إخفاءَهم[1].

٢- قِراءةُ ﴿أَسْرَارَهُمْ﴾ بفَتحِ الهَمزةِ، جَمعُ سِرٍّ، أي: يَعلَمُ الأشياءَ الَّتي يُسِرُّونَها[2].

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾.

أي: واللهُ يَعلَمُ ما يُخفيه المُنافِقونَ والكافِرونَ، ويُسِرُّونَه بيْنَهم مِنَ الكُفرِ به، ومَعصيةِ رَسولِه[3].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].

---

(١) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ، وحفصٌ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).
واستظهر الرَّازيُّ أنَّ المعنى: أنَّ اللهَ يَعلَمُ ما في قُلوبِهم مِمَّا يُسِرُّونَ مِن العِلمِ بِصِدقِ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّهم كانوا مُكابِرينَ مُعانِدينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٧).

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٧، ٨].

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى إحاطةَ عِلمِه بهم؛ أتْبَعه إحاطةَ قُدرتِه[١]، فقال تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧)﴾.

أي: فكيف يكونُ حالُ أولئك المنافِقينَ إذا جاءتْهم الملائِكةُ لِقَبضِ أرواحِهم، فأخَذوا يَضرِبونَ وُجوهَهم وأعجازَهم[٢]؟

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٢).

وقد ذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ هذه الآيةَ تتعَلَّقُ بما قبْلَها، أي: واللهُ يَعلَمُ إسرارَ هؤلاء المنافقينَ، فكيف لا يَعلَمُ حالَهم إذا توفَّتْهم الملائكةُ وهم يَضرِبونَ وُجوهَهم وأدبارَهم؟! فحالُهم أيضًا لا يخفَى عليه في ذلك الوَقت. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١).

وقال ابن عطيَّة: (يَحتمِلُ أن يُتوَعَّدوا به على مَعنَيين؛ أحَدُهما: هذا هَلَعُهم وجَزَعُهم لِفَرضِ القِتالِ وقِراعِ الأعداء، فكيف فَزَعُهم وجَزَعُهم إذا توفَّتْهم الملائكةُ؟! والثَّاني: أن يُريدَ: هذه مَعاصيهم وعِنادُهم وكُفرُهم، فكيف تكونُ حالُهم مع اللهِ إذا توفَّتْهم الملائكةُ؟!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٠).

وقال القرطبي: (معنى الكلامِ التَّخويفُ والتَّهديدُ، أي: إنْ تأخَّرَ عنهم العذابُ فإلى انقِضاءِ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾.

أي: ذلك الضَّربُ للمُنافِقينَ عندَ مَوتِهم إنَّما هو بسَبَبِ اتِّباعِهم ما أسخطَ اللهَ؛ بالكُفرِ أو العِصيانِ، ومِن ذلك طاعتُهم الشَّيطانَ، ومُوالاةُ الكُفَّارِ الَّذين كَرِهوا ما أنزَلَ الرَّحمنُ[1].

﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾.

أي: وبسَبَبِ أنَّ المُنافِقينَ كَرِهوا ما يُرضي اللهَ عنهم، كالقِتالِ في سَبيلِه، ولم يكُنْ لهم رغبةٌ فيما يُقرِّبُهم إليه[2].

= العُمُر). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٠).

وقال أيضًا في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الأنفالِ (الآية ٥٠): (﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: أستاهَهم، كنَى عنها بالأدبارِ، قالَه مجاهدٌ وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ. الحسَنُ: ظهورَهم... وقيلَ: هذا الضَّربُ يكونُ عندَ الموتِ. وقد يكونُ يومَ القيامةِ حينَ يَصيرونَ بهم إلى النَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٢).

قال الواحدي: (﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: يُريدُ ما كتَموا مِن التَّوراةِ. وقال مقاتلٌ: يعني الكفرَ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وقال الزَّجَّاجُ: اتَّبعوا مَن خالَفَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٥٩). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤).

وقال الشوكاني: (﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ أي: بِسَبَبِ اتِّباعِهم ما يُسْخِطُ اللهَ مِن الكفرِ والمعاصي. وقِيل: كِتْمانُهم ما في التَّوراةِ مِن نَعْتِ نَبيِّنا صلَّى الله عليه وسَلَّم. والأوَّلُ أولَى؛ لِمَا في الصِّيغةِ مِن العُمومِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩). =

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

أي: فأبطَلَ اللهُ أعمالَهم وأذهَبَها؛ فلا نَفْعَ فيها(١).

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾، بيَّن -جلَّ وعَلا- في هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّ سببَ ارتِدادِ هؤلاءِ القَومِ مِن بَعدِ ما تبيَّنَ لهمُ الهُدى، هو إغواءُ الشَّيطانِ لهم، كما قال تعالى مُشيرًا إلى عِلَّةِ ذلك: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ أي: زيَّن لهمُ الكُفرَ والارتِدادَ عن الدِّينِ، ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: مدَّ لهم في الأملِ، ووَعَدَهم طولَ العُمُرِ، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ. وإيضاحُ هذا: أنَّ هؤلاءِ المُرتدِّينَ على أدبارِهم مِن بَعدِ ما تبيَّنَ لهمُ الهُدى وَقَع لهم ذلك بسَببِ أنَّ الشَّيطانَ سوَّلَ لهم ذلك، وسهَّلَه لهم وزيَّنَه لهم وحسَّنَه لهم، ومنَّاهم بطولِ الأعمارِ؛ لأنَّ طولَ الأملِ مِن أعظَمِ أسبابِ ارتِكابِ الكُفرِ والمعاصي(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ

= قال الشنقيطي بعدَ أن ذكر قولَ مَن قال: إنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في المنافقينَ، وقولَ مَن قال: إنَّها نزلت في اليهودِ، قال: (التَّحقيقُ الَّذي لا شكَّ فيه أنَّ هذه الآياتِ عامَّةٌ في كلِّ ما يَتناوَلُه لَفْظُها، وأنَّ كل ما فيها مِن الوعيدِ عامٌّ لِمَن أطاع مَن كَرِهَ ما نزَّل اللهُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٣٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٩، ١٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٠).

﴿فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ يَجِبُ على كُلِّ مُسلِمٍ في هذا الزَّمانِ تأمُّلُ هذه الآياتِ وتدَبُّرُها، والحَذَرُ التَّامُّ مِمَّا تَضَمَّنَتْه مِنَ الوعيدِ الشَّديدِ، فاحذَرْ كُلَّ الحَذَرِ من الدُّخولِ في الَّذين قالوا: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾(١).

٣- إنَّ قولَ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» يَقْتَضي ألَّا يُحَبَّ سِواه؛ فإنَّ الإلهَ هو الَّذي يُطاعُ، مَحبَّةً وخَوفًا ورَجاءً، ومِن تمام مَحبَّتِه مَحبَّةُ ما يُحِبُّه، وكَراهيَةُ ما يَكرَهُه؛ فمَن أَحَبَّ شيئًا ممَّا يَكرَهُ اللهُ، أو كَرِه شيئًا ممَّا يُحِبُّه اللهُ لم يَكمُلْ تَوحيدُه ولا صِدقُه في قولِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وكان فيه مِن الشِّركِ الخَفيِّ بحَسَبِ ما كَرِهَه ممَّا يُحبُّه اللهُ، وما أحَبَّه ممَّا يَكرَهُه اللهُ. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾(٢). وقال أيضًا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، فذَمَّ سُبحانَه مَن كَرِهَ ما أحَبَّه اللهُ، أو أحَبَّ ما كَرِهَه اللهُ؛ فالواجِبُ على كُلِّ مُؤمِنٍ أن يحِبَّ ما أحَبَّه اللهُ مَحبَّةً تُوجِبُ له الإتيانَ بما وَجَب عليه منه، فإنْ زادت المحبَّةُ حتَّى أتى بما نُدِبَ إليه منه كان ذلك فَضلًا؛ وأن يَكرَهَ ما كَرِهَه اللهُ تعالى كراهةً تُوجِبُ له الكَفَّ عمَّا حَرَّم عليه منه، فإن زادت الكراهةُ حتَّى أوجَبَت الكَفَّ عمَّا كَرِهَه تَنزيهًا كان ذلك فَضلًا. وقد ثَبَت في الصَّحيحَينِ عنه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم حتَّى أكونَ أحَبَّ إليه مِن والدِه ووَلَدِه والنَّاسِ أجمَعينَ))(٣)؛ فلا يكونُ المؤمِنُ مُؤمِنًا حتَّى يُقَدِّمَ مَحبَّةَ الرَّسولِ على محبَّةِ جَميعِ الخَلقِ، ومحبَّةُ الرَّسولِ تابعةٌ لِمَحبَّةِ مُرسِلِه، والمحبَّةُ الصَّحيحةُ تَقتضي المُتابَعةَ والمُوافَقةَ في حُبِّ المحبوباتِ،

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٣، ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٥٩).

(٣) أخرجه البخاريُّ (١٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٤) مِن حديثِ أنسٍ رضيَ الله عنه.

وبُغضِ المكروهاتِ؛ قال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾(١) [آل عمران: ٣١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾، ولم يقلْ: (ما أرضى اللهَ)؛ وذلك لأنَّ رَحمةَ اللهِ سابِقةٌ، فله رحمةٌ ثابِتةٌ، وهي مَنشَأُ الرِّضوانِ، وغضَبَ اللهِ مُتأخِّرٌ، فهو يكونُ على ذنْبٍ؛ فقال: ﴿رِضۡوَٰنَهُۥ﴾؛ لأنَّه وَصفٌ ثابِتٌ للهِ سابِقٌ، ولم يقلْ: (سَخَطَ اللهِ)، بل: ﴿مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ السَّخَطَ ليس ثُبوتُه كثُبوتِ الرِّضوانِ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أنَّ الماضيَ مِن العَمَلِ قد يَحبَطُ بالسَّيِّئاتِ(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾، فيه سُؤالٌ: المُشرِكون ما كانوا يَكرَهون رِضوانَ اللهِ، بل كانوا يَقولونَ: إنَّ ما نحن عليه فيه رِضوانُ اللهِ، ولا نَطلُبُ إلَّا رِضاءَ اللهِ، فكانوا يَقولونَ: إنَّا نَطلُبُ رِضاءَ اللهِ. كما قالوا: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وقالوا: ﴿فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾ [الأعراف:٥٣]؟

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٩٥، ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٨٥).

الجَوابُ: أنَّ مَعْناه: كَرِهوا ما فيه رِضاءُ اللهِ تعالى(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾

- قولُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم ﴾ جيءَ بحَرْفِ (على)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الارْتِدادَ مُتمكِّنٌ مِن جِهةِ الأدْبارِ، كما يُقال: على صِراطٍ مُستقيمٍ(٢).

- وأُوثِرَ أنْ يكونَ خَبَرُ (إنَّ) جُملةً؛ لِيَتأتَّى بالجُملةِ اشْتِمالُها على خَصائصِ الابتداءِ باسْمِ الشَّيطانِ؛ للاهتِمامِ به في غَرَضِ ذَمِّهم، وأنْ يُسنَدَ إلى اسْمِه مُسنَدٌ فِعليٌّ؛ لِيُفِيدَ تَقوِّيَ الحُكْمِ(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ إذِ التَّقديرُ أنْ يَسألَ سائلٌ عن مَظهَرِ تَسويلِ الشَّيطانِ لهم الارتدادَ بعْدَ أنْ تبيَّنَ لهم الهُدى، فأُجيبَ بأنَّ الشَّيطانَ اسْتَدْرَجَهم إلى الضَّلالِ عِندَما تَبيَّن لهم الهُدى فسَوَّلَ لهم أنْ يُوافِقوا أهْلَ الشِّركِ والكُفرِ في بَعضِ الأُمورِ، مُسوِّلًا أنَّ تلك المُوافَقةَ في بَعضِ الأمْرِ لا تَنقُضُ اهْتِداءَهم، فلمَّا وافَقُوهم وَجَدوا حَلاوةَ ما أَلِفوه مِن الكُفرِ فيما وافَقوا فيه أهْلَ الكُفرِ، فأخَذوا يَعودونَ إلى الكُفرِ المأْلوفِ حتَّى ارْتَدُّوا على أدْبارِهم، وهذا شأْنُ النَّفْسِ في مُعاوَدةِ ما تُحِبُّه بعْدَ الانقطاعِ عنْه إنْ كان الانقطاعُ قَريبَ العَهدِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١١٦).

- وقالوا: ﴿فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾؛ احترازًا لأنفُسِهم إذا لم يُطيعوا في بَعضٍ[١].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، مُتضمِّنٌ لِلْإفشاءِ في الدُّنيا، والتَّعذيبِ في الآخِرةِ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ في ﴿فَكَيْفَ﴾ لِلتَّفريعِ على جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ [محمد: ٢٥] الآيةَ، وما بيْنَهما مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥] بِناءً على أنَّ الارتِدادَ ارتِدادٌ عن الدِّينِ؛ فيَكونَ التَّفريعُ لِبَيانِ ما سَيَلْحَقُهم مِن العَذابِ عِندَ المَوتِ، وهو استِهلالٌ لِمَا يَتواصَلُ مِن عَذابِهم عندَ مَبدَأِ المَوتِ إلى اسْتِقرارِهم في العَذابِ الخالِدِ. ويَجوزُ إذا كان المُرادُ بالارتِدادِ الارتِدادَ عن القِتالِ، أنْ تَكونَ الفاءُ فَصيحةً، فيُفيدُ: إذا كانوا فَرُّوا مِن القِتالِ هلَعًا وخَوفًا، فكيفَ إذا تَوفَّتْهم الملائكةُ؟! أي: كيف هَلَعُهم ووَجَلُهم الَّذي ارْتَدُّوا بِهما عن القِتالِ؟! وهذا يَقْتضي شَيئينِ؛ أوَّلُهما: أنَّهم مَيِّتُون لا مَحالةَ، وثانيهما: أنَّ مَوتَتَهم يَصحَبُها تَعذيبٌ؛ فالأوَّلُ مأْخوذٌ بدَلالةِ الالْتزامِ، والثَّاني هو صَريحُ الكلامِ، وهو وَعيدٌ لِتَعذيبٍ في الدُّنيا عِندَ الموتِ، والمَقصودُ: وَعيدُهم بأنَّهم سيُعَجَّلُ لهم العَذابُ مِن أوَّلِ مَنازِلِ الآخِرةِ، وهو حالةُ الموتِ[٣].

- قولُه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ...﴾ (إذا) مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ دلَّ عليه اسمُ الاستِفهامِ، تَقْديرُه: كَيف حالُهم أو عَمَلُهم حِينَ تَتوفَّاهم الملائكةُ[٤]؟!

- ولَمَّا جُعِلَ هذا العَذابُ مُحقَّقًا وُقوعُه، رُتِّبَ عليه الاسْتِفهامُ عن حالِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ... ﴾ اسْتِفهامًا مُستعمَلًا في مَعنى تَعجيبِ المُخاطَبِ مِن حالِهم عِندَ الوَفاةِ، وهذا التَّعجيبُ مُؤذِنٌ بأنَّها حالةٌ فَظيعةٌ غَيرُ مُعتادةٍ؛ إذ لا يتعجَّبُ إلَّا مِن أمْرٍ غَيرِ مَعهودٍ، والسِّياقُ يدُلُّ على الفَظاعةِ(١).

- قولُه: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴾ تَصْويرٌ لِتَوفِّيهم على أهْولِ الوُجوهِ وأفظَعِها بما يَخافون منه، ويَجْبُنون عن القِتالِ مِن أجْلِه(٢).

- وأيضًا جُملةُ ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴾ حالٌ مِن الملائكةِ، والمَقصودُ مِن هذه الحالِ: وَعيدُهم بهذه المِيتةِ الفَظيعةِ الَّتي قدَّرَها اللهُ لهم، وجَعَلَ المَلائكةَ تَضرِبُ وُجوهَهم وأدْبارَهم، أي: يَضرِبون وُجوهَهم الَّتي وَقَوْهَا مِن ضَرْبِ السَّيفِ حِينَ فَرُّوا مِن الجِهادِ؛ فإنَّ الوُجوهَ ممَّا يُقصَدُ بالضَّرْبِ بالسُّيوفِ عِندَ القِتالِ، ويَضرِبونَ أدْبارَهم الَّتي كانتْ مَحَلَّ الضَّرْبِ لو قاتَلوا، وهذا تَعريضٌ بأنَّهم لو قاتَلوا لَفَرُّوا، فلا يَقَعُ الضَّرْبُ إلَّا في أدْبارِهم(٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ في ذِكرِ اتِّباعِ ما أسخَطَ اللهِ وكَراهةِ رِضوانِه مُحسِّنُ الطِّباقِ(٤)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٨، ١١٩).

(٤) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّين مع مُراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِن الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا ﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَق بيْنَ الضَّحِكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادقون. ومنه: طباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكون الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ مُتوهَّمةً، فتَبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا ﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ =

مرَّتينِ؛ لِلمُضادَّةِ بيْن السَّخَطِ والرِّضوانِ، والاتِّباعِ والكَراهيةِ. والجمْعُ بيْن الإخبارِ عنْهم باتِّباعِهم ما أسْخَطَ اللهَ وكَراهَتِهم رِضوانَه، مع إمكانِ الاجْتِزاءِ بأحَدِهما عن الآخَرِ؛ لِلْإيماءِ إلى أنَّ ضَرْبَ الملائكةِ وُجوهَ هؤلاء مُناسِبٌ لِإقبالِهم على ما أسْخَطَ اللهَ، وأنَّ ضَرْبَهم أدْبارَهم مُناسِبٌ لِكَراهَتِهم رِضوانَه؛ لأنَّ الكَراهةَ تَستلزِمُ الإعراضَ والإدبارَ؛ ففي الكلامِ أيضًا مُحسِّنُ اللَّفِّ والنَّشْرِ المُرتَّبِ(١)، فكان ذلك التَّعذيبُ مُناسبًا لِحالَيْ تَوقِّيهم في الفِرارِ مِن القِتالِ، ولِلسَّببينِ الباعثينِ على ذلك التَّوقِّي(٢).

= الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري)) للآمدي (١/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٢٢٥-٢٣٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٣٧٧-٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(١) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ«اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٩).

- وفُرِّعَ على اتِّباعِهم ما أسْخَطَ اللهَ وكَراهَتِهم رِضوانَه قَولُه: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ فكان اتِّباعُهم ما أسْخَطَ اللهَ وكَراهَتُهم رِضوانَه سَببًا في الأمْرَينِ: ضَرْبُ الملائكةِ وُجوهَهم وأدْبارَهم عِندَ الوفاةِ، وإحباطُ أعْمالِهم[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٩).

الآيات (٢٩-٣١)

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ
لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ
حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَضْغَانَهُمْ﴾: أي: أحقادَهم، واحِدُها ضِغْنٌ: وهو ما في القَلبِ مُستَكِنٌّ مِن العَداوةِ، وأصلُ (ضغن): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ في مَيْلٍ واعْوِجاجٍ[1].

﴿بِسِيمَاهُمْ﴾: أي: بعَلاماتِهم وآثارِهم، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على أثَرٍ ومَعْلَمٍ[2].

﴿لَحْنِ الْقَوْلِ﴾: أي: مَعاريضِ الكَلامِ ومَعناه وفَحواه، يُقالُ: لَحَنتُ له ألحَنُ: إذا قُلتَ له قَولًا يَفقَهُه عنك، ويَخفَى على غَيرِه، وأصلُ (لحن): يدُلُّ على إمالةِ شَيءٍ عن جِهتِه[3].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾: أي: لَنَختَبِرَنَّكم ولَنَمتَحِنَنَّكم، والبَلاءُ يكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ، وأصلُ (بلو): يدُلُّ على الامتحانِ والاختِبارِ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مهدِّدًا المنافِقينَ بكشفِ أستارِهم، وفضحِ أسرارِهم: بل أحَسِبَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ أنْ لنْ يُظهِرَ اللهُ ما في قُلوبِهم مِن أحقادٍ وعَداوةٍ للإسلامِ وأهلِه؟

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى قُدرتَه على ذلك، فيقولُ: ولو نَشاءُ لَأَرَيْناك المُنافِقينَ -يا مُحمَّدُ-، فتَعرِفُهم بعَلاماتِهم الظَّاهِرةِ في وُجوهِهم، ولَتَعرِفَنَّهم -يا محمَّدُ- بفَحْوى أقوالِهم الَّتي تدُلُّ على سُوءِ طَوِيَّتِهم، واللهُ يَعلَمُ أعمالَكم، لا يخفَى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سُنَّةً مِن سُننِه في خلقِه، فيقولُ: ولَنَختَبِرَنَّ إيمانَكم وصَبرَكم، فنَأمُرُكم بالجِهادِ حتَّى نَعلَمَ المجاهِدينَ مِنكم والصَّابِرينَ، ونختبِرَكم اختبارًا يَكشِفُ أحوالَكم وضمائرَكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذا انتِقالٌ مِن التَّهديدِ والوَعيدِ إلى الإنذارِ بأنَّ اللهَ مُطلِعٌ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما يُضمِرُه المُنافِقونَ مِن الكُفرِ والمَكرِ والكَيدِ؛ لِيَعلَموا أنَّ أسْرارَهم غَيرُ خافيةٍ، فيُوقِنوا أنَّهم يَكُدُّون عُقولَهم في تَرتيبِ المَكايِدِ بلا طائلٍ، وذلك خَيبةٌ لِآمالِهم(١).

وأيضًا لَمَّا صوَّرَ اللهُ -سُبحانَه- ما أثَّرَتْه خِيانةُ المُنافِقين بأقبَحِ صُوَرِه، فبانَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٠).

به أنَّه ما حَمَلهم على ما فَعَلوه إلَّا جَهلُهم وسَفاهَتُهم؛ فأنتَجَ إهانَتَهم بالتَّبْكيتِ، فقال[1]:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: بل[2] أحَسِبَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ أنَّ اللهَ لن يُظهِرَ ما في قُلوبِهم مِن أحقادٍ وعَداوةٍ للإسلامِ وأهلِه[3]؟

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان مَفهومُ قَولِه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩] أنَّ اللهَ يُظهِرُ ضَمائرَهم، ويُبرِزُ سَرائرَهم، كأنَّ قائلًا قال: فلِمَ لَمْ يُظهِرْ؟ فقال: أخَّرْناه لِمَحضِ المَشيئةِ، لا لِخَوفٍ منهم كما لا تُفشَى أسرارُ الأكابِرِ خَوفًا منهم[4].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥١).

(٢) قال الرَّازي: (المفسِّرونَ على أنَّها [أي: أم] مُنقَطِعةٌ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٨).

وممَّن اختار أنَّها مُنقطِعةٌ بمعنى «بلْ»: ابنُ عطيَّة، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٠).

وذكر الرَّازيُّ أنَّه يحتمِلُ أنْ يُقالَ: إنَّها استفهاميَّةٌ، و (أمْ) إذا كانت مُتَّصِلةً استفهاميَّةً تَستدْعي سَبْقَ جملةٍ أخرَى استِفهاميَّةٍ، والسَّابقُ مفهومٌ مِن قولِه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦]، فكأنَّه تعالَى قال: أحَسِبَ الَّذينَ كفروا أنْ لن يَعلَمَ اللهُ إسرارَهم، أمْ حَسِبَ المنافقونَ أنْ لنْ يُظْهِرَها؟! والكلُّ فاسدٌ، وإنَّما يَعلَمُها ويُظهِرُها. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٤٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٩).

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾.

أي: ولو نَشاءُ لأَرَيْناكَ المُنافِقينَ -يا مُحمَّدُ- بأشْخاصِهم وأعْيانِهم، فتَعرِفُهم بعَلاماتِهم الظَّاهِرةِ في وُجوهِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ * وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠١، ١٠٢].

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾.

أي: وأُقسِمُ -يا محمَّدُ- لَتعرِفَنَّ المنافِقينَ في فَحْوى كلامِهم، وما يَصدُرُ منهم مِن أقوالٍ تدُلُّ على مَقاصِدِهم السَّيِّئةِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١).

قال ابنُ عطيَّة: (قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ مُقارَبةٌ في شُهرتِهم، ولكِنَّه تعالى لم يُعَيِّنْهم قَطُّ بالأسماءِ والتَّعريفِ التَّامِّ؛ إبقاءً عليهم وعلى قرابتِهم، وإن كانوا قد عُرِفوا بلَحنِ القَولِ، وكانوا في الاشتِهارِ على مراتِبَ، كعبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ، والجَدِّ بنِ قَيسٍ، وغَيرِهم مِمَّن دونَهم في الشُّهرةِ. والسِّيما: العَلامةُ الَّتي كان تعالى يَجعَلُ لهم لو أراد التَّعريفَ التَّامَّ بهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٠).

وقال ابن عاشور: (يَحتَمِلُ أنَّ اللهَ شاء ذلك وأراهم للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم... ويحتمِلُ أنَّ اللهَ قال هذا إكرامًا لرَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، ولم يُطْلِعْه عليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٢)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٥٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥٣-٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

قال ابن عاشور: (المعنى: فإنْ لم نُرِكَ إيَّاهم بسِيماهم فلَتَقَعَنَّ مَعرِفتُك بهم مِن لَحنِ كَلامِهم، =

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

أي: واللهُ يَعلَمُ أعمالَكم، لا يَخْفَى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها[1].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ -سُبحانَه- أنه يُعرِّفُ المُنافِقينَ لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ أتْبَعَه الإخبارَ بأنَّه يُعرِّفُهم للمؤمنينَ كافَّةً أيضًا[2]، بامتِحانِهم بالجِهادِ في سبيلِ اللهِ.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أي: وأُقسِمُ لَنَختبِرَنَّ إيمانَكم وصَبْرَكم، فنَأمُرُكم بالجِهادِ حتَّى نَعلَمَ المجاهِدينَ مِنكم والصَّابِرينَ على أداءِ ما فرَضَ اللهُ تعالى، وتَحَمُّلِ البَلاءِ- عِلْمَ شَهادةٍ ووُجودٍ يَترَتَّبُ عليه الجَزاءُ[3].

= بإلهامٍ يَجعَلُه اللهُ في عِلمِ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، فلا يَخفى عليه شَيءٌ مِن لَحنِ كَلامِهم، فيَحصُلُ له العِلمُ بكُلِّ واحِدٍ منهم إذا لَحَنَ في قَولِه، وهم لا يخلو واحِدٌ منهم مِنَ اللَّحنِ في قَولِه؛ فمَعرفةُ الرَّسولِ بكُلِّ واحدٍ منهم حاصِلةٌ... ولَحنُ القَولِ: الكَلامُ المحالُ به إلى غَيرِ ظاهِرِه؛ لِيَفطَنَ له مَن يُرادُ أن يَفهَمَه دونَ أن يَفهَمَه غَيرُه، بأن يكونَ في الكلامِ تَعريضٌ أو توريةٌ أو ألفاظٌ مُصطلَحٌ عليها بيْنَ شَخصَينِ أو فِرقةٍ، كالألفاظِ العِلميَّة). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢١، ١٢٢).

وقال ابن تيميَّة: (فمَعرِفةُ المُنافِقِ في لَحنِ القَولِ لا بدَّ منها، وأمَّا مَعرِفتُه بالسِّيما فمَوقوفةٌ على المشيئةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ١١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٦)، =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾

أي: ونختبِرَكم اختبارًا يَكشِفُ أحوالَكم وضمائرَكم، ويُظهِرُ حَسَنَها وقبيحَها(١).

= ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٤، ٣٨٥).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المرادَ: ولَنَبْلُونَّكم بالجهادِ؛ حتَّى يَعلَمَ المؤمِنونَ المجاهِدينَ والصَّابِرينَ، ويَتبَيَّنَ لهم أهلُ الإيمانِ مِن أهلِ النِّفاقِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٣).

قال الشنقيطي: (ما ذكَرَه [أي: ابنُ جريرٍ] مِن أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾ الآيةَ: حتَّى يَعلَمَ حِزبُنا وأولياؤُنا المجاهِدينَ منكم والصَّابرينَ- له وَجهٌ، وقد يُرشِدُ له قَولُه تعالى: ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ أي: نُظهِرَها ونُبرِزَها للنَّاسِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٣٨٦).

وقال الألوسي: (﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ بالأمرِ بالجهادِ ونحوِه مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٦). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مِن شُبهةٍ أو شَهوةٍ، بحيثُ تُخرِجُ القَلبَ عن حالِ صِحَّتِه واعتدالِه، ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أنَّ اللهَ لا يُخرِجُ ما في قُلوبِهم مِن الأضغانِ والعَداوةِ للإسلامِ وأهلِه؟! هذا ظَنٌّ لا يليقُ بحِكمةِ اللهِ تعالى؛ فإنَّه لا بُدَّ أن يُمَيِّزَ الصَّادِقَ مِن الكاذِبِ، وذلك بالابتِلاءِ بالمِحَنِ الَّتي مَن ثَبَت عليها ودام إيمانُه فيها، فهو المؤمِنُ حَقيقةً، ومَن رَدَّتْه على عَقِبَيه فلم يَصبِرْ عليها، وحينَ أتاه الامتِحانُ جَزِعَ وضَعُفَ إيمانُه وخَرَجَ ما في قَلْبِه مِن الضِّغْنِ- تَبيَّنَ نِفاقُه، هذا مُقتضى الحِكمةِ الإلهيَّةِ[(١)].

٢- قال الله تعالى عن المُنافِقينَ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ فلا بدَّ أن يظهَرَ ما في قلوبِهم، ويتبيَّنَ بفَلَتاتِ ألسنتِهم؛ فإنَّ الألسُنَ مَغارِفُ القلوبِ، يَظهَرُ منها ما في القلوبِ مِن الخَيرِ والشَّرِّ[(٢)]، قال عُثمانُ بنُ عفَّانَ رضيَ الله عنه: (ما أسَرَّ أحَدٌ سَريرةً إلَّا أظهَرَها اللهُ على صَفَحاتِ وَجْهِه، وفَلَتاتِ لِسانِه)[(٣)].

٣- يَبتلي اللهُ تعالى المؤمِنينَ بالمصائِبِ العَظيمةِ؛ امتِحانًا حتَّى يتبيَّنَ الصَّادِقُ مِن غَيرِه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾؛ فلا يُعرَفُ زَيفُ الذَّهَبِ إلَّا إذا أذَبْناه بالنَّارِ، ولا يُعرَفُ طِيبُ العُودِ إلَّا إذا أحرَقْناه بالنَّارِ، أيضًا لا يُعرَفُ المؤمِنُ إلَّا بالابتلاءِ والامتحانِ؛ فعليك أيُّها المسلمُ بالصَّبرِ، قد تُؤذَى على دينِك، قد يُستهزَأُ بك، ورُبَّما تُلاحَظُ، ورُبَّما

= قال الواحدي: (﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: نظهرَها، ونكشفَها، بإباءِ مَن يأبى القتالَ، ولا يَصبِرُ على الجهادِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١١٠).

تُراقَبُ، ولكنِ اصبِرْ واصْدُقْ[١]، فالمؤمِنُ إذا امتُحِنَ صبَرَ واتَّعَظ واستَغفَرَ، ولم يَتشاغَلْ بذَمِّ مَنِ انتَقَم منه؛ فاللهُ حَكَمٌ مُقسِطٌ، ثمَّ يَحمَدُ اللهَ على سَلامةِ دينِه، ويَعلَمُ أنَّ عُقوبةَ الدُّنيا أهوَنُ وخَيرٌ له[٢].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ فذَكَرَ أعظَمَ امتِحانٍ يَمتَحِنُ به عِبادَه، وهو الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ، فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾، أي: نَختَبِرُ إيمانَكم وصَبْرَكم ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾، فمَنِ امتَثَل أمْرَ اللهِ وجاهَدَ في سَبيلِ اللهِ لِنَصرِ دِينِه، وإعلاءِ كَلِمتِه، فهو المؤمِنُ حَقًّا، ومَن تكاسَلَ عن ذلك كان ذلك نَقصًا في إيمانِه[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ كان مُجاهِدٌ رحِمَه اللهُ إذا بلَغ إلى هذه الآيةِ قال: (اللَّهُمَّ إنَّا نسألُكَ أن لا تَبلُوَ أخبارَنا؛ فإنَّا نَفتَضِحُ)[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أنَّ الرُّسُلَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَعلَمونَ ما في قُلوبِ الَّذين يُظهِرون اتِّباعَهم، والمَعرِفةُ في لَحنِ القَولِ مَبنيَّةٌ على قَرينةٍ لا على شَيءٍ مَحسوسٍ مَقطوعٍ به[٥].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١).
(٢) يُنظر: ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٨/ ٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٥).

ٱلْقَوْلِ﴾ استدَلَّ به مَن جَعَل التَّعريضَ بالقَذفِ مُوجِبًا للحَدِّ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ جَعَلَ سُبحانَه الإرادةَ والتَّعريفَ بالسِّيما -الَّذي يُدرَكُ بالبَصرِ- مُعَلَّقًا على المَشيئةِ، وأقسَمَ على التَّعريفِ في لَحْنِ القَولِ -وهو الصَّوتُ الَّذي يُدرَكُ بالسَّمعِ-؛ فدلَّ على أنَّ المُنافِقينَ لا بُدَّ أنْ يُعرَفوا في أصواتِهم وكَلامِهم الَّذي يَظْهَرُ فيه لَحنُ قَولِهم، وهذا ظاهِرٌ بَيِّنٌ لِمَن تأمَّلَه في النَّاسِ مِن أهلِ الفِراسةِ في الأقوالِ وغيرِها مِمَّا يَظهَرُ فيها مِن النَّواقِضِ والفُحْشِ وغيرِ ذلك[2].

٤- قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أخبَرَ سُبحانَه أنَّه لو شاء لَعَرَّفَهم رسولَه بالسِّيماءِ في وُجوهِهم، ثمَّ قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ فأقسَمَ أنَّه لا بُدَّ أن يعرفَهم في لَحنِ القَولِ، ومنهم مَن كان يَقولُ القَولَ أو يَعمَلُ العمَلَ فيَنزِلُ القُرآنُ يُخبِرُ أنَّ صاحِبَ ذلك القَولِ والعمَلِ منهم؛ كما في سورةِ (بَراءةٌ)، ومنهم مَن كان المُسلِمون أيضًا يَعلَمونَ كَثيرًا منهم بالشَّواهِدِ والدَّلالاتِ والقَرائنِ والأماراتِ، ومنهم مَن لم يَكُنْ يُعرَفُ، كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[3] [التوبة: ١٠١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ دليلٌ على أنَّ للأشرارِ ظواهِرَ نَكيرٍ تدُلُّ على ما يُخَبِّئونَ مِن الشَّرِّ، لا تَخْفى على ذَوي الأبْصارِ، والمتوسِّمين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢١)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٨٢)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٥٦).

مِن الأخيارِ[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ ظاهِرُ هذه الآيةِ قد يَتوَهَّمُ منه الجاهِلُ أنَّه تعالى يَستفيدُ بالاختِبارِ عِلمًا لم يَكُنْ يَعلَمُه -سُبحانَه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا-، بل هو تعالى عالِمٌ بكُلِّ ما سيَكونُ قبْلَ أن يكونَ، وقد بيَّنَ أنَّه لا يستفيدُ بالاختِبارِ عِلمًا لم يَكُنْ يَعلَمُه، بقَولِه جَلَّ وعلا: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ فقَولُه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بعدَ قَولِه: (لِيَبتليَ) دليلٌ قاطِعٌ على أنَّه لم يَستَفِدْ بالاختبارِ شَيئًا لم يكُنْ عالِمًا به -سُبحانَه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كَبيرًا-؛ لأنَّ العَليمَ بذاتِ الصُّدورِ غَنيٌّ عن الاختِبارِ، وفي هذه الآيةِ بَيانٌ عَظيمٌ لجَميعِ الآياتِ الَّتي يَذكُرُ اللهُ فيها اختِبارَه لِخَلْقِه. فمعنى ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ أي: عِلمًا يَترَتَّبُ عليه الثَّوابُ والعِقابُ؛ فلا يُنافي أنَّه كان عالِمًا به قبْلَ ذلك، وفائِدةُ الاختِبارِ: ظُهورُ الأمرِ للنَّاسِ، أمَّا عالِمُ السِّرِّ والنَّجوى فهو عالِمٌ بكُلِّ ما سيَكونُ، كما لا يَخفى[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾

- (أم) مُنقَطِعةٌ في مَعْنى (بل) لِلْإضرابِ الانْتِقاليِّ، والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) لِلْإنكارِ، والمعنى: لا يَحسَبونَ انتِفاءَ إظْهارِ أضْغانِهم في المُستقبَلِ،

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٥).

والقاعدةُ في ذلك: أنَّ اللهَ تعالى متى علَّق عِلمَه بالأمورِ بعدَ وُجودِها، كان المرادُ بذلك: العِلمَ الَّذي يترتَّبُ عليه الجزاءُ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٧٥٥، ٧٥٦).

كما انْتَفى ذلك فيما مَضَى؛ فلَعلَّ اللهَ أنْ يَفضَحَ نِفاقَهم[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ الالتِفاتُ إلى نُونِ العَظَمةِ؛ لِإبرازِ العِنايةِ بالإراءةِ[٢].

- واللَّامُ في ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ تأْكيدٌ لِلامِ ﴿لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾؛ لِزيادةِ تَحقيقِ تَفرُّعِ المَعرفةِ على الإراءةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ في مَعنَى الاحتِراسِ ممَّا يَقْتضيهِ مَفهومُ (لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ) مِن عَدَمِ وُقوعِ المَشيئةِ لِإراءتِه إيَّاهم بنُعوتِهم، والمعنَى: فإنْ لم نُرِكَ إيَّاهم بسِيماهُم، فلَتَقَعَنَّ مَعرِفتُك بهم مِن لَحْنِ كَلامِهم بإلْهامٍ يَجعَلُه اللهُ في عِلْمِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلا يَخْفى عليه شَيءٌ مِن لَحنِ كَلامِهم، فيَحصُلُ له العِلْمُ بكلِّ واحدٍ منْهم إذا لَحَنَ في قَولِه، وهمْ لا يَخْلو واحدٌ منْهم مِن اللَّحْنِ في قَولِه؛ فمَعرفةُ الرَّسولِ بكلِّ واحدٍ منهم حاصِلةٌ، وإنَّما ترَكَ اللهُ تَعريفَه إيَّاهم بسِيماهُم، ووَكَلَه إلى مَعرِفتِهم بلَحْنِ قَولِهم إبقاءً على سُنَّةِ اللهِ تعالَى في نِظامِ الخَلْقِ بقَدْرِ الإمكانِ؛ لأنَّها سُنَّةٌ ناشِئةٌ عن الحِكمةِ، فلمَّا أُريدَ تَكريمُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإطْلاعِه على دَخائلِ المُنافِقين، سَلَكَ اللهُ في ذلك مَسلَكَ الرَّمْزِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢١، ١٢٢).

- واللَّامُ في ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ﴾ لامُ القَسَمِ المَحذوفِ(١).

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ تَذْييلٌ؛ فهو -لِعُمومِه- خِطابٌ لِجَميعِ الأُمَّةِ المَقصودُ منه التَّعليمُ، وهو مع ذلك كِنايةٌ عن لازِمِه، وهو الوَعيدُ لِأهْلِ الأعمالِ السَّيِّئةِ على أعْمالِهم، والوعْدُ لِأهْلِ الأعمالِ الصَّالحةِ على أعْمالِهم، وتَنبيهٌ لِأهْلِ النِّفاقِ بأنَّ اللهَ يُوشِكُ أنْ يَفضَحَ نِفاقَهم(٢).

- واجتِلابُ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ عِلْمَه بذلك مُستمِرٌّ(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ عطْفٌ على قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٠]، ومَعناهُ الاحْتِراسُ ممَّا قدْ يَتوهَّمُ السَّامِعونَ مِن قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ مِن الاسْتِغناءِ عن التَّكليفِ، ووَجْهُ هذا الاحتِراسِ: أنَّ عِلْمَ اللهِ يَتعلَّقُ بأعْمالِ النَّاسِ بعْدَ أنْ تقَعَ، ويَتعلَّقُ بها قبْلَ وُقوعِها بأنَّها ستَقَعُ، ويَتعلَّقُ بعَزْمِ النَّاسِ على الاستِجابةِ لِدَعوةِ التَّكاليفِ قُوَّةً وضَعْفًا، ومِن عَدَمِ الاستِجابةِ كُفْرًا وعِنادًا؛ فبَيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّ مِن حِكْمةِ التَّكاليفِ أنْ يَظهَرَ أثَرُ عِلْمِ اللهِ بأحْوالِ النَّاسِ، وتَقومَ الحُجَّةُ عليهم(٤).

- وقولُه: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾ مُستعمَلٌ في معنَى: حتَّى نُظهِرَ للنَّاسِ الدَّعاويَ الحقَّ مِن الباطِلةِ؛ فالعِلمُ كِنايةٌ عن إظْهارِ الشَّيءِ المَعلومِ، بقَطْعِ النَّظَرِ عن كَونِ إظْهارِه لِلْغيرِ أو لِلمُتكلِّمِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢٤).

- قولُه: ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ بَلْوُ الإخبارِ: كِنايةٌ عن أحوالِ أعْمالِهم مِن خَيرٍ وشَرٍّ؛ لأنَّ الأخبارَ إنَّما هي أخبارٌ عن أعْمالِهم، وهذه عِلَّةٌ ثانيةٌ عُطِفَتْ على قَولِه: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾. وأُعِيدَ عطْفُ فِعلِ (نَبْلُوَ) على فِعلِ ﴿نَعْلَمَ﴾، وكان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُعطَفَ ﴿أَخْبَارَكُمْ﴾ بالواوِ على ضَميرِ المُخاطَبينَ في (لَنَبْلُوَنَّكُمْ)، ولا يُعادَ (نَبْلُوَ)؛ فالعُدولُ عن مُقْتضَى ظاهِرِ النَّظْمِ إلى هذا التَّركيبِ؛ لِلمُبالَغةِ في بَلْوِ الأخبارِ؛ لأنَّه كِنايةٌ عن بَلْوِ أعْمالِهم، وهي المَقصودُ مِن بَلْوِ ذَواتِهم، فذِكْرُه كذِكْرِ العامِّ بعْدَ الخاصِّ؛ إذ تَعلَّقَ البَلْوُ الأوَّلُ بالجِهادِ والصَّبْرِ، وتَعلَّقَ البَلْوُ الثَّاني بالأعمالِ كلِّها، وحصَلَ مع ذلك تأْكيدُ البَلْوِ تأْكيدًا لَفظيًّا[1].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٤، ١٢٥).

الآيات (٣٢-٣٥)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَشَآقُّوا۟﴾: أي: عادَوْا، وخالَفوا، وجانَبوا، والمُشاقَّةُ عِبارةٌ عن كَونِ كلِّ واحدٍ مِن الخَصمينِ في شقٍّ غيرِ شقِّ صاحبِه، وأصلُ (شقق): يدُلُّ على انصِداعٍ في شَيءٍ[1].

﴿تَهِنُوا۟﴾: أي: تَضعُفوا، وأصلُ (وهن): يدُلُّ على ضَعْفٍ[2].

﴿ٱلسَّلْمِ﴾: أي: الصُّلْحِ والمُهادَنةِ والمُسالَمةِ، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على صِحَّةٍ وعافيةٍ[3].

﴿يَتِرَكُمْ﴾: أي: يَنقُصَكم أو يَظلِمَكم، يُقالُ: وَتَرَه يَتِرُه وَتْرًا وتِرَةً: إذا نَقَصَه،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢، ١٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١، ٢٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١، ٤٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣).

وأصلُه مِنَ الوَتْرِ: وهو الفَردُ؛ فلن يُفرِدَهم ويُجَرِّدَهم مِن أعمالِهم، بل يُوَفِّيهم إيَّاها[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُهدِّدًا الكافرينَ: إنَّ الَّذين كَفَروا وصَدُّوا النَّاسَ عن دينِ اللهِ، وخالَفوا رَسولَه مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ لهم الحَقُّ: لن يَضُرُّوا اللهَ شَيئًا بذلك، وسيُبطِلُ اللهُ أعمالَهم.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى المؤمنينَ بالمُداوَمةِ على طاعتِه وطاعةِ رسولِه، ويَنهَى عن إبطالِ العمل، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا رَسولَه، ولا تُبطِلوا أعمالَكم الصَّالِحةَ، وتُذهِبوها بالشِّركِ أو بغَيرِه مِمَّا يُحبِطُ الأعمالَ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ سبحانَه سوءَ مصيرِ مَنِ استمَرَّ على كفرِه حتَّى مات عليه، فيقولُ: إنَّ الَّذين كَفَروا وصَدُّوا النَّاسَ عن دينِ اللهِ، ثمَّ ماتوا على كُفرِهم مِن غيرِ تَوبةٍ: فلن يَغفِرَ اللهُ لهم. ثمَّ يقولُ الله تعالى للمُؤمنينَ: فلا تَضعُفوا عن قِتالِ الكافِرينَ، وتَبدَؤوهم بالصُّلحِ والمُسالَمةِ، والحالُ أنَّكم الأعلَونَ الغالِبونَ لهم، واللهُ معكم، فيَحفَظُكم ويَنصُرُكم عليهم، ولن يَنقُصَكم اللهُ شيئًا مِن ثوابِ أعمالِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

﴿يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: إنَّ الَّذين كَفَروا وصَدُّوا النَّاسَ عن دينِ اللهِ، وخالَفوا رَسولَه مُحمَّدًا؛ عِنادًا منهم مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ لهم أنَّه رَسولُ اللهِ حَقًّا، وأنَّ الإسلامَ هو دِينُه صِدقًا: لن يَضُرُّوا اللهَ شَيئًا بذلك؛ فهو غَنيٌّ عنهم، وإنَّما يَضُرُّونَ أنفُسَهم، وسيَنصُرُ اللهُ رَسولَه، ويُظهِرُ دِينَه، ويُعلِي كَلِمتَه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٦، ٣٨٧).

قال الرازي: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ ...﴾ وفيه وجْهانِ؛ أحدُهما: هم أهلُ الكِتابِ؛ قُرَيْظةُ والنَّضيرُ. والثَّاني: كفَّارُ قُرَيشٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٠).

وقال القرطبي: (يَرجِعُ إلى المنافقينَ أو إلى اليهودِ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: هم المطعمونَ يومَ بَدْرٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤).

وذهب ابنُ كثيرٍ إلى أنَّ هذه الآيةَ في المُرتدِّينَ عن الإيمانِ، وأنَّهم لن يَضُرُّوا إلَّا أنفُسَهم، ولا يُثيبُهم اللهُ على ما عَمِلوه مِنَ الصَّالحاتِ قبْلَ رِدَّتِهم. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٢).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ لقولِه: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، والسمعاني، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٦).

قال الشنقيطي: (﴿وَصَدُّواْ﴾ هنا إن قُدِّرَتْ لازِمةً فمعنَى الصُّدودِ: الكفرُ، فتكونُ كالتَّوكيدِ لقولِه: ﴿كَفَرُواْ﴾. وإن قُدِّرَتْ مُتعَدِّيةً كان ذلك تأسيسًا؛ لأنَّ قولَه: ﴿كَفَرُواْ﴾ يدُلُّ على كفرِهم في أنفُسِهم، وقولَه: ﴿وَصَدُّواْ﴾ على أنَّه مُتعَدٍّ يدُلُّ على أنَّهم حمَلوا غيرَهم على الكفرِ، وصَدُّوه عن الحقِّ، وهذا أرجَحُ ممَّا قبْلَه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٣٨٦).

وقال ابن عثيمين في فعلِ «صَدَّ»: (الأَولى أن نقولَ: إنَّه مُتعَدٍّ؛ لأنَّ مَن صدَّ غيرَه فهو عن الحقِّ أصَدُّ، لكنْ مَن صدَّ بنفْسِه فقد لا يَصُدُّ غيرَه. فالأَولى أن نحمِلَ ما جاء في القرآنِ مِن ذِكرِ الصَّدِّ على الشَّيءِ المُتعدِّي، لا على اللَّازِمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩٨).

ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٨، ٩].

﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

أي: وسيُبطِلُ اللهُ أعمالَهم؛ فلا يَنالونَ منها نَفعًا، ولا يَحصُلونَ منها على طائِلٍ(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا رَسولَه، بامتثالِ الأوامِرِ، واجتنابِ النَّواهي، بإخلاصٍ للهِ تعالى، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

أي: ولا تُبطِلوا -أيُّها المُؤمِنونَ- أعمالَكم الصَّالِحةَ، وتُذهِبوها بالشِّركِ، أو الرِّدَّةِ عن الإسلامِ، أو بغَيرِ ذلك مِمَّا يُحبِطُ الأعمالَ، ويُذهِبُ نَفْعَها وثَوابَها(١).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣).

قال ابن تيميَّة: (﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لا تَجعَلوها باطِلةً؛ لا مَنفعةَ فيها ولا ثوابَ ولا فائِدةَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٤١٧).

وقال ابن القيِّم: (إبطالُها: تَركُ الصَّبرِ على إتمامِها). ((مدارج السالكين)) (٢/ ١٥١).

وقال ابنُ عاشور: (معنى النَّهيِ عن إبطالِهم الأعمالَ: النَّهيُ عن أسبابِ إبطالِها... وتَسمَحُ محامِلُه بأن يَشملَ النَّهيَ والتَّحذيرَ عن كُلِّ ما بيَّنَ الدِّينُ أنَّه مُبطِلٌ للعَمَلِ كُلًّا أو بَعضًا، مِثلُ: الرِّدَّةِ، ومِثلُ الرِّياءِ في العَمَلِ الصَّالِحِ؛ فإنَّه يُبطِلُ ثَوابَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٧).

وقال ابن جُزَي: (﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يَحتمِلُ أربعةَ مَعانٍ؛ أحدُها: لا تُبطِلوا أعمالَكم بالكُفرِ بعدَ الإيمانِ. والثَّاني: لا تُبطِلوا حَسَناتِكم بفِعلِ السَّيِّئاتِ. ذَكَره الزَّمخشريُّ، وهذا على مذهبِ المعتزِلةِ، خِلافًا للأشعريَّةِ؛ فإنَّ مَذهَبهم أنَّ السَّيِّئاتِ لا تُبطِلُ الحسَناتِ. والثَّالثُ: لا تُبطِلوا أعمالَكم بالرِّياءِ والعُجبِ. والرَّابعُ: لا تُبطِلوا أعمالَكم بأن تَقتَطِعوها قبْلَ تَمامِها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٤).

وقد دلَّت النُّصوصُ على أنَّ حُبوطَ الحَسناتِ كلِّها لا يكونُ إلَّا بالرِّدَّةِ، وهو حبوطٌ عامٌّ، ودلَّت النُّصوصُ أيضًا على أنَّ بعضَ الحَسناتِ يحبطُ ببَعضِ السَّيِّئاتِ، وهو حُبوطٌ جُزئيٌّ. يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٦٦). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٣٧-٦٤٠).

وقال السعدي: (قوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يَشملُ النَّهيَ عن إبطالِها بعدَ عَمَلِها، بما يُفسِدُها؛ مِنْ مَنٍّ بها وإعجابٍ، وفَخرٍ وسُمعةٍ، ومِن عَمَلٍ بالمعاصي الَّتي تَضمَحِلُّ معها الأعمالُ، ويُحبَطُ أجرُها، ويَشملُ النَّهيَ عن إفسادِها حالَ وُقوعِها؛ بقَطْعِها، أو الإتيانَ بمُفسِدٍ مِن مُفسِداتِها، فمُبطِلاتُ الصَّلاةِ والصِّيامِ والحَجِّ ونَحوِها كُلُّها داخِلةٌ في هذا، ومَنهيٌّ عنها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((أَتَدرُونَ ما المُفلِسُ؟ قالوا: المُفلِسُ فينا مَن لا دِرهَمَ له ولا مَتاعَ، فقال: إنَّ المُفلِسَ مِن أُمَّتي يأتي يومَ القيامةِ بصَلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شَتَم هذا، وقَذَف هذا، وأكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَب هذا؛ فيُعطَى هذا مِن حَسَناتِه، وهذا مِن حَسَناتِه، فإنْ فَنِيَت حَسَناتُه قبْلَ أن يَقضِيَ ما عليه أُخِذَ مِن خطاياهم، فطُرِحَت عليه، ثمَّ طُرِحَ في النَّارِ!))[١].

ثمَّ بيَّن سبحانَه أنَّه لا يغفِرُ للمُصِرِّينَ على الكُفرِ، والصدِّ عن سبيلِ الله[٢]، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ٣٤﴾.

أي: إنَّ الَّذين كَفَروا وصَدُّوا النَّاسَ عن دينِ اللهِ، ثمَّ ماتوا على كُفرِهم مِن غيرِ تَوبةٍ: فلن يَغفِرَ اللهُ ذُنوبَهم؛ فلا يَستُرُها عليهم، ولا يَتجاوَزُ عن مُؤاخَذَتِهم بها[٣].

(١) رواه مسلم (٢٥٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

قال الألوسي في قولِه تعالى: ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: (امتنعَوا عن الدُّخولِ في الإسلامِ وسلوكِ طريقِه، أو صَدُّوا النَّاسَ عنه ثُمَّ ماتُوا). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٤). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٥٦٢).
=

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ * خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١، ١٦٢].

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن أنَّ عَمَلَ الكافِرِ الَّذي له صورةُ الحَسناتِ مُحبَطٌ، وذَنْبَه الَّذي هو أقبَحُ السَّيِّئاتِ غيرُ مَغفورٍ؛ بيَّنَ أنْ لا حُرمةَ له في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ، وقد أمَرَ اللهُ تعالى بطاعةِ الرَّسولِ بقَولِه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [محمد: ٣٣]، وأمَرَ بالقِتالِ بقَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾، أي: لا تَضعُفوا بعدَما وُجِدَ السَّببُ في الجِدِّ في الأمرِ، والاجتِهادِ في الجِهادِ[١].

وأيضًا لَمَّا قدَّمَ اللهُ سُبحانَه ذمَّ الكَفَرةِ، وأنَّه يُبطِلُ أعمالَهم في الدُّنيا في الحَربِ وغيرِها، وختَمَ بأنَّ عَداوَتَه لهم مُتحتِّمةٌ، لا انفِكاكَ لها، وكان ذلك موجِبًا للاجتِراءِ عليهم- سبَّبَ عنه قَولَه مُرغِّبًا لهم في لُزومِ الجِهادِ، مُحذِّرًا من تَركِه[٢]:

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾.

أي: فلا تَضعُفوا -أيُّها المُؤمِنونَ- عن قِتالِ الكافِرينَ، وتَبدَؤوا بدَعوتِهم إلى

= وقال الشوكاني: (قيَّد سبحانه عدَمَ المغفرةِ بالموتِ على الكُفرِ؛ لأنَّ بابَ التَّوبةِ وطريقَ المغفرةِ لا يُغلَقانِ على مَن كان حيًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩).

وقال ابن عطية: (وظاهرُ الآيةِ العمومُ في كلِّ ما تناولَتْه الصِّفةُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٣، ٢٦٤).

الصُّلحِ والمُسالَمةِ، والحالُ أنَّكم العالُون عليهم، القاهِرونَ الغالِبونَ لهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾.

أي: واللهُ معكم، فيَحفَظُكم ويُعينُكم، ويَنصُرُكم على الكافِرينَ(٢).

كما قال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

أي: ولن يَنقُصَكم اللهُ شيئًا مِن ثوابِ أعمالِكم، أو يُحبِطَها ويُبطِلَها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٦-٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٠-١٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٩، ٣٩٠).

قال القرطبي: (﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: وأنتم أعلَمُ باللهِ منهم. وقيل: وأنتمُ الأعلَوْن في الحُجَّةِ. وقيل: المعنى: وأنتمُ الغالِبون؛ لأنَّكم مؤمنونَ، وإنْ غلَبوكم في الظَّاهِرِ في بعضِ الأحوالِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٦).

وقال الشنقيطي: (﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: الأقهَرُون والأغلَبُون لأعدائِكم، ولأنَّكم ترجُون مِن اللهِ مِن النَّصرِ والثَّوابِ ما لا يرجُون. وهذا التَّفسيرُ في قَولِه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ هو الصَّوابُ. وتدُلُّ عليه آياتٌ مِن كتابِ الله). ((أضواء البيان)) (٧/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٢، ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ يأمُرُ تعالى المُؤمِنينَ بأمرٍ به تَتِمُّ أمورُهم، وتَحصُلُ سَعادتُهم الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ، وهو: طاعتُه وطاعةُ رَسولِه في أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه، والطَّاعةُ هي امتِثالُ الأمرِ، واجتِنابُ النَّهيِ على الوَجهِ المأمورِ به، بالإخلاصِ وتمامِ المُتابَعةِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ أي: بمعصيةِ اللهِ ورسولِه؛ فإنَّ الأعمالَ الصَّالِحةَ إذا نُويَ بها ما لا يُرضي اللهَ ورسولَه بَطَلَت، وإن كانت في الذِّروةِ مِن حُسنِ الصُّورةِ؛ فكانت صورةً بلا مَعنًى، فهي ممَّا يكونُ هَباءً مَنثورًا، مِثلُ ما فعل أولئك المُظهِرونَ للإيمانِ، المُبطِنونَ للمُشاقَقةِ، بالنِّفاقِ والرِّياءِ، والعُجبِ، والأذى ونحوِ ذلك مِنَ المعاصي، ولكِنَّ السِّياقَ بسِياقِه ولَحاقِه يدُلُّ على أنَّ الكُفرَ هو المرادُ الأعظَمُ بذلك(٢).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾

= كثير)) (٧/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٠، ٣٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٠).

تفسيرُ الإبطالِ هاهنا بالرِّدَّةِ لأنَّها أعظَمُ المُبطِلاتِ، لا لأنَّ المُبطِلَ يَنحصِرُ فيها، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فهذانِ سَببانِ عَرَضا بعدُ للصَّدقةِ فأبْطَلاها، شبَّهَ سُبحانَه بُطلانَها بالمَنِّ والأذَى بحالِ المُتصدِّقِ رِياءً في بُطلانِ صَدقةِ كلٍّ واحِدٍ منهما، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، وفي الصَّحيحِ[١] عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن تَركَ صَلاةَ العَصرِ فقد حَبِطَ عَمَلُه))[٢]، والحُبوطُ نَوعانِ: عامٌّ وخاصٌّ، فالعامُّ: حُبوطُ الحَسناتِ كلِّها بالرِّدَّةِ والسَّيِّئاتِ كلِّها بالتَّوبةِ، والخاصُّ: حُبوطُ السَّيِّئاتِ والحَسناتِ بَعضِها ببَعضٍ، وهذا حُبوطٌ مُقيَّدٌ جُزئيٌّ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ هذه الأمورُ الثَّلاثةُ كُلٌّ منها مُقتَضٍ للصَّبرِ وعَدَمِ الوَهْنِ؛ الأوَّلُ: كَونُهم الأعلَيْنَ. الثَّاني: أنَّ اللهَ معهم. الثَّالِثُ: أنَّ اللهَ لا يَنقُصُهم مِن أعمالِهم شَيئًا، بل سيُوَفِّيهم أُجورَهم، ويَزيدُهم مِن فَضْلِه، خُصوصًا عِبادةَ الجِهادِ، فإذا عَرَف الإنسانُ أنَّ اللهَ تعالى لا يُضِيعُ عَمَلَه وجِهادَه، أوجَبَ له ذلك النَّشاطَ وبَذْلَ الجُهدِ فيما يَترتَّبُ عليه الأجرُ والثَّوابُ، فكيف إذا اجتمَعَت هذه الأمورُ الثَّلاثةُ؟ فإنَّ ذلك يُوجِبُ النَّشاطَ التَّامَّ؛ فهذا مِن تَرغيبِ اللهِ لعِبادِه وتَنشيطِهم، وتَقويةِ أنفُسِهم على ما فيه صَلاحُهم وفَلاحُهم[٤].

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣) من حديث بُرَيْدَةَ رضيَ اللهُ عنه.
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٨٩).
(٣) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فيه إرشادٌ بمَنْعِ المُكَلَّفِ مِن الإعجابِ بنَفْسِه؛ وذلك لأنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ كان ذلك سبَبَ الافتِخارِ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾، يعني: ليس ذلك مِن أنفُسِكم، بل مِنَ اللهِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: قد تقَدَّمَ في أوَّلِ السُّورةِ أنَّ اللهَ تعالى أحبَطَ أعمالَهم، فكيف يُحبِطُ في المُستَقبَلِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المرادَ مِن قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: ١] في أوَّلِ السُّورةِ: المُشرِكونَ، ومِن أوَّلِ الأمرِ كانوا مُبطِلينَ، وأعمالُهم كانت على غَيرِ شَريعةٍ، والمرادُ مِن الَّذين كَفَروا هاهنا: أهلُ الكِتابِ، وكانت لهم أعمالٌ قبْلَ الرَّسولِ، فأحبَطَها اللهُ تعالى؛ بسَبَبِ تَكذيبِهم الرَّسولَ، ولا يَنفَعُهم إيمانُهم بالحَشرِ والرُّسُلِ والتَّوحيدِ، والكافِرُ المُشرِكُ أحبطَ عمَلَه؛ حيثُ لم يكُنْ على شَرعٍ أصلًا، ولا كان مُعتَرِفًا بالحَشرِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالأعمالِ هاهنا مَكايِدُهم في القِتالِ، واللهُ سيُبطِلُه؛ حيث يكونُ النَّصرُ للمُؤمِنينَ، والمرادُ بالأعمالِ في أوَّلِ السُّورةِ هو ما ظَنُّوه حَسَنةً[٢].

الوجه الثَّالثُ: أنَّ حصولَ الإحباطِ في المستقبَلِ يدُلُّ على أنَّ اللهَ مُحبِطٌ أعْمالَهم مِنَ الآنَ؛ إذ لا يُعجِزُه ذلك حتَّى يَترصَّدَ به المُستقبَلَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٦).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ * فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، في الآياتِ ترتيبٌ في غايةِ الحُسنِ؛ وذلك لأنَّ قَولَه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ يَقْتَضي السَّعيَ في القِتالِ؛ لأنَّ أمْرَ اللهِ وأمْرَ الرَّسولِ ورَدَ بالجهادِ، وقد أُمِروا بالطَّاعةِ؛ فذلك يَقْتَضي ألَّا يَضعُفَ المُكلَّفُ ولا يَكسَلَ ولا يَهِنَ ولا يَتهاوَنَ، ثم إنَّ بعدَ المُقتَضى قد يتحقَّقُ مانعٌ، ولا يتحقَّقُ المُسبَّبُ، والمانعُ مِن القتالِ إمَّا أُخرَويٌّ وإمَّا دُنيويٌّ، فذَكرَ الأُخروِيَّ، وهو: أنَّ الكافِرَ لا حُرمةَ له في الدُّنيا والآخِرةِ؛ لأنَّه لا عَمَلَ له في الدُّنيا، ولا مَغفِرةَ له في الآخِرةِ؛ فإذا وُجِد السَّببُ ولم يوجَدِ المانعُ يَنبَغي أن يتحقَّقَ المُسبَّبُ، ولم يُقَدِّمِ المانِعَ الدُّنيَوِيَّ على قَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ الأُمورَ الدُّنيَوِيَّةَ لا يَنبَغي أن تكونَ مانِعةً مِنَ القِتالِ، فلا تَهِنوا فإنَّ لكمُ النَّصرَ، ثمَّ قال تعالى بعدَ ذلك: المانِعُ الدُّنيوِيُّ مع أنَّه لا يَنبَغي أن يكونَ مانعًا ليس بموجودٍ أيضًا؛ حيث أنتمُ الأعلَوْنَ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أنَّ ما جاءَت به السُّنَّةُ جاء في القُرآنِ؛ لأنَّ اللهَ أَمَرَنا أنْ نُطيعَ اللهَ ورَسولَه[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ هذه الآيةُ والَّتي في (البَقَرةِ) في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧] مُقيَّدَتانِ لِكُلِّ نَصٍّ مُطلَقٍ فيه إحباطُ العَمَلِ بالكُفرِ؛ فإنَّه مُقيَّدٌ بالموتِ عليه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ يُبَيِّنُ أنَّ اللهَ لا يَغفِرُ الشِّركَ، وما دونَ ذلك يَغفِرُه إن شاءَ(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يَستَدِلُّ الفُقَهاءُ بهذه الآيةِ على تحريمِ قَطْعِ الفَرْضِ، وكراهةِ قَطْعِ النَّفلِ، مِن غيرِ مُوجِبٍ لذلك، وإذا كان اللهُ قد نهى عن إبطالِ الأعمالِ فهو أمرٌ بإصلاحِها وإكمالِها وإتمامِها، والإتيانِ بها على الوَجهِ الَّذي تَصلُحُ به عِلمًا وعَمَلًا(٢).

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الهُدْنةَ لا تَجوزُ مع قُوَّةِ الإسلامِ وكَثرةِ أهلِه، واستِعلائِهم على أعدائِهم، ولا يُضرَبُ لها مُدَّةٌ صَغيرةٌ ولا كَبيرةٌ(٣).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ لا يُنافي السَّلْمَ المأذونَ فيه بقَولِه تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]؛ فإنَّه سَلْمٌ طَلَبه العَدُوُّ، فليست هذه الآيةُ ناسِخةً لآيةِ الأنفالِ، ولا العَكسُ، ولِكُلٍّ حالةٌ خاصَّةٌ؛ ومُقَيَّدٌ بكَونِ المُسلِمينَ في حالةِ قُوَّةٍ ومَنَعةٍ وعِدَّةٍ وعُدَّةٍ، بحيثُ يَدْعونَ إلى السَّلمِ رَغبةً في الدَّعَةِ، فإذا كان للمُسلِمينَ مَصلحةٌ في السَّلْمِ، أو كان أخَفَّ ضُرًّا عليهم؛ فلَهم أن يَبتَدِئوا إذا احتاجوا إليه، وأن يُجيبوا إليه إذا دُعُوا إليه، وقد صالَحَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المُشرِكينَ يومَ الحُدَيبيَةِ؛ لِمَصلحةٍ ظَهَرت فيما بَعدُ، وصالَحَ المُسلِمونَ في غَزْوِهم إفريقيَّةَ أهلَها، وانكفَؤوا راجِعينَ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٥٣). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٣).

مِصرَ[١].

٩- المؤمِنُ عزيزٌ غالِبٌ، مُؤَيَّدٌ مَنصورٌ، مَكفِيٌّ مَدفوعٌ عنه بالذَّاتِ أين كانَ، ولو اجتَمعَ عليه مَن بأقطارِها؛ إذا قام بحقيقةِ الإيمانِ وواجباتِه ظاهِرًا وباطِنًا، وقد قال اللهُ تعالى للمُؤمِنينَ: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، فهذا الضَّمانُ إنَّما هو بإيمانِهم وأعمالِهم الَّتي هي جُندٌ مِن جُنودِ اللهِ يَحفظُهم بها، ولا يُفرِدُها عنهم ويَقتَطِعُها عنهم فيُبطِلَها عليهم، كما يَترُ الكافِرينَ والمُنافِقينَ أعمالَهم؛ إذْ كانت لِغَيرِه، ولم تكُنْ مُوافِقةً لأمْرِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ على أنَّ المَعنِيَّ بالَّذين كَفَروا هنا الَّذين كَفَروا المَذْكورون في أوَّلِ هذه السُّورةِ وفيما بعْدُ مِن الآياتِ الَّتي جَرى فيها ذِكرُ الكافِرينَ، أي: الكُفَّارِ الصُّرحاءِ؛ عاد الكلامُ إليهم بعْدَ الفَراغِ مِن ذِكرِ المُنافِقينَ الَّذين يُخْفُون الكُفْرَ عَوْدًا على بَدْءٍ؛ لِتَهوينِ حالِهم في نُفوسِ المُسلِمينَ؛ فبَعْدَ أنْ أخبَرَ اللهُ أنَّه أضَلَّ أعْمالَهم، وأنَّهم اتَّبَعوا الباطلَ، وأمَرَ بضَرْبِ رِقابِهم، وأنَّ التَّعْسَ لهم، وحقَّرَهم بأنَّهم يَتمتَّعون ويأْكُلون كما تَأكُلُ الأنعامُ، وأنَّ اللهَ أهلَكَ قُرًى هي أشدُّ منهم قُوَّةً، ثمَّ جَرى ذِكرُ المُنافِقين بعْدَ ذلك؛ ثُنِيَ عِنانُ الكلامِ إلى الَّذين كَفَروا أيضًا؛ لِيُعرِّفَ اللهُ المُسلِمينَ بأنَّهم في هذه المآزِقِ الَّتي بيْنَهم وبيْنَ المُشرِكين لا يَلحَقُهم منْهم أدْنى ضُرٍّ، ولِيَزيدَ وَصْفَ الَّذين كَفَروا بأنَّهم شاقُّوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فالجُملةُ استِئنافٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣١). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٢).

ابتِدائيٌّ، وهي تَوطئةٌ لِقَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾[١] [محمد: ٣٥].

- قولُه: ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ المُشاقَّةُ: المُخالَفةُ، كُنِّيَ بالمُشاقَّةِ عن المُخالَفةِ؛ لأنَّ المُستقِرَّ بشِقٍّ مُخالِفٌ لِلْمستقِرِّ بشِقٍّ آخَرَ، فكِلاهما مُخالِفٌ؛ فلذلك صِيغَتْ منه صِيغةُ المُفاعَلةِ[٢].

- قولُه: ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ انتصَبَ ﴿شَيْـًٔا﴾ على المَفعولِ المُطلَقِ لـ﴿يَضُرُّوا۟﴾، والتَّنوينُ لِلتَّقْليلِ، أي: لا يَضُرُّون في المُستقبَلِ اللهَ أقلَّ ضُرٍّ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [محمد: ٣٢]، وبيْن جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [محمد: ٣٤]، وُجِّهَ به الخِطابُ إلى المُؤمنينَ بالأمْرِ بطاعةِ اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَجنُّبِ ما يُبطِلُ الأعمالَ الصَّالحةَ؛ اعتبارًا بما حُكِيَ مِن حالِ المُشرِكين في الصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ، ومُشاقَّةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

- والآيةُ مِن الاحتِباكِ[٥]: ذَكَرَ الطَّاعةَ أوَّلًا دليلًا على المَعصيةِ ثانيًا، والإبطالَ ثانيًا دليلًا على الصِّحَّةِ أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه أمَرَ بمَبدأِ السَّعادةِ، ونَهى عن نِهايةِ الفَسادِ ثانيًا؛ لأنَّه أعظَمُ في النَّهيِ عن الفسادِ؛ لِمَا فيه من تَقبيحِ صورتِه، وهَتكِ سَريرتِه[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢٦، ١٢٧).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٤٦).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٠، ٢٦١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ هذه الآيةُ تَكمِلةٌ لِآيةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ إلخ [محمد: ٣٢]؛ لأنَّ تلك مَسوقةٌ لِعَدَمِ الاكتِراثِ بمَشاقِّهم، ولِبَيانِ أنَّ اللهَ مُبطِلٌ صَنائعَهم، وهذه مَسوقةٌ لِبَيانِ عَدَمِ انتِفاعِهم بمَغفرةِ اللهِ إذا ماتوا على ما همْ عليه مِن الكُفْرِ؛ فهي مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتِدائيًّا(١).

- واقتِرانُ خَبرِ المَوصولِ بالفاءِ في قَولِه: ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه أُشرِبَ مَعنى الشَّرطِ؛ فلا يُرادُ به ذو صِلةٍ مُعيَّنٌ، بلِ المُرادُ كلُّ مَن تَحقَّقتْ فيه ماهيَّةُ الصِّلةِ، وهي الكُفْرُ والمَوتُ على الكُفْرِ(٢).

٤- قَولُه تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ الفاءُ في ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ لِلتَّفريعِ على ما تَقرَّرَ في نُفوسِ المُؤمِنينَ مِن خَذْلِ اللهِ تعالَى المُشرِكين بما أخبَرَ به مِن أنَّه أضَلَّ أعْمالَهم، وقدَّرَ لهم التَّعْسَ، وبما ضَرَب لهم مِن مَصائرِ أمْثالِهم مِن الَّذين مِن قبْلِهم؛ دَمَّرَهم اللهُ وأهْلَكَهم ولم يَجِدوا ناصِرًا، وما وَعَدَ به المُؤمِنينَ مِن النَّصْرِ عليهم، وما أمَرَهم به مِن قِتالِهم، وبتَكلُّفِه للمؤمنينَ بالولايةِ، وما وَعَدَهم مِن الجَزاءِ في دارِ الخُلْدِ، وبما أتْبَعَ ذلك مِن وَصْفِ كَيدِ فَريقِ المُنافِقين للمؤمنينَ وتَعهُّدِهم بإعانةِ المُشرِكين، وذلك ممَّا يُوجِسُ منه المؤمِنون خِيفةً؛ إذ يَعلَمون أنَّ أعْداءً لهم مُنبَثُّونَ بيْنَ ظَهْرانَيْهم؛ فعلَى ذلك كلِّه فُرِّعَ نَهْيُهم عن الوَهنِ وعن المَيلِ إلى الدَّعةِ، ووعَدَهم بأنَّهم المُنتصِرونَ، وأنَّ اللهَ مُؤيِّدُهم. ويَجوزُ أنْ يُجعَلَ التَّفريعُ على أقرَبِ الأخبارِ المُتقدِّمةِ، وهو قَولُه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٣) [محمد: ٣١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢٩، ١٣٠).

- وعُطِفَ ﴿وَتَدْعُوٓاْ﴾ على ﴿تَهِنُواْ﴾؛ فهو مَعمولٌ لِحَرْفِ النَّهيِ، والمعنى: ولا تَدْعوا إلى السَّلْمِ، وهو عطْفُ خاصٍّ على عامٍّ مِن وَجْهٍ؛ لأنَّ الدُّعاءَ إلى السَّلْمِ مع المَقْدِرةِ مِن طَلَبِ الدَّعةِ لِغَيرِ مَصلحةٍ. وإنَّما خُصَّ بالذِّكْرِ؛ لِئلَّا يُظَنَّ أنَّ فيه مَصلحةَ استِبْقاءِ النُّفوسِ؛ فإنَّ المُشرِكين يَومَئذٍ كانوا مُتكالِبينَ على المُسلِمينَ، فرُبَّما ظَنَّ المُسلِمون أنَّهم إنْ تَداعَوا معهم لِلسَّلْمِ أَمِنوا منهم، فعَرَّفَهم اللهُ أنَّ ذلك يَعودُ عليهم بالمَضرَّةِ؛ لأنَّه يَحُطُّ مِن شَوكَتِهم في نَظَرِ المُشرِكين، فيَحسَبونهم طَلَبوا السَّلْمَ عن ضَعفٍ، فيَزيدُهم ذلك ضَراوةً عليهم، وتَستخِفُّ بهِمْ قَبائلُ العَرَبِ بعْدَ أنْ أخَذوا مِن قُلوبِهم مَكانَ الحُرْمةِ، وتَوقُّعِ البأْسِ، ولهذا المَقصدِ الدَّقيقِ جمَعَ بيْن النَّهْيِ عن الوَهنِ، والدُّعاءِ إلى السَّلْمِ، وأَتْبَعَ بقَولِه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾، وهي حالٌ مُقرِّرةٌ لِمَعنى النَّهيِ، مَرْدوفةٌ بما يَزيدُها تَقْريرًا وتَبْيينًا، أي: لا يَنْبغي أنْ تَتضرَّعوا إلى الصُّلْحِ، والحالُ أنتمْ قاهِرون عليهم، وأنَّ اللهَ ناصِرُكم عليهم في الدُّنيا، وخاذِلُهم، وهو مُوفِّي أُجورِكم في العُقْبى. والخَبرُ مُستعمَلٌ في الوَعْدِ(١).

- و﴿ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ مُبالَغةٌ في العُلُوِّ، وهو هنا بمَعْنى الغَلَبةِ والنَّصرِ(٢).

- وصِيغَ كلٌّ مِن جُملتَيْ ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ جُملةً اسميَّةً؛ لِلدَّلالةِ على ثَباتِ الغَلَبِ لهم، وثَباتِ عِنايةِ اللهِ بهم(٣).

- وقَولُه: ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ وَعْدٌ بتَسديدِ الأعمالِ ونَجاحِها، وهو عكْسُ قَولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد:

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣١، ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١]، فكُنِّيَ عن تَوفيقِ الأعمالِ ونَجاحِها بعَدَمِ وَتْرِها، أي: نَقْصِها؛ للعِلْمِ بأنَّه إذا كان لا يَنقُصُها فبالحَرِيِّ ألَّا يُبطِلَها، أي: ألَّا يُخيِّبَها. ويَجوزُ أيضًا أنْ يُرادَ منه صَريحُه، أي: لن يَنقُصَكم ثَوابَكم على أعْمالِكم، أي: الجِهادِ المُستفادِ مِن قَولِه: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾، فيُفِيدَ التَّحريضَ على الجِهادِ بالوعْدِ بأجْرِه كامِلًا(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٢).

الآيات (٣٦-٣٨)

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَيُحْفِكُمْ﴾: أي: يُجهِدْكم بمَسألةِ أموالِكم، والإحفاءُ في السُّؤالِ: الإلحاحُ في المُطالَبة، وهو مِثلُ الإلحاف سَواءً؛ فإنَّ الإحفاءَ والإلحافَ: المُبالَغةُ وبُلوغُ الغايةِ في كُلِّ شَيءٍ، وأصلُه يدُلُّ على الاستِقصاء[١].

﴿تَتَوَلَّوْا﴾: أي: تُعرِضوا؛ فالفِعلُ (ولَّى) إذا عُدِّي بـ(عن) لَفظًا أو تقديرًا -كما هنا- اقتَضى معنى الإعراضِ والتَّركِ، وإذا عُدِّي بنَفْسِه اقتَضى مَعنى الوِلايةِ والقُرْبِ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا حقيقةَ الدُّنيا، ومُزهِّدًا فيها: إنَّما حَقيقةُ الحياةِ الدُّنيا أنَّها لَعِبٌ لا فائدةَ فيه، ولَهوٌ يَتلهَّى النَّاسُ به؛ فلا تَضعُفوا عن الجِهادِ بسَبَبِها، وإنْ تُؤمِنوا وتَتَّقوا اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نَواهيه، يُعْطِكم ثوابَ إيمانِكم، ولا يَسْأَلْكم أموالَكم؛ إنْ يَسألْكم اللهُ أموالَكم، ويُجهِدْكم بمَسألةِ أموالِكم في سَبيلِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٣)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥١).

تعالى؛ تَمتَنِعوا مِن إخراجِها بُخلًا بها، ويُظهِرِ اللهُ ما في بواطِنِكم مِن أحقادٍ!

ثُمَّ يَدعو اللهُ تعالى إلى الإنفاقِ في سبيلِه، فيقولُ: ها أنتم هؤلاء تُدْعَونَ لِتُنفِقوا أموالَكم في جِهادِ أعداءِ اللهِ، ونُصرةِ دينِه؛ فمِنكم مَن يَبخَلُ بمالِه، ومَن يَبخَلْ بمالِه فإنَّما يُمسِكُ عن نَفْسِه الثَّوابَ والخَيرَ الجَزيلَ، واللهُ الغنيُّ عن كُلِّ ما سِواه، وأنتم الفُقَراءُ إليه، وإنْ تُعرِضوا -أيُّها النَّاسُ- عمَّا أمَرَكم اللهُ تعالى به، يَستبدِلْ بكم قَومًا غَيرَكم، ثمَّ لا يَكونوا أمثالَكم في الإعراضِ عن دينِ اللهِ، والبُخلِ بالأموالِ، بل يَكونونَ أطْوَعَ للهِ منكم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ أمَرَ المُؤمِنينَ بتَركِ المعاصي لأنَّها مُحبِطةٌ لثَوابِ الأعمالِ الصَّالِحةِ، وأمَرَهم بالتَّشميرِ عن ساعِدِ الجِدِّ للجِهادِ ومُقاتَلةِ الأعداءِ نُصرةً لِدينِه، ووعَدَهم بأنَّ اللهَ ناصِرُهم وهم الأعلَوْنَ، فلا يَنْبَغي لهم أن يَطلُبوا المُهادَنةَ مِن العُدُوِّ خَوَرًا وجُبنًا خَوفًا على الحياةِ ولَذَّاتِها - أكَّدَ هذا المعنى فأبانَ أنَّه لا يَنبَغي لكم -أيُّها المُؤمِنون- الحِرصُ على الدُّنيا؛ فإنَّها ظِلٌّ زائِلٌ، وعَرَضٌ غيرُ باقٍ[١].

وأيضًا لَمَّا أتَمَّ العِلَّةَ الأُولى الصَّادَّةَ عن الطَّاعةِ، أقبَلَ على الثَّانيةِ القائدةِ إلى المعصيةِ، المُلائمةِ للشَّهوةِ، المُبطِلةِ للأعمالِ، المُوجِبةِ للتَّهاوُنِ المُؤدِّي إلى عَدَمِ المَغفِرةِ؛ فقال[٢]:

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٣).

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

أي: إنَّما حَقيقةُ الحياةِ الدُّنيا أنَّها لَعِبٌ لا فائدةَ منه، ولَهوٌ يَتلهَّى النَّاسُ به؛ فلا تَضعُفوا عن الجِهادِ بسَبَبِها(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).
قال الرازيُّ: (اللَّعِبُ: ما تَشتَغِلُ به ولا يكونُ فيه ضَرورةٌ في الحالِ، ولا مَنفعةٌ في المآلِ، ثمَّ إنِ استعمَلَه الإنسانُ، ولم يَشغَلْه عن غيرِه، ولم يَثْنِه عن أشغالِه المُهمَّةِ؛ فهو لَعِبٌ، وإن شَغَلَه ودَهَشَه عن مُهمَّاتِه فهو لَهوٌ، ولهذا يُقالُ: مَلاهٍ لآلاتِ الملاهي؛ لأنَّها مَشْغلةٌ عن الغيرِ، ويقالُ لِما دونَه لَعِبٌ، كاللَّعِبِ بالشِّطْرَنجِ والحَمامِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٢).
وقال أبو هلالٍ العسكريُّ: (الفرقُ بيْنَ اللَّهْوِ واللَّعِبِ: أنَّه لا لَهْوَ إلَّا لَعِبٌ، وقد يكونُ لَعِبٌ ليس بلَهْوٍ...، وإنَّما اللَّهوُ لَعِبٌ لا يُعقِبُ نفعًا. وسُمِّيَ لَهْوًا؛ لأنَّه يَشغَلُ عما يَعني، مِن قولِهم: ألْهاني الشَّيءُ، أي: شغَلَني، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]). ((الفروق اللغوية)) (ص: ٢٥٤).
وقال السعديُّ: (لَعِبٌ في الأبدانِ، ولهوٌ في القُلوبِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).
وقال ابنُ عاشور: (اللَّعِبُ: الفِعلُ الَّذي يريدُ به فاعِلُه الهَزْلَ دونَ اجتِناءِ فائدةٍ، كأفعالِ الصِّبيانِ في مَرَحِهم. واللَّهوُ: العمَلُ الَّذي يُعمَلُ لِصَرفِ العَقلِ عن تَعَبِ الجِدِّ في الأُمورِ، فيَلهو عمَّا يَهتَمُّ له، ويَكِدُّ عَقْلَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٣).
وقيل: اللَّهوُ واللَّعبُ يَشتركانِ في أنَّهما اشتغالٌ بما لا يَعني، مِن هوًى أو طَرَبٍ، حرامًا أو لا. قيل: واللَّهوُ أعَمُّ مُطلَقًا، فاستِماعُ الملاهي لَهْوٌ لا لَعِبٌ. وقيل: اللَّعِبُ ما قُصِد به تعجيلُ المسَرَّةِ والاستِرواحُ به، واللَّهوُ ما شغَل مِن هوًى وطرَبٍ وإن لم يُقصَدْ به ذلك. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٩٩)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٩/ ٤٩٧).

وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾.

أي: وإنْ تُؤمِنوا وتَتَّقوا اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نَواهيه، ومِن ذلك القيامُ بجِهادِ أعدائِه؛ يُعْطِكم ثوابَ إيمانِكم وتَقواكم بما هو خيرٌ لكم مِن لَعِبِ الدُّنيا ولَهْوِها(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾.

أي: وإنْ تُؤمِنوا وتَتَّقوا فإنَّ اللهَ لا يَسْألُكم أموالَكم(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٣).

قال البقاعيُّ: (﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي: تَخافوا فتَجعَلوا بيْنَكم وبيْنَ غَضَبِه سُبحانَه وقايةً؛ مِن جِهادِ أعدائِه، ومُقاساةِ لَفحِ إيقادِ الحُروبِ، وحَرِّ الأمرِ بالمعروفِ، وإنفاقِ الأموالِ في ذلك؛ فتَكونوا جادِّينَ فتَترُكوا اللَّهْوَ واللَّعِبَ القائدَينِ إلى الكُفرِ ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ أي: اللهُ الَّذي فعَلْتُم ذلك مِن أجْلِه في الدَّارِ الآخرةِ ﴿أُجُورَكُمْ﴾). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣، ٣٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٤، ١٣٥).

قيل: المرادُ: لا يَسألُكم رَبُّكم أموالَكم، ولكِنَّه يُكَلِّفُكم توحيدَه، ويَطلُبُ منكم الإيمانَ به، وجِهادَ عدوِّه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٦٩٢١). =

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: إنْ يَسأَلْكم اللهُ أموالَكم، ويُجهِدْكم بمسألتِها، ويُلِحَّ عليكم؛ تَمتَنِعوا مِن إخراجِها بُخلًا بها، ويُظهِرِ اللهُ حينَئذٍ ما في بواطِنِكم مِن أحقادٍ(١).

= وقيل: المعنى: لا يَسألكم مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أموالَكم أجرًا على تبليغِ الرِّسالةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٤٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٥).

وقيل: المعنى: لا يأمُركم بإخراجِ جميعِ أموالِكم، بل يأمُرُ ببَعضِها. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: القرطبيُّ، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

وقيل: المعنى: أنَّ اللهَ تعالى غَنيٌّ عنكم، لا يَطلُبُ منكم شيئًا، وإنَّما فرَضَ عليكم الصَّدَقاتِ مِن الأموالِ مُواساةً لإخوانِكم الفُقَراءِ؛ لِيَعودَ نَفعُ ذلك عليكم، ويَرجِعَ ثَوابُه إليكم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣، ٣٢٤).

وممَّن جمَع بيْنَ القولَينِ الأخيرَينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٦).

وقيل: المعنى: لا يسألكم أموالَكم، وإنَّما يَسألُكم أموالَه؛ لأنَّه أَملَكُ لها، وهو المُنعِمُ بإعطائِها. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٠٧).

وقال ابنُ عاشور: (عَطفُ ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ لِمُناسَبةِ قَولِه: ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾، أي: إنَّ اللهَ يتفضَّلُ عليكم بالخَيراتِ، ولا يحتاجُ إلى أموالِكم... فقَولُه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ يفيدُ بعُمومِه وسِياقِه معنى: لا يَسألْكم جميعَ أموالِكم، أي: إنَّما يَسألُكم ما لا يُجحِفُ بكم... ويجوزُ أن يُفيدَ أيضًا معنى: أنَّه لا يُطالِبُكم بإعطاءِ مالٍ لِذاتِه؛ فإنَّه غنيٌّ عنكم، وإنَّما يأمُرُكم بإنفاقِ المالِ لِصالِحِكم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٤، ١٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

قال ابنُ عاشور: (الإحفاءُ... عَبَّرَ به هنا عن الجَزمِ في الطَّلَبِ، وهو الإيجابُ، أي: فيُوجِبْ عليكم بَذْلَ المالِ، ويَجعَلْ على مَنْعِه عُقوبةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٥).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾: يُظهِرْ بُغضَكم وعَداوتَكم لله تعالى، ولِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمؤمنينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: السمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، وابنُ الجوزي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٧)، =

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ تعالى ببُخْلِهم لو سُئِلوا أموالَهم، دَلَّ عليه بمَن يَبخَلُ منهم عَمَّا سألَه منهم، وهو جزءٌ يَسيرٌ جِدًّا مِن أموالِهم(١)!

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ﴾.

أي: إنَّكم تُدْعَونَ لِتُنفِقوا أموالَكم في جِهادِ أعداءِ اللهِ، ونُصرةِ دينِه؛ فمِنكم مَن يَبخَلُ بمالِه فلا يُنفِقُه في سَبيلِ اللهِ، كما أمرَه اللهُ تعالى(٢).

= ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥١).

وقيل: المرادُ: يُظهِرِ الإحفاءُ ما في بواطِنِكم مِن البُخلِ والإمساكِ، والنِّفاقِ والشَّكِّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤).

قال الرازي: (﴿وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾ يعني: بسَبَبِه؛ فإنَّ الطَّالِبَ -وهو النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم- وأصحابَه يَطلُبونَكم، وأنتم لِمَحبَّةِ المالِ وشُحِّ الأنفُسِ تمتَنِعونَ، فيُفضي إلى القِتالِ، وتَظهَرُ به الضَّغائِنُ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

قال الرازي: (يعني: قد طلبتُ منكم اليسيرَ فبَخِلْتُم، فكيف لو طَلَبْتُ منكم الكُلَّ؟!). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٣).

وقال السعدي: (والدَّليلُ على أنَّ اللهَ لو طَلَبَ منكم أموالَكم وأحفاكم بسُؤالِها أنَّكم تَمتَنِعونَ منها: أنَّكم ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على هذا الوَجهِ الَّذي فيه مَصلحتُكم الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال سُبحانَه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠].

وقال جلَّ شأنُه: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾.

أي: ومَن يبخَلْ بمالِه فلا يُنفِقْه في سَبيلِ اللهِ، فإنَّما يَحرِمُ نَفْسَه مِنَ الثَّوابِ والخَيرِ الجَزيلِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

قال ابنُ عطية: (قَولُه: ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ يَحتَمِلُ مَعنَيينِ:

أحدُهما: فإنَّما يَبخَلُ عن شُحِّ نَفْسِه.

والآخَرُ: أن يكونَ بمنزلةِ «على»؛ لأنَّك تقولُ: بَخِلتُ عليك وبَخِلتُ عنك، بمعنى: أمسَكْتُ عنك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٣).

وقال الألوسي: (يُقالُ: بَخِلتُ عليه وبَخِلتُ عنه؛ لأنَّ البُخلَ فيه معنى المَنعِ، ومعنى التَّضييقِ على مَن مُنِعَ عنه المعروفُ، والإضرارِ؛ فناسَبَ أن يُعَدَّى بـ «عن» للأوَّلِ، وبـ «على»: للثَّاني، وظاهِرٌ أنَّ مَن مَنَع المعروفَ عن نَفْسِه فإضرارُه عليها؛ فلا فَرْقَ بيْنَ اللَّفظَينِ في الحاصِلِ). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾.

أي: واللهُ الغنيُّ عن كُلِّ ما سِواه، وأنتم الفُقَراءُ إليه دائِمًا في جميعِ أحوالِكم؛ فلا حاجةَ له إلى أموالِكم، وإنَّما أمَرَكم بالنَّفَقةِ في سَبيلِه؛ لِيَعودَ نَفعُ ذلك إليكم[(١)].

﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾.

أي: وإنْ تُعرِضوا -أيُّها النَّاسُ- عمَّا أمَرَكم اللهُ تعالى به، يَجِئْ بقَومٍ غَيرِكم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

= ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٦).

وممَّن ذهب إلى الاحتمالِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٩).

وممَّن ذهب إلى الاحتمالِ الثَّاني: الزمخشريُّ، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٩).

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾.

أي: ثمَّ لا يَكُنِ الَّذينَ نأتي بهم أمثالَكم في الإعراضِ عن دينِ اللهِ، والبُخلِ بالأموالِ، بل يَكونونَ أطوَعَ للهِ منكم(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾ هذا تزهيدٌ منه تعالى لعِبادِه في الحياةِ الدُّنيا، بإخبارِهم عن حقيقةِ أمْرِها بأنَّها لَعِبٌ ولَهوٌ، فلا يزالُ العَبدُ لاهِيًا في مالِه وأولادِه وزينتِه، ولَذَّاتِه مِنَ النِّساءِ والمآكِلِ والمَشارِبِ، والمساكِنِ والمجالِسِ، والمناظِرِ والرِّياساتِ، لاعِبًا في كُلِّ عمَلٍ لا فائِدةَ فيه، بل هو دائِرٌ بيْنَ البَطالةِ والغَفلةِ والمعاصي، حتَّى يَستكمِلَ دُنياه، ويَحضُرَه أجَلُه، فإذا هذه الأمورُ قد ولَّت وفارَقَت، ولم يَحصُلِ العَبدُ منها على طائِلٍ! بل قد تَبَيَّنَ له خُسرانُه وحِرمانُه، وحضَرَ عذابُه، فهذا مُوجِبٌ للعاقِلِ الزُّهْدَ فيها، وعَدَمَ الرَّغبةِ فيها والاهتِمامِ بشَأنِها، وإنَّما الذي ينبغي أن يَهتَمَّ به ما ذَكَرَه بقَولِه تعالى: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ بأنْ تُؤمِنوا باللهِ وملائِكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ، وتَقوموا بتَقواه الَّتي هي مِن لوازِمِ الإيمانِ ومُقتَضَياتِه، وهي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

العَمَلُ بمَرْضاتِه على الدَّوامِ، مع تَرْكِ مَعاصيه؛ فهذا الَّذي يَنفَعُ العبدَ، وهو الَّذي يَنبغي أن يُتنافَسَ فيه، وتُبذَلَ الهِمَمُ والأعمالُ في طلَبِه، وهو مقصودُ اللهِ تعالى مِن عِبادِه؛ رَحمةً بهم ولُطفًا؛ لِيُثيبَهم الثَّوابَ الجَزيلَ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يُبيِّنُ أنَّ ذلك البُخلَ ضَرَرُه عائِدٌ إليه؛ فلا تَظُنُّوا أنَّهم لا يُنفِقونَه على غَيرِهم، بل لا يُنفِقونَه على أنفُسِهم! فإنَّ مَن يَبخَلُ بأُجرةِ الطَّبيبِ وثَمَنِ الدَّواءِ وهو مريضٌ، لا يَبخَلُ إلَّا على نَفْسِه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تَحذيرٌ مِن أنْ يَحمِلَهم حُبُّ لَذائِذِ العَيشِ على الزَّهادةِ في مُقابَلةِ العَدُوِّ، والدَّعوةِ إلى مُسالَمتِه؛ فإنَّ ذلك يُغْري العَدُوَّ بهم[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وَصْفُها باللَّعِبِ واللَّهوِ هو على أنَّها وما فيها مِمَّا يَختَصُّ بها: لَعِبٌ، وإلَّا ففي الدُّنيا ما ليس بلَعِبٍ ولا لَهوٍ، وهو الطَّاعةُ، وأمرُ الآخِرةِ وما جرى مَجراه[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ دلَّت إضافةُ الأضغانِ إلى ضَميرِهم على أنَّ كُلَّ إنسانٍ يَنطوي بما له مِنَ النُّقصانِ على ما جُبِلَ عليه مِن الأضغانِ، إلَّا مَن عَصَم الرَّحيمُ الرَّحمنُ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٣).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٧).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ هذا دليلٌ على أنَّ العَبدَ إذا مَنَع في مواسِمِ الخَيراتِ سِوى الزَّكاةِ: لم يَخرُجْ مِن البُخلِ؛ فحَدُّ البُخلِ: مَنعُ ما يرتَضيه الشَّرعُ والمروءةُ؛ فلا بُدَّ مِن مُراعاةِ المُروءةِ، ورَفعِ قُبحِ الأُحدُوثةِ(١)، وذلك يختَلِفُ باختِلافِ الأشخاصِ(٢).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾، وهذا مُراعاةٌ لحالِ كثيرٍ يومَئذٍ بالمدينةِ كانوا حَديثي عَهدٍ بالإسلامِ، وكانوا قد بَذَلوا مِن أموالِهم للمُهاجِرين فيسَّرَ اللهُ عليهم بأنْ لم يَسألْهم زِيادةً على ذلك، وكان بيْنَهم كثيرٌ مِن أهلِ النِّفاقِ يَترصَّدونَ الفُرَصَ لِفتنَتِهم... وهذا يُشيرُ إليه عَطفُ قَولِه: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾؛ أي: تَحدُثُ فيكم أضغانٌ؛ فيكونُ سُؤالُه أموالَكم سببًا في ظُهورِها، فكأنَّه أظهَرَها، وهذه الآيةُ أصلٌ في سَدِّ ذَريعةِ الفَسادِ(٣).

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ قَولُه: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟﴾ إلخ. كيف مَوقِعُه بعدَ قَولِه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾؛ فإنَّ الدَّعوةَ للإنفاقِ عَينُ سُؤالِ الأموالِ؟ فكيف يُجمَعُ بيْنَ ما هنا وبيْنَ قَولِه آنِفًا: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾؟

الجوابُ: يجوزُ أن يكونَ المعنى: تُدْعَونَ لِتُنفِقوا في سَبيلِ اللهِ؛ لِتَدفَعوا أعداءَكم عنكم، وليس ذلك لِيَنتفِعَ به اللهُ، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]، ونَظمُ الكَلامِ يَقتَضي أنَّ هذه دَعوةٌ للإنفاقِ في الحالِ،

(١) الأُحدُوثة: ما يُتحدَّثُ به. ويُقالُ: صار فُلانٌ أُحدوثةً، أي: أكثَروا فيه الأحاديثَ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٤/ ٢٣٤)، ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٥).

وليس إعلامًا لهم بأنَّهم سيُدْعَونَ للإنفاقِ، فهو طَلَبٌ حاصِلٌ، ويُحمَلُ ﴿تُدْعَوْنَ﴾ على معنى: تُؤمَرونَ، أي: أمْرَ إيجابٍ.

ويجوزُ أن يُحمَلَ ﴿تُدْعَوْنَ﴾ على دَعوةِ التَّرغيبِ، فتَكونَ الآيةُ تَمهيدًا للآياتِ المُقتَضيةِ إيجابَ الإنفاقِ في المُستقبَلِ، مِثلُ آيةِ: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١] ونحوِها.

ويجوزُ أن يكونَ إعلامًا بأنَّهم سيُدعَونَ إلى الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ فيما بعدَ هذا الوَقتِ، فيكونَ المضارِعُ مُستَعمَلًا في زَمَنِ الاستِقبالِ، والمضارِعُ يحتَمِلُه في أصلِ وَضْعِه(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ أنَّ اللهَ غنيٌّ عن العِبادِ، فلو ارتدَّ قَومٌ جاء اللهُ بقَومٍ آخَرينَ(٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ تهديدٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يُخالِفَ أوامِرَه أحَدٌ(٣).

٩- قد وقَعَ الإخبارُ مِن اللهِ تعالى عن قُدرَتِه سُبحانَه على تَبديلِهم بخَيرٍ منهم، وفي بعضِها تبديلُ أمثالِهم، وفي بعضِها استِبدالُه قومًا غيرَهم، ثمَّ لا يكونوا أمثالَهم؛ فهذه ثلاثةُ أُمورٍ يجِبُ مَعرِفةُ ما بيْنَها مِن الجَمعِ والفَرقِ.

فحيث وقَعَ التَّبديلُ بخَيرٍ منهم فهو إخبارٌ عن قُدرَتِه على أن يَذهَبَ بهم ويأتيَ بأطوَعَ وأتْقى له منهم في الدُّنيا، وذلك قولُه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾؛ يعني: بل يَكونوا خيرًا منكم. قال مُجاهِدٌ: (يَستبدِلُ بهم مَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٥).

شاء مِن عِبادِه فيَجعَلُهم خَيرًا من هؤلاءِ، فلم يَتوَلَّوْا بحمدِ اللهِ ولم يَستبدِلْ بهم).

وأمَّا ذِكرُه تَبديلَ أمثالِهم ففي سورةِ (الواقِعةِ) وسورةِ (الإنسانِ)؛ فقال في (الواقِعةِ): ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، وقال في سورةِ (الإنسانِ): ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨]؛ قال كثيرٌ مِن المُفسِّرينَ: المعنى: أنَّا إذا أرَدْنا أن نَخلُقَ خَلقًا غَيرَكم لم يَسبِقْنا سابِقٌ، ولم يَفُتْنا ذلك، وفي قَولِه: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ إذا شِئْنا أهْلَكْناهم وأتَيْنا بأشْباهِهم فجَعلْناهُم بَدلًا منهم، قيلَ: قَومًا مُوافِقينَ لهم في الخَلقِ مُخالِفين لهم في العَمَلِ؛ وعلى هذا فتَكونُ هذه الآياتُ نظيرَ قولِه تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]، فيكونُ استِدلالًا بقُدرتِه على إذهابِهم والإتيانِ بأمثالِهم على إتْيانِه بهم أنفُسِهم إذا ماتوا[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تَعليلٌ لِمَضمونِ قَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ...﴾ [محمد: ٣٥] الآيةَ. وافْتِتاحُها بـ(إنَّ) مُغْنٍ عن افتِتاحِها بِفاءِ التَّسبُّبِ[٢].

- والمُرادُ بـ﴿الْحَيَاةُ﴾ أحوالُ مُدَّةِ الحَياةِ؛ فهو على حَذْفِ مُضافَينِ[٣].

- والإخبارُ عن الحياةِ بأنَّها ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ على مَعنَى التَّشبيهِ البَليغِ؛ شُبِّهَت

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٦-١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٣٣).

أحْوالُ الحياةِ الدُّنيا باللَّعِبِ واللَّهوِ في عَدَمِ تَرتُّبِ الفائدةِ عليها؛ لأنَّها فانيةٌ مُنْقضيةٌ، والآخِرةَ هي دارُ القَرارِ(١).

- قولُه: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ عطف على قَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ [محمد: ٣٥]؛ تَذْكيرًا بأنَّ امتِثالَ هذا النَّهيِ هو التَّقْوى المَحمودةُ، ولأنَّ الدُّعاءَ إلى السَّلْمِ قدْ يكونُ الباعثُ عليه حُبَّ إبقاءِ المالِ الَّذي يُنفَقُ في الغَزْوِ، فذُكِّروا هنا بالإيمانِ والتَّقوى؛ لِيَخْلَعوا عن أنفُسِهم الوَهنَ؛ لأنَّهم نُهُوا عنه وعن الدُّعاءِ إلى السَّلْمِ؛ فكان الكفُّ عن ذلك مِن التَّقوى، وعُطِفَ عليه أنَّ اللهَ لا يَسْأَلُهم أمْوالَهم إلَّا لِفائدتِهم وإصلاحِ أُمورِهم؛ ولذلك وقَعَ بعْدَه قَولُه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾(٢) [محمد: ٣٨].

- والمَقصودُ مِن الجُملةِ قَولُه: ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾، وأمَّا ذِكْرُ ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾؛ فلِلاهتِمامِ بأمْرِ الإيمانِ. ووُقوعُ ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ في حيِّزِ الشَّرْطِ مع كَونِ إيمانِهم حاصِلًا يُعَيِّنُ صَرْفَ مَعنى التَّعليقِ بالشَّرْطِ فيه إلى إرادةِ الدَّوامِ على الإيمانِ؛ إذ لا تَتقوَّمُ حَقيقةُ التَّقْوى إلَّا مع سَبْقِ الإيمانِ(٣).

- والظَّاهرُ أنَّ جُملةَ ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ إدْماجٌ(٤)، وأنَّ المَقصودَ مِن جَوابِ الشَّرْطِ هو جُملةُ ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾، وعُطِفَ ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ لِمُناسَبةِ قَولِه: ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾، أي: إنَّ اللهَ يَتفضَّلُ عليكم بالخَيراتِ، ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٤).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٨١).

يَحتاجُ إلى أمْوالِكم، وكانتْ هذه المُناسباتُ أحسَنَ رَوابطَ لِنَظْمِ المَقصودِ مِن هذه المَواعِظِ؛ لأنَّ البُخْلَ بالمالِ مِن بَواعِثِ الدُّعاءِ إلى السَّلْمِ(١).

- وقولُه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ يُفِيدُ بِعُمومِه وسِياقِه معنًى: لا يَسْأَلْكم جَميعَ أمْوالِكم -على قولٍ-، أي: إنَّما يَسألُكم ما لا يُجحِفُ بكم؛ فإضافةُ (أمْوالٍ) -وهو جمْعٌ- إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ تُفِيدُ العُمومَ؛ فالمَنفيُّ سُؤالُ إنفاقِ جَميعِ الأمْوالِ، فالكَلامُ مِن نَفْيِ العُمومِ لا مِن عُمومِ النَّفْيِ(٢) بقَرينةِ السِّياقِ، وما يَأْتي بعْدَه من قَولِه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ. ويَجوزُ أنْ يُفيدَ أيضًا معنًى: أنَّه لا يُطالِبُكم بإعْطاءِ مالٍ لِذَاتِه؛ فإنَّه غَنيٌّ عنكم، وإنَّما يَأمُرُكم بإنفاقِ المالِ لِصالِحِكم، كما قال: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]. وهذا تَوطِئةٌ لقَولِه بعْدَه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨]، أي: ما يكونُ طَلَبُ بَذْلِ المالِ إلَّا لِمَصْلحةِ الأُمَّةِ، وأيَّةُ مَصلحةٍ أعظَمُ مِن دَفْعِها العَدُوَّ عن نفْسِها؛ لئلَّا يُفسِدَ فيها ويَستعبِدَها(٣)؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٤).

(٢) نفيُ العُمومِ: هو نفْيُ الشُّمولِ والعُمومِ، أي: الكُلِّيَّة، وهو يَصدُقُ بنفيِ واحدٍ، وقد يكونُ بالثُّبوتِ في البعضِ، تقولُ: لم أفعَلْ كلَّ ذلك؛ فتُفيدُ أنَّك نفَيْتَ عن نفْسِك فِعلَ الجميعِ، وهذا لا يَلزَمُ منه نفْيُ البعض. بخِلافِ عُمومِ النَّفيِ؛ فإنَّ النَّفيَ فيه يَلزَمُ منه نفْيُ الكلِّ والبعضِ، كقولِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ فإنَّها نفيٌ لجميعِ الآلِهةِ سِوى اللهِ تعالَى؛ فعُمومُ النَّفيِ إنَّما يَصدُقُ بنَفْيِ الجميعِ. يُنظر: ((المحصول)) للرازي (٢/ ٣٤٣)، ((تلقيح المفهوم في تنقيح صيغ العموم)) للعلائيِّ (ص: ٦٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٢٤)، ((خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني)) لمحمد محمد أبو موسى (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٤، ١٣٥).

- والآيةُ مِن الاحتِباكِ[١]: ذِكرُ الحَياةِ الدُّنيا واللَّهوِ واللَّعِبِ أوَّلًا دالٌّ على ذِكرِ الآخِرةِ والجِدِّ ثانيًا، وذِكرُ الإيمانِ والتَّقْوى ثانيًا دالٌّ على حَذفِ ضِدِّهما: الكُفرانِ والجُرأةِ أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّ تَصويرَ الشَّيءِ بحالِ الصَّبيِّ والسَّفيهِ أشدُّ في الزَّجرِ عنه عندَ ذَوي الهِمَمِ العاليةِ، وذِكرُ الأجرِ المُرتَّبِ على الخَوفِ -الَّذي هو فِعلُ الحَزَمةِ- أعْوَنُ على ترْكِه[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ تَعْليلٌ لِنَفْيِ سُؤالِه إيَّاهم أمْوالَهم[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾

- قولُه: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ مُركَّبٌ مِن كَلمةِ (ها)؛ تَنبيهٌ في ابتِداءِ الجُملةِ، ومِن ضَميرِ الخِطابِ، ثُمَّ مِن (ها) التَّنبيهِ الدَّاخلةِ على اسْمِ الإشارةِ المُفيدةِ تأْكيدَ مَدلولِ الضَّميرِ. وكرَّرَ هاءَ التَّنبيهِ للتأكيدِ[٤].

- وقولُه: ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ ومُؤكِّدٌ لِمَا سبَقَ؛ لاتِّحادِ مُحصِّلِ مَعناهما؛ فإنَّ دعوتَهم للإنفاقِ هو سُؤلُ الأموالِ منهم، وبُخْلَ ناسٍ منهم هو معنَى عدمِ الإعطاءِ المذكورِ مُجمَلًا أوَّلًا. أو صِلةٌ لـ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ على أنَّه بمعنَى (الذين)[٥].

(١) تقدَّم تعريفه (ص: ٤٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٦).

- وقولُه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ إمَّا مَسوقٌ مَساقَ التَّوبيخِ، أو مَساقَ التَّنبيهِ على الخطَأِ في الشُّحِّ ببَذْلِ المالِ في الجِهادِ الَّذي هو مَحَلُّ السِّياقِ؛ لأنَّ المرْءَ قد يَبخَلُ بُخلًا ليس عائدًا بُخْلُه عن نفْسِه[1].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) قَصرُ قَلْبٍ[2] باعتبارِ لازِمِ بُخلِه؛ لأنَّ الباخلَ اعتقَدَ أنَّه مَنَع مَن دَعاهُ إلى الإنفاقِ، ولكنَّ لازِمَ بُخْلِه عاد عليه بحِرْمانِ نَفْسِه مِن مَنافِعِ ذلك الإنفاقِ[3].

- قَولُه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ هو كالدَّليلِ على الآيةِ المُتقدِّمةِ[4].

- وفي قَولِه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ حَذَف القِسمَ الآخَرَ وهو (ومِنْكُم مَنْ يَجودُ)؛ لأنَّ المُرادَ الاستِدلالُ على ما قبْلَه مِن البُخلِ[5].

- ولإرادةِ التَّوكيدِ ذَيَّلَ الكلامَ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾، وجعَلَه كالاعتِراضِ بيْنَ المتقابِلَينِ، وهُما قولُه: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ وقولُه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾[6].

- والتَّعريفُ باللَّامِ في ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ و﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ تَعريفُ الجِنْسِ، وهو فيهما مُؤذِنٌ بكَمالِ الغِنى ونِهايةِ الفقْرِ، ولَمَّا وقعَا خبَرَينِ وهما مَعرِفتانِ أفادَا الحصرَ، أي: قَصْرَ الصِّفةِ على المَوصوفِ، أي: قَصْرَ جِنسِ الغنيِّ على اللهِ، وقصْرَ جِنسِ الفُقراءِ على المُخاطَبين بـ (أَنْتُمْ) وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ[7] فيهما،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٦، ١٣٧).
(٢) تقدَّم تعريفه (ص: ٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٦).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٩).
(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٨).
(٧) تقدَّم تعريفه (ص: ٩٥).

مُرتَّبٌ على دَلالةِ (أل) على معنَى كمال الجِنسِ؛ فإنَّ كمالَ الغِنَى للهِ لا محالةَ لعُمومِه ودوامِه، وإنْ كان يَثبُتُ بعضُ جِنسِ الغِنَى لغيرِه. وأمَّا كمالُ الفَقرِ للنَّاسِ فبالنِّسبةِ إلى غِنَى اللهِ تعالَى وإنْ كانوا قد يَغنُونَ في بعضِ الأحوالِ، لكن ذلك غِنًى قليلٌ وغيرُ دائمٍ[1].

- والاسْتِبْدالُ: التَّبديلُ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمبالَغةِ. ومَفعولُ الاستِبْدالِ ﴿قَوْمًا﴾، أو المُستبدَلُ به مَحذوفٌ، دلَّ على تَقديرِه قَولُه: ﴿غَيْرَكُمْ﴾؛ فعُلِمَ أنَّ المُستبدَلَ به هو ما أُضِيفَ إليه (غَير)؛ لِتَعيُّنِ انْحصارِ الاستِبدالِ في شَيئينِ، فإذا ذُكِرَ أحدُهما عُلِمَ الآخَرُ، والتَّقديرُ: يَستبدِلْ قومًا بكم؛ لأنَّ المُستعمَلَ في فِعلِ الاستبدالِ والتَّبديلِ أنْ يكونَ المَفعولُ هو المُعوَّضَ، ومَجرورُ الباءِ هو العِوَضَ، وعُدِلَ في هذه الآيةِ عن ذِكرِ المَجرورِ بالباءِ مع مَفعولِ الاستِبْدالِ؛ لِلإيجازِ، والمعنى: يَتَّخذ قَومًا غيرَكم لِلإيمانِ والتَّقْوى، وهذا لا يَقْتضي أنَّ اللهَ لا يُوجِدُ قَومًا آخَرينَ إلَّا عِندَ ارتدادِ المُخاطَبينَ، بلِ المُرادُ: أنَّكم إنِ ارْتَددْتُم عن الدِّينِ كان للهِ قَومٌ مِن المؤمنينَ لا يَرْتَدُّون، وكان للهِ قَومٌ يَدْخُلون في الإيمانِ ولا يَرتَدُّون[2].

- وحَرْفُ (ثُمَّ) في قَولِه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ لِلتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لإفادةِ الاهتِمامِ بِصِفةِ الثَّباتِ على الإيمانِ وعُلُوِّها على مُجرَّدِ الإيمانِ، أي: ولا يَكونوا أمْثالَكم في التَّولِّي[3].

- وهذه الجُملةُ ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ مَعطوفةٌ بـ(ثُمَّ) على جُملةِ ﴿يَسۡتَبۡدِلۡ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٨، ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٣٩).

قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾؛ فهي في حَيِّزِ جَوابِ الشَّرطِ، والمَعطوفُ على جَوابِ الشَّرطِ بحَرْفٍ مِن حُروفِ التَّشريكِ يَجوزُ جَزْمُه على العطْفِ، ويَجوزُ رَفْعُه على الاسْتِئنافِ. وقد جاء في هذه الآيةِ على الجزْمِ، وجاء في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] على الرَّفْعِ. وإيثارُ الجَزْمِ هنا وإيثارُ الاستِئنافِ هنالك لِمُناسَبةٍ حَسَنةٍ؛ وهي أنَّ هاهنا لا يَكونُ مُتعلِّقًا بالتَّولِّي؛ لأنَّهم إنْ لم يَتولَّوا يَكونونَ ممَّن يأْتِي اللهُ بهم على الطَّاعةِ، وإنْ تَولَّوا لا يَكونونَ مِثلَهم؛ لِكَونِهم عاصِينَ، وكَونِ مَن يَأْتي اللهُ بهم مُطِيعينَ، وأمَّا هنالك فسواءٌ قاتَلوا أو لَمْ يُقاتِلوا لا يُنصَرون؛ فلمْ يكُنْ لِلتَّعليق -أي: بالشَّرْطِ- هُنالك وَجْهٌ، فرُفِعَ بالابتِداءِ، وهاهنا جُزِمَ لِلتَّعليقِ. ويُزادُ أنَّ الفِعلَ المَعطوفَ على الجزاءِ في آيةِ (آل عِمْرانَ) وقَعَ في آخِرِ الفاصِلةِ الَّتي جَرَتْ أخَواتُها على حَرْفِ الواوِ والنُّونِ، فلو أُوثِرَ جَزْمُ الفِعلِ لَأُزِيلَت النُّونُ، فاختَلَّت الفاصِلةُ(١).



تمَّ بحمدِ اللهِ المجلدُ الثَّالثُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ الرَّابعُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الفَتْحِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٩، ١٤٠).



الفهرس







الفهرس

سُورةُ الجاثيةِ

سُورةُ الأحقافِ

سورةُ مُحمَّدٍ

تم الصف والإخراج في مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠